WACINY LAREDJ

الطبعة الخامسة

واسيني

سيرة المنتهى

عشتها... كما اشتهتني



واسيني الأعرج

سِيرَةُ المُنْتَهَى

عِشْتُهَا... كَمَا اشْتَهَتْنِي

رواية

رواية سيرية

منشورات بغدادي

BAGHDADI

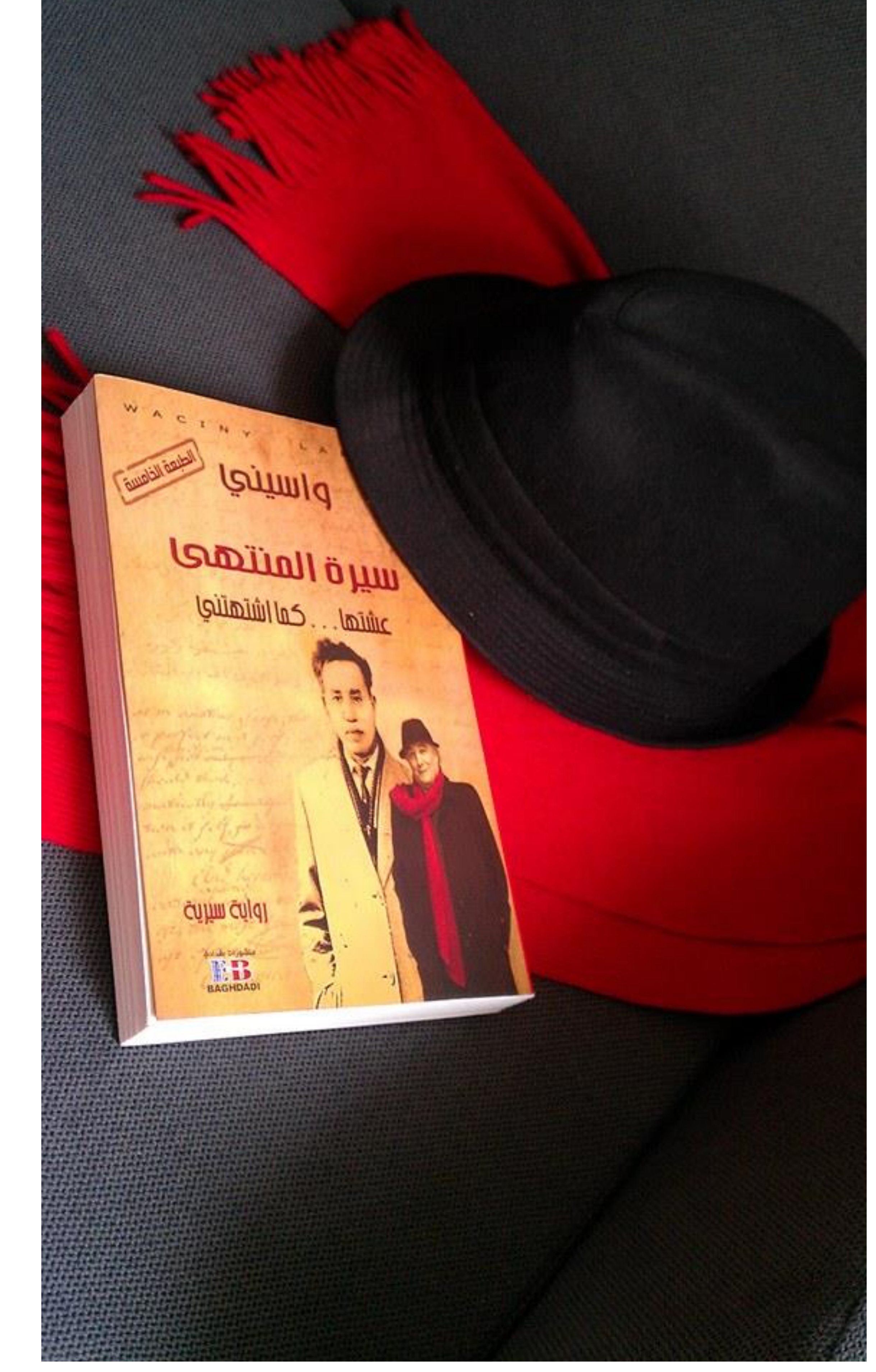
واسيني

سِيرَةُ المُنْتَهَى



عِشْتُهَا... كَمَا اشْتَهَتْنِي

دار الآداب


الطبعة الخامسة
واسيني
سيرة المنتهى
عشتها... كما اشتهتني
رواية سيرية
BAGHDADI

تنويه:

نشرت الصيغة الأولى من هذه الرواية السّيريّة الكترونيا بالتزامن مع كتابتها على مدار ستة أشهر بمعدل فصل كل أسبوع و ذلك من خلال صفحة الفيسبوك التي تحمل نفس الاسم:

"واسيني الأعرج. سيرة المنتهى/عشتها كما اشتهتني"

فشكرا للأستاذ واسيني الأعرج الذي وافق على خوض هذه التجربة الجميلة و تحمل تبعاتها من التزام بموعد النشر الأسبوعي و الرد على المتدخلين و إثراء الصفحة من خلال المشاركة في سجالات نقدية و ثقافية حول الكتابة السيرية رغم وقته الضيق و أسفاره الكثيرة و كذا تكرمه بفتح ألبوماته وأرشيفه أمام القراء مسهلا علينا محاولة التوثيق المتواضعة التي حاولنا القيام بها تماشيا مع طبيعة النص المنشور و التي شملت خاصة مراحل شبابه و طفولته الأولى, الكثير من الصور رآها القراء لأول مرة على هذه الصفحة.

قبل أن يكتمل الكتاب و ينشر ورقيا في عدد من الطبعات:

– طبعة جزائرية عن دار بغدادي (نوفمبر2014)

– طبعة ثانية مرفقة بمجلة دبي الثقافية عدد (نوفمبر 2014)

– طبعة عربية صادرة عن دار الآداب البيروتية يتبرع الكاتب بمداخيلها للاطفال المرضى بالسرطان (ديسمبر2014)

– طبعة فلسطينية صادرة عن دار الاهلية وقعها الروائي واسيني الاعرج في ثلاث مدن فلسطينية : رام الله، القدس و طولكرم و تبرع بمداخليها لدعم أدب صندوق أدب الأسرى الذي يتولى نشر مخطوطات الأسرى الفلسطينيين في سجون المحتل الصهيوني (أفريل 2015)

شاركونا بآرائكم، قراءاتكم و اقتراحاتكم و تواصلوا مع الكاتب من خلال صفحة:

"واسيني الأعرج. سيرة المنتهى/عشتها كما اشتهتني"

سِيرَةُ المُنْتَهَى

واسيني الأعرج

سِيرَةُ المُنْتَهَى

عِشْتُهَا... كَمَا اشْتَهتْنِي

رواية سيرية

A Mitra, même si tu n'existes que dans mes livres, mes rêves et, surtout, dans mon cœur. Tu es la seule à qui je peux raconter sans avoir peur, mon histoire, notre histoire[1].

[1] إلى ميترا حتى ولو لم يكن لك أي وجود إلاّ في كتبي، وأحلامي وفي قلبي تحديدا. أنتِ الوحيدة التي أستطيع أن أروي لها قصتي، قصّتنا، من دون أن أخافَ.

مِيتْرا الحَبِيبة... متعبٌ. إنَّهَا عَلاَمَاتُ النّهَاياتِ.

للقلب سلطانه. اخْتَرتكِ أنتِ، من بين مِئاتِ الأشْخَاصِ والشّخْصِياتِ، لتكوني أنا، ولأرويَ لكِ آخرَ الحِكَاية كمَا تراءتْ لي، قبل أن أضَع النّورَ الأخير الذِي بقي متّقِدا في ذاكِرَتي، في عمقِ عيْنَيْكِ وقَلبِك. **استمعي إليَّ قليلا لأنّها المرّة الأخِيرة التِي أفتحُ لك فيها لغتِي وسِرّي وحواسِّي، وظِلالَ رُوحِي.**

لقد انْسَحَبَ العُمْر يَا قَلبِي، ونزَلَ اللّيلُ بسرعة، وغَابتْ أشِعَّةُ الشَّمسِ الأخِيرَة وجفَّتِ الغَيْمَاتُ القَلِيلَةُ، وحلّتْ محَلّهَا سَكِينَة القلب. إنّهَا تُمْطِر من وراء النّوافذ البحرية. أتذكّر همس معلّمي في السّحر والخطيئة والإشارة، *فِرْنَانْدُو بيسْوا*: *مَاذا فَعَلتُ بالحياة؟* ومَاذا فَعَلَتْ بِي أيْضاً، أجِيبُ بِلاَ نَدَمٍ ولاَ خَوْفٍ؟ ألتفتُ نَحْوَكِ للمَرَّةِ الأخِيرَةِ، تَبْدُو مَلاَمِحُكِ غَائِمَة قَليِلا، أقبّل يدَكِ وجبْهتَك، وأبْحَثُ فِي فَوْضَى الكَلِمَاتِ عَنْ جُمْلَتِي التِي حَمَلتُها لكِ قبْلَ أنْ أنطفئ في مَسَالِكِ النُّور ،وعَتْمَةِ المُكَابَدةِ وشَطَطِ المُبْهَمِ: ***ميترا... مِيمَا الصَّغِيرَة. شُكْرًا... شُكْرًا لَكِ وَحْدَكِ. لَوْلاَكِ، مَا كَانتْ هَذِه السِّيرة، وَمَا كَانَ هَذا المُنْتَهى.***

واسينـي

"مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى".

قرآن كريم/ سورة النجم. الآيات من 11 إلى17.

قال : هذه سدرة المنتهى ، وإذا أربعة أنهار : نهران باطنان ، ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذان يا جبريل ؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات. ثم رُفع لي البيت المعمور.

حديث نبوي شريف/ *صحيح البخاري، عن حديث المعراج.*

فبينا أنا نائم، وسرّ وجودي متهجد قائم، جاءني رسول التوفيق، ليهديني سواء الطريق ومعه براق الإخلاص، عليه لُبَدُ الفوز ولجام الخلاص، فكشف عن سقف محلي، وأخذ في نقضي وحلي، وشق صدري بسكين السكينة، وقيل لي: تأهب لارتقاء الرتبة المكينة.

الشيخ الأكبر، محي الدين ابن عربي/ *الإسرا إلى المقام الأسرى. أو كتاب المعراج.*

منذ لحظات غادرت هذه الظلال، ومشيتُ على هدي خطى دليلي.

دانتي أليغري، *الكوميدية الإلهية*، النشيد الخامس.

اسمع يا جدي قصة حياتي وإذا كنتَ ترى أنّي حاربتُ حقيقة برفقتك، وجُرِحتُ بدون أن يعلم أحد بآلامي، وأنّي لم أعطِ ظَهرِي أبدا للعدوّ، امنَحْنِي بركاتِك ورضَاك.

نيكوس كزانتزاكي/ *تقرير إلى غريكو.*

حبيبي ومولاي الجليل،

سيدي علي برمضان إلكوخو دي ألميريا، المُسَمّى الروخو.

تستحق أكثر من هذا يا جدي الأعظم. أنحني الآن لظلّك العالي الذي لبستُه طوال حياتي، وتخفّيتُ فيه كلما أصابتني قسوة اليأس، ومسّ الخوف والبرد ظهري. أقبّل آثار خطواتك القلقة التي تركتَها على الساحل المنسي، وعلى صخور جبل النّار، وسلكتُها بعدك، أحيانا بشكل أعمى، وفي أحيان أخرى بثقة القلب. أنا أيضا يا جدّي النبيل، تعلمتُ من دمك وجروحك، ومن خطواتي المرتعشة.

ولأني مازلتُ مشدوها بغيمة خيرك التي شملتني بدفئها ولفّتني داخلها، سأكتبك بالشكل الذي ينقلني نحوك بلا وسيط. سيغضب مني الكثيرون من سلالات اليقين والجريمة، سيقولون عنّي أني ولّيت وجهي نحو غيب أكبر منّي، وأني وطئته بلا إذن من كهنة اليقين، وسيلعنني الأئمة وحرّاس النوايا في كل صلواتهم، وتنفرني القبيلة. ليس مهما، لن ألتفت صوب أيّ منهم. إليك انتمي يا جدي ونحوك أوجّه بصري وقلبي.

سعيد بهذا العمر الذي عشتُه قبل أن أعود إلى تربة المنتهى، وأتماهى فيها إلى الأبد. لم أكن، استثناء عظيما في هذه الدنيا يا جدي، لكني لم أمرّ عليها كغيمة جافة.

لك وحدك يا جدّي أوجّه خوفي وطفولتي العارية. لو وجدتَ عمري كلّه، شبيهًا بلحظة واحدة، من حياتك السخية، سأكون أسعد حفيد لك وأنا أتهيأ للقائك بقلب صغير، وشوق كبير إلى التربة التي شربت من دمك وعرقك، وشكلتني كما اشتهتْ، ولكنّي كتبتُها كما اشتهيتُ.

1- جَدّي الرُّوخُو

خَطَواتُ الدّهشَة عَلَى الجَبَلِ الأَعْظَمِ

1- رُؤْيَا التَّمَاهِي الأَخِيرِ

انطفأ كل شيء وسادت السكينة كما في بدء الخليقة.

تغيرت الأشياء... ولم يتغير شيء. سوى تلك الرعشة القلقة التي لم يكن يراها أحد غيري.

لمحتُه قبل أن أغمض عيني للمرة الأخيرة، وقبل أن أطوي *كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى أو كتاب المعراج،* لمولاي الصاعد في معراجه نحو فتنة سماء الاعتلاء، شيخي الأكبر، محي الدين ابن عربي، الذي اقتحم سدرة المنتهى، قبل أن يقف عاجزا أمام ما يغشاها من النور والبهاء. سمعت نداءاته الخفية يوم طلب الملأ الأعلى وقيل له بينك وبينه حضرة الكرسي. فطار على أجنحة الكرسي ليغرق في نور حضرة قاب قوسين أو أدنى. اللوح الأعلى. ثم في ظلمة أوحى، حيث تتكشف معميات الأمور ومخبآت الأسرار.

نام كتاب المعراج على صدري، وغرقت في سكينة التيه بلا هدي ولا نجم.

كان سيدي ومولاي شيخي الأكبر يفتح المسالك بعصاه الخفية كمن يبحث عن بيض الحجل تحت نبتات الدوم والديس والحلفاء والشوك العملاق وحقول الشعير والقمح، ويمنحني سلسلة من العلامات والمفاتيح والخرق الخضراء التي لم أكن أفهم معناها، لكني أيضا كنتُ مدركا أنه لا يفعل ذلك مع كل الناس. كان ينظر أولا إلى عمق عيني قبل أن يمنحني ما يريده، ثم يمضي قليلا حتى يتخفّى في عمق الرذاذ والندى والضباب، ثم يلتفت من جديد نحوي، بالكاد أراه. يتأملني كأنه يراني للمرة الأولى. لا يتكلم. يواصل فقط سيره. لم أساله عما يجب فعله بالعلامات التي وضعها في كفي وقلبي وعينيّ، لكنني استلمتها كلها وتركتُني أمشي بلا توقف ولا خوف، وأنحدر عميقا في مخبآت الأسرار، ومعميات الروح، وتيه الأبدية التي دفنها في عمق ذاكرتي. لقد اقتفيت خطا سيدي بصعوبة، ولكن حتى النهاية. حتى غام كل ما كان يحيط بي وانتفى أو كاد، ولم أعد أرى إلا نورا خفيا تسرب من السماء ليخترق كل شيء فيّ ويهزّ يقيني في التربة التي كنتُ أقف عليها، ويريني أرضا معشقة بمبهم آخر كان عليّ اختراقه بلا تردد ولا حسابات، وإلا لن أكون أنا. لم أفكر لحظتها في الهرب،

ليس شجاعة، فرعشة الفناء اعترت أعماقي في لحظة من اللحظات، لكن مخافة أن أخيب ثقة سيدي فيَّ، وظنه الكبير الذي من خلاله اصطفاني نحو معراجه الخفي. أكبر هزيمة للذات، هي أن نخسر من نحب ونعشق بالتفاتة غير محسوبة. لا أريد أن أضيّع شيئا من مشهد التلاشي الذي اعتراني فجأة.

لم يكن ذلك اليوم الذي سلّمت فيه أمري للتربة والأعشاب والماء والهواء، لا مشهودا ولا استثناء. كان أكثر من العادي. لم يحدث أي شيء غريب في الكون. كل شيء سار وفق نظامه المعتاد. لم أكن حدثا غريبا في الكون.

نفس الوتيرة الاعتيادية، بلا قلق ولا خوف ولا أسئلة كثيرة. لقد واصلت الحياة دورتها وكأن شيئا لم يكن. غابت الشمس، ثم القمر. توالى الليل والنهار في رتابة مقلقة لم تتحرك أبدا عن نظامها منذ بدء الخليقة. تنافست الرياح والأمطار على غسل المدينة وفراشي وحنيني إلى أمكنة أكلها الوقت القاسي. تعرت أشجار الصفصاف العملاقة من أوراقها وبعض أسرارها، كما يحدث في أي خريف، واستكانت عواصف الشمال كلها في عمق لغة كانت تكبر كل يوم فيّ، بدون أن أتمكن من فهم رموزها ومعمياتها.

لا شيء تغير أبدا. جاء الليل محملا بأنين غامض كما تعودنا عليه منذ زمن غير محسوب. غابت الأمواج ثم تلتها البحار التي تخفت تحت كتل الضباب الثقيلة. ثم غابت الوجوه التي قضيت معها زمنا جميلا أو حزينا. وغابت مع هذا كله ظلال الأشياء بحيث أصبحت بلا أشكال، وحل محل كل شيء بياض يلمع أحيانا مبرزا خطوطا بشتى الألوان التي تشبه أجنحة الفراشات قبل أن يأفل عمرها في ربيع واحد، أو تتحول إلى رماد من وراء قنديل زيتي، وفي أحيان أخرى يخفت نهائيا حتى يصبح رديفا لسكينة بلا لون ولا حياة لولا تنفسي المتقطع في الركن المظلل من البيت القديم الذي يغطيه رذاذ موج هارب كان يتمزق بعنف عند حواف البحر الصخرية. فأنا منذ أن عرفت البحر، أقمت على حوافه ولم أغادره حتى هذه اللحظة المبهمة التي تطوح نحو مبهم لم أكن قادرا على فهمه.

لم يحدث شيء غريب أبدا، واستمر كل شيء في دورانه كعجلة عربة قديمة تسير باستقامة، وكلما واجهتها صخرة أو مرتفع، مالت قليلا ثم عادت إلى حركتها المعتادة.

لم أكن أعرف أحدا باستثناء تلك الغيمة التي كانت تحلق على عيني من حين لآخر، تقترب كالطائر الجارح لدرجة أن أجزم أنها ستسقط عليَّ كقطعة حديد ثقيلة وباردة، فأغمض عيني وأكز على أسناني لأتحمل وقع الضربة والصدمة الجافة، ولكنها سرعان ما تنسحب عاليا مخلفة وراءها فراغا وهدوءا غريبين. أفتح عيني من جديد لأرى ما يحيط بي، ولكن لا شيء إلا البياض المعمي للأبصار. لا سماء، لا أرض، لا جرأة، لا خوف، لا فرح، لا موت، لا حياة.
لا أنا.

أحاول أن أمد يدي نحو الأشياء الصغيرة التي تعبر أمامي خارج كل جاذبية. أغمض عينيّ في هدأة الأنفاس الأخيرة. تنتابني الأشكال الغامضة التي لا سلطان لي عليها. أسمع التراتيل الآتية من عمق سحيق لمعبد قديم على الحافة الأخرى التي كلما ابتعدت عنها، وجدتها أمامي. أسترق السمع. يتناهى إليّ نشيد عبراني قديم حزين جدا، كنتُ أسمعه في صغري من *نينوت وممات*، اللتين جاءتا إلى قريتنا من جبال الناظور البربرية، وعاشتا عند جدي الذي وضع تحت تصرفهما بيتا وأغطية وحبا. لم يسألهما أبدا عن دينهما ولا حتى عن وجهتهما النهائية، كان يعرف فقط أن المجاعة هي التي رمتهما على حافة هذا الباب. ويدرك أن لا أحد يترك عشه الذي بناه بمجرد الرغبة في الرحيل أو السفر. وظلتا هناك حتى انطفأتا الواحدة بعد الأخرى. الثانية بسبب الشيخوخة، والأولى وُجِدت ميته في المنحدر، ليس بعيدا عن السكك الحديدية، حيث يعبر القطار القديم يومين في الأسبوع محملا بالبضائع ونداءات غامضة كنت كلما سمعتها شعرت برجلي الصغيرتين ترتجفان من شدة الخوف. وُجِدت *نينوت* مرمية في المنحدر، نصف جسدها تحلل والنصف الآخر أكلته الضواري والذئاب المتوحشة، ولا أحد عرف سر موتها، بل لا أحد بحث عنه. يوم كبرتُ بسرعة وتساءلت بعفوية عن سرّ نهايتها، جاءني الرد جافا من أبناء أعمامي: *شوف قدامك واسكت. يكفي أن*

جدك ارتكب حماقة *دينية لا تُغتفر وحولتنا إلى عرّة الناس، وعلينا تصحيحها وإرجاع الأمور إلى نصابها. امش ولا تلتفت. تعرف قصة عمودا؟* لم أعرف كيف أسكت ولا كيف أمشي من دون أن ألتفت نحو المنحدر، لهذا ضيعت في وقت مبكر فرصة أن أكون إنسانا غير مشكوك في هويته مثل جدي. كانت الأحقاد قد بدأت تحتل ذاكرة الناس. الجد الذي أحبهما كان قد انسحب من هذه الدنيا في وقت مبكر. كلما شعرتا بالفقدان، كانتا تجلسان في باحة البيت الواسعة وتبدآن في دندنة نشيج يخترق الأعماق بقوة، كنت أشعر نحوه بخوف لأني كنت أشم فيه رائحة بخور الموت والفناء. لكن مع الزمن تعودت عليه، لدرجة أن تلبسني الرهبة والحنين لشيء غامض كان قد انسحب مع انسحاب عطر جدي ورائحة خيره من البيت العائلي الكبير. أسمعه في هذه بوضوح. نشيد شجي. لا أخاف منه، بل أشعر ببعض الراحة الغريبة وهو يسحبني نحوه بهدوء ونعومة، مخلفا مكانه لأصوات المقرئين وهم ينشدون نشيدا قرآنيا مثقلا بالغياب، لم أسمعه إلا في قريتي، مسكونا بموسيقى الحنين والسكينة ونداءات خفية عرفتها من لغتها القديمة ومن أصوات منشديها.

لم تنغلق حواسي لا على خوفها ولا على مبهمها، ولا حتى على أسئلتها التي ظلت زمنا طويلا معلقة، بل استمرّت حية، وقويت أكثر. وصلتني ارتعاشات التراتيل القرآنية التي كانت تأتي من الصالة الكبيرة التي تجمّع فيها الناس للوداع الأخير. شعرت براحة وأنا أسمع سورة يس. تذكرت فجأة ما كان يقوله جدي سيدي محمد، أبو والدي، من قصص كانت تغريني وتغويني بشكل عجيب لدرجة أني عقدت صداقات عجيبة مع الملائكة التي كان يروي سيرها كأنه يعرفها. كنت أراها مثلا بعيون واسعة، وقلوب مفتوحة، تشبه ألبستها قوس قزح. وعندما تمشي، تكون محاطة بهالة من النور. يتدحرج وراءها دوما، قط بفرو نمر إفريقي، وعينين خضراوين حادتين. يترقبها من دون أن يقترب منها. كنت الوحيد الذي يراه، في يدي مقلاعي استعدادا للتدخل في اللحظة التي ينوي فيها الهجوم على الملائكة. أتذكر اللحظة صدى كلمات جدي المرتعشة في حلقه: *لكل شيء قلب. وقلب القرآن يس. من قرأها في نهاره كان من المرزوقين. ومن قرأها في ليله قبل أن ينام، وكّل الله به ألف ملك يحفظونه من شر*

أي شيطان رجيم. وإن مات في يومه أو ليله أدخله الله الجنة. وحضر غسله ثلاثون ألف ملك كلهم يستغفرون له ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار له. فإذا أدخل في لحده، كانوا في جوف قبره يعبدون الله وثواب عبادتهم له وفتح له في قبره مد البصر، وأومن من ضغط القبر. ولم يزل له في قبره نور ساطع في أعنان السماء، إلى أن يستلمه الله في ملكوته ويغمره بحبه. جدي سيدي محمد كان يشبه شجرة الخروب في كرمها ونبلها ومقاومتها الرياح والعواصف. في مرة من المرات، وهو منغمس في قصته، قلت له بلا خوف: *يا جدي، بزاف ثلاثين ألف ملاك على ميت واحد*؟ لم ينهرني. أشرقت على وجهه ابتسامة هاربة، ثم سحبني نحوه وقال لي ببساطة: *يا لزعر الحمصي لا تشغل نفسك بالأعداد. ربي عنده الخير وزيادة. لا شيء مستحيل عند الله، وإلا ليس إلها. لما تكبر، تفهم.* كبرت، وظل فهمي قاصرا عن السحر الذي كان يشد به جدي المستمعين لحكاياته عن الجن والملائكة، والخير والشر. لكني فهمت جيدا لماذا أحب جدي سيدي محمد نينوت وميميت، وحماهما من موت ظل يتربص بهما حتى بعد موته.

تناهى إلى مسمعي حنين سورة يس." *فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ"*[2]. شعرت برعشة خفيفة ثم بسرعة حاولتُ أن أنساها. كان عليّ أن أنساها لأتمكن من الفهم والانتباه لشيء آخر كنت أراه أمامي. كان الحاضرون يبكون، حتى الصغار منهم، والصبايا وبعض الوجوه من الذين لم يكونوا يحبونني. ربما يكرهونني. أنا لا أعرف كيف أكرههم، لكنّني لم أكن أحبهم كثيرا، لهذا، لم أر أي صدق في دموعهم. ربما كنت ظالما، لكن ذلك لم يشغلني كثيرا إذ بقيت مشدودا إلى صوت مقرئ يس المميز الذي أدخلني في دوار عجيب، على الرغم من أني حاولتُ تفاديه.

أغمضت عيني للمرة الأخيرة. كانت كل الوجوه التي أحبّ قد غابت ولم يبق منها إلا وجه جدي الأول في السلالة التي تنام على الشجرة العائلية، سيدي علي برمضان إلكوخو، الملقب بالروخو، لحمرة شعره ووجهه ولحيته، الذي صنعتُه من أشواق جدّتي، حنّا فاطنة الطيبة التي اختارتني لتضعه بين عيني وفي قلبي، وحملتني بوصية كانت أكبر مني: *كل شيء فيك يقربك من جدك. أنا أحمل وصيته من والدي الله يرحمه.*

[2] سورة يس. آية 76.

أنت موكول بكتابة سيرته والسير على هدي خطاه. سيكون أول من يلقاك عندما يمر زمن طويل وتشبع من الحياة. لا تقلق، جدك اخترق قرنا بضجيجه وحنينه، وستعيش سنه وربما تتجاوزه بقليل. لم أسأل جدتي عن شكل الحياة ومسارها، كنت أعرف إجابتها: *سرّ الغيب يا حبيبي. جدّك لم يقل لي شيئا عن ذلك. الروخو المعشوق لم يعرف في حياته ظلاّ، لقد كان سيد الشمس. يذهب نحوها كل صباح قبل أن تشرق، محملا بعتاده ولا يعود إلا عندما يراها تنحدر نحو البحر مغطية جهة البحر، بلباس من ندى الليل وزهر الرمان والنحاس المشتعل. جدك كان يشبه كل شيء في الأرض لأنه كان يعرف أنها ستكون مآله الذي اشتهاه. جدك كان الرجل الوحيد في الدنيا الذي جعل الأقدار تسمع له.*

لم يحدث يومها شيء غريب في الكون.

لقد واصلت الحياة دورتها وكأن شيئا لم يكن. غابت الشمس، ثم غابت الرياح والأمطار. تعرت أشجار الصفصاف كما يحدث في أي خريف، وتعرّيت معها كاشفا عن علامات عميقة في جسدي تشبه الجروح والحروق التي مرّ عليها زمن، قبل أن ألبس للمرة الأخيرة غيمة المنتهى التي ألمس للمرة لأولى جلدها الناعم وأمشي على أرضها اللدنة. لم أفكر في أي شيء. أغمضت عيني فقط لكي لا أسقط من علو تخيلته شاهقا. فبدأت أطير في أعماق الغيمة، في غمرة شلالات من النور التي لم أكن قادرا على النظر فيها بالشكل الذي اعتدته. كنت أطير باتجاه غير معلوم لكن بلذة غريبة لم أتعود عليها.

كانت لحظة انفصال الروح عن الجسد قاسية، بينما كان مولاي السالك كما سمعت المنادين له، ذو اللحية البيضاء، يمد لي يده ويسحبني نحوه، نحو بوابة النور التي انفتحت على كل الجهات حتى أعماني ضوؤها. شيء واحد أزعجني فيه، رائحة العطر الحاد الذي يخترق الأنف، ورائحة الكافور التي كانت تنبعث من يديه ولباسه. ما عدا ذلك، فقد كان مولاي السالك لطيفا معي إلى أقصى الحدود. حتى عندما انتابتني رغبة كبيرة في التقيؤ، ربت على كتفيّ وقال: *لا عليك. لا سلطان لنا على*

الخوف الخفي. اترك نفسك لمشيئتها. ثم قبض على جبهتي الباردة جدا وتركني أستفرغ على راحتي، ولم يقلقني أبدا. لم أشعر بشيء بعدها سوى بيديه الناعمتين وهو يمرّر الماء على وجهي بلطف كبير، ثم على كل جسدي كمن يغسل جثة ميت. مدّدني بلطف على الأرض. سألني إن كنت أشعر بالبرد، قلت لا. أحضر دلوا من الماء الدفيء. جرّدني من كل ثيابي. ستر ما بين سرّتي وركبتي. رفع رأسي قليلا إلى الأعلى بمسند بلاستيكي، لا أدري من أين أتى به. مرّر يده على بطني وعصرني برفق. لم أشعر بألم كبير. ثم لفّ على يده خرقة خشنة قليلا وبدأ يدفّق الماء بهدوء وسكينة، على كل أعضائي الحميمة ويغسلني، كأنه يوضّئني. وعندما انتهى، غسل أسناني ومنخري بأصبعيه المبلولين، ثم غسل رأسي ووجهي برغوة أعتقد أنها رغوة السدر، لم تكن صابونا. ثم نزل إلى صفحة عنقي اليمنى، فيدي اليمنى وكتفي وصدري وفخذي الأيمن والساق والقدم، غسلهم كلهم. قلبني بعدها إلى جنبي الأيسر، ففعل ما فعله بالجهة اليمن من جسدي. كدت أقول له: *يا مولاي، بدأت أخاف. كأنك تغسّلني، وأنا مازلت حيّا يا سيدي؟* لكني لم أفعل لأنه كان شديد اللطف معي. ثم حلق الشعر القليل الموجود تحت إبطي، وقلّم كل أظافر رجليّ ويديّ، قبل أن يلف الشعر المقصوص والأظافر في خرقة بيضاء، شدها بإحكام. عندما انتهى من عمله، قوّمني نشفني عضوا، عضوا، حتى ما بين أصابعي، ثم أغرق كفه اليمنى في بودرة بيضاء ناصعة مثل الزجاج، فدهن بها جسدي كليا، عرفت من رائحتها القوية والحادة أنها الكافور مخلوط بالشبّ. ثم يرش عليّ عطرا خفيفا كان قريبا من المسك وقشور البرتقال والليمون ورمان الوديان، قبل أن يتمتم بشيء شبيه بالقرآن، لم أسمعه جيدا. ثم لفّني داخل قماش أبيض ما تزال به رائحة الكتّان كأنه خرج للتو من المصنع، مكون من قطعتين كبيرتين نسبيا، كان أقرب إلى فوطتي إحرام منه إلى كفن. أخيرا ألحق بهمها قطعة القماش التي بها بقايا أظافري وشعر إبطي. استغربت في طقسه الذي لم أفهمه جيدا، لكني كنت مستسلما له كطفل بلا مقاومة.

أدركت بسرعة أن مولاي السالك كان هو رجل ليلة الرحيل الأخيرة. كل حركاته كانت توحي بذلك. أخرجني بنعومة من دائرة الأهل والأصدقاء وهم يتلاطمون ويندبون

ويبكون غائبا مسجى على فراش الموت. هذا يضرب رأسه على الحائط. ذاك يندب وجهه. وآخر يتمرغ في الأرض بكل ما أوتي من قوة. لا أدري لماذا تذكرت لحظتها أمي. هي الوحيدة التي كانت ستبكي غيابي بالدمع المر. نبهت السالك لحظتها وهو يسحبني من يدي، بأن أهلي سيكتشفون بسرعة بأني غادرت المكان. ابتسم بإشراق وكأن الأمر لم يكن يتعلق بالموت والحياة. قال: *امش فقط حتى لا أقول لك عُمْ بَحْرَكَ. امشِ فقط و لا تلتفت نحوهم كثيرا، هذا يسرق من راحتك ووقتك. اتركهم في حزنهم ولا تحاسب الصادق منهم والمنافق لأننا لا نعرف ما تخفيه السرائر. لا عليك يا ابني. هذه صورتك فقط التي أمامهم. جثتك لن تغادر مكانها. ستبقى مسجاة أمامهم، كما هي، ولن يلحظ أحد غيابك، وكتاب* ***كتاب الإسرا إلى مقام الأسرى*** *سيظل على صدرك، بالضبط في الصفحة 99- 100 التي توقفتَ عندها الخاصة بسدرة المنتهى.*

سدرة المنتهى. قال السالك: فقلت له: ما هذا النور والبهاء، قال: سِدرة المنتهى، ثم تلا الرسول الكريم:"وما منا إلا له مقام معلوم"، فسكتنا عن تعبير ما رأينا كما سكت، حتى يشاهَد من يراد كما شهِدْت، سكوت حَصَرٍ وعجز، لا يقوى معه على إشارة ورمز. فإنه إذا كان معدن الفصاحة والحِكم، وقد أوتي مجامع الكلم، وما زاد على أن قال: فغشّاها من نور الله ما غشّى، ووقف هنا وما مشى. ثم قال: فلا يستطيع أحد أن ينعتها، وإذا كان هذا فكيف يصف أحد حقيقتها، فجدير أن يوقَفَ عندها عندما وقف، وينتظَرُ في الترقّي منها على الرفرف، حيث الملأ الأشرف.

هي الصفحة عينها. كدتُ أصرخ في وجهه وهو يتخفّى داخل تواضعه: *سبحانك مولاي السالك، في عالم هالك. ما أعرفك بالقلب ومكنون السراب، وما أجلاك في فحوى النور وسرّ الكتاب.* لكني لم أفعل. فضّلتُ الصمت عن الكلام، إذ أدركت بسرعة أنه لم يكن أكثر من أداتي لتخطي الضوء المعمي للأبصار ومعابر الضيق والأخطار. قاسية ومخيفة، لكن عليّ أن أسلكها بالشكل الذي يليق بها.

ومشى سيدي السّالك في بهو النور الطويل وقتا لا أدري هل طال أم قصر، لأن رفقته الطيبة والآمنة اختصرت كل الآلام التي تصحب الفراق، في يده عصاه البيضاء التي كان يحركها أمامه كما يفعل الأعمى البصير، أو صياد بيض الحجل في الحقول

الكثيفة بالنباتات المتداخلة، حتى بوابة العبور المؤدية إلى حائط جبل النار. ربت على كتفي ثم هتف في أذني، ولا أظن أنّ أحدا سمعه غيري: *واسيني يا ابني، قلبك كبير وخاطرك واسع. أمامك مسالك الأنوار الكثيفة التي تعمي الأبصار بقوة. اعبرها بلا تردد، فأنتَ سيّد شأنك، سيخف كل شيء بالتدرج. امش يا ابني ولا تلتفت وراءك.*

ثم... انطفأ فجأة متماهيا في النور الذي كان يغرق كل شيء في بياضه، وغابت معه كل المسالك، وكان عليّ أن أعتمد على حواسي الدفينة التي لم تمت، وحدسي الذي كوّنته طوال السنوات التي خلت، لقطع المعابر التي تخيلتها تعترض مساراتي، أقطع المستحيلات، بلا دليل يمسك بيدي وحواسي، إلا دليل القلب وخبايا الروح وعلامات مولاي السالك الذي سماه أعداؤه من سدنة الموت: *الهالك*. لكنهم هلكوا كلهم حتى قبل أن يرفع رأسه ويرد على قسوتهم بابتسامة محملة بالخير. انطفؤوا وبقي هو شامخا.

تمنّيتُ رفقته في هذه الظروف التي لم تكن سهلة عليّ أبدا، لأنَّ مولاي كان خفيفا كريشة، وعالما كبحر، وناعما وهشّا كأشواق العاشقة. لكنه فضّل العودة، فرأيت في ذلك حكمة إذ تذكرت نصيحته وكلمة الشيخ الأكبر مولاي ابن عربي في لحظات الضيق: *لكل بحره، فَعُمْ بحْرَكَ.* وها عليّ أن أسلكه.

مشيت متشمما سرّ مبهمي. أعماني الضوء المتجلّي من كل مكان. لم يكن يشبه الضوء المعتاد فقد كان لمعانه حادا. لم ألتفت أبدا كما أوصاني سيدي السالك، لكي لا أفقد معبري لأني بدأت أراه، ولا تغرب الشمس في دمي وقلبي، ولا أصاب بشهقة الخائف التي ينتفي كل شيء أمامها وتنمحي المسالك والآثار.

أغمضت عيني، تشبثتُ بغيمة التماهي، ثم شققت أرض المستحيل، ومشيتُ داخل مسالك النور وحيدا، بلا ظل ولا خوف. كان الزمن الذي تحدثتْ عنه جدتي قد حان. لم أسبقه بدقيقة، ولم أتخلّف عنه بثانية.

2- غَفْوةُ الذِّئبِ *رَمَاد*

أخيرا وصلتُ إلى جبل النار. تَيغْرَاوْ.

لم تكن المعابر بالقسوة التي تصورتها إلا مرة واحدة، حينما فقدت الاتجاه الأسلم فجأة، وأظلم كل شيء في عيني. لم يزعجني النور القاسي الذي أحرقني بقوة في بداية المسلك، ولكن الظلمة التي غطت على كل شيء، أربكت ذهني، وغيّبت تركيزي. وقفتُ قليلا لكي لا أسقط. ثم تشبثت أكثر بالمكان الذي كنت فيه، لأن الدوار الذي انتابني كان أقوى من تحمله. في لحظة من اللحظات شعرتُني أطير في السماوات العالية وأتدحرج شيئا فشيئا نحو المهاوي العالية وأنكسر كقطعة فخار رُمِيتْ من الأعالي. ضيّعت وجهتي ومساراتي الذهنية. مشيتُ خطوتين على الجهة اليمنى، ثم خطوتين إلى اليسار وأنا أحاول أن أظل مستقيما حتى لا أضطر للزحف. فجأة سرى في أعماقي صوت غريب مضخم قليلا، جاء في شكل طنين ثقيل قبل أن يصفو ويتحول إلى صوت شبيه بصوت حنّا فاطنة: *امش في خط مستقيم فقط وسترى فجوة النور التي توصلك إلى مبتغاك. لا تغير ما خُطّ لك وإلا ستسقط في بحر التيه الذي لن تستطيع عبوره أبدا.* كما أمر الصوت، مشيت في عمق النفق الطويل حتى انتفت الظلمة والنور المعمي للأبصار، فوجدتني وجها لوجه في مواجهة جبل النار.

لم تُخِفني الكواسر ولا الغربان الفحمية التي انتشرت من حولي بكثافة على غير المعتاد، وحامت طويلا على قمم الجبل العالي قبل أن تتماهى مع سماء عكرة تخترقها غيوم داكنة تنبئ بأمطار قوية ورعود كانت ترتسم في الأفق الأسود. لم أخف من امتدادها السريع، ولكني تساءلت، على الرغم من اليقين الذي كنت قد كونته من قبل، إذا لم أكن قد أخطأت في يوم الخروج الأخير كما نبهتني إلى ذلك جدتي حنّا فاطنة، قبل سنوات خلت، سبقت خروجها الأخير هي أيضا نحو أعالي جبل تِيغراوْ الذي يقال إن الأرواح قبل أن تعبر نحو بارئها، تمرّ عبر مسالكه وقممه العالية. فهو علامتها وحاميها من الشرود.

جبل تيغراو، أو جبل النار، هو الجبل البركاني الذي نزل فيه جدي الأول الرّوخو[3]، منكسرا ومنفيا بعد حرب لم تكن عادلة. حرب لاس بوخاراس[4] أو جبال البشرات، في آخر مقاومة أندلسية شارك فيها، بين سنوات 1568 و1571، في صحبة الدون فردناندو دي كردوبا (محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة). كان من المقاومين الذين رفضوا الاستسلام لوضع كانت محاكم التفتيش المقدس سيدته الكبيرة. كنت أحس دائما بأن صوت جدي وأحزانه تنام فيّ كما ورّثتها لي جدتي حنّا فاطنة. لهذا كنت أخاف زيارته على جبل النار. لأن الذهاب نحوه، كما كانت تقول حنّا فاطنة، يعني ببساطة بأن الموت سلك طريقه نحونا. كنتُ كلما سألتها عن سرّ ذلك، قالت: *انتظرْ قليلا، لم يحن بعد وقتك. لا تستعجل المُنتَهى، فهو مؤلم يا قلبي. للجبال العظيمة أصواتُها الخفية. ستناديك حتى وأنت في بحر نومك. انتظرْ. لم يحن الوقت بعد يا ابني. سيصلك النداء العميق من تلقاء نفسه. ماذا يبقى من الأجداد إلا ذلك النداء السري الذي لا يموت؟ يظل يحدد مساراتنا الخفية حتى يسحبنا نحو دائرة الصمت القاسية، والمصالحة الأبدية مع ذات ظلت زمنا طويلا معلقة على شطط دنيا ليست رحيمة دائما، وأشواق لا تموت؟ انتظر. جدك الرّوخو هو الرجل الأوحد في الدنيا الذي كان قادرا على تغيير مسارات الأقدار. ساعفَهَا حتى لانت له.*

أعرف اليوم أن جدي يوم أصيب بالغبن، صعد إلى الجبل الأعظم وصرخ بكل ما يملك من قوة: *يا الله لماذا فعلتَ بي كل هذا؟ لم أشرك بحبك ونورك أحدا إلا المرأة التي منحتني بسخاء لا يحد، حبا شبيها بالاستحالة والافتقاد القاسي؟ لماذا يا الله تتخلّى عني وكأنك لا تعرفني، وكأنك لستَ خالقي الذي وضع في قلبي حبة النور التي تشبه البلور وتركها تتوالد فيَّ؟* صرخ بيأس جفف حلقه، كما تفعل الآلهة المهزومة على قمم جبل الأوليمب، قبل أن تمزقها طيور الغضب وكواسر الجبل.

قضى جدي نصف عمره يعوي كالذئب الضائع في خلاء موحش، قدرا لم يفهمه ولم يقبله، بحثا عن أندلس ظلت تتخفى وراء بحر لا يصفو إلا ليغيم ثانية. عندما يئس من رؤيتها انتقل إلى الحلم، يشم عطرها الذي كانت تسحبه معها أمواج المتوسط التي تموت، كل يوم ملايين المرات على حواف الضفتين. يصعد إلى الجبل الأعظم، جبل

---

[3] الكلمة من أصل إسباني Rojo وتعني الأحمر، نظرا لشقرة بشرته التي تميل نحو حمرة طاغية.

[4] Las Pujaras.

النار، ثم يرمي ببصره بعيدا مخترقا كل الآفاق البعيدة، كان الوحيد الذي يعرف، ماذا يتخفّى وراءها.

لا أدري كيف حدث ذلك، لكني عرفت نداءاته ليلتها من بين آلاف الأصوات التي تزاحمت بقوة في ذاكرتي قبل أن أغوص في عمق غلالة الضباب الذي لفّ في أعماقه البحر والجبل ومنحدر *لالة نينوت* ومسالك القطارات التي تخترق جبل النار.

حملت كل زادي الذي يحمله عادة متسلقو الجبال: شجاعة وصبر كبيران. فأس صغيرة. حبل بطول عشرين مترا. قربة ماء وسكريات لتنشيط الخلايا عند الضرورة، وبعض الأكل الخفيف بدون أملاح لكي لا أعطش. قالت لي حنّا فاطنة قبل أن يسحبها جدي نحو فردوس الصمت الأبدي وتنأى نهائيا مخلفة فراغا كبيرا في قلبي وحواسي: *عندما تريد أن تحدث جدك، بعد عمر طويل، اصعد إلى الجبل الأعظم وانتظر الغيمة الأولى أن تأتيك من الجهة الغربية، سترى شيئا يشبه البرق. ثم يأتيك بعدها صوت واضح وشفاف ولذيذ مثل عسل النحل، انتبه له جيدا. ستشعر بحلاوة ما تحت لسانك. تلك علامتك. هو صوت جدك الرّوخو الذي لم يرفعه حتى في أقاصي الحزن والخيبة إلا مرة واحدة، قبل أن يغفو في أبدية التلاشي: يا الله لماذا فعلتَ بي كل هذا؟ يقول دائما إن الأصوات العالية تحمل هزائمها في ارتفاعها. سيقول لك عن كل ما تريد معرفته.* ثم أضافت وهي تقترب من وجهي لكي أسمعها جيدا وألمس مسالك حروفها وكلماتها: *أنصت للنداء عندما يهزك بنعومة، لا تسبق ولا تتأخر ولو بثانية. سيحدثك قلبك يوما لفعل ذلك، فتصعد إلى جبل النار، ولا شيء يرافقك في رحلة التيه والتناهي إلا قلبك. وحده سيكون طيرك وريحك ورفيقك في رحلة التيه القاسية حيث يواجه الإنسان الخواء والمبهم وحيدا.*

- *وإذا لم يحدثني قلبي يا حنّا؟*
- *هذا يعني أنك لستَ في حاجة إلى جدك، وهو ليس في حاجة إليك. أغلق باب الحكاية نهائيا، وانسه*

لأنه سيكون قد نسيك هو أيضا. وابحث عن مسلك غيره للحياة والموت. العلامة تأتي من تلقاء نفسها وعندما تغيب ذلك يعني بالضرورة أن حلقة ما أساسية قد انصرمت من العقد، ومن غير المجدي البحث عنها لأن المسالك تكون وقتها قد التبست.

شعرت يومها بقسوة كبيرة في لهجة حنّا.

على الرغم من حبي لجدي، كنت أمر دائما، وأنا صغير، على سفح الجبل الأعظم وأتظلل بقممه العالية، ولا أشعر مطلقا بالحاجة إلى تسلقه. في الكثير من الأحيان، عندما أغفو في ظله، أراني ذئبا كاسرا، بعينين صفراوين، أشبه ***رماد***. أجوب الغابات، منتشيا بقوتي وصرامتي. أقاوم بشراسة ظلم الذئاب الأخرى والحيوانات القاهرة. أكسر ضلوع كل من يظن في نفسه القوة المطلقة للتعدي على الضعيف. رأيت ذئابا كثيرة في صغري، كلها كانت تخيفني، ذئب واحد ظل في ذاكرتي، يخترق أحلامي في كل مرة. رأيته وأنا أرافق زهور أختي وهي تركض وراء أغنامها خوفا من الذئاب. رأيته في البداية متخفيا وراء شجرة بلوط قديمة. كانت زهور قد ابتعدت قليلا عني. جلست فوق حجرة وبدأت أتأمله. خرج ووقف يتأملني هو أيضا. لم يخفني ولم أخفه. لكنه كان محتاطا. كلما اقتربت خطوة منه، ابتعد خطوة محافظا على نفس مسافة الهرب براحة. أول شيء أثارني فيه عيناه. لونهما الأصفر المائل نحو خضرة غريبة. ثم فروه الرمادي الذي يخترقه بياض ثلجي صاف. سميته في اللحظة نفسها: ***رماد***. ناديته *رماد... رماد...* لكي يقترب، لكنه لم يفعل. أعطيته كل الأكل الذي كنت أحمله معي لدرجة أن زهور غضبت مني وهي تنصحني: *يا المهبول وحد النهار ياكلك ذيب. شكون يثق في الذئاب إلا واحد مهبول كما أنت. الذئب خداع*. رأيت *رماد* لاحقا العديد من المرات. لم يعتد في أي يوم من الأيام لا عليّ ولا على الأغنام. بل إن وجوده كان يمنع الذئاب الأخرى من الاقتراب. وكلما ابتعد خروف عن البقية، طارده مثل كلب من كلابنا، وأرجعه إلى القطيع. حتى زهور أصبحت تحبه وتناديه *رماد*، مثلي، لنقتسم معه أكلنا. عندما قصصت الحكاية على حنّا، قالت وهي ترشق عينيها في أعالي الغابة المقابلة لبيتنا القديم بحيرة ارتسمت بوضوح في عينيها: *رماد ليس ذئبا. أنا أيضا رأيته في صغري. رماد شيء آخر يا قلبي. شيء آخر أكثر من مجرد ذئب ضائع في برية وقفر لا حدود لفراغهما وخوفهما*. ولم تضف ولا كلمة أخرى منذ ذلك اليوم.

عندما كبرتُ قليلا وطال لقائي الذي افترضته حنّا فاطنة، تأكد لي أن جدي لم يكن في حاجة إليّ، لأني لم أشعر أبدا بأية رغبة في الذهاب نحوه. بل كان كل يوم يبتعد

عنّي قليلا. اليوم لا أدري ما الذي تغير؟ ما الذي هزّني من أعمق شدو في داخلي ورماني في برية التيه التي لن تقود إلا نحو جدي، وإلا سأكون قد خسرت العمر كله وآخرة ابتعدت أكثر مما تصورت وأنا صغير.

لا أدري كيف وجدتني داخل جاذبية دافعة كان من الصعب عليّ مقاومتها. تفيض فيّ كالموجة الصاخبة والعنيفة، تسحبني إلى الوراء حتى أكاد أتمزق على صخور الشط المهجور، ثم تدفع بي نحو الجبل الأعظم حافي القلب والقدمين، مغمض العينين كالمولود الذي سحبته يد خشنة نحو دنيا ظلت لا شكل لها، مجرد حالة هلامية تملأ ذاكرته المرهقة.

وأنا أتسلق القمة الجارحة التي، كلما تأملت شموخها وعلوها زادت بعدا، تساءلتُ من الأعماق إذا ما كنت أملك حقيقة القوة الكافية للوصول إلى القمة؟ قمة التماهي والتناهي. هنا أيضا انتابتني حنّا وهي تقول: *وسيني وليدي... لا تدفع بالوقت في غير مساره، عندما يأتي ذلك اليوم، ابق كما أنتَ. لا تهتم بأي شيء آخر. إذا كانت إرادتك قوية ستصل براحة، وإذا تعبتَ بسرعة ورجعتَ في منتصف الطريق، أعرف أنك أخطأت المسالك وأنّ جدك قد نسيك، وأنك أنت أيضا لم تعد في حاجة إليه. كلاكما اكتفى بالعلامات المبهمة وغير الموصلة*. المشكلة أن لا شيء مؤكد في هذه الرحلة التي لا أدري كم ستدوم. أضافت وهي تلتفت نحو البحر الذي استكان في زرقته الحائلة على غير عادته: *إذا وصلتَ إليه. احك له عن كل ما في قلبك، ولا تسأله إن كان يسمعك أم لا؟ فهو يسمعك بلا أدنى شك ما دمتَ قد وصلتَ إليه. قل له أن امرأة رأت كل دنياها وتاريخها وحياتها من خلالها لأنها لمستْ سرك، وعرفتْ كيف تسكن جرحك على غير بقية السلالة المنقرضة.*

لا سراب في يقيني ولا خوف في رعشتي واستكانتي. هذه المرة كنت متأكدا من أنّ جدي كان يسمعني وينتظرني، وكنت أميز نداءاته المتأتية من الجبل الأعظم. أزحف نحوه بلا أدنى تردد ولا خوف. لم ألتفت نحو الهوة التي كنت معلقا فيها إلى أن

غرستُ مسمارا جديدا على جدار الصخرة الجبلية، وأحطتُ نفسي بحبل الأمان. من يدري؟ لا أحد يضمن زلة القدم وغفوة الحيرة ودوار العلو.

رميت ببصري بعيدا قبل أن أواصل تسلقي. كل شي كان يمتدّ بشكل لا متناه. بدت لي الأرض الجميلة التي عشتُ فيها أكثر من نصف قرن بقليل، بعيدة جدا، والسماء على مرمى كفّي قبل أن أغوص في كومة ضباب لدنة ولذيذة كإغفاءة الموت الأخيرة، لم أر فيها شيئا غير وجه جدي المضيء، ولم أسمع فيها شيئا سوى نداءاته مثل طفل تُرِك وحيدا في برية خالية.

واصلتُ تسلقي وتعلقي بصخور جبل النّار *تيغراو*. عرفتُ لأول مرة أن شطط التسلق لم يكن سهلا، وأننا عندما نغادر الحياة لا نستيقظ في قبر بارد ومليء بالخوف والرطوبة، ونضطر إلى أن نضرب على الجدار البارد، فلا توجد على الضفة المبهمة جُدُران بالية أو متآكلة من شدة التكرار وعبور الزمن عليها، لكن يوجد شيء يتحرك مثل الرمال الخادعة التي تبتلع المارة الغافلين. على الروح الجريحة أن تتدبر أمرها لتفادي جاذبية الموت العنيف والتلاشي والتبعثر النهائي، وأن تبحث عن مستقر لها في هذا الغياب المتوّه. تحتاج لذلك إلى جسد حي تستعيره لتصل إلى قيامة المنتهى، يلملمها لكي لا تتبعثر كحبات الماء المتطايرة من شدة سقوط شيء ثقيل على سطحها الأملس.

في الحقيقة، سعدتُ لشيء واحد وأنا أفتح عيني داخل الضباب الكثيف الذي يكاد يعمي البصر من شدة نوره، أني لم أرَ عزرائيل، ملاك الأروح، واقفا عند قبري باستقامته المعهودة، وفي يده دبوسه الخشن المصنوع من جذوع الزبوج القديم، والمليء بالمسامير الحادة، كما كان يهددنا به دائما كبار القرية عندما نسرق أو نكذب. كنت بلا قبر ولا جدران ولا أتربة، إذ وجدتُني أتسلق جبل النار بكل ما أوتيت من صبر وقوة. جسدي النقيّ والمغسول الذي استعرتُه لم يكن لي، لكني لبستُه بلا قلق لدرجة أن أصبح يشبهني ويسعفني في كل حركاتي. أتشبث بكل قواي بالجبل الذي يوصلني إلى جدي لأراه للمرة الأولى وأسأله كما أشتهي عن الزمن الآفل وعن قلب طفولتي التي كانت تركض أمامي في عنفوانها كما في أيامها الأولى.

مددت يدي نحو الصخرة البركانية المسننة والشديدة الثبات. شعرت بحرارتها على الرغم من أنّ الجو كان مغيما ولم يكن حارا. تشبثت بها أكثر لأني عندما رفعت رأسي عاليا، لاحظت أن القمة لم تكن بعيدة، أو على الأقل هكذا بدا لي. المشكلة الوحيدة هي أني كلما تقدمت في التسلق، بقيت القمة على نفس المسافة. خفت من الدوار، لكنّ الحبل الذي كان يحيط بخاصرتي أعطاني بعض الثقة. واصلت تسلقي مغلفا بقناعتي أني سأصل إلى المنتهى مهما كان الثمن وأنّي لم أخطئ موعدي، وأنّ جدي ينتظرني. عندما نظرت إلى تحت بدا لي كل شيء بعيدا، حتى الحياة التي كانت تمنحني متعة النط والركض والحب والجنون. لم أستطع تفادي الأسئلة المقلقة التي نصحتني حنّا فاطنة بالقفز عليها كلما انتابتني، *انس الموت، ينساك. الحديث عن الموت كثيرا يحوّله إلى حقيقة، لستَ في حاجة إليها. لا تلتفت نحوه حتى عندما تسمع صوته الذي يشبه الزعيق يناديك. ابق في مساراتك النورانية حتى تتخطى عتبات المسالك الصعبة.*

هل هو التلاشي والإفناء، تساءلت مرة أخرى وأنا بين الأرض والسماء، متجمدا في مكاني لأن إحدى قدمي تدحرجت في الفراغ قبل أن تلتصق بالصخرة المغرفة من جديد؟ هل هو الموت الذي تحدثت عنه حنّا في وصاياها لي، وجلس عند رأسي متخفيا في رائحة الكافور التي عطرت البيت فجأة، وارتعشت له فرائسي عندما رأيته لأول مرة يخاتل الجميع ويدخل إلى غرفتي في شكل الذئب *رماد* الذي غفا طويلا عند قدمي قبل أن ينسحب منكس الرأس. تمنيت أن أسأله لكنه لم يلتفت كما تعود أن يفعل في الغابة التي عرفته فيها أول مرة؟

أدركتُ بصعوبة أنه لم يكن الموت.

كان شبيهه فقط.

3- عَرَفْتُنِي إذْ رأيتُهُ.

اللمسة الأخيرة كانت لمسته.

جدك *لا يمد يده إلا لينقذ من هو في حاجة إليه*. تبدت لي لحظتها جملة حنّا فاطنة، واضحة كشعاع شمس. أغمضت عيني وأنا بالكاد أصدق أني وصلت إلى القمة الحادة التي تسمى عش النسر.

عندما حاولت أن أنشب أصابعي في الصخرة البركانية الأخيرة، شممتُ عطرا أشمه للمرة الأولى في حياتي، هو خليط من النباتات البحرية والبرية التي كانت تغلب عليها رائحة ملح البحر والتراب المحروق وعود النوار والبنفسج البري الذي طغى على كل شيء. أدركتُ أنه لن يكون إلا لجدي.

شعرت بيده القوية كأنها كانت تكلمني. دافئة كيد امرأة. ثم سحبني نحوه بخفة وقوة. رجل مستقيم كنخلة، ملفوف في لباس أبيض كما النساء الشاويات عندنا. وجهه ناصع يكاد يتماهى مع الضباب الكثيف الذي كان يُغرق المكان في حالة تسطَّحت فيها كل الأشكال، لدنة تحت الأرجل كأنها من قطن. تذكرت حنّا فاطنة ووصاياها. لم يقل الرّجل شيئا. نظر طويلا إلى وجهي. لأول مرة أكتشف أن لحيته كانت تميل نحو حمرة واضحة. تمتم قليلا بلغة لم أفهمها كانت تشبه الإسبانية القديمة قليلا. ثم منحني وردة حمراء بينما احتفظ هو بالبيضاء. لا أدري لماذا أفرحني ذلك بشدة. سعدتُ بالوردة لأني لحظتها ظننت أنها وردة الترحيب برجل غريب على المكان، جاء من رحلة شاقة، وهو لا يعرف إذا كان زائرا طارئا أم مقيما كصخرة. لم يتكلم ولكنه ألبسني لباسا أبيض ونزع عني لباسي المليء بالأتربة جراء تسلقي، بعد أن غسل وجهي بماء دافئ وعطرني بذرات من مسحوق خفيف شممت به رائحة البنفسج البري. تأملني طويلا وكأنه كان يقيس طولي وعرضي بعينيه. عدّل من هندامي على مستوى الكتفين، ثم أشر لي بأن أتبعه. لم يقلْ ولا كلمة. لم أسأله أنا أيضا. أحنيت رأسي ومشيتُ مقتفيا خطواته، خطوة بخطوة.

كنا غارقين في ضباب كثيف، شديد البياض، ونمشي بخفة غير معهودة. شعرتُني كريشة في مهب الريح. فجأة سمعتُ أناشيد وتراتيل تأتي من بعيد، شوّكت لحمي

وأغرقتني في حالة غياب حاولتُ مقاومتها بتنويم ذاكرتي قليلا بحيث تصبح بيضاء كما هذا الضباب الذي كان يلفّني. عندما اقتربنا أكثر، كانت الاصواتُ مزيجا من القرآن والتراتيل الغريغورية التي عشقتها بسرعة. كانت تتوغل في الأعماق مخلفة فيّ سكينة غريبة لم أعهدها في نفسي. أردت أن أسأل الرجل، ولكنه فضّل أن ينبهني بأنه علينا أن نمشي بهدوء أكثر بدءا من تلك اللحظة، وأنْ لا نثير أي ضجيج، لأنّ التراتيل أصبحت واضحة وقريبة، والناس الذين كانوا يحيطون بشيء ما، كانوا كثيرين. كانوا يدورون على بعضهم، في شكل حلقات لامتناهية، تمتد من الحلقة الصغيرة وتتوغّل عميقا في الضباب على مرمى البصر حتى تغيب نهائيا. لم أكن أعرف السبب لكني توقعت خطيبا يتهيأ لإلقاء خطبة في الجماهير المتراصة، لكن ذلك لم يقنعني لأن التّراتيل الحزينة التي كانت تأتيني واضحة وتملأ قلبي بشيء من السكينة وصفاء الروح، على الرغم من مسحة الحزن التي كنت أراها مرتسمة على وجوه الناس الذين كانوا يمرون بالقرب منا، يهزون رؤوسهم في انحناءة خفيفة، ثم يواصلون عبورها نحو مركز التجمع بألبستهم البيضاء وكأنهم في حالة طواف.

عندما اقتربنا أكثر، اتضحت لي الصورة المضبّبة قليلا. رأيت المنشدين في شكل دوائر. الدائرة الأولى منهم كانت مكونة من رجال على رؤوسهم قبعات خضراء يرتديها الصوفيون عادة، وهم في حالة رقص صعودا ونزولا، بحشرجات متلاحقة، ثم جيئة وذهاب بأجسادهم. رأيت شبيها لهذه الرقصة في صغري، تسمى الحضْرة عندما رافقت حنّا فاطنة. في الدائرة الثانية كنسيون عرفتهم من ألبستهم السوداء الفضفاضة، وهم يرفعون أصواتهم في نشيد هادئ، تغلفه حالة من الحزن العميق. في الدائرة الثالثة بعض الحاخامات، أيديهم على صدورهم وهم يهزّون رؤوسهم جيئة وذهابا كمن يضرب رأسه على حائط خيالي. بعيدا قليلا عن الدوائر الثلاثة، أناس يلبسون الأبيض، شبيهون بفرقة أندلسية تلمسانية. في أيديهم آلات خفيفة كالسانتور الفارسي، والرباب البدوي، والعود والقصبة، وشنيشنة صغيرة وصوت مضخم لآلة تشبه الأورغ الذي كنت أسمعه بدون أن أستطيع ضبط مصدرها. كان الجميع يتبادلون الأناشيد العميقة التي تنْحَتُ الروح بقوة، من اللاتينية إلى العبرية القديمة إلى العربية، محلّقين كما رأيتُ ذلك من بعيد، حول شيء كان مسجّى لم يتضح لي جليا، على الرغم من

أني كنت أرفع رأسي من حين لآخر لرؤيته. عندما التفتُّ بشكل ربع دائري بحيث لا أثير انتباه أي شخص، رأيتُ وراءنا دوائر لا متناهية. جزء كبير منها كان في عمق الضباب ولا يُرى إلاَّ قليلا. كنا خلف الدوائر الأساسية أنا والرجل الطويل الذي افترضتُ أنه جدي الروخو؟ بوردتينا الحمراء والبيضاء مثل الجميع، لكنّي كنت الوحيد الذي كان يحمل في يده وردة حمراء فقط. استغربتُ الأمر قليلا، لكنّي لم أتجرأ على السؤال. كانت الأناشيد الغريغورية هي الطاغية على كل المشهد الذي كان له طابع جنائزي.

شعرت في لحظة من اللحظات بغرابة وأنا أسير وراء شيء مبهم لم أكن قادرا على فهمه. عندما اقتربنا أكثر من مركز الدائرة، ونحن ندور مع الشكل الحلزوني للناس، اتضح لي أنّ الشيء الذي كانوا يتحلّقون حوله، هو تابوت. شعرت فجأة بعاطفة غريبة تجاه الكائن الذي كان بداخله، ولم أره بعد. فاضت عيناي فجأة بدموع حارقة. خجِلت، لكنّي لم أمنع نفسي. كنتُ الوحيد الذي فعل ذلك. انتابتني رغبة قوية في الصراخ. فجأة أشّر لي الرجل الطويل الذي كنتُ ملتصقا به، بأن أترك دموعي تنهمر وأن لا أمنعها. سمعت صوته الدفين يقول لي: *ابك يا ابني. ابك. لا تخجل. الدمع رحمة للقلب. ابك إذا كنت تشعر برغبة في ذلك. الرجال يبكون أيضا. من الغبي الذي يستطيع أن يقول عكس ذلك؟* فجأة تذكرت كلمات حنا فاطنة التي كانت تعبرني من حين لآخر كالسهم الناعم: *للروخو حالة نادرة في العائلة. لم يشبهه أحد إلا أنت. كان يبكي كلما شعر بقهر داخلي، ويقوم أكثر بهاء وقوة. كان الرجل الأكبر الذي لا يخاف من دموعه.* هذا أكد مرة أخرى أن الرجل الذي يقف أمامي باستقامة كإله إغريقي، ليس شخصا آخر إلا جدي الروخو. لم أكن قادرا على التحكم في أي شيء. كانت الدموع تنهمر بغزارة وفي قلبي غصة قوية. أشعر بالأمواج في داخلي وهي تعلو وتنزل متتابعة، لا تترك لي أية فرصة لاسترجاع أنفاسي. لم أكن قادرا على تحديد الأسباب العميقة لكل هذه الدموع. لا شيء في دماغي إلا طيبة هذا الرجل الذي حررني من الصخرة البركانية التي كانت تشتعل بداخلي، بأن سمح لي بالبكاء بحرية وتحريري من الخوف الغامض الذي سكن عيني عندما رأيت التابوت الذي كان يلقي عليه الناس نظرة أخيرة، يضعون الوردة البيضاء في داخله، ثم يمضون منكسي

الرؤوس، قبل أن ينطفئوا في عمق الضباب. مسحت عيني قليلا وأنا أقترب من التابوت. وانتابتني سكينة جميلة كأنني تحررت فجأة بدموعي، من الشعور الخفي الذي ظلّ يكبلني.

بعد زمن لا أدري هل طال أم قصر، لأني غفوت على دموعي وعلى التراتيل والأناشيد المتداخلة، وجدتُني أقف ليس بعيدا عن التابوت. لم تتوقف حركة الناس. انتبهتُ إلى أنّهم، كانوا كلما اقتربوا من التابوت، يتمتمون كلاما مختلفا من شخص لآخر من شفاههم، ثم ينسحبون في عمق كتل الضباب والبخار ورائحة المسك والطيب والعنبر ورشاش البنفسج البري. قبل أن ينطفئوا في الفراغ.

الأناشيد لم تتوقف. كنت وراء الرجل الطويل ذي اللحية الحمراء. كان يغطي عليّ التابوت. تمتم بشيء لم يصلني واضحا، تناهت إليَّ بعض أصدائه الإسبانية والعربية. فهمت منه الفاتحة. وضع وردته البيضاء على التابوت. انحنى عليه وعندما قام بهدوء كانت عيناه تفيضان دمعا ثقيلا. تمتم مرّة أخرى، لكن هذه المرة بوضوح: كان الوحيد الذي فعل ذلك من بين كل الذين مرّوا قبله: *جئتَ مبكرا حبيبي. كان يفترض أن تعيش أكثر مثل أجدادك السابقين الذين عمّروا طويلا. مرحبا بك*. سلم على جبهة من كان في التابوت ثم انتقل إلى الجهة المقابلة، ليفسح لي مجال قراءة الفاتحة بدوري على الميت. كان الناس ينظرون إليَّ بشيء من العطف قرأتُه في عيونهم. مع أني لم أكن غريبا عنهم إلا في وردتي الحمراء. كنت ألبس لباسا أبيض يشبه الألبسة الشاوية التي تلبسها نساؤنا، مثلهم تماما. تقدمت بخطوة، ثم خطوتين. كان الرجل الطويل والمستقيم كصفصافة، يقف قبالتي. وضعتُ الوردة الحمراء على الكفن الأبيض. لم أعرف سر الرعشة التي انتابتني إلا لاحقا. وعندما انحنيت على الميت كما كان يفعل الجميع، وقبّلت جبهته. لم يكن كفنا، كان سيلا من الفراشات البيضاء. كانت تغطيه كليا. ثم بدأت تنسحب الواحدة تلو الأخرى، وأنا متجمد في مكاني والرجل يقابلني. كان يقف بصمت وفي عينيه بقايا دمعات ثقيلة لم تخرج إلا في تلك اللحظة. في اللحظة التي تراجع هو فيها قليلا إلى الوراء، انسحبت فجأة الأرض من تحت قدمي وشعرت بدوار قاس. ارتعشت كل فرائسي ولم أكن قادرا على التحكم فيها. لم يكن الميت الذي انكشف وجهه كليا عندما طارت الفراشات البيضاء، يُشبهني فقط، ولكنه

كان أنا. *أنا، واسيني*. تماسكت وأنا أقبض على خشبة التابوت مثل طفل خائف يتحسس أي شيء قريب منه، لكي لا يسقط مغشيا عليه. فركت عيني ثانية وثالثة وسابعة. رفعت رأسي نحو الرجل الطويل وكأني أدعوه لينجدني. كانت عيناه ما تزالان مثقلتين بالدموع. قلت في خاطري: *لابد أن يكون التعب هو سبب هذه الرؤى*؟ أغمضت عيني. لكني عندما فتحتهما، رأيت نفس الملامح. ورأيت اللّوح الذي كُتِب عليه اسمي، وتاريخ ميلادي، ووفاتي بالعربية واللاتينية. وكلمة صغيرة كنت أكررها دائما: ***لقد عشتها كما اشتهتني لأنها كانت الأقوى. لم أكن استثناء عظيما في هذه الدنيا، ولم أكن إلها صغيرا، لكنّي لم أمر على هذه الحياة كغيمة جافة.*** كنت أنا المسجّى، داخل إزار أبيض مثل الحليب. عندما طارت الفراشات البيضاء أكثر لاحظت أنّ جزءا من صدري وكتفي كانا عاريين. إزار بدون أي قفل صغير أو مسَّاك؟ على وجهي بقايا ورود وعطر عرفته من رائحته: *الخُزامى* الذي كانت تحبه جدتي، ثم فجأة انسحب ليخلّف وراءه عطرا خاصا. العطر الذي كان يجعل جسد حبيبتي مينا في حالة تفتح واشتهاء كلي. عطرنا المشترك الذي أغرقني في رائحة البنفسج البري: *Hyacinthus orientalis*[5]. مستخلص *مينا* الذي وضعته في يدي عندما خرجت من غرفتها، في آخر مرة، *في الدار الكبيرة* أو قصر عيشة الطويلة، الماخور الذي كانت تديره في الأخيرة. قالت مينا بحزن: *هو عطري معك. تذكّرني فقط. ربما لم أكن لك بالشكل الذي أردتَه، لكني لم أكن لغيرك أبدا* . لم يكن عمري قد تخطى عتبات المراهقة القلقة. لا أدري لماذا في ذلك اليوم كانت مينا حزينة. ربما لأنها تمنت للحظة أن تشبه نفسها فقط لتكون لي، ولا تشبه أختي زوليخا، كما قالت لي وهي منكسرة.

أغمضت عيني باحثا عن أي شيء أتشبث به قبل الغرق الذي رأيته وشيكا. وطلبت من الله أن يمنحني صبرا وبعض القوة. فجأة رأيت امرأة، ربما كانت الوحيدة في هذا الجمع، تنظر إليّ كأنها تعرفني. تملكني نفس الإحساس. لم تكن وهما، كانت حقيقة. رأيتها هي ولم أر غيرها، من وراء الوجوه الكثيفة التي كانت تودعني وتنحني أمامي. كان وجهها مغطى بحجاب أسود شفاف لا يظهر إلا جزءا محدودا من عينيها. لكن

---

[5] من اللاتينية وتعني الخزامى الشرقية.

بشرة وجهها لمعت تحت أنوار البروق الخاطفة. شعرت أكثر أنها كانت أقرب إليّ من حبل الوريد.

لكزني الرجل الطويل، مرافقي، الذي كان ورائي، بشكل خفيف لكي أخفف من تثبتي في وجه امرأة ويغمزني لكي أضع الوردة الحمراء في يدها. عندما نزعت قفازها الأسود وانحنت قليلا، رأيت الوشم الصغير الذي كان يتسلق ظاهر يدها اليمنى، حيث ارتسمت عليه خطوط ملتوية بالحناء، تنتهي بشيء شبيه برأس الثعبان. منحتُها الوردة الحمراء. تمتمتْ بكلام يشبه النشيج، وهي تقبّل خدي بحزن: *أيها الغريب لستَ غريبا، فلا تحزن، أنتَ بيننا. هو الأبقى حبيبي. هو الأبقى.* لا أدري إن تكلمت أم أن شيئا في داخلي هو من كان يتكلم. لكنني كدت أصرخ: *هذا الصوت أعرفه يا* *جدي*. قبّلت الوردة الحمراء، ثم انسحبت داخل كومة الضباب. كأنها كانت فقط تنتظرني قبل أن تخلي المكان.

تأملت وجه الميت للحظات. كان أنا بنفس ابتسامته الأخيرة، وهو يودع أصدقاءه وأهله المحلقين به كما في سهرة شتوية لا شيء فيها إلا هسيس الدواخل الهشة وعواصف الرياح الخارجية، قبل أن يغمض عينيه ويمتطي رحلة الجبل الأعظم التي كان عليه أن يعبرها وحيدا بعد أن تركه السالك في شلالات النور. هل هو البرزخ؟ الصراط المستقيم؟ حافة بهلوان نيتشه وهو يرقص على حبل الموت؟ لم يكن مهمّا. يكفيني أن رجلا اسمه الروخو، جدي الأعظم، كان معي. أو هكذا افترضت على الأقل في أعماقي. على الرغم من وحشة الأمكنة، لم أشعر بالفراغ الذي يورث بعض البرودة الثلجية في الأعضاء.

سلمني مرافقي وردة بيضاء، وضعتها على صدر الميت. فجأة رجعت الفراشات البيضاء لتغطي وجهه وجسده من جديد، حتى لم يعد يظهر منه شيء. سحبتني يد الرجل الطويل الناعمة: *نمشي يا ابني*. لم أقاوم. ثم تركتني أتدحرج في غمرة الأناشيد الغريغورية القديمة والترتيل القرآنية.

واصلنا العبور، بينما ظلت الدوائر تلف حول التابوت. فجأة رأيت نورا نحاسيا حادا يخترق كتل الضباب ويستقر في عيني جدي. شيء ما أكد لي للمرة الأخيرة أنه كان جدي الروخو ولا أحد غيره.

كانت يدي في يده. هذه المرة هو من كان يقبض عليّ. مشينا تحت الأناشيد الغريغورية الغالبة على كل شيء، وتوغلنا بدورنا في كتل الضباب حتى كاد كلّ شيء ينطفئ لولا صوت الأورغ المتأتي من بعد سحيق، وصوت كنسي ممزوج بجرح التراتيل القديمة التي لم أفهم منها إلا اسم سيّدنا المسيح:

Χριστός Ανέστη εκ νεκρών, θανάτω θάνατον πατήσας
και τοις εν τοις μνήμασιν, ζωήν χαρισάμενος[6]

نظر مرافقي من جديد، إلي. رأيت نفس البريق المدهش الذي اخترق عينيه قبل قليل. لأول مرة يتكلم بهذا الشكل الحرّ. قال وهو يراني ضائعا على الحافة داخل غلالة من الضباب الثقيل، متفاديا الرعود والبروق المعمية للأبصار، التي ملأت سماء كانت قريبة من أصابعي:

– الحقّ، الحقّ. فاجَأتني يا واسيني. عدتَ مبكرا إلى تربة الله. كنتُ أتهيأ لاستقبالك بعد ثلاثين سنة أخرى على الأقل، بحكم أن أجدادك الأوائل عمروا طويلا.

بينما ظللتُ مشدوها بما كان يحيط بي من كتل الضباب، ومذهولا من سحر الغيمة التي شملتني بدفئها ولفّتني داخلها، فرحا في أعماقي بشكل غريب، بالدنيا التي منحتني بسخاء صدفا جميلة صنعت أغلب أقداري، وربما حياتي كلها. أكثر من نصف قرن مليء بخلجات الحياة ورعشتها التي كانت كلما هزتني، محت في طريقها سنوات الآلام وجحيم الخوف.

- هكذا صمتَّ كل هذا الوقت يا جدّي؟ العمر هو العمر، لا نختاره ولا يختارنا. كما يأتي بالصدفة،

ينطفئ وهو في غمرتها. سعيد يا جدي بهذا العمر الجميل. بهذه الحياة التي ليست أبدا بنت كلب كما تعود أسلافي أن يقولوا في لحظات غضبهم. لقد عشتها كما

---

[6] هذا هو اليوم الذي صنعه الربّ، فلنفرح ولنتهلل به/ المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت/ ووهب الحياة للذين في القبور.

اشتهتني لأنها كانت الأقوى ، لم أكن استثناء عظيما في هذه الدنيا، ولم أكن إلها صغيرا، لكني لم أمر على هذه الحياة كغيمة جافة.

لأول مرة أتجرأ على سؤاله، ولا أدري من أين جاءتني تلك الشجاعة إذ كان حضوره طاغيا.

– لماذا اخترتَ هذه الأناشيد يا جدي؟

– أسمعها وأشعر بدفئها. ورثت دين جدي الذي أوصاني بدين جده، الذي أوصاه بدين أجداده. فوجدتني في كل الديانات. وكل الأناشيد.

كان يتكلم وصوته يدخل عميقا في المسامات مخلفا حالة هي بين السعادة الشفافة والحزن العميق. عندما التفتنا نحو مكان التابوت في اللحظة نفسها، رأينا النور الذي كان يخترقه، ويخترق الضباب، مخلفا في أثره هالة واسعة على المكان. كم اشتهيت أن أسأل جدي عن كل هذه الغرابة، لكني تفاديت أي شيء يضعه في حالة إحراج أو يغضبه. ربما لأني في أعماقي كنت خائفا من إجاباته.

رأينا فجأة مجموعة من الناس يلبسون السواد، كانوا بعدد سبعة. تقدموا من التابوت، ثم بصرخة جماعية رفعوه إلى الأعلى. حملوه على أكتافهم المتعبة وسط الأناشيد التي لم تتوقف، لكنها كانت تخفّ شيئا فشيئا كلما تقدّمنا في صعودنا نحو القمّة.

عندما غاب حملة التابوت، سحبني جدّي من يدي وسرنا. واصلنا صعودنا المتواتر. رفقة جدي الرّوخو معي، منحتني راحة كبيرة، لم أعرفها منذ أن نزلت في هذا المكان.

4- لاَ شَيْءَ يَنْطَفِئُ.

هبت رياح باردة قليلا، وأظلم ما كان يحيط بنا حتى ظننتها علامات القيامة، بدأت ترتسم أمام عينيّ المتعبتين. ولكن بمجرد أن اعتلينا الجزء السفلي من القمة، حتى عاد الجو إلى دفئه وصفائه، على الرغم من دكنة الضباب التي ظلت قريبة، مصحوبة بالبرق والأنجم الهاربة التي كانت تتفتّت أمام أعيننا بالعشرات، بل أحيانا بالمئات، مخلفة وراءها شهبًا من النار والرماد والأدخنة.

لم يتحدث جدي الروخو كثيرا طوال مرحلة صعود الجبل، لكنه لم يترك يدي ولا لحظة واحدة، لأن الصعود في بعض المواقع، كان حادا وعموديا ومخيفا. الغريب أني لم أخف أبدا، حتى عندما كنا نتوغل داخل الشقوق الحادة للصخور في غمرة ضباب معمي للأبصار. كنت أشتهي أن أساله، ولكني فهمت بسرعة، من عينيه اللتين اخترقهما لمعان نحاسي، أنّه لم يكن يريد الإزعاج. كان يريد فقط التركيز على فكرة الصعود والتثبّت بأنّ يدي كانت في يده، وكأنه كان مؤمّنا عليَّ.

عندما بدأنا نصل إلى القمة وسط التراتيل التي ضعفت حتى انقطعت وكادت، خفّ الضباب وأصبحت الأشكال المحيطة بنا أكثر وضوحا. كان الجو صحوا والمكان دافئا، لا شيء فيه، مزعج. يشبه الفراغ الكبير. أجلسني جدي الروخو على صخرة بركانية مغرّفة كأنها كرسي نحت بيد فنان في صلب الحجر البركاني، وتطل على فراغ كبير، رؤيته وحدها تخيف، لأنّ هوته كانت بلا حدود، تتشابك فيها ألوان كثيفة، تخترق أشكالا غامضة من كتل الضباب الهاربة.

قال جدي وهو يوجه بصره بعيدا ، كأنه يبحث بين الأنجم المحترقة، عن شيء كان يريد أن يصله بعينيه. كان للحظات منفصلا عن المكان الذي كنّا فيه وعن *صخرة الله* الصلبة:

– واسيني. اجلس. اجلس يا ابني قليلا. لقد تعبتَ بما فيه الكفاية. الأسئلة التي في دماغك كثيرة. هذه *صخرة الله*، تستقبلك اليوم كما استقبلت ناسا غيرك في أزمنة أخرى. فهي تحمل الكثير من خلوده وجبروته وأنفاسه وخيره. من هنا يرى الله تفاصيل

البشر وأوهامهم وحروبهم. يتأمّلهم قليلا، بجبهم وجشعهم، ثم ينسحب في خلوته الأبدية. ارم بصرك بعيدا. هل ترى شيئا؟

نظرتُ. لم أر شيئا إلا سلسلة من الألوان المتداخلة والشهب التي لم تتوقف عن الاحتراق.

- لا يا جدي. لا أرى شيئا إلا أشكالا غامضة بلا هوية ولا مسار.

- يجب أن ترى وإلا سيكون هذا الصعود بلا معنى. مد بصرك أكثر واخترق غشاوة الألوان

الخارجية، سترى في البداية أناسا متداخلين في كل شيء، في مشهدية غريبة وغير مسبوقة، كمن يبحث عبثا عن الخلاص. أو كمن هو حالة تيه لا حدود لها. ستنسحب بعدها هذه الفلول التي تشبه الأشباح الملونة، مخلفة وراءها مشهدا لمدينة واسعة، تعج بالبشر والدواب والأضواء، والفرسان وشُذّاذ الآفاق. ستعرفها من صوامعها وقبابها وكنائسها. ركِّزْ بصرك عليها جيدا، وافتح داخلك بالقدر الذي تستطيعه. ما يزال قلبك طريا. بعدها لن تحتاج لا إلى عقلك ولا حتى إلى عينيك، ولكن فقط إلى قلبك بحواسه النائمة. قلبك سيكون دليلك الأوحد في هذا المكان الشديد الاتساع، لكنه ليس فارغا. كل شيء فيه يتكلم ويحتلّ مكانا غير مرئي بالعين المجردة، لكن القلب يراه.

- لماذا القلب فقط يا جدي؟ وبقية حواسي الحية، هل ماتت؟

- لا يا واسيني، ليس هذا هو القصد. نحن نكره ونحبّ بالقلب عندما يرتبك العقل، نرى بالقلب عندما

تجفّ العيون من مائها. لهذا يشيخ القلب قبل الجسد عند مرضى الروح. تعمق في نظرك، وبعدها أغمض عينيك إذا شئتَ وسترى المدينة التي حدثتك عنها. إذا لم ترها، سأصمت، وسأعرف أنك لستَ لي ولا منّي، ولكن لغيري. فلن أقول لك أية كلمة أخرى.

كدت أقول له *يا جدي هذه قسوة لا أتحملها* ولكني عدلتُ مرّة أخرى.

أمرني جدي فانصعت لقلبه.

وكأنه أثار فيَّ حمية مبطنة لتشغيل حواس مجتمعة سيدها القلب. أغمضتُ عينيّ طويلا، ثم نظرتُ. نظرتُ بعيدا. أبعد مما تعوّد عليه بصري. توغلت في شقوق الصخور، ونار الشهب، والجبال الميتة وأكوام الرماد التي كانت الرياح تصعد بها عاليا من حين لآخر، والغيمات الملونة، والأشكال الغريبة التي كان يتّخذها الضباب والغيم. شيئا فشيئا تضاءل الفراغ الذي كان يلفّني بقوة. بدأت كل العوائق تتهاوى، وتتكشف خلفها اللوحة المتماهية في الألوان النحاسية التي تعمّقت في الأفق كأنها بقايا شمس أفلت منذ زمن بعيد ولم تبق منها إلا بعض علاماتها مرتسمة في الآفاق التي كانت تلفّنا.

فجأة رأيت ناسا بلا عدد يمشون. يقطعون الوهاد والوديان في فوضى شبه عارمة كأنهم كانوا هاربين من حروب قاتلة كانت نيرانها تشتعل داخل المدينة. وقبل أن أغفو في لذة غريبة تشبه سِنة من النوم، رأيتُ أخيرا الصوامع العالية ورؤوس الكنائس القديمة، وكنيسا يهوديا في الزاوية الخلفية. وسمعت هذه المرة أناشيد تحولت بعدها إلى نداءات استغاثة. كانت الأصوات تعنيني وكأني كنتُ أنا المقصود بها. قمت من مكاني لاشعوريا، وكدت أخطو الخطوة الأولى في الفراغ.

وضع جدّي كفه الناعمة على كتفي، وأجلسني بهدوء.

- اجلس يا ابني. ألم أقلْ لك إن القلب سيد الرعشة الأولى؟

- لكني يا جدّي إني أراها. أراها.

صرختُ مرة أخرى بدون القدرة على التحكم في حواسي المنتفضة. جدي *إني أرى. إني يا جدي...*

- هل تراها حقيقة؟ صِفْ لِي ما تَراه.

ركّزتُ بصري أكثر.

- مدينة جميلة وأكاد أعرفها بمرتفعاتها ودروبها. بمساجدها وكنائسها وناسها. أراها يا جدي وأسمع

أيضا نداءات خفية تأتي من بعيد في شكل كورس جنائزي يا جدي. ربما كانت غرناطة أيام سقوطها. أسمع الجزع، وأرى الخوف في عيون الناس.

-	هي عينها يا ابني. المدينة التي سُرِقَتْ منها الشهادة. هناك مدن محظوظة تمنح ناسها الذين كستهم

وغطتهم وأمنتهم من خوف، فرصة أن يدافعوا عنها باستماتة، ويحموا أسوارها وعرضها وناسها وحيطانها. وهناك مدن يُسرقُ منها كل شيء، وتُقدَّم مجردة من أي شرف، كمسبية. ربما هو كان المقاتل فيَّ هو من يحدثك.

عندما فتحت عيني أكثر، اتضحت المدينة أمامنا كما لو أننا في مواجهة شاشة بلا حدود. تحولنا نحن إلى جزء من ناسها الذين كانوا يتحركون داخلها.

-	جدي الحبيب. حكت لي حنا فاطنة كثيرا عنك، وأنك تعذّبتَ كثيرا. وأنك يوم رُميتَ على سواحل

العدوة الأخرى، لم تكن تعرف شيئا. كنتَ فقط محملا بتاريخ حزين، ودمعٍ ثقيل تصلَّب في العينين حتى أصبح شبيها بالحجر. عدتَ نحو منبعك الأول الذي ظلّ ملتبسا في رأسك، فبنيتَ كل شيء من الفراغ بعدما سرق منك الملوك الكاثوليك ومحاكم التفتيش المقدس، كل شيء. حتى روحك السخية.

-	ماذا كان علينا أن نفعل؟ كانت حربنا الأخيرة. حرب اليائسين. ولكننا خضناها لأنه لم يكن لنا أي

خيار آخر. لقد سرقوا منا أرضا حفرناها من الرماد، وبنيناها كما تشتهي العين والقلب والأذن.

-	يا جدي، لكنها لم تكن أرضكم. دخلتموها غازين كغيركم. ماذا كان بإمكان طارق أن يفعل سوى

أن يرمي بجنده نحو الموت في آخر قفزة شرف انتحارية. كلفوه بما لم يكن قادرا عليه.

-	طارق حمّلوه بشيء لم يكن يعرفه، وخاضه كأي بطل عندما يجد نفسه أمام حرب عليه أن

يخوضها. لم يكن يعرف أن المكائد وراءه كانت كبيرة. يا ابني، عندما يعم القتل وتصبح القوة هي السيدة، يصبح كل شيء مبررا. لم تكن أرضنا، صحيح، ولكن أجدادي هم من غرس يباسها، وأثّث فراغها. أعرف أن كل شيء ليس منّا وليس لنا، سيعود إلى ذويه طال الزمن أو قصر. لست لا أنا ولا أنت من يختار الحروب

والبطولات. الحرب يشعلها الأوائل، فينشئون عالما، قد يكون عادلا يجد فيه كل الناس ضالتهم، وقد لا يكون، لكنها المصالح تشعل الحروب من جديد؟ ماذا ستفعل في هذه الحالة؟ في الثمانية قرون التي انسحبت، كان على جيلي أن يخوض هذه الحرب الخاسرة ولكنها عادلة.

- كيف تكون الحرب عادلة، في أرض الآخرين؟

- ثمانية قرون ونيف ليست سهلة. كل شيء كان قد تغير. لكن المشكلة، هي أن كل الأجيال السابقة

عاشت رخاء، وكان لابد أن يدفع الجيل الأخير الثمن قاسيا. الأقدار اختارت جيل الحواف، جيلي. حملنا سلاحا لندافع عن حق صنعناه فقط. تركنا ملمسا جميلا على الأرض، لكن ذلك كله لم يشفع لنا ولا لأجدادنا. من يتذكر اليوم ما منحناه لمدننا؟

رأيت من جديد لمعة مثل الشهب المحروقة للمرة الثانية. الأولى عندما كنت أقف على التابوت، حين رفعت رأسي قليلا ورأيت امرأة تلبس السواد وتبكي. صوتها الحنيني ذكرني بقوة بصوت مينا، مينا لَرُوخا[7]، عندما تمتمت: : *أيها الغريب لستَ غريبا، فلا تحزن، أنتَ بيننا. هو الأبقى حبيبي. هو الأبقى* لكني لم أتجرأ على قول ذلك لجدي. لابد أن يكون قد فهمني.

هذه المرة عرفت وجهها قبل أن ينطفئ. كانت مثل برتقالة اشبيليا تقف وراء نافورة ماء، ليس بعيدا عن أحد مساجد غرناطة. قلت وأنا أحاول عبثا أن أسترجع وجه المرأة الذي انتابني فجأة، سيدة النظرات الهاربة، التي علمتني السحر كله، لكي لا يصرفني عن جدي:

– لا أعرف يا جدي كيف انطفأت؟ كنت أشتهي أن تبقى قليلا.

رد بحكمته المعتادة من دون أن يجيب عن تساؤلي:

– لا شيء ينطفئ يا ابني. ينتظر فقط فرصته ليتجلى، في الأشكال التي يشاؤها. انتظر قليلا فقط. لا تسبق بخطوة لأنه يمكنك أن تخسر كل شيء، ولا تتأخر بخطوة لأن كل شيء يمر كالريح الساخنة ولا ينتظر.

---

[7] وتعني حمراء الوجه والشعر.

– حنّا فاطنة، كلما حكت عنك، بدا حزنها كبيرا. ولا تذكرك إلا بحبّ وإعجاب بلا حدود.

– حنّاك ليست مثقفة، ولا عارفة، لكنها تعودت أن تثق في قلبها. لابدّ أن تسمع لقصة لا نوتشي دِلْ رِيو[8]. أكبر حالات القسوة أن تجد نفسك وحيدا، بلا أهل ولا أرض ولا هواء. هل يهمُّك أن تسمعني؟

كنت أريد أن أسأله ماذا أفعل في هذه الأمكنة الغريبة؟ هل أنا حي أم ميت؟ ما الذي رماني في هذا القفر الغريب؟ لكني خجلت وخفت من غضبه. كانت حنا فاطنة تقول إنه عندما كان يغضب الروخو، تتحرك البحار، وتكبر العواصف، وتهرب الأرض من تحت أقدام الكائنات الحية.

– طبعا يا جدي. بفضل حنّا فاطنة، التبستُ بحياتك حتى رأيتك فيّ، تحركني كما تشاء. هل هو الجنون يا جدي؟ الوهم الذي لا دواء له؟ الخوف من مبهم ينزل معنا يوم مغادرتنا لأرحام أمهاتنا؟

مسح على لحيته ونظر عميقا في المدينة التي كانت تواجهنا بكل عنفوانها وألقها وحروبها:

- لم أكن غنيا. خرجت من صلب عائلة احترفت الفلاحة والنجارة وحب الكتب. كبرت عاشقا للكتب.

ورثت عن جدي مكتبة واسعة في حي البيازين. كانت النساء أكثر من الرجال من تشتهين سماع القصص والحكايات. وحتى لا تُسرق المخطوطات الثمينة التي كان جدي يتاجر فيها بين غرناطة وطليطلة، أعلنت للجميع: *إن من يسرق كتابه يلحقه شره ويُصاب بعدواه.*

- أية عدوى يكون سببها كتاب يا جدي؟

- أن يخسر الحياة كلها ويبعثرها ركضا وراء الكتب. أن يرى في الكتاب حقيقته الوحيدة. أن يُبتلى بكتاب ولا يرى الحياة إلا من خلاله. أن يتبعه الكتاب الذي سرقه حتى القبر. أن تسرق كتابا معناه أن تترك أنانيتك تنتصر عليك، وتحرم الآخرين من احتمال صغير للفرح.

---

[8] ليلة الوادي. بالإسبانية La Noche d'el Rio

شعرت بخجل كبير وكأن جدي كان يعنيني. وجدتُني من حيث لا أدري، أدافع عن شيء كنت أول المقتنعين في أعماقي بأنه غير صحيح.

- لكن يا جدي بعض الكتب مهملة ولا يقرؤها أحد؟ أخذها ليس سرقة.

أشرقت ابتسامة واسعة على محياه.

- لا يوجد كتاب مهمل لا يقرؤه أحد يا بني.
- حتى عندما يُخبّأ من وراء المصاحف، ولا يقرؤه أحد؟
- كتابك الذي سرقته لابد أن يكون شخص ما قد خبأه وراء المصاحف. الكتب لا تنتقل من تلقاء

نفسها، لكنها تحتاج إلى أياد تحرّكها يا ابني. كان يقرأه كلما توفر لديه بعض الوقت، أو كلما وجد سكينة ما تعيده إلى قلب الكتب وحنينها الخفي. لابد أن يكون قد غضب منك بشدة. لتصحبك أبدا لعنة *ألف ليلة وليلة* إلى يوم القيامة.

- تبعتني يا جدي، ولكنّي لم أشْكُ منها في أي يوم من الأيام.
- لعنة الكتاب تصيب صاحبها ولو في آخر العمر، بالشكل، وفي الوقت، الذي تريده.

أصبت بالخرس فجأة. جدي كان لطيفا لم يتوقف كثيرا عند حماقتي. نسيت أن الروخو كان يعرف عني الصغيرة والكبيرة. ولابد أن يكون من سبقوني إلى هذا المكان قد حكوا له عن مغامرتي مع كتاب الغواية. أردتُ أن أدافع عن نفسي، لكنّي خفت أن ينطفئ جدي ولا أشبع من كلامه، وأنا ما زلتُ في البداية ومازلتُ أنتظر أن يسألني، لأقول له ما في القلب وما حملتْه عيناي قبل ارتياد هذا المكان.

5- رَجُلُ الحُرُوفِ وَالبَارُودِ

كنتُ سجينَ دهشةِ ما كنتُ أراه. كانت تكبر فيّ بسرعة مخيفة لم أكن قادرا على تحملها.

تأملت جدي الروخو. كان بعيدا متوغلا في داخله. بعيدا، يخترق صورة مدينة ما تزال مرتسمة في قلبه وجراحاته الخفية.

رمى ببصره بعيدا في عمق مدينةٍ لم تكن إلا صورة هاربة من خوف مبطن، ثم مد يديه قليلا إلى الأمام بحذر شديد كمن يقطف غيمة يخاف أن تنزلق من بين أصابعه، أو نجمة يخاف من أن تتفتت بين كفيه كفراشة مرت على النار قبل ثانية. تذكرت فجأة كيف نست حنّا فاطنة حساسية جدي المفرطة وهي تقص عليّ بطولاته وفتوحاته وسط نيران الحروب التي أكلت الأديان والمدن والبشر.

سمعت كل النداءات التي كانت تأتي من أعماقه. كانت مزيجا من جراحات قديمة، وألم فقد كل تعريف. رأيت حرائق النشيد الخفي الذي ارتسم في عينيه في شكل ألسنة عالية من اللهب.

- أكاد لا أصدّق يا جدي أن أجدني في قلبك. أهي المدينة التي أرى أم مجرد نور هارب مثل النجم الذي انكسر في عرض السماء قبل قليل. كنت دائما أريد أن أعرف هذا الذي أراه اللحظة في عينيك. وأشعر بالحزن يا جدي الأكرم. أشعر به يتوغل فيك عميقا. يمكنني أن أتخيل الحرائق التي كان عليك تحملها ومواجهتها مفردا كبطل مات كل أصدقائه وبقي بصدفة الأقدار حيا، وكان عليه أن يستمر في رفع قيمة الشهادة لكي تظل في القلوب ولا تأفل حتى بعد اندثاره.

- للأقدار سلطانها، لكننا نقاومها، أحيانا ننجح، وفي أحيان أخرى، ننكسر على حوافها

التي لا تعرف الرحمة. في النهاية سارت الأشياء وفق ما خطته الأقدار الخفية التي لم نكن نراها أو نراها ولا نقرأ عواقبها. ومع ذلك قضيت العمر كله في مقارعتها. فضلت في البداية الكتب على الحرب، لكن سلطان الحرب كان أقوى بكثير. أكبر بكثير مما تصورت. وضعت قلبي أمامي، وعركته بين يدي مثل القشة، ولم أصغ للآلام التي

كانت تشتعل في داخلي، لكني استمعت للنداء اليائس الذي كان كل يوم يكبر قليلا في داخلي. وهكذا مشيت نحو قدر لم أكن أعرف شيئا واضحا عنه، سوى الدفاع عن مدينة رأيت أنه لي حقّ فيها مثل غيري. السقوط المريع هو أن لا تفعل شيئا.

بعد أن سُرقت غرناطة أو بيعت وقبض ثمنها، لم يستطع أحد أن يقنعني بأن الخيانة تمت في الأحواز وقلاع المدينة. كنت أقرأ علامات السقوط في كل شيء. طلبتُ من جدي أن نهرّب مخطوطات طليطلة الثمينة نحو مالقة، فهناك أهلنا، والوضع أفضل بكثير، على الأقل هذا ما سمعناه. لنا جزء من الأهل والأصدقاء الذين نزحوا إلى هناك منذ سنوات بسبب الأوضاع المتردية في أمكنة كثيرة، مما تبقى من أرض الأندلس. ذهبت إلى مالقة ولكنني عدت منها بعد أيام مكسورا وهاربا من موت آخر، موت الجوع والخوف والأمراض. المدن مثل البشر، تموت وينتهي بريقها فجأة عندما يتخلى أهلها وهواؤها وأمطارها ورياحها عنها. الشعير الذي لم تكن تتناوله إلا الدواب في مدننا وقرانا، أصبح البشر ينافسون دوابهم عليه. وعندما زاد الجوع انتشارا، أفتى أئمة المجاعات بأكل الخيول، لأنّ لحمها لم يكن محرما بنص وكأن الجوع يعترف بالنص؟ أكلوا خيولهم التي ساعدتهم على خوض حروبهم، إذ قال المُفْتون هي أحصنة في رتبة البغال الثقيلة لأنها لم تحقق أي انتصار معلوم ضد النصارى؟ بل كثيرا ما خذلت راكبها بأن أوصلته إلى العدو؟ خيول متواطئة، ذبحها وأكل لحمها حلال. عندما أبيدت الخيول كلها، وبعد صمتٍ قصير، التفت المُفتون نحو الحمير مستعينين بالآية: "وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ..." قبل أن يعلنوا أنها مكروهة، ولكن لا يوجد نص يحرمها. وهكذا حللوا كلابهم وقططهم، ثم الجرذان التي كانت تتجاوز عدد سكان المدينة، فزادت الأمراض استفحالا. توجهوا بعدها نحو جذور النباتات، وقشور الأشجار وورق الكروم. كانت المدينة تتنفس الموت في كل شيء. بصعوبة عدت إلى غرناطة، وفتحت المكتبة المغلقة من جديد، بشق الأنفس وبخوف كبير على مخطوطات طليطلة. كل هذه الاحتياطات لم تمنع قتلة محاكم التفتيش المقدس من أن يدخلوا في وضح النهار إلى المكتبة، ويحرقوا الكتب كلها والمخطوطات التي عثروا عليها، ولم ينفذ منها إلا ما طيَّنَا عليه بين الحيطان أنا وجدي. حتى المخطوطات التي هربها الأجداد الأوائل من طليطلة من حروب السقوط

الأولى، وخبأها جدي من الحرائق، دُمِّرت هي الأخرى. للكتب أجساد يا واسيني. عندما مسّتها ألسنة اللهب، سمعت في البداية صراخها القوي واليائس وهي تنفجر الواحد تلو الآخر، قبل أن تصلني رائحة اللحم البشري وهو يشوى. للكتب أنفاس تتقطع من شدة الخوف والرعب، سمعتُها يومها كما أسمعك الآن. يومها نظرتُ إلى السماء وبكيتُ للمرة الأخيرة لأني شعرت أنه لم يعد لنا إله يحمينا نحن الذين قضينا أكثر من ثمانية قرون في أحضانه. غاب الله فجأة عن مدننا وعن كل ما عمّرنا من خلاء كان موحشا قبل أن نغشى تلك الأراضي البكر. ثم عضضت على ظاهر يدي، على عادة الأندلسيين لحظة الضعف واليأس، لأترك مارة تدل على أني سأظل على حقدي على نفسي وحزني، كلما رأيتُها، حتى يومي الأخير.

سعدت عندما رفع جدي يده اليمنى ولم أر على ظاهرها أية مارة سوى يده الناصعة كشمعة. أدركت لحظتها أن الروخو الذي بالقرب مني صاف داخليا.

- لقد سنّوا الطريق يا جدي أمام قتلة جدد هذه المرة لم يأتوا من خارج مدننا ودينيا.

تربوا في حضن الخوف من مبهم صنعوه وقتلوا الآخرين من أجله.

- أغفر لقاتلي كل شيء، إلا أن يحرق مخطوطة أو كتابا. توارثنا النار والخوف على

الورق. جدي المسكين قبل أن يغير دينه، ويصبح مسيحيا في الظاهر على الأقل، طلب من الله الغفران على ما اقترفه قلبه ويداه، كل ما فعله لم يكن من أجل حماية نفسه، ولكن لحماية المخطوطات التي ائتمن عليها. قام بما قام به جاره اليهودي، الذهّاب ميمون بن يعقوب، الذي تمسح بدوره لحماية متجره. لكنّ محاكم التفتيش المقدس كانت في عز أحقادها. أحرقت المكتبة، وعُذِّب جدي وصديقه حتى الموت. بيعت المكتبة بثمن بخس. ثم حُولت بعدها إلى مخزن للحبوب، ثم محل نجارة. في سنوات البؤس، مات مالكها الأخير، فاشتريتها من أبنائه بثمن زهيد أيضا. وحولتُ المكان إلى مكتبة كما كان في البداية. أخرجت مخطوطات طليطلة من المخازن الأرضية، ومن الحيطان المطيَّنة، حيث كان جدي قد أخفاها. حتى المخطوطات التي كُتبت بالخيميادو، أخرجتها. مثل كل سكان غرناطة، الذين ظنوا أن تسليم محمد

الصغير غرناطة سيحمي المدينة، ويحمي الناس من التلف، ظننت أن الدنيا استقرت على غالب ومغلوب وانتهى الأمر. ذات صباح بلا فجر ولا نور، قبل أن أستيقظ، وجدت المكتبة وقد تحولت إلى رماد. لم أبك حرق الكتب ولا المخطوطات، بل بكيت الصدفة التي جعلتني أولد في زمن لم يكن لي. حسدت ولادة وابن زيدون، وزرياب، وسادة الموشحات، المعتمد بن عباد، ابن طفيل، ابن باجة، حسدت صاحب طوق الحمامة، حسدت كل من ولدوا تحت الشمس وفي حدائق النعيم وفي غيمة العشق.
أزمنة النهايات كانت قاسية وصعبة على النفوس الهشة.

كان الرّوخو يقف برهبة أمام التفاصيل كمن يفتح المقابر المغلقة منذ زمن بعيد بحذر. يحكي بهدوء كبير وبحزن كان يشتعل في عينيه. لم أسمع ولا شتيمة، أو كلمة نابية في فمه. كان يعيش حرائقه التي هدأت كلها بصفاء لا حدود له. زمن انتهى كان يرسمه أمامي مثل رسام مكلف بالعمل على التفاصيل الصغيرة والدقيقة. تذكرت لحظتها ما روته لي حنا فاطنة وهي تقول: جدك، *سيدي علي برمضان الموريسكي إلروخو، كان كالرمح واقفا وهو يتأمل الحرائق التي سرقت كل كتبه. لم ينحن في أي يوم من الأيام.*

- حتى حنا فاطنة كانت تروي عنك نفس الكلام. هي أيضا قالت بأنك وأنت تتأمل

حرائق الكتب، شممتَ رائحة المداد الذي كتبت به وهو يتحول إلى رماد. وتناهت إلى مسامعك المتعبة نداءات الذين خطّوها في العزلة والخوف. وسمعتَ أنين الحروف التي اندثرت إلى الأبد. وأنك في لحظة يأس يا جدي عضضتَ على ذراعك اليمنى وختمتها بحقد لا يموت أبدا. ثم طلبتَ من خادمتك أن تعطيك قطعة خشب لتغمض عينيك بعدها وترمي بنفسك في بحر ألْميريا، فتجد نفسك في ميناء سيدي يوشع الروماني القديم، مرميا بلا دار ولا نار ولا ناس يؤنسون عزلتك، ولا حتى ربّ يحميك.
ضحك جدي قليلا وهو يلتفت نحو المرتفعات التي كانت تحضن المدينة الساكنة التي كنّا نراها كأنها شاشة كبيرة كنّا في داخلها. له ابتسامة مدهشة، كلما ضغط عليها

قليلا، ارتسمت خطوط جميلة على جبهته وجعلت عينيه اللوزيتين خطا مستقيما كما الآسيويين. تقول لي دائما.

- جدتي تقول إني أخذت الابتسامة من محياك كأنها رأتك؟ ابتسامة جدك مشرقة دوما.

ضحكته تأتي بعد استراحة من عاصفة الغضب التي تكون قد اجتاحته لسبب أو لآخر. توصّفك وكأنها رأتك بينما بينك وبينها أكثر من أربعة قرون.

- ابتسامتك أجمل. ما قالته حنّا فاطنة الطيبة صحيح بقياس القلب والحب، وغير صحيح بميزان الحقيقة والعقل. عضضت على ظاهر كفي كما قلت لك. لكني في النهاية غفرت كل شيء، لأني بين أيد لا مكان فيها للأحقاد، يتجرد فيها الجسد من الروح. المثل الأسمى عن المادة. قضيتُ سبع ليال بلا نوم ولا راحة. أفكر في الاستسلام للمحاكم الكنسية أم الاندفان في الجبال مع من سبقوني؟ في نهاية المطاف التحقت بشباب البشرات السبعين الأوائل الذين غادروا حي البيازين باتجاه مقاومة سيدي الهمام الدون فردناندو دي كردوبا فالور[9]. قتلنا في الطريق ثلاثة مسيحيين كانوا يجرون دابة على ظهرها صليب كبير لتعليقه على أحد مساجد غرناطة، خارج المدينة. كانوا مجرد عمّال حمالين، لكن العمى كان قد أطفأ كل نور في العيون. ثم انطفأنا في الأحراش الكثيفة والجبال نهائيا. لم يكن في ذهني أبدا استرجاع أرض استعيدتْ منّا، فأنا كنت أعرف منذ البداية أن حربنا كانت خاسرة، كل شيء كان قد بيع، وقبض بنو الأحمر ثمنه، لكن لأننا وجدنا أنفسنا أمام اتفاقيات لم يحترمها حتى واضعوها قبل أن يجفّ حبرها.

بعض الموريسكيين ربى أبناءه على الإسلام وعلى النصرانية في الوقت نفسه، وهو حال أسرتي، لتفادي العذاب والمحارق والحفاظ على المصالح الحياتية. الكثير من أقاربي، من أمي على الخصوص، كانوا تجارا ميسورين وأصحاب مزارع كبيرة وحرفيين يشتغلون في الذهب وفي المخطوطات. وظفوا الكثير من الخبرات اليهودية في محلاتهم. استطاعوا من خلال ما كانوا يدفعونه من ضرائب إضافية وإتاوات

---

[9] هو محمد بن أمية الملقّب بصاحب الأندلس وغرناطة. عيّن في مرتفعات البشرات أميرا من طرف أنصاره في 1568/12/20

للأمراء المحليين، لدعم الخزينة الأسبانية، أن يخففوا من وطأة الكثير من القوانين الجائرة الصادرة ضدهم، أو تجميدها أو تأجيل سريانها. وقد استمر ذلك حتى سيطرة الملك فيليب[10] على مقاليد الحكم، فكان عهده قاسيا على كل أفراد العائلة ومن كانوا في حمايتهم. تم تجديد وتعزيز معظم القوانين المجحفة التي صدرت في عهد أسلافه، وأظهر إصرارا منقطع النظير على وضع كل تلك القوانين دفعة واحدة، موضع التنفيذ، وبشكل حازم وجازم وشديد الصرامة ودون أية رحمة. وقد تم إشعار الأهل بذلك في أول يناير 1567، اليوم الموافق لسقوط غرناطة نهائيا، واتخذته أسبانيا عيدا لها. في ظلال اليأس والخوف، نشبت الثورة في غرناطة في ليلة عيد الميلاد، 24 ديسمبر 1568. كانت حرب الطلقة الأخيرة أو طلقة الرحمة منذ سقوط غرناطة، كما يقال. بدأت في سهول وجبال البشرات، في شكل ردود فعل وعصيان صغير، قبل أن تعم وتكبر بسرعة بحجم الظلم والقسوة. أعلن الموريسكيون بسرعة استقلالهم، واستعدوا لخوض معركة الحياة والموت، ضد الإمبراطورية الاسبانية. اختاروا يومها فتى قويا وسلموه عهودهم وأرواحهم. كان في سن العشرين، من أهل حي البيازين في غرناطة، ويدعى الدون فرناندو دي كردوبا فالور، هو من بقايا أحفاد ملوك بني أمية. أصبح منذ تلك اللحظة زعيما لحلم ظل متأرجحا، قبل أن ينهار نهائيا. وما أن تسامع الموريسكيون بإمارة الدون فرناندو حتى انضمت إليه وفود كثيرة جاءت من الجهات والمدن المختلفة حتى أصبح تنظيمها قويا بناسه وعسكره من المدنيين أو حتى الذين خاضوا حروبا سابقة وتخفوا بين الناس. احتفلوا بتتويجه على قمم البشرات، أميرا عليهم، في احتفال بسيط فرشت فيه على الأرض أعلام إسلامية ذات أهلّة، فصلى عليها متجها نحو مكة، وأقسم أن يموت في سبيل أرضه وعرضه. وسمى نفسه باسم ملوكي عربي هو محمد بن أمية صاحب الأندلس وغرناطة.

انتشرت الثورة كما تنتشر النار في الهشيم، وتعاظم شأنها بسرعة كبيرة. وعلى الرغم من المحاولات الإسبانية للقضاء عليها، إلا أنها فشلت كلها. ومني الطرفان بخسائر كبيرة. هدم الأسبان مدن الموريسكيين وقراهم فوق رؤوس ساكنيها من الشيوخ والنساء والأطفال، لإجبار الثوار على وضع السلاح. وذبح الثوار كل من شموا فيه رائحة

[10] حكم إسبانيا ما بين 1555 و1598.

الملوك الكاثوليك، وحتى المسيحية أحيانا على الرغم من أن الكثير منّا كان مسيحيا. ردة فعل اليائس التي يغيب عنها الذكاء والرزانة. كنت في فرقة التموين بالمال والسلاح، والتنسيق البحري– الجبلي، أي العمل على استمرار الربط بيننا وبين من كان يوردنا بالأسلحة، من المايوركيين والعثمانيين. كنت أستقبل السفن الصغيرة التي كانت ترسو في الموانئ الجنوبية المهجورة والموحشة. كانت تضع سلاحها، نسلم طاقمها أموالهم، ثم تغيب في أعماق البحر من جديد. كنت أعرف كيف أسيّر كل هذه الوضعيات إذ لا حرب بدون أسلحة ولا أموال. وأثبتت الدوريات البحرية الإسبانية أنها غير قادرة على حرمان الثوار من الاتصال بمن يمدهم بالأسلحة.

وشيئا فشيئا تراخت قبضة النظام الاسباني على جنوب الأندلس نتيجة للضربات المتتالية والمقاومة العنيفة. الكثير من الفرق، وصلتهم بعض الأسلحة من إحدى قطع الأسطول العثماني المرابطة في خليج تونس، حيث كان قائد الأسطول ينتظر الأوامر والمدد من السلطان العثماني للتدخل في إسبانيا لصالح المسلمين. فقد كان التنسيق الذي قمنا به والترتيبات مفيدا، سمح للمقاومة أن تطول قليلا. قسوة تعذيب محاكم التفتيش جعل موت الجبال أهون، وضخّم من عدد المنتمين إلى المقاومة. أدى ذلك إلى ضجة كبيرة في مدريد، عاصمة الإمبراطورية، وزادت أجواء الذعر الشديد في بلاط الملك الأسباني الكاثوليكي فيليب، من إمكانية وصول القوات العثمانية النظامية وأسطولها، وتدخلها في الحرب لصالح الموريسكيين. أثناء حوار مع الرسول البابوي، أعلن المسؤولون الأسبان أنه إذا حصل أي تدخل من جانب العثمانيين، فإن أسبانيا قد تسقط في أيدي المسلمين. وخلص الملك فيليب والقادة الأسبان والبابا ورجال الكنيسة إلى ضرورة تدخل الجيش الأسباني بكل ثقله لوضع حد لتلك الانتفاضة وإخمادها بأسرع ما يمكن، وقتلها في عشها، قبل أن يتمكن السلطان العثماني من جمع قواته المنتشرة في البلقان، وشرقي أوروبا، ومن ثم توجيهها إلى إسبانيا.

واستقر الرأي في مدريد على إرسال أفضل وحدات الجيش الإسباني بقيادة دون خوان النمساوي[11] ودعمه بكل الإمكانات البشرية والحربية، لسحق انتفاضة الموريسكيين في غرناطة، وما حولها. ثم تمّ التراجع عن ذلك، فقد رأى أصحاب الرأي في بلاط الملك

[11] Don Juan d’Autriche 1547-1578.

فيليب، أن الحل العسكري غير ناجع بمفرده للقضاء على الثورة، ودعوا إلى أن يكون الحل العسكري متزامنا مع اللجوء إلى أساليب السياسة والحيلة. وحظيت هذه الخطة بالدعم والتأييد من قبل الملك الذي أعطى توجيهاته بوضعها موضع التنفيذ. فراح السياسيون الأسبان يبحثون عن أنجع السبل لاختراق صفوف المقاومين، ومن ثم إحداث الانشقاق في قيادتهم.

- حتى تلك اللحظة كان هناك إيمان باسترجاع ما خسره المسلمون تدريجيا؟

- كنّا في حاجة إلى الإيمان بذلك. في حروب الشرف الأخيرة، حتى الخاسرة منها،

أنت في حاجة لأي إيمان، وإلا لا معنى لخوضها. في الأعماق كان كل شيء قد انتهى. لكن كان أفضل من أن تعريك محاكم التفتيش المقدس، وتحرقك على الملأ.

قاومت كحيوان أصيب في العمق إصابة قاسية لكن غير قاتلة. لم أكن محاربا محترفا، ولكني كنت رجلا لم يعد يملك شيئا إلا شجاعته وأحقاده وقسوة خواتم زمن شاءت الأقدار أن يوجد فيه. تعمق تنسيقنا مع السفن العثمانية أكثر فأكثر. كانت تأتينا بالأسلحة التي نطلبها منها ونلتقي بها على ساحل في وادي الظلام، فيأخذ قراصنة الحرب، ثمنها دوقات ذهبية، ثم نستعد للحمولة التالية مع تحديد مسبق لحاجاتنا العسكرية. إلى أن ألقوا القبض عليّ في عز انهيار حرب البشرات. مباشرة وأحكموا وثاقي جيدا بالأصفاد الحديدية. كنت بين الموت والحياة، ولم أكن أملك أية قوة تسمح لي بالوقوف، لكنهم أبقوني واقفا الوقت الذي شاؤوه ظلوا يتسلون بمنظري طويلا، ويتضاحكون عاليا. لم أكن أمامهم أكثر من حشرة. الحروب تحول الإنسان إلى أسد عندما ينتصر، وأقل من حشرة عندما يهزم. لا أدري إذا ما كان شكلي ضاحكا، لكن كنت أنزل بقوة من زاوية في جسدي. لم يكن لدي أي شعور بحواسي ولا حتى بوزني.

رأيتهم يمدّدون جثة الأمير الدون فردناندو دي كردوبا فالور، الذي قُتِلَ معي في نفس المعركة، ويمشون عليها وهم يرددون: *ها هو سيدك الأمير فرناندو دي كودوبا فالو، يتحول إلى أقل من التربة التي ينام عليها*. كانوا يغطّون وجهه بخرقة خضراء، قبل أن يرموه على ظهر بغل ويشرِّقون به نحو مكان لم أكن أعرفه. كنتُ بلا لسان مثل ميت.

بموت أميري، أُغْلِقَتِ الأبواب والنوافذ على زمن دام أكثر من ثمانية قرون.

6- كَيْفَ يَهْجُرُ الرَبُّ بَيْتَهُ؟

صمت الألم ربما من كثر دفعي في كل مرة، وسقوطي وقيامي أمام جمع من الناس، بعضهم صامت. بعضهم الآخر يرميني بحجارة صغيرة مع شتائم أكثر وجعا: *أحرقوه. قطّعوه. اطردوه إلى أرضه*. كنت تقريبا لا أرى إلاّ ألوان ألبستهم، ولا أفرق بين الذكر والأنثى ليس باللباس، ولكن بالأصوات الحادة التي كانت تصل مسمعي. عندما فتحت عينيّ أكثر، محاولا أن أجهد نفسي بعض الشيء، شعرت بالأشعة التي اخترقتهما تنفذ إلى قلبي. وبدأت أرى أنه من بين الوجوه التي كانت تشتمني، وجوه أخرى كانت تبكي.

جرّوني نحو كاتدرائية قديمة كان باديا عليها أنه لا حياة فيها إلا بومة كانت تجد متعة كبيرة في الوقوف على أحد أجراسها الصدئة، وتزقّق قاذفة فضلاتها على العابرين. عندما دخلنا، بدا كل شيء عاديا. الصورة الداخلية لم تكن عاكسة لخارجها. فقد أعطتني ألفة غريبة. قلت لا يمكن أن ينام الله في الخرائب برفقة بومة أدمنت التحليق والتوقف على الكنيسة، وقذف فضلاتها على العابرين. وقفت قليلا على الزرابي الجميلة وخفت أن أمشي عليها ولكنهم جروني. تأسفت. كانت من السجاد الفارسي القديم ذي الرسومات الرائعة والطيور والنباتات والتشكيلات الكثيرة. رأيت ذلك في سوق طليطلة الكبير في إحدى سفراتي مع جدي وخالي. نظر إليّ أحد الرهبان، وكان يسمى ميغيل، عرفت ذلك من نداء صاحبه له، ثم التفت نحو سيده بنظرات قلقة كأنه كان ينتظر أمره، فأذن له بعينيه أن يرفع ملتقى السجادتين الفاخرتين لتبرز فجأة قطع خشبية مرصوصة ومنتظمة بشكل دقيق لا يظهر ما تحتها. نزعها بدورها قطعة، قطعة، ليكشف عن درج كان ينزل عميقا كسلم بلا نهاية حتى جهنم. بدأت تنتابني فجأة أسوأ الأحاسيس وأكثرها سوادا. تمنيت أن أصرخ بأعلى صوتي ولكني لم أتمكن. شرعنا في النزول، وأنا متكئ على كتفي الراهب ميغيل الذي كان كأنه يواسيني في مصاب جلل بنظراته وخطواته الثقيلة التي كانت تعطيني فرصة للتنفس والراحة. كان راهب آخر يحمل شمعة طويلة تضيء جوانب الكنيسة الخفية ووجه أحد رؤساء محاكم التفتيش. ولما كنت أواصل قطع الخطوات والنزول وأتكئ على ظهر الراهب ميغيل

قال لي هذا الأخير وهو يحاول أن يبتعد قليلا عني، واضعا يده على كتفي متلطفاً: *يا بني، لا تمسس كتفي برأسك الثقيلة وشعرك المتسخ، وبيدك الملوثة بدم القتال والضحايا المسحيين، إن جسدي طاهر ومقدس.* بدون تحكم في تصرفي، رددت وأنا أكاد أسلم بموتي: *قاتل. لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس ردائكم وجسدكم النتنين. أكفكم ملطخة بدم الأبرياء؟* هز رأسه راسما ابتسامة صفراء وصليبا وهو يتمتم، بالكاد كنت أفهم كلامه. ثم بدأنا ننزل نحو الدرج الموالي وكأننا كنا ننزل نحو أعماق جهنم. كلما توغلنا، زادت الروائح الكريهة الممزوجة برائحة العفونة والرطوبة، قوة وانتشارا. لم أتحمل. شعرت بأمعائي تندلق دفعة واحدة. تقيأت. ولكنهم واصلوا النزول. دخلوا بي عميقا نحو غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض. رأيت فيها ما يستفز خوفي وصبري، ويدعو إلى القشعريرة والتقزز. رأيت غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي، وبعضها الآخر أفقي، فيبقى الإنسان سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت بلا أكل ولا شرب، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تتفسخ، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان. ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى، فتحوا كوة صغيرة نحو الفضاء الخارجي. تعثرت وأنا أسير مقيدا بالسلاسل الثقيلة، في أجسام اتضح تحت نور الشمعة التي مالت نحوي، أنها بقايا هياكل بشرية، ما زالت في أغلالها. كان الكثير من السجناء يئنون في الزوايا الخلفية من الطابق الأرضي للكنيسة، رجالاً ونساءً، كانت أصواتهم تصلني من أمكنة مختلفة. الكثير منهم كان في الرمق الأخير من الحياة. بعضهم يصرخ بأعلى صوته بعد أن أصابه الجنون من كثرة التعذيب. الكل كانوا عرايا، وأجسادهم سوداء من كثرة الدم الذي نشف عليها أو ربما بفعل الظلمة. تمنيت أن أضع عليهم شيئا ونسيت أني أنا أيضا كنت في نفس وضعيتهم ولا أعلم إن كانوا كلهم ما يزالون على قيد الحياة، إذ كانت رؤوسهم منكسرة كرايات مهزومة.

نقلوني بعد ذلك إلى غرف أخرى مضاءة بشكل أفضل، كمن يتجول بسائح جديد على الأمكنة، فرأيت فيها ما أسكن الرعب في داخلي. آلات معقدة لم أكن في حاجة كبيرة إلى معرفة عالية لأدرك أنها للتعذيب وتمزيق الأجسام، منها آلات لتكسير العظام،

وسحق الجسم البشري. كنت أعرف تفاصيل اشتغالها من الذين مروا على مثل هذه الأمكنة وخرجوا بصدفة هاربة، أحياء. تقاليدهم في التعذيب معروفة. يبدؤون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيا، حتى يهشم الجسم كليا ولا يبقى به شيء يحكمه. وتخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة في شكل قطع مسننة تخترق كل شيء من شدة الكسر، والدماء الممزوجة باللحم المفروم. عندما التفتُّ يمينا، متملصا قليلا من قبضة الرجل الذي كان ورائي، ميغيل، الذي لم يترك لي فرصة التنفس، رأيتُ صندوقا خشبيا في حجم جسم رأس الإنسان تماماً، كان يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال حتى يمنع من الحركة كليا، وفي أعلى الصندوق ثقب تنزل منه قطرات من الماء البارد على رأس المعذَّب، بانتظام، في كل رمشة عين. يبقى المعذب على حاله تلك حتى الموت. كنت أعرف أيضا أن الكثيرين ممن نجوا قد جُنّوا في النهاية، بسبب هذا اللون من التعذيب الذي كنا نسمع به ولم نره. في الزاوية المظللة قليلا التي تشبه منبرا من منابر مساجد غرناطة الصغيرة، آلة أخرى للتعذيب يبدو أنها كانت أرحم مثلما وشوش الراهب ميغيل في أذني: *هي أرحم لأنها لا تترك للمعذب الوقت الكثير للألم، تأخذه بسرعة. هذا عندما نريد أن نرحم المقتول وننفذ له أمنيته الكبيرة، أي أن يموت بسرعة*. كانت على شكل تابوت ثبتت فيه سكاكين حادة ورؤوس معدنية مدببة. يلقون بالشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره. فإذا أغلق، تمزق جسم المعذب، وقطعه في كل أعضائه، واخترق الجسد بكل طوله. وبقدر ما يضغطون، تتقاطع الأجسام الحادة في الجسد. هناك درجتان: الأولى للتعذيب، وهذه يكون الضغط فيها محدودا، والثانية القاتلة، ويكون فيها الضغط كليا، فينتهي الشخص داخل بركة من الدم، وجسد لا يمكن لملمة أشلائه بسهولة.

بدأ الضباب ينتشر شيئا فشيئا راميا غلالة شفافة على المدينة التي كانت تقابلنا، غرناطة. بينما الأناشيد القديمة التي غابت نهائيا عن المكان، ترتفع من جديد عاليا، مخلية المكان أمام حالة عميقة من الحزن، كأننا كنا في كورس جنائزي يسير الناس وراءه بصمت.

- إلى هذا الحد وصلت الأحقاد يا جدي بين ناس عاشوا قرونا مع بعض؟

-   الحقد يمحو كل شيء بسرعة. يختزل تاريخ الحب ويعوضه بحقد مشتعل. المحارب

الذي يعرف أنه سيموت يتمنى بل يصلي لكي يسمعه الرب، أن ينتهي في المعركة وأن لا ينتهي بين أيدي أعدائه، لأنه يعرف أن الأرض تمتص دمه، ليس كما يفعل البشر. التربة أرحم يا واسيني. أرحم بكثير.

كان ميغيل يريد أن يقتلني رعبا، حتى قبل أن تلمسني أية آلة حادة. الذي لم يدخله الراهب في اعتباره، هو أن الخوف عندما يصل إلى الأقاصي، ينقلب إلى حالة بياض يتساوى فيها كل شيء. رأيت آلات كالكلاليب التي كنت أعرفها، لم يكن ميغيل في حاجة إلى الشرح والتخويف. تغرز في لسان المعذب، ثم تشد وتسحب إلى الأعلى، ليخرج اللسان معها، أو ينزع جزء منه فقط، بحسب درجة التجريم. وكلاليب أخرى كانت تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين. رأيت الكماشة أيضا أو البيضة، الآلة التي توضع في عمق الفم، ويتم توسيعها شيئا فشيئا حتى أقصاها، أي حتى فصل الفكين وتمزيق كل العضلات وتفتت أجزاء من عظام الرأس، ثم الموت.

حمل ميغيل سوطا طويلا وقربه من عيني متلذذا بذعري. تمتم وكأنه كان يخشى أن يسمعه من كان يسبقنا من عناصر محاكم التفتيش: *هل تعرف وظيفة هذا السوط؟ ليس لتحريك البغال للحرث والدرس. أجمل من ذلك. انظر جيدا. ليست ضفيرة جلدية، ولكنها مصنوعة من السلك الرقيق والناعم مثل الشعيرات، يُضرب بها أعداء الدين، وهم عراة، فتتناثر لحومهم وتتفتت عظامهم. بربك! أليست إبداعا جميلا؟* أخافني هذه المرة، لكني تظاهرت بعدم الخوف. كنت في حاجة ماسة لذلك. ابتسمتُ ابتسامة صفراء لم تعجبه إذ رأيت تكمّشا فجائيا على عضلات وجهه.

كنا نتجه نحو درجات القيامة كما وصفتها الكتب المقدسة وكتب الأولين. هبطنا أكثر وكأننا كنا نتوغل باستمرار نحو نفق طويل وعميق. لا أمل في العودة إلى نور الشمس، فقد تأكد لي نهائيا أنه لا صوت يسمع من هذا القبر. التحق بنا كهنة آخرون بألبسة فضفاضة، فأصبحنا أنا وميغيل في الوسط. تتبعنا مجموعة، ويسبقنا آخرون. ظلمة أعينهم لم تكن ترى إلا الموت والدم.

عندما وصلنا إلى آخر الدرج، وجدنا أنفسنا في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، يخترق وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ثقيلة. لم ينتظر ميغيل طويلا بعد أن أشر كبير الرهبان بالشمعة التي كان يحملها، بأن يربطني بإحكام. كانوا ثلاثة عشر راهبا. وجدت الفرصة لعدهم. كانت بنياتهم ضخمة إلا ميغيل، فقد كان قصيرا وناتئا، يشبه شيطانا. ربطني ميغيل بحماس كبير، بالقرب من إحدى السواري المهيأة لمثل هذه الأمور. كنت قبالتهم، عاريا مجردا من أي لباس، حتى من القدرة على الكلام بعد أن نشف حلقي ورفضوا أن يعطوني ماء. كان في حنجرتي شيء يشبه الرمل وحراشف السمك. حاولت أن أغمض عيني كما تعودت أن أفعل كلما وصل الألم إلى أقاصيه لأخرج من دائرة الخوف والضغينة، ولكنهم كانوا في كل مرة يوقظونني بالماء البارد.

أحكموا وثاقي جيدا. شعرت بلحمة اليد تُنزع، وبجلدي يُقشّر كما تُقشّر الليمونة. كانت لحظتي الأولى في التحمل. لم أصرخ. ثم قيدوا رجلي بنفس الطريقة حتى أشعروني بأن قدمي ستفصلان عن رجلي. كانت البرودة تلسع الجسد العاري كليا. شعرت بشيء غريب قرأته في أعين بعضهم. كأنهم كانوا يستمتعون بتعذيبي، ثم وهم يكتشفون بعد تعريتي بأن عضوي الذي ضمر نهائيا، كان مُطَهّرا. عرفوا جيدا أن شكوكهم لم تكن باطلة. كانوا أمام الضحية المثالية. المارنوس أو الموريسكوس، لا يهم، كلاهما يحتاج إلى التطهر بالنار. تلمسوا جسدي للحظات. تلمسوا زواياه الأكثر حساسية، ثم غسلوا أيديهم في طاس ماء الواحد تلو الآخر وكأنهم كانوا يتوضّأون, راحوا يواجهونني تحت ضوء خافت، كان كافيا لأن يظهر لي جانبهم الحاقد والأكثر سوادا. عرفته من جبروته وهيبته. كان يجلس على المصطبة، رئيس ديوان التفتيش، عرفت لاحقا أنه هو نفسه أليخندرو الأراغوني، وعلى جانبيه، القضاة المتخصصون الذين لا تكاد وجوههم تُرى من تحت القلامين التي كانت تغطيها. سألوني أسئلة كثيرة، بعضها كنت أسمعه، والبعض الآخر كان يمر مثل الهواء الساخن على حواف أذني ولا يدخل أبدا. رموا عليّ الماء البارد من جديد لأنهم شعروا بأني كنت قد بدأت أغيب عن الوجود. ولأنهم لم يحصلوا على ما أرادوه في الجلسة الأولى، أجلوا البقية للجلسة الثانية. بدا

لي في لحظة من لحظات صفائي، أنهم لم يكونوا يعرفون بالضبط ما كانوا يريدونه مني.

في الجلسة الثانية أجبت من دون أية مقاومة. اعترافي أراحهم كثيرا:

«– أنا مرتد عن ديني. منذ صدور الأمر من الملوك الكاثوليك بتنصير المسلمين الذين يريدون البقاء، استجاب أهلي بلا ضرر ولا خوف. أنا يا سيدي مسيحي وأقوم بكل طقوسي. لم أحمل السلاح يوما ضد ملوك البلاد، ولكني حملته ضد اغتصاب نسائنا، وضد الظلم الذي مورس علينا. كنت أدافع عن أختي زارا التي اغتصبت في حي البيازين أمام الجميع. حتى جارنا الشيخ المسيحي موريسيانو، الذي دافع عنها، على الرغم من تقدم سنه، اتهم بالردة والهرطقة، وأحرق أمام الملأ، ولم يرحموا لا سنه ولا دينه. كنت أدافع عن أختي زارا التي اختطفها أحد العساكر الذي اغتصبها وأهانها قبل أن يأخذها عنوة معه إلى القلعة ويغتصبها من جديد ويرميها بالقرب من الحي اليهودي عارية، ليلبسوا اليهود التهمة، وليدخلونا في نار جهنم التي كنا نحترق بها نحن الاثنين. ماتت بالنزف والغبن. إلى اليوم أتذكر أنينها وصراخها ورغبتها في الموت. فقد انتهت بين يدي. سمعت أنفاسها وهي تتقطع. كانت أنفاسي. »

قلت لهم أيضا، غير آبه بالموت الذي كان ينتظرني، بعد أن نسيت كل النزف الذي لحق بجسدي:

«– ها أنا ذا أمامكم ريشة في مهب الموت. لست مهتما. العمر كله للرب. سأبكي عمرا ذهب في الريح ولم يسمح لي برؤية قاتل أختي، لا لأنتقم منه فقط، ولكن لأسأله، لماذا فعل ذلك بناس أبرياء لم يناصبوه أي عداء؟ كانوا مثله في دينهم وإيمانهم. أسألكم، أنتم من تعرفون الله جيدا، ماذا كنتم ستفعلون لو كنتم في مكاني؟ كيف كنتم ستتصرفون أمام اغتصاب ابنتكم، أختكم أو أمكم؟»

صمتوا طويلا قبل أن يسألوني إذا ما كنت حقيقة مسيحيا، أم أنني كنت فقط أمارس التقية للنفاذ من حكمهم؟ فرددت عليهم كل الصلوات المسيحية التي كنت أتقنها أحسن من الكثير منهم. لا أدري ماذا حدث لأحد الكهنة. أنجيلو ألونصو، بكى وهو يلتفت نحو الحائط. عرفت فيما بعد أنه كان جديدا على المهنة، ومقربا من الرئيس. وأنه كان يعرفني، وشهد أنه كان يراني في الكنيسة كل يوم أحد. فوجئت لأن ذلك لم يكن

صحيحا. عندما اقترب مني ليضع على جسدي كساء مثلما أمر رئيس التفتيش الذي انسحب بعدها لأداء مهامه في مكان آخر، وشوش في أذني بأني سأخرج سالما، ولكن يجب أن أصر على أن أردد ما قلته وما دافعت به عن نفسي، وأن طهارتي لا سلطان لي عليها.

في اليوم التالي أطلقوا سراحي، شرط المغادرة النهائية من الأراضي الأيبيرية. رافقني الكاهن أنجيلو ألونصو إلى المارية للخروج مع المغادرين. لا أعرف بالضبط لماذا فعل ذلك كله من أجلي معرضا حياته لمخاطر كبرى. كنت أظنه مخبرا لا يعرف شيئا آخر سوى حمل الشمعة للكاهن الكبير، لكن مع الوقت، تأكد لي أنه لم يكن كذلك. وأنه كان يعرف ابن رشد، وابن ميمون وأنه كان متأثرا بفلسفتهم ومعجباً بعقلهم، ولكنه في الوضع الذي كان فيه، لا يستطيع أن يكون إلا كذلك.

– أنا أنجيلو ألونصو. أتمنى أن تخرج بسرعة قبل أن يغيروا رأيهم إذا أخبرهم شخص آخر بعدم

مسيحيتك، أو تخليك عنها. اذهب إلى هناك، ستجد حتما من يحميك، أو على الأقل لن يقتلك بسبب ديانتك.

– لماذا قلت إنك كنت تراني كل يوم أحد في الكنيسة؟

– أعرفك أكثر مما تعرف نفسك. وأعرف أختك، لالة زارا جيدا. كنت من الذين

وجدوها مرمية في حي البيازين، بالقرب من الحي اليهودي، بعد أن رماها مغتصبها هناك. أنا من أخبر الأهل عنها، وأعرف حتى العسكري الذي اغتصبها. رأيته كيف دخل إلى الحي، وكيف كان يحرق ويخطف من يريد. كانت عند الباب عندما اختطفها، واتهم موريسيانو الذي حاول أن يدافع عنها، بالردة والعمل لصالح الموريسكيين. فألقي عليه القبض وأحرق أمام الملأ.

– من قتلها؟ زوجها. الدون كاميو؟

قلتها عفويا وكأني أفضي بسر لصديق عزيز. انتابتني لحظة غليان. كنت أعرف نقطة الخلاف بينهما. افترقا بالتراضي، لكنه لم يتحمل يوما اتخاذها لقرار الانفصال. ظل يهددها حتى غاب نهائيا عن حي البيازين. قيل لنا بعدها إنه التحق بجيوش

الملك ألفونصو التي كانت تتصيد الموريسكيين المختبئين وراء قناع التقية، لأنه كان الأعرف بهم.

صمتُّ بمرارة. كررت مرة أخرى:

– هل لي أن أعرف اسمه فقط؟

– في ماذا يمكن أن يفيدك هذا الاسم؟ اسم رجل قاتل؟ أنت ستخرج بشكل نهائي من هذه الأرض؟ أمامك مصاعب أخرى أكثر قسوة، عليك أن تواجهها وتتخطاها لتتمكن من العيش. لا تكسر نفسك من الآن. الحياة أثمن. وتستحقّ أن تعيشها بعد كل هذا الخوف وهذا العذاب.

– اشف غليلي يا سيدي. أريد فقط أن أعرف اسمه ليعلق إلى الأبد في ذاكرتي، وكلما انتابتني زارا في الحلم، قلت لها أني أعرف مغتصبها وقاتلها، وأني سأقتله إذا واجهته يوما.

– غارسيا غوميز دي نافارو، وهو نافاري الأصل، أصله برتغالي، ثلاثيني العمر. كان يعيش في بلنسيا. والده كان صانع سفن قبل أن يتحول إلى مسئول السوق الأول في ترحيل الموريسكيين والمارانيين. أغلبية ما تراه من سفن في الأحواض والمرافئ، هي ملكه الخاص وملك عائلته، أو المجموعات التابعة له. فقد استولوا في وقت مبكر على كل شيء. هم من صنع السفن الأولى التي شقّت بحار الهند المظلمة.

تمنيت شيئا واحدا ظل في حلقي طوال هذا الزمن، أن أجد فقط حرّيتي. لن أفعل شيئا آخر سوى الركض إلى حي البيازين أو على سواحل بلنسيا، والبحث عن غارسيا غوميز دي نافارو وقتله، وتسليم نفسي للمحرقة. أواجهه للحظة. أقول له وأنا أدفن سكيني في قلبه: *هل عرفتني يا كلب المزابل؟ أنا أخو زارا التي سرقت الحياة منها. تمنيت أن أسحلك في حي البيازين، أجرك حيا، ولكن الزمن تغير.*

نظر إليَّ أنجيلو ألونصو، بعينين دافئتين ومستغربتين مما كان يدور في داخلي من أشياء غير طيبة ووساوس حارقة لم أكن قادرا على تخبئتها.

«– طبعا أنت تفكر في قتل غارسيا غوميز دي نافارو! لن تختلف عن غيرك في هذه الحالة. أنت لا تعرف بأني أعرف جيدا أنك كنتَ مع القتلة الثلاثة الذين قتلوا البؤساء أصحاب الحنطور الذين كانوا ينقلون الصليب الكبير. ما كان ذنبهم؟ تهمة مثل هذه

كانت كافية لحرقك، مع ذلك لم أفعل لأني مازلت لم أفقد الأمل في الإنسان فيك، ومتأكد من أن الحادثة فُرضت عليك. لا تكن شبيها بالقتلة الصغار. إنهم يقتلونك للأسباب نفسها. أو شبيهة لها. المجرم قتل لالة زارا ليس فقط لأنه اشتهاها، إذ كان يمكن أن يرحل بها بعيدا، ويفعل بجسدها ما يشاء، بعنف أقل، فهو مالك للسلطان والقوة، ثم يطلق سراحها. عذبها وتركها تموت بين يديك، لأنه شم فيها رائحة غير رائحته. للحياة وقت واحد يا صاحبي يجب أن لا نضيعه، وللحروب أوقات تأكل فيها الأخضر واليابس. سننسحب من هنا بعد زمن، وسيأتي غيرنا، وسيحكون عنا ما سمعوه من فظاعتنا. هي كثيرة، فلا تزدها ثقلا. قتله لن يرجع لالة أختك ولا مثيلاتها. في ماذا كنت سأتضرر لو تركتهم يمزقونك كما فعلوا مع من سبقوك؟ لو لم أغامر بنفسي وأحكي في خلوة الأسرار، مع رئيس محكمة التفتيش ألخندرو الأراغوني، القريب من عائلتي وهو من وظفني، بأننا كنا بصدد ارتكاب جريمة لا يغفرها الرب، بقتل رجل هو منا بقلبه وروحه؟ انتفض ضدنا لأن أخته قتلها مسيحي مجنون. أملأ قلبك يا الرّوخو بالنور، ما تزال الدنيا أو بعضها أمامك. أمامنا جميعا.»

لا أدري كيف دخل كلامه إلى قلبي، وكيف محا الكثير من الأحقاد. كلما فكرت في العودة يوما، والانتقام، قفز أمامي أنجيلو بهدوئه وسماحة وجهه. أشك أحيانا إذا ما كان حقيقة إنسانا، وإذا لم يكن أكثر من ذلك، ملاكا ضائعا في زمن لم يكن له. كان أنجيلو حاضرا في كل حياتي. كان في كل مساراتي ومسالكي. ما أحدثه فيَّ لم يحدثه أحد غيره.

أنجيلو ألونصو كان حظي الكبير، وصدفتي التي لن تتكرر أبدا.

هذا ما قلته لنفسي يومها.

- ألم تشك في طيبة أنجيلو أن تكون مجرد لعبة لاستعمالك ومعرفة أسرارك؟
- هذه قصة أخرى. أية أسرار بقيت لنا بعدما قتل كل منتفضي اليأس، ثوار البشرات؟

عندما تواجه الموت ويأتي من ينقذك من نهاية مفجعة، ستكون غبيا لو فكرت في غير النجاة. لأن الفرصة التي تمنح لك وقتها، لن تتكرّر. الحكمة تقول أن تسلم أمرك

لمن ينجيك من نار جهنّم، ويمنحك الحياة بدون أن يطلب منك مقابلا. ثم إن هناك أناسا يُقرؤون من عيونهم وملامحهم. لا يكلفونك إلا النظر بصدق لوجوههم.

- أستغرب هذا من محارب كبير مثلك، قضى حياته بين اللغة والنار، بين الكتب وأحصنة الموت. حنا فاطنة التي عرفتك بقلبها وحواسها ورفعتك إلى مصافي الأنبياء، كانت تقول دائما عنك إنك كنت قائدا عظيما، لا قوة تثنيه عندما يقرّر. وأنك لم تكن تتسامح مع خونة الأرض والماء والبلاد.

- حنّا تتكلم بقلبها. لم أكن نبيا. كنت إنسانا مجروحا. الإنسان الأعمى كثيرا ما تقتله

البلادة. تخيل؟ أول شيء قمنا به احتجاجا على القتلة، رحنا قتلنا ثلاثة مسيحيين ذنبهم الوحيد أنهم كانوا يحملون الصليب على ظهر دابة لغرسه على مسجد، على أطراف المدينة، هكذا قيل لنا. سبعون شخصا خططوا ليلة كاملة، لقتل ثلاثة بؤساء ألبستهم ممزقة ووجوههم مكدودة. لم نتحقق حتى إن كانوا مسيحيين أم مجرد عمال مستأجرين. العمى أغلق أمخاخنا. لم نبذل أي جهد. دعك من هذا الكلام. البطولات يصنعها من كانت قلوبهم مشرعة على حب الخير في أشد اللحظات تأزما. لم أكن محاربا عظيما، ولا جبانا. حملت سلاحا لم أكن أعرف كيف أستعمله. لو رأيتني في الأيام الأولى لحزنت من وضعي. كنت محارب اليأس. عندما يخونك سريرك وغطاؤك وطعامك، لا يبقى أمامك إلا البحث عن موت هو بمثابة الخلاص لا أكثر. البطولات تصنعها الروايات التي تلي موتك يا حبيبي ولا شأن لك بها أبدا. ليس بالموت وحده يكبر الإنسان. لم نفعل الشيء الكثير سوى أننا في كل ليلة نترشح للموت في وادي الظلام. الكثير منا لم يعودوا من رحلاتهم إلى هناك. ننزل إلى الحواف الغميقة المليئة بالحشرات والناموس، ننتظر السفن العثمانية متى تأتي إلى وادي الظلام. عندما تصل نفرغها ثم ننسحب نحو البشرات محملين بالأسلحة، بعضها جيد والكثير منها فاسد.

لا أدري إذا كان الرّوخو واعيا وهو يمحو كل بطولاته أمامي ويحوّل نفسه إلى إنسان عادي. كنت حزينا قليلا، ولكني كنتُ أيضا سعيدا، لأني لأول مرة أتعرف على إنسانية جدي. على قوته وعظمته وطول قامته. كنت أرى فيه طفلا كان يرفض أن

يكبر. التفت نحو المدينة رأيته حزينا وهو يغوص بنظره فيها، وهو يتهيأ لمغادرتها للمرة الأخيرة. أن تترك مدينك وناسك وهواءك ونجومك وحرائقك ومقابرك وراءك، تحتاج إلى قوة أخرى غير تلك التي يراها الناس فيك.

التفتَ نحوي وكأنه يزوغ بوجهه لكي لا يرى حرائق غرناطة.

- الراهب أنجيلو ألونصو، سرعان ما سلمني لغيره معتذرا بأن مهمته قد انتهت. خليفته

لم يكن رحيما معي، ولا حتى مع غيري. كنت مؤمنا بشيء واحد هو أني لم أرتكب خطأ، وأني كنت أدفع ثمن تاريخ صنعه الآخرون، وأنه كان عليّ أن أتحمل بصبر كبير ما كان يحدث لي، لأن الصدفة شاءت أن أوجد في الزمن الذي لم يكن عليَّ أن أوجد فيه، وفي اللحظة القاسية التي كان عليَّ تفاديها. كانت حربي عادلة، وكنتُ فيها الصدفة الجريحة، والذرة الضائعة التي تنتظر يدا تضعها في نفق النهايات. أدرك أن زمنا مات وانتهى، ولكن كان عليّ أن لا أقبل بالقدر المسلط علينا. كنت أعرف أيضا أن حربي خاسرة، ولكن كان عليَّ أن أخوضها بكل ما أملك من قوة وأن أقاوم حتى الموت، زمنا كان قد انتهى. هناك حروب نعرف سلفا أنها خاسرة ومع ذلك نخوضها لا لربحها، ولكن لتأخير مهالكها قليلا، ربما انفتحت في الأفق كوة صغيرة غير محسوبة. كنت أعرف وأنا أقف بجانب سيدي الأمير، الدون فردناندو دي كردوبا فالور، أننا سنموت في جبال البشرات الباردة التي يقتل صقيعها الليلي، وجوعها وخياناتها وعزلتها قبل أن تقتلنا نارها. كنت أحمل السلاح وفي رأسي ذلك الشتاء القاسي الذي سلم فيه أبو عبد الله الصغير مفاتيح غرناطة وتركنا نموت وراءه. تعلمت بالسماع والحياة الصعبة، أن القائد العظيم هو من يموت مع رعاياه، لا من يتركهم وهم في أمس الحاجة لا إلى قوته فقط، هذا ليس مهما كثيرا وليس حاسما، ولكن لمؤانسته وصوته وبركاته حتى ولو كانت كاذبة، لتحمّل اللحظات الأكثر قسوة وبرودة ويتما، في حياة الإنسان. كنا نموت، وكان في رأسي محمد الصغير وهو يبحث عن كلماته المرهقة، لمرافعة أمه عائشة التي أشاحت بوجهها وهي على الهضبة المشئومة: *زفرة الموريسكي الأخيرة.*

... آه يا جدي ماذا أقول لقلبك الزكي وأنا أرى مدينتك تحترق أمام عينيّ؟ تخترق اللحظة مسامعي المرهفة تراتيل الموتى الذين خرجوا ليموتوا بغبرة البارود الحارق والرماح العمياء ولم يعرفوا لا قاتلهم ولا سبب موتهم، ولا حتى الأرض التي تستقبل أجسادهم التي أذبلها الجوع والبرد والخوف؟ هل هي حرب أهلية يا جدي أم هي حرب المستقوي على المنهك والمنتهك؟ أي نشيد كان يستعر في قلبك وأنت تغمض عينيك للمرة الأخيرة على حرائق اليأس؟ أي رعشة سكنتك للمرة الأخيرة وأنت تخسر أرضك وتستبدل مدينتك المسروقة ودمك الذي ساح سخيا بخلوة جافة كان عليك أن تعيشها بقسوة؟ لم تكن بطلا خارقا يا جدي كما صورتك حنّا بعنفوان حبها وطيبتها، لكنك عندما رأيتَ الظلم يرتسم في الساحات وعيون الناس، ويخط جراحه على أجسادهم، لم تسأل إلا قلبك وركبتَ رأسك ورميتَ بنفسك في وادي الظلام. أي ظلام يا جدي سكن دمك وبقيتَ واقفا كرمح ولم تنحن؟ لو فقط يا جدي تسمح لي أن أقبل كل حرقة في جسدك، وكل لسعة بارود أو ضربة سوط، لكنها انطفأت كلها. لو تسمح لي يا جدي أن أقبل آخر سلاح حملتَه بين ذراعيك، ووضعتَه على صخرة وحاولتَ أن تنساه هناك، أخر صرخة ملأت قلبك؟ أقبّل يا جدي باطن رجليك اللتين تشققتا بفعل الصخور المسننة التي وطأتها وأنت تتجه نحو موتك، في حرب كنت سيد العارفين أنها خاسرة، لكنك لم تلتفت وراءك.

كم أشعر بالخجل أمامك. كم أشعر بالخوف.

كم أشعر بالبرد في ظهري يا جدي.

7- حرِّرْنِي يَا إِلَهِي.

Libera me *حررني يا إلهي، إني أشعر بالبرد.*

أسمعه كما لم أسمعه أبدا من قبل. أغرق في قدّاس الأناشيد الخافتة التي كانت تأتي من مكان كنت عاجزا عن تحديده. تتوغل في الأعماق كأفعى الغواية. ينتابني ألم في القلب لا أستطيع حياله فعل الشيء الكثير.

لم يتغير الجو أبدأ ظلت الشهب تعبر السماء بنفس السرعة المجنونة، ثم تضمحل في الآفاق البعيدة في شكل عرس من الألوان النارية. تخترق قلبي المتعب قليلا، نسمات عطرة ممزوجة برائحة طفولية كنت أظنها من البنفسج البري الذي كنت أقطفه من المقابر، ومن تحت صخور الممرات الضيقة الموصلة إلى بيتنا القديم، جبل النار قبل ترحيلنا، ومن مختلف الأماكن وأنا أعبر من أعلى جبل تيغراو متجها إلى الجامع ومنه إلى المدرسة قبل أن يتم تجميعنا في محتشدات صنعها الاستعمار خصيصا لهذا الغرض وأحاطنا بخطَّي الموت الملغمين والمكهربين: خط موريس وخط شال في 1959.

عرفت الآن مصدرا آخر لهذا العطر، فقد كانت تأتي به النسمات المنزلقة من غرناطة التي كانت تبدو في أشدّ فترات حزنها، ورعشة خوفها.

عندما سألت الروخو عن إحساسه العميق وهو يُرمى بعيدا عن أرضه، صمت طويلا. في البداية ظننت أنه لا يملك إجابة. كان من الصعب عليّ تحمل فكرة أن الروخو الذي أصابه الحريق في الصميم وقاوم ببسالة جيوش الملوك الكاثوليك لا يملك إجابة. لم يتكلم، على الرغم من أنه قرأ حيرتي في عيني المندهشتين مثل عيني طفل. مد يده نحو صخرة بركانية ضخمة، لم يبذل جهدا كبيرا في تحريكها، ولم يطلب مساعدتي مع أني كنت على بعد نفس واحد منه. كانت تنام تحتها كتل كثيرة من الرماد. غرس يده فيها فغرقت حتى الذراع. كان الرماد ناعما مثل الدقيق. برقت عيناه بسعادة غريبة. حمل حفنة منه في عمق كفيه ثم بعثرها مثل طفل، باتجاه المدينة المرتعشة تحت

قناديلها الزيتية التي كانت تضيء كل جوانبها المظلمة وتمسح ظلالها الخفية بين البنايات الواطئة والشوارع الضيقة.

لم أكن أعرف ما الذي كان يدور في دماغ الروخو؟

ثم أخذ حفنة ثانية وسألني إذا ما كنت أرى شيئا؟ فأجبت بعفوية أن نعم. كنتُ أرى غرناطة في كامل بهائها وصفائها. كانت ما تزال تحت بهاء عاصفة من الأنوار المتحركة مما منحها بهاء آخر. كل شيء فيها كان يتحرك باتجاهي حتى بدت على مرمى الأصابع، قبل أن تعاود حركتها بشكل معاكس، فتبتعد حتى تكاد تغيب. في عمق دوامة تأتي بها وترميها بعيدة عني. حالة دوار لذيذة.

- كأنها تحت عاصفة من النور تشبه عاصفة ثلجية يا جدي.

- على هذه المدينة أن تختفي الآن. لا ثلوج في موسم المدينة هذا، في غرناطة. انعكاس

الأنوار فقط على ذرّات الرماد هو ما يعطي الإحساس الذي انتابك.

فجأة ذهبت البرودة التي اخترقت جسدي.

- ترى شيئا؟

- نعم يا جدي أرى المدينة. ربما كنت أراها فقط بقلبي

ثم ثالثة ورابعة ثم رمى بحفنة أخرى من الرماد، وسألني نفس السؤال. فأجبته بالإجابة نفسها. وكانت المدينة ما تزال تظهر في عز بهاء كنائسها وصوامعها. ثم حفنة سادسة غابت على إثرها بعض تفاصيل غرناطة البعيدة. غابت هضابها وجبل البشرات نهائيا. انمحت المسالك التي تقود إلى مالقة والمارية. لكن الواجهة الأمامية للمدينة بقيت كما هي. عندما رمى الحفنة السابعة، وبعثرها بهدوء كمن يتلذذ بها مثل إله العواصف والرياح، وبعيدا وعاليا في أقاصي السماوات وبطريقة جديدة. فقد وضع الحفنة الكبيرة في عمق كفه اليمنى، ثم بدأ ينفخ فيها بهدوء كأنه كان يمنحها من روحه الكبيرة. بدأت الذرات تتصاعد عاليا وتكوّن شيئا فشيئا غطاء تنام وراءه مدينة قاومت الموت قبل أن تلبس جلدا جديدا كانت قد خبأته قبل أن تستعيده بعد أكثر من ثمانية قرون.

فجأة أصبحت غرناطة ظلّ مدينة.

لم أفهم سر هذا كله. سألني الروخو وهو ينفض يديه من غبار الرماد.

- هل ترى شيئا حبيبي؟
- لا أرى إلا الرماد يا جدي.
- تأكد جيدا من ذلك.

مسحت عيني من جديد وأمعنت النظر، فلم أر إلا ذرّات الرماد وهي تتأرجح في الفراغ دون أن تسقط.

- لا شيء يا جدّي، سوى الرماد.

أدخلت ذراعي عميقا في الفراغ.

- أنظر. لا أرى شيئا أيها الحبيب الكبير. لا أرى شيئا.

جلس الروخو بالقرب مني على الكرسي الصخري. وتمتم كمن حقق انتصارا.

- الآن يمكنك أن تفهمني جيدا يا ابني. أنت سألتني عن حالي يومها وأنا أخسر ما

تربّيت فيه وعليه. كانت هكذا. بالضبط لم أر إلا الرماد. شعرت كأن تاريخا وبشرا ووجوها سرقوا مني بلا ثمن يستحق. لم أكن أصدّق كيف ينقلب كل شيء في إنسان كان يعيش في راحة، ثم فجأة يحرق أمامه جلده ونوره وحنينه وكتبه وشعره وقلبه. لم أكن قادرا على التحمل. الأمر كان فوق طاقتي، أن أخرج كأني لم أكن أبدا، تاركا ورائي رفات ثمانية قرون. كان الوضع يحتاج إلى شخص أقوى مني، بل أكثر جلدا من نزقي.

- ولكنك يا جدي كنت عندما ييأس الناس، تأتي أنت، فتمسح على رؤوسهم وتمنحهم

أمل العيش، بل الأمان والراحة الداخلية. لم يكن غيرك قادرا على فعل هذا.

- انسَ قليلا طيبة قلب حنّا. يومها فقط يا حبيبي كنتُ أنا من كان في حاجة ماسة إلى

ذلك، فلم أجد إلا محاكم التفتيش المقدس، وأزلامهم، وروائح الموتى، والجبناء الهاربين والنهايات المفجعة. يومها انتظرت عبثا من يمسح على رأسي ويقول لي فقط، لا تخف. ويخفف من روعي ويهدئني قليلا. لم أكن خائفا من الموت ولكن من أن أجد

نفسي وحيدا في مواجهة غطرسة الفراغ. لأنني عندما أخاف، أشعر بقوة بالبرد في ظهري. كنت في حاجة إلى من يعيد لي نجمتي المسروقة، وشمسي التي غابت هي أيضا وراء الرماد. كنتُ في حاجة لمن يحسّسُني بأن غرناطة التي كبرتُ فيها لن يسرقها رماد القتلة منّي، وأنها ستعود، وتعود مهما كانت قسوة الغياب. كنت أهذي فقط من شدة ألم الفقدان. كان الرماد يومها يغطي كل المدن السليبة. المدن عندما تسقط تحتاج إلى زمن آخر لتستعاد أو تتلاشى من الذاكرة. في كل شيء هناك لحظة سقوط لا أحد يتكهن بوقتها وزمن حدوثها. تحرق جيلا بعينه، وتنهيه بقوة الموت والبطش وتحمله خيبات تاريخ عاشه ولكنه ليس مسؤولا عليه. هذا السقوط المريع مسَّنا، فاستعادوا أرضهم وأحرقوا جهدنا. سيأتي سقوط مريع آخر يسرق منهم ما ظنوه نهاية ومنّا أيضا. هذا السقوط المريع كان بداية لسقوط أكبر ما زلنا فيه إلى اليوم وسيستمر طويلا، لا أحد يعرف كم من الوقت سيستغرق. في اللحظة التي تسقط فيها أنت، ينشأ فيها غيرك، وغيرك نفسه سيلحق به غيره ويقوده نحو سقوط آخر. مآل البشرية الجشعة.

- اليأس يا جدي وليس هذيانا.
- يمكن. ذلك اليوم كان مريعا، انغلق فيه كل شيء في وجهي.

كانت السفن الإيطالية والبرتغالية تتقاتل على الزج بالجميع من وراء البحر. هاجر كثير من أشراف غرناطة، بعد أن بيعت أملاكهم بثمن بخس، بينما اندس القسم الأكبر من المسلمين في المدينة وما حولها. منظر موجع يا قلبي. عدا جموع المودِخار الموجودين في بلنسية، في شرقي الأندلس، وفي سرقسطة، في شمالها، الذين كانت أعداد كبيرة منهم لا تزال تحتفظ بدينها الإسلامي حتى جاءها الأمر الصارم، إما الطرد، أو التنصير لمن يريد البقاء. الحرب هي دائما حرب المنتصر والسلام سلامه أيضا. فقد تنكر المنتصرون لكل حرف خطوه في المعاهدة، واستطالوا على جموع المنكسرين في حرب غريبة. كما تعرف يا حبيبي، فقد أصدر في عام 1501 الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا، مرسوما ملكيا يقضي بضرورة تنصير المسلمين، فحاول بعض مسلمي غرناطة الاحتجاج ببنود اتفاقية التسليم، فإذا هي لم تعد تساوي قيمة الحبر الذي كتبت به. وعندما قرروا المقاومة والتصدي لهذا المشروع،

وحل بشيخهم الزبيري الطاعن في السن من بلاءٍ كبير، سُحق المعارضون في حي البيازين تحت سنابك الخيول. وتحول الحي إلى ساحة للموت. قتل الجنود القشتاليون كل من اعترض سبيلهم، دون تمييز. وتم تقديم رؤوس الفتنة إلى محاكم التفتيش. قام زبانية الكاردينال خمينيث، مطران طليطلة، ورأس الكنيسة الأسبانية، بالقبض على المسلمين لمجرد الشبهة وحشدهم في ساحة غرناطة الرئيسية. تم إعدام مائتين من علماء المسلمين حرقاً أمام الجميع، حتى يكونوا عبرة لغيرهم. ألحق بهم بعض المسيحيين الذين احتجوا على المقتلة. ثم جُمِّعت كتبهم ومصاحفهم، فأحرقها الكاردينال خمنيث أمام الملأ بنفسه، ولم يستثن منها سوى 300 كتابا من كتب الطب. فرض التنصير على عموم من بقي من المسلمين فرضا، وأغلقت مساجدهم، أو حولت إلى كنائس، وأجبروا على تغيير أسمائهم العربية إلى أسماء نصرانية. حظروا عليهم استعمال الحمامات، وأمروهم بهدم المقامة منها، سواء كانت عامة أم خاصة. منعوهم من إقامة الحفلات على الطريقة الإسلامية، وأن تجرى الحفلات طبقا لعرف النصارى والكنيسة الكاثوليكية. وحظروا عليهم إغلاق المنازل أثناء الاحتفال وفي أيام الجمعة وأيام الأعياد، وألزموهم بإبقائها مفتوحة ليستطيع القسس ورجال السلطة أن يروا ما يقع في داخلها من المظاهر والممارسات.

فجأة تحول الجحيم إلى حقيقة مرئية إذ بدأت ملامح المدينة تمحى ويحل محلها عنف أعمى. أصبح الكاردينال المتحجر القلب خمنيث، هو المفتش الأعظم للديوان، الذي كان يسهر شخصيا على الحرائق والمداهمات وحملات التقتيل. انتشر قساوسته في كل أرجاء غرناطة يقبضون على أي واحد من المسلمين أو اليهود، لمجرد الشبهة. وقد وجدت محاكم التفتيش المقدس، في هذه الفئة المستضعفة، أخصب ميدان لنشاطها، فأخضعتهم لرقابتها الدائمة، وجعلتهم شغلها الشاغل. صادرت أموالهم، وانتهكت أعراضهم، ونكّلت بهم أشد تنكيل، وأقامت لهم المحارق الجماعية، وملأت منهم سجونها المظلمة والعفنة، وتفننت في أساليب تعذيبهم وإرهاقهم جسديا ومعنويا، وتركت في مأساتهم أعمق الأثر. كان مجرد ذكر اسم هذه المحاكم يثير الرعب والفزع.

- كيف يرضى الله بهذه القسوة التي تمارس باسمه؟

-     أنت في حضرته اليوم يا ابني. الله نور وعواصف تراها في كل مكان، وأحيانا هي
فيك ولا تراها. بنفسج وزلازل تهز اليقين من تحت أرجلنا. الله كل شيء ولا شيء. غفوة أو لمسة ساحرة وبروق ورعود مزمجرة. وهؤلاء رهنوه ليحولوه إلى شيئهم. أصبح يشبههم. أصبح هم، وهم أصبحوا هو. بل أكثر من ذلك كله، فقد صغر في أعينهم حتى انتفى ولم يبقوا إلا هم. لقد جربوا على جسدي كل وسائلهم الجهنمية لدرجة الصراخ بأعلى صوتي في لحظات اليأس. *حررني يا إلهي. حررني من هذه الآلام، إنني فيك. حررني من جسدي، إني أشعر بالبرد في ظهري.* كان الله مغيبا عني ليلتها ولم أر نوره أبدا، ولكني رأيت ظلمة مستشرية. فجأة وأنا أسمع لنداءات جسدي الممزق رأيت نورا متسربا من مكان ما لم أستطع تحديده وسمعت أصواتا مبهمة اتضحت بسرعة هي بين التراتيل القرآنية والأناشيد، فأغمضت عيني وتركتني أنحدر صوبها. كانت الأناشيد المؤداة بأصوات نسوية وطفولية تملأني، وتملأ قلبي وكل خلية في جسدي. فجأة لم أعد أشعر بأي شيء من حولي قبل أن يتدخل أنجيلو الونصو ويخرجني من حمم الموت.

مع في عيني شيء غريب وكأني رأيت خيط النور الذي تحدث عنه ولم يعرف من أين دخل؟ فجأة انتبهت أنا أيضا لخوفي. وكأني خرجت من غفوة تشبه الدوار. أدركت بلا تفكير أني كنت أشبه جدي في حبه للأناشيد الغريغورية المعبرة عن خلوة هي بين الخوف والتعبد. لا أدري بالضبط من أين جاءني ذلك، لكن أول ما سمعتها في مدرسة القرية بمناسبة رأس السنة التي كان ينظمها لنا معلمونا الفرنسيون أدركت أن بها شيئا من الرهبة والخوف والحب أيضا لم أستطع تفسيره. ربما كنت مثل جدي، بحاجة إليها لأومن بأن هناك قوة غيبية تستطيع أن تغير كل شيء بعواصفها المخبأة.
التفت جدي نحوي يبحث عن صدى ما قاله، في عينيّ. رأيت لحيته الحمراء التي لمعت قليلا في عمق كتلة الضباب وأبانت عن وجه سمح، لا تغادره الطيبة، حتى وهو يحكي بألم.

-	أدركت لحظتها أن الله سمعني. لم يعد لدي أبدا ما أقاوم به، فقد تعبت من وحشيتهم،
إلا ما تبقى من صراخ اليأس في داخلي. فهمت جيدا يومها صرخة سيدنا المسيح: *يا إلهي لماذا تخليت عني؟* لقد جربت محاكم التفتيش المقدس كل شيء على أجسادنا. الجلد علنا، الكي بالنار، حرق الأقدام بالفحم المشتعل، ربط أطراف المتهم في إطار مثلث الشكل، التجويع التدريجي، التعذيب بالأسياخ المحمية وحرق البطن والعجز، سحق العظام. لم تكن محاكم التفتيش تتحرج من أي شيء. من صلاحياتها، القبض على الأبرياء ومطاردتهم لأدنى شبهة وتقديمهم للتحقيق والتعذيب والمحاكمة، دونما حاجة لتوافر البيّنة أو الأدلة القطعية، واقتحام منازلهم للتفتيش فيها عن مصحف مخبأ، أو توراة، أو أي أثر من شعائر المسلمين واليهود، مع استجواب الأطفال القصر، وسؤالهم إن كانوا يرون آباءهم أو أمهاتهم يصلون أو يقرؤون القرآن أو التوراة. كان امتلاك الكتب والأوراق العربية والعبرية، يعتبر في نظر المحققين من أقوى الأدلة على الردة، ويعرض المتهم لأقسى أنواع التعذيب. حتى إنهم كانوا يفتشون في حميمية الصبي، أو الرجل، فإن وجدوه مطهّرا، علموا أنه مسلم أو يهودي، بطشوا بأهله وبزوجته، وأحيانا. دستور محاكم التفتيش يجيز محاكمة الموتى والغائبين أيضا، وإصدار الأحكام في حقهم، ومصادرة أموالهم، وتوقيع العقوبات عليهم مثلهم مثل الأحياء بأن تعمل لهم تماثيل رمزية تنفذ فيها عقوبة الحرق.

بعض الموريسكيين ربى أبناءه على الإسلام وعلى النصرانية معا، وهو حال أسرتي، لتفادي العذاب والمحارق، وبإيمان داخلي أن الله في كل مكان وفي كل الديانات وفي كل اللغات. الكثير من أقاربي من أمي على الخصوص، كانوا تجارا ميسورين وأصحاب مزارع كبيرة وحرفيين يشتغلون في الذهب، بينما أجدادي من والدي فقد كانوا من عشاق المخطوطات النادرة. امتلكوا الكثير منها، وباعوا لملوك الطوائف والسلاطين المحبين للعلوم والآداب، النادر منها. وظفوا الكثير من الخبرات المسيحية واليهودية في محلاتهم. استطاعوا من خلال ما كانوا يدفعونه من ضرائب إضافية وإتاوات للأمراء المحليين، لدعم الخزينة الأسبانية، أن يخفّفوا من وطأة الكثير من

القوانين الجائرة الصادرة ضدهم أو تجميدها أو تأجيل سريانها. وقد استمر ذلك حتى سيطرة الملك فيليب على مقاليد الحكم، فكان عهده قاسيا على كل أفراد العائلة ومن كانوا في حمايتهم. تم تجديد وتعزيز معظم القوانين المجحفة التي صدرت في عهد أسلافه، وأظهر إصرارا منقطع النظير على وضع كل تلك القوانين دفعة واحدة، موضع التنفيذ، وبشكل حازم وجازم وشديد الصرامة ودون أية هوادة فيها أو رحمة. وقد تم إشعار الأهل بذلك في أول يناير 1567، وهو اليوم الذي سقطت فيه غرناطة، وأصبح عيدا هو عيد الاسترجاع. عمل على تقسم المجتمع الموريسكي الهش والمنكسر أصلا، إلى قسمين: فئة الموريسكيين المحاربين، وهم الذين حملوا السلاح وقاموا بثورة البشرات دفاعا عن دينهم وأنفسهم وأعراضهم، وفئة الموريسكيين المدجنين أو الموديخار *Modejar*، وهم الذين لم يحملوا السلاح، ولم يشتركوا في الثورة، وظلوا على ما هم عليه من ولاء. على هذا الوتر الحساس بدأ السياسيون الأسبان يعزفون، فجاءوا بزعماء من المدجنين، وبعثوا بهم كوفد إلى إخوانهم من المحاربين في جبال البشرات. ودعوهم إلى إلقاء السلاح وإيجاد صيغة تفاهم تحمي الزرع والضرع والنسل من الهلاك. كان على رأس هؤلاء المدجنين بطل معروف بفروسيته، ألونصو فينيغاس. بعث إلى الأمير محمد بن أمية، برسائل كثيرة يعاتبه فيها، ويؤكد له مجانبته للعقل وتعريض أمته، أو ما تبقّى منها، للهلاك. لا أعرف إذا ما كان علي أن أحقد على ألونصو فينيغاس، أم أحاول أن أتفهم خياراته السلمية؟ عندما أفكر طويلا أتساءل إذا لم يكن من الأفضل الاستماع إلى العقل؟ سيدي محمد الأموي كان يثق بشكل أعمى في إخوته من وراء البحر. لكن العدوة الأخرى كانت منشغلة بهمومها الخاصة. أصواتنا كانت تصلها باردة وميتة. سعيدة بصفقاتها وتجارتها مع الأسبان والعثمانيين والفينيسيين. كان حزني كبيرا عندما رأيت لأول مرة الحيرة ترتسم على وجه سيدي، الذي لم يكن يملك غير هذا. لأول مرة أيضا أرى انزلاق الثقة من عينيه وتسرب الخوف ممن كانوا يحيطون به. سألته:

– *سيدي أرى شكا يطبع محياك؟ هل نسير في طريق المدجنين؟*

– *لا. يا الروخو. الأمر أخطر. عندما تقف في مفترق الطرق ولا تعرف أي الطرق الأسلم، هل طريقنا في الجبال التي ركبناها عن ظلم وقسوة، أم طريق الدون ألونصو*

فينيغاس الذي لم أشعر أن في كلامه خيانة، بقدر ما فيه من تعقل؟ نحن نخوض حربا أصبح مؤكدا لنا أننا نخوضها وحيدين بعد أن تواطأ إخوتنا من وراء العدوة الأخرى ضدنا بصمتهم وجبنهم.

– أنت صاحب القرار يا سيدي. هناك حالة حيرة في عيون الجميع؟ إما أن نموت جميعا أو نواصل جميعا.

– سواء كان المدجنون يدركون عواقب فعلهم هذا من عدمه، فإنهم قد سمحوا لأنفسهم بممارسة الضغط علينا وأربكونا في ثقتنا الهشة، ربما بسبب قوة تعقلهم وتبصرهم، أو بجبنهم؟ أو ربما كانوا يفكرون بطريقة أقرب إلى الزمن الذي نحن فيه، أكثر منا.

– معضلة يا سيدي. نحن في وضع لا نحسد عليه. نعم للجنوح للسلم، ولكن أين كان الدون فينيغاس وغيره من دعاة السلام والمصالحة، أين كانوا عندما كان سكان غرناطة من المستضعفين يُطحنون تحت رحى وكلاليب محاكم التفتيش؟

– هل لنا خيارات أخرى غير الموت أو وضع السلاح؟

فجأة ذهبت حيرته وانسحبت بعيدا وكأنه استيقظ من غفوة لم تطل كثيرا.

– الدم سال كثيرا ونداءات الاستغاثة تملؤنا، ولا أعتقد أننا نستطيع أن نتراجع إلى الوراء حتى ولو شاء ذلك غيرنا. سيقتلنا الجبليون قبل أن تعدمنا محاكم التفتيش المقدس. أحرقوا شبابهم، ويتموا أولادهم معنا. ثم إن الضر كبير. المصالحة لن تصبح نافعة عندما يعم الشر وتسود المظالم، وتنتشر روائحه الكريهة. هكذا أفضل من حالة الحيرة والخوف. لا أرى الآن أي جدوى في كلام فينيغاس. حتى حلفاؤنا الأتراك، كما تعرف وهم من يوردنا بالأسلحة، يرفضون الاستسلام. وقد يقتلوننا إذا سلمنا في الأمر قبل أن يبيدنا الأسبان. لنمت على أرضنا واقفين أفضل من أن تأكلنا المنافي، هذا إذا كان ذلك من حظنا. لم نفقد الأمل في النجدة. لقد بدأ الأتراك والمغاربة المتطوعون في التململ. يجب أن نجد حلا سريعا. لقد رفضوا حتى مبدأ الحوار مع الأسبان، ويريدوننا أن نظل في قلب النار. يرفضون أي تفاهم وقد اقنعوا الكثير من الموريسكيين، ولا حل لدينا إلا الذهاب وراء الشهادة.

بدأت أرى يوميا خط الانشقاق الذي كان يدب في صلب المجموعة التي تحولت إلى رتل صغيرة تأتمر بقادتها الصغار. الأتراك لهم قائدهم، والمغاربة أيضا. حتى جزء

كبير من الموريسكيين أصبحوا يولون ظهورهم لأوامر سيدي الأمير محمد بن أمية. كان الأمر يزداد كل يوم تعقيدا. قرأت في عيني الأمير الحزين رغبة كبيرة في حقن الدم. لكن من يعلن الحرب، ليس هو من يسكت مدافعها في النهاية. ربما كان أول خطأ ارتكبه سيدي أنه انصاع لأوامر من نصحوه. نبهته. قلت له *سيدي المغاربة أبناء جلدتنا. الأتراك حملوا السلاح معنا وغامروا بأنفسهم في البحار من أجلنا.*

رد وهو على يقين مما كان يقوله:

- *من أجل القرصنة وبيع الأسلحة. نحن سوق مضمونة. توقيف الحرب، هو توقيف بيع السلاح لنا.*

شعرت فجأة بأن لهجته تغيرت تماما. وأصبح الأمير في منزلق خطير. حاولت أن أوقفه وأنبهه لما كان يحاك ضده. وكلما قلت له سيدي... قال أعرف. في مرة من المرات بعد أن صددنا الهجمات الإسبانية الأولى التي كانت تريد أن تقتحم الجبل. صرخت بأعلى صوتي:

- *سيدي ومولاي... أنت ترمي بنفسك إلى التهلكة.*
- *هل هناك تهلكة أكثر مما نقوم به، وما نحن فيه؟*
- *أتكلم عن فصل القادة المغاربة والأتراك من صفوفنا؟*
- *فصلوا أنفسهم بأنفسهم. ألم تر؟ إنهم يرفضون الانصياع للأوامر. ماذا أفعل معهم؟ هل أقاتلهم؟ جُدد على الأندلس ولا يعرفون أنظمتها وناسها وعاداتها.*
- *سيدي وأميري.*
- *لم يفهموا أنها* حربنا *وليست* حربهم.

وانتهى الوضع بخلاف قاس أدى في النهاية إلى سقوط الأمير محمد بن أمية على أيدي المتطوعين الأتراك، وسلّموا جثته للإسبان. لم يمهلوه حتى يعيد ترتيب نفسه، فقد أصبحوا جيشا داخل جيش، وقاموا بما كانوا يقومون به في تونس والجزائر. كلما غضبوا على حاكم أكلوا رأسه، وأتوا بغيره قبل أن يزيحوه أو يخنقوه ويعوضوه بشخص غيره.

لا أدري إذا كان المدجنون هم السبب في الفتنة والقتل؟ ولكنها كانت فينا من يوم حملنا سلاح المقاومة. كان زمن ما قد انتهى وحل محله زمن آخر. حاولنا تمديده.

سمعت بعد زمن طويل، أن قادة الفرق من كل الجماعات، الأندلسية والمغربية والتركية، اجتمعوا واختاروا خليفة جديدا له هو ابن عم الأمير القتيل، فتسمى بمولاي عبد الله محمد. وكان هذا الأمير أكثر فطنة وروية وتدبرا وخبرة من محمد بن أمية، فحمل الجميع على احترامه، وشغل حينا بتنظيم الجيش واستقدم السلاح والذخيرة من ثغور المغرب، والتف حوله جيش مدرب قوامه زهاء عشرة آلاف مقاتل، بمن فيهم المتطوعون المغاربة والأتراك، فضلا عن الأعداد الكبيرة من المتطوعين من بقايا الأندلسيين. وحصل مولاي عبد الله على تعزيزات من قيادة الجيش العثماني في الجزائر، وكان ذلك سببا في نجاح حملاته الأولى ضد الأسبان. مع هذا التصعيد، راح زعماء الثورة الموريسكية يكتبون إلى ملوك المسلمين شرقاً وغرباً يناشدونهم الله في الإغاثة، وكانت أكثر كتبهم إلى مولاي عبد الله، ملك السعديين في فاس، لأنه كان الأقرب إلى أراضيهم، ولكن الضفة الأخرى كانت ميتة.

رأى الأسبان أن الفترة كانت مناسبة لحسم معركة كانت كل يوم تزداد اشتعالا. قام هذه المرة دون خوان النمساوي، القائد الأسباني الذي كلفه الملك بقمع الثورة ووفر له مختلف أنواع الدعم، بشنَّ حملات واسعة، خلال عامي 1569–1570. فصفى الجيوب المتبقية والثغور. وأحرق المساكن ودمر البلاد وهجر السكان، وأفرغ الكثير من القرى. كان شعاره: *لا هوادة. لا رحمة.* انتهت هذه الحملات القاسية بالإذعان التدريجي لجيوش مولاي عبد الله. أقنع الأسبان أحد أهم القادة المسلمين الميدانيين الموريسكيين، القائد الحبقي، مقابل بعض الضمانات والتسهيلات، فانشقّ عن الثوار وأعلن الاستسلام للسلطات الأسبانية، بعد مفاوضات سرية لم تدم طويلا. الحبقي دفع حياته ثمنا لالتزامه بتوقيف الحرب. فقد سحبه الثوار نحوهم وقتلوه. تحول بعدها الكل إلى مجموعات صغيرة تشبه قطاع الطرق، ضائعين في الجبال، بقادة صغار أكثر ميلا نحو مصالحهم الشخصية. لم يعد أحد من الباقين في الجبال مقتنعا بما كان يحدث. الخوف من القتل كان يلجم الجميع. لكن مولاي عبد الله رفض الاستسلام وقرر المضي في المقاومة حتى الرمق الأخير. لجأ مع قلة قليلة من الذين بقوا إلى جانبه، إلى الكهوف في قمم جبال البشرات. وبدأ يكتب ويدفن رسائله ورسائل جنده،

متيقنا بأن تاريخا آخر كان يصنع في الألم والخوف وضغائن الإخوة. كانت تلك وسيلتهم للحياة والتخفي، فابتدعوا لغة *الخيميادو* التي لا يفهمها أحد غيرهم.

يقال إن سيدي عبد الله مات رافعا سيفه وإصبع الشهادة. حزّ المنتصرون رقبته ووضعوه على عمود وراحوا ينصبونه في عمق المدينة لتكسير ما تبقى من معنويات المحاربين، بينما كانت الكتائب المتبقية تسقط الواحدة تلو الأخرى وتسلم نفسها لمحاكم التفتيش المقدس، أو لتغيب نهائيا في المرتفعات و الأحواز ومخابئ المدينة.

لم يكن حظي أفضل من غيري. غيري قُتِلَ، ولست أدري أية صدفة كانت ورائي لأستمر في الحياة. على الرغم من اندفاني تحت صخرة جبلية كبيرة، بعد الهزيمة في انتظار الفلوكا المحملة بالأسلحة، إلا أنهم عثروا عليّ بوشاية أكيدة من سجين تركي كان يعادي سيدي الدون فردناندو دي كردوبا فالور. وأغرقوا الأسلحة والبارود والسيوف والسكاكين والألبسة الثقيلة، لأن برد البشرات كان عدونا الكبير. جروني يومها بترابي وخوفي وعطشي نحوهم.

وهم يجرونني على حافة البحر البارد، بعد أن رموا جثمان سيدي على ظهر بغل ثقيل، لم أسمع إلا تكسر الأمواج ونشيدا حزينا كان يصعد من الأعماق، هل كانت أعماقي أم أعماق البحر أم أعماق الفقدان الأخير؟ لست أدري؟

موت لبحار، آبويا

البر بعيد بعيد، آبويا

وصياحي طال...

مشينا على حافة الساحل طويلا، مكبلين بالسلاسل والحبال، حفاة وشبه عراة، قبل نقلي إلى كتدرائية غرناطة حيث كان ينتظرني ما رويته. جمدت البرودة أرجلنا حتى لم نعد نحس بها. انتابتني أسئلة غريبة وقتها تحت هذيان الهزيمة القاسية. تمنيت فقط أن أصرخ بأعلى صوتي حتى يسمعني كل الغرناطيين وبقايا الأندلسيين، ولا أدري إلى اليوم إن كنت فعلت ذلك أم لا؟ لأني بعدها لم أسمع إلا قهقهة العسكر الذين كانوا يقودونني، وصرختي تنطفئ شيئا فشيئا في عمق البحر:

«– ثمانية قرون ونيف، وكأن شيئا لم يكن. كل شيء عاد إلى طبيعته الأولى. كما كان، أو كما يجب أن يكون. وكأنك يا طارق بن زياد ما صرختَ وما فتحتَ! وكأنك يا موسى بن نصير ما عزلتَ وما توليتَ! وكأنك يا عبد الرحمن الداخل ما رفعتَ سيفك وما دخلتّ! وكأنك يا عبد الرحمن الناصر ما ناورتَ وما استخلفتَ! وكأنك يا منصور بن أبي عامر ما قتلتَ وما حجبتَ! وكأنك يا محمد الصغير ما بعتَ وما اشتريتَ، لتنفذ من خرم الإبرة كأي خائن صغير!؟ كأنكم جميعا لم تكونوا. كأني لم أكن.»

فجأة شعرت بفيض من الألم وبرغبة كبيرة في البكاء. لا أدري لماذا؟ ربما لأني شعرت بقسوة آلامه. حاولت أن أمد رأسي نحوه وأنا على صخرة الله، لكنه كان قد اندفن في الضباب. تمتمت.

- عذرا يا جدي، لقد أيقظت كل مدافنك العميقة. كنت فقط أريد أن أعرف ماذا حدث

لأفهمك. لأحبك أكثر. لأشعر دوما بأنك هنا حتى ونحن هناك؟

جاءني صوته ناصعا وأبيض.

- كنت الضحية المثالية ولم يمنحوني وقتا للبحث عن يقين احترق بقوة. فقد نقلت في

سفن التيه، ووجدتني في منفى لم أحبه، ولم أرده مطلقا. عندما نزلنا في ميناء سيدي يوشع، لم أحمل معي شيئا سوى زرّيعة بعض النباتات، وغرس من دالية البيت، وشجرة الخروب التي غرستها على الهضبة الغريبة من جبل النار، *تيغراو*، معلنا أن هذه الأرض اليباب، أرضي. الباقي، تمّ على تلك الأرض التي لم تكن رحيمة بنا أيضا. ودخلنا في حرب وأطماع الإخوة الذين لم يكونوا يرون فينا أكياسا من المال والذهب.

عند هذا الحد صمت جدي وتركني معلقا على أسئلتي الكثيرة التي كانت ترتسم في دماغي المتعب. انطفأت فجأة المدينة التي كنت أراها بقببها وصوامعها وكنائسها،

وعادت الألوان تماما كما كانت في البداية وارتطام الشهب داخل الفراغ، ورماد الأنجم التي كانت تنتهي داخل رمادها.

وعدنا، كما في البداية إلى تسلق الأحجار والأسئلة التي كان عليّ حلها.

كنت مأسورا بشيء ظل نائما في عينيه ولم يقله، لكني كنت أحسه، بينما ظل الروخو يتأمل غرناطة وهي تنطفئ أمامه بهدوء وتذوب في دهاليز الغيب. خيّل إلي في لحظة هاربة، أني رأيت شخصا منكفئا، كأنه كان يبكي، عند البوابة الرئيسية للمدينة. وكأن الرّوخو قرأ حيرتي وفهمني جيدا.

- لا تعذب نفسك كثيرا، هو هو لم يتغير أبدا. أمامك رحلة قاسية عليك أن تتحمل

صعوبتها قبل أن تدخل صفاءك النهائي وتجد ما تبحث عنه هنا.

- لكن يا جدي هل رأيتَ ما رأيتُه؟

- رأيته. محمد الصغير. يبكي زمنا تخلى عنه. من الأفضل أن تنساه لأن في ذاكرتك

المتعبة الكثير من أشباهه الذين ملأوا عصرك، ويملأون كل الأزمنة بظلامهم. كلهم أحفاده من الذين باعوا قلوبهم للذّهب والزغب القشتالي، ليتحول كل شيء إلى رماد. امض ولا تلتفت وراءك.

- لكن بعض المؤرخين يقولون يا جدي إنّ محمداً الصغير فعل ما كان عليه فعله. لم

يكن أمامه من حلّ آخر، سوى حرق المدينة أو الاستسلام والحفاظ على ما يمكن الحفاظ عليه من ذمم الناس وأموالهم.

- مسكين. لا أدري كيف فكر وقتها؟ لكنه في النهاية لا حافظ لا على نفسه، ولا حافظ

على الآخرين الذين وضعوا مصائرهم في رقبته. ما كان عليه فعله هو أن يظل في أرضه، ويعيش في عمق حرائقها. لم يكن الانتصار مطلوبا منه، لأن الزمن كان قد تغير وانتهى كما تنتهي كل الحروب الطويلة، ولكن أن يقبل أن يعجن في رمادها

ورماد الثمانية قرون ونورها، التي مضت كلمح البرق. لا تهتم ما ينتظرك أصعب مما سمعتَ ورأيتَ وظننتَ وتخيلتَ.

ثم التفت من جديد نحو غرناطة التي كانت قد غابت هذه المرة نهائيا، وحل محلها فراغ كبير، ثم ضباب كثيف امتد نحونا حتى غطى الروخو كليا. لم أسمع إلا كلمته المحروقة التي جعلتني أشمّ رائحة شبيهة برائحة الكبريت وحرائق أشجار الزيتون الطرية.

- نمشي يا ابني.

جاءني صوته هذه المرة دافئا وحزينا، من عمق الضباب والبرق الخاطف الذي كان يشعل الفضاء من حين لآخر بشهبه الحارقة وأنجمه الهاربة.

- نمشي يا جدي. نمشي. نمشي...

2- مِيمَا أَمِيزَار

مُكَاشَفَاتُ العَشَاءِ الأَخِيرِ

1-حَمَّامُ المَلاَئِكَة

بدأ النور الذي كنا فيه ينسحب مخلفا جوا من العتمة الخفيفة التي زادها الضباب كثافة. فكرت أن أسال الروخو عن هذا التحول، لكني فضلت أن أسلك مسالكه فهو أعرف بالمكان.

لم أخف على الرغم من أني في لحظة من اللحظات شعرت بأن موتا آخر كان يرتسم في الأفق.

تعبنا جدا قبل أن نصل إلى معبر الخروب الذي صنع جدي منه ذات زمن عصاه التي كانت ترافقه وهو في مدينته. حتى عندما حمل السلاح لم يتركها أبدا. قتل بها الأفاعي وتسلق الجبال وعندما خدعته الأيام جعلها كمتكأ يسير عليه. كانت دليله أن الدنيا ما تزال حية عندما أنبت الخروبة التي جاء بنبتتها من هناك, من أرضه الأولى. كانت الخروبة تكبر ومعها تتعدد ذرية الموريسكي الأخير الذي رفض أن يختار بين الموت والحياة كان دائما يقول، واحد مثلي في قمة هبله بالحياة، يجب أن يخير بين الحياة والحياة فأنا لا أعرف الموت لأختاره لكني أعرف شيئا عن الحياة. فقد أنبت على جبل النار الخروبة التي مرت عليها كل عواصف الدنيا ولم تنحن. وأنبت في صلبها عرشا من الحنين والناس. بعصاه قتل الثعابين يوم أقسم أن لا يحمل سلاحا ناريا. بعصاه عرف مكامن الحجل وأعشاشه وجاء ببيضها. بعصاه هدد الذئاب التي حوطته قبل أن يبيد الكثير منها ويفترش جلودها ليجعلها تعتبر فخافته. وظلت تتودده فكان يقاسمها أكله. بل إن حنا فاطنة تقول أكثر من هذا كله. أنه ذات يوم كان نائما تحت الخروبة، وإذا بأسد يهجم على المكان ويأخذه من ظهره ويهرب به بعيدا تحت صرخات الناس. الروخو سرقه السبع. الروخو سرقه السبع. لم يجد الروخو الوقت لأخذ شيء معه إلا عصا الخروب التي ينام عليها. عندما ابتعد به الأسد واستعد لأكله، لوح الروخو بعصاه والدم ينزف من ظهره، فضربه ضربة جافة على قفاه حتى كسر رقبته فنظر الأسد إليه بعينين يائستين قبل أن يغمضهما نهائيا. عندما وصل ناس الخروبة أو تيغراو، كان قد سلخ الأسد وجرجر جلده وراءه كمن يعود من صيد

ثمين. في الأيام التي تلت نشف جلد الأسد على السطح بالملح والشبّ حتى زالت كل روائحه الكريهة ثم افترشها في بيته. افتراش فرو الأسد كان يعني أن الرجل محارب كبير. وضعها في قاعة صغيرة لا يدخلها إلا الأحبة والكبار والغجرية التي تركت كل شيء وتبعته حتى النهاية. كانت فخورة به. وكانت عندما تسأله عن قصة السبع إذا لم تكن أسطورة، يغفو في حجرها ثم يرضع لسانها الذي به طعم القرنفل أو عود النوار على عادة الأندلسيين، وينام بين ذراعيها على ابتسامته. كانت بنصف عمره ولا ترى سماء غير سمائه.

- جدّي أراك لستَ معي؟

- معك حيث لا تعلم ولا ترى. تذكرني بزمن شبابي حيث كنت لا أتوقف عن الأسئلة،

وأغرق بعدها في بياض كنت الأوحد من يعرف سره. ثم أنام...

- بين يدي الغجرية؟

- أية غجرية؟

يضحك. ثم يواصل سيره وأنا أقتفي خطواته على الجبل الأكبر. ولم أتجرأ أبدا على سؤاله عن الغجرية التي حملت منها الكثير على رواية حنّا فاطنة. دهشته من سؤالي، لم تشجعني على المواصلة.

اعترضت مسلكي صخرة بركانية كبيرة، مد لي يده. ثم اندفنّا تحتها، فكانت كالمغارة، وكلما توغلنا زاد الظلام الذي كان يحيط بنا. حتى وجدنا نفسينا في عمقها. أشعل شمعة، ثم التفت نحوي:

- أعرف أنك تصغي لداخلك. وأعرف أيضا أن فيك الكثير من خبايا الروح. ستُمتحن

في كل شيء، وتَمتحن نفسك أيضا، من تلقاء نفسك. أنت اللحظة في عز البدايات ولا يمكنك أن تعرف كل شيء. وصلنا تقريبا إلى حمامات الملائكة. من هنا تبدأ رحلتك السخية. لا أملك سلطان أن أخذك إلى سدرة المنتهى التي قرأتها عند معلمك الشيخ الأكبر. سدرتك وكرسيك فيك. أنت من يجد مسالكهما. بعد حمام الملائكة، ستتغير أشياء كثيرة فيك ويصبح قلبك خفيفا مثل ريشة. لا تخف من هذا، ولا تفرح به

حتى المنتهى. هو خطوتك الأولى في مسار سيطول كثيرا. هذه الظلمة الطارئة التي بدأت تتكثف، طبيعية. هي نهاية محطة في رحلتك وبداية رحلة أخرى. مطاف ينتفي ويحل محله آخر.

- مع من يا جدي؟ سألته بلا تردد.

- في علم الغيب يا ابني. من المؤكد سترافقك روح أخرى. تحبك بالقدر الذي تمنحك

القدرة على المزيد من النور والفيض والحب. سأظل فيك كما كنتُ معك. عندما تشتاق لي، ضعني فقط في قلبك وأغمض عينيك، واملأ قلبك بيقينك وشكوكك أيضا. ستجدني في أنفاسك كلما احتجتني. لا تتردد أبدا، لأن أي تردد هو خسارة للحظة لا تُستدرك مهما ركضتَ وراءها.

أغمضت عيني وواصلت الاستماع إليه. كان كلامه مثل الهدهدة. فجأة وجدتني في حجر حنا فاطنة وهي تقص بلا حد ولا حتى التوقف قليلا لأنها تعرف مسبقا، أنها كلما توقفت، سألتها: *إيه يا حنّا، ومن بعد؟* كان حديث الروخو عميقا، جعلني أخف من ريشة وأدقّ من ذرة. لا أدري كم أخذ من الوقت وهو يحكي؟ يوما؟ شهرا؟ سنة؟ بمقاس أهل الأرض؟. الشيء الوحيد الذي ملأني هو أني لأول مرة منذ أن التقينا، حملني جدي بأشياء سيكون عليّ اختبارها أو اعتمادها في رحلتي الأبدية هذه، التي لابد أن تتوقف يوما وتنتهي بروحي إلى مستقر لها، خارج هذا التّيه.

لا أذكر إن قال بعدها شيئا آخر؟ قبل أن يغيب للمرة الأخيرة، في عمق الظلمة الرمادية، دار في مكانه طويلا قبل أن يجلس قبالتي من جديد، في عمق الصخرة البركانية التي تشبه المغارة المحفورة. كنت بالكاد أراه لولا تلك الشمعة التي أوقدها. مد يده إلى صدره، ثم انكفأ قليلا إلى الأمام، وكأنه كان يشعر بألم داخلي. أعرف أن ما في قلب الروخو كبير، ولم ألمس إلا قصصه الهاربة، وأنه هو أيضا داخل نظام أكبر منه. كنت فقط سعيدا أن أنتسب لهذه السلالة التي ظلت وفية للتراب والماء والناس والسماء.

فجأة سمعت أنينا غامضا قبل أن يتضح، يأتي من الأعماق السحيقة للصخرة. سمعت نشيده وهو ينحني على الشمعة الأخيرة التي قاوم بها الظلمة القاسية التي زادت أكثر:

بالله يا الشمعة سألتك ردي لي سآلي
آش بك في الليالي تبكي
مازلت شعيلة ...

وأنا غارق مع صوت الروخو الذي كان يصل قلبي مباشرة، امتدت يد ناعمة نحوي. لامست ظهري بنعومة. تلمستها بحنان كمن يكتشف وجها غاب عنه طويلا. عرفت أنها يد امرأة كانت ورائي. أصابعها كانت طويلة قليلا إذ تحسستها واحدا واحدا، كأنها لعازفة بيانو. لا أدري ما الذي ذكرني بصديقي الشاعر العراقي عزيز السّماوي[12]، الذي عشق امرأة من أصابعها، وظل معلقا على أناملها وأظافرها وخطوط كفها، حتى وفاته في منافي البرد والضّباب. ما تزال كلماته المرهفة تتأرجح في ذاكرتي كخيط من نور:

روحي الك أصفه نهر.. وبمايه أسيسّ لك شمع
ياريت أعاشركم عمر... حبكم بساتين وزرع

رأيت وجه جدي مضاء في جزئه الأيسر بالشمعة التي كانت في نزعها الأخير. أشّر لي برأسه أن أتبعها. سمعت صوته الخفي الذي كان يأتيني كالحفيف.

- لقد حان وقت الرحيل. أنا إلى مخبئي، وأنت إلى حمام الملائكة.

قمت من مكاني. قبلت رأسه. بينما غاب هو بسرعة في الظلمة، ولم يعد يظهر إلا نور الشمعة التي تخيلته منكفئا عليها وهو ينشدها بحرائق ما ظل متخفيا في قلبه. لا

---

[12] شاعر عراقي شعبي. ولد في محافظة الديوانية، توفي في 8 جوان 2001 في المنفى اللندني، ودفن هناك. تعرفت عليه أيام إقامته بالجزائر، في مدينة سكيكدة. قضى ليلته الأخيرة في بيتي بالجزائر العاصمة هو وعائلته قبل أن أودعه في المطار صباحا، ويرتحل نهائيا إلى لندن، حزينا ومنكسرا، لكن مليئا بالحب والحنين إلى عراق لم يره أبدا.

أدري ما الذي جعلني على يقين بأني سأرى جدي مرة أخرى، لأن أسئلتي المعلقة ظلت فيّ. لكن ما بقي عالقا بحواسي من أسئلة يؤكد يقيني بذلك.

سحبتني اليد الناعمة قليلا إلى الوراء، فتبعتها باستسلام كلي.

بسرعة استعدت بعض راحتي مثلما تصور الروخو وأنا أقتفي هذا الظل الناعم الذي لم يمحه الضوء الذي كان ينتشر بسرعة بعد الظلمة التي سرقت مني جدي. يدي في يدها، لم أكن أرى إلا شعرها الأحمر وجزءا من ظهرها الذي أعطاني صورة عن ظهرها العريض. حاولت أن أتساءل عن كل هذا، ولكني أقنعت نفسي بأن هذه من مشيئات الروخو وعليّ أن أسير وفق إملاءاتها.

المعبر الذي سلكناه كان جميلا. آسرا، لم أر مثيلا له في حياتي كلها. كنت تحت شلالات الضوء والأنوار التي كانت تملأ المكان وكأن كل الظلمة التي رأيتها من قبل لم تكن إلا كابوسا قاهرا. عرفت لماذا استقبلني جدي عند المدخل، التيه قوي في هذه الأمكنة. لا أحد غيره يستطيع فعل ذلك. لم يكن لي خيار آخر. كنت بحاجة كبيرة إلى يد قوية تقودني نحو الجبل، وتعبر بي المسالك الصعبة.

المعبر كان عبارة عن جسر خشبي طويل تحكمه الحبال وألياف الأشجار الغابية العملاقة من كل الجهات، كتلك التي رأيتها في *لاغودلوب أو وادي الذئاب*، في جزر الكاريبي، تحت شلالات الماء الدافئة وبين أشجار عملاقة، عطرها لم يكن مدوخا فقط، ولكن مسكرا أيضا.

كانت تتخفى من وراء شلالات الماء عندما سحبتني من يدي، ووضعتني تحت أحدها، بدون أن أرى وجهها، ثم انسحبت نحو شلالات أخرى إذ لم أسمع إلا تكسر المياه التي أدركت بمخيلتي المتعبة أنها كانت تتكسر على جسمها الذي بدا غضا وحيا من ظهرها. أتذكر جيدا أني رأيت شعرها الأحمر بشكل كامل، عندما دخلنا المعبر، وهبت رياح فجائية، حركت الأشجار، معلنة عن وجودي، فارتفع إثر ذلك شعرها عاليا، مكونا هالة من النور الأحمر، مخلفا وراءه عطرا دخل إلى أنفي بقوة، لكنه كان عطرا بلا ذاكرة أو ربما كنت أنا من فقد العلاقة التقليدية مع الأشياء. لم أتساءل كثيرا وأنا أتبع تلك اليد الناعمة التي كانت تسحبني وراءها بشكل أنها كانت دائما تسبقني بخطوة، حتى إني عندما حاولت أن أمشي معها بنفس الإيقاع، لم

أستطع، بل شعرت بوهن كبير في رجلي، فعدت إلى وتيرتي الطبيعية التي كان الروخو قد أوصاني بها وهو يحدثني عن عالم لم أكن أعرفه. *لا تتقدم فتضيع سبلك ولا تتخلف كثيرا فتنطفئ.*

كان ذهني صافيا ومع ذلك أخفقت في أن أضع وجها لليد الناعمة، شعرها الأحمر أربكني وظهرها المستقيم كان يقربني من وجوه أعرفها سرعان ما تتلاشى. كانت مياه الشلالات الجبلية ناعمة جدا ودافئة مثل اليد والأصابع التي كانت ترافقني في هذا الجزء من الرحلة. تلذذت بالمياه التي لمعت بقوة معمية، وتتلألأ تحت النور فتظهر أحيانا كحبات الفضة، وفي أحيان أخرى كنثار الذهب والفيروز، الزعفران. وأنا أحك أعضائي وأدلكها لأخفف عنها عناء الرحلة والصعود والنزول، فوجئت بكم الأوساخ التي علقت بي وغبرة الأتربة ورماد الزلازل. لم أكن أعلم أن جسدي كانت به أوساخ بهذا الثقل. عندما بدأت أحك أعضائي بالليفة التي وضعتها اليد الناعمة بين يدي بلمسة سحرية بعد أن اخترقت الشلالات الدافئة ومرايا الماء، كانت الأوساخ تتلوى في شكل حبات صغيرة ذات لون أسود قاتم. كلما حككت بقوة أكثر كانت تزداد كثافة، لدرجة أني خجلت وخفت خفت أن لا تتوقف. حمدت الله أن اليد الناعمة كانت مجرد يد مساعدة، وليست امرأة مكلفة بحك ظهري. شيئا فشيئا بدأ النور يدخل إلى جسدي ويعكس عليه كل الألوان التي كنت أراها تخترق المكان بألوانها الزاهية. أصبح مثل المرايا الصقيلة. انتبهت إلى أن المياه عندما بدأ جسدي ينظف أصبح لها عطر خاص هو أقرب إلى ماء الزهر والبرتقال والليمون المكثف.

وعندما انتهيت من حمام الملائكة، رأيت اليد الناعمة تمد لي الفوطة الكبيرة التي ذكرتني بفوطة والدي التي كان يضعها على رأسي كلما عاد من غربته من فرنسا وغسل وجهي صباحا. كان عندما يرميها على رأسي، ويغطيني بها، أجدني حرا في ظلمتي فأطرح عليه كل الأسئلة الشقية.

بقيت اليد الممدودة لحظات معلقة في الهواء، وأنا أتأمل أصابعها التي شعرت بها أليفة جدا. كانت تشبه الحلوة الشباكية التي كنت أذهب للسوق من أجلها مع أمي، وكنت آكلها وأنا أغني:

اشر لي حلوى شباكية
وحدة ليك، وحدة ليَ.

غريب. كأن شيئا من ظل هذه المرأة الغامضة كان فيّ. حاولت أن ألمسها، لكني لم أشعر مطلقا بوجودها إلا من أصابعها، مع أني أحسستُ بدفء كبير وكأني حقيقة كنت ألمسها. أغمضت عيني قليلا بعد أن لفّت الفوطة من حولي وهي من ورائي ولا أرى إلا حركة يديها. رأيت فجأة الأصابع تتزحلق على أصابعي، وتعبر جسدي محدثة ارتباكا في حواسي التي ظننتها ماتت منذ أن رأيتني في التابوت.
عندما نشفت جسدي، امتدت نفس اليد لتمنحني لباسا أبيض غير مخاط يشبه لباس جدي تماما. كتان ثقيل قليلا، وشديد البياض، لا قفل له، لكنه حينما يُدارُ حول الجسد مرتين، يُعقَدُ على مستوى الكتف كالألبسة الشاوية واليونانية القديمة. لم أعرف كيف أربطه إذ بدا لي من الصعب عقد رأس اللباس بدون الكشف عن جزء من جسدي. فجأة أحسست بنفس اليد الناعمة من ورائي، وبأنفاس امرأة حقيقية عند أذني وهي تربط طرفي اللباس بهدوء وسكينة حتى إني شعرت بحرارة الجسد الملتصق بظهري وبلمسات الأصابع. اقتربت من صفحة الماء النازل من أعالي الجبل الذي تشكل أمامي في شكل مرآة. حاولتُ أن أتحايل لأرى وجهها الذي تخيلته شديد النعومة، لكني لم أر إلا وجهي الذي أصبح بلا أي خدش طفولي. حتى جرحي الخفيف على الشفة العليا، الذي كانت مينا تعشقه وتمصه، من حين لآخر، كلما جمعتنا خلوة في *قصر عيشة الطويلة* أو في *مصبّات لوريط*، وهي تردد: *ألم تقل لي إنك كنت ترقص ببندقية صيد في يدك، فسقطت عليها وأدميت نفسك ومع ذلك لم تتوقف عن الرقص؟ أحبك هكذا لأنك لو أوقفت الرقص ما كنتُ أحببتك، ولاعتبرتك عاديا. الرقص والنار يا حبيبي لا يطيقان بعضهما البعض. البندقية خزان الموت والنار، والرقص نار تكتفي بذاتها، تعيد ترميم كسور وجراحات الجسد. وكان يجب أن ترمي إحداها وراءك، إما أن تشبه جدك، أو والدك، أو تذهب نحو حنّا فاطنة أميرة السحر وسيدة الحكاية والحنين. من يومها أدركتَ بحاستك الطفولية أن النارين لا تلتقيان أبدا. تلك النار التي فيك أحبها.*

بعد حمام الملائكة الذي أشعرني بالحياة، اشتهيتُ أن أسأل الأنامل الناعمة عن جدي، لكنني عدلت عن الفكرة. لا أدري لماذا ربما لأن ما حكاه لي في الصخرة التي تشبه المغارة كان كبيرا وكافيا وكبيرا.

أشرت لي أن أتبعها. بدا لي كأننا نعبر غابة استوائية كانت غاية في الكثافة وسحر الألوان والأنوار الحادة التي كانت تخترق كل الحواجز. الصفاء والدفء كانا مدهشين لدرجة الدوار.

كنت أعبر عالما غير العالم الصعب والمتصحر والملتهب، الذي قطعته برفقة جدّي.

كانت تمشي أو هكذا بدا لي، وكنت أسرع وراءها الخطى ولكني هذه المرة لم أحاول في أية لحظة من اللحظات أن أتقدم عليها، لأني، حتى لو حاولت، فلن أكون قادرا على ذلك. كان كل شيء جميلا ومعطرا. تمنيت للحظات أن تلتفت نحوي فقط، لأرى وجهها وأشكرها عمّا تفعله من أجلي، لكنها لم تفعل. كانت فقط كنسمة هاربة، وقامتها تلتبس مع خيوط النور العمودية التي كانت تغمرنا.

فجأة رأيت بيتا زجاجيا جميلا. توقفت، وتركت أصابعي، وخفّفت من حركتها وأشّرت لي أن أتبعها.

كانت الأنوار تنعكس على البيت محدثة تدرجات مذهلة من الألوان الغارقة في شلالات النور. كان اللون الغالب على البيت هو الأخضر المائل ظلال زرقاء دافئة، كلما انعكس النور الحاد عليها تغير اللون الأصلي أو الغالب، ومال نحو اللون البنفسجي الهارب. لم يكن الأمر عاديا، إذ أنه كان من الصعب عليّ تعريف الألوان التي كنت أراها للمرة الأولى وهي تتناغم مع محيط كان يتغير وفق النور والألوان الأصلية وحركة الظلال المحيطة. لا شمس ولكن كل شيء يوحي بوجودها وانتشار سلطانها على المكان. حركة الظلال والأجسام والأشياء لا تتمّ إلا بها. لكني كلما رفعت راسي قليلا إلى العلو الشاهق رأيت فراغا يتلون بتلون المكان. سماء جدي كانت رمادا وشهبا. سماء ذات الشعر الأحمر ألوانا هاربة، الواحد أجمل وأدفأ من الثاني.

عندما اندفنت ذات الشعر الأحمر في عمق البيت الزجاجي الذي كنت مشدوها في اتساقه واتساعه وتناسق أجزائه، تبعتها على رأس أصابعي مثل السارق، على بعد أقل

من خطوة بالضبط، مطبقا حرفيا نصيحة الروخو التي أستذكرها في اللحظات الأكثر صعوبة: *لا تتقدم فتضيع سبلك، ولا تتخلف كثيرا فتنطفئ مسالكك*. سمعت موسيقى الحنين. تغلب عليها صوفية آلة *السانتور والسيتار* الفارسيين. كانت مزيجا من نداءات الرهبة والخوف والحب العميق. لم أعرف مصدرها. ولم يكن ذلك مهما أبدا. ربما كانت تأتي أصلا من قلبي ومن حواسي التي كانت تزداد رهافة كلما توغلت في المكان.

فجأة توقفت ونسيت ذات الشعر الأحمر. رأيت في عمق البيت الأخضر كتابة مائية متحركة، بألوان لا تستقر عل واحد. تتدرج باستمرار من اللاّلون، نحو الأخضر، فالأحمر، فالأصفر، ثم تتشكل بمجمع الألوان. كل شي كان يظلله بياض كثيف، معم للأبصار.

كنت أرى كل شيء، ولا أرى شيئا. قرأت وأنا أغرق في المكان كما في الرمال المبتلعة. حدة الضوء الناصع البياض، أربكت بصري وكل ما كان يراهن لكني قرأتُ. شعرت بشيء يخترق جلدي ويتحرك من جديد كأنه خرج من غفوة طويلة.

"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"[13].

[13] سورة النور. أية 35.

2- شيءٌ ما يَعْصِف بِيَقِينِي؟

كنت خفيفا كلون معشوق، بلا وزن ولا شكل، أو هكذا بدا لي.

من وراء زجاج النافذة التي لا يستقر لمعانها على لون محدد، بدا لي كأن عاصفة تتهيأ في الأفق المبهم ستغير كل هذا النظام الطيب والهادئ. كانت الأشجار العملاقة تتمايل حتى تلمس الأرض كأنها كانت تتعبد لقوى غير مرئية، ثم تقوم بهدوء، ثم تعود ثانية في حركة مستمرة تنبئ بشيء يشبه الخشوع. في لحظة من اللحظات، عندما انفصلت الأشجار المتشابكة عن بعضها البعض وهي ترجع إلى الوراء قليلا، مفرجة عن مسلك طويل يختتم بشجرة في نهايته بشجرة ملونة كأنها شجرة الميلاد، بدا لي كأني رأيت شلالات من الأنوار لها مذاق البرتقال والليمون والمشمش والحلوى الشباكية. تعلمت هذا من حنّا فاطنة التي كان لكل الألوان عندها مذاق. النيلي كان مذاقه حامضا. عندما تصف قماشا بهذا اللون تقول عنه يميل نحو الحامض شوي، أو حامض بزاف، مما يعني أن لونه النيلي غامق. وعندما تتحدث عن اللون الأصفر تقول عنه إنه قارص زيادة. وعندما تتأمل قطعة قماش بنية اللون، تضحك وتقول عن لونها، إنه موز شوي، أي بطعم غير مسكّر، وغير مرّ.

كان بريق الألوان المتداخلة ينعكس على البيت الزجاجي الذي كنت في أعماقه. لا أعلم من يقف خلفي ولا من يقف أمامي. شعرت ببعض البرد في ظهري مع أني لم أكن خائفا أبدا.

سحبت اليد الناعمة الكرسي من ورائي، ثم أجلستني بهدوء وكأن كل شيء كان يسير بالتصوير البطيء. لم أعد أشعر بعدها بأنفاسها، فاستقر لدي انطباع خاص، إما أنها خرجت بهدوء بحيث لا تثير أي انتباه، أو أنها جلست ورائي، بعيدة قليلا.

كان البيت الزجاجي واسعا. عالم غريب هذا الذي كنت في أعماقه. من عالم العواصف والضباب إلى عالم به درجة صفاء شديدة الغرابة. قبل أن نسلك البهو الطويل، شعرت بحضور جدي القوي. سألني إن كنت أشعر بالغربة. قلت له ما دمت معي، لا. قال. أنا في قلبك. وسأظل فيك ولن أغادرك. متى اشتقت لي، كلمني وسأسمعك وإن ظللتُ غائبا. ثق في كل ما تراه ولن يخدعك. ستجد في مسالكك من

يقوّم النوايا الحسنة. ويقودك نحو مساحات لا أعرفها أنا نفسي، ولكن يمكنك أن تحكي عنها. كلما انغلقت سبل الرؤية عليك، أغمض عينيك وستراني، بعدها أخبرني عن كل ما يقلق قلبك وسأسمعك. كدت أقول له يا جدي سأموت في غيابك، ولكني فجأة تذكرت بأني ميت أو على الأقل داخل حالة الالتباس بين الموت وشيء يشبه الحياة. لقد رأيتُنى مسجى في تابوت بِطُولي بالضبط، وهذا لا أشك فيه أبدا. لم أقل شيئا ولكني شعرت فجأة بالحاجة الماسة إليه، ليكشف بعض أسرار ما كنت أراه. أغمضت عيني طويلا. رأيته في غفوتي من جديد كما رأيته في المرة الأخيرة، وهو ما يزال غارقا في ابتهالاته بين الظلال المظلمة على رعشات شمعة بالكاد تظهر بعض ملامح وجهه.

كان هنا. كنت أسمع أنفاسه.

عندما فتحت عيني، كانت ألوان البيت الزجاجي قد زادت إشراقا.

الرعشة كانت كبيرة مصحوبة بعطر أكل جميل قادني بعيدا نحو حضن كنت أعرفه جيدا. الطاولة كانت مهيأة للعشاء. تأملت الوردة الحمراء اليتيمة الموضوعة على الطاولة. ارتعشت كل فرائسي. ما الذي أتى بها إلى هنا؟ تذكرتها جيدا. تأملتها طويلا. هي نفسها. ورقتها الخارجية ممزقة قليلا في الوسط، لم أتجرأ على نزعها. فذبلت قليلا وكل أشواك ساقها أزيلت لم تبق إلا شوكة واحدة. هي بالضبط، ولا يمكنني أن أخطئ فيها. كنت قد سلمتها للمرأة الملثمة التي كانت تلبس السواد، بحذر، متفاديا الجهة التي بها شوك حتى لا أجرح نعومتها، عندما لكزني الروخو وأشر لي بعينيه أن أسلمها الوردة الحمراء التي بقيت معلقة بيدي، بعدما وضع الوردة البيضاء في عمق التابوت.

لا أعرف بالضبط ما هي العلاقة؟ لكني عندما تأملت العشاء من جديد، تذكرت عشاء سيدنا المسيح الأخير[14] على الرغم من الفارق الزمني وسرّ اللحظة. كنتُ هنا لأنّ

[14] عندما ظهر سيدنا المسيح، طلب الأحبار بشكل واضح بقتله؛ فتقدم يهوذا الإسخريوطي لكي يتفاوض وإياهم على صفقة التسليم، ويوضح العهد الجديد في غير موضع بأنّ الأمر تمّ بإيحاء من الشيطان .ويقدم إنجيل متى ثمنًا لقاء تسليم يهوذا ليسوع، وهو ثلاثين قطعة من الفضة والتي تعادل ثمن العبد في الشريعة اليهودية .وينقل إنجيل مرقس فرح الفريسيين والكتبة بالصفقة خلال العشاء الأخير، كان يهوذا حاضرًا، وشارك في العشاء وغسل الأرجل، وإذ أعلن المسيح خلال العشاء أن أحدهم على وشك خيانته، فوقع الاضطراب في نفوس التلاميذ، وسأله يوحنا بن زبدي الذي كان متكئًا على حضن يسوع حسب إنجيل يوحنا حول شخصيه مسلمه، فأسرّ له يسوع بأنه يهوذا الاسخريوط. ثم قال المسيح ليهوذا: "أسرع في ما نويت أن تعمل. وبعد خروج يهوذا، قال

ذات الشعر الأحمر قادتني إلى هذا المكان. عندما استفرد بي الروخو، قال لي شيئا عن العشاء الذي سماه *العشاء الأول والأخير*، فهمت من كلامه أنه عشاء لن يتكرر. ثم أضاف ونحن في عمق الصخرة: *هذا عشاؤكم. قل لهم ما في قلبك، وسيسمعونك. لست مجبرا على رفع صوتك بل ستكون مجبرا على الكلام والسؤال. أطلق العنان لقلبك ليخرج من سجنه الأرضي. لا شيء أقسى من سجن الماء والتراب والهواء. سألته: من هم يا جدي؟ قال: لا أعرف. لكنك ستعرفهم لحظة تراهم.*

لم أكن مسيحا، كنتُ ظلاّ لإنسان كان.

لم تكن هي يهوذا الإسخريوطي، لكنها كانت شعاعا يصعب أسره.

لم يكن جدي مخطئا. كان عليّ أن أتماسك. كانوا كلهم هنا، محلقين حول الطاولة التي كان عليها صحن اللفت والخرشوف الذي كانت رائحته آسرة. عرفتهم بلا أي جهد. كانوا بنفس اللباس الأبيض. ميما أميزار، بكل كبريائها. في حضنها صبي هادئ لا تظهر إلا بعض ملامحه الطفولية. زوليخا أختي التي بقيت طوال العمر الذي مضى جائعا إلى وجهها. بابا أحمد، الوحيد الذي كانت على صدره بعض بقع الدم، تشبه تلك التي رأيتها مرتسمة على لباس جدي الروخو. عزيز أخي بابتسامته الأنيقة التي كانت آخر ما رأيته على وجهه، ما تزال مرتسمة وكأن كل شيء ظل مثبتا في مكانه حتى هذا اللقاء. ابتسامة عزيز لها دفء خاص. آخر مرة رأيته كان ذلك في مستشفى فرانز فانون في شتاء 1999، وهو يستعد لإجراء عملية نزع ورم سكن بداخل العمود الفقري، متخفيا مثل الموت. عندما رآني أحادث الطبيب الجراح، رفرفت عيناه بيتم. عندما مشيت نحوه، سألني وهو ينظر إلى عينيَّ بحزن:

- *أكّد لك الطبيب أن العملية صعبة وخطيرة أليس كذلك؟*
- *نعم حبيبي. أنت من يقرر يا غالي. نستطيع أن نوقف كل شيء الآن، ونعود إلى البيت.*

تمنيت في أعماقي أن يقول عزيز نعم، لأشكر الجراح وأوقف العملية، لكنه لم يفعل. على العكس من ذلك، أكد لي أن المسالة بالنسبة له حيوية.

المسيح: "إن ابن الإنسان لا بدّ أن يمضي كما قد كتب عنه، ولكن الويل لذلك الرجل الذي على يده يسلّم ابن الإنسان، كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد".

- *تعبت يا سينو خويا من نصف حياة. تعبت كثيرا. عييت والله، ولم أعد قادرا على التحمّل. خلّي*

اللي حابُّه ربي يكون، يكون. أنا قابل به. تعبت ملتصقا بأرض لم تعد رحيمة معي.

العملية لم تنجح. كانت ثقيلة. في الصباح لم يستيقظ عزيز من المخدر أبدا. من الغفوة الصغرى إلى الغفوة الأبدية. الطبيب قال لي إن هذه الحالة تحدث مرة في مائة ألف حالة؟ فرددت بلا أدنى تفكير: *لماذا عزيز وليس غيره؟* يومها لم أجد ما أطفئ به حرائق القلب والخيبة إلا ما كتبته عنه وأنا في عز رمادي.

كانت اللغة بيتي الوحيد الذي بكيت فيه حرقتي وعزلتي.

حبيبي الغالي عزيز.

كم هي مضنية مسالكك أيها الغريب...

هكذا تنسحب من الدنيا بصمت مثلما جئت. بدون ضجيج، على إيقاع نحيب خافت لأم دفنت في قلبها، منذ أكثر من أربعين سنة زوجها الذي لم تعرف قبره مطلقا، ثم ابنتها و انتظرت شرف النوم الأخير بين يدي الابن الوحيد الذي رفض أن تبدد حنينه مغريات المدينة. لا شيء يملأ القلب الآن إلا بقايا صورة لوالد لم تمهله الحرب الوقت الكافي ليمارس حبه الأبوي.

حبيبي المستعصي على الفهم، هل كان من الضروري أن تمنحني رغبة الكتابة مقابل موتك؟ لم تكن في حاجة الى ذلك كله لتثبت لي أن الدنيا مجرد سيجارة تندثر بالحرقة و أنها لعبة طارئة لا تمارس إلا باستثنائية و أن كل شيء مؤقت. الموت وحده هو المطلق.

أيها الغريب في قلب الغريب...

ضفافنا ضاقت و القلب لم يعد كما كان، المحنة زادت و الدنيا صارت عين إبرة، السبل الممكنة توارت والليل صار فينا، يمارس خلوته مع كأس القهوة الأولى التي نشربها قبل أن نفتح أعيننا على الناس و على أخبار الجرائد اليومية. منذ ست سنوات لم أرك كما أشتهي و لم ترني لتخبرني بأن البلاد تغيرت كثيرا و أن الحزن لا يمكن أن نعيشه إلا فرادى. مَنْ مِنَ الناس يعرف أنك منهك و أنّ أشياءك الصغيرة

مطحونة إذ تواجههم في منعطفات المدينة و أنت ذاهب لموعد فاشل أو لعمل ممل، يسألونك:

– كيف حال الدنيا؟

ترد و أنت ترسم ابتسامة تسخر بها من انكسارك و تحافظ بها على خلوتك و توازنك و إنسانيتك:

– الحمد لله أن الحلم باق Heureusement qu'il y a le rêve منذ أن دفنتُ عمتي على هذه التربة في ذلك الشتاء الموحش و اختارت هي الموت لتختصر خمسين سنة من المنفى، لم ألتفت إلى هذا المكان. ها أنذا اليوم أعود له بعد ست سنوات فقط لأقنع نفسي عبثا أنك رحلتَ و أن أشياءك الصغيرة غيرت أمكنتها و أنك ابتداء من اليوم لن ترابط في شرفتك و لن تطل منها لتقول لنا: صباح الخير يا سكان الطوابق السفلى، صباح النور يا سكان البحر الذي يختبئ وراء المرتفع الصغير، تحفظكم عين الولي من كل مكروه. علي أن أروض نفسي كثيرا لأقتنع أن ما حدث كان من فرط الصدفة المميتة ضمن ألف احتمال للحياة.

لماذا ذهبتَ؟ ألم يكن ممكنا أن لا تذهب؟

أنت دائما هكذا. لم تتغير إلا قليلا. مازلتَ تستدرجنا نحو قدر وحدك تعرف مخاطره و نهاياته. و تتمادى في غيك و أنت لا تعرف أن اللعبة يمكن أن تصير مؤذية عندما تتكرر. كلما طلبت منك التوقف عن استدراج القدر نحوك، تضحك بسماحة و أنت تمحو أوراق الرهان الرياضي الذي كنت تحبه، تحك رأسك من تحت شاشيتك الزرقاء التي تشبه شاشية الحواتين، وتحرق سيجارة و عيناك شاخصتان في وجه ابنك يوسف و في إطار صورة مبهمة لوالد لم تعرفه:

– لا بد أن أربح يوما الرهان، يمكن أن أكون ذلك الواحد في الألف أو المليون الذي يربح. لا بد أن يمل مني سوء الحظ ذات يوم و أنتزع منه الفرصة الوحيدة.

لقد خذلتك السنوات بسرعة يا ابن أمي. لم تكن تعلم أن الموت سيقلب كل المعادلات و سيختارك لتكون الرقم الواحد في الألف في لعبة الموت. عندما دخلتَ إلى المستشفى لم تكن تفكر مطلقا في الاحتمال الأوحد للموت و لكنك فكرت باستماتة في 999 فرصة للحياة.

أرأيت أيها الغريب أن رهانات الدنيا غير مأمونة و أن تماديك في اللعبة عواقبه كبيرة.

أيها الغريب الذي لا يلتفت وراءه أبدا حين يلعب مع الدنيا لعبة الموت، أما آن لك أن تنسى هذه المخاطرة؟ أما آن لك أن تترجل قليلا و تفكر أن الموت قاس و أن هشاشتنا لم تعد تتحمله؟ ألم يحن الوقت بعد لتدرك أنك طوال الثلاثين سنة التي عشتها كنت فقط تتدرب كيف يمكنك أن تملك قدرك و تلوح به كالفراشات الملونة التي تملأ كفك عندما يصير سجينا لنزواتك.

أيها الغريب...

يا ابن أمي الصغير الذي كمش ذات صباح الموجة الهاربة من ذراعها الأيمن و رماها في البحر و هو يصرخ بأعلى صوته: ارجعي من حيث زلت قدماك، و زاغ بصرك و غامت رؤاك، بعد زمن سينفرك أقرب الأقرباء، فلا مكان لك إلا البحر و لا سقف لك إلا الماء، الانطفاء على صخرة الشط المهجور أهون من أن يملكك الذي لا يعرفك أبدا. ويا ابن أمي الذي وضع النور في كفه و رماه في برية القفر ليجعل منه صاحبا أبديا للرمل. أيها الغريب الذي مشى نحو زمن، وحده كان يعرف قسوته و سار نحو شمس سال ظلامها على الدنيا. من يعليني نحوك، من يفك الآن حروفك؟ من يعطي لأبجدياتك معانيها الخفية؟ من يأتيك بحفنة تراب لتغرس وردتك و رجلاك في الماء؟

وحدك أيها الغريب تعرف كم أن الدنيا خادعة و لهذا تقابلها بصمتك و بضحكاتك الساخرة و سحرك الذي لا يفنى. وحدك مثل الله إذ تحزن تضع الموجة في جيبك و حقيبتك الوحيدة في عينيك و تسافر.

– إلى أين تهاجر وحدك هكذا أيها الطفل الصغير؟

تتوقف قليلا، لا تلتفت و تواصل انحدارك بصمت لأنك تعرف مسبقا أن لا أحد يملك القدرة على السير معك إلى منتهى الرحلة. تستهويك غوايات الموت و شطط اللعبة المبهمة. كلمة واحدة نقولها تكفي لتوقظنا من خديعة الوهم. تتوقف قليلا، تهز رأسك ثم تواصل سيرك بصمت أقلّ. تتمتم:

– Boof, La vie, c'est comme les mots: éphémère et fragile.

لك أيها الغريب كل ضفاف الدنيا الجميلة إذ تمضي حيث يشاء انتشاؤك لا حيث يشاء قدر الله. الله يا ابن أمي لم يعد يسأل عن أحد، لقد أحرق سلطانه و توسد الرماد و شواهد الموتى. الحياة قوس طارئ في جملة غير مفيدة، تفتحه يد رقيقة و تغلقه يد حتما ليست هي نفس اليد الأولى.

وحدك أيها الغريب الذي قبل أن يتوضأ بالنور و يولد بين مرارة موتين.

عندما كنت نطفة عمرها سبعة أشهر، كان الوالد قد احترق قبل مجيئك بشهور مع المواكب الأولى التي حلمت طويلا بوطن سرق منها و من أبنائها مع الطلقات الأخيرة من الحرب الميتة وعندما فتحت عينيك على الدنيا رحلت زوليخا، هي كذلك لم تلتفت وراءها عندما اختارت الذهاب. لم تكن تؤمن كثيرا بالحلول الوسطى، لم تعط الحياة أكثر من مهلة يوم واحد في الفراش ثم انطفأت.

ليخا أحبت، فانتحرت حبا.

ولدتَ عاريا بين ألمين وتشوقين مستحيلين.

فتحت عينيك في خلاء موحش، وحيدا كنبي ضائع و ككتاب ممنوع.

أراك الآن تعود من أكثر من ثلاثين سنة عندما جئت لأول مرة إلى الدنيا، كان ذلك داخل خيمة قديمة، كلما اصطكت الرياح الشتوية تسابقنا إليها جميعا، ماما أميزار، زوليخا وأنا، نقبض على عمود الارتكاز حتى لا تقتلع الخيمة و أنت صغير، تسترق السمع إلى تمزقات الرياح في الخارج و تتأملنا بعينين دافئتين و تظننا نلعب فتناغي و تضحك و نظل الليل بكامله واقفين و عندما تتبدد العاصفة يكون النوم قد أخذك بعيدا.

عندما بدأتَ تكبر، لم تتحمل ثقل الكلمات الغائبة. لم تجد في حضرتك إلا أما، عندما سألتها عن أبيك، وضعتك على صدرها، كان حليبها مرا، ثم نظرت إلى السماء الفارغة و لم تقل شيئا أبدا. و ظللت تؤمن طوال حياتك أن أمك تشبه والدك، كانت مثله تماما، بل هو تماما. تأخذ الإطار الأوحد في البيت و تبدأ في تفحصه لتنتهي إلى جملتك الوحيدة التي سمعتَها من كبار القرية:

– شفتوا ! سبحان الله، قطرتان من نور !

وأستفزك:

– وين راك تشوف الشبه؟

تضحك. لا تعرف شيئا آخر إلا الضحك. عندما تزعل ويمتلئ قلبك بالرماد تضحك أو تصمت لترد كل جحيم الغليان إليك وحدك.

– أنتم ما تعرفوا والو.

لم نعرف إلا بعد سنوات أنك كنت تصنع شبائهك مثلما تشاء، مثلما يصنع الغريب وطنا من اللغة، يمكث فيه طويلا، وطن لا يبلى و لا يموت و لا يستعمره أحد. وحده يملك مفاتيح السر والشبهة و تخطي العتبات.

و عندما يذهب نحو الموت يأخذه معه لأنه وطن لا يقبل اليتم.

أيها الغريب، وحدتك خضتَ غمار البداية، و مثلما فتحتَ أقواسك بيدك اليسرى، أغلقتها بيمناك متحديا جبروت الله. قلتَ، الذي لا يعرف اختيار موته لا يعرف أبدا كيف يختار ميقات حياته.

أيها الغريب؟ ألم تجد وقتا مناسبا للانسحاب الهادئ غير هذا؟ أم أن القتلة لم يمهلوك لكي تسند رأسك على ركبة أمك و تقول لها مثلما كنت تفعل صغيرا: يمّا أفلي لي. حكّي لي راسي. و تبدأ هي بلمسات أصابعها السحرية البحث عن شجنك حتى تنام.

هذه المرة لم تكن تمزح أبدا، كنتَ جادا إلى حد الانسحاب من كل الأمكنة التي تعودت ارتيادها. اليوم لم أعد أملك القوة الكافية التي تؤهلني لتقبل خروجك، فقد نسيت أن تغلق الباب وراءك لتذكرني دائما أنك خرجت. منذ أن تركتها، أمكنتك فقدت أسماءها من فرط التصاقها بك.

تصور، كنت خائفا عليك من موت آخر صار كل من يحلم يخشاه، و لكنك دائما تفاجئنا و تأتي حيث لا أحد ينتظرك. حتى في الموت لا تنسى أن تكون صوفيا و بسيطا و خطيرا كالماء.

يكفي، الدنيا ليست بهذا القصور. البارحة عندما فتحت الخزانة وجدت بعض ألبستك المتداخلة، معاطفك الصوفية و كوفياتك الكثيرة، طاقمك الأبيض الذي لا تلبسه إلا في المناسبات والأعراس، جواربك المبعثرة عبر رفوف الخزانة، كل شيء يقول بأنك كنت ها هنا، قبل ثوانٍ قليلة تتهيأ لموعد وحدك كنت تعرف اتجاهه.

قلت في خاطري و أنا ألمس فوضاك الجميلة هذا الطفل لا يتربى أبدا.عزيز ! يكفيك من الفوضى، مانيش عارف سروالك من سروالي، نظم روحك شويه. و عندما ألتفتُ نحوك أجدك بجديتك الصارمة تقاوم ابتسامة ملعونة ترتسم في عينيك الصافيتين. أنت هنا. كل شيء بتنفسك، الزهور التي نسيت هذا الصباح أن تسقيها، العصافير التي تعودت أن تأكل من كفيك، الحبق الذي يملأ أطراف البيت، بساطتك و صوفيتك العالية التي لا تطلب من الدنيا الشيء الكثير، قهقهاتك الأخيرة و أنت تستمع إلى آخر نكتة فبركناها جميعا.

أربعون يوما مضت و أنت غائب كيوسف. بابك ما يزال مفتوحا و أصدقاؤك يسألون عنك كل صباح.

مررت هذا الفجر على قبرك لأغرس بعض النوار. لم أفكر إلاّ في النرجس. سافرت من أجله و اشتريته من المدينة. كنت برفقة ابنك يوسف. يقولون أن الزيارة قبل الفجر تسمح لمن في القبور بسماعنا. أعتقد أنك كنت تسخر من سذاجتي التي لن أشفى منها أبدا.

كانت التربة ما تزال طرية. سألني يوسف:

– الرجل الذي ينام تحت هدا التراب هو بابا عزيز.

لست أدري ما الذي دعاني إلى ترتيب هذا الجواب.

– لا، الرجل الذي ينام تحت هذه التربة الدافئة هو أخي الصغير الذي تعود أن يفاجئنا في كل شيء.

هو عزيز إذن الذي لم ينس أبدا أن يلعب لنا الأدوار ويدفع بنا إلى نفس التمادي لقبول موته. لقد قتلتك البلاد التي اشتهيت أن تتظلل يوما تحت راياتها الخفاقة كما تعلمت في المدرسة. قتلك حلم الأطياف التي ستظل أطيافا حتى يأتي الرجل الغريب ويجعل منها مدينة يشتهيها العشاق الضائعون والرومانسيون الحالمون.

لم تنجد اللغة لحظتها، آلامي القاسية التي توغلت حتى مسّت العظم.

كان عزيز في موقعه. لم يكن يتحدث. كان ممتلئا بألم غير ظاهر، مثله مثل زوليخا. فقد اختطفا في وقت مبكر. هي لم تشبع من رجلها، وربما لم تلمس حتى يده، وعزيز

عندما فتح عينيه على الدنيا وبدأ ينفصل عن أمه، لأنه ظل ملتصقا بها، ولأن ميما أميزار كانت بالنسبة له الاثنين معا، الأب والأم، فاجأته استكانة الموت التي لم ينتظرها، ولكنه كان يشم رائحتها في المستشفى وخارجه.

فجعت بالفعل بأن الجزء الأهم من عائلتي كان قد ترك الأرض ليسكن هذا المبهم الذي تحضر فيه كل الأشياء وتغيب وفق نظامها الخاص. استغربت داخل هذه الحالة من الصمت المقلق، غياب حنّا فاطنة، لكني أرجعت ذلك لنظام هذه الكينونة ومشيئتها. فقد كانت برتبة أمي ولكن أسئلتي كانت كلها عبارة عن زوائد ضافية، لأني مثلما فهمت من جدي الروخو، عليّ أن آخذ الأشياء كما تأتي. فكل شيء يسير وفق نظامه الذي كان من الصعب عليّ فهمه أو التفكير في تغييره.

أردت أن أقوم لأقبلهم جميعا، وأن أقبل رجل أمي التي انسلخت ركضا من أجل تعليمي، وأقبل رأسها، وأمدّ لها عنقي لقبلة الخير والوداع المؤقت، كما تعودت أن تفعل معي دائما كلما استعددت لمغادرة البيت بعد زيارتها، زارعة دفئا غريبا في جسدي المتعب. اشتهيت أن أقبل رأس حنّا لو كانت التحقت بالمجموعة وأطلب الصفح منها يوم بعثتني أقرأ القرآن في المدرسة القرآنية، عند سيدي سعيد، فعدت لها بكتاب مسروق من الجامع اسمه *ألف ليلة وليلة* وظلت حتى موتها تعتقد أنه القرآن الذي سيفتح أمامي أبواب الكتابة عن أجدادي الأندلسيين. أن أمد رأسي نحو زوليخا وأضمها إلى صدري لأنها منذ أن سرقها الموت في السنة السابعة عشرة من عمرها، في 1961، وأنا أشعر بيتم. أن أرجو أبي وأقول له ضع المنشفة الكبيرة على رأسي لأتجرأ وأسأله أصعب وأقسى سؤال. أمي غفرت له وأنا لم أفهمه: *لماذا تركتَ أمي وحيدة يا أبي؟* أن أعتذر أيضا من حبيبي عزيز لأنه مات في غيابي وكان بحاجة ماسة إلي، في الليلة نفسها التي غادرت فيها أرض الوطن، قبل أن أعود على أعقابي في فجر اليوم الموالي من باريس. لكن نفس اليد الناعمة التي كانت ورائي دائما وقريبة هذه المرة أكثر، أجلستني بلطف لألزم مكاني. سمعت جدي عندما أغمضت عيني وهو يقول.

- *لا تحاول يا قلبي أن تذهب نحوهم. ابق كما أنت. يحسونك. كل ما تراه من أجساد لا وجود*

له، هي فقط هالات من النور لا أكثر. لكن كلهم يسمعونك وتسمعهم. هم هنا من أجلك. ربما كانت المرة الأخيرة التـي تراهم فيها قبل أن تواجه قدرك الجديد وتقف على حافة العزلة تنتظر مجيء من تحب.

لأول مرة يحدث هذا معي. فقد شممت عطر المرأة التي كانت ورائي، ولكني لم أعره أهمية، فقد كنت مع عائلتي الصغيرة. شعرت بخصلة من خصلات شعرها تدغدغ كتفي العاريتين قليلا، ومع ذلك ظللت مشدودا إلى عائلتي وإلى المكان الذي كان يملؤني.

سألتني أمي. *كيفك ميما؟* أو ربما أنا من سمع ذلك فقط. صوت هارب مثل حفيف أوراق يتيمة، كدت أبكي ولكني تمنعت. همست المرأة التي ورائي في أذني. كان صوتها معطرا كحفيف فجر ربيعي. *ابك حبيبي، ابك. لا تحرم قلبك من أن يكون هو. لا تمنع نفسك من شجنك، هنا أنت لا تؤذي أحدا. ابكِ. كل ما حولك يحس بك ويسمعك.* فجأة بدأت دموع حارة تنهمر من عيني، شعرت كأنها حرقتي الأخيرة، بعدها شعرت بالكثير من الراحة. هربت مني كل الكلمات. الكلمات الوحيدة التي خرجت من قلبي كانت كلمات طفل فطم من ثديي أمه في وقت مبكر.

- توحشتك يا ميما. مكانك ظل فارغا.

- ومكانك أيضا أصبح اليوم فارغا هناك. الكثيرون يبحثون عن ملامحك في كل صباح، فيرونها مرتسمة في كأس القهوة، في كلمة صباح الخير التي لا تنسى قولها للقريب وللغريب. في ملامح فجر القرية التي تحبها وتحبك، قبل أن تغرقه الشمس في نورها. وها أنت اليوم هنا. نحن لا نفرغ مكانا إلا لنملأ مكانا آخر. أنت أيضا غادرت مبكرا مثل عزيز، مع أن أجدادك طالت أعمارهم كثيرا؟

- تلك هي الأعمار يا ميما. لا نختار أقدارنا الصعبة، هي من يختارنا بالشكل الذي

تشاؤه.

كنت مشدوها. كان صوت أمي صافيا. ناعما. هو، هو، كما عرفته. وجهها يلمع بنور انعكس عليه وعلى وجه الصبي الذي كان بين ذراعيها. استيقظ فسلمته ثديها ليمصه ثم ينام عليه.

من سمى أمي أميزار، التي تعني في اللغة الأمازيغية، إلهة المطر أو قوس قزح، لم يكن مخطئا. فقد كانت بحرا من الخير، ومطرا من المحبة، وشلالا من الحب. لم أرها في أي يوم من الأيام تطلب شيئا أو تتشكى حتى في حالات مرضها. وعندما تنام في الفراش كان ذلك يعني أن جسدها خانها.

- أنا أيضا لم أشبع منك، ولا من عزيز، ولا حتى من والدك. قدري الصعب، لم يمنحني ثانية واحدة فقط لأودع كل من أحب، هو الذي كان سخيا معي ومنحني تسعين سنة من الحياة.

- أعرف يا ميما. أنا نفسي لما وصلني الخبر، شعرت بكل شيء يحترق فيّ. من شدة

الألفة، نظن أن الذين نحبهم فوق سلطان النهايات، لن يموتوا أبدا. وننسى أن هشاشتهم كل يوم تحتل فيهم زاوية للموت. لا أعرف كيف مضى عليك ذلك اليوم سوى أني شعرت بيتم غريب ينزل علي وبآلام حادة عرفت في فجر اليوم الموالي أنها كانت آلام قطع الحبل السري نهائيا، إذ وجدتني فجأة في فراغات السماوات القاسية بلا مرفأ ولا صدر ولا قبلة الوداع في عنقي ولا دفء ضمة اللقاء. كل شيء تغير فجأة.

- مع أن كل شيء بدأ بمكالمتك وأنت بالعاصمة، عندما ترجيتك أن تأتي لتحضر معنا

ليلة عاشوراء. يومها كنت في ألقي، وفي قمة الشوق والحياة. لم أشعر بأي شيء أبدا. صباح بارد لكن شمسه كانت مشرقة. خرجت وأنا علي يقين أننا سنلتقي على مائدة اللفت والخرشوف الذي كنت تحبه منذ طفولتك. لكن صمت القلب المتعب كان أسبق. لم يمنحني أية فرصة لتأخير قدر الموت مثلما فعل معك في المرة الأولى، ومنحك عمرا جديدا. القلب وميزانه يا حبيبي، أحيانا يخبر، وفي أحيان كثيرة يتخذ قراره بالتخلي ولا يلتفت وراءه. ربما كان في ذلك حكمة ما لا نعرف سرّها. شعرت بآلام حادة في الصدر بعد العودة من السوق. طلبت من أخيك أن يرفع رأسي قليلا. شعرت فجأة بالتعب ومشقة كبيرة في التنفس. حالة لم أعرفها من قبل أبدا. ربما لأني كبرت في زمن لم أعرف فيه ما معنى المرض. تمنيت في أعماقي أن يمنحني الله ساعة

واحدة أراك فيها، وبعدها أنسحب بلا ندم لأني أنا أيضا كنتُ متعبة، لكن عندما فتحت عيني بصعوبة، وجدتُ كل الأبواب التي أعرفها موصدة، باب واحدة ظلت مشرعة أمامي تلك التي تؤدي إلى درب الله. رأيت ذلك النور الذي ارتسم أمامي، فكرت في أن التفت ورائي لكي لا أعبر تلك البوابة، لكني لم أفعل، لأن يدا ملكوتية أخذتني من ذراعي وسحبتني بلطف نحو النور المعمي للأبصار. أغمضت عيني من جديد وسلكت قدري الصعب الذي لم يكن عسيرا كما تخيلته دائما. بعمر اخترق التسعين سنة، مشبعة بالخير والألم لم يكن لدي ما أخاف عليه سوى الخوف من حالة العجز الكلي والتحول إلى عالة على الآخرين. سمعني الله، وسحبني ملاك الخير بسرعة في الوقت المناسب بعد أن يسّر عبوري نحو النور. لم أتعب ولم يرهقني مسار الرحلة. لم أسأل كثيرا. رأيت طريقا طويلا فسلكته، ونورا حادا، تماهيت فيه.

تمنيت في أعماقي أن أكون بحرية أمي وأقول ما في قلبي عن ذلك اليوم القاسي الذي تركتنا فيه، وكيف قطعت في الليل الحالك من الليلة نفسها، أكثر من 700 كيلومتر لا أفكر في شيء إلا التمنّي اليائس، من القلب أن يكون كل ما حدث مجرد كابوس هارب. كابوس ستمحوه حقيقة الصباح. لكن الصباح الذي جاء، كان يعج بالمعزّين وبالذين يبكون، وبالمقبرة التي رحلت نحوها القرية بكاملها، وذلك الرجل المسن، الحاج معمّر، الذي أخذ يدي ووضعها في صدره وقال وهو يرتعش من هول ما حدث. *أمك هنا. في عمق القلب. لم تكن أمك وحدك، فهي أم القرية كلها.* قبلتُ رأسه وبكينا مع بعض. بعد أقل من شهر رحل هو أيضا.

لكن اليد الناعمة ضغطت على ظهري قليلا بأناملها بأن لا أتحدث، وأنه من الأحسن أن أسمع. لأن الأموات الذين سبقونا، يسمعون قلوبنا وحواسنا، ولهم أيضا أصوات يريدون إسماعها للآتين الجدد لكي يعرفوا كم في القلوب التي رحلت من أسرار وفرح وخوف.

واصلت أمي وهي تنظر للصبي الذي نام بين ذراعيها.

-     لم تكن حياتي حرائق كلها، لكنها كانت أيضا هزات جميلة غيرت من نظام الحياة.

أحببتها فيكم وبكم. كل ما يحدث لنا هو سلسلة من الاختبارات القاسية. منحني الله محمد الذي تراه بين يدي، لكنه انتزعه مني قبل أن يتم دورة السنة الأولى. ولكي لا أموت شجنا، قلت في نفسي مازلت شابة وسيمنحني الله غيره. الثلاثة الذين جاؤوا بعده كن كلهن بنات خيرة، زوليخا وزهور. لأصبح بين يوم وليلة أم البنات. مضغة على لسان نساء أعمامك. *دار أميزار مسكينة خالية. تجيب إلاّ البنات*. غفرت لهن كلهن عندما وقفت أمام باب الله وفي مواجهة ملاك الرحمة. بعدها منحني الله، حسن وأنت، كبرتما كتوأمين. حسن ولد في يوم ربيعي. كان يشبه الشمس في كل تحولاته، وظل يضحك من كل شيء. وأنت كنتَ مأخوذا بالألوان. كنتَ تفتح عينيك في عز الشمس وتبدأ في التسلي بالألوان التي كانت تدخل إلى البؤبؤ. أحيانا كنتَ تقترب مني وتقول: *يمّا افتحي عينيك قليلا في الشمس*، وتبدأ في عدّ الألوان: هيمنة اللون الأخضر والأصفر الغامق والبني. لا سواد. تسألني عن سر ذلك: *فأجيبك. الأخضر من أجدادك البربر وجدك الروخو وعماتك، كلهم عيونهم خضراء.* الصفرة أضحك. لأني لا أجد جوابا يقنعك سوى ما كان يرويه أجدادك أن في سلالتنا شيئا من عيون الذئاب، فورثنا من *رماد*، صفرة البؤبؤ ودقة النظر. البني لنا في العائلة، أخوالك العامريون وهم قبائل عربية هلالية، عيونهم أغلبها بني. تضحك أنت كمن حقق نصرا عظيما ضد شكوكه وأسئلته الصّعبة.

-     ربما لأني كنت شقيا. كنت كلما مررت ووجدت دنانير على الخزانة، أخذتها واشتريت بها ليس الحلوى، كما يفعل جميع الأطفال، ولكن القهوة غير المطحونة وكراسة صغيرة وقلمًا. أذهب من وراء مقام الولي الصالح، سيدي بوجنان، أزرع القهوة في أرضه المثقلة بالمياه بسبب العيون التي نشفت كلها لاحقا، بينما آخذ الكراسة فأملؤها أرقاما، ورسومات، وأبحث بعدها عن مكان ناشف وأدفن القلم والكراسة تحت التراب، وأعود لأعترف لك بأني أنا من أخذ الدنانير الموضوعة على الخزانة. تنظرين إلي بحزن ويأس ثم تقولين مثلك المعهود. *واش خاصك ألعمياء، خاصنيِ الكحل يا لالة.*

خرجت الكلمات بشكل عفوي. لم تضغط يد المرأة الناعمة ذات الشعر الأحمر على كتفيّ. إلى اليوم لا أستطيع أن أفسر فعلي؟ زرع حبات القهوة غير المطحونة، ودفن الكراسة والقلم؟

- كان الفقر هو سيد زماننا يا ميما. كل دينار كان له مكانه في استمرار الحياة. لا لم

تكن شقيا. كنتَ لا تؤمن إلا بما كانت تلمسه يداك. حتى هذه اللحظة التي بين أيدينا، لو لم تلمسها ما كنتَ عرفتَ سرها. يوم سألت الشوافة الغجرية التي جاءت لتوشم وجهي ويدي وكاحلي، عن سر غرس قهوة الحب والكراسة المدفونة، أعطتني جوابا أراحني، لم أقله لك. ربما لأني كنت في حاجة إلى أن أومن بذلك لكي لا أصاب باليأس من حياة كانت قاسية. قالت بالنسبة للقهوة المغروسة، ابنك سيكون إنسان خير. يريد من زرّيعة القهوة أن تكبر وتتفرع في ماء الولي الصالح، ويحصل عليها الجميع. أما الكراسة والقلم المدفونان هما رمز لعلوم كبيرة ستدفن في صدر ابنك وسيكون له شأن كبير؟ شقاؤك كان في أسئلتك التي لا تتوقف. حتى الخاص منها. سمعتَ ذات مرة كلمة الوحم وعرفتَ معناها. سألتَني: يما على واش توحّمتِ وأنت حامل بي؟ لم أتردد في أن أقول لك الحقيقة. لم أتوحم على التفاح ولا على الموز، ولا حتى على فاكهة المساكين البرتقال والتمر. أصررتَ. قلتُ لك *توحّمت على الثلج*. اندهشتَ وبرقَّقْتَ عينيك. قلتُ لك نعم توحّمتُ على الثلج. رأيته لأول مرة في شهر جانفي وقد كسا الأرض كلها. كنت حاملا بك. شربت منه. جمعته وأذبته في البقراج وحضرت به شايا كان أصفى وأحلى من ماء الغدير. عندما شرب منه والدك وحنّاك وجدّك، اندهشوا من حلاوته. كنت صغيرة وأحفظ الأشياء بسرعة. لهذا تمنيت أن يكون لزعر الحمصي ببياض الثلج، وبجماله وسخائه وسرعة ذوبانه أمام كل ما يهز القلب. وأن يطول بك العمر حتى يصبح شعرك كله بلون الثلج. ولكن نسيت أن الثلج الجميل كان سريع الغضب لأنه شديد الهشاشة. عندما كنت أحكي لك قليلا عن والدك، كنتَ تغضب لأنك لم تره إلا نادرا عندما كبرتَ قليلا. هو كان مرتاحا في باريس ونحن كنا وحيدين. لم يقصر في أي شيء إلا في أن يكون معنا. العشرة التي كانت بيننا كانت أكبر من غيابه. أوصلت لي زوجات أعمامي وأبناء أعمامي أن

والدك كان يعيش مع امرأة أخرى في باريس. كوراثون ميا Corazon mia. أو ميّا MIYA . فرنسية من أصول أمريكية لاتينية. المعنى الإسباني لاسمها كان جميلا: قلبي. يبدو أن الجينات الأندلسية الإسبانية وجاذبيتها لم تمت في العائلة. حتى أنت وابنتك *ريما* ذهبتما نحو الإسبانية. لا شيء يولد بالصدفة. ميا كانت هي من أخرجته من عفوية القرية ورمته في مساحة كانت صعبة عليه قبل أن يتعود عليها. كانت صديقته وحبيبته ومعلمته وكنت أيضا زوجته وأم أولاده وابنة عمه. أنا لم أرها، ولكن يقولون إنها كانت جميلة وعاشقة حقيقية له. وأبوك أيضا كان معشوقا. لهذا عذرتها وعذرته هو أيضا. جدك فرضني عليه وأنا صغيرة، ولم يكن قادرا على رفض كلامه. أعاده من فرنسا فقط ليتزوجني، ثم غادر القرية من جديد باتجاه فرنسا. نبت ابننا محمد في غيابه. ثم عاد فنبتت البنات الثلاث. وكان سعيدا بهن أكثر من الأهل الذين خافوا من أن أضخم قائمة النساء في القبيلة التي كانت ضخمة بالأصل. لكن، عندما جاء أخوك حسن وبعدها أنت وبعدها عزيز، تغير الوضع. ولدتم كلكم في غيابه. ولكن عزيز كان جرحا أكثر ألما. كان يفترض أن يراه لأنه كان هناك. كنت حاملا بعزيز يوم القوا القبض عليه. أراد أحد *الحركة*[15] أن يعذبني بالكهرباء. قال أبوك للضابط العسكري الذي لمح على صدره صليبا ذهبيا صغيرا:

> Vous êtes croyant mon lieutenant, vous ne pouvez pas permettre un tel acte abject. Elle est enceinte. Empêchez-le, sinon vous porteriez sur votre conscience la responsabilité d'un double crime impardonnable ..

لست أدري بأي سحر أوقف الضابط، *الحركي* ومنعه من تعذيبي. والدك مات تحت التعذيب لا عزيز رآه، ولا هو رأى آخر أبنائه. صعب أن تذهب في ليل مجحف وأنت لم تودع على الأقل من تحب، لم تر مولودك. عندما تركب الأقدار رأسها نكتفي أحيانا بالسير في ظلها.

كل كلام أمي كان حزينا. لم أجد كلاما أواجهه بها. كنت مندهشا من صفاء وجهها وعنفوان كلامها. لم تعد أمي قلقة كما كانت. حزنت فقط على شيء واحد إذ لم أعد أسمع نكتها. كانت لا تقول جملة إلا وتردفها بجملة ساخرة؟ كنت أقول لها يا يما والله

---

[15] الحركي هو الخائن، أو المتواطئ مع جيش الاحتلال الفرنسي.

لو كان سرفانتس حيا ومعنا، لسرقك من والدي. تضحك وتقولها بلا تردد. *أحمد، سبع، يسوى الرجال كلهم. روح تلعب أنت وسرفانتس ديالك. شفت سبنيول ونعرفهم مليح. أحمد كان كي يوقف السبوعا يهربوا منه. لا يا حبيبي، سرفانتس ديالك خليه عندك وشبع به*. أضحك. تلك هي أمي.

تنهدت ميما أميزار طويلا ثم قالت وهي تنتبه للأكل الذي لم يبرد أبدا، وظل بخاره يتعالى:

- هذا عشاؤك حبيبي. عشاؤك الأول والأخير الذي يمكن أن يمنحه لنا قدر الموت.

كل. نحن في رفقتك. نحن عائلتك التي انتقلت إلى هذا المكان. كلْ، ما تزال أمامك مسافات ومسارات عليك أن تقطعها.

لا أعلم لماذا رأيت أيضا في هذه اللحظة سيدنا المسيح، بمجرد أن نطقت أمي بكلمة العشاء الأول. رأيته

بدمه وجرحه وخيبته وهو معلق في اليوم الموالي على خشبة الصلب.

أردت أن أصر على أمي وعلى بقية العائلة أن يتعشوا معي، ولكن اليد الطيبة التي ورائي ذكرتني بأنها ما تزال هنا. خيل لي في لحظة من اللحظات أني رأيت زوليخا أختي بابتسامتها المعهودة تغمزني. كنت دائما متواطئا معها عندما بدأت تهتم بالجندي السنغالي الذي كان في الجيش الفرنسي، ورفضت العائلة تزويجها له، عندما تقدم لخطبتها بمعية إمام القرية. البلاد كانت في حالة حر(حرب)، وهو كان في الجيش الفرنسي وهذا وحده كان كافيا لرفضه، على الرغم من أنه كان دائما يقول إنه مسلم وإنه لم يؤذ إخوته المسلمين في القرية أو في غيرها. الذين عرفوه يشهدون بذلك. لكن العائلة كلها أجمعت على الرفض وكان لكل واحد حججه في داخله، من المبرر العنصري الخافت، حتى المبرر الوطني. زوليخا كانت طفلة صغيرة. وكنت دائما وسيطها. بعدها مرضت ودخلت في عزلة الموت. في البداية فقدت القدرة على الكلام. آخر مرة رأيت الموت في عينيها المفتوحتين. يومها أدخلت رأسي في حضنها وحكّت على شعري بأصابعها الناعمة حتى نمت على صدرها مثل طفل صغير. يوم ماتت

بكيت بلا توقف على مدار الشهر الذي تلا رحيلها، وقضيت زمنا طويلا أنام في فراشها فقط لكي أشعر بأن دفئها كان هنا، وأن عطرها الذي كنت أحبه ولم أعرف أبدا اسمه على الرغم من أني أنا من أخذه من الجندي الإفريقي وجاءها به، كان ما يزال في أنفي.

بدا لي ذلك فقط وأنا أرى وجهها الذي لم يفقد ألقه أبدا.

كانت رائحة ما تملأ قلبي، لم تكن رائحة الأطعمة.

ربما كانت رائحة الغياب، وشيء شبيه للموت.

3- زُولِيخَا تعرّي جُرْحَهَا

سمعت هسيسا خفيفا يأتي من بعيد، أو ربما من الهوة المظلمة في أعماقي. مزيج من خفقات القلب وتمزقات الحنين، وورق يتعالي في السماوات، وإيقاع هادئ مثل ذاك الذي سمعته عندما انكفأ جدي على وجعه وهو يسمع لنشيج *الشمعة.*

لم ترفع زوليخا عينيها الجميلتين عن وجهي. كانت قريبة مني كأنفاسي. كنت أتلمسها بعيني وأتحسس كل ملامحها الطفولية التي بقيت كما رأيتها في آخر مرة قبل أن تمرض المرض الذي سرقها. حزنت في أعماقي أني كبرت وبقيت هي شابة. اشتهيت أن أظل طفلها المدلل حتى وهي في عالم النور والسكينة.

لم أستطع مقاومة نداءات قلبها. تمنيت فقط أن أتمكن من الالتفات نحو اليد الناعمة وأطلب إذنها للذهاب نحو زوليخا. غمرني شوق لا يقاوم نحوها، ولكن في خلوة تفكيري، مدّ جدي يده نحو وجهي فأغمض عيني بنعومة وهمس في أذني كأنه يلعب معي لعبة الغميضة: اششششششت. فجأة رأيتني أركض نحوها في مكان شبيه بالحلم، تحت شلالات من الحنين. كانت هي أيضا تتقدم نحوي بالسرعة نفسها. ارتمينا في حضني بعضنا بعضا مثل وردتين تتبثعران على وسادة عاشقين. ضممتها بقوة إلى صدري وبكيت. تعودت أن أبكي بحرية بدون أن أخسر شيئا من رجولتي. كنت أحس بحرارة جسدها الحي. ثم كعادتها دائما تقلب لحظة الدمع إلى فرح. خمسون سنة من الغياب لم يتغير فيها شيء. هي، هي كما ارتسمت في ذاكرتي ولاح نورها في قلبي. بدأتْ تضحك وتتلمس شعري. *عطرك جميل*. تذكرت آخر عطر وضعته قبل أن أغمض عيني وأغادر ضجة الحاضرين في البيت. *شعرك يا حبيبي أصبح كله أبيض.* كان وجهها مضاء كنجمة. لكن ملامحها كانت منارة بشيء غريب. ارتسمت الغمازتان بوضوح ووهج، وهي تعاود الضحك: *ميما أميزار توحّمت بك على الثلج وها أنت تدفع الثمن ويصبح شعرك كله ثلجا. الشح فيك. هههههه. أنا عليّ توحّمت على باكورة، كرموسة فايحة، كانت في أعالي الشجرة، فظلت حنا فاطنة تبذل جهدا كبيرا وتضع الأخشاب والأحجار فقط لتلحق بالفرع العالي من الشجرة، وهي تردد: والله ما نخليها في خاطر بنتي وهي حامل. وعندما مستها انزلقت وكُسِرت*

ساقها اليسرى. تلمست ملامحي برؤوس أصابعها الناعمة وكأنها تعيد رسم وجهي. عادتها منذ أن كانت صغيرة. تنهدت: *يااه يا خويا العزيز وشحال توحشتك*. كان عمرها 17 سنة يوم توفيت. أردت أن أسألها عن قلبها الجميل وعن حزنها الذي لم يمهلها كثيرا من الوقت. قالت وهي تمسح على وجهي مرة أخرى: *ما تخافش عليّ يا ولد ميمَا. كل شيء انتهى. السكينة هنا تعيدنا فقط إلى دواخلنا، لا عواصف، لا عذاب، لا بشر ينغصون عليك، لا كراهية، ومع ذلك أنت لا ترى من آذاك ولو بكلمة إلا إذا أصبح قلبك صافيا كنسمة صباحية تجاهه. يومها كل شيء كان ضدي من الأول. في أعماقي كنت داخل طاحونة من الخوف. بابا أحمد سرقوا منه روحه بقسوة. لقد رأيتهم وهم يمزقون لحمه وجسده ولم يحصلوا منه على شيء، لأنه في ليلة القبض عليه رأيت أيضا من وراء الكوة الصغيرة لبيت حنّا فاطنة، كنت نائمة ليلتها عندها، رأيت جنودا يأتون إلى البيت ويفتحون المطامير ويخرجون الأسلحة. أردت أن أصرخ لكني عندما رأيت حنا فاطنة تساعدهم على ردم المطمورة الخلفية التي بها حبوب القمح، كتمت أنفاسي وعرفت أنهم رفاق والدي. نفس الصرخة التي كتمتها عندما رأيت الحركة يسرقون مني أبي ويخضعونه للتعذيب. وفي الليلة نفسها وجعني قلبي وعرفت أني سأموت قريبا. إبراهيما المسكين لم يكن لي ولم أكن له. أولا لأصله الذي صفعوني به للوجه. كان لونه أول مبرر للرفض. كنت صغيرة وكان يمكن أن أهرب معه ولكن هل كان هو قادرا على الهرب من جيش هو نفسه الذي قتل لاحقا والدي؟ انكمش قلبي عندما شعرت أن في اليد التي كانت كلما مرت تقول لي بونجور مادوموازيل، وتحييني وتحيي العائلة، دم بابا أحمد. في الحروب لا مكان للحب يا تقتُل يا تُقتَل. هذا ما قاله أحمد ولد خالي لأمه وهو يسحب ابنة عمه زهرة ذات الـ 16 ربيعا من نومها ويأخذها معه. كان ضابطا في جيش التحرير. الكلّ يعرف أن عينه كانت عليها. التحق بجيش التحرير لأنها رفضته. عندما سألته أمه وأمها إلى أين يسير بزهرة. قال بشكل جاف: لا تخافي يا يمّا، ويا عمتي آمنة، سأعيدها لكما غدا. أضافت أمها وعيناها ترتعشان لأنها في لحظة من اللحظات رأت في عيني أحمد دما وغزلانا تتهاوى من أعالي المنجرفات: يا وليدي زهرة مثل أختك، كبرتما معا. صغيرة وما تعرفش مصلحتها إذا رفضتك كزوج. كل شي بالخاطر. ما*

دارت والو. كلام الناس صعب وغير محسوب. هو من أرادها وليست هي. وعندما رفضت بعث لها فيلقا ليأخذوها إلى الكرطي[16] *هم سادة البلاد. هي لم تلوث نفسها. أنقذها شخص طيب من مخالب مختطفها. زهرة عندما رأت عيني ابن عمها أحمد، عرفت الحقيقة، ارتجفت قليلا بعد أن هربت منها كل الكلمات. انحنت على رجليها وقبلت حذاءه وهي تبكي: يا وليد عمي... يا خويا العزيز والله ما درت والو. لم أركب في لاجيب* La Jeep *برضاي وحريتي. اختطفوني. لكن ما خليتوش يمسني. . لما بدأت أترجاه و أصرخ تدخل أحدهم، كان طيبا. شاب قلبه حنين، فأنقذني منه وأعادني إلى أمي وعمتي رحمة. خذني عند خالتي النقاشة وخليها تشوفني. مازلت عذراء.* كانت أسنانها تصطك من شدة الرعب. جاءتها أمها بغطاء صوفي وضعته على ظهرها وهي منكفئة قريبة من حذاء ابن عمّها أحمد الذي قال لأمها: *ليست في حاجة لأي غطاء*. في الليلة نفسها ذبحها وأدى عليها صلاة الجنازة مفردا وهو يقول: *إذا كنتِ بريئة من التهمة، ليغفر لي الله ، على روح أخذتها بغير حق فأنا لم أقصد إلا مرضاته، وإذا كنتِ مذنبة ليغفر لك الله على مسخك لاسم العائلة*. بعدها بيوم واحد استشهد ولم يُعرف له قبر. بعد سنوات من استقلال البلاد جاء رجل فرنسي إلى القرية في مجموعة سياحية وطلب أن يرى أم زهرة وقبّل يدها وطلب الصفح منها، وأقسم أن ابنتها اختطفت من مجموعته، وأنه كان حاضرا ومنع الضابط من اغتصابها. وأنها قتلت ظلما. ظلت أم زهرة تنظر إلى وجهه وتحاول أن تتذكر أين رأت تلك الملامح القلقة؟ ولكنها لم تفلح، فتركته وخرجت وهي تصرخ صرختها التي بدأتها منذ 1959 وما تزال تكررها بلا ملل: *يا أحمد يا وليدي بنت عمك وأختك زهرة ما دارت والو... الحب بالخاطر مش بالسيف... يا أحمد يا وليدي...* منذ مقتل ابنتها واستشهاد أحمد، أصبحت تعيش خارج الناس والأرض. هذه قصة بنت خالي التي كانت في رأسي وأنا أخرج إبراهيما نهائيا من قلبي دفعة واحدة. إيه يا الحبيب، لم يكن الأمر بسيطا. قصة زهرة أرعبتني وهي لم تفعل شيئا، بينما أنا فكرت في الهرب مع إبراهيما. موت بابا أحمد فتح عيني على خوفي.

[16] الثكنة العسكرية.

شيء مما كانت تقوله لي زوليخا كان يجرحني بقوة. لم أكن في حاجة لعبقرية كبيرة لأفهم قصدها. هي أيضا كانت خائفة أن يحدث لها ما حدث لابنة خالها. سلمت على رأسها وضممتها أكثر إلى صدري. شعرت براحة كبيرة وبدفء أكبر كأني فجأة وجدت زوليخا التي ملأت قلبي وأنا صغير.

عندما سمعت صوت أمي، انفتحت عيناي بهدوء. كنتُ في مكاني، في جلستي الأولى، وكانوا كلهم في أماكنهم إلا زوليخا التي كانت تعدل من هندامها وتنظر إلى وجهها في المرآة الصغيرة، قبل أن تجلس وتغمزني كعادتها. كأننا كنا متواطئين على سر جميل. انتبهت لأمي أنها لم يعد بين يديها أي طفل. محمد ذهب أو غاب فجأة. كانت أكثر استقامة هذه المرة. أردت أن أسالها ولكنني في اللحظة نفسها رأيت، من خلف البلّور، امرأة كلها بياض، تحمل في يدها طفلا ملفوفا في كتان صاف بلون الضوء المنعكس عليه، وتتجه به نحو الأشجار العملاقة التي انفتحت لتفسح لها الطريق، وتنغلق من جديد بعد مرورها. تناهت إلى مسمع قلبي أصوات الأطفال في أناشيد كانت تأتي من بعيد، لا موسيقى فيها، إلا صوت الرياح وحفيف الشجر وأصواتهم الملكوتية التي كانت تطغى على كل شيء. خمنت أن يكون أخي محمد منهم.

كلّ الغائبين من العائلة كانوا هنا. كل واحد كما رأيته في آخر مرة. لم يكبروا ولم يصغروا. لا موت. لا حياة. لا خوف. لا قلق. شعرت من تلقاء نفسي بأننا في سفرتنا الأخيرة نبقى في سننا الذي توقفنا فيه. ونظل كما نحن بعد أن تزول كل علامات الكبر والمرض والحزن والخوف.

وكأن ميما أميزار سمعت ما كان في قلبي.

- محمد أخوك، الآن في ساحة الملكوت. سميته محمدا تبركا بنبي الله. وليطيل في

عمره. لكن عمره كان محدودا. ولم يكتب له العيش طويلا إذ لم يتخط عتبة السنة الواحدة. لكن أنت قصتك مع الاسم تختلف. أصلا حملك لم يكن سهلا. تعذبت معك كثيرا. وكان يمكن أن تموت معي في التعذيب. الله ستر كما حكيت. كان الفصل

شتاء عندما عاد والدك إلى أرض الوطن. تلك السنة البرد والعواصف وحزن كبير كان يُقرأ في عينيه. لم أعش مع والدك طويلا ولكني كنت أفهمه جيدا. كنا في نهايات شهر ديسمبر 1953. فهمت أنه كان في قلبه شيء ثقيل يريد قوله، ظننتها الغربة فقط. لم أفهم إلا لاحقا أنه كان يريد أن يخبرني بعلاقته مع مِيَا. هو لم يكن يعلم أني كنت أعرف قصته بالتفاصيل وحتى الكازينو الذي كان يرتاده أيام السبت والعطل ليلعب فيه برفقتها. وكيف تدرجت علاقتهما من صديقة عادية في العمل ثم النقابة، من رفيقة إلى حبيبة إلى امرأة مرتبط بها بقوة. أبوك خرج من قريته مغمض العينين، كارهًا من البؤس والفقر وانتهى بين يدي مِيَا التي غيرت حزنه وأدخلته الجامعة الشعبية فتعلم القراءة والكتابة، قبل أن يصبح نقابيا وينتمي لفيدرالية الجزائريين في أوروبا التي كانت تناضل من أجل استقلال البلاد. من حيث لا تدري كانت تحضره للموت. تغيرت نظرة القروي الغارق في اليومي إلى نظرة العاشق لوطن كان يناديه بعمق ويسحبه نحوه كل يوم قليلا، قبل أن يعود نحو تربته مثل مجنون يركض وراء معشوقة تقوده إلى الهلاك. عاد للمرة الأخيرة وأُلقِي عليه القبض وقُتِلَ تحت التعذيب. هل تعرف فيمن فكرت وقتها؟ قبل أن أفكر في أبنائي ويتمهم والقسوة التي كانت تنظرني؟ فكرت في مِيَا التي ظلت تنتظره؟ تخيلتني لحظة واحدة في مكانها. كم هو شقي أن تحمل لك الرياح المنهكة قلبا محروقا وتضعه أمامك على الطاولة وتسألك هل عرفتَ لمن؟ تتردد للحظة ثم تقرأ في عيونها عواصف الدم، فلا تملك إلاّ البكاء وتغمض عينيك لكي لا تصدق شيئا مما يحدث أمام عينيك ولا تري الرياح التي صفعتك بالخبر؟

كانت ميما تتحدث بصفاء شديد النقاء، بينما كنت ما أزال أشعر بألم كبير. كدت أقول لها *يا يما لماذا لم تنتفضي على والدي وتمنعيه؟* لكني شعرت بعيني الروخو تخترقانني. بابا أحمد لم يكن معنا. كان غائبا تماما، في حالة سهو كلية. وكأنه لم يكن موجودا. فقط رأيت مساحة البقعة الحمراء تتسع أكثر كلما تورطت أمي في الكلام عنه. كانت لطخة الدم بحجم حبة كرز ثم اتسعت أكثر حتى أصبحت بحجم كف اليد. اعتقدت أنه الألم الداخلي. مع أن أمي كانت تجد له كل أعذار الدنيا كلها: *واش تحب يا وليدي؟ رجل وما يصبرش. ثم مِيَا امرأة طيبة وجميلة. كيفاش كان يدير لو لم*

يجدها في طريقه؟ من يقوم به؟ من يغسل لباسه ويهيئ أكله وفراشه. هذه هي الحياة. وهو لا يقصر في واجباته. بعفويتها وطيبتها، لم تكن أمي تعلم أن المرأة في البلاد التي وراء البحر كما كانت تسميها، مثل الرجل، تعمل وتخرج وتعيش بحرية وعلى الرجل أن يساعدها في البيت والحياة. من هذه الناحية لم تنفعه مِيَا كثيرا.

مسحت أمي على وجهها بيديها الناعمتين اللتين لم تكن فيهما أية تجاعيد باستثناء أوشام رقيقة كانت تتفرع كشجرة خروب. قامت بها امرأة عامرية. خطت لها وجهها ومعصميها وكاحليها. فقد وجدت العامرية في جسد أمي الغض التي لم تنهكه وقتها أية ولادة، مساحة مريحة للرسم. في المساء تخفت بجروحها عند حنا فاطنة لكي لا يراها بابا أحمد، ولكنه عندما رآها في الصباح الباكر وهو يتهيأ للخروج، سألها سؤالا واحدا: *ألم تتألمي*؟ قالت لا. وعادت لها الابتسامة. تشجعت فسألته وهي تشعر ببعض الراحة: *عجبك الوشم؟* ضحك: *بصحتك. أصبحتِ تشبهين الوشّامة العامرية.*

- في عز الشتاء أيضا عاد والدك إلى فرنسا. إلى مِيَا. وكبرتَ في رحمي. هو أيضا لم

يكن سعيدا بهذه الحياة الصعبة. قلب ممزق إلى آلاف الأجزاء. كنتُ محنته. تخيل للحظة، هناك امرأة تسعده لغة وحبا، وهنا امرأة ريفية قَدّْ حَالها، لا تسعده إلا بحبها وعفويتها وصدقها وأولادها. لكنه لم يقصر في أي يوم أبدا في حقكم أما أنا فقد سامحته حتى قبل أن يسرقوا منه عمره تحت التعذيب. كان كل همّي أن يرزقني الله ذكرا لكي تصمت نساء أعمامك وأرتاح أنا من سخريتهن. كانت ألسنتهن قاسية. *مسكينة أميزار ما عندها غير البنات. مول البنات داره خالية*. لكن الله الذي لم يكن يسمع إلا لنساء أعمامك ويرزقهم بالذكور الكثيرين، استمع إلي تلك الليلة. كان الليل جميلا. والحر معتدلا على الرغم من عزّ الصيف. جاءني كما لم يأتني من قبل في رؤية كأنها حقيقة.

- من يا يمّا، الله؟

- لا. لا يا وليدي. اللي جَانِي هو سيدي أمحمد الواسيني. الولي الصالح المعروف

بكراماته وبركاته. كان ليلتها فارسا يمتطي حصانا عربيا أصيلا. كان يلبس برنسا أبيض ووجها مضاء بنور كأنه نور الصحابة. ربما كان ملاكا. العامرية تقول إنه سيدنا جبريل؟ فقد قضى العمر كله زاهدا عن الدنيا واختار خلوته التي مات فيها. يقولون إن سيدي أمحمد الواسيني من أولاد زيان. وقف الولي الصالح عليَّ في تلك الليلة الصيفية الجميلة وكان بشوشا ورائقا. لم ينزل من حصانه. قال لي *هل عرفتني؟* أجبته. *لا ولكني أظن من وجهك أنك ولي صالح صالح، وأنك قاصد الخير*؟ رد عليّ: كلّ الخير. *أنا أمحمد الواسيني. فقط كنت خاطر في البلاد، وجئت أبشرك بشيء يفرحك*. قلتُ له خير وسلامة يا سيدي. قال وهو ينعتني باسمي الطفولي: *يا لالة نويوة بنت الصغيّر، سترزقين ذكرا وسيكون له شأن في هذه الدنيا. سيتشرب علوم الله ويمتلئ قلبه بالإيمان. لا أطلب منك شيئا سوى أن تسميه باسمي لأتمكن، بقدرة المولى، من حفظه من أي مكروه. لكن إذا أسميته بغير اسمي يكون كل شيء قد خرج مني. وأضطر لأخذه معي في اليوم الموالي*. استعطفته وقلت له: *لك ما تريد يا سيدي أمحمد. لا تأخذه. هو ذكري الذي طالما انتظرته*. لم يجبني وانسحب ولم أر إلا الغبار الذي تركه وراءه حصانه. في صباح اليوم الموالي الذي صادف عيد الأضحى ولدتَ أنتَ فجرا، في عز القيظ. فرح جدك محمد، ولم تكن الأرض قادرة على حمله واعتبر ذلك فال خير. صرخ في وجه من كانوا يباركون له من العائلة: *آتوني بأحسن خروف حولي صحيح، سيكون اسم حفيدي اليوم مباركا: عيد.*

- ألم يجد جدي اسما آخر غير عيد؟ وهل كان ضرورة؟
- لا. لم يكن ضرورة. لكنها عادة رجال البلاد. التقليد المتبع في القرية، يفرض رمزيا

وتبركا أن يسمى الذكر الذي يولد صباح العيد باسم عيد، والذي يولد في شهر رمضان، يسمى رمضان، وشعبان يسمى شعبان وهكذا. في القرية تستطيع أن تحدد بكل بساطة الموسم الذي ولد فيه الفرد بحسب اسمه. الأسماء إشارات حية لنظامنا الحياتي بتقاليده ورموزه. عندما تهيأ جدك لذبح الأضحية فرِحا سعيدا وليسميك عيدْ، صرخت وأنا أقوم من فراش النفاس، بعد أن أخبرتني أمي فاطنة، عن نية جدك: *إذا كنتَ تريد لحفيدك أن لا يعيش سمه عيد. أنا في عرضك يا عمي لا تحرمني من*

ابني. اندهش جدك الذي كسرتُ فرحته ساعتها. قلت له *أعطني خاطرك شوي فقط.* وحكيت له القصة كلها. خاب ظنه قليلا، لأن الولادة في موسم خاص هو حظ لا يتوفر دائما لكل الأفراد، وهو علامة خير يحملها المولود معه لأهله ولقريته ولقبيلته وربما لأرضه. لكن جدك لم يكن قادرا على مخالفة رؤى رجال البلاد. كان يعرف جيدا سلطان سيدي أمحمد الواسيني. فانصاع للأمر. وهكذا سميتَ واسيني.

كتمت ضحكتي في أعماقي. اسم عيد يضحكني ، ولا يعني لي الكثير ولا أتصور أن اسما مثل هذا كان سيركب عليَّ. انتسبت إلى اسمي بروح خاصة، لدرجة أني في فترة الإرهاب، في العشرية التسعينية السوداء فكرت في التخلي عن اسمي العائلي *لعرج* برغبة عميقة في عدم توريط العائلة في وضع كان شخصيا جدا وخيارا فرديا. كنت دائما أقول لنفسي: *بأي حق تدفع معي العائلة خيار جنوني؟ جنون الوقوف ضد آلة تدميرية قاسية. اسمي الشخصي كان يكفيني.* ثم أنه يشبهني إلى حد بعيد، من المواساة، والمحبة وحنيني إلى شيء لم يعد اليوم موجودا. ثم إن الكثير من الناس يجدونه خاصا وإيحائيا وربما غير حقيقي أيضا. مجرد اسم فني مستعار. لأنه نادر ومحصور بين سواحل وهران وامسيردا، وساحل الناظور البربري في المغرب. لكن هذا الاسم المريح لم يعفني من شطط الحياة وقسوتها. لا أدري إذا كان هو من حماني أم هو من ورطني ورماني في دهاليز الموت. غريب أن يقرأ الإنسان خبر موته في إحدى الجرائد الوطنية ويسمعه في *إذاعة المتوسط الدولية* والإذاعة الإخبارية الفرنسية الواسعة الانتشار: *فرانس- أنفو.* تذكرت يومها صديقي الكاتب الفلسطيني علي فوده[17]، الفلسطيني الطيب، الذي قرأ خبر استشهاده في أحد مستشفيات بيروت. أسترجع مانشيت خبر اغتيالي كما قرأته في جريدة *النصر* اليومية التي تصدر بقسنطينة: **اغتيال الروائي الجزائري واسيني الأعرج.** أشعر في البداية بشيء من الزهو ثم ينتابني خوف عميق. أول شيء قمت به هو إخبار أهلي، أمي خصوصا وتكذيب الخبر وطمأنة كل الأصدقاء الذين كانوا يعرفون مكان إقامتي. أشعر دائما

---

[17] شاعر فلسطيني استشهد في بيروت أثناء الاجتياح الإسرائيلي في 20-08- 1982. كان يرأس جريدة الرصيف ويوزعها بنفسها. هو صاحب القصيدة الجميلة التي غناها الكثير من رفاقه ومحبيه: اني اخترتك يا وطني حبا وطواعية/ اني اخترتك يا وطني سرا وعلانية/ اني اخترتك يا وطني فليتنكر لي زمني/ مادمت ستذكرني يا وطني الرائع، يا وطني.

بأن هناك رجلا حماني بصدره ليمنحني كل هذا الزمن وأنا مدين له بالرغم من أنه لا يدري لماذا قتل بالضبط؟ الرجل الذي قتل، خطأ، كان موظفا بسيطا في الأمم المتحدة، يمر كل صباح بالقرب من الجامعة قبل أن يذهب نحو عمله. كان اسمه: **واسيني لحرش**[18]. لم يكن يعرف وهو يخرج في ذلك الصباح، أنه سيقتل في مكان رجل آخر. كم أشتهي اليوم أن يمنحني الله فرصة لأقبل رجلي هذا الرجل وأعتذر منه عن خطأ لم تكن لي فيه أية مسؤولية سوى قدر الاسم . القتلة الذين اعتذروا من أهله عن الخطأ، لم يعتذروا من الله ولم يسألوا القتيل عن رأيه في ما فعلوه في ذلك الصباح البارد والقاسي. في رسالة باردة قالوا: *كل نفس ذائقة الموت. نعتذر. لم يكن هو المقصود.*

- قلب الله واسع ورحيم وكله خير. الآجال لا تسأل يا حبيبي. عندما تقف على العتبة

وتأتيك بخبرك الخاص وتفتح أمامك الأبواب، ولا تترك لك أية فرصة للرجوع إلى الوراء من الأحسن أن تسير نحوها بلا تردد. كله خير. الأقدار التي تظلم أو هكذا يبدو لنا، سرعان ما تغير مجراها نحو الخير. كنتَ عنيدا وتريد أن تصل لكي تخرج من ضيق الحياة وتخرجنا معك. ومنحك الله ما أردت بعد أن عبرتَ الخيبة والقسوة والبكاء.

- أعرف يا ميما. أعرف ميما حرقة أن لا تصل، وأنت تملك كل الوسائل التي توصلك.

كنت أحلم فقط بأن أخرج من هذه الدائرة القاتلة لأنها لم تكن قدرا مفروضا، بالخصوص بعد استشهاد الوالد في ظروف ظالمة وشديدة القسوة ودخولنا في دوامة الخوف والضياع. كنت مؤمنا بالحلم الذي رسمته في رأسي وركضت وراءه حتى النهاية وأنا ألعب داخل الأسلاك الشائكة بالألغام وأطارد الفراشات. أحيانا كنت أرى حلمي قريبا مني كتنفسي وأصابع يدي، في أحيان أخرى يبتعد، لكنه لم يغب أبدا عن بصري. حياتي بدأت بسيطة في قرية لا توجد على أية خريطة وطنية باستثناء

[18] Ouassini Lahrache a été assassiné mardi 7 mars 1995. Il travaillait au centre d'informations de l'ONU à Alger, a été tué par balle par deux inconnus qui tentaient de s'emparer de sa voiture alors qu'il quittait son domicile pour se rendre au travail.

الخرائط العسكرية التي أنجزها الاستعمار في وقت مبكر. وكبرت في هذا الجو من البساطة متعاطفا مع فقراء قريتي لأني كنت واحدا منهم ولم أبتعد عنهم أبدا

- منحك الله فرصة جميلة عندما انغلقت عليك كل السبل.

أمي لم تكن تحكي كثيرا ولكنها كانت تضعني في مسالك كنت أعرفها جيدا وأحس بها بقوة. يوم خروج نتائج امتحانات السّيزيام لم أر اسمي، بينما رأيت أسماء من كانوا ضعافا حقيقة. أعدت قراءة صحيفة الجمهورية التي كانت تصدر بالفرنسية، وجدت كل الأسماء إلاّ اسمي. بكيت يوما بكامله وبتّ ليلتها في الكوابيس ولم يكن أمامي إلا أن أسلم بالأمر. لأني يومها شعرت بشيء كبير ينهار في داخلي، ولم تكن لدي أية قدرة على رتق جروح الخيبة. في الأيام التي تلت أصبح مخي فارغا. حلم مغادرة القرية ضاع نهائيا ولم يبق أمامي الشيء الكثير. التهريب أو الفلاحة عند كبار الملاكين. كنت غارقا في سوداوية كبيرة ولكني لم أفكر في أية لحظة من اللحظات في الانتحار. لا أدري لماذا؟ انغلق كل شيء في مخي. لكن هناك بعض الأقدار لا عقل فيها. الصدفة هي التي قادت الحاج سليمان في ذلك اليوم الحار من صيف 1965 إلى أن يفتح صفحة الجريدة التي لف له فيها البائع قطعة القماش التي اشتراها لابنته. فتح الصفحة وتسلى فيها قبل أن ينام. فجأة عثر على اسمي *Ouassini Laredj* من بين الناجحين في السّيزيام. أوصل الخبر لخاله أحمد، زوج خالتي عائشة، أصغر خالاتي، الذي زاره يومها،. سأله في البداية. هل لعمتي أميزار ابن اسمه واسيني. أجاب زوج خالتي بمحبته المعهودة: نعم. لكنه للأسف لم ينجح في السّيزيام. كل العائلة حزينة لأنه يتيم ويعمل بجد. أجاب الحاج سليمان. لا لا هو نجح وخرج ضمن قائمة تلمسان في *ثانوية ابن زرجب*. ثم جاءه بقصاصة الصحيفة. بعد عودته من سفره، مر علينا زوج خالتي في البيت وأخبر أمي. قال لها يبدو أن واسيني نجح في السّيزيام. زغردت أمي لدرجة البكاء. لم أصدق. كنت أخاف أن أخيب أمي ثانية وأحزنها مرة أخرى، إذا كان الاسم الذي قرأته في القصاصة لشخص غيري هو مجرد تشابه في الأسماء. وفي الصباح الباكر أخذتني ميما من يدي وذهبنا إلى تلمسان. عندما فتح المدير علبة طويلة بها بطاقات بأسماء الناجحين، رأيت بطاقتي

فجأة تتراقص بن يديه. ذهبت عيناي مباشرة نحو تاريخ الميلاد. كان مطابقا. 8-8-1954 في لعشاش/ تلمسان. انفجرت مثل البركان الصغير. وبكيت بلا توقف وأنا بصحبة أمي في انتظار الحافلة للعودة إلى القرية. ثم بكيت في الحافلة لدرجة أن الجابي سأل أمي عن سبب دموعي: *واش به الوليد يا لالة' يبدو مريضا.* قالت له وهي تكتم بصعوبة ابتسامتها: *يا ودي ذاك المخلوق يبكي بسبب وبلا سبب وغضّاب، يدير من الحبة قبة. شوي ضرسه وجعته هذا ما كان.* حك الجابي على رأسي وهو يقول لي: *يا وليدي الله يعطيك الصبر. الضرس ما يقدر عليها إلا اللي يصبر.* لأوّل مرة أنظر لأمي وأنا أبكي وأضحك وهي تضحك متخفية، ثم بكيت في البيت ثم في السرير. وفي الصباح كنت أميرا في القرية.

كانت السّيزيام هي أولى شهاداتي وأهمها على الإطلاق.

- كانت أياما عصيبة، لكن كان على حواف القلب مصغيا لذاك الأنين العميق. لم

يظلمك ولم يظلمني. منحك فرصتك للخروج من القرية والدراسة، ومنحني فرصة أن أكون وفية لوالدك وأشعر لأول مرة في حياتي أني أديت بعضا مما كان علي تأديته. فقد وعدته في ليلته الأخيرة في السجن أن أدرس أبناءه كما طلب مني ذلك. نفذت له طلبه الأول، لكن الطلب الثاني لم أكن قادرة عليه. أن أتزوج غيره؟ كان يصعب عليّ، على الرغم من أن العائلة كلها كانت مع الفكرة: *الرجل سترة للمرأة كيفما كان. تزوجي، واش تخسري؟ أولادك ما يكبروش يتامى وفي الميزيرية؟ أزهاي بشبابك، مازلت شابة وصغيرة. هجالة وتتشرط*... شعرت برأسي يغلي، فصرخت لأخرج الجنون الذي أحرقني من الداخل: *اللي قابض السماء بيديه، يطلقها تطيح. ما نتزوجش. أبقى مع أولادي حتى آخر العمر ولن يتيتموا وما يتكَرصنوا حتى عند أي رجل.* من يومها اشتعل فتيل النار بيني وبين العائلة. يوم رأيت الخسارة في عينيك لم أحزن على أنك لم تنجح ولكني حزنت على وعد الميت. كان ذلك يعني أني فشلت في مشروعي فقط. شعرت لحظتها بأني لم أكن وفية لرجل لم يوصني بأي شيء إلا يوم رأى الموت على مسافة ليلة: *أنت شابة. تزوجي. من حقك. لكن الأولاد يجب أن يدرسوا.* حتى

بالفرنسية يجيء وقت الاستقلال ويتعلموا العربية. أخرجيهم من الجهل بأية لغة. ثقتي في كلامه كانت بلا حدود.

يوم السيزيام كان عرسا.

ثم رأيتها تتحسس رجلها اليمنى. لا أدري إذا كان ذلك لتذكيري لما أكون قد نسيته. رأيتها فجأة في ذلك اليوم عندما أدخلتني إلى الثانوية وكان عليها أن تركض نحو أكاديمية تلمسان في وسط المدينة، للحصول على منحة ولائية مؤقتة لأن تسجيلي تم متأخرا وفرصة المنحة الوطنية راحت. وأي تعطيل كان يعني عدم الدراسة، لأنه من الصعب عليها دفع ثمن الداخلية. ركضت الفترة الصباحية كلها، في مدينة لا تعرفها أبدا، وأمكنة لا تعرف نطقها. لم تر في حياتها إلا مدينة واحدة هي مدينة مغنية التي كانت تعرف فيها الحمام والموليما. بينما كنت أدرس ولكن لا حق لي في الدخول إلى المطعم إلا بوثيقة المنحة. عند مدخل ريفيكتوار، مطعم التلاميذ، رأيتها تجلس على كرسي قديم، وتدلك على رجلها. عندما اقتربت منها قالت بإشراق: ها هي الورقة تستطيع الدخول بها. تعبت كثيرا. ثم نزعت حذاء الميكا البلاستيكي القاسي. رأيت بأم عيني يومها جلدة الرجل التحتية تنسحب من رجلها، وبقيت ملتصقة بالحذاء، مخلفة وراءها بقعة حمراء من اللحم الحي. سلخ الجلد. لم تتأوه أبدا. بعد أن تحملت آلام نزع حذائها. قالت وهي تكابر: *ما عليَّ والو يا حبيبي. أنا بخير. روح يا وليدي ربي يحفظك. اقرأ. اقرأ و اقرأ باش يرضى عليك باباك أحمد وسيدي أمحمد الواسيني. ما بقى لك إلا هذا.*

بدا لي كأني كنت أرى دموعا في عيني أمي على الرغم من صفائهما حتى أن اللون الأخضر المحوّط بالبؤبؤين كنت أراه أيضا. كانت الأنوار تنعكس عليه فتغير تدرجاته الكثيرة.

- كان يهمني وعد والدك. كان كل شجني وخوفي أن لا أستطيع عبر عمر بكامله أن

أنفذه الوعد الذي أعطيته لوالدك، يوم انحنيت أقبل رجليه وأرجوه أن لا يستسلم للقتلة، وأن لا يتركني طعما لنسور جبل الخوف وليس النار، يتيمة مثل خروبة الجد الأول،

وأنا أرى جراحات وجهه ويديه ورجليه وقلبه. ويوم أتممت كل شيء بدا لي أن أشكر الرب بالصلاة يوما بكامله، ولكني في آخر لحظة غيرت رأيي، فصعدت إلى جبل النار وصرخت بأعلى صوتي وكأن الموت كان يسمع ندائي: *شكرا يا الله أنك جعلتني أبري بوعدي لأحمد قبل أن ألقاك. شكرا أنك منحتني الطاقة للاستمرار في قلب النار والعواصف.* صرخت كمجنونة. كطفلة ضيعت عقلها. وعلى مدار الدقائق التي تلت وأنا أسمع الجبال المقابلة الطاكَة، القليعة، جبال القلب، وادي زلاميط، القرارة، جنان الهبيل، جبال أولاد بن عامر، العسة، طريق الماشينا... تردد صوتي وتتداوله وكأنها كانت مكلفة بإيصاله إلى الله وهو في كامل اهتزازاته. من فرط سعادتي أن صوتي كان يصل إلى السماء، كررت ندائي سبع مرات حتى أصبحت لا أفرق بين صوتي وأصداء الجبال المقابلة والفراغات. كان يجب أن يسمعني الملكوت الأعظم. وقد سمعني يومها.

لأول مرة أشعر بأن قلبي كان هادئا وأن جرحه قد التأم. نمت بلا حراك.

لا أدري بالضبط ماذا حدث بعدها. التبس عليّ الأمر بقوة. فقد اخترق نور حاد الغرفة الزجاجية التي كنا فيها، فانعكس على بؤبؤ عيني حتى كاد يحرقهما. شعرت بألم الضوء. وفي الوقت نفسه رأيت بالكاد حركة غير عادية تحدث حول طاولة العشاء الأول. فقد قام الجميع بنوع من الخشوع. انكفأت ظهورهم قليلا إلى الأمام. فعلت مثلهم لأني رأيت عيني زوليخا تؤشران إلى ذلك. فجأة رأيت والدي الذي ظل جالسا يقوم بهدوء وألم من على كرسيه. الجزء العلوي من كتفه كان ينزف. ارتسمت على لباسه الأبيض بقع الدم التي كانت مجرد تشكيلات صغيرة تتسع وتضيق، قبل أن يبدأ كل جسده ينزف.

لا أدري ما الذي ذكرني بسيدنا المسيح هنا أيضا، ربما دمه ونزيفه؟

خرج بابا أحمد، مثقلا بنزيفه الذي أحزنني بقوة لأني لأول مرة ألمح والدي بتلك الهشاشة. لم أره يوما، في الفترات القليلة التي جلست فيها بالقرب منه، ضعيفا. كان دائما شبيها بالأسد. في مرة من المرات كنت مع أبناء عمي، العب بالكريات، النيبلي Les billes وكانوا يكبرونني سنا وأشطر مني في اللعبة. خسرت ولكنني لم اقبل

الخسارة، فبكيت وصادف أن كان والدي هناك. قلت له إنهم غشّوني وسرقوا مني الكريات. قال لي: ما تخافش، اتبعني. فهجم عليهم بقوة، ذهب المساكين كل واحد في اتجاه مذعورين من صرخته. فجمع الكريات التي كانت داخل مثلث اللعبة الذي يسمى الكَاري، بكف يده الكبيرة، ووضعها كلها في جيبي، وعدت لأوّل مرة إلى البيت مزهوا ليس فقط بالكريات ولكني بأني محمي، وأن هناك من يدافع عني أمام من هو أقوى مني. حتى أبناء عمّي أصبحوا يخافون منّي.

كنت محروقا في داخلي وأنا أراه على تلك الصورة، بينما ظل الضوء المرتسم أمام عيني يمحو كل العلامات التي كنت أراها واحدة واحدة. بما في ذلك أهلي.

4- نَغِيبُ نَحْنُ، ويَكْبُرُ هُوَ

لا أدري إذا كان كل الحاضرين يرون ما كنت أراه؟ عندما رجع الوضع إلى طبيعته وانسحبت شيئا فشيئا الأنوار التي غلفت نظري بغيمة شفافة لم أكن قادرا على أن أرى شيئا من خلالها إلا الأشكال المشعبة بالغموض والضوء الكثيف وهي تتحرك في كل الاتجاهات. عندما فتحت عيني ثانية وثالثة ورابعة... وسابعة. كان كل شيء قد تغير.

بصعوبة كبيرة، كمن يخرج من كهف بقي فيه زمنا طويلا، رأيت الأشياء تموج أمامي ثم تعود إلى مواقعها الأصلية كما يحدث عادة بعد دوخة شرب، أو حب مع امرأة الصدفة. في البداية رأيت زوليخا التي لم يتغير شيء فيها. كانت كما هي، بكل سحر طفولتها. مشرقة دائما مثلما في تلك اللحظة التي ضممتها فيها إلى صدري قبل أن تعود إلى مكانها. بدت لي حركاتها واضحة وهي تلعب باللويزة التي وضعتُها في رقبتها. كانت تضعها بين أصابعها. تقرأ خطوطها وصورة لويس نابليون المنقوشة عليها. وحروفها المتداخلة، وحتى أرقامها. لم أكن قادرا على مقاومة عينيها وهشاشتها. عندما رأت اللويزة في عنقي عرفتْها: *هذه لويزة ميما أميزار. أتذكر أنها قالت لي يوما: هاذو خمس حبات لويز لابنتي يوم زواجها. وخبأتهم في عنقي. كنت كلما ذهبت لعرس أحد من الأهل أو لحفل ختان، أضعهم في عنقي. ولكن الموت جاء سريعا فلم يمنحني هذه الفرصة. أسوأ شيء في الموت حبيبتي أنه لا يخبرنا، لأني حتى وأنا مريضة لم أكن أتصور أنه سيأخذ استعطافاتي بعين الاعتبار*. قلتُ: *ربما كانت هذه إحداهم.* تأملت وجه زوليخا، كان مضاء بالفرح، في غمرة النور، على الرغم من مسحة الحزن التي انتابتها في ثانية قبل أن تهرب كغيمة جافة. قلتُ لها: *هل تدرين يا زوليخا أن ميما أميزار يوم وضعتها في عنقي، بكت كثيرا وقالت: هذه اللويزة لم تكن قادرة على حماية زوليخا من الموت، ولكنها كفيلة بحمايتك يا غالي.* وضعتها في عنقي ذكرى زمن قاس كنت أخاف أن يأتي يوما، فأتى حتى قبل أن أتيقن أنه هنا. عندما أرادت زوليخا أن ترجعها إلى عنقي، رجوتها بحب وبكل حواسي التي كانت تسمعها وتشعر بنبضها، أن تبقيها عندها. رفضتْ. *لا يا خيّي، يا لزعر*

الحمصي. هي لك. هدية أمك. قلت لها وأنا أحاول أن أشبع من عينيها الواسعتين والغارقتين في خضرة جميلة مائلة نحو صفاء هارب: *هذه لك. ذهب عرسك*. ردت بلا تردد وهي تسمح على وجهي: *لا يا قلبي. لا عرس لي إلا هنا. الموت راحة ولكنه أيضا سجن أبدي. عرسي أقمته هنا كما شاءه لي الله. اشتقت تربة الأرض لكن للأقدار القاسية مشيئتها الصعبة.* أخذتها من يدها. ثم قبلت جبهتها ووضعتها في عنقها. قلت لها *احتفظي بها. خليها معك*. لم تمانع ولكنها انسحبت وهي تضحك: واش نقدر ندير مع *واسيني الغضّاب؟ أردت أن أقول لها: يا زوليخا المهبولة لو كان ما هذا الغضّاب، ما كنتِ شفتِ إبراهيما قدام بئر التراب الأبيض ليس بعيدا عن كومة الأسلاك الشائكة؟ ولا خبأت أسرارك الصغيرة في قلبي.*

زوليخا وهي سعيدة باللويزة، كانت الوحيدة التي كنت أراها. البقية لم تكن صورهم واضحة. مجرد أنوار متداخلة الألوان مثل تلك التي تعكسها الطرقات في الأيام الممطرة.

قصة اللويزات قصة طويلة. كان والدي كلما بعث نقودا تزيد عن الحاجة الضرورية قليلا، تذهب حنا فاطنة إلى مدينة مغنية وتُصرّفهم عند ذهّاب كانت تعرفه وتثق فيه. وهي لا تؤمن إلا بالذهب المطبوع الذي فيه ختم صغير يكاد لا يظهر للعين المجردة، ليحافظ على قيمته. وتعود باللويزات التي تشتريهم لتضعهم في الخيط الأصفر مع البقية، وتضع الكل في مخبأ خاص. كان الذهب هو خزينة أمي للأيام القاسية، لا أحد يضمنها. بينما كانت جدتي تخبئ قليلا منه عند أخوالي الذين كانوا يعيشون في منحدرات جبال أولاد بنعامر. مع الزمن كونت ميما ميزار حزاما به أكثر من مائة لويزة تصلح لسد حاجات اليوم الأسود الذي يمكن أن ينزل على العائلة كنسر جارح في أية لحظة. وتصلح أيضا لأيام الفرح والأعراس. كانت أمي كلما ارتدت لباسها البربري الملون بألوان قوس قزح المتدرجة، الفضفاض الذي يشبه لباس الشاوية، كلما وضعت عقد اللويز المعشق بأحجار الصحراء الكريمة، في عنقها، وارتدت حزامها المكون أيضا من حبّات اللويز المطبوعة، ووضعت الخلاخل الفضية المرقشة بالأحجار الكريمة التي ورثتها عن جداتها، بدت كأميرة بربرية من عمق جبال تيكَراو مع نساء أعمامي اللواتي، على الرغم من حسدهن وغيرتهن من أمي، كن يتضامنّ في

الأعراس، وفي المآتم بقوة. بمجرد أن تنتهي هذه المواسم يعدن إلى عاداتهن القديمة بحقد متزايد وألسنة حارقة كمطرقة حدّاد.

كان الضوء في البيت الزجاجي ما يزال معميا بسبب الانعكاسات الكثيرة. عندما التفت نحو الأشجار العملاقة لم أر شيئا إلا هدوءا غريبا وشيئا ينزل كالأمطار التي لا تشبه الأمطار. ربما كانت حبات الضوء الكثيفة المتسربة من الحديقة التي رأيتها تنفتح على حاملة الصبي، ثم تنغلق بعد أن تمايلت الأشجار جيئة وذهابا. عندما التفتّ، كانت الطاولة تبدو فارغة من كل شيء إلا من صحن مليء بالتفاح والبرتقال. تذكرت نظريتي في الخلق التي سرقت فكرتها من مِينَا، أول امرأة أدخلتني في دوار الحب للمرة الأولى. كان شعرها أحمر، وعطرها دوخة، وحبها دوار، وخيالها مثل ظل أشجار الجنة.

عندما أخبر الشيطان الله وهو يقول له. أرأيت؟ الم أقل لك أني سأقود إلى الغواية جزءا مهما من مخلوقاتك الترابية التي نفخت فيها من روحك. ها أنا ذا أسحب قدم ادم وحواء نحو الغواية. لا للذكاء في الشيطان ولكن لسماحة كبيرة من الله وهو ينجز مخلوقاته البشرية للمرة الأخيرة قبل أن يمنحها الجنة وأنوارها. عندما نفخ فيها من روحه منحها أيضا سحر الجمال والغواية التي فيه والرغبة في فك أسرار الحياة والكون الذي كانوا يشمون رائحته دون أن يروه. في النهاية استغللت أنا الفجوة ووسعتها حتى أصبحت بابا مشروعا. لم يجد الله حلا إلا بطردهما من الجنة الثقيلة ورماهما ليختارا الحياة مع بعض. مشيا طويلا في الصحراء حتى عثرا على شجرة التفاح. بدءا يتحدثان ناكلوا ما ناكلوش وبعدها قررا أن لا يأكلا خافا من أن يبعثا إلى جحيم آخر. بالخصوص عندما تحسس آدم تفاحته التي بقيت عالقة في حلقه. خاف أن يموت اختناقا لأنه لم يبرأ أبدا من غصة خروجه من الجنة. وواصلا المسير عطشا حتى واجهتهما شجرة تشبه التفاحة ولكن شكلها كان مختلفا. علم آدم الأسماء كلها إلا اسم تلك الشجرة. نزع حبة منها وقشرها ليكتشف أنها مليئة بالماء. خاف. كاد أن يرميها على الأرض لولا أن حواء أمسكت بها وهي تقول: مصها حبيبي كما يروق لك. لا تخف. التفاحة كانت من فعل الشيطان، والبرتقالة من فعل الله ليحمي ظلك من الفناء. وهو يحادثها تحت ظل البرتقالة انتبه فجأة أن حواء كانت تملك نهدين. مسهما. شعر

برعشة تتجاوز رعشة يوم مس يدها للمرة الأولى. قالت له تلك حبيبي لك. برتقالتان. مصهما بالتتابع، وإذا به يشعر براحة غريبة واشتعال في داخله. لأول مرة يكتشف آدم أن الحياة كانت مسافة نفس واللذة كانت فيها وفيها طاقة لا حصر لجنونها. تمادى واكتشف يومها أنه لم يخطئ يوم نزل إلى الأرض لأنه كان عليه أن يختبر الحياة بنفسه. ورأت طائرا عرف فيما بعد بطائر الفينيكس. أخذته بين يديها فاشتعل ليتحول فجأة إلى نار تدفأت بها الليل كله وفي الغد رأت فجرا مباشرة بعد النوم الفينيكس يقوم من رماده ويقودهما في عمق الصحاري. من ذلك اليوم الذي يصادف اليوم الثاني من شهر الحر، وفي رواية أخرى قبل ذلك بقليل، نشأ الحب بين آدم وحواء، وبينها وبين طائر الفينيكس الذي يقودها نحو الخصب والدهشة. في تلك الليلة لم يخف دواره عنها: لأول مرة منذ مغادرتي أرض اليقين أشعر بأني سعيد وأعيد اكتشاف الرعشة. ممتلئ بك. في عيني وفي كل حواسي شيء غريب يذهب نحوك وهو لا يحمل معه شيئا سوى تلك اللحظة التي وقفت فيها بحيرة تنظرين إلى ذلك المخلوق الغريب الذي شم فيك شيئا منه أو يشبهه فسار نحوك وهو لا يسأل عن شيء بعد أن مضّ البرتقالة سوى أن يتأمل وجهك الطفولي والشهد النائم فيك. عندما لمس رأس البرتقالة الأولى، شعر بأن شيئا جميلا كان بصدد الحدوث لم يكن قادرا على معرفته ولكنه كان يمسه ويحسه بقوة كبيرة. شيء لا يقاوم. فجأة حدث _ لم يحدث من قبل. غرق فجأة في دوامة الذهول. ولا يعرف بالضبط كيف حدثت القبلة الأولى على حافة البحر بين صخرتين ولكن طعمها كان طفوليا وجميلا وبها بعض ملح البحر وعطر الصحاري الحاد. اليوم بعد كل هذا الزمن الذي مرّ على أول لقاء، لقاء اكتشاف البرتقالة ورفقة الفينيكس الأبدية، مستعد لأن يمنح الروح والقلب والجسد نفسه للنار مقابل أن يملك الشعور بأنك له وأن هذا المكان الذي أنت فيه يليق به. وسيضرب صفحا عن الجنة. قال لها وهي تنصت وتفهم كل كلمة كان يقولها بحواسها: كنت أحلق في غمرة الرمل الجاف، وعلى حواف الموت بشكل لامبال، وأعرف أن الموت كان يشرب الشاي في كأسي، بل كثيرا ما كان هو الكأس نفسها بل كان في أنفاسي فتحول إلى نفسي. وجئت أنت قارئة لا تقرأ إلا ما ينام في الخوف وفي صحرائي الممتدة.

فجأة خرجت من أوهامي وأحلامي مع مينا، وانفتحت عيناي على وجه والدي. تأملته طويلا. كان قريبا مني. بدت لي علامات وجهه في كامل اتساقها ووضوحها. فوجئت أنه هذه المرة كان بلباسه الذي رأيته به آخر مرة يوم ألقي عليه القبض، وهو يقف باستقامة عند الباب الخارجية للبيت، محاطا بعساكر كانوا مسلحين وجاهزين لإطلاق النار بعد أن قتلوا كلابنا الثلاثة لأنها لم تتوقف عن النباح منذ أن رأتهم في ذلك الصباح البارد والقاسي. كان عمري أكثر من أربع سنوات بقليل. أردت أن أسال أبي لكن يد جدي الناعمة أسكتتني ثم سمعت همسه يأتيني من قلبي: *ششششت... عندما تكون في حضرة شهيد، اسمع فقط حتى يأذن لك بلسانه أو بعينيه أو بقلبه*. كان أبي أنيقا جدا. يرتدي بالطو رماديا فاتحا ينزل تحت ركبتيه، حذاء أسود يلمع، إذ لم يكن يترك شيئا للصدفة. أتساءل لماذا لم أشبه والدي في هذا؟ وتريكو صوفيا بلون أخضر غامق، تقطعه خطوط دائرية بيضاء، ظللنا نحتفظ به في الوسادة مدة طويلة. كرافاتة سوداء كأنه في أحد شوارع باريس أو في كازينو حيث كان يقضي نهاية كل أسبوع مع كوراثون مِيًّا. لا أدري إذا كان قد ندم وهو محاصر من العساكر، لأنه كان يعرف أن مجيئه لن يكون لحظة عطلة. هل فكر لحظتها في مِيًّا. ما عرفته من عمّي محند الشّايب وهو من أواخر أعمامي الأحياء من الذين رافقوا الوالد، أن مِيًّا بكت كثيرا وترجته أن لا يذهب، لكنه أفهمها بأنه خياره الأخير وأنه شبيه بخيارها عندما وقفت وراء المتاريس تقاوم النازية. قالت له: *خذني معك*. ردّ عليها *لا أريد أن يأتي يوم وتندمي أنك قاومت أبناء جلدتك*. أجابت: *ليسوا أبناء جلدتي.القتلة متشابهون في كل مكان.* اقتنعت مِيًّا عندما رأته يستقبل مجموعة من رفاقه من فيدرالية الجزائريين بأوروبا الذين ترددوا في الكلام أمام مِيًّا فطمأنهم: هي مع الثورة الجزائرية، بل وتريد أن تسافر هناك للانضمام إلى المقاومة. أهلها للأسف من الذين انتموا لفيشي ورفعوا يد التحية لهتلر. بينما كنا نحن في الحواجز نموت كل يوم بالعشرات. لم تكن أرضنا، ولكننا كنا ندافع عن مثل أعلى. أن تدحر النازية، ونربح نحن استقلالنا كما نصت على ذلك الوعود الفرنسية الرسمية. للأسف، يوم كانوا يحتفلون بالانتصار الكبير، كنا ندفن موتانا، أكثر من 45 ألف، على الضفة الأخرى. من ذلك اليوم تغير كل شيء. واتضح الاصطفاف النهائي. واستمعت مِيًّا إلى كل المحاورة تلك الليلة. منذ تلك

اللحظة تأكد لها أنّ كل شيء انتهى، وأنه لا يمكن إقناعه بغير ما صمم عليه. لهذا أفهم جيدا أفهم جيدا أمي عندما تقول: *شهادته تعفيه من كل ملاحظة.*
كان قريبا مني وكنت أسمع أنفاسه المنتظمة التي كانت تأتيني بهدوء وسكينة. أعتقد أني كنت داخل دوار لم أكن مهيأ له. قبل لحظات كان صامتا يشع الانكسار من عينيه بقوة، والآن هو هو أمامي، شخص كما اشتهيت رؤيته لأن الرجل الذي رأيته توقف عند تلك اللحظة وبذاك اللباس تماما. الآن أفضل. هيأته بدمه ونزيفه، أحرقت قلبي ولم أكن قادرا على تحملها. لم يكن بذهني أن أرهقه بأي سؤال سوى سؤال واحد ولو أن أمي لا تحبه، وأحجم بعدها عن الدخول في أسراره: *لماذا تخليت عن أمي يا أبي؟ كدتَ أن تخسرها ولم تبال أبدا؟ لماذا تركتَ أمي وحيدة يا أبي؟*

- لا لم أتخلّ. لا تظلمني يا واسيني، يكفي أن الحياة لم تكن سخية معي.

لاحظت أن والدي كان يناديني باسمي فقط واشتهيت في أعماقي أن يقول يا ابني. شعرت بإحراج من كلمته الجافة: *لا. لم أتخلَّ.* أنا لم أقل شيئا، فكرت فقط لا أكثر، مستحضرا في أعماقي الدفينة، انزعاج جدي محمد صاحب حكايا القيامة، والجن والملائكة، منه بقوة، في الفترة التي غاب فيها أكثر من خمس سنوات في مهالك الغربة، بدون أن يعود ولا مرة واحدة. لدرجة أنّ جدي من شدة حزنه وانفعاله، كاد أن يحرّمه ويلعنه: *لا أنا أبوك ولا أنت من صلبي*. ولكنه لم يقل تلك الكلمة الخطيرة التي كان يمكن أن تدفع بأبي نحو تيه أعمق. كان جدي غاضبا عندما فاجأ أمي وهي منكفئة على الطاجين الترابي تحضر الخبز وعيناها شبه مطفأتين بسب أدخنة الحطب الذي كان يحترق من تحت الطاجين: *شوفي يا نويوة بنت الصغيَّر. والله ثم والله. لن أغفر له هذه المرة. حمّضها. بعثت له مع ابن عمه محند الشّايب، إذا لم يعد سأنهي كل شيء معه. سرق منك كل شبابك. أنا من سيطّلقك منه لأن ابني ما يستاهلكش. وأنا من يجد لك زوجا يليق بك.* غمغمتْ أمي باستسلام وهي غارقة في الأدخنة بكلمات خجولة: *ما عليهش يا عمي، أنت قلبك كبير، وهو ربي يردّ به. مشي يقولو الغائب عذره معه.* صرخ جدي وهو يلوح بعصاه: *لا عذر لمن يترك أولاه ويضيع في بلاد الغير، الفلاس و النساء والقمار.* يظنّ *أنه ما يصلنا والو؟ ما يعرفش اللي يقولو هناك سرا يصلنا هنا جهرا. الله يهديه للخير وخلاص. أستغفر الله العلي العظيم.* وكاد

جدي أن يفعلها لولا أن قدرا غريبا أعاد أبي مسرعا نحو جبال تِكَراوْ القاسية والعنيدة.، في ليلة لم يكن فيها أحد ينتظره. هناك في نظام الدنيا شيء غامض.

- ليلتها رأيت حلما. أفزعني. بسرعة وجدتني أتجه نحو ميناء مرسيليا. وأنا لا أعرف

السبب. ولم تكن قناعتي بالأحلام كبيرة، ولكني في ذلك الصباح مرّ كل شيء عليّ بسرعة. جاءني رجل وهو يقول لي: *اجر يا أحمد إن أرضك تضيع. إذا لم تدركها الآن لن يُكتب لك أن تراها ثانية. إنهم يريدونها*. عندما دخلت إلى البيت ليلا، وجدت أمك تبكي. عرفت فيما بعد إصرار جدك. لما رآني قالها بدون تردد حتى قبل أن يرحب بي على الرغم من طيبته المغلفه بقرون من الخوف والعنف: *عندك الزهر والسويرتي، جيت وإلا كانت أميزار راحت منك. ربي يبغيك يا وليدي.* ترددت في ماذا يمكن أقول له، لكني تشجعت وحكيت له الحلم. قال وهو يربت على كتفي: *هذا ليس حلما يا أحمد، هذه شعلتي وصلتك حارقة. لو لم تنصت لها كنتَ ساهمتَ في تدمير البيت كليا. نحن أيضا نتعب من الحياة يا ابني.* وتمكنتُ في النهاية من إنقاذ أمك وإنقاذ العائلة لأن جدك كان قد ركب رأسه، حتى أنه، لاحقا، عرفت حتى الزوج الذي كان قد اختارها له في غيابي وحكى مع والده وأبدى رضى كبيرا عن أمك.
كان والدي يتكلم وأنا مثبت عيني على صدره. كأني كنت أنتظر نزفا، إلا أن الأمور كانت تسير بشكل طبيعي. حتى أن الروخو طوال هذه المدة لم يتدخل. في الحقيقة لم أحتج له أبدا.

- الأمور ليست دائما بالشكل الذي نراه خارجيا. هي أكثر تعقيدا مما سمعت أو ما

تشعر به الآن. كما رأيت. جدك لم يكن شيطانا، لكنه لم يكن ملاكا أيضا. كنت شابا صغيرا. الحياة بالنسبة لي ليست أكثر من سفر دائم وصعب. حلمت بهجرة بعيدة تخلصني ليست فقط من الفقر ولكن من نظام قاس لم أكن قادرا على تحمله. جدك كان بقسوة محيطه. هو من ظلمني وظلم أمك التي لم أر منها إلا الخير. هي ابنة عمي، وكنت مقدما على الهجرة بحثا عن العمل. خاف عليّ من الضياع في *بلاد*

فرنسا. الحل الأمثل الذي ارتآه كان هو الزواج ليعيدني إلى هذه الأرض التي لا سلطان فيها إلا لله والذئاب. قلت له: لا. قال كلمته القاسية التي شلتني كل الأيام التي تلت: *لو تخطيت العتبة بلا زواج راني محرمك*. بت ليالي طويلة أفكر في بؤس عقلية مغلقة على الرغم من طيبتها. راحت مني سفينة الركاب الأولى وكان علي انتظار شهور أخرى. فكرت في الهرب وإلقاء كل شيء ورائي بما في ذلك والدي، ولكنني أنا أيضا كنت حبيس شيء كان أكبر مني. ثم مرّ كل شيء بسرعة كبيرة. تزوجت وغادرت.

تأملت علامات وجهه. كانت صافية مثل طيبته التي كانت تغطيه. صوته كان قريبا من قلبي، مليئا بالنداءات الخفية. التفت نحوه وكأني كنت أنتظر كلماته التي أكتشفها وكأني أسمعها للمرة الأولى. صورة تتحرك في فيلم صامت. هكذا كنت كلما استحضرته. كانت لي صورة واضحة لملامح والدي، لكنها صورة بلا صوت. في كل مرة أجد له شبيها، أحيانا ألصقه بصوت أمي لدرجة التماهي، وفي أحيان أخرى بصوت زوليخا لأنها كانت الأكثر شبها به وربما أنا أيضا، في القامة والصوت. أمي كانت تقول لما تسمعني أتكلم: *سبحان الله صوت أحمد. بهدوئه وبحته المنسابة نحو القلب وصمت نبراته*. على الرغم من جراحاتها الداخلية، لم أسمع من أمي إلا ما يرفع صورة والدي عاليا في عيوننا. *باباكم كان سبعْ وعليه الكلام. ماتْ واقفْ كما النخلة. وكان القتلة يبدون تحته صغارا.*

كان على بعد لمسة مني. في كل لحظة تنتابني رغبة طاغية في لمسه، لكني أتراجع مخافة أن أفقد وجهه إلى الأبد، أو أتسبب في نزيفه وحتى في مغادرته المكان. كان وجهه مليئا بالنور. لأول مرة أراه بعد زمن طويل من الغياب. أكثر من نصف قرن. لا أدري إذا كان قد غفر للذين يتموا قلبه وأهله. صور كثيرة اخترقتني لم أكن مهيأ لها.

- الصامت يُظلم دائما يا واسيني. بيني وبين ميّا عهد غريب. لم تكن زوجتي أبدا. لكنها

كانت أمي، وحبيبتي وأختي في الغربة. تخيل نفسك في حرب وأنت مهدد بالطرد في أية لحظة. كانت نقابية يسارية وخطابها سحرني لأنه خطاب يحب العمال ويشفق على الفقراء. يكفيك أني خرجت من أرضي شبه أمي، وتحولت بعد سنوات قلائل إلى إنسان عارف بمصيره ومصائر الآخرين. لم أعد أرى العالم من خرم إبرة ولكن باتساع كانت تصنعه الثقافة والحب ولا شيء غير ذلك. لم نتزوج أبدا.

لم أرَ ردود فعل أمي لأنه كان يغطيها بعرض صدره وهو ملتفت نحوي. كنت أرى شيئا خفيفا من بياض لباسها لكن وجهها ظل متخفيا. وخفت أن يلحظ والدي حركاتي لمحاولة رؤيتها.

- تحولنا إلى صديقين حقيقيين، ولم نتزوج؟ حتى جدك عندما سحبني ذات فجر بارد

نحو المسجد وطلب مني أن أقسم على المصحف بأني غير متزوج وأنه ليس لي أولاد من وراء البحر، فعلت ذلك براحة وبدون أي تأنيب ضمير ولا تردد. لم أكن أكذب عليه.

- ليس مهما يا أبي. أنا فقط شقّتني ميما.

لا أدري كيف خرجت الكلمة مني بسرعة غير محسوبة، جافة وباردة داخل عالم زجاجي شفاف. جدي الروخو لم يقل شيئا وكأنه لم يسمعني أو ربما تفهم قلبي الذي كانت حرائقه كبيرة.

- أعرف يا واسيني أنه ليس مهما. من حقك أن تشقّك أمك. وربما لا قيمة لما ستسمعه،

لكن المشكلة ليست هنا. اتفقت أنا ومِيًّا أن نعيش مع بعض، وأن لا ننجب أبناء للحرب. كانت الحرب في عنفوانها. كنت أشعر بجرح مِيًّا الكبير، لأن بلدها كان على حافة الانهيار الكلي في ظل النازية. وتبعتها بلا تردد في حركة المقاومة، بينما رسم أبوها وأمها جرحا آخر فيها، لأنهما انضما لقوافل الجبن. انتهيا في أحضان النازية. كان الكلام الشائع أن بلادنا ستستقل مباشرة بعد انتصار الحلفاء ودحر النازية. كنّا

رومانسيين وحالمين. وجدنا في النهاية أنفسنا نحتفل مع الفرنسيين، ونأكل التراب وندفن أكثر من 45 ألف جثة في تلك الأيام القاسية.

لا أفهم موجة الحزن التي كانت تنتاب قلبي مثل عواصف الرياح القاسية. كان يناديني باسمي كأنه يحادث صديقا له. اشتهيت فقط أن أسمع ابني. حبيبي. أتذكر الكلمة مغيمة ولا أدري إن نطقها والدي يوما.

أبي سافر في وقت مبكر إلى فرنسا. كان العالم على فوهة بركان جديد، الحرب العالمية الثانية. شرطيات الحياة كانت قاسية عليه. لا أحتفظ في ذاكرتي إلا بوجهه الطيب و هو يعود من منفاه الاختياري كعامل مهاجر في فرنسا، وهو يغسل وجهي صباحا ثم يضع على رأسي المنشفة الكبيرة وهو يضحك: هل تراني الآن يا واسيني؟ و أتذكر أني كنت أقول له: أراك يا بابا. أراك وأسمعك. و أحاول أن أصنع له صورة من وراء المنشفة، تشبهه، و أحيانا أجمل مما أتصور صابغا عليها كل الصفات المثالية التي أحبها. ثم أطلق سراح لساني المجنون وأنا مؤمن تحت المنشفة الكبيرة. *ولماذا ذهبت إلى فرنسا يا بابا؟* أفضل دائما أن أسأله تحت ظلام المنشفة لكي أتجرأ على طرح أسئلتي التي لا تنتهي، فيجيب: للعمل. *قريتنا فقيرة جدا ولا تمنحنا الشيء الكثير للعيش ونضطر للخروج قهرا وليس اختيارا.* بلاد فرنسا *(هكذا كان يسميها سكان القرية، وهي ترجمة حرفية لكلمة كان يقولها المغتربون Le Pays de la France)* متعبة لأننا نعمل بمشقة فيها ونحمل الأشياء الثقيلة على ظهورنا وبين أيدينا ولا نتشكى، لأننا إذا احتججنا على صعوبة العمل، نطرد. الكثير منا يموتون بفعل التعب أو الحوادث المؤلمة. يسقطون من أعالي البنايات أو تسقط الكتل الثقيلة على رؤوسهم. أعاود السؤال وأنا استمتع بالظلمة الخفيفة التي لا أرى فيها الأشكال الخارجية ولا عيني والدي: *وأنت ألا تخاف من ذلك كله؟* أحيانا، يجيب عن سؤالي بسرعة، وأحيانا يصمت طويلا قبل أن يقول: *ولكن ماذا بإمكاني أن أفعل؟* ثم يواصل بهدوء وسكينة وكأنه يريد أن يوصل لي فكرته... *في فرنسا حدائق و أمكنة للراحة، ومدن نظيفة كذلك، نتعلم فيها كيف نقرأ و نكتب.* أسأله من جديد وأنا مستمتع بظلام المنشفة، بحيث أحسه وأراه كما أشتهي، ولا يراني. أتخيله، بينما هو لا يرى إلا طفلا شقيا يلعب لعبة الغمّيضة: هل تعلمتَ القراءة و الكتابة هناك؟ يجيب وهو لا يخبئ

ابتسامته التي أحسها ترتسم على شفتيه الرقيقتين، والتي تزيد من يقينه: تعلمتُ. *كوراثون مِيَّا، سيدة طيبة تعمل معي، علمتني.* أتساءل ولا أطرح سؤالا: *امرأة تعلم والدي؟ هذا الأمر لا يوجد عندنا .* بملعنة وخبث طفوليين، أتذكر أني أدخلت والدي في المصيدة. لابد أن تكون هي نفسها المرأة التي تتحدث عنها كل نساء العائلة، والتي يقال إنها سرقت والدي من أمي. هناك من يتمادى في خياله ويقول إن له أبناء معها. أمي لا تصدق أو تتظاهر بذلك. أسأله مرة أخرى بلغة أقل يقينية: *فرانساوية؟ طبعا فرانساوية،* يجيبني والدي. يواصل: *بصح أجدادها مخلطين. من إسبانيا و أمريكا الجنوبية.* أتوغل في السؤال: *لماذا لا تأخذ أمي معك و ترتاحان هناك.* يرد ولا أشعر أنه تأثر لسؤالي: هي *هنا في بيتها و أرضها و تسهر على الجميع، وأنا هناك أحاول أن أخفف عليكم مشقة الحياة.* أكاد أسأله ولكني لا أفعل: *بابا هل هي نفس الرومية التي يتحدثون عنها؟* مثلما سمعت *في* حوارات جدتي و أمي و خالاتي *على الهامش عندما أسترق السمع مثل أي طفل شقي كبر بسرعة ولم يتفطن لسنه الآخرون؟* فجأة ينزع المنشفة من على رأسي و يتضح النور الحاد: يضحك وهو يضمني: *والله كبرت يا واسيني.* فأتوقف عن أسئلتي في باحة الدار، وأجلس في حجره أنا وحسن أخي، نشرب القهوة الصباحية. يقول وهو يضحك، ولا أدري صدق ما كان يقوله: سيدنا *علي هكذا كان يفعل، يضع الحسن على اليسار و الحسين على اليمين.*

في لحظة من اللحظات رأيت حزنا يرتسم على كل ملامحه. رأيت صدره. لم أر دما. غمرتني سعادة غريبة. شعرت كأنه تخطى تلك المرحلة. فجأة شعرت بلمسة اليد الناعمة التي غابت على كتفي ترسم دفئا وهمسا منها مغلفا في عطر البنفسج البرّي. استنشقته طويلا: : *ششششت... عندما تكون في حضرة شهيد، اسمع فقط حتى يأذن لك بلسانه أو بعينيه أو بقلبه.*

- الجراحات عندما تفتح دفعة واحدة تصبح مؤذية. يوم أُلقي علي القبض، لم أخف على

نفسي بقدر خوفي على أمك الحامل وعليكم جميعا. فقد كنتم في عز الهشاشة والخوف اليومي. جاؤوا بي إلى جبل النار وأطلقوا الكلاب عليّ بعد أن قتلوا كلابنا الثلاثة. أخذوا جزءا من لحمة الذراع من العضة الأولى. الوشاية جاءت من جبل النار

نفسه. لم يقل لي أحد ولكني خمّنت وعرفت لاحقا. والكلاب تنهشني رأيت الرعب في عيني زوليخا وأمك التي التفتت نحو الحائط، وزهور التي جاؤوا بها من خارج البيت، وأختك خيرة. كانوا في حالة رعب. ظنوا أن الكلاب ستأكلني أمامهم. كان *الحركة* يضحكون. لا أدري أصلا لماذا كانوا يضحكون؟ لأن المشهد لم يكن فيه أبدا ما يُضحك. *الحركي طرزان الضخم. منصور. علي بولسان. الحسين لقرع. ولد بوحصيرة. أحمد عبو.* تعرف يا ابني...

تعرف يا ابني... شعرت فجأة بغصة كبيرة في الحلق تسد تنفسي حد الاختناق. شعرت باليد الناعمة مرة أخرى. لم أستطع منع الدموع التي ارتسمت على وجهي من السيلان. كانت تلك اللحظة الأولى التي سمعت فيها والدي يناديني بما اشتهيت سماعه.

- كان الوضع قاسيا ويحتاج المرء فيه إلى أن يقاوم باستماتة آلام اللحظات الأولى،

بعدها يصبح كل شيء عاديا. شربوني الماء والصابون وأغرقوا رأسي فيه حتى انتابتني دوخة الاختناق. ثم أعادوها مرات عديدة. ثم الضرب على الوجه بشيء يشبه السوط بأسلاك حادة، كل ضربة تخلف وراءها خيطا من النار ثم الدم. الشحنات الكهربائية كانت أسوأ شيء لا يمكن تحمله، في الجبهة، الشفتين، داخل الأنف حدّ النزيف، ثم الشفتين، ثم اللسان، ثم ينزلونها تحت، في الأماكن الحساسة. كل شحنة تفقدك عمرك. وعندما يغمى عليك نهائيا، يوقظونك بدلو ماء بارد. لم يمنحوني فرصة أن أراكم أخيرا، وأشبع من وجوهكم. عذّبوني حتى شارفت على الموت، ولكنهم لم يحصلوا إلا على الفراغ، لأنّ خبر اعتقالي وتعذيبي كان قد وصل إلى الثوار، فجاءوا في الليلة نفسها وأخذوا الأسلحة المخزنة في المطمورة. عندما اعترفت لاحقا، تحت التعذيب، أن شيئا يمكن أن يكون في المطمورة، كنت على يقين أنهم لن يجدوا شيئا. ولم يجدوا شيئا. ليلتها اتخذوا قرارا بتصفيتي أنا وبوزيان.

أردت أن أقول له، يا أبي هل أشفيت غليل أمي التي قضت عمرا كله من البلدية، إلى الولاية، إلى أصدقائك، تبحث عن قاتلك وعن مكانك الذي رُدِمتَ فيه أنت وأصدقاؤك؟ لدفنك في مكان يليق بك وبعنفوانك الذي سُرِق منك في عزه؟ هل تدري يا والدي أن

ميما أميزار تعبت وهي تبحث عنك وأنت في تيه الغربة، وانتظرتك طويلا ولم تتعب، ويوم وصلها خبر استشهادك زمت شفتيها لكي لا نعرف شيئا عن موتك، وقضت العمر كله تبحث عن رفاتك لتبني لك قبرا تزوره قبل أن تموت وتقول لك: مسامحاك يا أحمد، من القلب، دنيا وآخرة، وربي شاهد. ولكنها لم تتمكن. لم أستطع أن أقول له أي شيء من هذا. شعرت بضيق في قلبي وبدم يحرق ذاكرتي.

- كانت ليلة قاسية تلك الفاصلة بين 3 و4 أفريل 1959. ليلة جميلة. أنجمها في قمة

سطوعها. كانت الساعة منتصف الليل عندما دخلوا علينا بلا كلاب هذه المرة. عيونهم كانت ميتة. فعرفت البقية. كانوا أربعة برفقة معاونين اثنين من حركة جبالة. أخرجوني أنا وبوزيان. سألني المسكين ونحن نستقل سيارة جيب Jeep العسكرية: *تعتقد أنهم سيقتلوننا.* ضحكت في أعماقي ولحمي ممزق، وهو ظهره مقوس من شدة الضرب والبرد. لأنهم أخرجوه بلباسه الخفيف المليء بالطحين. كان يعمل في رحاه القايد: *ما تخافش يا خويا بوزيان. تعودوا يخيفوننا بهذه الطريقة. يعذبوننا قليلا ويعيدوننا إلى الغار الأسود.* اطمأن قليلا. لكني كنت أعرف أنها الرحلة الأخيرة. ليس بعيدا عن آبار *حواسي أولاد صالح*، سُمعت في الليل ثلاث طلقات جافة. الأولى وُجهت لبوزيان وهو يحاول أن يستفسر مني إذا كان الأمر مجرد تخويف. وأنا أنظر إلى عمق عينيه المرتعشتين ليس خوفا فقط، ولكن من وضع لم يفهمه جيدا، فسقط كقطعة خشب جافة. الثانية وُجِّهت لي بدون دقة، المهم الرأس. لم تكن قاتلة. إذ أخذت في أثرها جزءا من الفك السفلي، الثانية صُوِّبتْ بالضبط في الجبهة حيث لا حظ. اللحظة بالضبط التي يتخلّى فيها عنك كل شيء، الله، الأنبياء، الأولياء، الصدف، وحتى الأهل، فتسلم أمرك لجبروت الموت. شَعرتُ في لحظات هاربة ببرودة المعدن، قبل أن يتحول الكلّ، في ثانية حارقة، إلى حالة بياض لا ملمس فيها ولا حياة. كل شيء يعوم داخل فراغ كبير بما فيه أنا. أعقبها نور أخير لمع في عمق الظلمة التي في داخلي. لم أشعر بعدها بأي ألم، لكن براحة غريبة هي بين مزيج من رائحة البارود والدم. تأملونا قليلا حتى تأكدوا من موتنا. هزّونا بأرجلهم. تحسّسوا أنفاسنا، ثم رمونا في عمق البئر. لحظتها كان كل شيء قد انتهى. عمر ركض عبر العالم، وامتطى

البحار والسماوات، ثم فجأة، توقف كل شيء. مثل ساعة حائطية سقطت من الأعالي.

- لم يعد هناك اليوم بئر يا أبي. كل شيء اندثر. كل الآثار محيثْ. بعد استقلال البلاد حُولت المنطقة

إلى سد كبير. *سد السّواني* الذي أنجزته شركة برازيلية خنقت قرية السواني نهائيا ومنعتها من أي امتداد. وضُمّت الآبار، بما فيها حواسي أولاد صالح، إلى مساحة السد لتوسيعه. فرُدِمتْ رفاتكم تحت أطنان التراب من جديد، بينما بقي السدّ جافا إلى اليوم، لم تدخله أية قطرة ماء. وكأن الله والملائكة والأرواح الطيبة رفضت أن تدفنكم ثانية بعد ما فعله فيكم الاستعمار.

أدركت قسوة الكلمات الأخيرة التي صدرت مني.

صمت بابا أحمد طويلا قبل أن يتفوّه بكلمات هاربة رأيت بعدها بقعا من الدم ترتسم على صدره، وأخرى تنزل من جبهته وتخط خطوطا مستقيمة على وجهه، فتمحو كل ملامحه. خفت من المشهد. أغمضت عيني لكي لا أرى شيئا. واكتفيت بسماع صوته الذي كان يصلني حزينا.

- نعم يا ابني. نعم حبيبي. لم يعد هناك شيء يستحق الذكر. لقد باع الورثاء كل شيء،

كل شيء. الدم، والقصص والتاريخ. لقد باعوا حتى أنفسهم. هل بقي لهم شيء يعرضونه للبيع؟ لا أظن. الذي يبيع حائطا ليس له، يبيع وطنا بلا تردد.
في ماذا يمكن أن يزعجهم ردم صرخاتنا ونداءاتنا؟

شعرت بقبلة بابا أحمد الساخنة وهي ترتسم على جبهتي. بقي مدة لا أدري كم طالت وهو يقبض على رأسي بين يديه، وأنا أسمع صوته: *عذرا يا ابني. عذرا. عذرا*. ثلاث مرات ولا أخال أن أحدا لحظتها غيري سمعه. بقي شيء حارق في أعماقي وأنا أمدّ له ليضمها إلى صدره. ظل شيء غامض يحفر في قلبي. خمّنتُ أن غيابه هو السب، ولكنني لم أنس أننا كنا جميعا في الغياب. تمنيت أن أسبقه في الاعتذار.

- *عذرا يا أبي. عذرا...*

لكني لم أفعل. ربما لأن قلبي كان أضيق وأصغر من عذابات أمي. ربّما لأن الجرح ظل مفتوحا دائما ولم يندمل أبدا، حتى عندما ظننّا ذلك. ربما لا هذا ولا ذاك، لأن مشكلة والدي شيء آخر. هو كبر في عالم مدينة كبيرة ومريحة، واستقى ثقافة أهلته للنور والحياة، قبل أن تقوده للموت والشهادة، بينما ظلت ردود فعل أمي غرائزية لا أكثر، مثل ذئبة وجدت نفسها في زاوية ضيقة، الكواسر من كل الجهات، والبشر أمامها، والكلّ يريد رأسها. حياتها كلها اختزلت في كيف تحافظ على بيتها حتى لا يحتله الغريب، وكيف تمنح أبناءها الحياة، وكيف تضمن استمرار العائلة وإنقاذها من التّلف.

جميل أن تكون ابنا لشهيد.

صعب أن تكون ابنا لأرملة.

لهذا، لم أتجرأ على فتح عيني، واستمررت أستمع لجرحه وهدير دمه.

3– جَدّتي حنّا فَاطْنَة

مُعلّمِي الأوّلُ يُنْبِئُنِي بِمَا لَمْ أَعْلَمْ

1-خَلْفَ سَتَائِرِ الحِكَايَة.

كل شيء تغيَّر، حتى العلاقة بالوقت.

لا أعرف بالضبط كم مرّ من الزمن بين اللحظة واللحظة.

فتحتُ عينيّ أخيرا. تسربت شلالات النور من وراء البلور المحاذي للأشجار العملاقة التي كانت تتمايل بثقل واضح، لتغرق الغرفة الزجاجية نهائيا، بحيث انمحى كل شيء، بما في ذلك أنا أو هكذا بدا لي على الأقل، وجزء مهم مما كان يحيط بي.

فجأة وأنا أقف مشدوها أتلمس جراحاتي الداخلية خوف أن يكون نزفها قد بدأ. دفعتني اليد الناعمة التي كدت أنساها إلى الأمام قليلا، فمشيت نحو النور بتردد خفيف. خفت أن أكون مرة أخرى أتجه، من حيث لا أدري، نحو معبر سيكون ربما مؤلما وقاسيا، مثل ذاك الذي قادني نحوه سيدي السالك، ليقوّمني من فراشي ويسير بي نحو معبر لم أعرف سره إلاّ لاحقا، قبل أن يدفع بي إلى التشبث بصخور الجبل الأعظم المدمية. ويرميني في فراغ آخر لا أعرفه ولا أعرف كيف أتعامل معه في غياب جدي الروخو الذي تحول إلى لمعة في القلب تظهر وتنطفئ كما تشاء.

وأنا أخطو نحو النور فجأة انفتحت باب فيه بهدوء وقبل أن أغرق فيه، أوقفتني اليد الناعمة من الوراء وسحبتني قليلا بعيدا عن الباب بهمس خفيف بدا لي كأني كنت أعرفه ولكني نسيته مثله مثل عطر البنفسج: *اتركها تأتي نحوك.* اشتهيت أن أسالها *من؟* ولكني اكتفيت بأن خطوت قليلا إلى الوراء. فجأة رأيت ميما أميزار بوضوح أكبر. كل ملامحها وقسمات وجهها كانت صافية كما في المرة الأولى. كما في شبابها. فتحت ذراعيها عن آخرهما وكأنها كانت تريد أن تأخذ كل شيء معها. ضمتني بقوة. أعرف أني كنت أحضن ضوءا، لكني كنت أحس بجسدها، وبخفق قلبها، وبحنانها كما تعوّدت عليه دائما. سمعت صوتها مرة أخرى، لكنه كان ناعما ومليئا بالدفء: *ما قدرتش أروح بدون ما أودعك. كيف حال وليدي؟ تعذبت يا ميما كثيرا؟ ما عليهش كل شي يروح بالشوي حتى تجد نفسك ومكانك. ربي معك يا قلبي.*

ثم رفعت شعري قليلا من تحت أذني وقبلت رقبتي العارية طويلا كما تعودت أن تفعل دائما عندما تراني مسافرا. لا يمكن أن أسافر بدونها. شعرت بحرارتها ودفئها. فجأة زال الألم الذي كان في قلبي.أدركت لحظتها أن ما كان ينقصني هو هذا بالضبط. ثم انسحبت كما فعلت في المرة الأولى. تماهت. ثم انغلقت دفتا الباب بنعومة وبدون أن تحدثا أي ضجيج كأنهما جناحا فراشة ينكفئان على بعضهما.

بقيت واقفا للحظات لا أعرف بالضبط ماذا كان يحدث لي، وماذا عليّ أن افعل؟ ثم أحسست بالأصابع تنزل من على كتفي، فرأيت السيدة ذات الشعر الأحمر تتقدمني بدون أن أتمكن من رؤية وجهها، نحو بوابة النور التي انفتحت من جديد على مصراعيها. بدا لي كأن كل الذين كنت أعرفهم أو تعودت عليهم خرجوا، وعلي أن أتحمل تجربة التيه وحيدا. ثم رأيت نفس الأصابع التي أعطتني المنشفة تحت الشلالات تمتد نحوي وتناديني للسير وراءها. أغمضت عيني لأن النور الحاد كان يجرحني، ترددت قليلا. *أغمض عينيك وامش. لا تلتفت وراءك.* عرفت صوت جدي الرّوخو من بحته نبراته. كررها مرة ثانية. *وهل سيكون الأمر مؤلما هذه المرة؟* تساءلت في أعماقي ولكنه سمعني. *أغمض عينيك وامش وسيمر كل شيء بسرعة.* لا أدري لماذا ارتبطت عندي الآخرة بالآلام والتعذيب، بينما هي سكينة ومصالحة مع الذات، الراحة الأبدية لجسد تعب وأنهك بما فيه الكفاية في الأرض. ربما لأن الكتب التي قرأتها أرعبتني مع أن الذي أراه الآن لا علاقة له بما قرأت وهو الأنسب والأكثر منطقية. لا يمكن لله أن يكون حقودا مثل البشر. لا يمكن أن يكون الله صغيرا لدرجة أن يعاقبنا بما منحه لنا. لا يمكن أن يكون الجسد والعقل، نعمة الإنسان هما ضياعه وخرابه وتيهه. لا يمكن أن تكون العيون مرتعا لنار لأنها رأت يوما شيئا جميلا منحها الدهشة. لا يمكن أن تكون الأصابع التي منحت حلمتي امرأة الحياة وجسدها نار الجنون، سببا في ضغينة الله والملائكة. لا يمكن أن يكون عبورنا على صراط مستقيم بلا نور ولا منجاة منه، سيّداه الخوف والظلمة. لا يمكن أن ينصاع الله لإنسان يسرق منه سلطانه. ليس هذا وقت التأملات. امش فقط. أغمض عينيك. وكأن جدي أيقظني من سباتي العميقة. كانت الأصابع الممتدة ما تزال تنتظر. تخطيت سبع عتبات قبل أن أصل إلى لمس أصابع سيدة الشعر الأحمر. *عتبة النور. عتبة الخوف، عتبة*

السير. عتبة الشوق. عتبة المكابدة. عتبة الدوار. عندما لامست الأصابع من جديد شعرت كأني وصلت إلى *عتبة التماهي*. فتركتني أتدحرج كما لو كنت في عمق عاصفة إذ لم نكن نسير في خط مستقيم ولكن بشكل لولبي ودوراني داخل نفق كل حيطانه من النور الذي ظل يتشكل ويتلون كلما تجرأت وفتحت عيني قليلا لأراه ولو قليلا. في مهب رياح عاتية. إذ بمجرد أن قطعت *عتبة التماهي*، انتهى جسمي وأصبحت مثل الريشة في مهب النور.

لا أدري كم طال بنا ذلك ولكني كما في المرة الأولى التي غادرت فيها جدي. وعلى مدار التماهي ظل شيئان فيّ. قبلة أمي التي تمنيت أن أسحب يدي من أصابع المرأة ذات الشعر الأحمر فقط لأتحسس حرارتها التي بدأت افتقدها، وصورة والدي وهو يأتي نحوي فقط ليطبع قبلته على جبهتي ويعتذر منّي ثلاث مرات. ولا أعرف لماذا اعتذر مني أنا بالذات وكأنه يهمس لي بسر لم يكن يريد أن يعرفه أحد غيري؟ ربما كبرياء والدي؟ ولكن أي كبرياء في عالم ينتفي فيه كل شيء حتي جسد الإنسان؟

عندما تحسست يديه لم ألمس فيهما أي تعرق أو تصلب. كان ما يزال شابا وكانت الحياة بكل اتساعها أمامه ، مع أمي أو حتى مع مِيًّا أو دونًا مِيًّا، كما كان يناديها من حين لآخر، التي غادرها للمرة الأخيرة وأحزنها، لا يهم أبدا. أمام الموت يصغر كل شيء حتى الأحقاد والضغائن كما يقول جدي. ربما كان على بابا أحمد أن يعتذر لأمي لا بسب قصة تيهه' وغيابه ولكن لجهنم التي تركها رحيله. ربما يكون قد فعل يوم التحقت به ميما، وقبّل أصَابعها ورجليها، ووضعها في مصاف القديسين. كل شيء تغير وكأن العائلة رميت من الأعالي ليس نحو الحضيض، ولكن لما تحته. تحت التَّحت.

طاحونة الحياة الصعبة أكلت أمي، فجأة أصبحت جدتي هي أمي التي لم تلدني.

عندما استشهد والدي في عزلة الموت، ركضت ميما أميزار في كل الاتجاهات من البلدية إلى المدارس، بحثا عن عمل يستر العائلة فلم تصل بعد وساطات كثيرة، إلا إلى عاملة تنظيف مراحيض المدرسة، وهو العمل الذي أعطي لنساء الشهداء بعد الاستقلال مباشرة. أمضت ليالي طويلة وهي تفكر في شيء اعتبرته في أعماقها إهانة.

فلم تتحمل ذلك، كانت الفلاحة تمنح الكثير من فرص العمل وقتها. اشتغلت في المهاية، أرض الأجداد التي منحتها بالثلث لأحد أعمامي الملقب بالثعلب، الذي يفلحها وفي نهاية موسم الحصاد يأتينا ببعض حقنا في القمح والشعير. ثم خرجت للعمل في مزارع الغير، وتحمّلت مسؤولية الحياة القاسية لتحتل مكانة أب مسروق.

هي ذي ميما. من سيدة بيت عامر، إلى تيه بلا اسم في دوامة حياة لم تكن تعرفها أبدا ولا حتى مستعدة لها.

مازلت أرى الصورة واضحة وكأنها تحدث اللحظة أمامي.

كانت عندما تقوم فجرا وتلبس التباندا التي تربطها من الوراء بمساعدة حنّا فاطنة ، وتضع الصبّاعيات أو واقيات الأصابع القصبية من انزلاقات منجل الحصاد، ثم تضع مظلّ الدّوم الكبير على رأسها وتخرج، تتحول في ثانية إلى رجل وتنسى أنها قبل مدة قصيرة كانت امرأة. ثم تخرج كالظل باتجاه طريق النصارى متفادية طريق العرب المغبرة، للحاق بالنساء الأخريات اللواتي يشتغلن اليوم كله في مزارع القايد مقابل راتب يومي هو ثلث راتب أي رجل، ونصف راتب طفل.

كانت تتعب كثيرا إذ لا نراها طوال اليوم. مع الزمن بدأت أمي تفقد ألقها وشعرتُ كأنها كبرت بسرعة. كلما عادت، تأملتُ وجهها لأني كنت أخاف من أن تضمر نهائيا. كانت تنقص كل يوم قليلا أو هكذا بدا لي. ذهب بريق عينيها وحل محله انطفاء لا يستره إلا النوم السريع والمبكر، مباشرة بعد العشاء. لمعان خديها أيضا ذهب وحلّ محله شحوب مسح كل ملامحها المشرقة. شعرها الذي كانت تمشطه كلما عادت من المزارع، رأيته يسقط ويخف. مع كل تسريحة كانت تتجمع في يديها كومات صغيرة من الشعر الساقط، فتجمعها وتخبئها في حفرة من حفر الحائط العاري. جسدها بدأ ينحف بسرعة، لكن عودها ظل صلبا إذ لم تكن تمرض إلاّ نادرا، وهو ما كان يسعدني ويقلّل من رعبي الذي احتلني: *ماذا لو ترحل أمي؟ ماذا لو تتعب يوما فتتخلى عن كل شيء يربطها بهذه الأرض، وتذهب من دون أن تلتفت وراءها؟* ...

ربما كنت الوحيد في البيت الذي ظل يطرح هذا السؤال بلا توقف. بقية إخوتي كانوا يعيشون يوميات أمّي كل بطريقته. بل كثيرا ما أنستهم متاعب اليوم وجهها.

زوليخا تنشغل في التربة الصلصالية اليوم كله. كانت تعجنها كما تشتهي لصناعة الأواني الفخارية اليدوية والطواجين. حاولتْ ذات مرة أن تخرج عن المألوف وتصنع أجدو أو جدّيوة، ولكنها فشلت فيها لأنها كانت معقدة وتحتاج إلى يد أخف وقدرة كبيرة على ترقيق العجينة الطينية حتى تستطيع أن تنجح. لم تكن تملك من الأدوات إلا قطعة خشبية كانت تساعدها على عجن التربة الصلصالية التي كانت تأتي بها من بعيد على حمارنا الطيب الذي لم أسمعه يوما ينهق حتى عندما تكون حمولة التربة البيضاء التي نأتي بها من البيّاضة كبيرة. كنّا أحيانا نجد إبراهيما هناك ينتظرنا بطيبته. ينزع معطفه العسكري ويبدأ في الحفر وعندما ينتهي من نزع التربة البيضاء، يتركني أنا وزوليخا نحمّلها في عيني الخرج. ثم يسلمني الحلوة ويقول لي *هذه لك. وهذه أعطها لزوليخا*. وهي سلسلة من العلب الصغيرة من العلكة.

زهور، أصغر أخواتي وأكثرهن شطارة، كانت لا تترك أبدا أغنامها التي اشترت جزءا منها حنّا، حتى تكوّنت بينها وبينهم ألفة كبيرة. تركض يوميا وراءها كمن يلعب. كان يمكن أن تموت بسبب لامبالاتها. لم تكن لها أية حسابات للخطر. نجت بأعجوبة من رصاص دريزيل، رأس القطار، الذي يراقب السكك الحديدية من الألغام التي يمكن أن تكون قد وُضِعتْ هناك، قبل أن يتبعه القطار الطويل المحمل بالبضائع والمسافرين. في مرة من المرات صادف أن صعدت نعجة مجنونة إلى السكك الحديدة، انتبهت لها زهور في آخر لحظة. فركضت وراءها، لكن النعجة كانت أسرع. كان *دريزيل* لا يحمل إلا شخصين: السائق الذي يُرى، والحارس فراشكيتو السيبنولي الذي يعرفه جميع سكان الحواف. هو ابن كامي الذي أحرق المجاهدون حقوله ودمروا رحاه لطحن الدّوم، التي كانت تموّن الجيش الفرنسي بالمطارح والأفرشة المحشوة بالدّوم المطحون. منذ أن انضم فراشكيتو إلى حراس القطار، وهو يشكل هاجسا مخيفا بالنسبة لكل سكان المنطقة. كان يطلق النار على كل من يراه على أطراف السكك الحديدية إنسانا كان أو حيوانا. عندما يضع سلاحه ذا الفوهة الطويلة على كتفه، لا يخطئ طريدته أبدا. عندما رأى زهور وهي تحاول بكل قواها أن تسحب نعجتها عبر المنحدر وتجرها عبر المنحدر، مبتعدة عن السكك الحديدية، كانت بالضبط في مرماه. صوّب فراشكيتو سلاحه نحوها بدقة حتى أصبح قريبا منها وهي تصرخ مذعورة: مسيو...

مسيو... لوموتو سوني با موا (Monsieur, Monsieur, le mouton ce n’est pas moi)... وظلت تصرخ وتبكي بأعلى صوتها وتنتظر الرصاصة التي تخترق صدرها أو رأسها أو قلبها الأمكنة الثلاثة التي كان فراشكيتو يختارها، ولكن يدا قدرية حولت سلاحه نحو النعجة، بسبب السرعة المفاجئة للقطار الذي كان قبل لحظات يسير بهدوء، فتمايل فراشكيتو متراجعا إلى الوراء، مما غير اتجاه البندقية قليلا، فاخترقت الرصاصة النعجة بقوة وعنف شديدين. وظلت تردح وتتخبط بين يدي زهور إلى أن فارقت الحياة، وهي لا تصدق أن نعجتها أنقذتها من موت أكيد، بينما واصل *دريزيل* طريقه يتبعه ليس بعيدا، القطار الطويل، متماديا في الجبال، في عمق الغار الذي ظل يردد أصداء الرصاصة ومحركات القطار الثقيلة. ماتت النعجة وزهور متشبثة بها. عندما خلت السكك الحديدية من أية حركة، بدأت تفتش وتتحسس جسمها بكامله إذا لم يكن قد مسه شيء. سحبت النعجة إلى الوادي، وعادت إلى البيت في وقت مبكر، على غير عادتها. كانت مذعورة وخائفة ومرعوبة. أدخلتها ميما أميزار في بتّية كبيرة، وظلت تصب عليها الماء الدافئ. ثم غطتها بمنشفة خشنة وغطتها في الفراش. وتركتها تنام قبل أن تنسى بسرعة وتعود في اليوم الموالي إلى أغنامها، ولكنها تركت السكة الحديدية وراحت نحو *جبال القرارة والقلب وجبال أولاد بن عامر* التي ظلت تتفاداها بسبب الذئاب. لكن الذئاب كانت ارحم من بندقية فراشكيتو القاتلة، التي لا تخطئ أبدا هدفها.

منذ رحيل والدي، أصبحت لكل واحد حرفته الخاصة التي اكتشفها فجأة في نفسه. كنت أجد متعة كبيرة في مساعدة زوليخا في اللعب بالطين. نظل نخلق الأشكال الغريبة رأيت بعد زمن طويل، مثيلاتها في الصين واليابان وفي المكسيك، ولا أدري العلاقة أبدا؟ دمى طينية ورؤوس هي بين الأشكال الآدمية والإنسانية. كنا نعطي للدمى القبيحة أسماء الأشخاص السيئين مثل فراشكيتو، وكامي، وبعض أعمامي ومنهم الثعلب، ونبشّعها إلى أقصى الحدود بأن نلصق لها أشياء غريبة عنها. مثلا كأن تكون الأطراف كبيرة والرأس صغيرا مثل حبة جبلان. رأس الجلبانة كانت تعني عند زوليخا الإنسان الغبي. القايد مثلا الذي كان يستغل الناس حتى بعد الاستقلال، كان رأسه ضخما يشبه رأس كلب، ونسمي الدمى الجملية بأسماء خالاتي لأننا كنا

نحبهن لأنهن مع أزواجهن كنّ عطوفات علينا كثيرا. رحمة. عيشة. آمنة. وكانت زوليخا كلما أغضبها شخص تقول لي بالسر: *راح نورّي له. راح يشوف واش ندير فيه اليوم مع الطين.* ثم نلعب أنا وهي في شكل مسرحية تلقائية، الجيدون ضد القبيحين، وندخل العجين في بعضه بعضا، ونحن نضحك إلى أن تنهرنا حناّ فاطنة: *الناس اللي حانقين داروا الطواجين وحرقوهم ونزلوهم للسوق، وأنتم تلعبوا ما على بالكم بأي شيء*؟ ثم تضيف وهي تتحرك في البيت وتشعل نار النوالة: *زيدوا. سيدي مليح وزاد له الريح. وأمكم محروقة في أرض القايد.* تنظر إلي زوليخا. نتذكر ميما أميزار في اللحظة نفسها. فنعود إلى جديتنا. أقصّص التربة المعجونة إلى كتل متوسطة، وأضع عليها الماء لكي لا تنشف، بينما هي تستمر في تدوير الطاجين حتى تنتهي منه. وتضعه على كارتون حتى لا يلتصق بالتربة قبل أن تدخله في فرن الخبز الحجري، لينشف أكثر.

ولما يتوفر لي بعض الوقت، كنت من حين لآخر أنزل أنا وحسن للجبل، نلتحق بزهور ونجمّع الحلزون الأبيض الطري يكون ملتصقا بالصخور بسبب الحر،وهو أرقى الأنواع على العكس من *الجحلال* الذي لم يكن أحد يقترب منه لأنه غير صلب ومائع وينكسر بسرعة، لم يكمل نموه. وعندما نملأ ثلاثة أكياس متوسطة، ننزل بها نحو صاحب السيارة الكبيرة، بالقرب من المدرسة، نبيعه الأكياس كما كان يفعل أغلب شباب وشابات القرية. كان حلزوننا الصخري الأبيض يصل حتى وهران إذ كان يطبخ في الفلفل والبهارات الحادة التي تزيل كل أوساخه وروائحه، ويوزع في البارات الإسبانية والشعبية في شكل مازات ومقبلات، مع الفلفل الحار. ونعود بما نربحه لنضع مكاسبنا المالية في حجر حنا المنهمكة في تصبير الخضر والفواكه كالطماطم التي توضع في القناني الزجاجية، ونشر التين الأسود بعد تمريغه في الدقيق الأبيض المملح قليلا لحمايته من الدود، قبل نشره على السطح لاستهلاكه في الشتاءات الباردة، عندما يشحّ كل شيء، وينسى الله مخلوقاته للعراء.

فجأة تحولت العائلة كلها إلى خلية حية لمواجهة قسوة الحياة. رجلها الأوحد، أمي، التي كانت تخرج فجرا، تعود مع غياب الشمس إلى البيت، متعبة، ومنهكة الأطراف. تنزع *تباندا* بعد أن تنفض نفسها كليا من التبن والغبار العالق بها، تعلقها عند المدخل

هي وواقيات الأصابع القصبية، ثم تتجه إلى *الدار الغارقة* وتستحم. ولا أسمع إلا الماء وهو يتكسر على جسد هش على الرغم من صلابته ومقاومته. وعندما تنتهي من حمامها، تخرج مشرقة الوجه على الرغم من التعب، تساعد حنا فاطنة على تحضير العشاء الذي يتأخر قليلا أو يتقدم بحسب جهود حنا فاطنة.

قسوة الحياة علمت أمي كيف تتشبث بكل ما يدفعها إلى الأمام. لم يكن أعمامي ينظرون إلى عمل أمي بعين الرضا. بالخصوص عمي الثعلب. في كل مرة يأتيها إلى الدار ويبدأ في الدوران حول نفسه كالأفعى العمياء. هو نفسه الذي كان يعطينا الثلث من محصول الأرض، أصبحت عيناه مصوبتين على تربة *المهايا* كلها. طلب الثعلب من أمي أن تبيعها له ولكنها رفضت بقوة: قالت له: *أرض اليتامى، حبوس، لا تُباع ولا تُشترى*. ستبقى كما هي، ويورثونها إلى أبنائهم. من يبيع أرضه، يبيع عرضه.

ثم ضرب على باب ثانية ليحرك حنا فاطنة ولكنها كانت تعرفه جيدا. قال وهو يبحث عن مدخل:

- حرام الزين ديالنا يضيع في الهواء والريح.. مثل أميزار تتحجب حتى لا تمسها العين

بمكروه.

حنا تعرفه جيدا وتعرف مراميه لأنها ليست المرة الأولى. لم تفكر طويلا لتجد إجابتها:

- عندها ست أولاد واش لازم تدير؟ توكلوها أنتم وتحجبوها؟ هي لن ترفض إذا كنتم

مستعدين لإطعام أبنائها والتفكر في كسوتهم وغطائهم.

- يا حنا فاطنة ليس هذا قصدي. ربي دار الموت والحياة، ودار الزواج سترة للمرأة.

- والرجل ربي طلق سراحه؟ يدير واش يحب ما كاش اللي يحاسبه؟

- لا ليس هذا قصدي. أنا قلت أولاد ابن عمي الشهيد بمثابة أبنائي وهو بمثابة خويا.

أضعهم في كفالتي وأحميهم من الضياع، وهي أسترها من الهذرة الصعبة والألسن القاسية. الناس لا يرحمون. الخدمة في أرض القايد تجيب الكلام الكثير؟

- أفهم أنك جئت لتخطبها؟ حاب تتزوج أرملة شهيد.

- أحمد خويا. قلت نردها ونسترها على بركة الله وسنة نبيه.

- نسيت أن زوجتك الثالثة بنت عمها؟ روح يا رمضان يا وليدي ربي يرزقك الخير.

خرج بصعوبة وهو يلعن في أعماقه حنّا التي كانت سدا منيعا بينه وبين أمي لأنها كانت تعرفه جيدا وتقول إنها ربته على يديها. فهي تقرأ الجشع والضغينة في عينيه. هي التي أطلقت عليه تسمية الثعلب لأنّ خزرته تشبهه بقوة. لا يُؤتمن. ويريد الأرض بأية وسيلة ليربطها مع أرضه.

قصّت حنا فاطنة لميما أميزار تفاصيل الحكاية كلها. ضحكت وهي تهز رأسها: *الثعلب عمره ولا يولي سبع يا يمّا. هو هو. حتى عندما كان الناس يموتون على هذه الأرض، اختار هو المغرب، ونام هنا حتى الاستقلال*. ثم سألت حنًّا:

- واش قلتِ له يا يما.

- لا شيء. قلتُ له روح يا رمضان يا وليدي ربي يرزقك الخير.

- كان يفترض أن تشتميه. *تسميه باسمه الحقيقي اللي يلبق له: الثعلب, ما تخلّي فيه*

والو. هو سبق وأن أرسل شخصا بهذا الشأن وطلبتُ منه أن يبلّغه: *لن يدخل أحد فراش أحمد ولن يذل أحد أبناءه. هذا اللي أعطى الله. اللي كان يحجّبني مات.*

كلما سمعت أمي تحكي لجدتي يومياتها القاسية، كانت تكبر في عيني بقوة. وكم كنت أحزن أني صغير لا أصلح إلا لجمع الحلزون الحجري الأبيض، مع أخي حسان أو مساعدة زوليخا في الطين، أو حنا في نشر التين الأسود على السطح، وتركه يجف صيفا، بعد تمريغه في الدقيق. ليؤكل شتاء عندما تنغلق سبل العمل والحياة كلها ولا يخرج الناس بدوابهم إلا قليلا.

فجأة تحولت أمي إلى رجل صلب وبه بعض قسوة الحياة، وفقدت الكثير من أنوثتها على الرغم من أن قلبها الطيب لم يُمس أبدا، ظل حنونا دائما. بينما حلت حنا فاطنة بكل نعومتها وطيبتها مكانها. بدأت أحس أنها هي أمي. فوجعتُ، لأن الإحساس الذي بدأ يتكون لدي هو أنّ أمي هي التي ماتت وليس أبي.

عندما تتنابني هذه الصور لا أتحمل قسوتها.

حنّا فاطنة كانت قريبة مني لدرجة التماهي معها. كانت سيدة الحكاية، وهذا وحده كان كافيا لألتصق بها نهائيا. أصبحت أنتظر الليل بفارغ الصبر فقط لأسمع قصص جدّي الأندلسي وهي ترويها بطريقتها لدرجة كانت تدخلني بسهولة إلى عالم لم يكن مجرد تخييل ولكنه كان حقيقة أمامي. كنت أرى جدي الروخو ببهائه وقوته وحروبه التي لم يُهزم أيّ منها أمام النصارى. حتى عندما تنتهي مئونته بسبب الحصار، كان الله يمنحه مسلكا للخروج سالما هو وجيشه من محنته. في مرة من المرات أقسم، بعد أن قتل الملوك الكاثوليك أعز أصدقائه، أن يخوض حربا لا هوادة فيها، ولن يوقفها إلا إذا وصل دم الأعداء إلى ركاب الخيل. جند جيشا قويا واتجه صوب مدينة *رواندا* العسكرية، وبدأ حربه لكنه بعد أن قتل الآلاف من عساكر الأسبان والبرتغاليين، لم يصل الدم إلى الركاب، فلم يجد أمامه إلا السكان المسالمين. رفع رأسه إلى السماء وقال : *ارحمني يا الله. لقد أقسمت ولا أريد أن أتراجع عن قسمي، ولا رغبة لي في قتل من ليس عسكريا.* كانت الأرضية مليئة بالدم جراء الحرب الضروس التي خاضها. فجأة، وبدون سابق إنذار، سقطت أمطار غزيرة امتزج فيها الماء بالدم حتى وصل ركاب الخيل. فرح الروخو. ثم رفع رأسه مرة أخرى، وقال: *شكرا يا الله، وفّيت لي بقسمي.* وعاد إلى جبال البشرات التي كان قد انطلق منها محملا بوعد الله وبكرامات أولياء الله الصالحين، كما تقول حنّا فاطنة.

حنّا فاطنة، معلمي الأول في هبل الحكاية، جعلتني أرى بعيني وقلبي وعقلي كل من أكلتهم الحروب المقدسة والمنافي القلقة قبل خمسة قرون. أرى جدي الروخو بلباسه وحياته ونسائه كما لو أنه كان أمامي.

كما لو أنه كان صديقي. ملأتني بالأنين الذي ورثته عمن سبقوها. سلمتني ثقل مائة سنة من الأصداء التي حملتها في قلبها بعد أن استلمتها عمن سبقوها، قبل أن يخلوا المكان ويرتاحوا وتبقى هي مثقلة بها. وكان لابد أن تجد من يحمل معها ثقلها. من بين كل العائلة اختارتني أنا. في آخر عمرها منحتني كل ما كان يملأ حواسها وحنينها. منحتني كل ما كان يعذبها، ولم تستشرني حول قدراتي على تحمله، كنت وحيدها الأوحد، كما كانت تسميني.

في البداية كنت سعيدا لأني كنت أعيش قصص حنّا فاطنة، بفرح كبير. فقد منحتني كل المفاتيح لتهوية الغرف المغلقة، لكن مع الزمن تعددت الغرف حتى أصبحت ذاكرة قائمة بذاتها. وكان عليَّ أن أفتحها كلها لأجعل الشمس الهاربة تتوقف عند نوافذها، وتطفئ خوفها. فجأة وجدتني أقتفي خطوات الدم التي تركها أجدادي الأوائل علي الطرقات والمعابر الضيقة، وعلى الرمال الجافة، والصخور البركانية، وجذوع الشجر الذي عانقوه في لحظات اليأس قبل أن يستسلموا لموت حزين.

2- فِي مَقامِ الشّيخِ الأكبَرِ

أية غفوة قادتني نحو كل هذه السكينة؟
أيقظني بسرعة شهاب سمعت صوته الحاد وهو يعبر فوق رأسي بسرعة خارقة، ثم رأيته يدور ويتجه صوب المعبر الذي كنا نقطعه، ليتبعثر بعدها إلى آلاف الأجزاء والقطع. أغمضت عيني لكي لا يلحقني أي أذى، لكنه احترق بعيدا، في غير المكان الذي كنّا فيه. أصابع صاحبة الشعر الأحمر كانت تجرني بنعومة دائما وكأنها لم تكن معنية بما كان يدور من حولها. تخطينا كل العتبات الضوئية التي كنا نتلاشى فيها من حين لآخر لسرعة الضوء ولبياضه الشديد. أصبحنا نمشي وكأننا في أكواريوم مغلق كليا ندور داخله بلا نهاية، نرى كل شيء من خلال زجاجه الشفاف الذي لم يكن زجاجا ولكنه كان غلالة شديدة البياض تنعكس عليها كل التجليات والألوان. ماء كثير لم يكن يمسنا وكأنه كان من وراء زجاج شفاف. يتدفق في فراغ كان يحيط بنا كليا. ذكرني هذا بشكل غريب بأكواريوم سان فرانسيسكو حيث كانت تحوم على رؤوسنا حتى أسماك القرش التي تهجم من حين لأخر على الزوار تحتها قبل أن يصطدم أنفها الطويل والحاد بالكتلة الزجاجية المانعة بيننا وبينها. فتنعكف بسرعة لتمضي في سبيلها وتغرق داخل أسراب الأسماك الصغيرة التي تحوطها في تشكيلات تتجمع وتتبعثر بسرعة.

هذه المرة كنا نسير. تسبقني ذات الشعر الأحمر وأنا أتبعها وأتحسس أصابعها الدافئة التي لم تغادر يدي إلا قليلا، عندما بدأنا نعبر أمكنة كثيفة الضباب، لكن جاذبيتها الموجهة لم تغادرني أبدا، وهي تسحبني وراءها. لا أدري ما الذي حرك حواس التشبيه لدي فجأة. فقد وجدت أن قامتها وشعرها شبيهان بالمرأة التي رأيتها بالقرب من التابوت ومنحتها، بأمر من الروخو، الزهرة الحمراء. طولها هو بالضبط، وخصلة شعرها التي كانت تخرج قليلا من تحت الحجاب الأسود، شبيهة بها أيضا. شممت حتى عطرها الذي كان يملؤني كليا. ومع ذلك تفاديت الغرق في أحلامي وأشواقي حتى لا أضيع

مساراتي وأجدني ضائعا مثل العنصر الصغير الذي لا وجهة له إلا الدوران المستديم في الفراغ، وحول نفسه.

كأنه بيننا وبين الخارج حاجز شبيه بالغلالة التي لا يمكن اختراقها. مع ذلك، كنت أرى الفراشات الملونة التي كانت تطير في كل الاتجاهات. أمد لها يدي بنعومة لكي لا تخاف، من وراء كثافة الضباب، فتحط عليها وأشعر بدغدغاتها الناعمة. بعض الجراد الملون الذي أراه لأول مرة في حياتي، كان يبهرني. لا أحبه لأننا في إحدى سنوات الجوع أكلناه مشويا ولكني تقيأته لأني في الليل رأيته بعيون كبيرة وهو يحاول أن يهجم علي إلى أن أيقظتني أمي من كابوس حقيقي، والضفادع الصغيرة التي تشبه ضفادع غوالدولوب. تحدث ليلا صوتا قريبا من صوت الطيور، كان يتناهى إلى مسمعي بإيقاعاته الجماعية الرتيبة والمستديمة. والحمام الأبيض الذي كان ينزل على أشجار شبيهة بأشجار اللوز المنورة الضخمة. والنباتات التي تشبه شجر اللبلاب العملاقة التي تلف الأشجار الأخرى لدرجة تغطيتها كليا ولا تترك لها متنفسا. لا أدري أيضا لحظتها لماذا تذكرت المقولة التي نسيتها: *من الحب ما قتل*.

فجأة كأن قوة جاذبة غير محسوبة، سحبتنا نحوها، ثم رمتنا في فضاء أبيض لا تخترقه إلا بعض الخطوط الحمراء التي تشبه الشفق، كانت تتسرب من الفجوات الصغيرة نحو البيت، فتقلل من هيمنة الألوان البيضاء التي تحتل جلّ الأمكنة والزوايا. تقدمت قليلا ووجدتني وحيدا في مواجهة شططي وخوفي وضعفي أيضا.

المكان في مداخله الظاهرة كان يشبه مزارا أو مرقدا صوفيا. رفعت رأسي قليلا إلى السماء، وقد افترضت أن القبة كانت كبيره لأن الفجوة الداخلية كانت مرتفعة. تتعالى حتى تغيب في عمق الضوء الذي كانت تنتهي إليه. كان المكان مدهشا بالفراغات الموجودة فيه والتي لم تكن مزعجة أبدا بل كانت توفر حالة من الرهبة والخشوع والعزلة والسكينة.

سمعت صوت المرأة ذات الشعر الأحمر التي أصبحت تقف من جديد ورائي، أو ربما أنا أحسست بها كذلك، لأني فقدت دفء ونعومة أصابعها لكن شيئا منها ظل معي، يرافقني حتى في أنفاسي. لا أعرف لماذا تتغير مواقعها كثيرا. همسها أعرفه من بين ملايين الأصوات التي كانت تأتيني من بعيد، ولا أعلم إذا كان ذلك من الخارج أو من

أعماقي، وهي عبارة عن خليط من زقزقات العصافير والطيور الغريبة، ذات الريش الذهبي والنحاسي والفضي، والثعابين التي تتحرك بلا سموم ربما بسب الأمكنة البركانية التي رأيتها وأنا برفقة جدي الرّوخو على قمم جبل النار. ثم ماذا تفعل هذه الثعابين بالسمّوم، وهي في وضع ليست فيه في حاجة إلى وسيلة دفاعية؟

فجأة انفتح باب من ظلال خضراء ميالة نحو الذبول كلما نزلت إلى تحت. من وراء ذلك سمعت نشيدا بدا لي كأني سمعته من قبل، لكنه لم يكن هو بالضبط. مزيج من الإيقاعات الفارسية القديمة، القادمة من أغبر العصور، حتى كأني سمعت نداءات مولاي جلال الدين الرومي، وحبيبي حافظ الشيرازي في جنونه العشقي الذي كاد يسرق حياته. تناهت أيضا إلى مسمعي، تراتيل أيبيرية قديمة، من القرون الوسطى، كانت تملأ مسامعي التي تفتحت فجأة على كل شيء حتى الأشياء الدقيقة التي لم أسمعها في حياتي. ثم رأيت امرأة تتقدم باتجاهي، ملفوفة من بياض صاف يكاد لا يرى من شدة نقائه. لم أجد صعوبة كبيرة في التعرف عليها سوى أن قليلا من شيخوختها التي تعودت عليها كان قد اضمحل وحل مكانه بريق جميل في عينيها يبين ذكاءها وقدرتها الكبيرة على أسْرِ من تحدثه أو تكلمه. حنّا فاطنة التي كانت تشبه أميرة بربرية، من أعالي جبال الشاوية. شيء آخر لم أره لحظتها لأنه كان يرافق حنّا في حلها في ترحالها: عصاها المنحوتة من خرّوبة جدها الأول، وحجرة التيمّم الزرقاء التي لا تغادرها بالخصوص في سنوات عمرها الأخيرة. كانت تضع على رأسها رداء بربريا خفيفا، ربما كانت تلبسه في شبابها. عرفتها من لمعان وجهها الذي زاد نورا وبهاء.

شعرت بقشعريرة عبرتني بسرعة لم تدم إلا ثوان قبل أن أتماسك من جديد وأعود إلى وضعي الطبيعي. الغريب أني لم أكن حزينا ولم أشعر بأية رغبة في البكاء كما هو مع ميما أميزار وزوليخا. أكثر من ذلك كله، فقد كنت أسعد إنسان في تلك اللحظة، أقاوم بشدة رغبتي المجنونة في الركض نحو صدرها ثم فلْيِ رأسها بحثا عن الحلوى والتمر والكاوكاو والجوز، لكني لم أجد لا تلك الشجاعة التي كانت فيَّ عندما كنت صغيرا ولا الجرأة. ربما لأنّي في أعماقي، كان ينتابني من حين لآخر، إحساس غريب، بأني لم أكن سيّد نفسي أبدا. تلك قصة أخرى.

هي. حنّا فاطنة.

كانت حنّا عبارة عن حفنة من النور الجميل الذي ينزلق بسرعة من بين الأصابع كماء متدفق يشبه الضوء. لم تكن في حياتها التي قادتها إلى تجاوز عتبة المائة سنة، منشغلة بأي شيء يزعجها. كانت لديها حكمة عالية وكبيرة: *كل ما يؤذيني أرميه ورائي ولا ألتفت له أبدا لأنه لا وقت لدي لكي أقتله في الفراغ. وكل ما يفرحني أبحث له عن مكان صغير في القلب، حتى عندما يكون القلب ممتلئا.* وأتذكر أني، باستثناء المآتم والأيام الحزينة، لم أرَ حنّا يوما منكسرة. تلك كانت قوتها التي لا يعرف سرّها إلاّ هي.

الأصابع الناعمة التي كانت تنهرني وتأمرني بلطف بعدم التقدم كلما فاضت أشواقي وغلبني الحنين، هي نفسها التي منحتني هذه المرّة فرصة التقدم قليلا إلى الأمام. مشيت قليلا، خطوة، ثم خطوتين. ثلاثاً . ثم شعرت بنفس اليد توقفني. بدأت أتأمل الهالة السحرية التي كانت تحيط بحنّا. كان عليّ أن أقطع المسافة التي تفصلني عنها والتي بدت لي طويلة جدا. ظلت حنّا على طبعها الذي أعرفه. مأخوذة بأشياء لم تتغير أبدا عبر الزمن. كل ما يحيط بها له قيمة ومعنى. الوجوه. الأصوات. الناس. الحيوانات. العصافير. المطر الرياح. الغبار. الخوف. الحياة. النور. الظلمة. الأيادي. الأصابع. العيون. الطيور. الفراشات. الثعابين. الغزلان. الزلازل. العواصف... كل شيء له نظام وسبب ومعنى. لم تكن فيلسوفة، ولكنها ظلت طوال حياتها ترفض الاعتباطية. منذ أن فتحت عيني عليها وأنا أرى حركتها اليومية. لا أدري ماذا كان يحدث لي، ولكني كنت أنام على حكاياتها لدرجة أني نسيت ميما أميزار التي ظل يشغلها قبل أن تنام، ماذا ستفعل في الغد، وماذا ستعمل، وماذا سنأكل؟ لم تخيبني أبدا قصص حنّا في أي يوم من الأيام، حتى تلك ذات النهايات الحزينة، كنت بيني وبين نفسي أغيرها وأصنع لها ما أشتهيه، وقبل أن تبدأ حنّا في قصّ إحدى حكاياتها الجديدة أقول لها: *حنا. سمعت أن القصة التي رويتِها لي البارحة لها نهاية غير*. ثم أحكي لها النهاية الجديدة التي ابتدعتها. تسألني: *وين سمعتها*؟ أتردد قليلا ثم أجد الحل: *نينوت وممات.* بابتسامتها اللطيفة أعرف أن حنّا لم تصدقني، ولكنها فهمت أن النهاية التي روتها لي لم ترق لي: *واش في هذاك الراس؟*

نينوت وممات تحكيان القصص؟ ثم تحكّ على رأسي وتدفنني في صدرها، وتعود إلى قصصها الجميلة. من *ودعة مشتتة سبعة. إلى امحمد الهمّ. إلى حديدوان. إلى بقرة اليتامى. مقيدش. لونجا. عشبة خضار.* حتى حفظتها كلّها بنهاياتها الطبيعية وبتلك التي اشتهيتها.

الشيء الذي يأسرني في هذا كله، قصصها عن جدي الموريسكي سيدي علي برّمضان إلكوخو الملقب بالرّوخو. عندما تستحضره لي كنتُ أراه، وأشعر به أيضا كأنه يراني بكل بهائه، فارسا حيا وعاشقا نبيلا. عرفت منها أسماء الأحصنة التي ركبها، والأراضي التي غزاها، والمخطوطات التي امتلكها، وقلوب النساء التي سكنها. لم أكن شيئا آخر سوى سينو، لزعر الحمصي، مدلّل حنّا فاطنة.

لا أدري السبب في ذلك مع أني كنتُ أكثر شيطنة من بقية إخوتي. ربما لأني كنت مأمورها في أشيائها الصغيرة والكبيرة. في حياتي كلها لم أعص لها طلبا. ولم أغضبها إلا مرة واحدة ووحيدة ندمت عليها حتى أكلتني من شدة الحرقة. كانت تقصّ الفلفل الأحمر في حوش الدار وتنشفه لتحضيره وتحويله إلى بهارات حَمّارة كانت تبيعها لأسواق مغنية، المغطاة، أو تصبيره في زيت الزيتون. كنتُ وحيدا في البيت بينما كانت هي قد ذهبت إلى الحضرة. كنت مضربا على حنّا لأنها بعد أن عادت من الحضرة لم تأتني بأي شيء. لا كاوكاو ولا حلوى. صرختُ. إجابتها كانت قاسية يومها: *لازم تتعلم الصبر. صحيح الصبر يدبر، لكن هذا هو الإنسان. وإلا راح تصبح مثل هذاك اللي على كرشو، خلى عرشه.* في لحظة غيابها تركت الدجاج يعيث فسادا في الفلفل. ولأن الدجاج لم يشف غليلي، رميت ماء على الفلفل الأحمر الذي كان قد نشف، فأفسدته وهي التي قضت أياما وهي تقصه بالمنجل وتحضّره وأنا أساعدها بلا كلل. عندما عادت من الحضرة، وهي مشرقة الوجه، جاءت نحوي وهي تقول: *ما تفتش اليوم رأس حنينا فاطنة؟* فتشته وأنا غاضب من نفسي. فوجدت الحلويات والكاوكاو. قبلت رأسي بحب كبير وهي تردد: *اللي يغضّب وليدي لزعر الحمصي ما زال ما زاد.* تضاعف ألمي الداخلي أكثر وأصبحت عاجزا عن الكلام.

عندما رأت الفلفل وقد امتلأ ماء. نظرت إلي بحدة. قرأتْ ما كان بداخلي. أحنيتُ رأسي خجلا. حملتِ الكراتين ثم صعدت بها نحو السطح. حملتُها معها. وبعثرنا الفلفل

الأحمر على السطح وتركناه ينشف من جديد. وكأن الله سمع لخوفي وحزني. هبت ريح خفيفة مسحت بسرعة كل مائه. أعقبتها شمس ناصعة خرجت من تحت كتلة الغيم الثقيلة. حنا قرأت في ذلك رسالة أن اغفري له. لكنها لم تكلّمني. عندما بدأ رذاذ المساء يتساقط. جمعت الكراتين من جديد وأنزلت الفلفل إلى تحت وقربتها من المجمر الذي أشعلت ناره على الرغم من الأدخنة التي سكنت ملامحي إلى أن مال مخاطي إلى اللون الأسود وأنا أنفر أنفي. كانت حنّا تتأمل المشهد. في الليل قبّلت رأسها ويدها الخفيفة كريشة، ونمت في حجرها بدون أن أتكلم. تلك الحادثة أعطتني عمرا آخر وأضافت لي سنوات أخرى. منذ تلك الحادثة كبرتُ قليلا ولم أعد أغضب من حنا إذا لم تأتني بالحلوى والكاوكاو من حضرتها *الدرقاوية* الصوفية. كان يحدث معها أن تقضي اليوم كله في الاستذكار برفقة الصلاّح، عندما تعود أتفقد ما تخفيه تحت الفوطة التي تضعها على رأسها. تعودت أن أفتش رأسها. هي من علمني أن أرى هداياي تحت فوطة رأسها: الفستق السوداني. السكر الأحمر. التمر والتّين. والكاوكاو والجوز. وكل ما يُعطى في الحضرة. كانت تحتفظ لي بكل الأشياء الجميلة في تلافيف غطاء رأسها. نسيتْ يومها أن تفعل ذلك، فخفتُ أن أكون قد فقدتُ مكانتي عندها: *على كرشو، خلى عرشه.*

دفعتني اليد الناعمة قليلا إلى الأمام هذه المرة كذلك. شعرت بالأرض تحت رجلي تتحرك وتدفعني أكثر فأكثر لأصل لها بسرعة. لكن المسافة الفاصلة بيني وبينها كانت هي هي وكأني كنت مثبتا في مكاني.

مرة أخرى دفعت بي اليد الناعمة إلى الأمام. فأزالت نهائيا ترددي. فجأة، كأن قوة داخلية رمتني نحوها، فبدأت أجري، وأجري بلا توقف. وكلما اقتربت اتضحت ملامح أكثر ملامح حنّا الملكوتية. وعندما وصلت، قبلت رجلها ويدها التي كانت تنفلت وتهرب مني مثل الضوء ولكني كنت أحس بها. ثم مددت رأسي إلى صدرها واشتهيت لحظتها أن أنام فقط. أن أنام في هذا الحضن الذي كان مساحتي بلا منافس، لكن كانت حنا هي من أخذ بيدي وسحبتني نحو التكية الخلفية المضاءة بآلاف الأنوار. ثم تأملت وجهي وأنا أحس بأناملها وهي تعبر ملامحي المتعبة. ثم رأيتها تتمتم. تتكلم.

- هل تعرف أين أنت؟

- في مقام جميل ذكرني بقبة الصخرة بالقدس، التي حلمت عمرا بزيارتها، قبل أن تسحبني الأقدار القاسية نحوها ذات فجر أو ذات ليل، في غفلة مني. وكان لي ذلك. زرتها وعدت منها ممتلئا بشيء غريب. كيف لمدينة تسكنها كل الأديان، تتحول إلى أرض للنار والبارود والموت. أليس الله هو سيد هذه المدينة التي أنشاها وفق مشيئته، وبث فيها كل ما ابتدعه؟ لماذا تخلّى عنها للذي يقتلها كل يوم بعناده ووهم أحقيته المطلقة بها.

- للقدس رب يحميها يا حبيبي. تلك المدينة مرت عليها أقوام لا تحصى، ماذا بقي منها

اليوم؟ لا شيء سوى حجارة تتكلم، وفي أحيان كثيرة خرساء أو تُمنع من الكلام أو تُجبر على قول ما لم تقله أبدا. انس كل هذا الآن. أنت في مقام الشيخ الأكبر يا ابني. نحن نحلق حوله كلما عبر من هنا. أناس مثلي أنا الإنسانة العادية، لم أكن أعرفهم. سادة الخير والشهداء. الحلاج. البسطامي. الجنيد. حافظ الشيرازي. مولانا جلال الدين الرومي، رجل النور والتواضع الكبير. أليس هو من قال متحدثا إلى المغرور: *أيها الطاووس لا تقتلع ريشك، بل انزع من قلبك الغرور به*[19]. حبيبه الأكبر، شمس الدين التبريزي، الذي سرقته منه أيادي الغيرة والضغينة من أتباع مولانا جلال الدين الرومي، تاركا جرحا في قلب حبيبه لا يندمل، فخلده في *الديوان الكبير*. كان شمس، الشاعر والدرويش والصوفي المتواضع، مثل التراب والماء والهواء، بسيطا وضروريا لحياة مولانا.

- عرفتهم يا حنّا من كتبهم. سيدي ابن عربي مغلق وصعب.

- عرفتُهم فقط من نورهم وحبهم الكبير. هنا لا شيء مغلق. ما فينا من وهج يفتح كل

المغاليق. كبرتَ بسرعة يا ابني. وضاعت ملامحك الشقية وحلت محلها ملامح أكثر اتزانا. لكني لا أعتقد أن الشقي الذي فيك مات. كيف وجدتَ جدّك الذي حكيت لك عنه.

- جميلا ولكن أكثر بساطة مما صورته لي يا حنا.

---

[19] مختارات من قصائد جلال الدين الرومي. ترجمة تحسين عبد الجبار إسماعيل. كتاب مجلة دبي الثقافية. افريل 2013. ص: 51.

-     نحن هكذا يا ابني. عندما نحب، نحب بكلنا ولا نجزئ. الذي يجزئ الحب، عاشق

غير حقيقي. وعندما نكره لا نعرف كيف نتصرّف. شيء من عند الله، يمنحه لمن يشاء وينزعه عمن يشاء.

-     جدي هو الذي قادني لتجاوز المسالك الوعرة يا حنّا.

-     لأنه كان ينتظرك على الرغم من أنه فوجئ قليلا بمجيئك المبكر، لا أحد من أجدادك

رحل قبل التسعين سنة من عمره.

-     كان كبيرا وجميلا وهشّا أيضا. هكذا كان. هكذا عاش. هكذا عاد. وهكذا رآك.

كنت جالسا على سجاد شبيه بالطراز الإيراني الذي رأيته في أصفهان. ألوانه فاتحة يغلب عليها الرسم النباتي الميال نحو الخضرة الهاربة والزرقة المغيّمة التي سرقتها من نهر زاينده رود. لم يكن هناك أي حضور آخر غيرها وغيري. صاحبة الشعر الأحمر والأنامل النّاعمة غابت أيضا. حتى عندما تجرأت لأول مرة والتفت ورائي في دورة كاملة برأسي، لم أر إلا الظلال التي كانت تعبر المقام الواسع كأن غيوما كانت تمر على رؤوسنا أو كأنها شمس مظللة بالضباب، تتجه بسرعة نحو المغيب.

كنت مصمما أن أعتذر من حنّا على حادثة الفلفل الأحمر التي بقيت في قلبي وقذفتها إلى حالة بلوغ مفاجئ لم أطلبها وقتها، لأنها سرقت مني بعض طفولتي. وأن أقول لها لأول مرة أني كذبت عليها في قصة القرآن الذي كنت أقرؤه في باحة البيت، وعلى مرآها وهي في قمة فخرها بي. لأول مرة شاء الله وشاءت الأقدار، أن تهبها بمن يحفظ تاريخ أجدادها الموريسكيين ويحفظ القرآن عن ظهر قلب. وأنّ ما كان يبدو لها قرآنا لم يكن في نهاية المطاف إلا كتابا عاديا مثل ملايين الكتب.

أخرجتني حنّا فاطنة من حالة الغفوة بلطف.

-     أنت يا لزعر الحمصي، كنت فوق الكل. كنت بالنسبة لي الطفل المدلل الذي كنت

أحبه جدا، لسبب واحد وبسيط، فقد كنتَ تسمع لي وتنفذ ما كنت أطلبه منك ولا تتردد لحظة واحدة. كنت أحمّلك بصفرة الأكل، وأضعها على ظهرك، وأنت صغير، تذهب

بها حتى للنهاية أو لازون[20]، نحو ميما أميزار، تأخذ لها الغذاء في عزّ الحر. كانت تحتاج أن تأكل لتقاوم تعب الصيف وقسوته. كنتَ تذهب وتجيء في لمح البصر. باقي إخوتك لم يكونوا لا في سرعتك ولا نباهتك.

- لكن يا حنّا، كنتُ أفعل هذا كله لأني كنت أحبك.

- في كل العمر الذي عشته غضبت منك مرة واحدة.

- وهذا يقتلني كلما تذكرته. يوم ما وضعت الماء على الفلفل الأحمر وكدت أفسد لك كل

حصيلة السنة التي كنت فرحانة بها. كان لك مشتر معروف في سوق مغنية ويثق فيك ولم تريدي أن تبيعي له حَمّارة فاسدة، تبدو طبيعية بينما هي رطبة وبلا مذاق.

- كُنتَ صغيرا وغضّابا. غفرت لك بسرعة لما رأيتك تساعدني. في الحقيقة أنا المسؤولة وليس أنت وحدك يا قلبي. أنا عوّدتك على تلك *الطبيعة الشينة* ولهذا كان عليّ أن أتحمل المسؤولية. ولكني بسرعة نسيتُ كل شيء. كنتَ صغيرا ولم تدرك سرّ العواقب إلا بعد الحماقة. ربما كان اليوم ذاك قد أضاف لك سنوات من عمر كان يركض بسرعة.

- لكن يا حنينا كنت أفضل أن أظل دوما صغيرا وملتصقا بردائك.

- لكل زمن أوقاته.

- هناك حماقة أخرى لم أسرّ لك بها، تتعلق بالكتاب الذي حفظت فيه لغة الأجداد.

- كان رهاني عليك كبيرا وكنتَ الشخص الأوحد في العائلة من كان قادرا على ذلك.

في النهاية لم أخطئ أبدا، لقد كنتَ أوّل أبنائي الكثيرين من استلم تاريخ أجداده، وتقاسمه مع غيره من الناس والشعوب. من كان سيعرف الرّوخو لولاك؟

- هو ملك للأرض التي تحب الخير يا حنّا.

لم تعطني حنّا فاطنة لحظتها الإحساس بأنها كانت تعرف كل التفاصيل لأنها كانت مشدوهة بالصوفية الذين كانوا يمرون بالقرب منا على ألبستهم التي تشبه الخرق

---

[20] الكلمة من الفرنسية La Zone interdite أي المنطقة الممنوعة.

البيضاء بعض بقع الدم. أحدهم أحسست به غير عاد. سألتها. قالت بصوت خافت وحزين. ذاك هو الحلاج، والذي عبر قبله هو السهروردي. سيأتي بعدهم سيدي شيخي الأكبر للحضرة الكبرى.

على الرغم من انشغالها، كانت حنّا منتبهة لكل كلمة كانت تخرج من فمي مثل طفل صغير. كنتُ مصمما على أن أروي لها القصة بكاملها كما حدثت، نسخة القرآن التي عثرت عليها في الزاوية الخلفية من الجامع، أو ربما عثرتْ عليَّ، لأني أشعر أحيانا أن هذا النص كان يبحث عنّي طوال الأزمنة الفائتة، وانتظرني طويلا قبل أن يعثر عليَّ لأخرجه من غمده الوهمي ومن ظلمات مكان لم يكن له، فغير مساره ومسار حياتي كلها.

كان مسلكي الذي لم أطلبه ولكنه فاجأني بحضوره.

أية يد وضعته هناك ثم انسحبت وظلت تراقبني من بعيد، ولم تغادر مكانها إلا عندما تأكدت من أني أخذته، وأنه أصبح أخيرا بين يديَّ.

3- يَوْمَ عَقَدَ قِرانَه عَلَى النّجُومِ والحُرُوفِ.

كنت ما أزال مشدوها في اتساع المكان وأنوار السكينة فيه. سعدت لحنّا لأن لا مكان يليق بها مثل هذا. لم تكن تعرف ابن عربي، لم تسمع إلا بجروح الحلاج التي وصلتها عن طريق لالة الحضرية، لم تنتبه للسهروردي، ولكنها كانت كل ليلة تنام في حدائقهم الواسعة، وتتجلى في صورهم. شيء فيها كان يشبههم، كانت تعيشه بحواسها ولا تدركه.

من شدة حماقاتي التي لا تنتهي، فكرت في لحظة هاربة أن أفتش رأسها كما تعودت في طفولتي، وأبحث عن الجوز والتمر والكاوكاو والحلوى، ولكني بسرعة عدلت عن الفكرة حتى قبل أن تضغط الأصابع الناعمة على كتفي. ما كان على رأسها كان لباسا خفيفا لا يخفي حتى شعرها الناعم.

حنّا فاطنة لم تسألني، لكني قرأت في عينيها، قبل أن تقوم من جلستها، رغبة كبيرة في المعرفة. كلما التقت عيناي بعينيها شعرت بشيء عميق يطفو إلى الخارج.

قبل أن أبدأ في قص حكايتي مع الكتاب الذي هرب نحوي ليتحول إلى نقطة نور فيّ، وأعتذر لها مرة أخرى، استأذنَتْ كعادتها بحنان فائق. البعد والأبدية لم يغيرا شيئا في حنّا.

- شوي ونرجع لحبيبي حنّوني. حتى أنا مشتاقة أسمعك.
- أنتظرك في مقامك يا حنّا.

غابت بعد أن سمعت صوت المزامير يأتي من الفجوات العديدة في المقام، وبعد أن رأت الشيخ الأكبر يمر بالقرب منها لينبهها بعينيه عن أوان الحضرة. تبعته باستقامة لترافقه إلى عمق المقام. عرفت بهمس غامض من جدي أو من لمسة صاحبة الشعر الأحمر، أنه وقت الحضرة الكبرى وتسامي الروح وانفصالها لتغتسل من جديد بالنور وتعود إلى سكينتها.

بقيت جالسا في مكاني. بفضولي المعهود إذ اشتهيت أن أدخل وراءهما بالخصوص عندما سمعت صوتا يشبه الأنين كان يأتي من الأعماق، ثم الأنفاس وهي تتقطع، كأن الروح وهي تغتسل بالنور كانت تذهب وتجيء في حركة رتيبة كأنها لحظة حب وانتفاء جسدي فيمن نحب مصحوبا بالدفوف، ثم بنقرات الكؤوس على صينية الشاي، كما كانت تفعل العمة الحضرية في عز تسلقها معراج الزهد، عندما تصاب بالرعشة، لا تقاومها حتى تنخطف وتسقط قبل أن تعود لها الروح التي تظل ترفرف فوق رأسها بعد أن تنقى من كل شيء يثقلها وتصبح خفيفة كما كانت تقول لي حنّا فاطنة كلما سألتها عن الحضرة ولماذا الناس يموتون ثم يعودون إلى الحياة.

كان طقس الحضرة النسوية عند لالة الحضرية، غريبا بعض الشيء. في البداية يتجمعن ثم فجأة تدق إحداهن على المهراس، عندما يستقيم في شكل نداءات داخلية تتبعها القانية بالنقر على الصينية بشكل متواتر فتتناغم الدقات حتى تصبح إيقاعا جماعيا مسكونا بالأصداء البعيدة التي تصل إلى بعض النساء قبل غيرهن. فجأة تصاب مجموعة منهن بالرعشة، فيدخلن في حالة قريبة من الجدبة، ثم تتبعهن الأخريات ويغرقن في الحضرة التي كلما قوي النقر غرقن أكثر من اللامرئي الذي لا يرينه إلا هن في لحظات التصافي مع النفس. وبعد لحظات قد تطول وقد تقصر، تبدأن في السقوط الواحدة تلو الأخرى كالفاكهة الناضجة من شجرة عالية، تستقبلهن على الحصائر الممدودة، نساء أخريات ، وهن بين الحياة والموت، في لحظة غيبوبة كليه عن كل ما يحيط بهن. ثم تبدأ النساء المستقبلات في وضع النعناع في الأنوف والعطور الحادة وتمتمات غريبة لا أحفظ منها الكثير، مستعيدات الجزء المؤلم في حياة من يساعدنها على الاستيقاظ: *نوضي ميما. نوضي يا الحنونة. كل شيء راح. ربي يحميك منهم.* تمسح إحداهن على وجه الشابة الجميلة بماء المطر الصباحي المعطر، يقال إنه قريب من ماء الجنة في صفائه أو على الأقل به بعض صفاته. وتواصل ثانية وهي تسعف المرأة التي كانت تردح أمامها كالشاه الذبيحة. *مسكينة ما عندها زهر. من اللي مات أبوها أصيبت به. تجيها الحالة من ذاك. يحبها وما يطلقهاش حتى يشبع منها ويشبّعها من هباله. كي تتوحشو تجي هنا عند لالة الحضرية تروّحْ على نفسها شوية. هو من يأمرها بذلك. يرتادها في الليل وقبل أن*

يطأها، يقول لها توحشتك. تضحك. تغمزه وتتمتم له: ما تسلكنا غير لالة الحضرية. الذين يرونها تتكلم وتغمز وتضحك بأعلى صوتها، يظنونها مجنونة، لكنها تراه وتصفه في أدق التفاصيل. وشيئا فشيئا تستيقظ الشابة وهي صافية العينين، على محياها ابتسامات تزيد من بهائها. تسألها إحداهن مازحة وهي ترى الكدمات الزرقاء على جسدها: *باين بللي صحيح.* تبتسم ثم تغمض عينيها بعد أن يتورد خدّاها، وتتحول بدورها إلى مسعفة للواتي تسقطن وتقوم المسعفات السابقات للحضرة. فهمت من حنّا أنه في الحضرة تسقط كل حدود الخوف والضغائن. كل واحد يلتقي بالذي في قلبه وحواسه. ولا أحد يعرف ما دار بينه وبين من التقى به، إلا إذا أسر هو بالأمر. لا يوجد نظام يسير عليه الكل. المهمّ أن تصفو في الحضرة الروح والجسد وأن يكونا في أعالي صدقهما وانتفائهما ونقائهما.

وأنا في غفوة الانتظار، التي لا أدري إن طالت أم قصرت، سحبتني اليد الناعمة نحو غرفة ضيقة، وشبه مظلمة تشبه التكية. لا نور فيها إلا ما كان يتسرب من الأعالي الموغلة في التسامي. لم أقاوم ولم أطلب حتى نجدة جدي لأني في أعماقي رفضت أن أفصل عن حنّا. ثم إن هذه اليد تكفي لأن تجعلني أستغني عن كل شيء. تقدمت بهدوء مدفوعا بنعومة ثم وقفت بالضبط تحت شلال الضوء القادم من أعالي القبة. بدوت لنفسي بوضوح على الرغم من سواد كل ما كان يحيط بي. ثم سمعت همسها: *اتركني أفعل* حبيبي. ثم بدأت اليد الناعمة في نزع لباسي، قطعة قطعة وكأنها كانت تستمتع بفعل ذلك لأنها استمرت زمنا طويلا، أو على الأقل هكذا بدا لي. تحركت حواسي العميقة بالرغم مني. أحسست بكل شيء ينتفض فيّ. خجلت من ارتباكي المفاجئ. فقدت رأيتني عاريا كليا تحت ضوء كان يكشف كل تفاصيلي. وكأنها أحست بقلقي، همستْ في أذني بنعومتها المعتادة: *لا عليك حبيبي. لا تخجل. جسدك أعرفه جيدا، ما الذي سأكتشفه من جديد؟* ارتبكت قليلا من هذا الكلام ومن هذه التي كلما خطوت خطوة إلى الأمام إلا وشعرت بها تتوغل فيَّ بقوة. ولكنه أراحني كثيرا. استسلمت لها بدون أي جهد، بل بلذة كبيرة غلفتني كليا وكأني كنت داخل سحابة طائرة، فقد شعرت بخفة غريبة لم أعهدها أبدا في نفسي. كنت في عمق النور وكانت هي في عمق الظِّلال. حملتْ منشفة تنضح بالماء وبعطر قشور البرتقال والليمون

والتفاح المجفف، ثم بدأت تمسح على جسدي بهدوء وتتمدد بأصابعها حتى الأماكن الحميمية بلا توقف أبدا. كنت مستسلما لها كطفل بين يدي أمه. حاولت عبثا أن أرى وجهها. في كل وضعياتها المدروسة، كنت أراها ولا أراها. لا ألمس إلا جزءا صغيرا منها وحتى عندما يُخيّل لي أني رأيت وجهها، تغيب كل ملامحها. ألمسها ولا ألمسها. أشعر بها وبعطرها الذي يشبه البنفسج البري، ولكنها تغيب فيّ. أرى ظهرها المستقيم كشجرة صفصاف. أصابع يديها الرقيقة جدا والناعمة التي لا تصلح إلا لعزف البيانو كما أصابع الهولندية كليمونس، مترجمتي التي لاقتني بها صدفة الأقدار في أمستردام وحرّف حضورُها برفتي، جوهر النص الذي كنت أكتبه: *شرفات بحر الشمال،* لتدخل هي فيه بلحمها ودمها وعرقها وعزفها ونعومة قلبها. كانت تعرف هشاشتي. كل ما جن المساء، وعدنا من أمطار المدينة التي قال لي عنها صديقي يوما الكاتب الهولندي الكبير فان تورن: *امستردام مدينة بريئة يا واسيني*. عزفت في صالون النزل القديم المقطوعات التي كانت تملأ قلبي: فصول فيفالدي، الدانوب الأزرق التي كانت تضيّعني، تهاناوز لفاغنر وكارمن بيزيت، فتتركني معلقا في فراغ يشبه قلب عاشق بلا وجهة. في ليلة من الليالي تشجعت وقمت من مكاني ووقفت عند رأسها ومددت يدي نحو أناملها. تأملتها أصبعا أصبعا وأنا أنظر في عينيها الغارقتين في انعكاسات ضوئية كانت تأتي من النافذة المطلة على القنوات المائية التي تخترق وسط المدينة، وهمست: *هل يعقل يا كليمونس أن يمنح الله بعض البشر بهاء استثنائيا كما أنت الآن ويمنعه عن الآخرين؟* كانت لأصابعها لغة بدأت أتعود عليها كل يوم قليلا حتى محت بحضورها العاشق مخطط الرواية التي دخلت بها أمستردام، ومنحتني رواية أخرى كانت من نبضنا المشترك، وتحولت صورة الجزائر في عز اشتعالها إلى ديكور خلفي لحالة عشق جارفة، لا علاقة لها بما كنت قد خططت له من قبل أو جئت من أجله. من اسم *أمطار أمستردام، إلى شرفات بحر الشمال.* لهذا أشعر دائما أنه لا شيء يضاهي قوة الحياة.

كانت صاحبة الشعر الأحمر هي من يحدد الأماكن التي كنت أراها فيها ولا أراها. رأيتها تفرك نبتة لمعت ألوانها البنفسجية تحت كثافة الضوء فخرج منها عطر مسكر. عطر البنفسج ثم طلته على كامل جسدي فأحدث رغوة لذيذة فركتني بها كليا. ثم كبّت

بهدوء على كل أطرافي ماء دافئا كانت حباته الفضية تلمع تحت النور النازل من فوق، ثم سلمتني، كما تحت الشلالات، منشفة ناعمة كأنها من حرير، وخرجت وهي تتمتم عند أذني: *حبيبي. مازال الوقت. لا تتسرع. عندما تنتهي من تنشيف جسدك، البس الخرقة الخضراء وملحقاتها. ولا تنس الشاشية، هي أمامك. اسلك بعدها نفس معبري، وتوقف عند الوسادة الخضراء ولا تجلس حتى يؤذن لك. ربي معك يا قلبي.*

أردت أن أسألها عن جدوى ذلك كله؟ فأنا لم أطلب هذا. كل ما كنت أريده هو أن أعتذر لحنّا فقط. وأخبرها بأني كذبت عليها قليلا فيما يتعلق بالكتاب الذي ظلت طوال حياتها تظنه قرآنا، ولكن المرأة ذات الشعر الأحمر والأصابع الناعمة، كانت قد ذهبت، فلم أر إلا قامتها المديدة وهي ترتسم في وسط ضوء الباب المشرع عن آخره قبل أن تغلقه ولم تترك فيه إلا فجوة صغيرة شكلت مساري وسط ظلمة قاسية لولا اختراق الشلالات الضوئية للمكان الذي كنت فيه، أو فجوة الباب المواربة.

كانت خيطا من النور في عمق النور. في أعماقي التي كانت كحديقة عشب في حضرة ذات الأصابع الناعمة والشعر الأحمر، شكرت الله أنْ وضعني بين يدي ملاكة وليس ملاكا ذكرا، ربما كنتُ نفرت منه أو نفر مني أيضا.

لبست الخرقة الخضراء التي تركتها لي. كانت عبارة عن سروال فضفاض وخرقة خضراء فضفاضة أيضا. وضعت عليها لباسا صوفيا كان موضوعا على الأرضية. كدت أنسى الشاشية الحمراء، فوضعتها على رأسي ورتبت الخيط الأسود الطويل الذي كان ينزل منها مثل الشاشية التونسية. ثم سلكت نفس ممرها المضاء بفجوة الباب الصغيرة.

مشيت باستقامة ولم أتحسس أي شيء في طريقي. نظري كان مثبتا على الباب المواربة والنور المتسرب من فجوتها. عندما خرجت، وجدتني في عمق مكان دائري تملؤه أصداء الدفوف التي لم تكن مزعجة لأنها كانت تأتي من بعيد. وأصوات أنفاس متلاحقة ومتقطعة كما لحظة دخولي التكية، تشبه تماما أصوات الحضرة كما رأيتها وسمعتها وشممتها يوم رافقت حنّا فاطنة عند لالة الحضرية التي كانت سيدة الطريقة القادرية في القرية، نفس التقطعات. نفس الحشرجات المتلاحقة. لكنها كانت في لحظاتها الأخيرة، في حالة خفوت متواتر حتى لا تكاد تُسمع.

سمعت مرة أخرى صوتها الناعم: حبيبي انتظر. قف هنا ولا تبرح.

وقفت متأملا القاعة الواسعة التي كانت انعكاسات الضوء على النوافذ تلون المكان والأوجه بكل ألوان الزجاج والمنافذ الصغيرة التي كان يتسرب منها الضوء الذي يكسر قوته الزجاج المعشق وكأنه زجاج فينيسيا وجزيرة مورانو المدهش والساحر الذي لمسته وشممته يوم زرت المدينة. رجعت يومها مسكونا بعبقرية الإنسان وقدرته العظيمة على تشكيل الزجاج، في كل آنية روح عاشقة وشفافة لا تشبه أختها أبدا. عند الحرفي الواحد نجد تلوينات الروح التي لا حدود لها.

بعد لحظات لا أدري إن طالت كثيرا أم قصرت، فقد غرقت في الأنوار والزجاج العاكس، انفتح الباب الواسع عن آخره كأنه فعل ذلك من تلقاء نفسه، دخلت حنّا. كان الشيخ الأكبر برفقتها. لم يكن طويلا. لم يكن قصيرا أيضا. كان وجهه وضيئا، تعلوه ابتسامة فيها شيء من الذكاء والكثير من الملعنة التي تشبه اليقين. كان كلما تحدث، انزلقت ابتسامته الماكرة قليلا نحو اليسار وفشلت اللحية الكثة في أن تحجبها. لا أدري لماذا كان يفعل ذلك ولكني افترضت أنها عادته.

قالت حنّا فاطنة وهي تضع يد الشيخ في يدي بحنان: *شيخي الجليل، هذا حفيدي الذي عرف كيف يكون وفيا لتاريخ أجداده. هذا ابني الذي لم أنجبه، وحبيبي الذي كبر بين ذراعي. يعرفك ويعرف كتبك. ويعرف عز مقامك. اشتهى أن يراك قبل أن تغيب في غفوتك.* ضحك الشيخ الأكبر. ارتسم على محياه نور هارب لون وجهه بألوان الزجاج المعشق: *هل وجدتَ فيها ما يَصْلح ويُصلح؟* لم أجد لغتي. واصل كأنه يمنحني فرصة بالتفسير: *معك حق. كلها مكابدات ومغاليق تحتاج لمن يخرجها من دوائر الظل والعتمة؟* فجأة انطلق لساني: *مغاليقك، مفاتيحنا يا شيخنا الأكبر.* شعرت بنعومة ما على ظهري منحتني شجاعة أكثر. أصابعها. واصلت:

- أنت لم تقل شيئا ليس فينا. المبشرات أو مناماتك يا سيدي هي دليلك وفق سلطان

الرمز. هي من تدلك بالإشارة الواصلة على المكانة التي تنتظرك في عالم العرفان والتسطير. عالم اللوح والقلم. فيتشبث فؤادك حين يوافق المنام الإلهام. هل تتذكر يا مولاي رؤية بجاية في عام 597 في شهر رمضان؟ يوم رأيتَ أنك عقدتَ زواجك في

المنام على نجوم السماء كلها فما بقي منها نجم. ثم أُعطيتَ حروف الهجاء فتزوجتها جميعا.

- نعم يومها عرضتُ رؤياي هذه على من عرضها على رجل عارف بالرؤيا يُفتحُ له

من بعيد بها. فلما ذكرها له الرؤيا ، استعظمها وقال: صاحب هذه الرؤيا يُفتح له من العلوم العلوية وعلوم الأسرار وخواص الكواكب ما لا يكون فيه أحد من أهل زمانه.

- نعم يا مولاي. كنتَ سيد الإشارة. حتى صديق والدك الفيلسوف الشهير ابن رشد قال

بذلك.

- في رأسي. لما دخلت على ابن رشد، قام من مكانه إليّ محبة وإعظاما. عانقني وقال

لي: نعم. قلت له: نعم. فزاد فرحه بي لفهمي عنه. ثم أني استشعرت بما أفرحه من ذلك، فقلت له: لا. فانقبض وتغير لونه. وشك فيما عنده وقال: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي. هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ قلت له: نعم ولا. وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادّها، والأعناق من أجسادها.

- صمت طويلا يا مولاي قبل أن يرد عليك: الحمد لله الذي أنا في زمانه فيه واحد من

أربابها الفاتحين مغاليق أبوابها. والحمد لله الذي خصني برؤيته.

- منذ رؤيا بجاية تغير كل شيء فيّ. توالت الإشارات التي قادتني نحو الفتوحات.

- اقتربت من بعضها يا سيدي الأكرم.

- أأنت عابر أم مقيم؟ أي القرب تشتهي أن يكون.

ارتبكت. أخرجني من غفوة كتبه. لم أجد هذا لا في الفصوص ولا في الفتوحات؟

لأول مرة رأيت حيرة في عيني حنا، هي التي ظلت طوال المحادثة في غاية زهوها بأن حفيدها أصبح في حضرة الشيخ الأكبر ويقارعه الحجة بالحجة.

- قرب محبة ورضى. قرب مكانة لا مكان. ومع ذلك أسترشد إن كنت قد أخطأت

بكلام سيدي أحمد بن عجينة: الكلمة الصوفية يعرج معناها مع مقامات السالكين. فهناك معنى يفهمه العامة، ربما كنت منهم. ومعنى يرقى إليه الخاصة، ربما كنت منهم. ومعنى لا يناله إلا خاصة الخاصة، فأنا ابحث عنه في مسالكك وإشاراتك.

- ما الذي دعاك إلى الخروج؟
- الذي دعاك إلى طلب الولوج.
- يا من طلب الطريق إليه، ليرث مما كان في يديه، ما تقول في الأفق المبين.
- محلّ كشف المقرّبين.

نظر إلي ببعض الحيرة ثم نفذت من فمه ابتسامة جميلة شعرت وقتها أني ربحت بعض وده. أنا لم أعرف ابن عربي إلاّ من كتبه ومعراجه. ويوم تسلقت جبل النار، كنت معلقا في معراجه. آخر كتاب أغلقت عليه عيني وأنا أستعد للغفوة الطويلة.

اخذ من يدي حنا قطعة القماش التي كانت تحملها. نزع لباسي الصوفي، ثم فتح الخرقة عليّ حتى غطت كامل جسدي. أمرني بالجلوس على الوسادة الخضراء العالية.

كانت عينا حنّا ترقصان فرحا.

- لا أعلم يا مولانا إذا ما كنتُ أو هو ذاك الذي يراني ولا أراه إلا قليلا.
- هو يعرفك بقدرة عرفانك له. لقد تزوجت الأبجدية وأعرف بعض أسرارها، سخية كالماء وحقودة كذئبة. فهي تأتيك إذ تأتيها. وتنفرك إذ تنساها ولو قليلا.
- لغتي فيّ يا سيدي. أقصد نسخة القرآن التي عثرت عليها في الزاوية الخلفية من

الجامع، فسرقتها. أحيانا أسأل ولا أكف عن السؤال. من وضعها هناك. كنت غرا ولا أعني له الشيء الكثير.

- أن تقول سرقة والسرقة في الكتاب وهم. الكتب عندما تمل من المكان الأوحد والأبرد والأكثر عزلة، تهرب نحو غفوتها القلقة. ثم بلا مسبقات، تنزلق تلقائيا نحو أياد أخرى تعرف حنانها وحبها، لا يهم المسلك وطريقة العبور. لهذا الحروف جبارة، ولا تُسرق إلا إذا ارتضت. شجرة الحروف ملك للخليقة لأنها شجرة خروج الأمر الإلهي إلى وجوده وكونه. قل إني أعلم وأسمع وأرى وامض نحو قلبك.

فجأة تذكرت كل كلماته التي محت أمامي معالم الصعب وحولته إلى ريح دافئة طارت بي نحو الأكوان المغلقة، فتحت بعضها بالحروف والبعض الآخر ظل مسيّجا مغلقا كما في الأبدية الأولى: *إني أعلم وأسمع وأرى ، وهو باطنُ الأشجار كلها؛ ومنها شجرة الحروف التي هي شجرة خروج الأمر الإلهي إلى وجوده وكونه ، فهذه الشجرة مستورة بثلاث شجرات: شجرة العلم ، وشجرة العمل ، وشجرة الحال ، فمن كَمُلَ في العلم والعمل والحال ، انقطعت أغصانُ تلك الشجرات عنه ، فصار يُخبِرُ عن وجود أشياءَ كانت معلومَ الله قبل خلقها ، ثم يَنزل من معلومه إلى علمه في الوجود ، فيرى المُخبَر به كما أَخْبَرَ. وهذه سِمَة العارفين الواصلين الذين أرسل الله إليهم من نَفَسِه في نفوسهم ، ووَضَّأَهُم وضوءَ الحياة الحقيقية ، فَعَلِقُوا بالحرية، والحرية فردوس مغروسٌ من سِينِ النفَس وحَاءِ الريح . وحين يَدخل حِسُّ النفَس والريح في نَفْسِ الإنسان ورُوحه، تجد الروحُ بذلك ريحَها، والنفْس نفسَها، فيَميل أحدهما إلى الآخر، لأن الريحَ والنفَس كانتا توأمين . فالله أدرج الوجود بكل مكوناته في شجرة الحروف كما أدرج الخلائق في شجرة آدم، فمن خرج من الشجرة عَلِمَ كيفية الأشجار والأثمارِ، واستخراجِ بعضها من بعض ، وعلِمَ أيضا ظلماتِ عروقِ الأشجار وتفصيلها ، وفهِمَ معنى الخروج الحقيقي من بين الألفات والباءات والتاءات إلى تاء القوة والقدرة والإرادة. في كل شجرة فاكهة ، والفاكهة في شجرة الحروف هي كهفُ الألفات والتاءات ، ففي الألفات بابُ الإعادة، وفي التاءات بابُ البَدء، وفي الباءات بابُ البعث. أما عروقها فهي العِلْم والقدرة والإرادة ، ومن هذه العروق طلع العقل والروح والقلب ، حيث أثمرَ العقلُ سِرَّ القهَّار، وأثمر الروح سِرَّ الواحد، وأثمر القلبُ سِرَّ المُلك. فآدم لمَّا أكَلَ من الشجرة وتاب، أُدرِجَ في حقيقته من حقيقة الشجرة، وظهر فيه البشرُ من الشجر، لكن هذا الظهور تَقَدَّمته الحروفُ.*

وكأنه سمع نداءات القلب. كانت حنّا مكتفية بدهشتها العفوية أمام سلطان هذا الرجل.

- إن الحرف مثل الكتاب الذي سكنك قبل أن تسكنه، حقيقة وقناع، رمز وصورة. يعيش فيك ويلاعبك ويقودك نحو اكتشاف الباطن الخفي. لعبته متوهة نحو تيه النفس، ليس من السهل إدراكُ مراميها، ولا الوقوف على حد لها.

- بهذا المعنى يكون الكتاب هو من عثر عليَّ. أشعر أحيانا أنه كان ينتظرني في مكان

ما. عندما وجدته وفتحته، عرفته فالتصقت برائحته وعطره وصفرة ورقه وأبجديته السخية. بل كان يبحث عنّي طوال الأزمنة الفائتة، وانتظرني طويلا قبل أن يعثر عليَّ لأخرجه من غمده الوهمي ومن ظلمات العزلة. كان مسلكي الذي لم أطلبه ولكنه فاجأني بحضوره. لهذا كلام جدي لدونّا ماريا، كان صادقا إلى أكبر حد. *من يسرق كتابا يصاب بعدواه.*

- في حالة واحدة: إذا سرق الروح.
- سرقها يا سيدي.

عندما استقامت حنّا وسيدي ابن عربي وبدءا في الاستماع، كنت قد دخلت في سحر الحكاية. فطوبى لتلك اليد التي أخرجتني من جنات اليقين ورمت بي في عمق نار السؤال. طوبى للصدفة المصنوعة بيد حكيمة. طوبى لها فقد شكّلت كل صور الأسفار والرحيل. طوبى لها أيضا أنها طوحت بي عميقا في عرش الأبجدية والنجوم مثل شيخي الأكبر ولم تمنحني أي سلاح للحماية سوى نور صغير كان دليلي في الليالي الحالكات. طوبى لتلك اليد السخية التي لم أعرفها أبدا في حياتي وقد لا ألقاها في تيه الخلد، التي منحتني ما لم يمنحه لي أحد أبدا. سلطان الحرف.

نظر إلي بعينين صغيرتين ولكن حادتين. تأملني حتى شعرت به يخترقني إذ شعرت بشيء منه يعبرني. أردت أن أقبل رأسه لكن اليد الناعمة التي كانت قد انسحبت عادت لتجذبني قليلا إلى الوراء وتفهمني بأنّ يدِي تكفي. *لا تشغل نفسك كثيرا. من خلالها يمر كل شيء. الحواس والفرح والخوف والرجاء والحب. لست في حاجة إلى قبلة يهودا الإسخريوطي لتدرك حقد بعض الناس.*

جلسا قبالتي على تكية عالية.

أنا في حضرة شيخي الأكبر، مولانا ابن عربي؟ شعرت بزهو غريب في أعماقي، وبغرابة الأشياء في بساطتها وألفتها وألقها.

قال مرة أخرى:

- اجلس. في الجلوس رحمة، يحرر النفس من أثقال الوقوف.

جلست. صمتٌّ.

صمت معنا المكان نهائيا، أدركت أخيرا أنّه عليّ أن أبدأ.

4- دَهْشَةُ قرآنِ اللّيَالِي

في الحقيقة للصدفة دهشتها ونظامها أيضا.

نسخة القرآن العجيبة تلك، عثرت عليها في رف المكتبة، في خلفية الجامع الصغير الذي يقول العارفون إن عمره تجاوز بقليل الأربعة قرون. بني لحاجة أهل القرية أيام البرد والشتاء، حتى يتمكنوا من أداء صلواتهم في مكان قريب، ولا يضطروا للذهاب بعيدا. بعض شيوخ القرية التي نبتُّ بين بريتها وموجها، يذهبون إلى أبعد من ذلك، ويؤكدون أن الجامع بنته جماعة أندلسية، منهم جدّي الروخو، كان قلبها متشوقا لآذان ظلوا ممنوعين من سماعه زمنا طويلا قبل أن يجبروا على الترحيل وترك أرضهم وذويهم وبلادهم. بدأ بحويطة، تاجمعت، التي يلتقي فيها كبار السن ومحبو الأرض والخير ومصلحو ذات البين، وانتهى الأمر بالجامع، فهو خير من يجمع.

سيدي سعيد، قيّم الجامع ومعلم القرآن الأوحد، يذكرنا دائما، عندما ندخل في فوضى الأطفال:

– يا ذرية الراي التالف، هذا جامع أجدادكم الأندلسيين، ومربط خيولهم. كانوا يأتون إلى هنا. يصلون. يضحكون. يقرأون، ثم يتفرقون نحو شأنهم اليومي. وعندما يكون لدى بعضهم وقت ضاف، يمكثون في زاوية الجامع، يقرأون القرآن وبعض الكتب التي أتوا بها من الأندلس، وخزنوها هنا لكي تحفظ من التلف، حتى يغالبهم النوم، فيصلوا ويعودوا إلى بيوتهم.

كلما سألتني حنّا وأمي عن أحوالي في الجامع: أردّ بحماس، وبلا تردّد:

– انتهيت من حفظ الربع الأول من القرآن الكريم، وزوقت لوحتي العديد من المرات، وبدأت أجلس في الأماكن الخلفية للجامع، وأقرأ في المصحف الكريم.

الأماكن الخلفية كانت تعني أنه أصبح بإمكاني أن آخذ نسخة من النسخ العشرة من القرآن الموضوعة في الركن الخلفي من الجامع، داخل صناديق قديمة متراصة فوق بعضها البعض، في شكل مكتبة. يصر سيدي سعيد أنها صناديق الأجداد التي

حملوها معهم معبأة بالكتب، ولهذا فقد رفض دائما تغييرها. حتى أيام البرد الشديد عندما كان يُنصح بحرقها والتدفؤ بها لأن خشبها صلب ولا يحترق بسرعة، كان يرد:

– لا يمكنني أن أفعل في أجدادنا، ما فعلته ملكة إسبانيا فيهم وفي كتبهم. فقد أحرقت كل مصنفاتهم وأنا أحرق أجسادهم. في هذا الخشب شيء منهم، عرق ظهورهم التي حملتها، جراحات أيديهم التي وضعت بها الكتب، أصداؤهم وخوفهم وهم يرتبونها داخل السفن مخافة أن يفضح أمرهم. تعب أجسادهم وأنينها، وهي تحولها إلى أسرة ينامون عليها في سفن العودة القسرية.

كنت دائما من الأوائل الذين يركضون للحصول على واحدة من النسخ الجديدة وتفادي النسخة البالية، المفصولة الغلاف، التي لا أحد يريدها. نتقاتل للحظات قبل أن يستقيم الأمر بتقاسم النسخ التسعة وبقاء النسخة المفصولة في مكانها بيتم. أسأل الفقيه عندما تعترضني كلمات صعبة، وما أكثرها.

– سيدي... سيدي... ما فهمتش كلمة ألف. لام. ميم. هي نقرأها ملتصقة: ألم.

يرد سيدي سعيد بلا تفكير أحيانا، وهو منهمك في تحفيظ الفاتحة لطفل صغير:

– كِنعرفها، نقولها لك؟ في الوقت الحالي افهم وإلا نردك للّوحة. اللوحة هي مآل من لا يفهم.أغمض عينيك وتخيل ما تشاء، الكلمة ستقودك نحو المعنى المخبأ فيك وليس فيها. احفر في نفسك، أنت تملك مفاتيح السر. سيأتيك المعنى الذي تشاء إذا دخلت الطريق الصحيح. إذا خرجت، ستتوه، وإذا تهت الله لا يردك. والآن حط رأسك واقرأ.

أحط رأسي وأقرأ.

أبذل جهدا كبيرا للفهم ليس خوفا فقط من أن يردني إلى اللوحة، أي مع الأطفال الصغار، ولكن لأن شيئا فيَّ كان يجد لذة كبيرة في ذلك. طبقت طريقة سيدي سعيد، والغريب أني ما زلت إلى اليوم أطبقها، كلما انغلقت سبل المعنى، أغمضت عيني، وتركتني أسرح في داخلي، ليس بعيدا عن الكلمة وليس فيها، فتنفتح أمامي أبواب أمكنة لم أدخلها أبدا في حياتي. فقد كان سيدي سعيد معلمي الأول في التأويل.

كنت متعبا يومها. بي حرارة الحمى. حضرت إلى الجامع حتى لا أغضب حنا التي ظلت تصر عليّ بأن الذهاب إليه مكرمة وشفاء.

لم أركض للحصول على النسخة الأجمل من القرآن الكريم لأني كنت أعرف أن ذرية الرأي التالف تكون قد أخذتها. كانوا كلهم يقرأون ويتغامزون عليّ لأني ظللت جالسا ومخاطي يسيل ولم تنقذني إلا جدتي التي وضعت في جيبي محرمتها الناعمة لكي لا أجرح أنفي، قبل الخروج. سمعتهم يتمتمون: الشح فيه. هو يسبق دائما. هزني عمر الخشن بكتفه وهو يسخر مني:

– واش به لزعر الحمصي؟ ما يعرفش يقرأ؟ ارجع للوحة يا حبيبي.

نظرت إليه بحقد. ثم تمتمت بشفتي فقط مخافة أن يعيدني سيدي سعيد إلى اللوحة:

– الفرخ.

مد عمر رأسه نحوي بأنفاسه الكريهة. ثم طلب مني أن أعيد ما قالته شفتاي فقط. رأيت في عينيه شررا.

- ما قلت والو.
- قلت.
- واش قلت؟
- أنت قلْ

حاولت أن أتفاداه لكنه أصرّ على القبح.

- والله غير ما نخرجُ نقتلك.

ضحكت. ضحكت حقيقي وأنا أراه مدورا. نسميه بابا عجينة.

- تضحك. والله نحي لك السروال.
- شوف يا بابا عجينة، نحيه إذا تقدر. وأنا نحي لك الكيلوط. بصح إذا عندك كيلوط

ههه تفرقع الجميع بالضحك. فجأة أيقظتنا قصبة سيدي سعيد الطويلة، التي نزلت على رؤوسنا لتخرجنا من ملاسناتنا وضحكنا في خلفية الجامع.

التفت نحو الفراغ لكي ينساني وأنساه أيضا. هذه المرة فهم أني كنتُ أقبح منه.

مع ذلك ظل يتشفّى فيّ.

تأملت النسخة الممزقة. كانت شبه مفصولة عن غلافها. عندما سحبتها انفصل الغلاف عن الكتاب نهائيا. كانت كل النسخ بين أيدي من تخطوا مرحلة اللوح بنجاح.

عندما رفعت رأسي، رأيت عمر من جديد. حاقد علي لأني كثيرا ما أسبقه إلى النسخة السوية بثانية واحدة. فأسمعه يغمغم: *أنا حمااااار حقيقي. يدي أطول من يده، فلماذا لم أمدها وآخذها قبل أن يسبقني إليها بكل برودة وغباء؟ لو مددت يدي فقط، كان هو الآن من يضطر لقراءة نسخة بالية ومقطعة التي كانت تشبه وجه ميت.*

الغلاف المنفصل لم يرحني أبدا. أكثر منه النسخة البالية والممزقة الأطراف. أحب الأشياء الجميلة والأنيقة. صديقي كان يرمقني من تحت حاجبيه ويضحك بتلذذ، ويحسسني بأنه انتصر عليَ هذه المرة. قال وهو يستعير حقدا:

– قلها لسيدي وتشوف... سيقول عنك إنك بغل قبرصي، لا تفهم، وسيبعثك مع أصحاب اللوحة.

لم يكن في نيتي فعل ذلك طبعا. كنت قد ابتعدت عن اللوحة والسماق وَوَذَحِ الغنم والحرق وأطراف الصلصال الأبيض منذ مدة.

المهم أني في الأخير أقنعت نفسي بنفسي. قلت: ليكن. القرآن قرآن، ولن يغير في شيء انفصال غلافه من محتواه. مزعج قليلا في قراءته، لكن المهم أن أعرف. أن أقرأ. أن أفرح حنّا.

ثم انكببت على النسخة الرثة.

لا أدري حقيقة ماذا حدث لي. فقد شعرت فجأة بشيء غريب يسكنني ويدخل الرعشة فيّ بعد أن بدأت استرجع سكينتي بعد خيبة الكتاب وشتائم عمر الثقيلة والحاقدة. ارتجفت فرائسي كلها. لم أفهم الشيء الكثير في التحولات الجسدية، لكنني لأول مرة أخاف من اللغة.

فكرت أن أخبر سيدي سعيد بما حدث لي ربما أعطاني طريقة خاصة أمسك بها الكتاب دون أن يدخلني في دوار الدهشة والخوف، ولكني عدلت عن فكرتي مخافة أن يبعثني مع أصحاب اللوحة، كما فعلها مرتين مع عمر الذي يغار مني لسبب لا أعرفه عدا سرعتي في خطف النسخة الجديدة قبله. عندما أعاده سيدي سعيد قلت له أمام الفقيه وعلى مرآه: *لازم تسمع واش يقولك سيدك، هو يفعل هذا لمصلحتك* حتى *تتربى.* وعندما يلتفت سيدي نحو الأطفال الصغار لتحفيظهم، أوشوش في أذنه: *الشح فيك يا بابا عجينة. راح تموت وأنت تغسل الألواح.*

لم تكن النسخة تشبه الأخريات في محتواها مطلقا، ولا حتى في خطها الذي كان أكثر رقة من الخط القرآني. فكرت أن أهجم على عمر للمرة الأخيرة، وأسرق منه نسخته وأضع بين يديه هذه النسخة الرثة، وأشكوه لسيدي قبل أن يشكوني، لكنني خفت مرة أخرى من العقاب الذي لم أكن مستعدا له. وحتى من جثة عمر الضخمة. له طريقة صينية في معركته مع خصمه. يحاول أولا أن يسقطه، ثم يقلبه على بطنه وبعدها يجلس عليه بكل ثقله حتى يعوي المنهزم مثل الكلب ويقول: عوووووو أنا كلبك، ما نعاودش.

فتحت النسخة على موقعين كيفما اتفق، في البداية، في الصفحة 4، وفي الوسط في الصفحة 141. قرأت بسرعة مخافة أن يراني الآخرون الذين ظلوا منكفئين على وجوههم، يقرؤون بصوت عال نسخهم الجديدة:

في البداية:

باسم اله الرحمن الرحيم.

الحمد لله ربي العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه صلاة وسلاما دائمين متلازمين إلى يوم الدين، وبعد، فإن سير الأولين صارت عبرة للآخرين لكي يرى الإنسان العبر التي حصلت لغيره فيعتبر، ويطالع حديث الأمم السالفة وما جرى لهم، فينزجر. فسبحان من جعل حديث الأولين عبرة لقوم آخرين...

ثم تركت بقية الصفحة وقفزت نحو الصفحات الموالية، لا على التعين، في الصفحة 141، التي لم أستطع التوقف من قراءتها كما فعلت في المرة الأولى، إلا عندما سقطت النسخة من يدي:

... فسمعت الجارية أنيس الجليس كلام على نور الدين ابن الوزير وهي من داخل المقصورة فقالت في نفسها: يا ترى ما شأن هذا الصبي الذي قال لي الوزير عنه إنه ما خلا بصبية في الحارة إلا واقعها, والله إني أشتهي أن أنظره، ثم إنها نهضت على قدميها وهي بأثر الحمام وتقدمت جهة باب المقصورة ونظرت إلى على نور الدين، فإذا هو صبي كالبدر في تمامه، فأورثتها النظرة ألف حسرة، ولاحت من الصبي التفاتة إليها فنظرها نظرة أورثته ألف حسرة، ووقع كل منهما في شرك هوى الآخر،

فتقدم الصبي إلى الجاريتين وصاح عليهما فهربتا من بين يديه ووقفتا من بعيد تنظرانه وتنظران ما يفعل وإذا به تقدم إلى باب المقصورة وفتحه ودخل على الجارية وقال لها أنت التي اشتراك أبي فقالت نعم. فعند ذلك تقدم الصبي إليها وكان في حالة سكر وأخذ رجليها في وسطه وهي شبكت يدها في عنقه واستقبلته بتقبيل وشهيق وغنج ، ومص لسانها ومصت لسانه، فأزال بكارتها...

تساءلت وأنا لا أستطيع فهم ما كان يحدث لي: ما دخل علي نور الدين والجارية أنيس الجليس مع القرآن؟ فجأة سقط الكتاب من يدي من جديد. فكرت أن أتركه في مكانه لأني شعرت في لحظة من اللحظات أن هناك يدا قوية كانت تحاول أن تنزعه مني، ويدا بنفس القوة أو أكثر كانت تضعه في يدي، مثلما وضعته أول مرة في مسلكي.

الغريب أن هذه المرة عندما سقط الكتاب من يدي، كان عمر هو من التقطه من الأرض، قبَّله، ثم وضعه بين يدي وهو يردد:

– رقدت؟ أنا أيضا أنام من كثرة القراءة، عندما أكون متعبا. ولكن يجب أن تنام مثل الديك، بنصف عين، وأن لا يتفطن لك سيدي سعيد، لأنه إذا رآك تمرغ القرآن في الأرض، سيعيدك إلى اللوحة مع الأطفال.

– شكرا عمر.

لأول مرة أشعر نحوه بعطف غريب. لا أدري ما الذي غيره نحوي بهذه السرعة.

كان وجهي قد احمر مثل حبة طماطم.

طبعا لم يكن أحد يعرف سر دهشتي وما كان يحدث لي. حمدت الله أن لا أحد تفطن للتغيرات الجسدية التي ألمت بي كليا. لأول مرة أيضا يخيفني النص بشهوته الخفية.

شعرت برابطة قوية مع الكتاب نشأت منذ تلك اللحظة. ربما كانت الصدفة القاتلة، قلت في خاطري. انتابتني أسئلة كثيرة لم أكن أصر على الإجابة عنها: لماذا أنا وليس غيري؟ فجأة دخلت في مخي واستقرت، ليس فقط الصفحة 141 من هذا القرآن فقط، ولكني حفظتها ورأيتها مجسدة أمامي. لم يكن سيدي سعيد في حاجة إلى أن

يدفعني لإغماض عيني للفهم القوي، فقد كنت أفعل ذلك من تلقاء نفسي وأنا أتأمل جرأة الصبي الذي لم أتصوره أكبر من سني.

قلبت النسخة من جديد بعد أن أعادها لي عمر وانهمك في قراءته. كنت أفعل ذلك بسرية كبيرة ولم أفهم من أين كان يأتي سحرها ولا تلك الرغبة الفجائية التي انتابتني لإخراجها من زاوية الجامع، وسرقتها. فقد فهمتها بسهولة كبيرة لأن كلامها لم يكن كالقرآن الذي تعودت عليه منذ أكثر من سنة.

فكرت أن أسال سيدي سعيد ولكني لم أفعل أبدا. عاودت التهجي ومحاولة الفهم. الغريب أني لم أكن أجد أية صعوبة في القراءة. بل إن شهوتي كانت تستيقظ فيّ كلما قرأت النسخة. كلما انتهيت من القراءة، كنت أخبئ نسختي من وراء النسخ الأخرى حتى لا تأخذها يد غيري. وأنتظر بقلق كبير الفجر الموالي لمواصلة القراءة في النسخة.

واصلت تقاتلي على النسخ الجديدة التي أصبحت أنهزم فيها قصدا أمام عمر حتى أني أحزنته ذات مرة، فقال لي: *أول ما أحصل على النسخة الجديدة سأسلمها لك.* قلت له: *لا داعي. تعودت على المقطعة.* كان يجب أن أفعل ذلك حتى أتفادى أية شبهة أو الشكوك والريبة فينقلوا قتالهم نحو نسختي.

فجأة صرت أحلم بها وبما قرأت. ليلا، عندما أستعد للنوم، أرى كل ما فيها يرفرف حول رأسي ويتحول إلى نساء جميلات وعفاريت وحيوانات خرافية وغابات لا حدود لها و ذئاب كثيرة. ولكن هذا كله لم يشفني من حبي لهذه النسخة. كان الكتاب، في عيني، كبيرا والدروس في المدرسة الفرنسية تسرق من وقتي الكثير.

من شدة خوفي عليها، فقد أعطيت لنفسي كل مبررات الدنيا لإخراج النسخة من الجامع:

– من غير المعقول؟ قرآن لا يشبه القرآن؟ مكتوب بخط غير خطه؟ فيه حديث غريب عن الحب والنساء والسلاطين والعفاريت؟ فيه حتى الخرافات التي تشبه ما كانت ترويه لي حنا فاطنة؟ هل يعقل أن يبقى الكتاب في الجامع وهو مكان مقدس؟

أغمضت عيني طويلا وأنا أفكر كيف أخرج النسخة، قبل أن يوقظني سيدي سعيد من غفوتي.

– اسمع يا لزعر الحمصي، يا الشيطان الأحمر، هنا الناس الشطار قادرين على شقائهم، لا ينامون ولا يسهون. يحفظون كلام الله ثم يخرجون.

كان يسميني الشيطان الأحمر لأن شعري كان أحمر قليلا، ووجهي مليء بالنمش الذي يجعلني أقرب إلى الأطفال الأشقياء الذين يختلفون عن الناس العاديين. كان أصدقائي يسمونني Poiles de carottes، ولم تكن التسمية تزعجني.

– نعم سيدي. أنا أقرأ بصح البرد ضربني.

لم يكن سيدي سعيد الطيب يعرف ما كان يدور برأسي الصغيرة، وانأ اقبض على النسخة ذات الغلاف الأحمر المنزوع، بين يدي، حتى أنام عليها.

عندما سألني:

– واش راك تقرا يا لصهب حتى غفوت؟

– عم يتساءلون عن النبأ العظيم...

– حفظت شيئا منها؟

– ما زلت في البداية.

– نحب أسمعك قبل أن تخرج.

عندما انكفأت على النص من جديد، كنت غارقا في قصة *غانم بن أيوب وقوت القلوب.* في الصفحة 172. *وما وقع لها مع حبيبها والخليفة.* تساءلت: ماذا لو قرأ سيدي صفحة هذا القرآن؟

قبل أن أغادر الجامع في ذلك الصباح، انتهيت إلى قرار تحريم بقاء النص في الرف الخلفي لأن به من الأشياء الغريبة ما يجعل إخراجه من هذا المكان أكثر من ضرورة. وجهزت نفسي للإقدام على الفعل.

– *يجب أن يرحل هذا القرآن من هنا. ليس هذا مكانه.*

كنت مقتنعا بما كنت أقوله، وفي الوقت نفسه غير مقتنع بالسبب الجوهري لذلك.

في ذلك الفجر الشتوي البارد، كنت أول من دخل إلى الجامع. صبحت على سيدي سعيد. بعد أن حفظت السورة الصباحية ومحوت لوحتي بالصلصال الأبيض الذي كنت أصنعه من تربة القرية، وسخنتها على النار حتى صارت بيضاء السطح،

وجاهزة للكتابة من جديد في فجر الغد، غافلت سيدي سعيد ووضعت النسخة في صدري واعتذرت منه وقلت له إني متعب بسبب الحمى. و خرجت.

عند الباب أوقفني. لأول مرة يحدث ذلك معي. لم أستطع أن أرفع رأسي مخافة أن يرى كل شيء في عيني. شعرت بالكتاب ثقيلا في صدري. فكرت أن أتركه يسقط على الأرض وأهرب بجلدي. قال لي: واش بك ترتعش يا لصهب كما القصبة؟ ثم تلمس جبهتي. تمتم قائلا: حرارة؟ مازلت إلى اليوم أسمع صوته الذي حررني، وأنا أتخطى عتبة الجامع قبل أن أبول من شدة الرعب:

– اسمع يا ولد أميزار، قل لأمك تدير لك الزعتر وقشور الليمون وقطرة من عسل النحل... عسل النحل الحقاني، مش الفالصو أنتاع السكر.

– سأقول لها يا سيدي.

فجأة صرت خفيفا، وصار الكتاب لا يزن شيئا. أصبح بثقل ريشة.

عندما وصلت إلى البيت كنت محموما بالفعل. قلت لأمي غطيني، أشعر بالبرد في ظهري. ونمت محتضنا قرآني. لم أحلم يومها، ولم أر أي كابوس ولكني كنت داخل غيمة بنفسجية جميلة.

بعد أيام قليلة، خاطت له جدتي حنا فاطنة، كيسا خاصا وهي تقول:

– هذا كلام الله و يجب أن يوضع في مكانه اللائق.

كنت أضع الكتاب داخله كلما انتهيت من القراءة. كانت جدتي حنا فاطنة، حفنة من النور، كلما مرت في باحة البيت، بعصاها وسطل مائها للوضوء، ورأتني أقرأ بلا توقف، ابتسمت من فرط السعادة. لا تخبئ فخرها أمام خالاتي:

– واسيني، وليدي، هو الوحيد من أبنائي الذي تعلم لغة أجداده و قرآنهم، وتعب من أجلهم. سبحان الله، هو وجده الأندلسي، فولة وانقسمت على اثنين. كم اشتهيت أن أقول لها كيف عرفت الشبه بيني وبين جدي والفاصل بيننا وبينه أربعة قرون؟

حنا فاطنة مثلها مثل أمي، مثل بقية أفراد العائلة الكبار سنا، لا يعرفون لا القراءة ولا الكتابة. يعرفون القرآن من غلافه الأحمر ومن ورقه الطيب المائل إلى صفرة ما، ومن رائحته المتأتية من رائحة الورق وحبر المطابع القديمة، وربما من شيء غامض شربوه مع حليب الطفولة.

اكتشفت عندما كبرت قليلا، أن قرآني لم يكن في الحقيقة إلا كتاب ألف ليلة و ليلة، في جزئه الأول، المطبوع *بمكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، بالغورية بالقاهرة،* بأوراق وحروف ورائحة لم تكن بعيدة عن رائحة القرآن، وربما كانت رائحة المكان نفسه.

إلى اليوم مازلت أنقاد نحو رائحة الكتب قبل أن أكتشف عناوينها.

حتى سيدي سعيد كنت أشم فيه رائحة القرآن. عندما كبرت قليلا، اكتشفت أنه لم يكن قرآنا و لكنه كتاب: ألف ليلة و ليلة في جزئه الأول، طبعة بولاق، بأوراق و حروف ورائحة لم تكن بعيدة عن رائحة القرآن، وربما كانت رائحة المكان نفسه. إلى اليوم مازلت أنقاد نحو رائحة الكتب قبل أن أكتشف عناوينها. لا أعرف طبعا اليد التي وضعت هناك هذا الكتاب الذي أحتفظ به إلى اليوم بحب وخوف. ولا أعلم إذا ما كان علي أن أشكرها وأقبل يدها بحرارة أو أرفضها لأن كل ما حدث لي فيما بعد مترتب عن تلك اللحظة التي فتحت فيها خطأ كتاب ألف ليلة وليلة. تلك اللحظة غيرت نظام حياتي وأحاسيسي نحو الأشياء وأدخلتني غمار التجربة وقذفتني داخل عالم لم أكن مهيأ له، إذ كان يمكن في أحسن الظروف أن أتحول إلى فقيه يدرس القرآن في القرية، ومع بعض الحظ، إلى مهرب للكتان والخضر والفواكه، على الحدود المغربية الجزائرية.

أحيانا أتساءل إذا لم يكن القدر نفسه هو الذي صنع ذلك بأن رمى الكتاب في مسلكي بحيث لا يمكنني أن أمر بدون رؤيته والتلذذ بغوايته، فإن كان الشيطان قد أغوى حواء بالتفاحة وأخرجها من الجنة، فقد أغوتني الملائكة بكتاب، التهمته بدون أي تفكير، دفعة واحدة، فوجدتني في صلب الجنة.

لا أعرف اليد السخية التي وضعته هناك، في ذلك الرف الصغير، ولا أعلم إذا ما كان علي أن أشكرها وأقبلها بحرارة، أو أرفضها، ولا أعرف سر الصدفة التي قادتني يومها إلى ذلك الكتاب، لأن كل ما حدث لي فيما بعد منبعه تلك اللحظة التي فتحت فيها خطأ كتاب ألف ليلة وليلة. تلك اللحظة التي قذفت بي داخل عالم لم أكن مهيأ له بالشكل الكافي. وما هو الشكل الكافي؟

اليوم، كلما صفوت إلى نفسي، أقول: طوبى لتلك اليد المرتعشة خوفا واحتسابا، وإيمانا بالحياة، طوبى لتلك اليد الغامضة، فقد وضعتْ في مسلكي أجمل نص قربني من روح الله، منك يا سيدي وشيخي الأعظم، ومن الكتابة ولذتها، وأبعدني عن مهالك اليقين، نص ألف ليلة وليلة. ما زلت أرى فيه صدفتي الأولى، وقدري المذهل، ومتعتي اللذيذة، وشهوتي السرية، ورعشتي الخفية، التي أعادتني إلى تحذيرات جدي الأندلسي الروخو الخطيرة وهو يوجه توبيخا للغجرية ماريا التي عشقته بجنون، وأول ما تعلمت القراءة والكتابة على يديه، سرقت كتابا من مكتبته، لتسكنه إلى الأبد:

- *احذري يا دونا ماريا... إن من يسرق كتابا، يُصاب بعدواه؟*

5- كَائِنٌ، كَمَا شَاءَ لَهُ أَنْ يَكُونَ

الغيمة التي مرت فوق رؤوسنا، هطلت نورا ثم انسحبت بسرعة حتى قبل أن ننتبه لها. أعاد الشيخ الأكبر كلماتي بهدوء وسكينة لم أفهم معناها إلا عندما انسحب نحو بوابات الشمس، باتجاه وادي النور. واد لا شيء فيه إلا السيول اللامعة كالذهب والفضة وهي تنساب قاطعة الجبال البركانية الجافة من أي شيء، والأمكنة الخفية التي لا يراها كل الناس، والتي قالت لي حنّا إني سأراها كما رأتها هي يوما لم تنتظره، ورآها غيرها. لا أعرف كيف؟ ولكنها أصرت أني سأرى يوما وادي النور.

طوبى لتلك اليد المرتعشة خوفا واحتسابا، وإيمانا بالحياة، طوبى لتلك اليد الغامضة، فقد وضعتْ

في مسلكي أجمل نص قربني من روح الله، منك يا سيدي وشيخي الأعظم، ومن الكتابة ولذتها، وأبعدني عن مهالك اليقين. ما زلت أرى في كتاب الصدفة، قدري المذهل، ومتعتي اللذيذة، وشهوتي السرية، ورعشتي الخفية، التي أعادتني إلى تحذيرات جدي الأندلسي الروخو وهو يوجه توبيخا للغجرية دونا ماريا التي عشقته بجنون، وأول ما تعلمت القراءة والكتابة على يديه، سرقت كتابا من مكتبته، لتسكنه: احذري يا دونا ماريا... إن من يسرق كتابا، يُصاب بعدواه؟

- هذا لي يا سيدي الأعظم.

قلت له بلا تردد ولا خوف من غضبه.

- أعرف. لكن ألست أنت أيضا قائل هذه الجملة: *إن من يسرق كتابا يصاب بعدواه؟*

- لا يا سيدي الأعظم. جدي الموريسكي هو من قال بهذا. أكثر من هذا، من يسرق

كتابا، يسكنه. ساندتني حنّا بأن هزت رأسها بالموافقة. لم تنطق بكلمة، لكن حركتها رآها الشيخ الأكبر الذي كان يجلس القرفصاء، يداه مضمومتان إلى صدره كنبي.

- بعض الكتب تسكننا قبل أن نطمئن إليها ونسكنها. لكنك أنت من سرق الكتاب هذه

المرة؟

شعرت بخجل كبير.كلمة *سرقة* وضعتني في دائرة التلاشي والرغبة في الهرب. ترددت قليلا لكن الأصابع الناعمة التي توغلت في عمق شعري بدفئها، والتي ظننت للحظة أنها انسحبت نهائيا، دفعت بي إلى الكلام، بل كأنها كانت تملي عليّ ما يجب قوله وما يجب الاحتفاظ به، بدون تقتير ولا إفراط:

- نعم يا شيخي الأكبر. أنا من سرق الكتاب. ربما كان خطئي الكبير؟
- كل سرقة هي خطأ في حق الآخرين.

زاد خوفي من أن يسحب حنّا من يدها ويخرجا نهائيا ليذهبا حيث استحالة رؤيتهما.

- نعم يا سيدي. لم يكن فعلي طيبا. يدي التي أخذت الكتاب يتّمت صاحبه إلى الأبد. لو

ألتقي به يوما سأعتذر له. أعرف أني حرمته من متعة نص خبأه ليختبر قلبه وحواسه. ربما سرقت سعادته.

- أنت لم تسرق شيئا. الدهشة هي من سرقك. كل شيء كائن كما شاء له أن يكون.

للأقدار سلطانها.

أنت سرقته ممن؟ من لا أحد. من النسيان. فأنت أنقذته من الموت. هل لك أن تقول لي كم بقي اليوم من المصاحف التسعة التي تركتها وراءك؟ أين هي الآن؟ هل تعلم عنها شيئا؟ انطفأت كلها. أنت لم تذهب نحو أي شيء. مصحفك جاء نحوك. أنت لم تسرق إلا الروح من الموت لكي لا يمسها بظله القاسي، وتجعلها تستمر. تستمر في قلبك وحرفك. اليد التي وضعته هناك ليست إلا آلة مسخرة ليد أخرى كانت ستأتي وأتت. يدُك. ألم اقل لك إن كل شي كائن كما شاء له أن يكون؟

كان كلامه متزنا وواضحا عل غير ما هو في كتبه. ربما يكون قد وضع بعض المفاتيح بين يدي لأفهمه. فجأة، شعرت بأن الدم الذي هرب من وجهي بدأ يعود له مخلفا بعض الحرارة في كامل جسدي. لقد عرف كيف يقول بكلامه ما افترضت في أعماقي أن يقوله. أن لا يعتبرني سارقا بائسا وصغيرا. سرقت الكتاب لأن شهيتي للقراءة غلبتني وأصبح الانفصال مستحيلا. ألم يقل هذا هو نفسه في العاشق

والمعشوق، في ديوان *ترجمان الأشواق* وشروحه؟ الذي خصّه للمرأة التي أصيب بها في مكة، *نظام* بنت الشيخ أبي شجاع بن رستم الأصفهاني التي عرفها في مكة سنة 598 هـ عندما قدم إليها لأول مرة قادما من الأندلس .شرح هذا الديوان بنفسه في حلب مختاراً له عنواناً خاصا :*فتح الذخائر والإغلاق في شرح ترجمان الأشواق* .وسبب الشرح، راجع لإنكار بعض الفقهاء بمدينة حلب الأسرار الإلهية المنطوية عليها، وأن الشيخ يتستر لكونه منسوباً إلى الصلاح.

غرقت أكثر وأنا أتأمل عينيه الصغيرتين الحادتين وهو ينظر إليّ بنوع من الغرابة وكأنه عرف ما كان يدور في خلدي .لقد قرأت عنه كثيرا ومع ذلك لم أشعر في أية لحظة من اللحظات أنه عليّ الحذر .قال وهو يشد على صدره بيديه .

- الحب شعلة، تتبدى سرّا قبل أن تتجلى علنا .
- في هذه الحالة، لماذا شرحتَ يا شيخي الأكبر؟ كان عشقك السري *لعين الشمس* قد

أدخلك في الدوار حتى وأنت في مكة، مثقلا بغبار الرحلة وعطر النبوة .ألا يثقل الشرح حبا بخفة الريشة، وثقل الغيمة ونعومة الفراشة وهشاشة اللغة، وملمس فجر العاشقين الأول؟ ألم تخف يا مولاي من أن تقتله إذ تبرره أو تبحث له عن مسالك؟ هل للوجدان لغة تشرحه يا سيدي الأعظم؟

صمت قليلا .كان حائط النور مغلقا في الجهة الغربية .حتى تخيلته أنه سيقوم من مكانه ويتركني غارقا في أسئلتي وحيرتي لكنه لم يفعل .

- واسيني يا ابني .أنت لم تعرف في حياتك فقهاء الظلمة والريبة .أنت عاصرت حراس النوايا وهؤلاء أرحم من فقهاء الظلمة .لا قانون معهم لأنهم هم القانون نفسه، يطول ويقصر بحسب رغباتهم .شرحت *ترجمان العشاق* لأن قتلة الروح يومها لم يتركوا إلا فرصة واحدة هي الشرح لتفادي ظلمة قبر لم أكن مهيأ له .كل شيء بدأ بدار رأيتها ولم يرها غيري .دار فارسية في مكة كان يرتادها جماعة الفضلاء تبدو صورة نورانية متميزة غاية التميز .وكان لصاحب هذه الدار، *الشيخ أبو شجاع بن رستم الأصفهاني* بنت عذراء، طفيلة هيفاء، تقيد النظر، وتزين المحاضر، وتحير المناظر،

تسمى بالنظام وتلقب *بعين الشمس والبهاء*، من العابدات العالمات السايحات الزاهدات، شيخة الجرمين، وتربية البلد الأمين الأعظم بلا مّيْن، ساحرة الطرف، عراقية الظرف، إن أسهبت أتعبت، وإن أوجزت أعجزت، وإن أفصحت أوضحت .ولولا النفوس الضعيفة السريعة الأمراض، السيئة الأغراض، لأخذت في شرح ما أودع الله تعالي في خلقها من الحسن، وفي خلقها الذي هو روضة المزن، شمس بين العلماء، بستان بين الأدباء، حقة مختومة، واسطة عقد منظومة .يتيمة دهرها، كريمة عصرها، سابغة الكرم ...شرحت لأني لم أجد من يضع النسخة واللغة في طريقي مثلك ولكن كان عليّ أن أنحتها من الخوف والريبة وأذهب نحوها وتقبل كل الحرائق التي كان يمكن أن تحولني إلى رماد وتعبث بي أدراج رياح.

لزمتُ الصمت وكأن لساني قد حُزَّ من منبته، إذ لم أجد بما أرد به عليه .كان يتكلم براحة كبيرة ولم أر شيئا مما قرأته عنه من أنه كان سريع الغضب وكلما قستْ الدنيا والناس عليه، انسحب وهو يتمتم *:ديني لستم فيه وليس فيكم .ما فيّ ليس دينكم، وما فيكم ليس ديني .لكم دينكم، ولي ديني .*

- لن أسالك أين تركتَ النسخة؟

- يمكنني أن أجيبك يا سيدي .الأمر بسيط جدا .بعد أن رممت المدرسة القرآنية عندما

أنعم الله عليّ ببعض المال، وأعدت ترميم النسخة وتجليدها بشكل مقارب لتاريخها ولونها القديم، فكرت أن أعيدها إلى مكانها بجانب التسعة نسخ التي اشتريتها من القرآن الكريم .ولكن قيّم المدرسة القرآنية نفسه نصحني بعدم القيام بالحماقة لأن ذلك لن يفيدني في شيء .بل يمكن أن يأتي من يسرق النسخة ويمزقها ويرميها ولا علم له بقصتها ولا بسلطان باطنها .لا تفعل أرجوك .وإذا فعلتَ سأكون أنا من يسرقها هذه المرة .

- كأنه كان يتحدث بلساني .معه حق وكل الحق .أنت في النهاية ثمرة كتاب . والكتاب

عاش فيك ومنك. انتبه إلى هذا جيدا .لقد وُلِدتَ من ماء الحرف وليس من جليد اليقين.

شعرتُ بهزة كبيرة في كل جسدي وحواسي من هذه الكلمة النبيلة والكبيرة .*ولدت من ماء الحرف وليس من جليد اليقين؟* أردت أن أصرخ بأعلى صوتي ولكني تيقنت أني لم أكن في جبل النار ولا مرتفعات تيغراو .لا أحد غيرنا، إلا أنا وحنّا وشيخي الأكبر وهذا النفس الإلهي الذي كان يلف المكان كله ويدثره.

ثم قام من مكانه .اقترب مني قليلا حيث لا مسافة إلا مسافة الضوء الهارب .نزع الفوقية الخضراء من على ظهري ثم أعاد وضعها على كتفي .تمتم في أذني سبع مرات متتالية : *لا تنس أبدا أنك ولدتَ من ماء الحرف وليس من جليد اليقين؟* وضع ملمسه على عيني .لحظات لم أدر كم طالت لم أر فيها إلا نورا مباغتا وقويا جرني نحو مدار غريب لم أكن قادرا على الوقوف فيه ولا على الثبات .عندما فتحت عينيّ كان قد أصبح بعيدا عني .رأيته يسير بخطوات وئيدة نحو شلالات النور التي محت كل التفاصيل، حتى غرق نهائيا في الجهة الغربية من حائط النور باتجاه الوادي السلسبيل الذي كان عليه أن يصله .

اشتهيت فقط أن أقول له عن شيء ظل في قلبي يملؤني أسئلة وحيرة .أن أقول أني عبرت كل المسالك التي قطعها هو في مكة، وأني اقتفيت خطا، وإني لم أذهب للعمرة إلا من أجله في البداية .وأني بحثت عن أنفاسه في مكة ولكني لم أجدها .لم أعثر إلا على بقايا كسورات أخافت قلبي أكثر مما أراحته .لم أجد بيت عين الشمس، النظام الفارسية التي أصيب بها، الذي كم وددت أن أتكئ عليه وأنام قليلا قبل الطواف والسعي. وأني اشتهيت أن أشم عطره وأنا أهرول على الرخام الأبيض كلما لاحت الأنوار الخضراء أثناء السعي بين الصفا والمروة .كنت حزينا أني لم أجده، ولم ألمح ظله السخي .حلمتُ أن أسال عذابات هاجر أيضا وهي تبحث عن قطرة ماء وأنا أرى الماء العذب يخرج من الحنفيات بقوة، ولكنها هي أيضا كانت غائبة .شعرت بها ترتجف من شدة البرد بعد أن طردت خارج المدينة .لم أر وأنا أسعى بين الصفا والمروة بحثا عن ملامس عطشها، إلا رجلا ذا لحية سوداء كثة .تأملني بعينين فارغتين وأمرني بلملمة فوطة الإحرام على ظهري والسير مستقيما وعدم الالتفات أو التوقف طويلا .لكني كنت ممتلئا بشيء آخر، لم يكن أحد غيري يراه ممن كانوا

يعبرون نفس المسالك معي .كان سري الأوحد في سعيي وكان شيخي وهاجر في قلبي فقط .

التفتُّ نحو حنا التي ظلت مشدوهة بدون أن تخسر عيناها فرحتهما السرية.

- حنا ...حنّونة.
- سعيدة أنك عرفت لغة الشيخ الأكبر .ألغازه صعبة ودلائله مستحيلة .لا يعرفه إلا من

يحبه بكل حواسه .أسراره تدخل القلب لكن شرحها صعب .لهذا اختار بوابات النور الغربية التي كثيرا ما يعبرها الشهداء والصديقون .

- حنّا ...كنت أريد فقط أن أقول لك عفوا.
- من ماذا؟ لأنك كذبتَ عليَّ ككل طفل شقي يخاف أن يخسر حب الآخرين له؟ وقلتَ

لي أن ما كنت تقرأه قرآنا وليس كتاب ألف ليلة وليلة؟ لست مهتمة لأن كل شيء كان مسطرا .كان يهمني فقط أن تعرف لغة أجدادك الذين غيّبتهم المنافي والسجون وضيق المعابر .وسعدت أنك زرتها وشيدت بها حقك وحق أجدادك .لا يا ابني .أنت لم ترتكب جرما .أنت سرتَ في خطى ما كان مكتوبا .وحدك عرفت سر الأبجديات القلقة .وكان ما شاء له أن يكون ولستَ أنتَ من جعله يكون .

- لكنه يا جدتي لم يكن قرآنا؟ بل كان كتاب الغواية؟
- ألم يقل لك الشيخ الأكبر إن كل حرف غواية؟ لماذا تكلف نفسك كل هذا العذاب؟

يكفي أنه كان كتابا قادك نحوي .الأعمال الخيرة يا ابني لا تقاس دوما بالأفعال فقط، ولكن أيضا بالنيات . العظيمة والكبيرة والصادقة. كل شي له أوانه، لا يسبق بثانية ولا يلحق بكسورها .حتى وأنا بعيدة عنك، كنت معك .وأصغي لخطواتك وشجنك .الأموات أيضا يسمعون للقلوب الممتلئة بالخير والنور .لا تهتم .لا تهتم واترك كل ما فيك يصاب بندى غيرك .

-       لم أفعل إلا هذا طوال حياتي يا حنّا .لكن فقدانك كان قاسيا عليّ .وتحمله في الغياب

أقسى .ولا أعلم فوق كل هذا، إن كنت غفرتِ لي خطئي؟ تمنيت أن أكون بجانبك واسمع لنداءاتك الأخيرة وأحفظها عن ظهر قلب .وأنحني عند رجليك ساجدا، وأقبّل قدميك اللتين لم تذهبا إلا نحو ما يملأ القلب نورا وخيرا .أقبلهما، وأطلب منك فقط أن لا تؤاخذي طفلا عنيدا أصيب بهستيريا فقدان العادة الجميلة، بكتاب لم يظن يوما أنه سيتحول إلى قدر حقيقي .

-       أنت تعرف أن حنّاك فاطنة، في اللحظة نفسها عرفت آلامك بكت في غفوتها وهي

تراك وأنت تبحث عن أكثر سبل الاعتذار اختصارا .شعرتُ بعزلتك ووحدتك مثل طفل فقد أمّه حتى عندما لامس ثدييها وجد حليبهما مرّا قبل أن يجفّ بين أصابعه المرتعشة .أعرف قسوة العزلة التي لا ينافسها في الخوف إلا الموت .سامحتك من كلّ قلبي وفرحتُ عندما رأيتك تنط نحو رأسي للبحث عن الكاوكاو والحلوى .أما الكتاب يا حبيبي فأنت لم تفعل أكثر مما أمرك قلبك بفعله .لمستَ ما جاء نحو يديك فقط في وقت أن غيرك ظل غير معني بذلك.

لم تتغير حنّا كثيرا . ظلت هي هي سوى أن إشراقها زادها نورا ووهجا، لكنني أمامها كنت دائما أبدو عملاقا. بينما كانت هي حفنة من الضوء .العزلة المرعبة التي كانت تتحدث عنها انتابتني يوم فقدتها .عندما وصلني الخبر في ثانوية ابن زرجب بتلمسان التي كنت كالسجين في نظامها الداخلي الصارم، كانت حنّا قد دفنت في غيابي . عندما سألت أمي لماذا لم تخبرني في الوقت؟ لم تعرف كيف تجيبني سوى بكلمات مرتبكة :*خفت عليك من غيابها* .بعدها عرفت أنه لم يكن لديها ما يسمح لها بالتنقل إلى تلمسان وإخباري والعودة إلى القرية، وأنها ادخرت كل ما تملك لمرافقة حنّا إلى مثواها الأخير، ودفع مراسم دفنها وتحضير عشاء حنا مع نساء الحضرة اللواتي كنّ كثيرات .وكل هذا كان مكلفا *.الحياة في قريتنا يا ابني مكلفة، تقول أمي، والموت مكلف أكثر .كان عليّ أن لا أغبن حنّاك في رحلتها الأخيرة .لقد عاشت في البياض*

واشتهت أن تذهب فيه .حتى كفنها حضرتُه، ودعتْ عمتي الحضرية لتكون مرافقته، وأن ترتل عليها قليلا من القرآن، وترفع وتيرة الحضرة قبل انتقالها من تربة جافة إلى النور العميم .لأول مرة أرى كيف أن الدموع كانت تخط طريقها عبر خطوط وجه أمي .كانت تبكي كبركان خافت ظلّ ساكنا زمنا طويلا .وهي تتمتم :*المهم أن حنّاك ذهبت كما اشتهت ولم يعكر صفو موتها إلا مطر خفيف قال الفقيه إنه علامة خير لأنه نزل في غير وقته .وأضاف أنهم كلما أنزلوها داخل القبر، كان يتسع من تلقاء نفسه .*

لكني بكيت بمرارة .حتى عندما رأيتها في الحلم لم أكن سعيدا .كنت أرى الدجاج وهو يبعثر فلفلها الأحمر الذي قضت أياما في تجفيفه .كانت في غفلة كلية عنه، تنظر بعيدا وكأنها لم تكن معنية بما كان يدور من حولها .كنت أحاول أن أنش الدجاج لكنه غلبني بكثرته، فصرخت :حناااااا عاونيني الله يرضى عليك .حتى أفقت مذعورا من شيء لم يكن حلما، بل كان أقرب إلى الكابوس .عندما رويته لأمي بأدق تفاصيله، قالت تلك حرقتك الصغيرة التي حملتها في قلبك .فقد مسحت كل شيء قبل أن تذهب . ليس الدجاج الكثيف إلا خوفك من أن لا تسامحك .

- أنا أيضا جرحني غيابها .لأني وجدتني فجأة ضائعة بلا رفيق .كانت أمي وصديقتي

وسيدتي وصدري الذي كلما انغلقت سبل الدنيا في وجهي، وجدته أمامي .لا تغضب مني، أنت فقدت جدتك، التي سكنتك بقصصها، وأنا فقدت أمي . هل تعرف يا قلبي ما معنى أن تفقد أما؟ أمّ لا تتكرر أبدا. لا ننعم بها وبوجودها إلا مرة واحدة في العمر.

- كانت حنّا يا ميما .ثم أصبحت أمي عندما غادرتِ البيت نحو العمل، وأصبحتِ أبي .

هزت رأسها وهي تحاول أن تخبئ دمعة ارتسمت على وجهها.

في الليلة نفسها ذبحت ميما أميزار دجاجة سوداء وهي تكرر، لازم نكسر الشر بالخير .لازم نكسر الشر بالخير .لازم نكسر الشر بالخير .من يومها لم أر حنا إلا وهي تضحك .لا أدري أي سحر كان وراء ذلك. على الرغم من كل الأيام والشهور

والسنوات التي غيَّبتها، ما تزال هي هي، بكل بهائها ونورها قبل أن أراها برفقة الشيخ الأكبر الذي يمنحها الكثير من الراحة والمحبة .

- حنّا ...توحشتك .العزلة قاسية .العزلة صعبة يا حنّا .

كرّرتها فقط لتنتبه إليّ من جديد .كانت ما تزال تراقب علامات النور التي انغلقت على سيدي ابن عربي وهو ينطفئ في عمقها وتترقب انفتاح الباب من الجهة الشرقية .

- شيخي الأكبر سيغيب طويلا. كلما سرقه النور، لا يعود إلا بعد زمن طويل. ونحن

تتوزعنا أقدار الغياب كيفما شاءت. شوقه يظل فينا إلى أن يعود .

- قلت لك يا حنّا العزلة قاسية .

- سمعتك .أنا كنت مع أمك .بل أنا من أوصاها بأن تكتم خبر رحيلي عنك أطول مدة ممكنة .قلت لها

واسيني خليه في داخليته، سيكون الخبر قاسيا على قلبه الصغير .أخبريه بعد شهر عندما يبرد كل شيء .كنت أخاف عليك من هذه العزلة القاسية .رأيتك، على الرغم من إرادتك وقوتك، كيف تصبح يتيما بسرعة.

- لكن يا حنا ظللت معلقا على قلبك حتى وأنت غائبة.

- كان أمامك واجب الحياة، وكنت أدعو لك ليلا نهارا أن يمنحك الله القوة التي تقول

بها ما في قلبك من حب ونور، وأن تركض وراء ظلال أجدادك الهاربة .كان عليّ أن أبعدك عن كل ما يؤذيك .الموت أذى كبير يا حبيبي له سلطان الوقت فقط للتخفيف من جبروته .نحن نتمنى دائما أن يظل من نحب أبدا أحياء، لكن نظام الحياة أعطانا البدائل .أن نحفظهم في القلب .في القلب مدافن كثيرة منظمة ومنتظمة .اعتقد أنك وضعتني في المدخل بحيث يراني الجميع وأنا سعيدة بذلك .لم أكن معلمك في الحكاية، كنت قصتك ولغتك التي ركضت وراءها عمرا بكامله .لم يكن الموت قاسيا ولكن لحظة الانفصال النهائي هي الصعبة، أردت أن أدخرها عليك لأخفف من تعبك وحزنك وعزلتك .

- لكن يا حنّا...

واصلت وكأنها لم تسمعني أبدا.

- تلك الليلة كانت أيضا باردة .رأيت في تلك التي سبقتها الشمس تغيب متعبة . رأيت

الغيمات تذبل قبل أن تسقط مطرا شحيحا .رأيت غراب البين ينعق في خلاء موحش . رأيت أناسا يركضون في كل اتجاه يبحثون عن بيت عمتي الحضرية، وعندما لم يشر عليه أي واحد من الحاضرين، قالوا نعرف من يعرفها وأشروا نحو بيتي .دخلوا .كانوا مجموعة صغيرة .يلبسون الأخضر إلا واحدا كان لباسه أسود ولا علامة على وجهه، كأنه كان يبحث بعينيه الفارغتين عني لأنه عندما لمحني متلحفة بالحائط الخلفي، أشّر بأصبعه الرقيق كمخيط ساخن نحوي، فشعرت بحرقة في القلب وقمت مذعورة من نومي .

مثلما روت لي أمي .عندما أحست حنّا بالوهن في ذلك الصباح البارد على غير العادة .حكت لميما أميزار عمّا رأته .خفّفت أمي من الحادثة، وقالت يا يمّا هذه كوابيس نراها جميعا من شدة التعب .لكن حنّا ظلت مصرة على أنها آخر أيامها وأنها تريد أن ترى بناتها مجتمعات للمرة الأخيرة .كان ذلك أول شيء فعلته عندما استيقظت .طلبت من ميما أن لا تذهب إلى العمل .ففعلتْ .عندما سألتْها أمي كثيرا هل تشعر بشيء أو ألم ما، أصرّت على أنه لا شيء لديها سوى ما رأته .قالت :لا شيء يا ابنتي .توحشت بناتي فقط وحابّة أتعشى معهن .أنت تعرفين أنا أقول دائما *إذا بت ما نصبح، وإذا أصبحت ما نبات* .لا أريد أن يخدعني صاحب العيون الفارغة الذي أشر نحوي بأصبعه الحاد والحارق كشهب .كنت أتابع عيني أمي وهي تحكي، وكأنها كانت تروي بعينيها .فرحت أن حنّا على الأقل لم تتعذب وهي تنتقل نحو سمائها الأخرى .

أخذت حنّا يدي وبدأت تتأملها .ثم تنهدت بفرح ارتسم في عينيها.

- لم يبقَ الوقت الكثير .البوابات الشرقية بدأت تنفتح .يااااه يا لزعر الحمصي؟ كم

منحت هذه الأصابع الرقيقة من حياة عاشقة؟ كم رمّلت من صبية هبلت عليك؟ كم كتبت هذه الأصابع من رسائل حب؟ كم سطرت تاريخ أجداد منسيين؟ كم قدمت الخير لمحتاجيه؟ كم صافحت من أياد لم تعرف سرّها .كم لا مست بنعومة وجوه من ينتظرها ...لا أعتقد أن هذه الأصابع التي كلما غلبتها الدنيا التفتت نحو العينين تحكهما ليخرج دمع ساخن يرجعك إلى طفولتك ويبدد غبنك وحيرتك، فعلت سوءا عن قصد ونية مسبقة .كل ما قالته أمك كان صحيحا .

- الموت جرح يا حنّا.

- أنا أيضا تعبت وكنت أريد أن أرتاح .قرأت في الحلم أو الكابوس، لا يهم، شيئا يخصني وحدي وكان عليّ أن أتدبر الأمر .قمت من تعبي فجرا .توضأت وصليت طويلا وطلبت من الله أن يمنحني قليلا من الراحة لحظة تنسحب الروح من الجسد . تفحصت حياتي كلها ورأيت كل الجراحات المتخفية عن النظر، لكني كنت سعيدة أنها ستشفى دفعة واحدة .نزلت نحو الخزانة القديمة، في الدار الغارقة .فتحتها .شممت رائحة الكافور التي لا أحبها ولكني أتحملها، خوفا من أن يتآكل القماش بسبب حشرة التينيا .نفضت كفني وهوّيته كمن يحضر حقيبته .لم يكن في حقيبتي شي مهم .سوى الكفن الذي قرأ عليه الكثير من سادة الحضرة .وقنينة صغيرة من عطر الورد والبرتقال والليمون .ورؤوس صغيرة من عود النوار .القرنفل .أوصيت أن توضع في فمي وفي أنفي .وصرة من النقود تكفي للعشاء الأول وكان على أمك أن تتدبر عشاء الحضرة لأن كل ما كنا نملكه كانت الحياة تأكله في اليوم الموالي .حتى اللويزات التي ادخرتها، خسرتها عليك وعلى أخيك يوم نجحتما وانتقلتما إلى ثانوية تلمسان .كانت بنتي أميزار سعيدة بأن وعدها قد تحقق .وأن الله سمع نداءاتها الخفية ليكون أبوك سعيدا في نومه الأبدي .

- لكن يا حنّا يحدث أن نرى أحلاما كثيرة بدون أن تكون حقيقية.

- لا .هناك أحلام خاصة .رؤى .تخبر صاحبها .وحده المعني بها يعرف لغتها وسرها،

لهذا ظلت أمك تحاول أن تقنعني بأن ما حدث هو مجرد كابوس طارئ ولا داعي لإزعاج خالاتك، لكني لحظتها قسوت عليها .قلت لها :إذا لم تبعثي بمن يأتيني ببناتي

الأخريات سأخرج وأركب تاكسي وأدعوهن بنفسي .فانصاعت لي .وضعتْ فوطتها على رأسها، ثم سارت نحو الباب وهي تردد *.لا شيء يا يمّا .أنت بكل الخير .ما عليهش يجيوا يتعشاوا معنا فقط* .وخرجت .أمك لم تكن تعرف ما كان في أعماقي مطلقا .جاءت بهن. رحمة .عائشة .آمنة .وهي .كنّ أربعة .أحطنني بكل الحب والرعاية وكنّ ينكتن من حين لآخر عن حلمي .لكني كنت قد دخلت الغرفة المظلمة وبدأت أتدرب على الموت لكي يكون سهلا عليّ .وتحلقن حولي .أكلنا أكلا خفيفا كنت أحبه :الشربة بالحليب .عندما تعبت من السهر .تيممت وصليت صلاة العشاء . ثم طلبت أن أنام قليلا .قلت لهن :أتركتكن مع بعض .أنام قليلا .أريد فقط أن أرتاح . انكفأت على الفراش الذي كان بالقرب مني ونمت .غطتني أمك وهي تقول *:لقد نمت كطفل ظل طوال اليوم خائفا حتى أدركته أمه* .لم تكن مخطئة ولكني فقط لم أكن خائفة .كنت أراهن وأسمعهن .حتى عندما هزتني خالتك عائشة ووجدتني بلا حراك، كنت أراها بشكل مبهم وأسمع صوتها متقطعا، وأسمع نشيج الجميع الذي ارتفع فجأة بشكل جماعي .أصعب ما في الموت هو أنك تواجهه وحدك بلا أية رفقة .لهذا كان عليّ أن أتدرب عليه .

- حنّا ...هل تألمتِ؟ هل خفتِ؟

- خفت من الحلم القاسي، أكثر من الموت ذاته .لم أتعب كثيرا .لحظة الشهقة الأخيرة

انطفأ كل شيء من حولي .ثم فجأة رأيت تلالا واسعة وجبالا مخضرة وشمسا معمية للأبصار، خرج من ورائها وجه كنت أعرفه من رائحته والتربة التي ظلت عالقة على وجهه من أثر الحروب والتنقلات الكثيرة .عرفت لحظتها أن سيدي الأعظم، جدك الروخو، كان يناديني .قلت له تعال يا جدي منذ زمن بعيد وأنا مسكونة بك وأنتظرك . لكنه في البداية استعصى .أصررت عليه بقوة .لم يكن مرتاحا .كان عنده نوع من الخوف من شيء غامض .كان ينظر في كل الجهات لدرجة أني خفت منه وعليه . عاودت ندائي على الرغم من الشمس القوية التي كانت قد حولته إلى ظل .أرجوووك يا جدي، إني في بيت خال وأحتاج بقوة ليدك لتسحبني من شكي نحو يقيني .قال شوفي يا فاطنة بنتي .أنا جيت ندّيك لأني شفتك لوحدك .أحببت أن تدخلي برفقتي

إلى جبلي .بيتي واسع ومريح ولا شيء يزعجك فيه .منذ مدة وأنا أحضره فقط لاستقبل الذين أحبهم .وأعرف أنك تحبينني لهذا لم أرد أن أتركك وحيدة في مبهمك .لم أكن قادرة على ترك الجميع .فكرت في حزنك الكبير وشق عليّ أن لا أودعك .كان يفترض أن أطلب حضورك مع بقية أفراد العائلة، لكني لم أفعل خوفا على هشاشتك . لهذا بقيت لحظات لا أدري كم طالت بين الهُنا الذي كنتَ فيها والهُناك الذي لا أعرفه وكنتُ أستعدّ له؟ رأيتك يا واسيني تدخل إلى البيت، وتتخطى كل خالاتك لتراني مسجاة بلا حراك .التصقتَ بي .صرختَ ألما بأعلى صوتك :حنّا أرجوووووك ما تسمعيش لجدّي .جدي بين الأموات .مازلنا نحتاجك .هو مات من قرون .أحجاره تقبضه .أنت هنا يا حنا .ما تروحيش يا حنا أنا أيضا أحتاجك .أنا أسبق .جدي راح يملّ من انتظارك، ويروح بلا بك .خرجتُ عند الباب وأنت ملتصق بي .وجدّك لم يكن بعيدا عني .كان ينتظرني بقلق .كدت أن أقول له روح ما نجيش أبدا، قدري ليس برفقتك .لكني عندما رأيتك قد نمت فجأة، فرحت .وأنا أضعك على الفراش وأغطيك لتخلد للنوم، قال لي جدك :توضئي يا فاطنة الوضوء الأكبر .تعطّري .ألبسي الأبيض وتعالي .كتان مرزاية مليح .أبيض ناصع ومريح للبشرة .ذهبت لزاوية البيت واستحممت بدلو من الماء الدافئ، ولبست لباسي الأبيض وتعطرت وكانت أياد كثيرة تساعدني في ارتداء لباسي الأخير .وخرجت صوب جدك .هذه المرة وجدته ملتصقا بالباب، فاستسلمت له نهائيا .كان طيبا وجميلا وفارسا .وسرنا .ركب حصانه .كان مثل البراق .فقطع الفيافي في السماوات، واخترق الغيوم الثقيلة، وبللتنا الأمطار الدافئة .كنت خفيفة كحلم جميل .إلى أن وصلنا إلى بيته، فقال لي نامي الآن أنت متعبة .نمت طويلا من شدة التعب، قبل أن أستيقظ في درب المسالك الوعرة الذي كان عليّ أن أقطعه وحدي قبل أن ألمس وجه جدك الذي رأيته للمرة الأولى .كنت خائفة عندما انفتحت أمامنا باب واسعة مخلفة نورا وألوانا متداخلة .مر هو بسهولة حتى وصل النهاية، ثم أشّر لي بأن أتبعه وهو يردد كطفل :ما تخافيش يا فاطنة . أغمضي عينيك، وامش فقط ولا تلتفتي وراءك .ستكون الحرارة في البداية قاسية قليلا ولكنها سرعان ما تخف وتتحول إلى برد وسلام، وتحل محلها النعومة المريحة .بعد خطواتي الأولى شعرت بقسوة الحرارة .فكرت أن أرجع على أعقابي، وأبقى في تيه لا

علم لي به .لكن يدا كانت تدفعني إلى الأمام بقليل من الخشونة حتى أوصلتني إلى المنطقة الناعمة والضوء الكثيف، فانفتحت باب أخرى لم يكن من ورائها أي ملموس . كل شيء فيّ أصبح خفيفا، وأصبحت أطير كفراشة .فعرفت أن قلب الله كان رحيما.

عندما انتهت، تمنيت أن أسألها أكثر، لكنها في اللحظة نفسها رأت فيها حائط النور قد انفتح من الجهة الشرقية، مشت نحوه .صرخت بصوت لم يخرج أبدا :*حنّا .مازلتُ هنا .حكايتك لم تنته؟* ركضت وراءها بلا جدوى حتى تعبت إذ ظلت على نفس المسافة على الرغم من سرعتي، وكأن الأرض التي كانت تسير بها إلى الأمام، كانت ترجع بي إلى الوراء .في النهاية وقفت بيأس أتأمل الباب وهي تزيد انفتاحا واتساعا، وحنّا تغيب في الجهة الشرقية، وشيء في قلبي يشتعل بقوة، يحرق داخلي ويحوله إلى رماد .أردت أن أصرخ وراءها ولكني لم أستطع حاولت أن أفتح عيني على وسعهما، لكنها كانت قد تحولت إلى ظل خفيف ثم إلى ذرات متعالية، هاربة، كانت تتناثر في الفضاءات العالية، وكأنها بقايا شعلات بركان كبير، محدثة فراغات مضاءة كالنجوم أو مثل الألعاب النارية، حتى تماهت نهائيا في صلب فجوة باب النور، وكأني كنت في حلم غريب .
شعرت بحرارة في عيني، فقد نزل الدمع مدرارا عندما انغلقت بوابات النور .

رجعت قليلا إلى الوراء .فجأة شعرت بأصابع ناعمة تمسح على وجهي .فتجف الدموع وتخفّ الآلام .شممت بعدها عطر البنفسج بقوة الذي ذكرني بشيء غامض لم ألمسه . ثم سمعت همسا لا أدري إذا ما كان يأتي من أعماقي أم من شفتي المرأة ذات الشعر الأحمر، لأنه هو نفسه الذي سمعته قبل الآن.

- لا تقلق حبيبي .آن لك أن ترتاح قليلا .سر نحو شجرة الخلد .سر ولا تسأل أحدا، لأنه

لا أحد ينتبه لك، ولن يسمعك أحد .اسمع فقط لقلبك، وحده يمكنه أن يكون دليل المسافة .هل تراها؟

التفتُّ قليلا .رأيت شجرة عالية عليها أنوار كثيفة تتسلقها حتى الأعالي التي تغيب بشكل لامتناه.

- هل تراها؟
- نعم أراها.
- أنتظرك هناك .هنااااك يا هبلي.

يا هبلي؟ أية كلمة تأتي عميقة، من خفايا الجنون المؤجل؟

صمتُّ لكي لا أفقدها .ومشيت في خط مستقيم، كما اشتهتني أن أفعل.

السير باستقامة، يعني المشي بلا سؤال.

تكاثرت أسئلتي وحيرتي حتى غرقت في بعضها البعض. عليّ أن أحفظ صمتي قدر المستطاع حتى لا أخسر فرصة الكلام المحتمل.

- أنتظرك هناك. هناااااك يا هبلي.

هبلي؟؟؟ ليكن.

4- القِدّيسَةُ مِينَا

الشّيَاطينُ تُغَيّرُ جِلْدَهَا أيْضاً

1- السَّيْرُ نَحْوَ شَجَرَةِ الخُلْدِ

ما كان يبدو قريبا، لم يكن كذلك. مشيت طويلا في وجهة غير مؤكدة.
وصلتُ إلى مكان غريب بعض الشيء، على شخص مثلي على الأقل. يغلب عليه اللون الترابي الأحمر. كان فارغا من أية حياة. هل أصبت في طريقي نحو شجرة الخلد؟ لم أستطع أن أمنع نفسي من حيرة انتابتني، لم تكن لدي أية وسيلة للتخفيف من شططها وثقلها.
استوقفني فجأة صوت كان يأتي خافتا، اتّضح شيئا فشيئا حتى عرفته على الرغم من أني لم أحدد مصدره .لم يكن ذلك مهما، لهذا لم أشغل رأسي بالتفاصيل القلقة، ولكنه وفّر لي بعض الراحة وقلّل من وحشة المكان.

وَأَنَا رَانِـي مْشِيتْ وَالْهَوْلْ دَّانِـــي
وَالْكَيَّه وَاحْبَابِي مَا سْخَاوْ بِيَّ
بَحْرَ الْغِيوَانْ مَا دْخَلْتُه بَلْعَانِـي

تذكرت جرحا قديما. تساءلت .*ومن دخل بحر الحياة بمحض إرادته يا خويا*؟ الله يرحمك يا العربي باطما[21]، أنت مثل زوليخا، سرقك الموت في وقت مبكر، وكان قلبك ما يزال مشعا بالنور واللغة .آخر مرة رأيتك فيها كان ذلك في معرض باريس للكتاب، كنتَ مريضا ومنهكا من المرض الصامت كقنبلة موقوتة، ووجهك لم يكن به النور الذي عهدته فيه .لم تكن سعيدا .سألتك عن صحتك .ضحكتَ، ثم هززتَ يديك كمن يحتج على شيء، ثم رفعتَ رأسك نحو سماء بدت باردة وجافة، وفقدتَ القدرة عن الكلام إذ رأيت زجاجا يخترق عينيك .كنتُ غبيا بسؤالي .كان عليّ أن أبلع لساني قبل الكلام .كنتُ فقط أريدك أن تتكلم قليلا .*من يكون سعيدا أمام الموت؟* وقعتَ لي

---

[21] واحد من أهمّ أقطاب فرقة *ناس الغيوان* الشعبية، تأسيسا وتأليفا وغناء. ولد بأولاد زيري بمنطقة الشاوية المغربية، في 1949، وتوفي بمرض سرطان الرئة في07-02- 1997. كتب في آخر حياته سيرته في جزئين: الرحيل والألم، ونشرها قبل وفاته بقليل في الرابطة ثم بدار توبقال.

سيرتك: *الرحيل*، وتركتك تواجه السماء بلغتك وصوتك وأسئلتك الجافة التي علقت بحلقك *:لماذا يا الله في عزّ العطاء والعمر؟*

تساءلتُ في أعماقي من دون أن أوقف سيري *:واش جاب ناس الغيوان في هذا الجو المغبر؟* صحيح أني أحببتهم منذ زمن طويل، وكنت أشعر دائما أن فيهم شيئا من رائحة التراب وعرق المساكين وهبل رجال البلاد والصلاّح، والهائمين على وجوههم، ولكن أن أسمع صوت العربي باطما وهو يتضوّر ألما عن رحيل جاء قبل الأوان، فلا أعرف أي حظ وأي سحر و أي سرّ أيضا .لابد أن أكون محظوظا عند الله والملائكة . تمنيت لو كانت حنّا فاطنة هنا لانتعش قلبها أكثر، فهي أيضا تشعر أن في *ناس الغيوان* بعضا من عطر أجدادها عندما يتأهبون للرحيل ولقطع الفيافي بحثا عن رزق لم يكن سهلا .كنت أجلس طويلا برفقتها وأسمعها، الباقي كانت تفهمه بلا أي جهد .

وَأَنَا رَانِـي مْشِيتْ وَالْهَوْلْ دَّانِــي

ابتسمتُ مرة أخرى *.كيف لرجل في كامل عقله أن يمشي تابعا الهول وسحر الأغاني*؟ ولكن بمجرد أن كبرت قليلا، وعرفت سحر مدني الأولى تلمسان، وهران، باريس ووو ...أدركت أن الموسيقى وإيقاعات الروح هي أهم ما يبقى في الإنسان حتى في لحظة تفتته النهائي .أعتقد أن الإنسان في لحظته الأخيرة الفاصلة بين الموت والحياة، لا قوة تسكنه إلا الأصوات التي تسهل عبوره نحو العالم الآخر بلطف، وإلا ستكون النهاية جافة وقاسية .ربما كانت الموسيقى أنبل هذه الأصوات التي تأخذنا على أجنحتها عندما يتوقف كل شيء فينا .

لم أشعر بالتعب الكبير إلا عندما أدركتُ أني مشيتُ طويلا، بلا هوادة .جسدي لم يتعرّق على الرغم من الحر الذي كنت أشعر به يصعد من داخلي .الذي أتعبني أكثر ليست المسافات التي لم يكن بإمكاني تحديدها ولكن شجرة الخلد التي ظلت على نفس المسافة، بل كان ينتابني الإحساس الغريب من حين لآخر، أني كنت أرجع إلى الوراء .قلت في خاطري ربما أن الحالة التي كنت بصددها لم تكن إلا امتحانا لصبري وتحملي لأني لم أجد أي تفسير للحالة التي كنت قد بدأت أغرق فيها .أو ربما لأني تصورت أني بمجرد خروجي من مقام حنّا وسيدي الشيخ الأكبر، سأركض قليلا

وأجدني على حواف شجرة الخلد برفقة ذات الشعر الأحمر التي كانت دليلي في الكثير من اللحظات الصعبة .

شعرت بحالة القفر التي كانت تلف المكان بعد أن انسحبت الإيقاعات وصوت باطما الشجي، نهائيا، وحل محله شيء يشبه نعيق الغربان الذي كان يأتي من أمكنة كثيرة لم أكن قادرا على تحديدها .بحثت عن أي شيء أضعه في أذني لأن الأصوات كانت تتضخم كلما مشيت إلى الأمام .استحضرت اللحظات الأجمل لكي لا تقتلني حالة اليأس التي بدأت تسكنني .كم كان الجو جميلا برفقة جدي أو حنّا أو ذات الشعر الأحمر والأصابع الناعمة .

وأنا في سهوي الذي يشبه حلما هاربا، فجأة وقعت عيناي على حصوتين بيضاوتين وكأنهما نحتتا بالضبط لأذني ومن أجلي .أخذتهما .وفي اللحظة التي هممت فيها أن أضعهما في أذني، رأيت وجه جدي الذي لمع مثل البرق، ثم انطفأ فجأة بدون أن يقول أية كلمة .ظننته غاضبا مني .أردت أن أساله، لكني لم أر شيئا منه .كان قد انطفأ نهائيا .لا أدري من أين جاءتني القوة ولا حتى الفكرة، فطوحت بالحصوتين في عرض السماء لأني شعرت كأنهما كانت السبب في غضب الروخو .صعدت الحصوتان عاليا عاليا مثل رصاصتين، ثم انفجرتا مثل الألعاب النارية .وبدل أن أرى شهبا نارية رأيت دخانا يغلب عليه سواد الرماد والأدخنة .أعقب ذلك زعيق مزقني من الداخل بحدته وجفافه، وأرعبني .

صمت كل شيء من جديد .الغربان على الأقل كانت تشعرني ببعض الحياة .واصلت سيري بصمت وكأن انفجار الحصوتين قتل كل الغربان .كنت أسير، وكلما اشتعلت الأنوار الخضراء في السماء أشعر بشيء يدفعني من الوراء لكي أهرول أكثر وأزيد في سرعتي .تذكرت فجأة السعي بين الصفا والمروة، حيث كان عليّ أن أهرول كلما لمع الضوء الأخضر على رأسي الذي كان يرمز إلى العلم .امتلأ دماغي بالأشياء القديمة التي لم تسرقها رحلة الانتقال إلى هذا العالم .

ثم ينزل من على الصفا إلى المروة ماشيا حتى يصل إلى العمود الأخضر، فإذا وصله أسرع إسراعا شديدا بقدر ما يستطيع، لما جاء عند أحمد وغيره أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال لأصحابه":اسعوا . يعني بين الصفا والمروة . فإن الله كتب

عليكم السعي ."وجاء عند أحمد أيضا وابن ماجه أنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال":لا يقطع الأبطح إلا شدا ". والأبطح هو الوادي ما بين العلمين بين الصفا والمروة . ومعنى شدا أي جريا .وذكر القرطبي رحمه الله سبباً آخر للتسمية فقال في تفسيره:أصل الصفا في اللغة الحجر الأملس وهو جبل بمكة معروف، وكذلك المروة جبل أيضاً ...وذكر الصفا لأن آدم المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقف عليه فسمي به، ووقفت حواء على المروة فسميت باسم المرأة فأنثت لذلك .والله أعلم .ولا شك أن للصفا والمروة أهمية عظيمة في نفوس العرب ومكانة كبيرة في تاريخ المسلمين، بل وفي تاريخ البشرية كلها، فهما من الآثار العظيمة والمشاعر المقدسة، والذكريات التاريخية التي خلدها الإسلام في كتابه العزيز، وفرض على المسلمين السعي بينهما والوقوف عليهما تخليدا لذكرى وقوف آدم وحواء عليهما، كما جاء في بعض الأخبار، وشكراً لنعمة الله تعالى على هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام وعلى البشرية من بعدهما، عندما نبع ماء زمزم لهاجر بعد سعيها سبع مرات بين الصفا والمروة .ففي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً :أن هاجر أم إسماعيل لما تركها إبراهيم بموضع مكة ومعها ابنها إسماعيل وهو رضيع وترك لها جرابا من تمر وسقاء فيه ماء، فلما نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً فهبطت من الصفا وأتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم :فلذلك سعى الناس بينهما .فسمعت صوتا فقالت في نفسها :صه، ثم تسمعت فسمعت أيضاً، فقالت :قد أسمعت إن كان عندك غُوَاثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه حتى ظهر الماء، فشربت وأرضعت ولدها .والله أعلم.

استغربت الحالة بيني وبين نفسي .كيف يهرول الرجال وتمنع النساء من ذلك، بينما الأصل ليس إخافة الأعداء ولكن حيرة أمّنا هاجر وهي في حالة ضياع أمام العطش والخوف والقفر، وهي تركض بحثا عن الماء لكي لا يموت ابنها إسماعيل عطشا بين يديها، بعد أن جف حليبها؟

حاولت أن أفرغ مخي من كل الظنون السابقة والأثقال غير المجدية، وأمشي بلا توقف على الرغم من التعب والتراب الأحمر الذي بدأ يلون ألبستي وجسدي .لأن شجرة الخلد التي ظهرت واضحة لحظة أشّرت إليها صاحبة الشعر الأحمر وبدت قريبة، كانت تغيب في كل مرة أشعر أني اقتربت منها، وحين تظهر لا يظهر إلا جانبها العلوي السامق .

لم أكن أعرف الشيء الكثير عنها إلا ما يعرفه عامة الناس .شجرة سامقة تم فها إغواء سيدنا آدم وأمنا حواء من طرف الشيطان عل الرغم من أن القرآن لم يذكرها أبدا ولكن الشروح هي التي فصلت فيها .ماذا أفعل أمام وضع كان أكبر مني .هي أوامر سيدة الشعر الأحمر وأنامل الملائكة، التي لم تخيب ظنوني فيها حتى اللحظة، بل ظلت ترافقني بحب، فكانت هي صوتي الخفي في ظلمات العالم العلوي وأنواره المعمية للأبصار .لم يكن الرّوخو مخطئا عندما وضعني بين يديها .فقدتُه بعد الرحلة الجبلية، لكني وجدت فيها كل طيبته ومساعدته لتجاوز محنة الانتقال .الآن بدأت الشكوك تنتابني وبدأت أتساءل إذا لم تكن ذات الشعر الأحمر تريد التخلص مني .فضلت في النهاية أن أرمي هذه الظنون ورائي لأنها لم تكن منطقية؟ وأي منطق في عالم يحكمه شيء آخر غير العقل الذي تعودت عليه .تذكرت الآية الكريمة وأنا أمشي متعبا، منكس الرأس، لا أسمع لشيء إلا لقلبي:

"فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ"[22]

في الحقيقة ما كنت أحمله عن شجرة الخلد هو جزء من ثقافتي الشعبية التي ترفع وتنزل الأشياء كما تشتهي وبحسب الوضع .لم يكن مقنعا حتى لي لأن به شيئا ناقصا أو على الأقل هذا ما أحسسته .بدأت أستظهر ما سبق أن عرفته من تفاسير ابن كثير والجلالين والطبري علني أفهم ما أنا ذاهب نحوه .لكني كنت دائما أشعر بأن شيئا ثمينا كان ينقص هذه التفاسير التي أغرقتني في أشياء كان من الصعب عليّ استيعابها . طبعا، لم أكن في موقع العارف، لهذا فضلت الصمت والسير، بأسئلة أقل حتى أتحمل خواء المسافات وضلالها .

---

[22] سورة طه. آية 120.

حاولت أن أمشي من دون أن أرفع رأسي في كل لحظة بحثا عن الشجرة .يبدو أنها ما تزال بعيدة وعلي أن أتحمل صعوبات المكاشفات والأسرار .لأن هذه الطريقة أهون وسأسعد عندما أرفع رأسي وأجدني أمام شجرة مليئة بالألوان مثل شجرة الميلاد .ثم من يقول لي إن هذه الشجرة هي المنتهى؟ أين ذهب شيطان الغواية، إبليس؟ فكرت أن أعود على أعقابي عندما ارتفعت الرياح وغطت كل المسافات ولم يعد شيء يظهر، حتى أعالي الشجرة؟ ولكن لا بوصلة ولا اتجاه .ثم، أين أعود؟ الأمكنة غير ثابتة، تأتي وتنطفئ .قلت في داخلي من الأحسن، على الأقل، أن أعود على أعقابي ربما أكون قد أخطأت المسالك التي كان يفترض أن أتبعها .ولكن أي المسالك التي أعود لها، وقد مسحت الرياح كل آثاري وخطواتي والعلامات السابقة لي .لا أدري لماذا أصبحت فكرة الشيطان تلح عليّ، ربما لأن شجرة الخلد مقرونة بالحب والغواية والغيرة أيضا التي يرفض المفسرون الدخول في أعماقها .أتساءل أحيانا ما الذي دفع بإبليس، وهو الملاك المحبوب والذكي والشجاع، إلى فعل ما فعله .عصيان الله عندما أمره بالسجود لآدم، دمية الطين في ظنه .ليست الرغبة في الشر وحدها هي الدافع .للشر أسبابه .لابد أن يكون إبليس قد أغرم بأمنا حواء التي كانت أول امرأة ابتدعها الله .أي أجمل المخلوقات على الإطلاق .فقد اشتعل داخله عليها ولهذا رتب كل شيء ليتخلص من آدم، فاستعمل سلطان ناره :الغواية .فجأة داهمني درس فقيه القرية، سيدي سعيد، مساءات أيام الجمعة بعد انتهاء صلاة الظهر وفراغ المسجد .مازلت أحفظ درسه الذي التصق بالدماغ لأني أخذت عليه علقة عندما قلت له *:طيب يا سيدي الله عنده السلطة العليا .قال نعم .وهو من خلق الكائنات بما فيها إبليس .قال نعم، لوين حاب توصل يا ولد أميزار .خفت من عينيه ومع ذلك قلت له ما فكرت فيه لحظتها :كان يحرق إبليس الذي أبى واستكبر ويهنينا من زريعته .خاف منه؟* لم أسمع إلا كلمة لعنة الله عليك، وضربة على الفم الذي تجرأ على قول ما لا يجب قوله . أضاف .اسمع هذا وأدخله في رأس الحمصة ديالك *:فوسوس إليه الشيطان" قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى" .وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ولا يقربا هذه الشجرة المعينة في الجنة، فلم يزل بهما إبليس حتى أكلا منها .وقوله : "*فأكلا *منها* فبدت لهما سوآتهما" ، *روي أن الله خلق آدم رجلاً*

طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق، فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتد في الجنة، فناداه الرحمن :يا آدم مني تفر؟ فلما سمع كلام الرحمن قال :يا رب .فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد، أي التي يخلد من يأكل منها، ومُلْك لا يبلى، لا يفنى وهو لازم الخلد. لا ولكن استحياء، أرأيت إن تبت ورجعت أعائدي إلى الجنة؟ قال :نعم .تمتمت في أعماقي، كيف؟ أين كان الشيطان متخفيا؟ في صلب الحية؟ هل غاب على الله تخفيه أم أن الشيطان ليس إلا آلة لجعل الإنسان قويا ويختبر خلقه؟ وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم يا موسى أصطفاك الله عز وجل بكلامه وخط لك بيده يا موسى : أتلومني على أمر قدّره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة فحج آدم موسى ثلاثا .قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة في هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله تعالى له، ولذلك قال آدم : أنت موسى الذي أتاك الله التوراة، وفيها علم كل شيء، فوجدت فيها أن الله قد قدر علي المعصية، وقدر علي التوبة منها، وأسقط بذلك اللوم عني، أفتلومني أنت والله لا يلومني؟

كان ارتباكي كبيرا .لأول مرة أجدني وحيدا في هذا القفر، بعد ضياع وجهتي .جدي بدا لي، مرة أخرى، بعيدا، ولم أشعر له بأي أثر إلى لحظة نويت آخذ الحصوتين اللتين انفجرتا ولم أفهم لماذا .قنبلتان صغيرتان وضعتا في طريقي؟ غريب؟ هل المكان كان مكان تدريبات عسكرية؟ تساءلت بطفولة .ولا حتى جدتي .كلهم انسحبوا . كل واحد صوب عالمه الذي وضع فيه، والذي قد لا يعود منه إلا بعد زمن طويل . بقيت مثبتا في مكاني بعد أن لففت جسدي كله داخل ردائي، مما جعلني أتفادي الغبار لم تكن لدي مرايا ولكنني كنت متأكدا لو رآني أحد المارة العابرين بصدفة الأقدار، سيعتبرني شخصا طوارقيا ضيّع السبيل .كل شيء في عيني كان حيرة وقلقا . توقفت الرياح و نزل الغبار الأحمر، وصفا الجو قليلا، ولكن حلقي ظل جافا ومرملا . رأيت من جديد شجرة الخلد على نفس مسافتها، لكن النور الذي حل بعد العاصفة كان

ينير أعاليها فقط كأنها قطع نحاسية وفضية وذهبية بألوانها الكثيرة .فرحت لشيء واحد وهو أني لم أكن في الاتجاه المعاكس لشجرة الخلد .كانت علامتي الوحيدة للوصول إلى سيدة الشعر الأحمر .

وفي اللحظة التي حاولت فيها أن أسرع أكثر قبل اندلاع عاصفة أخرى ستعمي كل شيء، استوقفني شيء استغربت وجوده في ذلك المكان .كان يلمع من بعيد، فظننته ماء ولكنه كان عبارة عن تفاحة يلمع جلدها الأملس من بعيد .ضحكت من غبائي وتوجسي الدائم .تفاحة كبيرة وجميلة يكاد ماؤها ينفجر،على حجر المروة الأبيض . تلمستها .أحسست بفيض مائها .أغمضت عيني قليلا . بدت لي مدورة كنهدي مينا عندما اكتشفتها للمرة الأولى تحت شجرة اللوز وفي عز المطر .هكذا رأيت التفاحة على الأقل في أول وهلة على الرغم من أنه كان يُفترض أن لا أفكر في هذا .لكن الأمر جاء من تلقاء نفسه .كانت تبدو مهملة، لكن مع الحرارة القاسية كان يُفترض أن تكون قد ذبلت ولكنها قاومت؟ مما جعلني أتصور أن اليد التي وضعتها في طريقي لتنقذني من عطشي، لم تكن بعيدة عن المكان .

تلمست استدارتها ونعومة جلدها .انتابتني شهوة غريبة لها لم أكن قادرا على مقاومتها . في اللحظة التي رفعت رأسي لأقول شكرا يا الله على خيرك وحسن صنيعك .شكرا أيتها الأصابع الناعمة التي لا أحد غيرك يفكر فيّ في هذا القفر، ويضع في مسلكي تفاحة ممتلئة، أخذتني رجفة قوية اصطكت لها أسناني .هل هو العطش أم الخوف المبطن من المبهم؟ انحنيت على التفاحة، وقبل أن ألمسها، رأيت مرتسما على جلدها الأملس وجها غريبا بلا شكل ولا ملامح ولا حتى لون معين .عندما اقتربت أتفرس في ملامحه بجرأة لا أعرف من أين جاءتني، أشاح الوجه أو ما شابهه من الناحية الثانية بحيث لا أرى إلا ظهره .لم ارتح لهذه الحركة ولا لما رأيته .وشعرت بذات الشعر الأحمر بعيدة .زاد عطشي بقوة .تأملت التفاحة في يدي .ثم نفذت الفكرة التي انتابتني لحظتها بلا تأمل ولا تفكير .وضعتها على حجرة المروة الكلسية .فجأة، مع أول خطوة مشيتها، رأيت الحجرة البيضاء تمتص التفاحة وترمي قشورها بعيدا .فجأة زال عطشي وكأني كنت تلك الحجرة وشربت عصير التفاحة. سمعت بعدها زعيقا يشبه تماما الزعيق الأول، ورأيت غبارا ثم صمتا ونورا أكثر .

ضحكت في أعماقي من أن الحادثة كلها لم تكن إلا سرابا، لكنه سراب أزال حقيقة كل ما كان بي من جوع وجفاف في جسدي .لكنني عندما سمعت سخرية جدي للمرة الأولى، شعرتُ ببعض الفرح إذ حسسني بأني لم أكن وحيدا .*جدي؟ ما بك؟* قلت وأنا أكتم ضحكتي أمامه بصعوبة .وهو يحاول أن يكتم سخريته : *نسي شيطانك المسكين أنك آت من الأرض .وفي الأرض شياطين أكثر ملعنة منه آلاف المرات .شيطنته أصبحت متخلفة عما أنتجه البشر من حيل ومقالب .كان يريد أن يغويك ليمحوك نهائيا يا ابني من الوجود حتى الأخروي .لأنه لا حق لك في الأرض مرة أخرى .أنت آت من الأرض .ولا حق لك في العودة لها .وليس مثل جدك آدم الذي غدره بطنه قبل أن يُرمى نحو جحيم الأرض، وظل يركض وورّث ركضه الأبدي لكل ذريته، فقط ليعود إلى تربته الأولى في الأعالي، لكنه لم يستطع حتى أدركه أجله، وتلك قصة أخرى .على كرشه خلى عرشه .واصل طريقك يا ابني لم يبق أمامك الكثير لتصل إلى شجرة الخلد .التفتْ من هنا أفضل حتى لا تضل طريقك* .رأيت بالفعل شجرة الخلد فجأة، سامقة تخترق الفراغات .قال: *هذا مسلكك الأخير يا ابني* .وقفت للحظات أتأمل كلامه وهذه الشجرة التي نبتت فجأة .كنت سعيدا بجدي، لكن الحيرة لم تبرحني .لست أدري لماذا شعرتُ بأن الرجل لم يكن جدي، أو أن جدي الموريسكي الوقور تغير فجأة؟ رأيته مرة واحدة يبتسم عندما رويت له كيف كانت حنا تصوره في حروبه المنتصرة قبل أن يحكّ على رأسي ويقول :حنّا كانت فقط تتكلم بقلبها .ثم هو لا يستعمل كلمة *ابني* .ثم هزني بقوة لا يوجد بها لطف جدي الموريسكي وأنا أسمع إلى الدمدمة القوية التي كانت تحدث تحت رجلي، قبل أن اسمع انفجارا عنيفا .قال *انظر يا ابني إلى هذه البراكين لترى عظمة الخالق كيف يقلبها سافلها على عافلها* .هذه الكلمة بالضبط سمعتها وأنا صغير من جدتي يوم أغضبتها وليس من جدي :*خلاص قلبتها سافلها على عفلها؟ ريّحت دوكا؟* أغمضت عيني .*وتمتمت بخوف :عفوا يا حنا، كنت أحمق .لم أكن أقصد* .فجأة رأيتها تؤشر بأن لا أسمع لأي كان، ولا ألتفت صوب ما يُطلب مني، وأواصل طريقي الذي سلكته مرفقا بقلبي لا غير .قلت لنداءات جدي الذي ظل يلح عليّ ويهز كتفيّ، لألتفت نحو البركان الذي كان يدمدم وتخترق أنفي رائحة الكبريت القوية المنبعثة من جوفه، لأرى عظمة الله وتجلياتها .*انظر يا*

ابني، يا فلذة كبدي .كيف يسوي الله الأرض والجبال؟ ألا تريد أن ترى عظمة خلقه؟
لم ألتفت وتمتمت لجدي وتأكدت أنه سمعني :*لا .هذه الكلمات وُضعت على لسانك، ليست لك يا جدي الأعظم .ألستَ أنت قائل عظمة الخالق فيك؟ تراها قبل أن يدلك غيرك عليها .إني أراها فيّ قوية وجارفة .*
ثم مشيت قاطعا المعابر التي كنت أسلكها .سمعت صوتا ورائي يتبعني ويؤنبني بيأس .*تركب رأسك بغباء وتضيّع فرص التجلي الأعظم أمام الله؟ ماذا خسرت يا المهبول لو التفتّ لعظمة ربك الأعلى؟* ثم سمعت مرة أخرى قهقهة كبيرة دوت أصداؤها في كل مكان قبل أن تتحول إلى زعيق ثم إلى نحيب بلا حدود، اخترق أذني لدرجة الأرنب، كان يشبه صرخة أرنب قبل ذبحها .ابتعدت قليلا بعد أن أسرعت الخطى أكثر من ذي قبل، ثم التفت ورائي .هذه المرة لم أر شجرة الخلد التي بدت قريبة عندما أصر علي جدي بالسير نحوها، ولكني رأيت في مكانها بالضبط، أدخنة تصعد في شكل خيط مستقيم إلى الأعالي، كانت أدخنة بيضاء ثم اسودت وسقطت في شكل رماد كثيف غطّاني كليا .نفضت رأسي ووجهي ثم واصلت هرولتي معتذرا من جدي الذي ظل في قلبي متخفيا من كل ريح أو غبار أو رماد، بطيبته المعهودة ولغته التي لم تتغير، ووقاره وكبريائه .

لأول مرة أشعر بأن المسافة بدأت تقل بيني وبين شجرة الخلد على الرغم من بعدها .
رأيت ناسا عديدين يلبسون السواد مثل القساوسة، يتجهون في خط مستقيم باتجاه الشجرة .بعضهم يجري والبعض الآخر يهرول، بينما الأغلبية كانت تسير بخطوات قصيرة، متأنية ومقاسة بالمليمتر .لم أستطع الاختلاط بهم لأن المسافة بين الشخص والشخص لم تكن تسمح لي بالمرور .عندما وصلوا إلى البئر، تحوطوا به وبدأوا يشربون واحدا واحدا .كان العطش قد عاد لي بقوة .رؤية الماء وحدها، أيقظته فيّ أكثر .انتظرت حتى ينتهوا وأمر إلى البئر لأشرب لكي لا أزعج أحدا .ثم ساروا في خطهم المستقيم .فجأة خلا المكان من أي إنسان، ولم يبق إلا البئر والساقي الذي كان يلبس نفس لباسهم .لم ينتبه لأنه ظل منكفئا على الدلو الذي كان يسحب به الماء من البئر .نحنحت لكي أشعره بوجودي ولا يتفاجأ .لم يلتفت ولكنه قال :عابر سبيل .أجبت

بارتباك :يعني .لأني لم أكن أعرف وضعي حقيقة .أضاف :لشجرة الخلد مثل بقية الحجاج؟ قلت وأنا أنتظر أن يرفع وجهه نحوي على الأقل لتحيته، لأني شعرت بشيء من قلة الأدب مني إن لم أحيّه كما يجب .تحركت نحو الجهة المقابلة لأرى وجهه وأشكره .أخرج الرجل دلوا من الماء، عندما لمسته كان باردا لكن الرجل لم يرفع وجهه صوبي إلا قليلا لأنه كان مغطى بالقلمونة .صبّ لي الماء في إناء فخاري .كان قلبي يرتجف من شدة العطش وزادت لهفتي .وما كدت أقرب كأس الفخار إلى فمي حتى طنت عند رأسي جرادة حمراء وصفراء مثل التربة، لتسقط في عمق الكأس .فأبعدته عن فمي قبل أن أشرب .سمعت صوت الرجل :اشرب .اشرب .الجرادة حشرة نظيفة وغير مؤذية .لكن عيني الجرادة وهي تتخبط في الماء وتنظر إليّ باستعطاف، دفعني إلى التوقف على حافة البئر، ونزعها ورميها في الهواء وتركها تطير وهي في قمة سعادتها .تتبعتها حتى غابت .رميت الماء وتقدمت من الساقي ليملأ لي الإناء الفخاري للمرة الثانية وهو يسخر مني :*رجل بشلاغمه، تخيفه جرادة،هذه أراها للمرة الأولى .*

- لو كنت مكانك لأطفأت عطشي قبل التفكير في أي شيء .أنت هنا في مكان مخلوقات

لله فيه غير مؤذية وللكل الحق في الحياة والعيش .ولا يوجد أمامك أي بئر.

- أعرف يا سيدي .الجرادة حشرة طيبة .وأكلت منها في عام الجوع .لكني تربيت هكذا

ويبدو أنني سأحتاج إلى وقت طويل لأتمكن من نسيان هذه العادات.

- عندك حظ كبير أني لا أمل من خدمة الناس وإلا لتعذبتْ هذه الجحافل التي تعبر نحو

شجرة الخلد تتفيا بظلها، وتطوف حولها وتطلب الغفران لذنب ارتكبه آدم وحواء ولم يرتكبوه .

- ربي يحفظ لك هذه الخدمة في ميزان الحسنات.
- متجه أنت أيضا نحو شجرة الخلد.
- قلت لك .نعم .

كان قد ملأ دلوا جديدا من الماء ثم ملأ لي الإناء الفخاري من جديد .باللمس فقط، كان باردا أكثر من الأول وصافيا كأنه خرج من عين جبلية .

- اشرب وترحم عليّ .*محل ما يسري يمري .*
- سلمت يا سيدي .أنت في دار البقاء لستَ في حاجة إلى رحمتي .

وأنا أدور لأجلس على حافة البئر واستمتع بشرب الماء للحظات قبل مواصلة السير، تعثرت لا أدري كيف، فانزلق الإناء الفخاري من يدي، ليتحول إلى مئات القطع الصغيرة التي لا يمكن تجبيرها .لم أجد أمامي إلا الاعتذار من الرجل الطيب الذي وضع تحت تصرفي الدلو بكامله .شعرت بأن يديه كانتا مشغولتين كليا، واحدة بالحبل والثانية بالدلو النحاسي .رحت تلقائيا أساعده برفع القلمونة التي غطت كليا وجهه حتى أصبح يسير بصعوبة وهو يتجه نحو مكاني .خفت عليه من انزلاق قد يرميه مباشرة في عمق البئر .في اللحظة التي رفعت فيها الغطاء الذي أخفى وجهه كليا، صعد خيط متعرج من الدخان عاليا، عاليا كالسهم .بدأ في شكل عمود ناري، وانتهى في سرعة برقية إلى دخان .سمعت نفس الزعيق .لم أر شيئا إلا اللباس الأسود مكوما وفارغا من أي شيء.

طلبت لحظتها من جدي أن يفهمني ما كان يحدث وكأنه لا شأن له إلا خدمتي، لكنه لم يرد عليّ فعرفتُ بسرعة أنه عليّ أن أتحمل كل شيء وحدي .خياراتي كانت قليلة . عندما التفت لأواصل سيري، في الخطوة الأولى، شعرت بيد خفيفة تسحبني إلى الوراء .تذكرت المرأة ذات الأنامل السخية .فرحت في أعماقي .عندما التفت، واجهتني طفلة صغيرة لا أدري من أين جاءت؟ ولا كيف جاءت؟ لكنني قلت في خاطري ربما رسالة من جدي الذي كلما طلبته لم يبخل عليّ .قدمت لي ماء في كأس من بلور لمع طويلا تحت الضوء الذي بدأ ينتشر في كل مكان .في عينيها إشراق حاد ذكرني بشي قديم فيّ، لم أعرفه رغم أني حاولت أن أضغط على مخي .رفعت يديها بالكأس عاليا، نحوي .أردت أن آخذه منها وأشرب، لكنها هزت رأسها .فعرفت أنه عليّ أن أنحني وأقرّب فمي من الكأس وهي من يشرّبني .انحنيت قليلا وأنا أكتم ابتسامتي وسعادتي من هدية جدي بصعوبة .قلت .*سبحان الله كلما انقطعت سبل انفتحت سبل أخرى* .فجأة هبت رياح رملية قوية أغرقتني في دوامة .حتى وجه الطفلة غاب ويديها .

عندما فتحت عيني لم أجد شيئا .لا أثر للبنت الصغيرة، ولا للكأس، ولا حتى للبئر . أدركت في أعماقي أن كل العواصف كانت ربما تدور في داخلي بسبب التعب والشطط والخوف من المبهم .فأخذتني الحيرة .قلت من الأفضل أن أتوقف وأحدد اتجاهاتي، لكن آخر مجموعة من المتوجهين لشجرة الخلد شجعتني أن أركض وراءهم . فجريت حتى لحقت بآخرهم .لكي لم أختلط معهم .ظللت أتبعهم من بعيد قليلا، عين عليهم، والعين الثانية على الشجرة التي برزت أعاليها بشكل واضح.

لأول مرة منذ أن بدأت هذه الرحلة، شعرت بالراحة .

هب نسيم بحري خفيف حسسني بأني كنت قريبا من شجرة الخلد أو من ساحل ما . توحّشت البحر .فجأة بدأ المطر بسقط، فغطت سيوله على كل شيء .لكن الأرض كانت تمتص الماء بسهولة فلم تتكون إلا برك صغيرة .لم تكن الأمطار عاصفة على الرغم من قوتها .كانت تسيل بسرعة لكنها كانت رقيقة وناعمة .شعرت باستكانة ولذة كبيرة .تذكرتُ طفولتي، وحتى مراهقتي الأولى، يوم خرجت مع مينا المذعورة حتى من أخيها التي ظلت علي يقين أنه هو من سيقتلها دون غيره، وتخفينا تحت شجر اللوز لأسرق منها أول قبلة أحسست بطعمها .كانت بين السكر والملح .البرتقال والليمون . أحسست كم أن شيئا يشبه عالما جديدا كان يولد بين يديّ .تجربتها كانت أقوى مني، لكني أعتقد أو كنت على الأقل أريد أن أعتقد، أنها أجمل قبلة في حياتها .عندما بدأ المطر يسقط ناعما،غرقنا في الأناشيد التي كنا نغنيها ونحن نركض تحت المطر .

يا النو صبي، صبي

ما تصببيش عليّ

حتى يجي خويا حمّو

ويغطيني بالزبية.

قبلة .قبلتان .قبلات بلا حساب، مضمخة بمياه المطر .بدأت أتتبع مسار قطرات الماء وهي تسكن جسدها .هذه القطرات مست العينين أمسحهما بشفتي .وهذه الخدين . لم أكن أعلم أن سحر القبل وصل إلى هذا الحد الذي جنّني .فجأة تكونت ما بين

نهديها قطرات تجمعت وتحولت إلى مجرى صغير .نظرت إلى عينيها .ضحكت . لمعت أسنانها تحت حبات المطر .فتحت صدرها .عبرته .ثم النهدان .رأس الحلمتين . لم أعرف كيف تمادينا إلى الأقاصي تحت المطر وتحت شجرة اللوز .يومها سمعت لأول مرة كلمة شجرة الخلد من فم مينا وهي تنظر إلى أوراق اللوز وهي تتساقط علينا . يومها اكتشفت ليس فقط سحر القبلة للمرة الأولى في حياتي، ولكن خفايا مينا التي سكنتني بقوة .عندما فتحنا أعيننا من وراء نوار اللوز رأينا إشراقة أشعة قوية وغير معتادة .غمغمتْ مينا لأول مرة بكل تلك الراحة وذلك الأمان الغريب، وهي تتوسد ذراعي ومعطفي الذي غطيتها به:

- يااااااه يا سينو .المطر والشمس .عرس الذيب .

ثم نامت .لأول مرة أرى في عيني مينا المغمضتين، سكينة لم أعهدها فيها .وتركتها ساعات حتى استيقظت على عطستي الأولى، فوضعتْ على ظهري معطفي الذي كانت تتغطى به وانحدرنا نحو المدينة .أنا نحو ثانويتي، وهي نحو بيتها في عمق المدينة القديمة، ليس بعيدا عن القيصرية، مكان بيع الذهب والمنتجات الشعبية .

لم أتوقف عن سيري على الرغم من قوة الأمطار التي شكلت مثل الستار الحاجب . فتحت فمي وتركتني أشرب المطر مصحوبا بقبل مينا التي ملأتني فجأة .ثم بدأت أركض، في قمة سعادتي .كانت الأمطار حلوة المذاق .لا أدري ما الذي ذكرني بأول مرة عندما شربت نبيذا في سينترا البار الإسباني في وهران .لكن الأمر لم يكن مهما، مينا غطت على كل شيء .

من وراء ستائر المطر الناعم، تراءت لي ألوان وأنوار لا حصر لها .وبدت شجرة الخلد العالية التي نهضت أمامي فجأة، تحتل وسط الحديقة الواسعة، تنعكس عليها شتى الأنوار والألوان والطيور والفراشات .كل شيء كان بمذاق المطر الأخير .

مكثت لحظات طويلة فاغرا فمي في عظمة الشجرة التي تضرب جذورها عميقا في التربة ونهاياتها الشاهقة بلا حدود .

تأملتها .ثم مشيت نحوها، لا شيء يدفعني إلا قلبي.

2- غَفْوَةُ حَمَّامِ الوَرْدَةِ

تنفست طويلا كمن يخرج من محنة لم يأمن شرها إلا بسلسلة من الصدف.

توقف المطر الناعم والدافئ الذي شكل، في لحظة من اللحظات، ستائر ملونة غطتني أنا ومينا التي ملأت قلبي .انسحبت مينا مع القبلة الأخيرة التي أدخلتني في دوار لم أتعود عليه .عندما أردت في اللحظات الأخيرة أن أستعيدها، غامت وتحولت إلى ظل تماهى مع ظلال الفراغ، وظلّ الشجرة الضخمة التي كنت أقف تحتها كحجرة ثبّتتها التيارات الجارفة في حفرة .

انتبهت فجأة إلى أنني كنت في حالة يرثى لها .لباس ممزق في أطرافه التحتية مثل درويش هارب من خوف مبهم .الرداء العلوي الذي شع بين يدي حنا وشيخي الأكبر، علاه نوع من الغبار الأحمر، سرعان ما تحول إلى رقائق من الطين جعلتها الأمطار مثل الأوراق اللاصقة .حتى وجهي وأعضائي المكشوفة لم تسلم من ذلك .بدوت لنفسي كأني رجل من طين أخفق نحات متوسط الموهبة في إتمامه .تمنيت فقط أن أجد بعض الماء لأغسل وجهي على الأقل، فالأمطار المتدفقة كانت قد أزالت العطش والخوف أيضا .في الحقيقة، فكرة غسل وجهي راودتني كثيرا عندما وقفت بمحاذاة البئر والساقي، لكن العطش سبقني، ثم إني استحيت كيف أطلب غسل وجهي في مكان مقفر يحتاج فيه الناس إلى قطرة ماء لبلّ أفواههم وريقهم .أخذت الأمر في النهاية بلا تعقيد، كما تبدى لي منذ اللحظة الأولى، لأن هناك أقدارا لا سلطان لنا عليها .الأمور هنا تسير كما يراد لها أن تسير، فلا حضور للعقل إلا عند الحاجة الماسة .وعندما أخفق في كل شيء، أستنجد بسادة الأمكنة، رجال البلاد، فهم أعرف مني بالحال . ربما سكن في عمقي، منذ أن وصلت إلى هنا، درويش طيب أصبح هو دليلي في حالات اليأس القصوى.

الشمس هنا لا تغيب ولا تظهر .مساحة من النور، أحيانا تصبح داكنة وفي أحيان أخرى لماعة لدرجة العمى بحيث لا يستطيع الإنسان أن يرى شيئا من ورائها من شدة الأشعة المنكسرة على الأسطح الملساء، بما في ذلك هذه الشجرة الثقيلة التي بدت وكأنها ميتة أو تموت بصمت .استغفرت الله وتمتمت في أعماقي *:أستغفر الله .كيف*

لشجرة الخلد أن تموت وهي مقدسة وخالدة . لكن أين العابرون الذين قصدوها قبلي؟ ماذا حدث لهم؟ لم أر ولا واحدا منهم وكأنهم انطفأوا بشكل فجائي .

درت حول الشجرة طويلا علني أرى من أعرفه أو يعرفني، لكني لم أعثر على أية علامة تدلني على مسلك أو على بشر أو طير، مع أن طريقي كان زاخرا بالهزات التي لم تترك لي فرصة الاستراحة أو النوم .حتى الأرواح الشريرة أو الخيرة لم أجد لها أي أثر تحت شجرة الخلد .

حاولت أن أبتعد قليلا وأفتش بين الصخور عن أية روح حية، أو أي شيء يدلني عن سر هذا الجفاف الفجائي، لكني لم أر شيئا .عندما ابتعدت قليلا وجلست على الصخرة البركانية وبدأت أتأمل الصمت المحيط بي، شعرت بسكينة لذيذة، وبشيء غريب، بأن العالم الذي كان يلفني كان مليئا بالهدير .أقنعت نفسي بضرورة الانتظار .صاحبة الشعر الأحمر قالت ذلك، فلا بد أن تأتي.

- *أنتظرك هناك .أنتظرك هناك يا هبلي.*

حتى عندما رفعت رأسي وأنا تحت الشجرة، لم أر شيئا على الرغم من أني رأيت، وأنا أقاوم العواصف والدهشة والخوف للوصول إلى شجرة الخلد، ألوانا وأنوارا، لا حصر لها .كانت تتشكّل لدرجة صعُبَ عليَّ عدّها، قبل أن يتبدد كل شيء فجأة وتبدو الشجرة مثل هيكل عظمي خشن وثقيل جدا، بجذور ضخمة ضاربة في العمق، مخترقة أديم الأرض بعنف كبير .لم أصدق أن يكون هذا الهيكل الشجري الأسطوري الجاف في الكثير من جوانبه،هو الفضاء الذي شهد ميلاد قصة آدم وحواء ولعبة الغواية، بين آدم وحواء، ثم بين الشيطان وحواء ثم بين حواء وآدم .ثم بين الثلاثة والله، إذ انتهت الاختراقات بطرد شنيع لآدم وحواء من الفردوس وحرمانهما من الخلود .هززت رأسي بحيرة، فبدا لي ثقيلا هو أيضا .لابد أن يكون قد حصل خطأ ما، في تصوراتي القلقة .ربما ما افترضته شجرة الخلد، ليس إلا وهما شبيها. لا يوجد دليل واحد يؤكد لي أني وصلت إلى النقطة التي أشرت لها صاحبة الشعر الأحمر . استغربت كيف يحج مئات الملثمين الملفوفين في السواد إلى الشجرة المباركة ولا يوجد حتى نفس صغير منهم؟ بدت لي الشجرة باردة وتكاد تكون ميتة؟ شيء ما كان يتحرك على العكس من كل توتراتي الداخلية .

كنت أسمع هديرا تتوالى أصواته الجافة، فيبدو كأمواج بحرية بعيدة، أو سرب من الطيور المهاجرة التي تعبر سماءات المدن النائمة، فتغطيها. ربما كانت حركة الجراد الأعمى الذي يأتي من بعيد، فيأكل الأخضر واليابس، ويأتي على ما تبقى من شجرة الخلد التي أصبحت الآن كجسد جاف .لم تكن بها أية حياة .مجرد تمثال ميت شاهد على قصة أزلية جرت في السماوات العالية، على مرأى من الله وآدم وحواء والشيطان وفكرة الخلود التي سرقت من الإنسان واحتفظ بها الشيطان وحده في النهاية . ربما كان في ذلك حكمة لم أكن قادرا على استيعابها .بدت لي أغصان الشجرة المترامية والمتصلبة، والجذع المتسامق نحو السماء والجذور المتوغلة في التربة، تمثالا أسطوريا نحتته قوة الرياح والعواصف والأساطير القديمة .فجأة لمع في مخيلتي المتعبة والتي تسطحت فجأة ونشفت من أي نسغ، تمثال سيدة الرخام في مدينة لالة مغنية، أو *الموليما* كما يسميه جميع السكان .لأول مرة ينتابني الحنين إلى شيء لن أراه ثانية إلا بذاكرتي المتعبة .لقد تركت كل شيء ورائي إلا الذاكرة، فقد تبعتني بكل أثقالها وشجنها وأسرارها .

لالة مغنية ...مدينة القلب الأولى .يسميها عشاقها *لاَلَّة*، تبركا بالولية الصالحة التي تحمل نفس الاسم .

لم تكن مدينة لالة مغنية جميلة، ولكنها كانت كافية لإدهاش طفولتي الأولى .كلما زرتها مع أمي، سكنني نشاط غريب وكأنني ذاهب في رحلة الفرح البعيدة .فقد ارتبطت هذه المدينة في ذاكرتي برائحتين :رائحة مازوت السيارات التي تلتصق كذباب الصيف، بجيوب الأنف، ورائحة الحمامات التي كانت تثير شهيتي، فتوقظ أسرار حواسي الدفينة .بل كنت أجد لذة كبيرة في إيقاظ *دودتي* من غفوتها .وأيضا مجموعة مَعالَم تميزها عن قريتي : *الكنيسة* الجميلة التي تقوم شامخة في عزلتها، وسط أهم شارع في المدينة، *شارع الحرية أو كليمونصو عند الكبار*، وتمثال *سيدة الرخام أو الموليما*، الذي تنزلق الشمس على سطحه كل صباح، مثل الماء الدافئ، وحمّام ***النوارة*** الذي لا شيء فيه إلا عرق الرجال العابرين الذين يستحمون أو يقضون الليل فيه،

وحمام ***الوردة*** الذي تؤمه النساء بالخصوص .كلما دخلته ملتصقا بعباءة أمي، انفتحت شهيتي على شيء غريب لم أكن أفهمه لكني كنتُ أحبه .

كان حمام الوردة حمّاماً تركياً ضخماً، أو هكذا بدا لي وقتها، مزخرفاً بالنّقشي والزلّيج والقاشان والزجاج المعشق، الملّون، القديم، لكن مع الزمن، بدأ يتآكل من الداخل ويفقد ملامحه، وعلت الحيطان أشكال تشبه الجذري، من جرّاء الرطوبة الكبيرة .كلما تكسرت زليجة ظل مكانها فارغا مثل البثور، حتى أكلت الرطوبة أجزاء مهمة من الحائط .

عمّال الصيانة الكثيرون بهذا الحمّام، يشبهون المكان .لم يعودوا معنيين بما كان يحدث أمام أعينهم من تدهور .هم أيضا تعوّدوا على مشاهدة موت الحمام من دون أن يثير ذلك حتى بعض فضولهم .

في وقت سابق، كانت أمي تدخلني بسهولة إلى *حمّام الوردة*، أمام عيني مالكته، خالتي وردة .لكن مع الزمن، بدأت المسألة تتعقّد إذ أصبح دخولي إشكاليا .كبرتُ بسرعة في غفلة من نفسي، وأصبحتْ اختلاساتي شيطانية، تثير انتباه بعض النساء، بينما ظلت أمي تصرّ على إدخالي معها وهي تصرخ في وجهي عندما أجمد واقفا عند مدخل الحمام في انتظار طردي :أنْتَ خايَبْ .ما تَعْرَفْشِ تْحُكّ ظَهْرك .تَدْخُلْ بوسخك وتَخْرُجْ بِه .مَا تَليقُ بِكْ إلاّ لاَلَّة حْلِيمَة، هِيَ تَعْرفْ كِيفْ تَعَجْنَكْ .كانت كلها تمثيلية لكي أمر معها بلا أسئلة من مسؤولة الحمام .لكن في آخر مرّة أتذكرها .كان الوضع محرجاً قليلا .فقد استعصى الأمر مع خالتي وردة، التي تجلس عادة وراء مكتب اسمنتي مزخرف بالزلّيج، كمديرة مدرسة أو سيدة قصر، على يمينها كيس قناني الكَازوز بشتى الألوان. تتحسس نظارتيها كلما رأت شخصاً يعبر باتجاه المغاطس الرخامية .فجأة أوقفتنا.

– يا أختي أمِيزار، لزعر الحمصي كبر، البركة، . ولّى رجلْ.

ضحكت أمّي، كعادتها تسخر من المواقف الأكثر تراجيدية.

–خسارة عليك يا الحاجة وردة، هذا البزّ يخوّف؟ بَرْكَهْ .بَرْكَهَ .النساء؟ الشيطان يشطْحُوه .ماخافوش حتى من الكبار، يخافوا من الصغار؟ لا .لا .يا أختي وردة وليدي صغير وعينيه مغمضين.

في هذه كانت ميما ميزار مخطئة .كلما غفوت قليلا بعد دوخة الحمام، سكنني الشيطان .

وقبل أن تغرق مع خالتي وردة في نقاش التِخْلالْ كالعادة، والقيل والقال حتى أتمكن من الدخول، تكون حليمة الطيّابة قد سحبتني من يدي اليمنى بقوة وجرتني نحوها، ونزعت سروالي، وأنا مندهش مما كانت تفعله، منعدم المقاومة، ثم طَوَّطَتْ عضوي المندفن كلحمة حلزون من شدة الخوف والمفاجأة، وهي تقهقه بأعلى صوتها.

–ها .ها .يالالّة وريده، هذه الدّوُدّهْ خَوْفَتَكْ؟ قَاوْقَاهْ ما تقتل ما تحيي .اللي بغى الصحّ، يروح لحمام *النوارة*، ثمة أصحاب المهاريس .طفل مسكين خايف حتى من ظله .

ثم تدخلني في عمق المغطس الرخامي وهي تضحك :*شفت كيفاش؟ لو كان ما نديرش هاك، لن تدخل .وأمك مسكينة جاية من بعيد .حتى وردة ناس ملاح، مرة على مرة تخشن رأسها* .ثم وتفركني كقطعة قماش بالية ولا ترحم أي عضو من أعضائي بما في ذلك *الدودة*، سبب كل البلاء .لا أدري لماذا عجبتني تسمية *الدودة* .ربما لأنها تقيني من قول كلمة كبيرة ممنوع نطقها في القرية، في الوسط العائلي، حتى تلميحا . بينما تظلّ أُمّي غارقة مع خالتي وردة، في نقاشات الحياة وصعوباتها، قبل أن تغرقا في ضحكات طويلة، لا تتوقف أبدا بسبب جرأة حليمة الطيابة.

عندما كانت حليمة الطيابة تفركني، وعلى الرغم من حبي لها، تمنّيت أن تكون أُمّي قريبة مني، على الأقلّ لتشعرني ببعض الأمان ، لكن ذلك كان حلماً بعيداً .أرفع عيني قليلا .على الرغم من البخار الكثيف، أغمض نظري على الأجساد الجميلة لنساء لا يجدن حرجا في حك مفاصل بعضهن بعضا، بهدوء وسكينة وتلذذ أحيانا، ووشوشات تشبه همس العشاق والمحبين .لم أكن أرى كل التفاصيل التي كنت أشتهي رؤيتها، ولكني كنت سعيدا .غلالة البخار الداخلي كانت تخبئ عيوب كل الأجساد، فتحوّلها فقط إلى أشكال هلامية وعلامات ملونة، كنت أراها قريبة مني، وأشم روائحها وعرقها وعطورها، وحتى بعض تفاصيل أجسادها .لا تأبهن بي وأنا في عمق المغطس .لا أحد يعرف قامتي، ولا أحد ينتبه *للدودة* التي تستيقظ وتنام، بحسب درجة الخجل والخوف والتحرر منهما .عندما تفركني جيدا وأرى الأوساخ السوداء تتلوى على

جسدي كالشربة السوداء، ثم تغسلني وتعاود حتى أصبح أحمر مثل مولود خرج للتو من بطن أمه، تخرجني حليمة الطيابة من المغطس الرخامي، ثم تضعني بين رجليها، وتضغط عليّ بقوة بيديها الخشنتين .أرفعُ عيني نحوها لأصرخ، أو أطلب رحمتها . لكن الألوان والأشكال المحيطة بي تكون قد تداخلت فيما بينها، فلا أجد جسدا أنشب فيه أظفاري لينقذني .

حليمة الطيّابة امرأة خرافية .هي أيضا زوجة شهيد .وجدت بشق الأنفس هذا العمل . كتلة ضخمة، غميقة السمرة، مفتوحة من كلّ الجهات .بطنها مليء بالإنطواءات التي لا حصر لها .مثل اللعبة كنت بين يديها .تضعني بين رجليها .تقلّبني على بطني . على ظهري .بين فخذي .تدغدغني .تؤلمني .أكتم صوتي .كانت عظامي تتكسّر مثل قوقعات الحلازين بين كفيها الخشنتين .رائحة العرق المنبعثة من داخل الحمّام ومن جسدها تقوّي لدي شهوة الهرب السريع .لكنها بسرعة تصبح أدفأ وأطيب امرأة .عندما تنتهي من فركي وغَسلي، تلفّني في فوطة صفراء، فيها رائحة الكَاز والاحتراق، ثم تحملني بين يديها بحنان غريب لا يظهر إلا في لحظات دخول المغطس ومغادرته . لا أكتم سعادتي، فأشتهي النوم بين ذراعيها الحنونين .أتمتم في أذنيها بتعب:

– ماما حليمة، أحب أريّح شويه قبل ما أروح للموليما .

– طبعا يا العميرة .أرقد الوقت اللي تحب، الدنيا لن تنهار.

أشعر بطيبتها الكبيرة وهي تضعني على السرير، ثم وهي تغطّيني بالفوطة الكبيرة، مثل ابنها .أشعر أحيانا أن كل حركاتها تعويض عن فقدان قديم .ابنها الوحيد غرق في البحر .سمعتها العديد من المرات تحكي عنه .*يونس وليدي من يومها* خرج *ولم يعد .يقولون البحر غيار من الزينين* .تذرف أمي دمعات معها، ثم تدخلان في موضوع جديد .

عندما تنسحبْ حليمة الطيابة، أظلّ مشدوهاً في أجساد النساء الريفيات الجميلة، وهنّ رائحات، جايّات، عاريات أو نصف عاريات .تتسرب رائحة عرقهن الساحرة داخل أنفي، ثم عميقا في دمي فتوقظ جسدي من غفوته .أتذكر صرخات إمام المسجد المواجه لبيتنا، يوم الجمعة :*احذروا من غفوة الشيطان، فهو يسكن فيكم*.أستمتع

بالمشهد وهن في حركاتهن الحرة .يتغامزن .يتحدّثن أحاديث غامضة عن أزواجهن . تُبرز إحداهن زندها للأخرى لتريها الكدمة الزرقاء.

–ها .شفْتِ وَاشْ دَارْ فيّ الحلّوف.

–عندك الزهر .يحبك.

–غير يحبني؟ مجنون عليّ .يأكل روحه عندما أغيب عند أهلي في نهاية الأسبوع . ولَّفته حتى أصبح ما يصبرش عليَّ .كي نْهَيْجُه يوَلّي يرضع كالطفل، ويعضّ ويقرص وياكل ووو...

–يكفي ...هيجتني حتى أنا .من زهرك .أنا كلّ ما يأتيني .يبات يحاجيني عن زعافه من امرأته الأولى .عن أمه التي تحبه بشكل مرضي .مرّة قبضتُهْ من عنقه .وقلت له . اسمع يا ولد الناس، يرحم والديك .كي تجي هنا أنتَ لِيَ .كي تكون عندهم دِرْ واشْ تحبّ .من يومها تلَفْ له الكلام ولم يعد يستطيع تركيب جملة واحدة أمامي، بل أنّ تخويفي حوّله إلى رجل عاجز .مرة طلّع لي الزبل للرأس، زعفني، عايرته .فقلت له يا وحد الحاوي، بقيت في خاطره، بعدها لم أره .تمنيت فقط أراه ثانية لأعتذر منه على لساني الطويل، لكنه لم يلتفت وراءه .والله كان ناسْ ملاحْ، لكن علاقته بزوجته الأولى هبلتني.

– ما عليهش حنونة .نسلّف لك دْيَالي ههههه .هذاك ولد الحرام تْقولْ أمّه معلّمته، يعرفْ يْديرْ كُلشْ.

كان عليّ أن أتظاهر بالنوم .عندما التفتتا نحوي وهما غارقتان في ضحكة عالية وخجولة في الآن نفسه، كانتا تحاولان كتمها .كنت أبدو لهن كأني كنت أغط في نوم عميق .حتى أن إحداهن علقت:

- ولد شحال زوين .لو كان كبير غير شوي، كنت سرقته من أمه ههههه

ثم تغرقان في ضحكة هستيرية .

كان العرق يتصبب منّي، لا أدري إذا كان ذلك اندهاشاً ممّا سمعت أو خوفاً منهما . تخيلتُ نفسي في لحظة ما زوجاً للأولى .ثم زوجاً للثانية .لأول مرة أشعر بصدق كلام صاحبة الحمام، خالتي وردة .يبدو حقيقة أنّي بدأت أكبر بسرعة، وبدأت أفهم

أشياء، كان عليّ أن لا أفهمها في هذا الوقت المبكّر، وفي الحمام النسائي تحديدا . انتهى أمري .عرفت يومها أن الشيطان كان يغفو في .

عندما أنهيت قنينة الكازوز التي جاءتني بها حليمة الطيابة والتي امتصت كلّ الحرارة التي كانت بداخلي، لبست سروالي بسرعة، وخبأت *دودتي* التي انتصبت لكلام المرأتين، خبأتها بخوف كبير ما دامت بكل هذه الأهمية وهذه الخطورة.

خرجت وأنا أنبّه حليمة الطيابة التي شعرت نحوها بألفة كبيرة:

– خالتي حليمة، قولي ليّمَّا راني رايَحْ للموليما.

– هي في الحمام، لما تخلص، أخبرها .هي تعرف مكانك.

أهرب كالعادة باتجاه الموليما .أخترق أولاً شارع الحدادين، ثم البازار الكبير، مطعم عمّي عمر الحماس الذي لا يبيع إلاّ الحريرة واللوبياء، ثم البريد القديم، قاعة السنيما التي ماتت منذ وقت مبكر، فالبلدية مروراً بـ *:بيرو عرب*، لأجد نفسي في شارع الحرية الذي ما يزال الكثير من الناس يسمونه *كليمونسو*، ثم فجأة أمام ضخامة *الموليما* التي تورثني سعادة داخلية غريبة .وجوه وأحصنة وأجساد متداخلة فيما بينها، لكن اخترت فقط تمثال المرأة التي كأنها إنسان حي بسبب حركتها النادرة، تتفرد من بين كل التماثيل بسموها، بجسدها المصقول بدقّة متناهية، وبقامتها الممشوقة، وصدرها المندفع إلى الأمام، بنهديها النافرين باتجاه سماء فاترة، ويدها التي تلوّح في الهواء بحنو، مفتوحة على حمامة كانت تستعد للطيران، تعطي الانطباع وكأن المنظر حقيقي .كانت سيدة الرخام، تقف بكل قامتها على كومة من الأحصنة التي كانت تحاول القيام من عمق الأرض بصعوبة .امرأة من رخام صافٍ، كلما هبّت الرياح الصحراوية القادمة من محيط المدينة، اصفرّ لونها بسرعة، لكن بمجرد سقوط الأمطار الأولى، تصبح من جديد بيضاء، مثل القطن، وتعود الحياة إليها من جديد . حينما تنعكس الشمس على جسدها، أعرف أن أمطار البارحة فعلت فعلها في هذا الجسد ونقته من كل غبار الأيام التي مضت.

أجد نفسي تحتها .أتسلّى بضخامتها .من كثرة علوها، أحس كأنها مقدمة على السقوط عليّ ولا أرتاح إلاّ عندما أنزل بصري وأبدأ في تفرّس استقامة أعضائها ونعومتها، والتداخل معها كالثعبان كنبتة الليلك .أشعر تجاهها بشيء غريب .أتصورها أحيانا

هي نفسها مريم عندما تكبر وتغادر ساقية سيدي بوجنان إلى الأبد .لهذا، كلما واجهت المرأة الرخامية، شعرت في داخلي بمسؤولية طفولية تجاهها، على الرغم من أن حارس البلدية ليس بعيداً عن المكان، بل مواجه لها .فهو لا يعرف إلاّ نشّ الحمام من على سيدة الرخام، ثم الانسحاب .عندما يتنافس الأطفال لضرب الديك الضخم الذي يتربع على قمتها، بالحجارة، أصرخ في وجوههم وأطردهم، لكن عندما يكون الجناة كباراً، أتحدث إليهم بصوت خافت وباستعمال الحيلة:

. عينكم .العَسّاس راه يشوف فيكم من السطح.

فيتزربعون بسرعة، كل واحد في اتجاه، فأسعد أن لا أحد مس التمثال بضرر .تبدأ سعادتي عندما أخلو بسيدة الرخام .أفكّر أحياناً بفصلها عن بقية التماثيل الخشنة، ونزعها من هذا المكان ووضعها في قريتي لأنّي أشعر، بل على يقين، بأن مكانها الحقيقي هناك .أستطيع أن أحرسها اليوم كله .في بعض الأحيان أتسلق الأجسام اللزجة المكونة للتمثال حتى أصل إلى ذراعها الضخم، وآخذها من كفها وأنا أتصور في داخلي أنّي أعزمها إلى شيء غامض، فتنصاع لي بهدوء .أتلذذ بشكل غريب بملامسة وجهها والأطراف العارية من جسدها .فجأة يختلط وجهها بوجهْي سيدتي الحمّام اللتين كانتا تتحدثان عن زوجيهما .أشعر بها ملكي، وأني الوحيد في الدنيا القادرعلى فهمها والتواطؤ معها .أضع رأسي على صدرها، على زندها .أشمّ رائحة الرخام النبيل، التي تشبه رائحة العرعار والكُرِّيش .أحاول أن أجد مكاناً في كفها وأتماهى مع الحمامة التي تستعدّ للطيران ولا تطير أبداً .المارة لا يعيرونني أي انتباه . يتأملون قليلاً ضخامة التماثيل المتداخلة، ثم يمضون .وأنا، معلق في الفراغ لا شيء يواجهني إلا الكنيسة التي يبدو صليبها العالي على مرمى يدي، أو محلّ *النوفوتي* الذي أراه من علوّي الشاهق، صغيرا .أتمنّى أن أطير، لكنّي عندما أنتبه للفراغ الفاصل بين ذراع المرأة الرخامية والأرض، أخاف من التكسر، فأعدل عن فكرتي الأولى . الغريب أني لم أفكر يوما أن أتسلق حتى أصل إلى رأس التمثال حيث يتربع ديك غبي على الفراغ .حتى العسّاس صار يشعر بسعادة كبيرة وهو يراني ملتصقا كالعلقة بجسدها .يضع كفه على جبهته درءاً للشمس التي تشع في عينيه مثل القطّ، ثم ينبهني بسخرية:

– اسمع يا لَزْعر الحمصي، ماتخلّيش لّحْمام يزقّق عليها .رَاهَا نظيفة بالنوّ.

– ما يكون غِير خاطرك عمّي العسّاس.

ثم ينزلق باتجاه محلّ *النوفوتي*، المواجه *للموليما*، يمضي بقية يومه مع صاحب المحلّ في لعب الروندا وتصيّد المسافرين القادمين من وهران والعاصمة ليبيع لهم من تحت معطفه سجائر المارلبورو، وأكياس الزعفران الصغيرة، والعلك الأمريكي الحار، وغيرها من الأشياء الصغيرة التي تنزلق من يد ليد بسهولة، وتهرب من المغرب.

أظلّ هناك أتسلّى بعشي العالي، في حضن سيدة الرخام، في انتظار أُمّي التي تدخل الحمّام صباحاً ولا تخرج منه إلاّ مساء، مكحّلة، مسوكة، جميلة، على الرغم من تعب السنين والوحدة والفاقة والحزن الضامر .لا أنتبه لها إلاّ عندما يصمّ أذنيّ زمور سيارة عمّي عبد الكريم القديمة .أنزل بسرعة من على *الموليما* وأنا أحمل في قلبي انتظارات عديدة، قد تأتي، للاختلاط من جديد بجسد سيدة الرخام .جسدها قاوم رمال الصحاري والسنوات المتعاقبة، التي لم تحدث فيه أي خدش أو كسر .أكثر من ذلك كله، فهي امرأة مسالمة، تلعب مع الأطفال والطيور، وتحدق بعينين مفتوحتين في الشمس، وتبتسم يومياً في وجه سكان المدينة، والعابرين عند رجليها.

يوم الجمعة الذي أخذني فيه أخي حسن إلى السينما، انقلب فجأة إلى يوم شؤم .كانت البلاد تحتفل بعيدها الوطني الكبير .العيد الأوّل لاستقلالها .كان اليوم مناسبة للالتصاق برجلي أخي ليأخذني معه .كان يعرف جيدا بأني لن أزعجه أبداً ولن أفضح سره .لم أكن معنياً بالسينما بقدر ما كنت معنياً بالمرأة الرخامية .قال .شوف آ خُويَا، نْحُطّكْ قُدّامْ *الموليما*، بعدها دبَّرْ راسَكْ، كِي نْكمَّلْ السينما، نفوتْ عْلِيكْ .أجبت بلا تردد .أنَا مْوَافقْ .وكان يعرف جيدّاً بأني لن أتراجع أبداً عن رأيي.

كان اليوم احتفالياً فوق العادة، ولهذا وضعني حسن قدام الكنيسة، ثم اندفن داخل المدينة بحثاً عن صديقته التي رأيتها معه العديد من المرات ليذهبا معا إلى السينيما .

كان مولعاً بـ :جون وين وأُخبر بأنه" يلعب "في إحدى القاعتين .لهذا كانت الفرصة كبيرة للالتصاق به.

اقتربت من *الموليما* .فوجئت لأول مرة منذ أن اكتشفتها، أنها لم تكن محوطة بسلسلتها الأنيقة المعتادة، ولكن بسياج من الأسلاك الشائكة، والسدرة التي أُلصقت بقاعدة

التمثال الذي بدا كأنه يُهيّأ لحالة حرق .شعرت بالأجساد كلها، حتى الأحصنة، تنزف .
حزنت قليلاً، ولكنّي مع ذلك أوّلت الفكرة وقلت في خاطري، لا يعقل أن تُحرق امرأة جميلة من رخام وهي لا تؤذي أحدا .ربّما فعلوا ذلك لحمايتها .بل صرت متأكداً بأن عمّي العساس هو صاحب الفكرة، لأنه لم يستطع ضبط الأطفال الذين يضربونها بالحجارة طوال النهار ويتنافسون على كسر رأس الديك العالي .قَبِلْتُ أن تصبح بعيدة عنّي، مقابل حمايتها من الموت .المطر كان غزيراً ولكن مع ذلك ظلّ النّاس مرابطين بين التمثال والكنيسة ومحلّ *نوفوتي* .كنت أتلذذ وأنا أرى سيدة الرخام تستحمّ أمام الجميع بألق عجيب، لتشعّ بعدها ببياض يصعب على العين تحمّله عندما تتكسر الشمس القوية على وجهها وجسدها .

لم أخرج من غفوتي إلا عندما بدأ التّصفيق يتعالى من أماكن متعددة .أردت أن أصفق أنا أيضا، ولكن العملية بدت لي عبثية .وجدت نفسي صغيراً على فعل مثل هذا .سمعت همهمات كثيرة من هنا وهناك، تحولت بسرعة إلى أصوات واضحة تعبر عن فرحتها.

– وْصَلْ .المِيرْ .جاء المِيرْ.

– شوف النور اللي نزل عليه.

– الله .الله .تقول ملاك خرج من الجنة بلباسه الأبيض .

دخل رئيس البلدية من بين الجموع .تتبعه العيون وهو ينزل من سيارته كالأمير الذي عاد من حرب قادها هو بنفسه وانتصر فيها .انزلقت بين الأرجل حتى وقفت بالقرب منه .كان قلبي قد بدأ يدق بعنف .شعرت بأن المسألة تتعلّق بسيدة الرخام .بدأ رئيس البلدية في إنزال الستائرعن الجزء العلوي من الكنيسة .ثم صعد إلى السّطح مثقلاً بالبلغة التّلمسانية والشاشية التونسية والفوقية البيضاء الفضفاضة .كان يُسنده في تسلّقه مساعدان من البلدية .صعد الجميع إلى الأعلى بواسطة سلالم كانت مهيأة لهذا الغرض .عندما أصبح محاذيا للصليب سلمه أحد معاونيه مطرقة، فدق على الصليب عدة مرات بضربات قوية وجافة، قبل أن تتهاوى أجزاؤه من الأعالي نحو الأرض، على تصفيقات عمّال البلدية الذين أُحضروا خصيصاً لهذا اليوم المشهود وتحت هتافاتهم. مشهد لا يتكرر دائما، يشعر من خلاله المصفقون لا بالبشاعة التي كان

يمارسها رئيس البلدية، والتي توجع القلب، ولكن بالانتصار الرمزي على المسيحية والاستعمار. يصرخون بلا توقف، حتى يتطاير الزبد الخاثر من أفواههم.

– الله ينصر الإسلام .الله ينصر سيد الرايس.

لم تنته المجزرة عند هذا الحد .ظللت مشدودا إلى جسد سيدة الرخام الذي شعرت به يستنجد بي ويطلب تدخلي .لكن السدرة والسياج الذي وضع، كانا يفصلان بيني وبينها .مع هبوب هواء مملوء بالتراب ورائحة الإسفلت، رفرفت قشابية رئيس البلدية، لتُظهر قليلاً من ساقيه الرقيقتين المشعرتين .بعض الحاضرين من الذين تضاحكوا وتغامزوا، سخروا بعيونهم قليلا، لكنهم سرعان ما كتموا أنفاسهم، خوفاً من العسس الذين كانوا يراقبون الصغيرة والكبيرة .

ثم غادر الكنيسة متبوعا بمعاونيه تحت عاصفة من التصفيقات الحادة، وكان عليّ ، من جديد، أن أبحث عن طريقي من بين الأرجل .ثم توجّه الجميع نحو الموليما . سحب العمّال الأسلاك الشائكة والسدرة، ونظفوا المكان، فبدت سيدة الرخام وبقية الأشكال المحيطة بها، مشرقة مثل فجر ربيعي، وشامخة مثل جبلٍ عالٍ .غمرتني سعادة سرعان ما انكسرت.

ركب رئيس البلدية آلة التراكس الضخمة، بأسنان حديدية قاطعة .وضع أحد العمّال على رأسه خوذه صفراء للحماية من القطع المتناثرة .بدأت الآلية التي كان يسوقها هو بنفسه، تتحرك باتجاه سيدة الرخام تحديدا مع أن هناك أجساما ووجوها أخرى، وكأنه كان يتقصدها أصلا، أو ربما لأنها كانت الجزء الأكثر هشاشة .لم أتمالك نفسي، ركضت نحوها أو طرت، لا أدري ماذا حدث لي .رميت بنفسي عند أسنان التراكس . شعرت كأنه أغمي عليَّ .رشوني بالماء .سمعت همهمات عند رأسي:

– ولد من هذا الطفل المهبول؟

– مش مهبول .ولد الشهيد أحمد برمضان.

عرفت صوت أخي حسان .لا أعرف كيف قفزت من مكاني:

–شفت يا حسان خويا، يريدون كسر الموليما؟

– إننا ننتقم لوالدك يا صغيري .ننتقم لكل الشهداء.

قال أحد موظفي البلدية، الذي سبق أن وضع خوذة الوقاية على رأس رئيس البلدية، عرفته من رائحة البوط الذي كان يرتديه، والمليء بالروث والطين وكأنه خرج لتوه من إصطبل .

–لكن يا عمي المولیما ما دارت لكم والو؟ مش هي اللي قتلت بابا.

قلت مترجيا، مهزوما .ردّ وهو سعيد بما كان يحصل أمام عينيه.

– مازلت صغيرا؟ أنت لم تعرف الحرب .عندما تكبر ستعرف بأن المولیما هي اللي قتلت باباك، وستقتلنا جميعا إذا بقيت في هذا المكان .ولهذا يجب أن تزول.

وقف حسان يتأمل المشهد صامتا، وأنا أشد على يده الساخنة وأرتعش .

فشل رئيس البلدية في كسر قاعدة التمثال الضخمة، فبدأ يحفر من تحت رجلي سيدة الرخام ويحاول عبثاً أن يزحزح كتلة الرخام التي كانت تقف عليها .ابتعد قليلاً بآليته ثم اندفع بقوة ليضرب بالأسنان الحديدية نصف جسمها .لم تتحرّك .قاومت الضربة الأولى .صفّق النّاس عندما رأوا الديك الضائع يتهاوى من الأعالي، بينما شعرتُ بمغص في أمعائي وكأن الضربة كانت مصوبة نحوي .بل رأيت الدم ينزف من صدرها .لكني لم اسمع صرختها .تراجع ليعود من جديد ليضربها، فتضاعف ألمي أكثر .لم تكن سيدة الرخام تهتزّ أبداً .ولكن جسمي الرجلين اللذين يحرسانها سقطا . كنت أرى ملامحها من بين الأرجل والأجساد المتراصة .زاد عناد رئيس البلدية، الذي بدأ يصرخ بشكل هستيري ومريض.

– هاه .تعانديني يا بنْت الحرام .هذا يَوْمَكْ الأخِيْر .والله يا أنا يا أنت.

في الضربة السابعة سقط الحصان ومن كان يركبه، في الجهة الخلفية من التمثال .لم أعد أعدّ ضربات التراكس الجافة التي كانت تطن في رأسي بشكل مضخم .فجأة رأيت سيدة الرخام تأتي نحوي بدون أن تستسلم نهائيا لأسنان التراكس .عرق" المير "يزداد تصبباً على جبهته وعلى كامل جسمه .في ضربة أخرى، مالت سيدة الرخام أكثر، وأدارت وجهها نحوي .مسحتُ عيني من جديد من الدمع لكي أتمكن من رؤيتها للمرة الأخيرة .شعرت بالعجز الكبير .رأيتها تبكي والدم ينزف من كامل جسدها الذي انفصل جزء منه عن بقية الكتلة .كانت يد حسان تشد علي بكل قوة لكي لا أهرب له . والأرجل الكثيرة كانت تمنعني من المرور وحزام الشرطة الجديد، أخافني أكثر .وعندما

تَتالتْ ضربات التراكس، سقطت سيدة الرخام على فمها بكل عنف، وبشكل جاف . فتحوّل جسدها إلى ذرّات من الرخام الأبيض .حتى ذراعها الممتدة في الفراغ التي تمنيتها أن تخرج سالمة اندثرت .نزل بعدها رئيس البلدية تحت التصفيقات والزغاريد والأناشيد الوطنية، بينما اهتمّ العمّال بإتمام العمل وتدمير *المولبما* نهائيا وكنس المكان، وتقطيع الأسلاك المعدنية التي كانت تشكل متكأ سيدة الرخام وبقية الأجسام الأخرى، ثم ردمت كل الحفر والفجوات التي خلفتها عمليات التدمير والقلع .

انسحب الجميع، وهرب حسان نحو محلّ *نوفوتي* ليشتري مجلة Salut les copains التي كان مولعا بها. وبقيت أنا هناك متمترساً أتلمس فراغ سيدة الرخام التي أراها وكأنها ما تزال في مكانها وهي تقهقه بصوتٍ عالٍ. وأحيانا أسمع نشيجها وهي تموت.

يومها حدث شرخ كبير في داخلي. فقدت طفولتي نهائيا، وشعرت بأني كبرت بسرعة. غيرت طريقي لكي أنسى سيدة الرخام، وأصبحت أذهب إلى حمام النوّارة الرجال.

فجأة انطفأ كل شيء، لالة مغنية وسيدة الرخام. أيقظني هدير ثقيل وجاف من غفوتي، وكأنه الصوت الذي يسبق عادة الزلازل العنيفة. عندما رفعت رأسي صوب السماء ومصدر الصوت، رأيت سربا من الطير يأتي من بعيد ويحط على الشجرة المباركة. طيور صغيرة لا تتجاوز أصبع اليد الواحدة، حطت على الجزء الشمالي العلوي من الشجرة. فلونتها بآلاف التدرجات، إذ كانت كلما غردت، انفتحت أجنحتها بكل اتساع فلمعت بنور ملون ومشع كأنه مادة فسفورية. بعد لحظات قليلة، جاء سرب آخر وتوغل في الجهة العلوية الجنوبية للشجرة. لم يكن به إلا اللون الأزرق المتدرج من الغامق حتى البحري والسماوي والأخضر المتدرج أيضا. من الداكن حتى الأخضر الآزوري. زادت ألوان الشجرة تألقا وكثافة. حتى أصبحت مثل حديقة بالألوان والتغاريد والزقزقات المتناغمة. ثم حطت أسراب من الفراشات على الشجرة حتى غطتها كليا. فأصبحت مثل شجرة ميلاد، مثقلة بالألوان.

لم أتمالك دهشتي، فصرخت:

- واووووو... الآن أصبحت شجرة الخلد.

كان جمالها مدهشا ومغريا.

فجأة بدأت الحياة تدب فيها، فأصبحت جذوعها خضراء وقطوفها دانية.

حينما اقتربت من الأشكال البيضاوية الحمراء، بدت لي كأنها تفاحات جميلة مدورة. شممتها أحسست عطر مخدر يسكنني ويتحكم في كل حركاتي. دخلت في دوار جميل وتذكرت ما قرأته عن غواية آدم وحواء فعذرتهما. مددت يدي نحو التفاحة التي بدت لي الأجمل والأكبر والأكثر امتلاء. شعرت بها مثقلة بشيء غريب يشبه ماء الشهوة. في اللحظة التي كادت أن تتكمش أصابعي حولها لأقطفها، امتدت اليد الناعمة وهي توشوش في أذني. *ششش لا تلمسها حبيبي.* ثم نزعت التفاحة التي اشتهيت، وبسرعة رمتها على الأرض، على بعد متر منّا. تدحرجت التفاحة قليلا حتى وصلت إلى جذع الشجرة الأكبر، ثم انفتحت عن آخرها، وإذا بها حية كانت مكورة على نفسها فأعطت الانطباع بأنها تفاحة أو فاكهة ناعمة. وقفت الحية تنظر إلينا بعينين حادتين. بعد لحظات، فتحت فمها الواسع والمخيف، ثم بدأت في التهام ذيلها حتى لم يبق إلا الرأس، فاشتعلت فيه نار سوداء لم تبقِ شيئا في الأرض إلا بعض رماد سرعان ما هزته الريح الخفيفة التي هبت على الشجرة.

تمتمت المرأة التي ظلت كعادتها من ورائي:

- أرأيت حبيبي. ألم أقل لك إنه يجب عليك أن تحذر؟ أنت في مكان يكاد يكون مسكنه

ومملكته. ألم يقل لك جدك ثق في قلبك فقط؟ كدتَ أن تثق فقط في جوعك هذه المرة. عليك أن تحذر منه، فهم لم يسلّم في شيء. أبى واستكبر، وسيظل كذلك.

- من؟ إبليس. أليست هذه شجرة الخلد؟

- لم يبق منها إلا اسمها منذ غواية آدم وحواء وطردهما نحو الأرض. هنا أيضا الأشياء الأزلية تتغير

ويعاد ترتيبها. أصبح اسمها *شجرة الغواية*. تلتهم كل من يقربها.

لم أفهم الشيء الكثير، لكنني هززت رأسي. طبعا كانت تراني ولم أكن أراها. كانت دهشتي كبيرة وفرحي أكبر، لأنها كلما حضرت زرعت في قلبي الكثير من الأمان. ما

ظننته شجرة الخلد، لم يكن أكثر من معبر نحو الحقيقة التي على ما يبدو ما تزال بعيدة.

- وشجرة الخلد.

- لا خالد إلا صانع هذه الأكوان. لقد تساوى آدم مع بقية المخلوقات ولا فضل له عنها

إلا بما يحمله في قلبه وعقله. تعال وسأريك ما لم تره أبدا من قبل. أنت هنا من أجل ذلك. حلمك كان جميلا؟

- أي حلم؟

- قبلة مينا تحت المطر.

كدت أسالها عمن أخبرها، ولكني صمتّ خوفا من فقدها ثانية.

- لا ليس حلما. حدث بالفعل يوم وجدت نفسي وجها لوجه معها في أحواز تلمسان

الشرقية، ليس بعيدا عن مصبات لوريط. كنت أحبها وكنا نحتاج إلى أن نلتقي خارج الماخور.

- مصبات لوريط. تلك التي تنحدر من الجبل، قاطعة الأعالي وسكة القطار العابر

باتجاه سيدي بلعباس. قبل أن تنزل من فوق مشكّلة حمامات وستائر كانت في زمن ما يأتي لها العرسان ويستحمان هناك تبركا بالمدينة وبأولياء الله الصالحين ورجال البلاد.

- يبدو أنك تعرفين قلبي جيدا.

- أعرف أيضا كل العصافير التي تسكنه، والنور الذي يغشاه. أحب من يظل وفيا لحب

ما، على الرغم من الزمن وقسوته في المحو. كنتَ تحبها؟ المصلحة الضيّقة تقتل كل شيء، والظلم لا يترك أية فرصة للتواصل والحب. الحب يا غالي يحتاج إلى من يملأ قلبه بالكثير من التسامح، والتفهم، وإلا، لا سلطان لنا بعدها على النيران التي يمكنها أن تشتعل لاحقا.

- ميناً؟ قصة طويلة. لم تُظلم فقط، ولكنها قُتلت في عزّ بهائها ونورها. كنت أشعر دائما

أنه حب مسروق ومظلوم في الوقت نفسه.

- لماذا لم تتزوجها إذن، وتنقذها من أي القتلة؟

- لا أعرف بالضبط كيف حدث ذلك. ربما الحياة؟ ربما خفت. كنتُ صغيرا والتصقت

بها بقوة قبل أن يسرقها القتلة مني. قيل لي إنها تزوجت بعد أن ملت من حياة قصر عيشة الطويلة.

- قصر ههههه

أثارتني وأنا أسمع ضحكتها التي استفزتني في أعماقي.

- قصدك ماخور عيشة الطويلة الذي ليس قصرا أبدا. من الأحسن أن نخرج من هذه

المملكة، ونجلس بعيدا وتقص عليّ قصة مينا. تعال.

تمنيت لو التفتّ بشكل فجائي ورأيت العلامات التي ارتسمت على وجه ذات الشعر الأحمر، وهي تتكلم معي. شعرت في كلامها بنوع من الحزن والتعاطف مع مينا. وربما معي أيضا. كانت تتحدث وكأن لا شيء يغيب عنها. بل كانت تعرف الكثير من التفاصيل. الروخو لم يكن مخطئا عندما قال لي ونحن في ظلمة صخرة المغارة: *لا تخف. قل ما في قلبك. سيفهمك جيدا من يسمعك، وسيسير برفقتك إلى منتهى الأشياء.*

أشبكت يدها بيدي لأول مرة، فشعرت بحرارة تصعد لتحتل جسدي كله، ثم سحبتني وراءها في رحلة لم أكن أعرف عنها أي شيء، ولا حتى وجه دليلي.

كانت سيدة المكان، وكنتُ مثقلا بما اشتهيت فهمه.

3-شُدَّني إلَيْكَ كمَا يَشُدّ اللهُ قَوْسَهُ.

شيء من جدي الروخو يملؤني الآن لدرجة أنه لم يترك متسعا لغيره في قلبي وهواجسي. أدرك اليوم قوة بصيرته، حتى وهو في جبل البشرات الذي خان سطوته، أو على جبل النار، بين كفّي مشيئة الأعالي، يلتحف الصخر، ويتدثر بسماء لم تكن دائما رحيمة معه، والتي دفعته أحيانا إلى لعن اللحظة التي قادته صوب أرض لم تكن أقلّ بطشا من الأراضي الأخرى.

لا أدري بالضبط إذا ما كان على علم بذلك، ولكني أدرك اللحظة كم كان صائبا عندما وضعني بين يدي صاحبة الشعر الأحمر، وأنامل النور. لم يكن مخطئا أبدا. كان مدركا تماما لما كان يفعله.

لم تلتفت ذات الشعر الأحمر وراءها، حتى بشكل جانبي. كانت كالريح، وكنت قشة في كفها الناعم. من حين لآخر تشد على يدي المشبوكة بيدها، وكأنها تتحسس أني ما زلت معها.

قطعنا أمكنة كثيرة تكاد تكون خرافية، بألوان وأشكال عملاقة، بعضها يتسامى في الفضاءات بلا حدود ويغطي النور حتى يصبح المحيط تحت ثقل جو رمادي، وكأن الشمس غربت فجأة. وبعضها الآخر يغطي التربة حتى يحولها إلى أرضية من القطن والفلّين، لدنة والسير عليها جد مريح. دخلنا بعدها في عمق خلجان كثيفة لولا أصابعها الناعمة التي لا تتركني، كنت ضيعتها أو ضيعتني. أحيانا أضطر إلى أن أغمض عيني لكي لا أرى النباتات التي كانت تتطاير من تحت أرجلنا وتغطينا. لا أدري حقيقة إذا ما كنا نمشي أم نطير؟ لم أكن أشعر بجسدي أبدا ولا بحواسي التقليدية، لأن حواسا أخرى نبتت فجأة منذ أن دخلتُ إلى هذه الأمكنة المبهمة، تشبه الحدس ولكنها أكبر منه. أصبحتْ للمرئيات روائح وللروائح ملمس، وللفراغ أو ما يبدو كذلك، ظلال وأحجام. كنت أيضا عاجزا عن تحديد حالتي ووضعي والجغرافية التي كنت في أعماقها حتى أصبحت جزءا منها. الأمكنة كانت شبيهة لبعضها، وفي الوقت نفسه تختلف في الكثير من التفاصيل التي تُحَسّ ولا تُرى. عرس من الألوان كنتُ

أغرق فيه من حين لآخر. حتى وصلنا إلى مكان جميل ومعطر، غلب عليه لونان فقط. اللون الأزرق المتدرّج، والبنفسجي الذي يتماهى مع الجو العام ليكوّن انطباعا غريبا لديّ، وكأني لم أكن في صلب الحقيقة الثانية، وإنما في عمق حلم هارب. وعندما يتداخل اللونان في نقطة في الأفق المنفلت من كل تجسيد، يتحول كل الفضاء المحيط بنا إلى مساحة غارقة في اللون النيلي.

شيء وحيد كنت على يقين منه، هو أن داخلي كان سعيدا، وأنّ شعوري بالأمان كان بلا حدود ويتصاعد باستمرار رافعا من دهشتي وفرحي. في لحظة من اللحظات رأيتني طفلا يمنح قلبه وجنونه لسخاء الألوان، فيبعثرها ويخلطها لينتج منها لونا مستحيلا.

غرقت في عطر البنفسج الممزوج برائحة الخزامى البرية. فهمت بعدها السرّ. بعد انعطافة صغيرة، واجهنا جبل بنفسجي كانت تتسلقه وتغطيه كليا الخزامى، والبنفسج. تنتهي منحدراته السفلية بشلال كبير كانت ألوانه من ألوان النباتات التي تغطي الجبل. همست ذات الأصابع الناعمة، وهي توجه نظري بكلامها صوب دهشتي. *انظر. انظر حبيبي جيدا، هل ترى شيئا.* لم أفكر طويلا. في اللحظة التي كنت أحاول فيها أن أتماسك من شدة دوار المكان وأقول لها: *أرى سحرا، لا شيء غير السحر.* كانت قد انتقلت ورائي بطريقة غريبة قليلا، لم أعهدها فيها، كانت إيذانا بشيء جديد. فقد حدثت سلسلة من الأشياء المبهمة. رأيت لأول مرة، جزءا جانبيا من جسدها الجميل والمستقيم كنخلة. احتك شعرها وخدها الأيسر، وحتى نهدها الأيسر أيضا، بصدري، بطريقة استمرت وقتا جعلني أحس به وأستلذه. وكأن شيئا ما كان يتحرك بشكل جد بطيء مثلما يحدث في التصوير لحظة التركيز على لقطة مدهشة. أحسست حتى بالحرارة التي تشبه الحمى التي اعتلت جسدي. شيء نائم تحرك فيّ بالرغم مني. كانت جد قريبة مني لدرجة أني رأيت أيضا شيئين أربكاني، الوشم الصغير الذي يتسلق ظاهر كفّها الذي ارتسمت عليه خطوط مثل الثعبان، لم أتبينها جيدا، ولم أستطع فك رموزها. ذكرتني في لحظة هاربة، بالسيدة التي منحتُها الوردة الحمراء، حينما نزعتْ قفازها الأسود وانحنت قليلا قبل أن تستلم الوردة وتقبل خدي بحزن وهي تمتم: *أيها الغريب لست غريبا، فلا تحزن، أنت بيننا. هو الأبقى.* ورأيت أيضا العلامة، الوحمة أو الشلطة، كما نسميها في القرية، التي تتخفى بجانب نهدها، عندما

رفعت يدها قليلا إلى الأعلى، وهي تريني الشلالات التي كانت تعطر المكان وتمنحه ألقا غريبا. كانت ذات الشعر الأحمر قريبة مني لدرجة أني لم أستطع حتى أن أتفادى عطرها، ورائحة جسدها التي كنت قد ألفتها وكأني أعرفها من زمان. كلما حاولت، ولو بشكل خفي، رؤية وجهها كاملا، غرقت تفاصيلها في هالة من النور، كانت تأتي من ألق المحيط ومن مختلف انعكاسات الأمكنة التي كانت تحيط بنا.

عندما استوت ورائي، أردت أن أسالها عما رأيتُ، وأذكر كل العلامات التي خلقت دوارا كبيرا في رأسي، لكن ذات الشعر الأحمر وضعت أصابعها على فمي طويلا وألحقتها بوشوتها المعتادة وهي تلكزني بغنج ونعومة: *أششششششت.حبيبي، لا تفعل. لا تقل شيئا، دعني أتصرف*. ثم بدأت تفك خيوطي وحزامي وبعض أزرار لباسي القليلة وكأنها كانت تستمتع بذلك. حتى عندما انحنت قليلا لتنزع حذائي وجواربي الخشنة التي خلتها مليئة ببقايا النباتات، رأيت ظهرها كاملا، ورأسها وكثافة شعرها الأحمر. كدت أدفن أصابعي فيه. تذكرت فجأة حليمة الطيابة التي حفظت منها أمومة خاصة لم تنفها خشونتها غير المتعمدة. خجلت من ذات الشعر الأحمر قليلا، مما كانت تفعله، لكنها كانت سيدة المكان، وكنت سعيدا أن أكون بين يديها. كل خوفي كان أن تفاجئها حماقاتي الداخلية، وتتركني في عزلة تقذف بي في قفر لا أعرف مآلاته. لم تكن أشواقي نحوها بريئة. أقنعت نفسي في الأخير بأن الملائكة لا شأن لها بأمور دنيانا الصغيرة، على الرغم من قناعتي، بأن كل ما هو حب، هو في الأصل من نَفَس الإله وكرمه وتجلياته. لا يمكن أن يكون الله أوامر وضوابط وضغينة. لا يمكن أن يكون جحيما وحرائق ورعبا.

عندما انتهت من تعريتي، دفعت بي بهدوء من وراء الشلال البنفسجي الذي كانت فيه رائحة الخزامى أو اللافندا، تتداخل بالبنفسج البري، مانحة لحواسي الحية، عطرا مدوخا. برؤوس أصابعها الخفيفة، دفعت بي أكثر فأكثر من وراء الشلال، حتى اخترقت الستار المائي الدافئ ووجدتني في العمق. توغلت وأنا في كامل الدوخة الساحرة. كان عليّ أن أقبل بالأشياء بلا أسئلة كثيرة. كانت سيول الماء الكبريتية ثقيلة قليلا ولكنها ناعمة ودافئة، لأنها كانت تخترق الجبال العالية، ساحبة في أثرها صفاء وحرارة الحجر البركاني، وعطر النباتات التي تمنحها كل روائحها الزكية. كنت سعيدا

إلى الأقاصي. نسيت في اللحظة نفسها كل متاعب الرحلة نحو شجرة الخلد. بل إن شجرة الخلد المليئة بالثعابين الملتبسة بالفواكه الوهمية، انتهت في مخيلتي وبدت لي كئيبة وغير مرغوب فيها. المرة الوحيدة التي استعدتها فيها، أرعبتني. تساءلت: ثم ماذا لم أكلت التفاحة؟ لن يكون لي حتى حظ آدم، النفي نحو الأرض. أي جحيم كان ينتظرني داخل الظلال الموحشة والرطوبة والقلق؟ شعرت براحة كبيرة في جسدي الذي كان منهكا ومغبرا إلى درجة لا تُطاق. اقتراح حمام البنفسج والخزامى، لم يكن شيئا سيئا. ربما أحست من عيني أني كنت أتحمل جسدي بصعوبة. فجأة، شعرتُ بكل الأشياء تمتلئ بالنور والحياة في قلبي، وكل حواسي.

لم أكن أعرف كم كان لدي من وقت، لكنّي دخلت في هواجس وحده الله كان يعلم بفداحتها.

اشتهيتها؟ هل يُعقل؟ آدمي، أو بقايا إنسان، يشتهي ملاكا ؟ وإلا كيف أفسّر اشتعال حواس اللذة كلها فجأة؟ ما معنى أن أنسى كل ما يحيط بي، الألوان، الماء، النباتات، العطور، إلا ذات الشعر الأحمر؟ وأتمدد على النبتة الرخوة التي كنت أطؤها، وتشبه فراشا ناعما، وأتركني هناك عمرا كاملا لا أفعل شيئا، أسترجع شعرها الناعم والكثيف، ونصف وجهها، ونهدها الأيسر، وذراعها المكتنز، ونصف جيدها وأتركني أغرق فيها. أحبها كلما اشتعلت فيّ حرائق الشهوة. كانت ملاكا، لكن كل صفاتها القريبة من ملمسي وحاسة شمي، قربتها مني لأجعل منها امرأة الغواية، في مكان يصعب وصفه. أغمضت عيني لكي لا تتحول دهشتي إلى مجرد حلم هارب. استنشقت عميقا عطر الماء. لكنني عندما فتحتهما قليلا، رأيت ظلا حوّله الضوء المتسرب من الخارج، إلى جسد نحاسي، عرفت أنه لامرأة من ظل نهديها اللذين ارتسما في عمق الانعكاس الضوئي في حواسي، وعلى الحائط. عرفتها مرة أخرى من حركة أصابعها ذات السحر الغريب وهي تستقبل تدفق الماء. اقتربت مني وهي رافعة رأسها في الشلالات التي كانت تنزل بانتظام جميل. كان جسدها مستقيما، محت الظلال الداخلية كل تفاصيله، ولم تحفظ إلا ملمحه الأنثوي. هل هي ذات الشعر الأحمر أم امرأة غيرها؟ كنت على يقين أنها هي.

بدأت تمسني ثم تمسد ظهري، بطني، ذراعي، ساقي، أماكني الحميمية بنعومة كبيرة... ومثيرة. لم تترك مكانا إلا ومسّته قبل أن تفرغ عليه الماء بحفنتي يديها. مررت أناملها بعدها على مواضع محددة في الجسد حيث كنت أشعر بلذة غريبة كأنها كانت تعرف كل أسراره. فجأة بدأت أتأوه على الرغم من محاولتي كتم صوتي خجلا. غلبتني ضحكة، فضحكت وااااوووو ههههه. حاولت أن أكتمها، لكنها عندما عاودت نفس الحركة، في نفس المكان عن نية مسبقة، أطلقت العنان لضحكي، ولم تكتم هي أيضا جنونها. تمتمت: *يااااااه يا المهبول. لم تتغير كثيرا. ما تزال نقاط ضعفك هي هي. المعشوقة التي تريد أن تنهكك حبا، تعرف أماكنها المختارة وتعرف من أين تبدؤك وأين تنتهي بك.* وعلى الرغم من السعادة التي كنت فيها، لم أستطع تفادي رجفة انتابتني بقوة فقدت فيها السيطرة على جسدي. ربما لأني لم أصدق ما كان يحدث لي. هل يعقل؟ سيدة الأنامل الناعمة تعرف تتمادى في كل هذا الهبل؟

- حبيبي أنت ترتجف.
- أنا أرتجف. نعم. لا أعرف لماذا. حقيقي لا أعرف لماذا. شعرت بخيط بارد يخترقني

بعنف من الداخل. مع أن الماء دافئ والشلال مريح.

كدت أقول لها دفؤك سحرني، لكني تراجعت خوفا من فقدانها. الخوف من الفقدان يكبّلني دائما ويعقد لساني ولا يمنحني فرصة التعبير عما يحترق داخل القلب.

- لحظة. سأخفف من رجفتك. قلّل من تشنجك أرجوك. اتركني أفعل. سأعرف كيف

أرجع الحرارة لجسدك. انتظر لحظة. أغمض عينيك قليلا.

أغمضت عينيّ مرة أخرى، ثم أرخيت جسدي.

- جيد يا قلبي.

سحبتني نحوها، من الوراء، بهدوء، حتى شعرت بنهديها يضغطان على ظهري، وبنبض الحلمتين النافرتين. ثم واصلتْ دلك ظهري وخصري وفي الوقت نفسه، ظلت تصب الماء الدافئ على كامل جسدي حتى استعدت دفئا هرب مني فجأة. شعرت بعدها براحة كبيرة. وشوشت في أذني:

- كيف تشعر بنفسك الآن يا قلبي.
- أفضل بكثير. بل أجمل. أشعر بأن جسدي، من شدة خفته، لم يعد لي.
- جميل.

ثم بدأت تتوغل أكثر بأصابعها في كامل جسدي وتلتصق بي كأنها كانت تخاف من أن تفقدني. مرّرت أصابعها على شفتي وكتفي، فشعرت برغبة كبيرة في الالتفات نحوها. لم أعد أتساءل كثيرا عما يمكن أن يحدث. كانت هي من ساعدني على الالتفات نحوها بهدوء برؤوس أصابعها. كلما زادت حركات لمساتها في أمكنة محددة من جسدي، زاد اشتعالي حتى وجدتني منغمسا معها في عري كامل، وسط خرير مسقط المياه والأنوار التي كانت تغرقنا انعكاساتها. لا شيء يفصلنا إلا الجنون الذي تخفّى كثيرا قبل أن ينفجر فيّ مثل البركان. شعرت في البداية بدفء شفتيها. بطعمهما الكرزي وامتلائهما. في لحظة ما سمعت تمتمتها الآتية من بعيد: *حبيبي. أخيرا منحني الله لك. حوريتك التي سرقتْ منك أو سرقتَ منها.* غمغمت لأن الكلمات طارت من على لساني فجأة. كنت في حالة دوار كبير. اشتهيت أن أرى قسمات هذا الوجه الساحر الذي لن يكون إلا نورا، لكني فجأة، وأنا في قمة التصاقي بها، خفتُ أن تنطفئ كل تلك اللذة المثقلة بعطر البنفسج والخزامى. كنت في عز دوار المتعة، وهي تتلوى وتتأوه أكثر مني، وتتوغل عميقا فيّ، في وضعيات غير متكررة. كانت سيدة اللحظة المجنونة. عندما انحدرت بقبلها قليلا تحت صدري، كنت قد بدأت أتشظى كنجمة هاربة. لم تترك مساحة واحدة عذراء في جسدي. عندما تجرأتُ وفتحتُ عيني لأرى وجهها، كانت قد التفتت برأسها إلى الخلف، وجسدها ما يزال عالقا بي. رأيت نهدين في عز نبوغهما الطفولي، تفاحتين من شوق وغواية. رأيت شعرها الأحمر الهارب مني شلالات وعرسا من الألوان. درنا دورات عديدة كأننا كنا نعوم في الفراغ. فجأة تغيرت الوضعية ووجدتها تحتي. فتحت هذه المرة أيضا عيني للمرة الأخيرة متعمدا وأنا أتمتم في أعماقي: *لأراها، ولأُبعث بعدها إلى الجحيم.* تذكرت كلمة قديمة: *Voir Venise et mourir* واسترجعت نقاشا جميلا بيني وبين صديقة إيطالية من نابولي التي قالت لي عندما سمعتني أكرر المثل، وهي تضحك. في الحقيقة هذه المقولة سرقت من مدينتنا نابولي لأنها قيلت عنها في الأصل: *Vedi Napoli e poi*

muori، سكان نابولي يقولونها للإشارة إلى مدينتهم المدهشة التي يحتاج الإنسان أن يراها على الأقل مرة واحدة في الحياة قبل أن يغادر هذه الأرض. أقنعت نفسي أنها كانت مثلي، امرأة من لحم ودم وبراكين خامدة ونور خفي لا يتجلى إلا على أيد عاشقة. أنا في النهاية لم أفعل ما يغضب الله والملائكة. وإذا كان كل ما حدث هو لعبة أخيرة من الشيطان ليبعث بي إلى الجحيم النهائي، أنا مستسلم لهذا القدر الشهي. قدر الشيطان.

وكأنها قرأت كل ما كان يدور برأسي. وهي تلتفت بحذر باتجاهي، مدت أصابعها الناعمة إلى وجهي وأغمضت عيني اللتين لم تقاوما سحرها ورغبتها.

- سينو... تشتهي أن تراني يا قلبي؟
- محروق من أجل ذلك.
- شوف حبيبي. نتفق أولا. سأتركك ترى وجهي ما دمت تريد ذلك. لكن ليس دفعة

واحدة. افتح فقط عينيك بهدوء. يجب أن تراني شيئا فشيئا، لكي لا تخسرني إلى الأبد ولا أخسرك أيضا. مازلت جائعة إليك. الاكتشاف السريع والمتسرع، يقلل من عمر الدهشة.

لم أستطع أن أكتم أحاسيسي، كدت أجهش لكني تماسكت.

- نعم. سأفعل ما يريحك. لن أراك دفعة واحدة.

ثم بدأت تنزع أصابعها واحدا واحدا من على وجهي، وعلى عيني.

- سأسألك في كل مرحلة، وأنت تجيب بما تراه أمام عينيك.
- سأفعل على الرغم من أني سجين هذا البهاء الغريب، وهذا الدوار الذي لا يتوقف.

كل شيء يدور تحت رجلي وفي رأسي. هذه الألوان وعطر الخزامى والبنفسج وجسدها، كان يسكرني ويرميني في أعماقها ولهيب نارها. هي لم تشبع منّي، وأنا أتضور جوعا وعطشا لها. لا أدري كيف كبرت هذه الأشياء بسرعة وكيف خطت مصيرا لم أفكر فيه أبدا.

-     يا ميما... يجب أن تظل جائعا قليلا لكي لا تنساني بسرعة، حتى في هذا المكان توجد

ذاكرة. لا أريدها أن تموت أبدا. أنت تعني لي الشيء الكثير، لهذا قرأ الله قلبي فوضعني هنا لأكون دليلك في مسالك التيه.

-     ميما... يااااه... ما هذا الذي يحدث الآن؟ ليس مجرد إشارات ملكوتية تأتيني من بعيد

لتنبهني أن المسافات التي نحتتني ببعض قسوتها، تأتيني الآن بكل عنفوانها. *ميمااا*... بهذه الكلمة، ذكّرْتِني بامرأة كانت تقولها لي بعد ميما أميزار، لكنها سُرقت مني. سرقت وأنا لم أفتح بعد عيني لأحبها كما نشتهي. كانت بوابات الحياة ثقيلة وصلبة، مزيجا من الفولاذ، وقشور حجر الصوان، وخشب الزبوج، مغلقة في وجهينا، ويوم فتحنا بشدة الحب والإصرار والجنون أحيانا، ابتلعتها الأبواب نفسها، لتطير في فراغ لم أجد له أي طريق لأصل إليها ثانية وأدركها قبل فوات الأوان. كنتُ مفتونا بمـ...

في اللحظة التي حاولت أن أقول لها *مينا*، كانت تفعل بي الشيء نفسه. وضعتْ ذات الشعر الأحمر أصابعها على فمي كأنها لا تريدني أن أتكلم، ولا حتّى أنطق بالإسم(بالاسم) لا مبرر لذلك. ربما مجرد غيرة نسوية، أو ربما لم تكن تريد أن تسمع اسم أية امرأة أخرى في لحظة حميمية كهذه. من حقها. قالت بهدوئها المعتاد: *شششششت. انس كل شيء يا قلبي. افعل فقط ما قلت لك. هل أنت مستعد؟ ابدأ الآن بفتح عينيك شوي، شوي. دع قليلا من النور يدخلهما. قليلا فقط.*

-     بدأت أفتح.

-     ماذا ترى؟

-     ظلمة يخترقها نور خفيف، يغمره لون بنفسجي غامق ولا شيء غيره. عفوا أرى أيضا ذرات دقيقة تلمع كحبات الفضة، ونقاطا حمراء صغيرة غير ثابتة، تتحرك كاللعب النارية.

-     بالضبط ميما هذا ما يُفترض أن تراه في الوقت الحالي.

كانت تواجهني بكل نعومتها وخفة حركاتها وسحرها. قلبي يدق بسرعة غير معهودة لهذا الامتحان الغريب بعض الشيء، وجسدها ينبض، في قمة جموحه.

- افتح قليلا أكثر ميما...
- ها أنا ذا قد فعلت.
- ماذا ترى الآن؟
- ياااه. أكثر من المرة السابقة. أية دهشة؟ أشعة كثيرة سائلة كالماء، تتداخل فيما

بينها. تتجاذب وتتنافر، وفي أحيان كثيرة تتماهى في بعضها البعض.

- هل ذهب السواد كليا؟
- لا سواد يا قلبي. كل ما أراه ساحر ومضاء. أنوار ملونة على الرغم من طغيان الأزرق، تتلألأ كما على شجرة الغواية التي رأيتها قبل قليل.
- لا. ليس قبل قليل، قبل مدة لا بأس بها. أنت لا تعرف الزمن هنا. الزمن هنا لا معيار

له. هو معيار نفسه. انس شجرة الغواية. غيرة مآلها خراب. أنا أيضا لا أحبها منذ أن جُردت من سحرها وانكشف سرها. أعطني تشبيها آخر أحبه، ويقربني منك غير شجرة الغواية.

- مثلما لمع جسدك عندما تخطيتِ لأول مرة عتبة الشلال، وأنت تأتين صوبي.
- هذا أحلى. أحبه لأنه يشبهك. يشبهني أيضا.

لا أدري لماذا كنت أشد على جسدها. كلما تكلمتْ أو تكلمتُ. سحبتها نحوي أكثر لأشعر بها بشكل أعمق. أتلمس تفاصيلها وأنا غير مصدق أن ذات الشعر الأحمر معي، وفيَّ، في مخبئنا المائي. كأني، في أعماقي، كنت خائفا من أن تهرب مني في اللحظة التي عثرت فيها عليها، لكني كنت أشعر أنها كانت مرتاحة، بل ومستسلمة لي بلا شطط، وبلا أسئلة قلقة. كانت تصنع لذة بالعادي، وسحرا بغنجها.

- *ميما*... افتح عينيك أكثر. ماذا ترى الآن؟
- يااااي، سأموت أنا الميت الحيّ. أرى جسدك النحاسي كأنه منحوتة من منحوتات

رودان[23]. وجهك الهارب، أي سحر مخدر؟ مثل رأس فارين « Tête Warren »
لم تستطع كتم ابتسامتها التي أشرقت تحت الأنوار الهاربة التي كانت تخترق المكان من حين لآخر.

- رودان؟ يااااه كل هذا الحظ. هل تدري ما قاله عن هذه المنحوتة التي سلبته عقله

وحواسه، وكادت تقتله انتشاء وغيرة بسبب أنه ليس هو صانعها؟ لقد أصيب بالدهشة. اسمع هزته ورجفته.

« *C'est la vie même. Elle incarne tout ce qui est beau, la vie même, la beauté même. Elle est admirable. Les lèvres entr'ouvertes ! Je ne suis pas un littéraire. Je ne suis donc pas capable de décrire ce véritable chef-d'œuvre. Je peux ressentir, mais je ne peux trouver les mots justes qui pourraient exprimer ce que je ressens. C'est une Vénus ! Vous ne pouvez imaginer à quel point cette Vénus m'intéresse. Elle est comme une fleur, un joyau parfait. Tellement parfaite que c'est aussi déroutant que la nature elle-même. Rien ne pourrait la décrire*[24]» .

- نعم. أعرف جيدا الجنون الذي انتابه، وهو يتأملها ويلمسها وتحسسها بعينيه.
- واصل حبيبي. قل لي ماذا ترى؟
- أرى جسدك، لكنه مثل اللوحة الزيتية التي صُبَّ عليها الماء، فانمحت حدود ألوانها.

[23] هو فرانسوا أوغست رودان. ولد في 1840، وتوفّي في 1917. وهو نحّات فرنسي مهمّ، يعتبر أحد أهم المؤسسين لمدرسة النحت الحديث.

[24] هي الحياة، تجسد كل ما هو جميل، الحياة نفسها. مدهشة بشفتيها نصف مفتوحتين. لست أديبا وبالتالي لستُ قادرا على وصف هذا العمل الخارق. أستطيع أن أحس عميقا من دون امتلاك القدرة على التعبير. فينوس. تستطيعون أن تتخيلوا إلى أي حدّ تهمني فينوس هذه. هي مثل النوارة أو المنجز الكامل. تامّة إلى درجة التيه، مثل الطبيعة. لا قوة تستطيع وصفها.

فاختلطت الأشكال كلها. الوجوه والنباتات والمزهريات المحيطة، وعطر البنفسج. أرى شيئا يشبه وجهك، لكنه مغيم وغير مستقر. ملامحه من نور، وخطوطه من شمس، وألقه مثل فجر ربيعي.

- افتح أكثر قليلا يا قلبي. اعذرني إنّي أعذبك. لكني أريدك أن تراني، لا أن تخسرني.

- كيف أخسرك؟

- لا أريد لك أن تصاب بالعمى في اللحظة التي أمنحني فيها لك. ماذا ترى الآن؟

- يااااه كل شيء أصبح واضحا أو يكاد. أرى جسدا من فرح، مثقلا بالنور. وأرى وراءك بالضبط،

خيطا من الماء، بنفسجي اللون. أرى قليلا عينيك اللتين لا لون لهما. عينان مائيتان بخضرة تتماهى مع اللون الأخضر الخافت. يااااه... سبحان الله تتشابهان بشكل غريب...عيني....

- ششششtime...

- لماذا تمنعينني من الكلام، أنا في حالة غليان داخلي؟

- لم أطلب منك هذا. احتفظ به لنفسك الآن على الأقل. كل ما يأتي في غير وقته، هو

مثل الفاكهة المجبرة على النضوج، تذبل بسرعة.

كنت فقط أريد أن أقول لها إن عيني مينا كانتا تشبهان عينيها، وأن رائحة جسدها تشبهها أيضا، مع أني أعرف مسبقا أنه شتان ما بين ملاك يجوب فيافي البرزخ كما يشتهي، وامرأة سرقوا طفولتها ونضجها وحبها ورموها في ماخور خال من النور والحب، واتهموها بكل صفات الموت ولم يكلفوا أنفسهم بسؤال واحد: *هل كانت مينا تشتهي أن تكون كذلك؟* شيء واحد كنت أتمناه في أعماقي وأخافه : أن يمنحها الله بما يحمله قلبها لا بما أجبروها على فعله؟ أعرف أنه ليس سلطاني، سلطانه، ولكني أعرف أيضا أن غفرانه مساحة خير.

في عرق ذات الشعر الأحمر شيء من طعم عود النوار والكرز الوحشي، والمرمان والعرعار القوي. كانت بعض تفاصيل الوجه قد ارتسمت قليلا وأصبحت الحدود الفاصلة واضحة. الشيء الوحيد الذي كنت متأكدا منه، هو أني كنت في حالة هي على حافتي رعشة الحلم ونور الحقيقة. حالة لم أشعر بها أبدا من قبل. لم أكن أتصور، ولا في أية لحظة، أن صاحبة الشعر الأحمر تمتلك كل هذه الطاقة الخفية من هبل الحب، في جسد صغير من الجنون وحرائق البراكين الخامدة.

مدت يدها نحوي. قبلتني. ثم ضمتني بقوة. وشوشت في أذني بغنج كبير.

- أحبك. هل تدري أني أحبك. *نمووووت عليك، ونهبل ونقطّع حوايجي*[25].

هذه أيضا فيها شيء من لغة مينا عندما تصل إلى سقف هبلها.

- هل أفتح عيني.

- ضع أولا وجهي بين كفيك ولا تتركه يهرب منك. *وشدّني إليك كما يشد الله قوسه*

دون أن يكسره. أريد أن أشعر بقوتك، وأفتحْ عينيكَ في عينيَّ فقط، ولا تسألني عن أي شيء.

فتحتُ عيني في عينيها، ووجهها بين كفي. عينان من نور. يكاد البؤبؤان من خضرتهما الناعمة أن لا يظهرا. رأيت أيضا بياضا صافيا في عينيها كان يتسع إلى الأقاصي كلما تأوهت، أو كلما تسرب بعض النور من وراء ستائر الماء البنفسجية. رأيت أشياء كثيرة فيها لم أعهدها، أنا الذي تعود فقط على ملمسها وظلها وعطرها. فجأة استقرت عيناي على لحظة لم تمر عابرة.

تمتمت وأنا لم أرَ وجهها كليا. لكنها سبقتني إلى السؤال.

- حبيبي. هل لاحظت شيئا؟

- نعم. لكن يا قلبي لم أعد أفهم... يعني... أخاف أن أزعجك باسمها.

- قلْ. أني لن أغضب منك. لن أهرب من ذراعيك. قلْ.

- عديني أولا بأن لا تغضبي مني. أريد أن أسمعها من شفتيك.

---

[25] أمزّق لباسي.

قالت وهي في نفس الوضعية الأولى. مثبتة عينيها في عيني، بينما ظلت بقية ملامح الوجه غائبة، غير واضحة لأنّ شعرها أيضا كان يغطي على جزء منه.

- أعدك. كيف أغضب منهك يا المهبول وأنا أرتعش بين ذراعيك مثل قطرة ندى في

وجه عاصفة من الرياح؟ قلت لك فقط شدني إليك أكثر فأكثر. ماذا ترى إذن؟

- أرى الآن في عينيك أول امرأة عرفتها في حياتي. أول امرأة أخرجتني من ظلمات

الحيوان ومنحتني صفاء لم أبحث عنه لأني لم أعرفه قبلها، أو ربما كان فيّ وكنت بحاجة لمن يحركه. كل إنسان جميل وسوي، يطمح إلى أن يخرج من حيوانيته، يحتاج إلى صدفة عاطفية كبيرة لها ثقل الصدمة التي ترجعه إلى صغره الخفي وقوته أيضا، وإلا سيظل يمارس ما تمارسه الدابة بلا كلل، ويذهب للنوم بعد الانتهاء من غرائزه. علمتني أن أتكلم بقلبي، وبكل حواسي وليس فقط بلساني. كانت سيدة القلب والروح وخيبات الدنيا. من النوع الذي لا يعرف أنصاف الأشياء ولا يؤمن بها. كانت دائما تقول: *أنا هكذا يا غالي. خذني أو ارمني من الآن. أنام مع العشرات من مشتري اللذة ولكن لا أحد في قلبي غيرك. أحبك بكلي ولم أترك لنفسي شيئا مثل أختك زوليخا التي حكيتَ لي عنها. لأنّي أعرف أن الحب الكلي نهايته التشظّي الكلي أيضا. أجمل شيء فيه أنه يمر كلمح البرق، يأخذ في أثره كل شيء، لا ينهك صاحبه ولا يعذبه.* هل أواصل؟ ليس جميلا أن أحكي عن حب سابق، لم يُكتب له أن يستمر، وأنتِ بين يدي؟

- لا تفكر كثيرا، أنا بين يديك باشتهاء. أحبك هكذا. من قال لك إن كلامك لا يسعدني

ولا يملأني بهاء وجنونا؟ من قال لك إني لا أريدك أيضا. واصل ميما كما يقول لك قلبك... تذكر فقط ما قاله لك جدك، لأن قلبك سيحاسبك وحواسك ستحاصرك ولن تغفر لك. لا تسبق ولا تتأخر، حينما يحين وقت الأشياء. أنا منغمسة فيك كليا. فقط لا تغادر عيني وشدني إليك يا قلبي، لكي لا أتبعثر كنجمة محروقة. شدني ولا تتركني

لأني أنا أيضا أخشى أن تسرقني النهايات التي لا يعرفها إلا من وضع ميزانها. شدني إليك واحك ما في قلبك...

- قصة قديمة. سامحيني إذا آذيتك بها.

- قلت لك أريدها. أشتهي سماعها. أعرف أنه لا امرأة تريد سماع قصة حبيبها مع امرأة غيرها. لأنها لا تنظر لها كقصة ولكنها تراها كفعل. لحظات حميمية يصعب ابتلاعها. تأخذ وقتها في تفصيلها ولمسها ومساءلتها. بل رؤيتها. ما يحكيه الرجل لغة عن حبيبته، هي تراه وتلمسه وتشمه. لكني أريدك أن تقول لي عن كل شيء. يهمّني لأنني معنية بك وبه أيضا.

شددت على وجهها أكثر في عمق الظلال التي كان يخترقها، من حين لآخر، نور من انعكاس الأشعة الخارجية على الماء، فتتجلى ملامحها كاملة بكل ألقها ووضوحها. مرة أخرى، تأملت عينيها المائيتين الغارقتين في نعومة الأخضر البارد، والمشتعلتين بالنور، لأتركني للمرة الأولى أتمادى فيهما. كانتا مثل موجتين هادئتين بعد عاصفة استمرت طويلا. ارتميت بنعومة على ساحليهما وتركتني أقتفي خطوات مينا البعيدة عني والعميقة فيّ، لحظة لحظة، خطوة خطوة، ونفسا نفسا.

لم أشعر بالتعب، كنت في أعالي الفرح، وكانت داخل رجفة القصة. لأول مرة تنقلب الأدوار وأشعر بذات الشعر الأحمر في عزّ هشاشتها. كان جسدها يرتعش.

- بردانة يا قلبي؟

- لأني أسمعك بكلّي. ضمّني إليك كما ضمّ سيدنا المسيح مريم المجدلية، فقط ليقنعها

أنها بخير، وأن القتلة انسحبوا ولن يرجموها، وأنه يحبها ولن يترك أحدا يلمسها. ضمّني حبيبي إليك، البرد بردهم يا قلبي. وخوفهم لم يعد رعبا، لقد أصبح في العظام. ما كان يحدث أمام عيني تجاوزني، لم يعد حتى خيالي قادرا على تحمله.

شعرت برغبة كبيرة لضمها أكثر خوفا عليها من تلاش شعرت به وشيكا أكثر من أية لحظة أخرى. الحب الكبير يعقبه تلاش أعظم. كنت خائفا أن أكسر نعومتها وهشاشة جسدها الذي عبر بي عالما لا أستوعبه، ولست قادرا على توصيف ألوانه وأشكاله وبهاء سحره، لكني لم أتوقف عن شدها نحوي في حالة التصاق كلي كما شاءت وكما

اشتهت أعماقي الخجولة والخائفة، إلا عندما سمعت همهمتها الخفية: حبيبي *أنا بخير.*
ما زلتُ أشتهي سماعك. شدني يا قلبي إليك كما يشد الله قوسه دون أن يكسره.

شددتها كما اشتهتْ، ثم تركتني ألملم أجزائي الضائعة، وأجزاء مينا بلا تردد ولا كلل.
لم أكن فقط في أراضيها البكر، وفي عطرها وعرقها، ولكني كنتُ أيضا في صلب لغتها التي كانت تقربني في كل ثانية منها أكثر.

كدتُ أصرخ، ولكنّي لم أفعل: *أيتها المهبولة التي سرقت مني كل حواسي، أين كنتِ كل هذا الزمن؟*

4- مَنْ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيئَةٍ؟

لماذا تفعل بي هذه المرأة ما تفعله عاشقة مجنونة برجل مأخوذ بها؟ أهي ملاك يؤدي وظيفة موكولة له، أم شيطان سرقني من الشياطين الأخرى التي أنقذني منها، فقط ليستفرد بي؟

- *شيطانة مأخوذة بك. بالضبط يا قلبي.*
- *لم أقصد... عفوا.*

سمعت صوتها، ثم صوتي، في داخلي.

انتابني لحظتها إحساس غريب وأنا أستحضر مينا، جعلني أشتعل حنينا وخوفا، وأنطفئ قبل أن تلحق النار قلبي. كنتُ حزينا عليها ومنكسرا في داخلي. لا أدري لا متى ولا كيف مرت بي فكرة هاربة لم أفهم سرّها إلا لاحقا. فقد رأيت سيدنا المسيح عليه السلام، بسماحة قلبه وعفوية حسه ونبل أشواقه، وهو يبكي، ساجدا عند رجلي مريم المجدلية التي اتهمها بعض اليهود بالزنا، وطلبوا منه تطبيق حدّ موسى عليها. رأيته بهاتين العينين اللتين استمتع بهما الدود في خلوة القبر، يرفع رأسه، فلا يرى إلا عيونا مليئة بالخراب والدم، تطلب منه رفع يده للبدء في رجم المرأة التي كانت تنام عند قدميه. مريم المجدلية. لكن يده ترتجف فلا ترتفع. أتساءل اللحظة، ما الذي جاء بكل هذا السيل من الخوف بعد كل هذا الزمن؟ ربما لأن حواسي كلها صمتت، وكنت أحكي بقلبي فقط لأنه كان الأقدر على تحمل كل تلك الآلام. استحضرت مريم بجرحها الأبدي، ورأيتهم يأكلون لحمها وهي تنزف. لكنني في النهاية لم أر إلا وجه مينا، المرمية عند الأرجل، وهي ترتعد من شدة الخوف من الأيادي التي كانت تتهيأ لرجمها. وزاد رعبها عندما سمعت كورسا جنائزيا يأتي من المبهم، وربما من أعماقها، بعد أن لملم أشلاء المقتولين ظلما. كان أنينه واضحا.

2 وَعِنْدَ الْفَجْرِ عَادَ إِلَى الْهَيْكَلِ، فَاجْتَمَعَ حَوْلَهُ جُمْهُورُ الشَّعْبِ، فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُم.
3 وَأَحْضَرَ إِلَيْهِ مُعَلِّمُو الشَّرِيعَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً ضُبِطَتْ تَزْنِي، وَأَوْقَفُوهَا فِي الْوَسَط.
4 وَقَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، هَذِهِ الْمَرْأَةُ ضُبِطَتْ وَهِيَ تَزْنِي.
5 وَقَدْ أَوْصَانَا مُوسَى فِي شَرِيعَتِهِ بِإِعْدَامِ أَمْثَالِهَا رَجْماً بِالْحِجَارَةِ، فَمَا قَوْلُكَ أَنْت؟

6 سَأَلُوهُ ذَلِكَ لِكَيْ يُحْرِجُوهُ فَيَجِدُوا تُهْمَةً يُحَاكِمُونَهُ بِهَا. أَمَّا هُوَ فَانْحَنَى وَبَدَأَ يَكْتُبُ بِإِصْبَعِهِ عَلَى الأَرْضِ.

7 وَلكِنَّهُمْ أَلَحُّوا عَلَيْهِ بِالسُّؤَالِ، فَاعْتَدَلَ وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيئَةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَر.

8 ثُمَّ انْحَنَى وَعَادَ يَكْتُبُ عَلَى الأَرْضِ.

9 فَلَمَّا سَمِعُوا هَذَا الْكَلاَمَ انْسَحَبُوا جَمِيعاً وَاحِداً تِلْوَ الآخَرِ، ابْتِدَاءً مِنَ الشُّيُوخِ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ، وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي مَكَانِهَا.

10 فَاعْتَدَلَ وَقَالَ لَهَا: أَيْنَ هُمْ أَيَّتُهَا الْمَرْأَةُ؟ أَلَمْ يَحْكُمْ عَلَيْكِ أَحَدٌ مِنْهُمْ؟

11 أَجَابَتْ: لاَ أحد يا سَيِّدُ. فَقَالَ لَهَا: وَأَنَا لاَ أَحْكُمُ عَلَيْكِ. اذْهَبِي وَلاَ تَعُودِي تُخْطِئِينَ!

شعرت بالنزف يكبر، ولكن كان عليّ أن أتجاوز كبره بالصبر. كانت مينا مثل مريم، ابنة طيبة لصياد للأسماك في ميناء بني صاف[26] البحر. شغفها الأوحد كان هو البحر والصيادين. قيل إن المجدلية وُلدت في مجدلا، وهي قرية صغيرة لصيادي الأسماك على الضفة الغربية من بحيرة على بعد خمسة كيلومترات من مدينة طبرية. أنقذها سيدنا يسوع المسيح من القتلة. فأصبحت من أتباعه أبدا ومن خدمه. هي التي وقفت بالصليب مع والدة يسوع. وبعد صلبه زارت قبره ثلاثاً. وعندما قام من بين الأموات، عاينته مرتين، مرة وحدها، ومرة أخرى مع بقية حاملات الطيب. سافرت إلى رومية وعرضت شكواها على الإمبراطور طيباريوس قيصر في شأن الظلم الذي ألحقه بيلاطس بيسوع. فعزل القيصر معذب يسوع، بيلاطس، وربما قتله. بعدها أمضت بعض الوقت في أورشليم، قبل أن تستسلم للتربة التي نحتت قلبها بالسماحة والغفران.

كانت مريم، في كل خطوة من خطواتها، تتماهى مع مينا التي لا أعرف ماذا فعل بها قتلة القلب. مريم لم تجد يسوعا يخفيها في بيته، بعيدا عن ظلمتهم القاسية. بسبب الحرقة التي كبرت فجأة فيَّ، تمنيت لو أن سيدة اللذة والحب وأصابع السحر والجسد الحيّ، أعفتني من هذا الألم الجارف الذي يقتلني مرة ثانية. الألم الأوحد الذي لم أكن قادرا على تحمله، لأني أخفقت في تعريفه. كان ألما صعبا لأنه بلا اسم.

جاءني همس ذات الشعر الأحمر، من غياب كان يملؤني، وأنا أرى شفتيها تتحركان.

- حبيبي، أعرف شطط القلب وصبره، وإلا ما اخترت أن أهرب نحوك. لا يا قلبي،

---

[26] مدينة وميناء صيد في الغرب الجزائري.

احك مادامت امرأتك قد انتابتك مثل غيمة دفينة. قلْ. كل الذي يبقى فينا يموت أو ينقلب لينغص علينا أبديتنا. الحياة الآن شيء آخر. تخلص من خوفك وقلْ. ألم تقلْ *نحتاج إلى أن نعيش أولا*. أنت في مساحة الامتداد يا قلبي. قل ما الذي يشتعل في داخلك. أريد أن أسمعك. الشيء الذي يأتي منك ليس كالشيء الذي يأتيني من بعيد. قُلْ. أنا على حواف قلبك أنتظرك أن تأتي. قلْ.

لا أدري كيف منحتني كلماتها قوة وعنفوانا جديدين. بل كيف أخرجتني من جبروت الأسئلة التي أخاف أن تسحبني نحو انزلاقات لا يريدها لي لا الله، ولا من يحبني. لمسَتُها على شجني فتحت أمامي كل الأبواب التي انغلقت ورائي، عندما أغمضت عيني وتركتني أرحل نحو معاريج الأبدية.

- سأقول يا قلبي. كنت صغيرا، سني لم يتجاوز السابعة عشرة. كنت تلميذا في داخلية

ثانوية *بن زرجب* بتلمسان. مرّ عليَّ كعادته كل يوم أحد، ابن عمي، *رمضان* الذي كنا نسميه *رامي*. فأخذني معه نتجول داخل المدينة وأحياءها القديمة ويقص عليّ بعض مغامراته. وعندما نتعب، نتغذى في مطعم شعبي وراء المشور. أرافقه بعدها حتى المدينة القديمة، في سوق القيصريات، ليقوم بما جاء من أجله، وأعود ركضا إلى الثانوية. في ذلك الأحد، تجولنا طويلا بين معالم المدينة، ومنها قصور الملوك الزيريين. كان يعرفها واحدا واحدا حتى تلك المدفونة تحت التربة. ثم انزلقنا نحو مطعم أدخله لأول مرة، ليس بعيدا على حي القيصريات. فجأة سألني عن علاقاتي بالبنات. ضحكت. أعرف جيدا سخرية رامي الذي يحول كل شيء إلى حالة مضحكة وثقيلة، لكني أتحملها لأني أعرف أنه يحبني من قلبه. بعفوية حكيت له قصتي مع صديقتي شافية قارة، التي *أشعر أنها تحبني ولكنها لا تتكلم وأنا أيضا لا أتكلم*.

- زوج بكاكيش يعني. هي بكماء وأنت أكثر منها ههههه.

قالها ضاحكا. ثم أضاف.

- ومن تكون هذه المخلوقة التي بلعت لسانها وسرقت لسانك؟

- شافية قارة طيبة. من عائلة تلمسانية عريقة. هم من أصول تركية كما تقول. أعتقد

أنها تقول الحقيقة. هي قالت لي. ويبدو أن كل عائلة قارة أصولهم تركية.

- يا سيدي تركية وإلا طليانية، المرأة امرأة أينما كانت. مبروك عليك هذا الصيد الجميل. قل لي، بيضاء وإلا كحلة. الأمر يختلف.

- ما الفرق. هذه عنصرية يا رامي.

- ليس هذا قصدي. سوى أن كلمة قارة تعني الأسود بالتركية. ثم يا حبيبي الكحلة سخنة

كالنار، والبيضاء مرات تكون باسلة هههه. لما تكبر وتجرب تعرف. ابق الآن كما أنتَ. طفلا بنواياه الطيبة.

كان محقا. كنتُ طفلا بنوايا طيبة. لكنه كان قاسيا معي قليلا. كتمت غضبي قليلا.

- شقراء. وعيناها...

- خضر. على بالي.

قالها كمن يعرف كل شيء. في أعماقي كنت أنتظر اللحظة التي أتركه فيها لأنه بدا لي ثقيلا هذه المرة في مزاحه، على عكس المرات الماضية، عندما يمر عليّ في الثانوية. حتى إنه بدا لي عدوانيا أيضا.

- صحيح. عيناها خضراوان. ورثت اللون من أمها، من أصول أندلسية، إشبيلية.

- الأتراك. الأندلسيون. مزيج يجعل الجمال خارقا. لكن خسارة يا حبيبي. هي بكماء

وأنت أكثر منها، وتنتظران المطر ينزل عليكما في عز الصيف. الحياة للذي يقوم باكرا يا الغزال.

ضحك رامي مني طويلا. حتى أصبحت أضحك بغباء لضحكه المجنون. سألني ثانية وهو يمسح دموع الضحك من على وجهه: *ما الحب يا حبيبي؟* انغلق مخي فجأة. لم أجد أية كلمة تعبر عمّا كان في قلبي. تمتمت وأنا غير واثق ممّا كنت أقوله: *أشعر مع شافية قارة، أني مرتاح وسيد الدنيا. فأحاول أن أبرز أمامها كل مواهبي وسخريتي لكي تضحك. هي تحب الضحك كثيرا. أشعر بأنها ترتاح لي.* لم يقل شيئا. لم يعلق. وعندما غادرنا المطعم ومررنا على طريق البِلاطان الجميل، توقف لحظة ثم نزع ورقة من شجرة البلاطان. ورقة عريضة مثل تلك التي كنا نكتب عليها رسائل الحب، ثم

نرميها في الهواء عندما تكون الرياح قوية، ونتأملها من بعيد وهي ترفرف في الفضاءات العالية ونتمنى أن تسقط بين يدي شابة في سننا تكون حبيبة المستقبل. قالي لي، *انظر يا لزعر الحمصي*. ثم رمى بالورقة عاليا. ولكنها سرعان ما تهاوت. أضاف. *هل عرفت لماذا سقطت؟* هززت رأسي، بأني لا أدري. كأنه لم ينتبه لي. واصل حديثه:

- سقطت يا عزيزي، لأن قوة الدفع غائبة.

ثم التفت نحوي من جديد.

- الحب ليس ضحكا وتْهَرْهِيرْ فقط، يا ولد عمتي أميزار. الحب شيء أكبر من هذا كله.

يمكنك أن تقضي حياتك كلها وأن تبحث عما يضحكها، ويوم تختار، ستتركك وتذهب نحو غيرك. فهل تجرأت يوما قلتَ لصاحبة المقام العالي، شافية قارة، أحبك؟

أجبته بلا تفكير.

- لا يا رامي. هي فقط تعرف أني أحبها، بصّح تحشم، وأنا أكثر منها.

هذه المرة لم يضحك وهو يلتقط ورقة البلاطان التي رماها قبل قليل.

- هل قبّلتها يوما؟

ضحكتُ أنا هذه المرة. أجبته بلا مراوغة:

- لا. أنا كي نجي قدام شافية قارة، تتلف لي الهدرة، وأنت تحكي لي عن القبلة؟ يا ولد

عمي أنا مش أنت. أنا صغير وهي صغيرة. كل شي يجيء مع الوقت.

- وهذا ما كنت أظنه. لازم لك قوة دفع يا حبيبي، مثل ورقة البلاطان لتطير في السماء.

قلت وأنا أتذكر شيئا غاب عنّي، لإقناعه.

- طبعا لم أبق مكتوف الأيدي. وليد عمّك قادر على شقاه.

فتح رامي عينيه عن آخرهما مندهشا من كلامي الذي بدا لي عاديا.

- عملتها يا حلّوف ولم تخبرني؟ احك كيف تم ذلك؟ أنت من أصحاب، بخبطه، بلصقه.

- لا ليس ما تظنه. كتبت لها قصيدة. قلدت فيها الشاعر الفرنسي رونسار وحبيبته
هيلين، من القرون الوسطى. درسنا قصيدة له في الكوليج، يلومها فيها كيف أنها تتكبر عليه وترفض أن تستمتع بالحياة معه. ينتقدها بأن ينبهها إلى أن حياة الشباب قصيرة. وأنها ستشيخ ولن تجد وقتها من يحبها.
قال رامي بعد أن برقت عيناه فرحا: وهل تحفظ قصيدة رونسار.
- أعرف بعض أبياتها. يقول فيها:

Quand vous serez bien vieille, au soir, à la chandelle,
Assise auprès du feu, dévidant et filant,
Direz, chantant mes vers, en vous émerveillant :
« Ronsard me célébrait du temps que j'étais belle ! »

Lors, vous n'aurez servante oyant telle nouvelle,
Déjà sous le labeur à demi sommeillant,
Qui au bruit de mon nom ne s'aille réveillant,
Bénissant votre nom de louange immortelle[27]

- مليح .وين البقية؟ خلاص حصلت؟ وقف حمار الشيخ في العقبة .
كنت أعرف أن رامي فوضوي، لكنه يحفظ الشعر كثيرا، ويقرأ الروايات بلا توقف. ويعرف كل خرائط العالم، والعواصم والمساحات، لكنه اختار *التراباندو* في النهاية لأن حياة الدراسة *ما تخرجوش* كما يقول *والتراباندو تجارة ورحمة للمؤمنين*. يأتي بالسلعة من أحفير وبركان أو وجدة وأحيانا يصل حتى الناظور، من المغرب، ويبيعها في تلمسان، لصاحب محل يعرفه ويثق فيه جيدا. ثم يقوم بمشترياته من القيصرية، وبعدها يعود إلى القرية منتشيا، بعد أن يتغذى في شلالات *لوريط*، أو يشرب بيرة تخرجه من كثرة الأسئلة والحسابات. الناس في القرية يعتبرونه ضائعا، وينصحون

---

[27] عندما تشيخين، تجلسين مساء على نور شمعة، تنسجين وتتذكرين أشعاري التي تسحرك وتقولين: *كان رونسار ينشدني يوم كنت جميلة*/ وقتها لن تجدي من يسمعك ولا خدما ينهكه التعب، يذكرك بخلود اسمك.

أبناءهم بأن يتفادوه قدر المستطاع، لكن قلبه طيب. هو الوحيد من أبناء أعمامي الذي يسأل عنا ويحبنا بقلبه.

- اسمع يا لزعر الحمصي بقية رونسار اللي تفتخر به. الحفظ هو أيضا نوع من الإدهاش لمن نحب. ولو أني ظننتك ستحكي قصة أجمل من الشعر.

Je serai sous la terre, et, fantôme sans os,
Par les ombres myrteux je prendrai mon repos ;
Vous serez au foyer une vieille accroupie,

Regrettant mon amour et votre fier dédain.
Vivez, si m'en croyez, n'attendez à demain :
Cueillez dès aujourd'hui les roses de la vie[28].

- واااااووووو يا رامي. أفرحتني. تحفظها كاملة.
- حفظتها في الوقت اللي كنت فيه مهبولْ كما أنت. هههه. هذه القصيدة من *أغاني إلى هيلين*. قل لي عن صاحبتك، واش القصيدة العصماء التي كتَبتها لها والتي أخلّت بتوازنها؟
- ما تضحككش. قل والله ما تضحك عليّ.
- تفضل قل يا شاعر قبيلة بني واسين... لن أضحك هههه.
- طبعا، سرقت كل أفكار رونسار، وقلت لشافية قارة كل اللي في قلبي، لأني كنت غاضبا من صمتها الذي كان يبدو لي غرورا بلا معنى.

---

[28] سأكون تحت التراب، شبحا بلا عظام/ وسأغفو مرتاحا بين الظلال/ بينما ستكونين في ملجئك، عجوزا منكفئة/ نادمة على حبّي وبؤس غرورها/ عيشي إذا كان يهمك ما أقوله، لا تنتظري غدا/ اقطفي بدءا من اليوم ورود الحياة.

جميلة بالجمال لا تكوني غرورة

حياة الوجود والجمال قصيرة

غدا تصبحين عجوزا

والدمع ينزل من عينيك قطيرا...

- يلعن دين اللي ما تحبكش على قصيدة مرنكة كما هذه هههههه... يا عيني على

امريء ألقيس. هو مسكين لكنه كان أفضل منك وأشطر أيضا. في النهار كان يعيش كما يشتهي، وفي الليل، عندما يكون وحيدا، ولا يجد أنيسا، يكتب الشعر. مش مثل عنترة مسكين، ظل يندب عبلة حتى مات. لا هو شبع منها، ولا هي شبعت منه. شوف يا وليد عمي الصغير. *يا لزعر الحمصي، اللي ما فيه ما توصّي*... راح آخذك اليوم لقصر مهم، حتى تكون عندك قوة دفع صحيحة في المستقبل، ولا تترك حبيبتك شافية قارة تفلت منك. حبيبتك تحبك أنت، أما القصائد العصماء التي تكتبها لها على الصبورة لكي تقرأها عندما تدخل إلى القسم، احتفظ بها لك. لن تنفعك في أي شيء.

كان رامي قاسيا معي، لكنه ربما كان صادقا أيضا. غضبت منه في أعماقي، ولولا حبي له، كنت تركته وعدت إلى داخليتي في الثانوية، فهي أرحم. كنت أحبه وأعرف أن قلبه جميل وأبيض. لم يكن أميا. فقد وصل حتى القسم النهائي وغادره بسبب عركة اختلقها بينه وبين السيد بورصالي، أستاذ الرياضيات. ليتوجه نحو التجارة والتهريب. هو يسمي نفسه رجل أعمال. حتى في جواز سفره مكتوب *تا*جر حر على الرغم من أنه طلب من الإدارة أن تكتب له في الجواز: *رجل أعمال*، لكن الإداري المكلف رفض. فوضع له تاجر حر وهو يضحك: *بزاف عليك يا رامي خويا. أنت مهرب معروف. ترابانده يقابله: تاجر حر، أما رجل أعمال هذه لازم تدفع الضرائب وتبين الشركات التي تديرها ههههه.*

ظل يضحك من قصيدتي، وأنا أضحك معه حتى وجدنا نفسينا في القيصرية. دخل محلّ أحد بائعي الذهب. اشترى خاتما. افترضت أنه يستعد للزواج. ثم مر عند بائع الكتان والأقمشة، استلم منه كومة أوراق نقدية وضعها في جيبه ثم خرج، بلا إطالة أو

حديث. فهمت أنها من ثمن الأقمشة التي يهربها، جاءه بها من الحدود المغربية الجزائرية.

قال وهو يتلمس كمية النقود التي كانت تملأ جيبه.

- *هكذا يا لزعر الحمصي نقدر نخرق السماء. الجيب مليان والراس هايم في الغيم.*

تدحرجنا بهدوء نحو الجانب السفلي من حي القيصريات. لم أكن أعرف إلى أين كنا نتجه، لكني بدأت أخمّن قليلا القصر الذي كان يقصده. دخلنا إلى حي شبه مغلق من كل الجهات، إلا المنافذ الصغيرة التي كانت تسمح للعابرين من أن يمرّوا من هذا الدرب أو ذاك. شممت رائحة غريبة شبيهة برائحة الحمامات. بدأت علامات الحي ترتسم في ذهني. كنا في عمق حي البراديل[29]. مشيت فيه مرة واحدة بالصدفة، أنا وعمر، أحد أصدقائي في الثانوية، الذي نبهني ونحن نقرأ على الحيطان كلمات *بيت شريف*: قال عمر: *أصلا لا يوجد أي بيت شريف في هذه الأمكنة.*

كثيرا ما كنت أكتفي أيام الآحاد، بالتجول مع رامي في المدينة، والأكل معه في مطعم المشور الشعبي، ثم أعود إلى الثانوية، أو أدخل إلى ملعب الإخوة زرقة، لمشاهدة مقابلة فريق وداد تلمسان عندما يلعب على أرضه. فقد كنتُ حارس أصاغرها الأول. بينما يتدحرج رامي نحو حي القصيريات لبيع سلعته أو تسلم ثمنها، ثم العودة إلى القرية، أو يهرب، كما يقول، إلى شلالات لوريط، يقضي جزءا من يومه هناك. يستمتع بالبيرة والخضرة وشلالات الماء المتدفقة من الأعالي.

سألته ونحن نواصل انحدارنا، بعد أن تجاوزنا كل المحلات.

- وماذا نفعل لكي لا نكون مثل ورقة البلاطان التي تسقط بسرعة؟

لا أدري ما الذي ذكرني بورقة البلاطان؟ ضحك رامي قليلا. بانت طيبته في ابتسامته الرشيقة.

- الآن بدأت تفهم يا صاحبي ويمكنني أن أتكل عليك. عليك أن تتدرب فقط كيف تكون

شجاعا أمام حبيبتك شافية قارة، حتى لا تهرب منك وتتركك.

---

[29] من أصل فرنسي Bordels التي تعني المواخير.

-	هذا كلام مليح. وماذا عليَّ أن أفعل؟

-	والو. *ناذا*. لا شيء. تشوف وتسمع وتتعلم.

ونحن ننحدر، رأيت بالفعل ما رأيته قبل سنوات عن طريق الخطأ. نفس الحيطان الجافة، مكتوب عليها بالطلاء الأبيض الذي يُرى من بعيد: *بيت شريف. Maison honnête* . سألت رامي بعفوية.

-	طيب لماذا يكتبون بيت شريف؟ هل عندهم شكوك في أنفسهم؟

-	عندما تكبر، تفهم.

-	يخافون أن يخلطوهم مع البيوت غير الشريفة.

-	وجدتَها لوحدك إذن. لكن المشكل أني كلما قرأت: *بيت شريف*، تأكد لي العكس تماما.

-	يخافون أن يخلطوهم مع ساكنات *البورديل* ؟

تمتمت بشفتين خجولتين.

-	نعم بورديل أو قصر عيشة الطويلة.

فجأة توقف رامي عند بناية عالية. مسح حيطانها بعينيه الصغيرتين، حتى استقر عند إحدى النوافذ. أطلت منها امرأة في عزّ العمر، نصف عارية. أشرت له بيدها. فرد عليها بقبلة بعثها لها بكفه ورماها نحوها في الهواء. عندما وصلنا إلى المدخل، استوقفتنا امرأة كان رامي يعرفها جيدا. كانت تدخّن، وتنظر إلينا بنصف عين من شدة الشمس التي كانت تنعكس على الأبواب النحاسية القديمة، وعلى عينيها. حياها رامي على وجهها.

-	واش راها لالة عيشة؟

-	مرنكة كما الجو... نهار مليح ونهار قبيح. غيبة هذه يا رامي، ولّينا نتوحشوك بزاف يا صاحبي. شكون هذا الموتشاتشو[30] اللي معك؟ تعرف القانون... أنت ابن الدار ولستَ غريبا؟

ابن الدار؟ تأكد لي أن رامي كان يعرف عيشة الطويلة جيدا. وضع في حجرها باكيت سجائر جيتان. قالت بعد أن لمعت عيناها نورا وفرحا.

[30] الطفل الصغير بالإسبانية.

-	الموتشاتشو يبان صغير... عمره فوق 18 سنة أليس كذلك؟ شوف لو مِينَا تْوالمه.

-	هو هكذا. ما يكبرش ولكنه يزحف نحو العشرين.

-	باين عليه.

قالتها بدون قناعة كبيرة.

غمزني. أدركت سرّ التواطؤ بينهما. فتحت عيشة الطويلة الباب بيدها اليمنى منكفئة إلى الأمام، بينما ظلت متكئة على اليسرى، بدون أن تقوم من مكانها.

-	ادخلوا. داركم. مرحبا بكم.

انزلقنا بسرعة إلى عمق البناية. عرفت بحواسي الحية، وممّا سمعته من عيشة الطويلة، أني كنت في حالة غير قانونية، بالخصوص عندما رأيت النساء الكثيرات شبه عاريات. لكن الفضاء كان دافئا ومعطرا على الرغم من هيمنة رائحة تشبه العرق النسوي والحمامات. شعرت بأنني كنت طفلا غريبا في عالم الكبار. حتى أني بدأت أتساءل في أعماقي إذا لم أكن قد ارتكبت حماقة بمجيئي مع رامي الذي ليس لديه ما يخسره، إلى هذا المكان؟ ضحكت من نفسي في أعماقي: *وماذا سأخسر أنا أيضا؟*

شعرتُ بأنّ كل النساء كن ينظرن إليّ ويتساءلن بقليل من الغرابة: *ما الذي جاء بهذا الموتشاتشو الأحمق إلى هذا المكان وزغبه لم يظهر على وجهه؟* سحبني رامي من يدي وهو يردد: *هذا وليد الجيران. عائلة أقزام، ما يبانش عليهم الكبر. الحلوف عنده أكثر من عشرين سنة... جاء معي فقط حتى يتدرب.* نظرتْ إليّ أحداهن، بثديين فائضين، وبعينين كبيرتين واسعتين كعيني بقرة. تسلقتني بنظراتها العديد من المرات، من رأسي حتى أخمص القدم، ثم بدأت تصعد وتتنزل بعينيها بسرعة أكثر، وهي تتسلى بفرقعة العلكة بين أسنانها.

-	جيت تتدرب آآآآآآه.

نظر إليَّ رامي وكأنه يدعوني إلى الرد.

-	نعم جيت أتدرب.

-	تعرف بلّي التدريبات لازم لها الصحّ. عندك الصحّ؟

-	الدراهم.

- لا. لا. الصحّ. سلاح التدريب.

- ما عنديش سلاح. لست هنا لكي أجاهد؟ ما نحبش البارود.

- شكون حكى عن البارود يا الغزال؟

- السلاح؟ ما عنديش.

قلتها بعفوية. أنا كلما ذكرت أمامي كلمة سلاح، ارتعشت قدماي، واصطكت أسناني، وتذكرت يوم القبض على والدي، وكيف هددوا بقتله أمامنا. مع ذلك تساءلت ما دخل السلاح في مكان مخملي وناعم ونسائي ومعطر كهذا؟ لابد أن تكون السيدة قد فهمتني بشكل خطأ، أو هي تتسلّى بسذاجتي، أو فهمتها بشكل غير صحيح، قد يكون قصدها غير ما فهمت؟

وقبل أن أسأل رامي واش حكاية السلاح؟ الصحّ؟ سحبني من يدي واشترى قرصين. وضع قرصا في جيبه، بينما دسّ الثاني في عمق كفي وهو يهمس لي:

- اسمع يا وليد عمي، إذا ضاع منك القرص، ضاعت منك الحياة وفرصة التدريب.

شدّه بقوة كما تشد على الحياة بأسنانك وبحواسك.

ثم عدنا إلى الفضاء الواسع مع بعض الرجال الذين كانوا يتحدثون مع النساء شبه العاريات. رامي أمسك بامرأة كان ينتظر نزولها من الدرج العالي. رأيتها. كانت جدّ أنيقة. هي نفسها التي حيته من النافذة عندما كنا نهم بدخول البناية. بدأت تلومه على غيابه، وهو يعتذر ويقبل رأسها وظاهر يدها اليمنى. ثم وضع الخاتم الذي اشتراه في أصبعها، فبرقت عيناها وقبلته من فمه. التفت نحوي:

- هذا الموتشاتشو وليد الجيران. من عائلة أقزام. ما يكبروش. عمره أكثر من عشرين

سنة. نظرت إليّ، ثم التفتت نحوه وهي تضحك بأعلى صوتها.

- واش قالت لك الباترونة على الموتشاتشو؟

- لالة عيشة. قالت لي الموتشاتشو، شوف له مينا.

- كنت راح نقول لك. الوحيدة اللي يقدر عليها. قزم؟ هههههه

ثم نادت مينا من المكان الذي كنّا نقف فيه.

- مينا. مييييييناااااا... انزلي عندك الموتشاتشو يستناك. جاء يزورك. الدنيا هانية،

انزلي. فجأة نزلت شابة بوجه طفولي فيه الكثير من البراءة والذعر. كل شيء فيها كان ناعما لولا الصفرة التي لم يخفها الماكياج الخفيف. كنت مندهشا في المشهد. قالت قبل حتى أن تتعرف عليّ أو تسألني عن اسمي: *موتشاتشو... اتبعني*. نظرتُ إلى رامي الذي قال ضاحكا.

- أنت ستدخل الآن ميدان التدريب.
- وماذا سأفعل؟ ما عندي لا سلاح، لا صحّ، كما قالت تلك المرأة؟
- لا تحتاج إلى شيء. أعطها القرص وهي تدبر أمرها. نلتقي في الساحة بعد نصف

ساعة. دخلت وراءها إلى غرفتها العارية من كل شيء، إلا من صورة قديمة للسيد علي وهو يحارب راس الغول، أو وهو يضع ابنيه الحسن والحسين، كل واحد على ركبة. عندنا في بيتنا صورة شبيهة لها. اشتريتها من السوق الشعبية، عند أصحاب الحلاقي.

فجأة سألتني مينا. كان صوتها أكبر من جسدها. خشنا بعض الشيء، فيه الكثير من افتعال القوة. بدت لي بصرامتها كضابط عسكري يستعد للتدريب.

- وين راه الجوطون؟
- القرص. نعم.

فتحت يدي بصعوبة. فقد انكمشت عليه أصابعي حتى التصقت به.

استلمته، ثم خرجت وهي تردد: *جهّز حالك، لن أتأخر عليك*. تساءلت في أعماقي كيف أجهز نفسي؟ لم أفهم جيدا طلبها. كنت مندهشا من عالم سمعت قليلا عن أساطيره التي لم أصدقها، ولكني الآن أراه. جلست على أقرب كرسي، بالقرب من نصف المرآة المكسورة. رأيت وجهي الذي ظلت تعلوه حمرة لم تغادره حتى خروجي. عندما عادت، ووجدتني في نفس الوضعية، هزت رأسها متأففة، ومبدية بعض الانزعاج.

-     ما زلت في مكانك؟ تحب أساعدك؟ أعرف أنك خجول. ربما المرة الأولى. أنا وأنت

في نفس السن، بكل تكيد. أنا عمري 18 سنة. كم عمرك أنت؟ وجهك راه أحمر كما الطماطيشا.

ثم دسست رأسي في صدري وأنا أتمتم: سأتدبر أمري. لا. لا نعرف ندبر راسي.

-     يا الله دبر راسك يا خويا بسرعة. أنا أنتظر. الوقت ضيق يا حنّوني والذين ينتظرون

كثُر. عندما تمددتْ شبه عارية على الفراش إلاّ من حمالتيها وتبانها الأبيض المرقط، بعد أن تعطرت ونزعت ألبستها الخفيفة الأخرى، أدركت بسرعة ما كان يجب عليّ فعله.

سألتني وهي تنظر إليّ ببعض الدهشة:

-     واش سماك الله.

أجبت بسرعة، بلا أدنى تفكير:

-     *واسيني*. لكن ينادونني *سينو* في الثانوية، و *لزعر الحمصي* في القرية.

-     ليس هذا قصدي.

-     نعم...

-     أحببت أن أقول لك، بسرعة يا خويا ما كانش الوقت. الناس ينتظرون. ولالة عيشة لا

ترحم. أنا لا أعرف كيف سمحت لك الباترونة بالدخول إلى هذا المكان؟ كم عمرك. سألتك ولم تجبني.

-     عشرين.

لم تستطع كتم ضحكتها؟ وضعت يدها على فمها.

-     يا صاحبي عشرين بزاف عليك؟ قلّل شوي حتى أفهمك وأعذرك، وأفترض أنك هنا

عن طريق الخطأ.

عشرون سنة، ولا شعرة واحدة على وجهك؟. ولماذا ينادونك الموتشاتشو؟

- أنا من عائلة كلها أقزام. لا يظهر السنّ علينا.

- لا يا حنوني هذا الكلام قوله للباترونة، لالة عيشة الطويلة، عندما تريد الدخول، وأنت تحط في حجرها علبة سجائر *جيتان*. رامي شاطر في هذا، ويمكنه أن يساعدك.

تماديت، على الرغم من أني شعرت بخجل كبير.

- والله من عائلة كلها أقزام، والناس يخطئون فينا دائما. يعطوننا أقلّ من أعمارنا.

مرة أخرى كادت تنفجر من شدة الضحك.

- هههه يا حبيبي الله يهديك. أنت وليد عم رامي؟

- أخبرك بالحقيقة. هو من اقترح عليّ باش نجي أتدرب.

- تتدرب على ماذا؟ هههه

- حتى تكون عندي قوة دفع حقيقية، وأستطيع أن أقول لحبيبتي شافية قارة أحبك.

- شكون هي هذه شافية قارة؟

- تدرس معي في الثانوية. نحبها بزاف.

- كم عمرك الصح الصح. ما نقولش لرامي.

- أكثر قليلا من 17 سنة.

- تدرس؟

- في ثانوية ابن زرجب.

- تعرف المكان اللي راك فيه؟

- شوي.

- ما فيه شوي. يا تعرفه، يا لا تعرفه. هذا يسمونه *بورديل عيشة الطويلة*. بالعربي الفصيح ماخووووور. الناس يأتون هنا لشراء اللذة، ثم يخرجون سعداء. هنا الإنسان يدخل لكي يتعرّى، يتعرّى من دراهمه ، ويتعرّى من كسوته. وأنت واش جيت دير؟

- أتدرب فقط.. ربما أخطأت المكان.

قلتها منكفئا على صدري. ومع ذلك لم أتوان عن سؤالها؟

- ولكن... أنت أيضا صغيرة؟

- نعم صغيرة ولكني لست قزمة هههه... والله ضحكتني بقصة الأقزام هذه. من اللي

أدخلها في رأسك؟

- رامي. لماذا جئتِ إلى هذا المكان الغريب وأنت صغيرة أيضا؟

- حنوني...شوف مليح. أنا كلامي على طرف لساني. إذا جيت تنيك وتروح، مرحبا.

وإذا جيت تعطيني درسْ، وإلا تتحول جدارمي عليّ أو إمامْ، الباب مفتوحة قدامك. تقدر تطير من الآن.

كان كلامها قاسيا. مباشرا. شعرتُ بخجل كبير. اعتذرت لها. لم يكن قصدي.

- عفوا. أنا سألتك فقط. أحببت فقط أن أتكلم قليلا حتى لا أبقى صامتا. أعتذر.

قامت من سريرها. هزت رأسها وهي ترتدي ألبستها الخفيفة التي كانت قد نزعتها. لا أدري في لحظة من اللحظات شعرت كأنها كانت تنظر إليَّ بشفقة. الغريب أني أحسست أيضا في عينيها بدفء كبير، على عكس ما بدأت أتصوره وأنا أتفحص جسدها النائم على السرير.

- أنت صغير واش جابك لهذه الزبالة؟ رامي ما عندوش حق. والله ما عنده حقّ، يضيعك.

- أنا جيت فقط أتدرب باش نعرف نهدر مع صاحبتي اللي حاسبة روحها.

هزت رأسها مرة أخرى وكأنها يئست منّي، بعد أن رتبت هندامها أمام المرآة المكسورة.

- ربما كنتُ في عمرك. شوي أكبر منك. لكني لم أختر هذا المكان البائس. أنا أيضا

أتمنى لو كنت في ثانوية مليحة، أدرس وأبني مستقبلي، وأساعد عائلتي، وأختار رجلي الذي أعيش معه كل عمري، ولا أمضي حياتي هاربة مثل ذئبة مرعوبة من كل شيء حتى من ظلها. حتى أصبحت أعرف الوجوه من عيونها. أقرؤها جيدا قبل أن أستسلم لأي رجل. أنت قلبك مليح، يا سينو. خلّي البئر بغطاه يا خويا. إذا أتت بك الأقدار إلى هذا المكان، مرة أخرى، سأحكي لك بؤس هذا القصر.

لا أدري ماذا حدث لي لحظتها، فقد هزتني بقوة كلمة: *يا خويا*. في ثانية هاربة، قربتها مني. ولكني لم أتجرأ على سؤالها عن قصتها التي تعذبها *وحكاية العيش كذئبة مرعوبة تخاف من ظلها*؟

اقتربتْ مني وهي ترسم ابتسامة طفولية، لأول مرة أشعر أن بها بعض الحنان.

- سينو... ما نخليكش تروح بلا ما تتدرب هههه وأنت قد دفعت ثمن القرص.

- ابن عمي هو اللي دفع.

- يا المهبول اسكت فقط. لا أحد طلب منك التفاصيل. أعرف أنه هو من دفع، وليس

أنت. وأعرف أيضا أنه هو من جرك إلى هذا المكان. باين عليك *أزرق*[31]. ما عارف رأسك من رجليك. أنت دعوتك قراية. تحب أن تدرس فقط. لطيف وظريف، وفوق هذا طويل ومش قزم هههه

- هههه عذرا. يمّا قصيرة كنساء القرية. تقول إني أشبه بابا.

- لا تعتذر يا سينو الطيب. ربي يحفظك. أنت طيب ولا تصلح لهذه الأمكنة أبدا، التي

لها جنونها ومخاطرها وقتلتها ولغتها، ولها أيضا زبائنها، وأنت لستَ منهم بكل تأكيد.

ضمتني إلى صدرها. قبّلتني طويلا. شعرت بعدها بلذة استثنائية. *واش رأيك*. سألتني. لم أقل شيئا. ولكني سحبتها نحوي، فاستسلمت لي بنعومة، وكأنها أسقطت جدارا فاصلا بيننا. كان وجهها جميلا مثل وجه دمية صينية، بلا علامات ولا خدوش. شعرت بكل حواسي قد عادت إلى الحياة. ثم فتحت عيني على عينيها. لأول مرة أرى عينين مائيتين. بلا لون تقريبا. بخضرة هادئة وهاربة نحو التلاشي. قبلتها. أحسست بشيء ساخن اخترقني من رأسي حتى أخمص قدمي.

قالت لي وهي تتلمس شفتي ووجهي بحنان، بعد قبلة تشبه غيمة:

- شوف يا الموتشاتشو هههه، في المرة القادمة تفادَ المجيء أيام نهاية الأسبوع أو

العطل. الزوار كثيرون. يمكن وقتها نحكي لك على هذه الذئبة الهاربة والخائفة من ظلها. حقيقي، أشعر أن قلبك طيب وفيك من الحنان ما يدفعني إلى سجنك عندي حتى تكبر قليلا.

- شكرا. حتى أنا تمنيت أبقى معك شويه. شكرا. القبل كانت لذيذة.

---

[31] الشخص الذي لا يعرف شيئا عن الحياة.

- تستأهل أكثر من ذلك سينو. الله غالب الوقت يا حنّوني ما عندي ما ندير. طاق على

من طاق. القبول بهذا أو الطرد إلى الشارع والموت. ما نعرفش واش درت لي، ولكني تعودت عليك بسرعة.

شعرت بانشداد غريب نحوها. كان حقي في الوقت قد انقضى في الصمت، لكن القبل التي منحتها لي في الأخير ربطتني بها بقوة. وأصبت لحظتها بعينيها. كان بهما سحر غريب ربطني بها إلى الأبد.

عندما خرجنا من الغرفة، كان ابن عمي ينتظرني تحت. بمجرد أن رآني أنزل سعيدا، غمزني. شعرت بأنه كان مزهوا، وفخورا بلزعر الحمصي الذي أخرجه من ظلمات الحيرة إلى نور الجرأة.

عدت بيقينين إلى الثانوية. *الأول* أني إذا أردت أن أرى مينا ثانية، عليّ أن أتسلح بعلبة جيتان على الأقلّ، مثل تلك التي رأيت رامي يسلمها لعيشة الطويلة. *الثاني* أن لقائي بمينا لم يمر عاديا، وجهها الطفولي العنيد، وعيناها المائيتان الخضراوان، سكنوني نهائيا. أكثر من ذلك كله، فقد محت، طوال الزمن الذي قضيته عندها في الماخور، ملامح شافية قارة نهائيا، التي لم يكن لها أي ذنب فيما حدث لاحقا.

همهمت ذات الشعر الأحمر الذي أصبحتُ الآن أعبث به، وأدفن فيه أصابعي.

- يااااه ك هذا العناء؟ هل تتذكرها لو رأيتها يوما؟

- افترقنا في وقت مبكر، لكن علامتين لا تموتان في رأسي، العلامة التي تحت نهدها

الأيسر، الوحمة. وجرح رقبتها يوم وضع ابن عمها السكينة في نحرها وهددها بالذبح إن هي فضحته وأخبرت أهلها بأنها كانت حاملا منه.

- كانت حاملا منه؟

- مسكينة. قصة طويلة. الماخور كان منقذها من قبيلة الموت والشرف الغبي.

- ... ...

قبلتني وهي تبحث عن كلماتها الطيبة.

- حبيبي... لابد أنك تألمت كثيرا لفراق مينا.

لم تنتظر جوابي. أنزلت رأسي شيئا فشيئا تحت قلبها، وهي تضغط عليه بنعومة لتثبته في المكان الذي شاءته في صدرها، عند حدود حلمتي النهدين. ثم وضعت الحلمة اليسرى في فمي. وأنا في غمرة الغرق فيها، وفي دوخة عرقها، ولمسها ومصها، رأيت فجأة الوحمة واضحة تحت النهد الأيسر، عندما انكسر ضوء الماء على جسدها بفعل النور الذي تسرب من الخارج بشكل لافت. أخذتني رعشة كبيرة دفعت بي إلى الانفصال عنها للحظات. *لا يمكن؟* ثم اقتربت من عنقها فرأيت واضحا مكان الحفرة التي أحدثتها السكينة. تحسستها برؤوس أصابعي. هي. والله هي. ابتعدت عنها قليلا، وبدأت أتأملها وأنا غير مصدّق. أزلت الشعر الأحمر عن وجهها. بدت في كامل ألقها وكأن الزمن لم يفعل أي شيء في ملامحها الزكية. أغمضتُ عيني وأنا بالكاد أصدق ما كنت أراه، ثم فتحتهما فقط لأقنع نفسي بأن ما كان يحدث لي، حقيقة وليس مجرد حلم هارب صنعه خيالي المرهق. مينا؟ في هذه القيامة الملونة؟

كنت أريد أن أصدّق ذلك بكل حواسّي.

كانت قامتها مثل عمود النور تنعكس عليها قطرات العرق وشلالات الماء. همستْ:

- عرفتني يا قلبي؟ يا شططي وحزني؟ هل عرفت حبيبتك يا عمري؟
- مينا... عمري. مينا ديالي. عرفتك من عطرك، وكذّبت نفسي. من عرقك أيضا الذي

به رائحة النعنع والفليو والنباتات البرية القوية، والعرعار، ولمسة البنفسج البري. من أصابعك، ورفضتُ فقط أن أصدق لأتحمل غيابك. من قلبك الطيب لكي لا أظل معلقا أنتظر وعدا لن يتمّ. في كل الحالات كنت أرتد إلى نفسي وأمنعها من التصديق. أكيد ربي يحبنا لأنه وضعنا في نفس مسلك النور.

- أنا مينا يا حبيبي التي سُرقتَ منها مبكرا، وسُرِقتْ منك أيضا. يااااااه كم أشعر الآن

برغبة كبيرة في النوم والراحة بين ذراعيك، ولا أفكر في أي شيء أخر غيرك.

- أنا أيضا كم أشتهي أن أمتلئ بك من جديد بلا قيد ولا خوف.
- أنا لك يا قلبي. لم أكن إلا لك طوال العمر الذي عشته. هنا على الأقل لا يوجد

انتصار للضغينة ولا للحسد، لا مصلحة يا قلبي. خليك معي شويه. تعااااال.

مسكتني من أصابعي. قادتني بهدوء نحو مسقط المياه الثاني الذي كان معطرا أكثر بالبنفسج البري. غسلتني بهدوء زاوية، زاوية، وعضوا عضوا. ثم سلمتني جسدها مثل طفل صغير، ففعلت الشيء نفسه. لا أدري ماذا حدث في تلك اللحظة ولكني لأول مرة أشعر بأني كنت قريبا من الله. بعدها مدتْ يدها إلى الخلف، من وراء شبابيك الضوء والماء، سحبتْ الفوطة الكبيرة. وضعتْها بين يدي. لففتها فيها حتى لم يعد يظهر إلا وجهها وذراعها الأيسر. كانت شهية، حتى وهي مغطاة. أخذتْ الفوطة الثانية، ولفتني فيها من تحت، ثم وضعت شريطا كحزام، وكأنها كانت تحضّرني لإحرام ما. طوت بعدها الفوطة عند حدود البطن لتغطي الشريط. ثم وضعت على ظهري فوطة ثانية ولفّت صدري بها، حتى بدوت كقصير(كقيصر) روماني ضائع داخل دهشة مملكة مائية لا حدود لها.

- تعاااااال يا قلب ميما... تعالَ...

- يااااااه... ميمااااا. وشحاااااال توحشت هذه الكلمة منك.

- وماذا أقول أنا سوى أني صليت وطلبت من الله أن يمنحني فرصة رؤيتك، وأن يجعلني في مسالكك، وأن يحولني إلى فراشك وغطائك، فقط لأقول لك كم *أحبك يا دينك* هههه كما تعودت أن أقولها لك كلما اشتدّ بي الحنين.

- لو كنتُ أعرف أن الموت يلاقيني بك ولو ليوم واحد، لطلبت من الله أن يعيدني إلى

قلبه فقط لأراك وأشبع من وجهك الذي سرق مني مثل طفل فطم بقسوة.

- لا يا قلبي لا بديل عن الحياة. ها أنت الآن بين يدي، وأنا أتمنّى أن أظل الأبدية كلها

بين ذراعيك، وأن لا أتركك أبدا. لكني أعرف أيضا أنها لحظة وتمضي، ولكنها تمنحني أبدية أني رأيتك وأحببتك، وشممت عرقك وعطر جسدك، وأني كنتُ فتنتك ولو للحظات. تعالَ اسمع على الأقل ما في قلبي.

ثم سحبتني من يدي وخرجنا من شلالات الماء.

بعد كل عناء التخفي، مشينا لأول مرة، جنبا إلى جنب، العين في العين، اليد في اليد، القلب في القلب، والروح في الروح، والملمس في الملمس، وربما الهبل في الهبل.

كنت منهكا من شدة الدهشة والسعادة، ومقهورا لدرجة الرغبة في البكاء.

5- شَجَرُ اللّوْزِ يَذْبُلُ أيْضًا.

- تعال حبيبي. تعال نرتاح قليلا تحت شجرة النور.
- شجرة النور؟
- لا تخف. يمكنك أن ترمي بنفسك في ظلها بلا تردد. لا علاقة لها بشجرة الخلد. لا

تاريخ لها في الكتب السماوية ولا أي ذكر. شجرة تمنح القلب فسحة التنفس في مكان الرئتين. وتمنح الذاكرة حاسة النظر والرؤية.

لأول مرة مشيت برفقة مينا، جنبا إلى جنب، ووجهها يملؤني، وملامحها تدثرني، كما لو أنني أكتشفها للمرة الأولى. كلما التفتت نحوي، سبقتها ابتسامتها المشرقة. مشينا قليلا. لم نبتعد كثيرا عن الشلالات إذ ظلت تواجهنا بألوانها اللامتناهية، وتكسرات مياهها المتساقطة من أعالي الجبل البنفسجي، وعطرها الذي يدخل بسرعة في دوار الألوان المتداخلة.

كنا ملفوفين في فوطتين برتقاليتين كتمثالين يونانيين. تمددنا بتثاقل تحت شجرة عالية تشبه شجرة البرتقال في كل شيء، لكن لم تكن بها أية فاكهة، كانت فقط معرشة في أعماقها بالنوار الأبيض واللوزي والأزرق. حتى الأشعة البيضاء المتسربة من الأعالي، كانت تجد صعوبة كبيرة في اختراقها.

رأيت صفاء وجه مينا المشرق لأول مرة في كل بهائه. تمتمتْ وهي تتحسس ملامحي برؤوس أصابعها:

- يااااه يا عمري كم أشعر بالراحة معك. تمنيت من الله الذي كان الأوحد على فهم قلبي وجرحي،

أن يمنحني لك فقط. لنسمة. لحظة. نفس. لمسة. يكفيني أن أشعر بك هنا حيث لا قوة تضاهي سلطان حبك. وكان لي ما اشتهيت. آآآآه يا غالي. كم أشعر بالتعب. ضع ولو قليلا، يدي في يدك، وقلبي في قلبك، صدرك على صدري وشفتيّ على شفتيك.

قبلتني ثم تمددت بكل طولها بجانبي. أغمضت عينيها.

فجأة رأيتها بالضبط في عز عنفوانها، كما رأيتها لأول مرة عندما دخلت بصدفة الأقدر إلى الدار الكبيرة، التي كان يتخفى فيها قدر آخر كان سيدي في مسارات قلبي.

مينا. قلبي. كدت أصرخ ما الذي أتي بكِ إلى هنا؟ ولكني عدلت عن فكرتي. سألتها ونحو في دوخة الغفوة.

- لا بد أنك أنت هي أيضا المرأة التي رأيتها بالقرب من تابوتي.
- التي سلمتها قلبك يومها.
- لم أفهم. كنت أواجه موتي.
- مع أنك لم تنس أن تسلمها وردة حمراء.

لم يخطئ حدسي الذي أسكته بخوف من عالم لم أكن أعرف عنه الشيء الكثير إلا ما قرأته في كتب القيامة الصفراء التي تجعل من الموت حالة رعب وخوف بدل سكينة أبدية وراحة بعد شطط الحياة. ما اكتشفته لاحقا، لم يكن يشبه في شيء ما سبق أن قرأته.

ابتسمت. كأنها قرأت فجأة ما دار في القلب. فتحت عينيها قليلا لتراني بوضوح أكثر. تسرب منهما نور شديد البياض حتى كاد يعميني. نظرتْ إلي بعينين مائيتين دافئتين. عندما مددت يدي نحو وجهها من جديد، شعرت بهما تدخلان في كومة ضباب كثيف وشديد البياض. لم أكن قادرا على لمس كل هذا التشظي. كل شيء بدا هاربا وخفيفا وبلا أي وزن. سمعت همسها الذي كان يأتيني واضحا: ارتح حبيبي قليلا، رحلة جبل النار، تيه الفيافي، عثرات الخوف، دهشة المبهم، رحلة صعبة وقاسية. ارتح ميما. لم يعد الآن عمرك يقاس بالزمن الهارب، فقد أصبحنا جزءا من الزمن، بل أصبحنا الزمن نفسه. ثم مدت يديها إلى وجهي. كانتا ناعمتين مثل حرير الصين القديمة. قالت: *لم أكن أول حبك ولا مريم كانت أول حبك. كنت حبك فقط. لا يوجد تصنيف، ولا توجد أرقام في الحب يا قلبي. يوجد حب يتقاسمه أفراد كثيرون، يسيرون باتجاه واحد، في أزمنة قد تكون متداخلة. حب واحد يا قلبي تتقاطع فيه مصائر متعددة. كانت مريم التي لم تمنحك إلا رقصتها في السقاية وساقها الجميل وشعرها، وشافية قارة التي ظل حبكما مجرد فكرة هاربة. وكنت أنا من منحتك قلبها كليا وجسدها المنكسر. ستأتي*

امرأة أخرى غيري، لن تأخذ مكاني ولا مكان من سبقوني، ولكنها ستبدأ معك في النقطة التي توقفت فيها معي. وهكذا مصائرنا يا قلبي.

فوجئت من فكرتها التي وجدتها صائبة لكنني لم أحب عندما قالت: ستأتي امرأة أخرى غيري؟ لأني يومها لم أكن أرى امرأة أخرى غيرها.

شتاءات تلمسان قاسية. في ثاني لقاء لنا، بدت هادئة على غير لقائنا الأول في ذلك الصباح البارد، عندما قادني ابن عمي الذي يكبرني سنا إلى الدار الكبيرة. كانت عند الباب وكانت النساء معلقات في النوافذ، من وراء الزجاج، كالدمى الجميلة، نصف عاريات، ويدخنّ وكأن الدخان كان يرفع من شهية الرغبة أو يدفئ القلوب الباردة.

أول زيارة لمينا علمتني أن أتماسك أمام عالم لم يكن لي ولم أكن له. كنت ضائعا في مغامرة كنت أشتهيها وأخافها. بينما بقيت أنظر بدهشة اليتيم ما كان يحدث أمامي. كان الناس هناك يدخنون ويقولون الكلام الفاحش الذي ظل يضرب في أذني كالمطرقة. فكرت أن أخرج يومها ولا ألتفت ورائي، لكني خفت من أن يفضحني رامي أمام أقراني. ولكني في المرة الثانية تشمّمت مسالكها وحدي وأنا لا أعرف بالضبط ما الذي كان يقودني نحوها؟ على الرغم من صغر سني، فقد عرفتني عيشة الطويلة من اللحظة الأولى. سألتني عند الباب: *هاه الموتشو. واش جبت معك اليوم*؟ ارتبكت. ثم قلت أي كلام: *سلام كبير لك، من ابن عمي رامي*. ردّت وهي تضحك: *رأيته قبل ساعة. الدار الكبيرة اليوم زوارها كثر يا الموتشو، تعال مرة أخرى*. وضعت في حجرها باكيت جيتان الذي كنت أحمله لها. ضحكتْ وهي تلوح بيديها: *من الأول قل هذا. مازال عندي بلاصا للموتشاتشو، ادخل*. ثم فتحت الباب وهي جالسة كعادتها.

وقفت في البهو الواسع قليلا قبل أن أجلس بالقرب من نافورة الماء. جاءتني امرأة، غمزتني بشكل فج. قلت لها شكرا. بدت لي كسيدة *سيرك عمار* الذي رأيته أربع مرات في المدينة. يضرب به المثل في الفوضى واختلاط الأشياء. تفاديت النظر إليها. وضعت يدها على ظهري، نزعتها بلطف. كانت الوحيدة التي تركها الجميع. حتى الرجل الذي كان يجلس قبالتها لم تغره وظل يدور في مكانه، ومن حين لآخر ينظر نحو أعالي الدرج حيث مينا. تفاديت وجهه وغرقت في تأمل النافورة والمياه التي كانت تحدث خريرا متناغما. فجأة، عندما رفعت عيني نحو غرفة مينا، رأيتها تنزل بخطواتها

الطفولية، يتبعها رجل مسن وهي تنبهه: *يا بابا الحاج، كل يوم أحد تجدني أنتظرك، وسأغلق الباب كما تشتهي، وأعيد لك الأيام الخوالي.* كانت تضحك بشكل متقعر وتفرقع العلكة في فمها. شعرت بألم داخلي. رأيتها أو رأتني. لكن الرجل الذي كان ينتظرها سبقني إليها مثل السهم، فوضع في كفها القرص الأسود. شعرت بألم في بطني. ماذا أفعل في هذا الفراغ المخيف؟ في اللحظة التي هممت فيها بالمغادرة نهائيا وعدم العودة إلى مكان لم أكن أريده، ربما بسبب الغيرة التي أحرقت قلبي، سمعتها تقول للرجل الذي كان يريدها له:

- شكرا خويا. الله غالب، سبقت *الموتشو*.

وأخرجت قرصا من جيبها، وهي تقبلني على خدي.

- هاها *الموتشو*. كيفك يا الغزال؟

احتفظت بالقرص في جيبي.

قالت اسبقني. صعدت كما فعل الذين سبقوني. رفعت ستار غرفتها الثقيل، ثم تركته يهوي. تمنيت لو أنها أغلقت الباب ولكنها لم تفعل. شعرت بخجل داخلي. حاولت أن أفعل ذلك بنفسي ظنا مني أنها نسته. قالت وهي ما تزال تمضغ العلكة: *عندك باش تغلق الباب* حنوني؟ لم أفهم. بدوت لها كالأبله. بل بدوت لنفسي خارج الدائرة كلها. قالت: *غلق الباب عنده ثمن هههه... فيه عض وأكل وصراخ وتنهدات وتحسيس الجيران بأن حربا عشقية تدور رحاها في الغرفة. هل تدري أني طردت الرجل الذي سبقك إلي حتى لا أجرحك وربما في أعماقي حتى لا أفقدك. وجدتك في المرة الماضية جميلا وطيبا*. ثم نبهتني لشيء كأني نسيته. قالت وهي تهيئ نفسها أمام مرآة جميلة. التفتت نحوي: *لا أدري ماذا فعلت لي ولكني اشتريتها من أجلك، عندما وقفت تقبلني وتستمتع بمنظرنا في المرآة المكسورة. يا الله حبيبي. عندك عشر دقائق من حقك أن تقضيهم في الكلام الخاوي مثل المرة الماضية أو تستمتع بثمن قرصك.* تذكرته. وضعت القرص على الطاولة: *ليس هذا قصدي. والله مش قصدي.* أجبت بصوت خافت كأني كنت خائفا من أن أغضبها: *معك حق. هذا تعبك.* جلست على السرير بالقرب منها. كانت هي قد تعرت نهائيا. شل جسدي ليس لعدم الرغبة، ولكن لسبب غامض في أعماقي. حبيت *نعرف اسمك فقط.* نظرت إلي باستغراب: *وقيل عنوانك*

غلط. هذا ليس مكانك. يا خي قلت لك هاذيك المرة وأنت واش دخلك في اسمي وحياتي؟ اخدم خدمتك وخليني نروح. فلاحو أولاد بن سكران والبرية وسفيزف وشتوان حتى صبرا، سيأتون بعد شوي، وينتظرون في طابور ولا أريد أن أضيعهم مادام فيه شوي صحة وجمال، بعدها تستجديهم بالريق الناشف ولا أحد يلتفت نحوك مثل تفاحة صديقتنا التي كبرت بسرعة، مسكينة تظل تحت النافورة تنتظر شيخا ضائعا تلتصق به، ولا تجده. لا أدري لماذا أصررت على معرفة اسمها. لم أعتذر لها هذه المرة لأني كنت أمام علامتين ساعدتاني على الإصرار: *لو لم تكن تحبني لماذا اختارتني على الرغم من أن الرجل سبقني إليها؟ ثم لماذا غيرت المرآة من أجلي؟* نظرتْ إلى وجهي طويلا. لم تقل ولا كلمة. فجأة رأيت في عينيها المائيتين طفلا مذبوحا. ثم تمتمت: *يا سيدي نينا، اسمي نينا*. واصلت وأنا على يقين أن في قلبها شيئا آخر. *اسمك الحقيقي وليس الاسم المستعار؟* ردت وهي تضحك. بادلتها الضحكة. رأيت طفولتها عارية لأول مرة. *الصامط يغلب مول العقل. آمنة وهنا يعيطوا لي مينا. وهل هذا يشجعك على تجاوز مشكلتك للنوم معي؟ راح تضيع وقتك كما المرة الماضية. اللهم إلا إذا جاي باش تقتلني ولهذا صممت على غلق الباب. دفع لك أولاد بني صاف ثمن رأسي*؟ تمتمت وأنا أضحك: *لا. في المرة الماضية كنت طيبة معي وأنا فعلت ما أوصيتني به.* جبت باكي جيتان لعيشة الطويلة بعد أن قلت لها *رامي يسلم عليك. هزت رأسها وضحكت مني أو معي. طيب لماذا يريدون قتلك*؟ قالت: *في المرة القادمة سأقول لك عن كل شيء. يا الله يا عمري نقز وخليني نروح*. هززت رأسي أن شكرا. عند الباب، بالقرب من المرآة تأملت وجهها المضاء. ضحكت: *ألا تغريك وقفتك مع حبيبتك أمام مرآة بطولك؟* ضحكت. قمت من مكاني ثم ضممتها إلى صدري. بدوت طويلا وبدت هي كعصفورة بين يدي. قالت وهي تبحث عن كلماتها الدافئة: يرحم *بوك، قل واش درت لي؟ تعرف أني بدأت أحبك، والحب هنا ممنوع. لا أدري، ربما لأنك لا تشبه إلا نفسك. أو ربما فيك شيء مني. أنت الوحيد الذي بدأ يكسر هذا الغلاف الزائف الذي لبسته منذ أن تعودت على هذا المكان. لم يضمني أي عابر إلى صدره بهذه الطريقة ولا يطلب مني شيئا إلا البقاء معه.* ثم وضعت القرص الذي وضعته على الطاولة، في جيبي. قالت وهي تكتم ضحكتها الجميلة التي أنارت كل

وجهها: *تحتاجه، في المرة القادمة بصح ما ترقدش على النافورة حتى لا تضطرني إلى الكذب هههه.*

كنت أسعد إنسان لأني لأول مرة أشعر أني أصبحت أعني شيئا لشخص مثلها، وأصبحتْ تعني لي الكثير. قالت: *شوف حنوني الجمعة الجاية راح نخرج لوريط واتفق مع يمّا عيشة الطويلة وأراك في أشجار اللوز. اشتهي أن أحس بأن الدنيا ما زالت ببعض الخير، وأخرج من قرف البورديل و البيوتات المغلقة والمرضى.* في لحظات ظننتها تريد التخلص مني، لكني لما ذهبت للوريط كما تواعدنا، وجدتها تنتظرني ليس بعيدا عن الشلال. هربنا نحو الغابة. جلنا يوما بكامله بين غابات سد المفروش. عندما فاجأنا المطر، تخفينا تحت شجر اللوز. ضممتها إلى صدري. أول قبلة في النور كان لها طعم السكر والملح. البرتقال والليمون. أحسست كم أن شيئا يشبه عالما جديدا كان يولد بين يديّ. عندما زاد المطر الناعم كثافة،غرقنا في الأناشيد التي كنا نغنيها ونحن نركض تحت المطر.

يا النو صبي، صبي
ما تصبيش عليّ
حتى يجي خويا حمّو
ويغطيني بالزبية.

ثم بدأت أتتبع مسار قطرات الماء وهي تسكن جسدها. هذه القطرات مست العينين أمسحهما بشفتي. وهذه الخدين. لم أكن أعلم أن سحر القبل وصل إلى هذا الحد الذي جنّني. فجأة تكونت ما بين نهديها قطرات تجمعت وتحولت إلى مجرى صغير. نظرت إلى عينيها. ضحكت. لمعت أسنانها تحت حبات المطر. فتحت صدرها. عبرته. ثم النهدان. رأس الحلمتين. لم أعرف كيف تمادينا إلى الأقاصي تحت المطر وتحت شجرة اللوز. يومها سمعت لأول مرة كلمة شجرة الخلد من فم مينا وهي تنظر إلى أوراق اللوز وهي تتساقط علينا. يومها أيضا اكتشفت ليس فقط سحر القبلة للمرة الأولى في حياتي، ولكن خفايا مينا التي سكنتني بقوة. عندما فتحنا أعيننا من وراء

نوار اللوز رأينا إشراق أشعة قوية وغير معتادة. غمغمتْ مينا بكل تلك الراحة وذلك الأمان الغريب، وهي تتوسد ذراعي ومعطفي الذي غطيتها به:

- يااااااه يا سينو. المطر والشمس. عرس الذيب.

ثم نامت. لأول مرة أرى في عيني مينا المغمضتين، سكينة لم أعهدها فيها. كان ربيعا جميلا، ممطرا ودافئا. كل شيء متفتح على نوار الحياة. كان المطر قد توقف نهائيا. عندما انتهينا: قالت *لازم نروح نزور لالة ستي*. لفت نفسها في الحايك من جديد. بحيث لا تظهر إلا عينها الساحرة. تعرف كل الوجوه ولا وجه يعرفها. ركبنا حافلة المنصورة القديمة التي صعدت بنا بصعوبة إلى جبل لالة ستي. دخلنا مقامها. وقفت طويلا أمام قبرها. تمتمت كلاما كثيرا خرج من قلبها، ثم تأملت تلمسان للمرة الأخيرة قبل أن تغرق في تفاصيل وجهي. تنهدت بعمق كمن يستنشق هواء اشتاقه: يا سينو، كم *كنت سأخسر لو انتحرت؟* لم أسألها يومها عن أي شيء. كانت في قمة فرحها كطفل يكتشف الحياة من جديد.

رجعت مرتين إلى الماخور بعد جولة الغابة بين أشجار اللوز. وفي المرتين سخرت مني طويلا. *أنت في فسحة جميلة مدفوعة الثمن. أنت لا تدفع شيئا* . ننكت. تقبلني ثم ننفصل على جملتها الساخرة: *سينو ديالي ما يزال صغيرا، عندما يكبر قليلا، أعطيه الحلمة ثم النهد ثم...* وعندما أشتعل، تقول *الوقت يا عمري. عيشة الطويلة تحاسب عن كل دقيقة.* لا أدري لماذا كانت تفعل ذلك. في المرة الثالثة وجدتها تنتظرني عند النافورة. في الباحة. حتى عندما وضع رجلان في كفها القرص الواحد تلو الآخر، رفضتهما. شتمها الأول: *قحبة وحاسبة روحها.* بينما بصق الثاني على الأرض وخرج. التفتت نحو الرجل الأول. نظرت إلى وجهه طويلا. لم أقل شيئا. أحنى رأسه ثم ذهب مع امرأة سمينة كان لحمها يفيض من جنباتها وهو يزمجر: *هذه على الأقل عندك واش تقبض فيها.* تمتمتُ، ربما سمعني لأنه التفت، ثم واصل سيره مع السمينة: *يا خي دابة يا خي؟* أخذتني من يدي ثم صعدنا إلى غرفتها وفي يدها ثلاثة أقراص. قالت *لكي لا يزعجنا أحد. قلت لهم هذا الشاب به فورة ولا يريد أن يتركني دفع ثلاثة أقراص مرة واحدة.* أغلقت الباب. ثم أشعلت الفنوغراف على إيقاعات اسطوانة 45 دورة، *سعيدة بعيدة والماشينا غادية.* شعرت بقشعريرة في لحمي. سمعت هذه الأغنية

التي ستصحبني زمنا طويلا، للمرة الأولى، في غرفة مينا. عرتني وتعرت معي كليا. لا أتذكر جيدا ما مر بنا وما عشناه من هبل، ولا تفاصيل ما حدث لي. أول مرة في حياتي أشعر أن الحب أجمل مما سمعت الكبار في قريتنا يحكون عنه، وألذّ مما رواه لي رامي. كل ما أتذكره هو أن كل ثانية كان لها طعم النور ومذاق الحنين ولون الجنون وملمس الهبل، وعطر الشوق. ويومها أيضا توقفت عن الكتابة لشافية قارة. فقد محتها نهائيا من دماغي. عندما انتهينا. سكنا قليلا، بينما ظلت عيناي مثبتتين على لوحة السيد علي ورأس الغول، والبراق والحسن والحسين، المعلقة على الحائط القديم، والمرآة التي أصبحت أجمل. التفتت نحوي. نظرت في عمق عيني، ونظرت أيضا في عمق عينيها المائيتين. تمتمت:

- سينو. هل تصدقني لو قلت لك أحبك؟

- نعم. لأني أنا أيضا أحبك. أحبك.

- كيف تصدق امرأة هي ملك للجميع وتترك مريم حلمك الجميل، وشافية قارة التي وُجدتْ لك ووُجدتَ لها. هي تريدك ولكنها خجولة منك فقط. أنت أول شاب في حياتها. يكفي أن تلمسك وتذوقك، لتغير علاقتها ولغتها بك.

قالت مشددة على كلمة تذوقك ولم تستطع كتم ضحكتها.

- لأني أيضا أحبك.

- لأول مرة أشعر بأن لي جسدا، ملكي وملك حبيبي فقط.

- أول مرة أنام مع امرأة بهذا الشكل.

- تتزوجني؟

ضحكتُ. انزعجتْ.

- أنت أيضا تشبه الآخرين. تريد امرأة لم تمسسها يد رجل. كلكم في لحظة ما يدرككم

الشبه المميت؟

- لا. ليس هذا قصدي. وراس يمّا العزيزة ليس هذا قصدي. أنت مخطئة؟. ضحكت

لأني مازلت صغيرا على الزواج فقط، وأن عائلتي هي من يعيلني؟

-   عذرا؟ ظننتك تضحك من فكرة الزواج من امرأة مر على جسدها المئات. هل تصدق

أن الجسد الذي يمرون عليه ليس جسدي، ولكنه جسد الكل. يمرون على لحمهم. هذا ما تعلمته من نصائح يمّا عيشة، عندما أصبحت أتقيأ في البدايات من كل رجل أنام معه. جسدي هو الذي أعطيته لك بين نوار اللوز واليوم. والله. هو وحده من يسمعني. لم يلمس هذا الجسد غيرك. ربما لن تصدق. لكني أتكلم معك بقلبي فقط. تريد أن تعرف شيئا عن هذه المرأة التي أعطتك قلبها وجسدها.

-   لا أدري. فقد شعرت دائما بأنك فرد من العائلة، محرمة علي حتى اليوم. ربما لن

تفهمي ما أقوله. لكن فيك شيء من أختي زوليخا التي حرمت من حبها ومن قلبها. ماتت وفي قلبها غصتان، غصة حب مات يوم ظهر، وغصة والد لم تشبع منه قبل أن تأكله حرب غير عادلة.

-   ربي يرحمهما. لا أدري أي شيء قادني نحوك. في البداية ظننتك تتحقق مني وربما

هناك من أرسلك إلي، لكن رامي الذي أثق فيه كثيرا، والذي لم ينم معي أبدا لسبب أجهله، ولم يطلبني، مع أنه يودّني كثيرا. أعرف أن عنده صاحبته في الدار الكبيرة، وهو زبون لطيف، عندما يأتي ويجدها قد خرجت يغادر المكان بعد شرب قهوة. يعرف قصتي. مرة سألته عنك. *الموتشاشو طيب جدا لكن لم أفهم ماذا يريد مني؟* تعرف ماذا قال لي عنك: *هو بريء مثل غيمة. لا يمطر إلا الخير. لكنه برهوش لا يفهم كثيرا في جنس النساء. عنده صاحبته بصح لا يعرف كيف يكلمها.* يومها عرفت أن ما كنت أخاف منه لم يكن صحيحا. حتى يوم غامرت وخرجت معك نحو مصبات لوريط، وغابات اللوز، لم أتكل إلا على حواسي الخفية. كنت أخشى أن ترميني في غابة حتى ولو احتفظت ماما عيشة بهويتك. يوم قبلتك بجنون في ذلك اليوم الممطر الذي كان يرسم نهاية الشتاء وبداية الربيع الجميل، شعرت بدفئك ولكن الخوف سكنني. الخوف يا قلبي هو سبب المآسي. ربما كنت جبانة لأني لو انتحرت يومها لأرحت الجميع.

ثم التصقت بي وبكت طويلا. نظرت إلى وجهي المتعب: *أخرجني من هذا المكان أرجوووووك إذا كنت تحبني؟* الغريب أنها كلما بكت، ذكرتني بزوليخا أيضا، ولا أعرف إلى اليوم الشبه بينهما. التصقت بعنف وكأنها كانت تريد أن تخترقني. ربما كنت قشة نجاتها الأخيرة.

- اهدئي فقط. كنت جميلة ورائعة لماذا البكاء يا قلبي؟
- الناس يموتون مرة واحدة وأنا كل يوم أموت قليلا في هذا المكان. كل يوم أنظر من

أعالي الشرفة للباحة وأتفرس الوجوه من فوق إذا لم يكن بينها ممن أعرفهم. ولا أنزل إلا إذا تأكدت من أن لا أحد تحت.

- احك لي يا قلبي. احك.

جلست بعد أن ارتدت لباسا شفافا يميل نحو زرقة خفيفة مائلة نحو البنفسجي، اشترته خصيصاً كانت قد سألتني ونحن تحت أشجار اللوز عن أحبّ الألوان لدي. قلت لها بعفوية طفل: *كل الألوان جميلة. ولكني أفضل البنفسجي والأزرق السماوي*. ضحكت وهمست: *في هذه نشترك على الأقل أنا كبرت على حوافي البحر بالقرب من قارب والدي وقوارب الصيادين*.

كان جسدها مساحة من نور الشهوة الهادئة. أحنت رأسها قليلا فانسدل شعرها الأحمر قويا على وجهها. رفعته قليلا. قبلتها وقلت لها من جديد :

- احك يا قلبي.
- من أين أبدأ يا ميما؟
- أريد أن أسمعك فقط.
- يااااه كم تبدو تلك الأيام القاسية قريبة.

كنت أحبه. ولكنه تنكر فجأة لكل شيء. ابن عمي زين الدين الذي سماه أصحابه زينو، وأسميته أنا *زازو* على أغنية كان يحبها، وسمعتها كثيرا في بيته: *عيشتك آزازو بالشوية... إيوه... إيوه...* كبرنا مع بعض. العائلة نفسها كانت متفقة ضمنيا على ذلك؟ كنت زوجته في عرف العائلة. كانوا يتسامحون معنا. كنا نخرج مع بعض. كنا ندرس في نفس المدرسة الابتدائية التي سبقني إليها بسنوات. وبعدها في نفس الكوليج

والثانوية. وكان يغار عليّ. وينتصر لي دائما. كان الكل يحترمني خوفا من زينو. وهو من أخرجني بالضبط يوم تحصلت على البروفي، بينما أخفق هو في الباكالوريا للمرة الثالثة. قال لي *الآن كبرتِ. تعرفي تكتبي وتقراي. خلاص. وأنا أيضا سأهتم بزيتون والدي ومعاصره.* وأخبر أهلي بضرورة إخراجي، فخرجت بفرح وكنت سعيدة أن حبيبي بدأ يغار عليّ في وقت مبكر. العاشقة لا تطلب أكثر من أن يغار عليها حبيبها. بينما أخي الصغير ظل يشتمني. *أنت حمارة؟ كيف تقبلين ترك دروسك على واحد لا تعرفين ماذا يخبئ لك، ترمين سنوات العمر من أجل رجل لا تعلمين ماذا يساوي؟* لست ادري من أين جاء أخي الأصغر بكل هذه الحكمة؟ كان الأقرب إلي من إخوتي كلهم. حاولت أن أقنعه، لكنه ظل يردد علي كلمة *راح تندمين*. عشرات المرات في اليوم الواحد. ويوم لم التحق بالمدرسة وكان هو قد سجلني من تلقاء نفسه في ثانوية مليحة حميدو، بتلمسان، صمت نهائيا.

بينما ظل زينو منهمكا في تأثيث بيتا للزواج. أمي كانت تعرف. وأهله يعرفون. اخترت معه الفراش والديكورات. أنا أحب الشراشف الزهرية، والستائر، أحيانا أكره حتى الحيطان. أتمنى أن تكون حيطان بيتي مجرد ستائر، أرفعها كلما اشتقت للشمس والضوء. وبدأنا نفكر في زواج قريب. كان يكبرني بخمس سنوات. كنت أجد راحة كبيرة في بيته. أستلقي على جسده بحب. وعلى الرغم من الحذر الدائم استسلمت له نهائيا. عرفت بحواسي وبالدم الذي ارتسم على الشراشف الزهرية، أن أسوار بكارتي المقدسة، انهارت. شعرت ببرد كبير في جسدي وبخوف لم أستطع تحمله بلا بكاء. بكيت، لكنه في النهاية جعلني أنتصر على خوفي. طمأنني زينو بأن المسالة ليست معقدة إلى هذا الحد. وأنه سيسترني وسيتدبر الأمر. لم أحب كلمة يسترني، لكني لم أتوقف عندها. فجأة زال خوفي وأصبحنا نعيش حياة جميلة وننتظر اللحظات الأجمل وسفر والده، لكي ننام مع بعض وأعود إلى البيت في غاية الانتشاء. سميته زازو وكنت فخورة بأن أكون زوجته. وفي يوم جمعة بدأت أتقيأ. اصفر وجهه، لكنه قال *لا شيء ربما متعبة فقط، لم ننم جيدا*. لكن الأمر لم يكن عاديا إذ أصبح التقيؤ يلازمني. تحايلنا وسافرنا إلى تلمسان، المدينة كبيرة ولا أحد يعرفنا. وبعد الفحوصات تأكد أني كنت حاملا. ارتعبت ودارت بي الدنيا ودخت. يومها أدركت أن الحماقة كانت كبيرة

وأن لا دواء إلا الزواج السريع لستر الفضيحة. حتى الأطباء في تلمسان وسيدي بلعباس وسعيدة الذين أبلغناهم برغبتنا في إسقاط الجنين، وأننا زوجان ولا نريده لأنه جاء مبكرا وعن طريق الخطأ. كلهم، طلبوا منا الدفتر العائلي. ولم تبق أمامنا إلا خطوة الزواج. رحت أقنع أمي بضرورة التسريع بالزواج من ابن عمي. قالت مسكينة على نيتها أنها موافقة على الرغم من أني بدوت لها صغيرة: *إذا كان ابن عمك وعمك يريد ذلك، سأقنع والدك وإخوتك على الموافقة*. لكن أمي عندما رأتني أتقيأ باستمرار وأصاب بالدوار، انتابتها شكوك. سألتني هل أنا حامل. حاولت أن أنكر، لكنها فاجأتني ذات صباح، بالنقاشة التي كانت تعرفها جيدا وهي بئر أسرار. أدخلت يدها في محلول ابيض شممت فيه رائحة الكحول وزيت الزيتون. ثم أدخلت أصبعها بين فخذي، تأوهت بألم. نهرتني. قالت: *اصبري شوي*. ثم عاودت الكرة والتفتت نحو أمي بيأس: *مفرقعة يا لالة ما عندك ما تخيطي فيها. مثقوبة مائة بالمائة. والعديد من المرات*. ثم تلمست بطني. وأدخلت فيّ شيئا شعرت بحرارته، يخترق أحشائي. تأملتِ الدم الذي فيه. قالت بلا تردد: *بنتك يا أختي زهية مفرقعة وحااااامل. شوفي كيفاش تستري الفضيحة*. عندما سمعت أمي بالخبر تمنت أن تقتلني. ضربتني طويلا حتى أغمي عليها وعليّ. يا الندبة. يا المصيبة. بهدلت *الدار وبهدلت العائلة*. مع أني لم أفعل شيئا سوى أني كنت أحبه، وأظنه رجلا قادرا عن الدفاع عن حقه، ولكنه كأغلبية الرجال، كان جبانا. لم يكن أحد يعرف وقتها أني حامل إلا أنا وزينو وأمي وبئر الأسرار، النقاشة. لأول مرة أشعر بأن جسدي أصبح مستباحا ولم يعد لي. النقاشة هي التي عقلت أمي وأعادت لها بعض توازنها: *ما دامت نية زين الدين طيبة، خلاص، ما كاين حتى مشكل، لازم يسرع فقط*. طمأنت أنا أيضا أمي بأن زينو حبيبي ولن يتركني. هيأ كل شيء لعرسنا. سيقنع والده بالزواج، وكل شيء سيتم في أقل من ثلاثة أشهر، بعد شهر رمضان مباشرة. اطمأنت أمي لكلامي وكلام النقاشة.

في آخر مرة عندما زرت زينو، رأيت سيارات كثيرة بالقرب من بيتهم. كنت أعرف أن عائلته هناك ومعهم السبسب أو القرعوشة[32] خديجة التي سمت نفسها كاتيا، لم أكن أحبها لأن عينها كانت عليه، وهو كان يرفضها. ابنة خالته التي تعيش في فرنسا.

---

[32] شتائم شعبية تعني النحيفة المسلولة أو النعجة المصابة بالجرب.

منعوني من الدخول. قالوا على غير عادتهم: *سيأتي زين الدين ويتكلم معك.* عندما خرج، كانت كاتيا برفقته. عند الباب الخارجية تركها بعد أن همس في أذنيها ببعض الكلمات، ثم جاء نحوي. كنت أرتعش. بينما ظل ينظر إلي بنوع من الكراهية، أحسستها في عينيه.

- المفروض أن ندخل إلى بيتنا ونتحدث. هنا، تحت زيتونة كما السراقين؟

- واش بك. بهدلتني. من المفروض ما تجيش حتى أتدبر الأمر وأرى مخرجا لهذه المصيبة. لكن الوقت يفوت بسرعة. حبيبي لازم نشوف حلا سريعا؟

لم يرد؟ زاد خوفي.

- قل لي حبيبي أنك لن تتركني.

- لا، ولكن هناك مشاكل كبيرة مستجدة.

- مشكلتنا أكبر حبيبي من أي مشكل آخر، سأُقتَل إذا لم تفعل شيئا. والوقت يضيق.

- على أي سننزل جنين البؤس هذا بأية وسيلة كانت. جئتك بالدراهم تروحي لأي مستشفى أو عند طبيب يمارس ذلك سريا. أنا أعرف أحدهم، السّي مصطفى، في سيدي بلعباس.

- أعرفه. لكنه يعرف العائلة.

- تذهبين لوحدك حتى لا يشك فينا. ولكن هذا حل عندما تنغلق أمامنا السبل.

- حبيبي، هو يعرف أني غير متزوجة. سيخبر أخي الكبير بكل شيء، الذي لن يتردد

في ذبحي. على أي أمي عرفت بكل شيء. وتأكدت من النقاشة.

اصفر وجهه فجأة مثل الليمونة الجافة.

- هبلتِ؟ فقدتِ عقلك إذا بقي فيك عقل؟ لقد دمرتِ كل شيء. ومن بعد، أنا لا يهمّني؟

شكون يقول لي ما درتهاش عمدا باش تلصقي فيّ؟ الرجال بزاف؟

- زينو حبيبي. قل لي إني لم أسمع جيدا؟ وأن سمعي هذه الأيام ليس على ما يرام. هذا

ليس زينو الذي يتحدث معي؟ زينو الحنين اللي يخاف ويغير عليّ. ليس زازو اللي أحببته حتى الموت.

- طيب أنت كانت عندك علاقة بتوفيق قبلي؟ توتو... من يثبت لي أنك لم تفعليها معه؟

- زينووووو. لا أصدق ما أسمعه. توفيق... توتو المسكين لا أعرف حتى وجهه. منذ

الابتدائية لم أره. من يوم ما ضربتَه لأنك رأيته معي، غيّر المدرسة ولا أعلم عنه شيئا. الله يهديك أنا جاية على جرح في القلب، فلا تجرحني مرة أخرى بقسوة. أنا أحبك يا قلبي. وأنت تعرف ذلك. تعرف... تعرف...

ثم أخذتني رجفة قوية. كدت أنفجر. ضاق تنفسي وتمنيت لحظتها أن أموت. سقطت على الأرض وكانت كاتيا، القرعوشة التي أكرهها، قد التحقت بنا. قالت له بفرنسية فهمتها بسهولة: *لابد من سيارة إسعاف. هل أزعجها خبر زواجنا؟* سمعته يقول لها *لا حدث. مسألة عابرة* un non événement. حاولت أن أفتح عيني فقط لأشتمه بأعلى صوتي: أيها الكلب؟ un non événement أنت وضعتَ سما في أحشاني وتركتني أموت وحيدة، وتقول لا حدث؟

يومها أدركت أنه عليَّ أن أتحمل مصيري وحدي. أن لا ألتفت ورائي. والأكثر قسوة من كل هذا: أن لا أنتظر.

6- لِمَاذَا تَرَكْتَنِي وَحِيدًا؟

فجأة اخترق عيني شعاع صاف وحاد تسرب من بين وريقات شجرة النور الكثة، تبعه في اللحظة نفسها تقريبا، صوت لسرب من العصافير، كان نائما على الشجرة ثم طار هلعا. لم أر أي عصفور ولكن حركة السرب الفجائية خلفت سقوط أوراق كثيرة بيضاء، لوزية وزرقاء، وبعض الألوان التي صعب عليّ توصيفها إذ أكتشفها للمرة الأولى. كانت بلا لون، لولا الحدود الناعمة، الحمراء، التي ترسم بإتقان أطراف وشكل الأوراق. ظلت تتدحرج من أعالي شجرة النور حتى غطت رأسي، وقسمات وجه مينا الذي ظهرت عليه علامات الصفاء والسكينة، على الرغم من مسحة الحزن التي خطته عميقا كالجرح الخفي، كان من الصعب على ملامح طفولية ندية أن تخفيها.

نزعت بعض الوريقات من على وجهها وأنا مأخوذ بكل نعومتها وطيبتها التي تماهت مع الألوان والنداءات التي كانت تأتي من داخلها. انتابتني فجأة رغبة ملحة في البكاء وعدم التوقف. رفعت رأسي نحو الفراغ، وكدت أصرخ بأعلى صوتي: يا الله... *لماذا تركتَهم يفعلون بك كل هذا؟ لماذا تخليتَ عنها في وقت احتاجتك فيه بمرارة؟* ولكني كتمت ناري، بلعت لساني، وصمتّ لكي لا أنغص عليها راحتها. واكتفيت بسماع صرخاتها التي كانت تأتيني من بعيد، وفي كل مرة تزداد حدة.

- حبيبي آذيتك بحكايتي الشقية. هل تريدني أن أتوقف. أعرف درجة عنف القسوة التي

أتسبب فيها لك. يمكنني أن أصمت الآن إذا طلبتَ مني ذلك، وأقول لك البقية لاحقا.

- لا. لا تتوقفي. أسمعك بكل حواسي بما في ذلك جرحي وخوفي وقلقي عليك.

- يااااي. ماذا أقول؟ ما أفظع أن تدرك أنك فجأة أصبحت وحيدا، وأن كل الذين كنت

تعرفهم تخلوا عنك دفعة واحدة. وأن بعضهم أصبح عدوا شرسا يريد محوك؟ كل شيء ينطفئ فيك ويتحول إلى ظلام بلا نهاية ولا يبقى أمامك إلا حل الانتهاء من نفسك. أية إهانة يا قلبي، عندما تتحول مرآتك التي كنت تزهو فيها بوجهك كل صباح، وتتأنق لفجر جميل ارتسم في شكل إنسان، إلى لا شيء. إلى كتلة ضباب ثقيلة تشبه

أكفان الموتى؟ كيف تكون عندما تمد يدك نحو أي شيء صلب تتشبث به لكي لا تسقط في هوة الفراغ، فلا تجد إلا الصمت والأوهام التي لا شكل لها أبدا، وأيادي غامضة تدفع بك نحو المزيد من الغرق. حتى الله الذي ظننته حائطي الأخير عندما يتخلى عني الجميع، دعوته وأنا في قمة يأسي وشجني، وكان الأوحد القادر على فهمي، شعرت به لأول مرة يشيح بوجهه بعيدا عني. وقتها لا شيء أمامك سوى أن تسهل مهمة الأقدار، وتمضي نحو أقصر مسالك الموت: الانتحار. أو تحمل صليبك على ظهرك، كما فعلتُ، لأن الروح عزيزة عند صاحبها قبل الله، لأنه هو من يحملها ويحفظها، ثم تمضي بصليبك وحيدا في درب الآلام. لا أحد يرافقك إلا القهقهات الساخرة، وظلك الممزق، ودمك الذي يملأ وجهك ويغطي عينيك ويحرمك من رؤية المسالك الأخيرة، والذين يتسابقون لرجمك حتى قبل الإعلان عن موتك، مع أن لا أحد منهم بلا خطيئة، بل كانوا الخطيئة عينها.

لا أدري بالضبط ماذا حصل لي يومها؟ لكني عندما استيقظت، كنت أرتعش بين يدي أمي التي كانت تبكي. سألتها عن الوضع ببلاهة لأني كنت ما أزال داخل دوار عنيف. قالت *اهدئي الآن. الفضيحة أصبحت كبيرة، ربي يستر. جاء بك ابن عمك زين الدين، وقال لي أنك أصبحت مجنونة، وأنه لم يرد أن يتركك لوحدك خوفا من البهدلة، فأنت في النهاية من لحمه ودمه.* وعندما سألته عن السبب. صمت طويلا. قلت له إني *أعرف كل شيء ومن الأفضل حل المشكل بالعقل لاختصار الخوف والألم على العائلتين.* قال بعنف والشرر يتطاير من عينيه: كل ما قالته يامنة تخريف في تخريف. وأن الجاني ليس هو ولكن شخصا آخر، توفيق ولد الحجّام. وأنه لن يتزوج بفضلة الآخرين التي خانته في عز النهار، لكن الله فضحها. وأنه رحمة بالعائلة لم يخبر أباها وأخوتها ولا حتى أهله، وأنه لن يبقى على أرض يسمع فيها باسمها أو يشم فيها رائحتها. ترجيته. قلت له *يا زين الدين، يا وليدي العزيز أنت تربيت في هذا البيت، وأكلت ملحنا وخبزنا. يامنة أختك عند ربي، وهي تحبك ولا يمكن أن تتخلى عنها في ظروف صعبة كهذه. استرها ربي يسترك. تزوجها وطلقها في اليوم الموالي، لن يحاسبك أحد، لكن لا تتركها تموت بهذا الشكل.* لم يلتفت نحوي وكأنه لم يسمعني.

ركب سيارته هو وابنة خالته التي ظلت في الداخل، ثم ذهب وتركني مسمرة في مكاني، عند باب البيت.

بكيت حتى تقيأت الدم. أقسمت لأمي الذي ظلت باردة كحجر الوديان، وأنا أتمرغ عند قدميها، أنه هو أبو الجنين وأني لم أعرف رجلا غيره. وحتى صديق الطفولة توفيق، لا أعرف وجهه ولم أره منذ سنوات طويلة، منذ أن ضربه زين الدين لأنه رآه يتكلم معي ويطلب مني قلما في باحة المدرسة.

في مساء اليوم نفسه جاءني صافي، أخي الصغير الذي كان يحبني، ليخبرني هو أيضا بأن الفضيحة كبرت وأصبحت مثل كرة النار. سألته عن أية فضيحة؟ قال: *أعرف أنها مجرد كذبة وأختي يامنة لا تفعل هذا أبدا*. قلت له ماذا حصل انطق؟. قص علي القصة كلها وهو لا يصدق.

- يقول زين الدين إن توتو، توفيق، اغتصبك، وأن علاقتك التي اكتشفها بمحض الصدفة هزمته وأنه لن يبقى في هذه الأرض، وأنه مجروح. سيغرب من البلاد لكي لا يضطر لارتكاب ثلاث جرائم، قتلك وقتل توفيق وربما الانتحار. أنا لم أصدق. مسكين توتو يخاف من ظله.

- لم أتصور زينو بكل هذه الوساخة والجبن. كلب. راح نروح له الآن ونبصق على

وجهه أمام الجميع أمام باباه ويماه والقرعوشة كاتيا.

- يا أختي العزيزة. لقد غادر اليوم مرفأ وهران مع بنت خالتو، كاتيا. راح لفرنسا ولن

يعود. يقول إنك جنّيته. وأنك أنت السبب في هجره وتركه أرضه وأهله.

- كيف يروح ويخليني؟

- راح لأنه كلب. كنت أعرف ما كان يحضره لك، لكنك كنت عمياء ما تشوفي إلا اللي

تحبي تشوفيه. ترك وراءه قنبلة موقوتة ربي يستر ما ستخلفه من دمار يوم تنجر. إن شاء الله يتركون توتو لحاله مع أهله. فهو من يعيل والده الذي أصيب بالعمي ولم يعد قادرا على عمل الحجامة.

- ربي يستر. مسكين.

ضاق علي العالم. أقسمت لصافي بأن أبهدل زينو، لا أدري كيف، ولكني سأفعل. صافي شعر بحواسه الطفولية بالخطر المحدق بي، فنصحني بالهرب ومغادرة البيت. *لازم تهربي لأنهم لو وجدوك سيقتلونك. إخوتك الثلاثة، جلال، بدر وثابت، حراس الأخلاق، راحوا أولا عند توفيق. وبعدها يتفرغون لك*. جمّع معي بعض أغراضي المبعثرة بسرعة، وأعارني حقيبته الرياضية، ولكن قبل أن أخرج، رأيت باب المرآب ينفتح عن آخره وتدخل سيارة *استافيت* الكبيرة التي يتنقل بها إخوتي في القرى والمدن المجاورة ليبيع الأسماك التي يأتي بها الوالد واللحوم، في الأسواق الشعبية. دخل أولا جلال أكبر إخوتي ثم تبعه بدر الملتحي، ثم ثابت. كانت وجوههم باردة كالموت. غلّقوا الباب الخارجية. شعرت بغزغزة المفاتيح كأنها سكينة تتوغل في قلبي. ثم أخرجوا من *استافيت* جسدا نحيلا وجرجروه في المراح حتى باب الغرف. كان ملفوفا في شكارة ومكتف كأضحية العيد. عندما نزعوا عنه الأغطية، رأيت وجه شاب يبس فجأة، فبان الزغب الطفولي واضحا. سألني جلال *هل تعرفينه؟* صمتّ بذعر وأنا أرى توتو المسكين. صرخ بدر بعنف أشد شعرت بعدها بأن الأرض تتخلّى عني. *ربك تكلمي وإلا نطيح لك أسنانك. تعرفين هذا الكلب؟* لم يكن بوسعي أن أنكر، فقد عرفت ملامحه أو ما تبقى منها. قلت بدهشة وارتعاش وخوف: *نعم ولد الحجام. توتو... توفيق... لكن... هل فعل لك شيئا؟* سألني أخي ثاب: *شوفي مليح. هل هو توفيق ولد الحجام*، كانت عيناه ترتعشان. أضفت وأنا لا أعرف كيف وجدت لغتي: *نعم هو. أنا لم أره منذ المدرسة الابتدائية*. كان توتو مرعوبا ويبكي بلا صوت. أقسمت لأخي بأنه لم يفعل معي شيئا وأنني بخير وأن زينو كذاب. وأنه بدلني بالقرعوشة كاتيا فقط، وأني غدا سأذهب معه ومع أمي عند الطبيب أو عند النقاشة، وسيرى بعينيه، ويسمع بأذنيه، هو أو زوجته بأن لا شيء مما قاله صحيح. قال بدر وهم يمسح الذي تطاير من فمه. *واش يصبر قلبي حتى للغد. النقاشة رفضت أن تأتي لأنها لا ترى في الليل. أجلت كل شيء لنهار الغد. بعثت لك بهذا المحلول المعطر بقشور الرمان.* ثم التفت نحو أمي التي ظلت في الزاوية صامتة، وعيناها مرشوقتان على وجه توفيق: *تربيتك الزينة. أعطيها تغتسل به الليلة، وغدا نرى هذه الفضيحة.*

قال أخي الصغير صافي، موجها كلامه لكبير إخوتي جلال.

- أطلقوا سراح هذا المسكين. توتو يخاف من النملة.

رد بدر بجفاف، ومعه زوجته التي تشبه حرباء.

- لا هذا الحلوف يبقى هنا في الدار الغارقة، حتى تجي النقاشة ونشوف مصيره بعدها.

تعودوا يلعبون ببنات الناس، وكأنه ما فيهش رجال في هذا البيت.

في الليل. رأيتهم جميعا من وراء الستار الشفاف وبعينين نصف مفتوحتين وسماع حاد، كل واحد يتحدث عن الفضيحة بطريقته. جلال وزوجته، وأخو زوجته وزوجته، وبدر الذي كان يرتعش ويتمنى ذبحي بيده إذا صح الكلام قبل ذبح توفيق. وأبي المريض بالسل بسبب رطوبة فلوكا الصيد التي كان يقضي فيها لياليه، كان هو أيضا يسب وبندب. وعمي وابناه محمد وقادة، يستعيدون ذكرى زين الدين أو زينو الذي هجّ بسبب ما فعلته به يامنة التي كان يريدها حليلة له. ولولا جهد العائلة، لارتكب زين الدين جريمة قتل مزدوجة. توفيق ويامنة، لغسل العار. وكنت أغلي وبي رغبة كبيرة للقفز على مائدة الجميع وشتمهم وذبح نفسي أمامهم. عرفت ليلتها كم أن الأسد يمكن أن يتحول في ثانية إلى ذئب، قبل أن يترك جلده كاشفا عن أرنب مذعور. مع أني لو رأيته مهددا بسببي، كنت مستعدة لأن أقول هذا حبيبي وأنا سيدة الغواية، وأنا من اغتصبته، وهو بريء من بكارتي ودمي. وأقبل أن أذبح فقط لأنقذه. لا أدري من أين جاءت أمي بكل تلك الشجاعة أمام مجموعة من القتلة، وهي تحاول أن تخفف من الوضع وأن المسألة لا تغدو أن تكون مجرد كذبة مدسوسة. وأن زينو فعل ذلك لأنه كان يريد ابنة خالته خديجة. وأن غدا ستثبت النقاشة عمق الكذبة. كان الإمام الذي أتى به بدر للعشاء، ليعرف حكم الدين، آخر من تكلم. قال: *إذا ثبتت الزينة كلاهما في النار. وقبل النار هناك الحد. لكل الحق والحرية في طريقة تطبيقه. المهم أن يقام الحد لردع كل من تسول له نفسه المس بالمحصنات.* كل كلمة كانت تصلني تبردني حتى أصبحت جثة من ثلج. كنت أرتعش في فراشي. ولا أدري كيف لم أمت ليلتها. كلهم كانوا معنيين بجسدي وبغسل العار مع إنسان لم يكن يعرفني وضيعت آثاره منذ

طفولتي الأولى. لأول مرة أعرف درجة التوحش التي تنتاب الناس والجهل والظلم عندما يسيرون في صف واحد ومتماسك.

يا الله... جيب لي غرام واحد من الحق، وأنا نشوف يعيني.

شعرت بالألم العميق يسكن عينيها. لم يكن بإمكاني فعل أي شيء.

- القاتل يا ميما ليس فقط من يحمل سكينا ويذبحك. الذي يذبحك كل يوم في رأسه

العديد من المرات ليس أقل جرما من غيره. كلهم قتلة، ولو فتحتَ أكفهم لوجدتَها ملطخة بالدم. جاءتني أمي في عمق الليل وضعت في معصمي أساوري، *وقالت تحتاجينهم. روحي عند خالتك في سعيدة. تخفي عندها حتى يفرج ربي. راني هدرت معها ولا أحد يعرف بيتها*. وخرجت في عمق الليل رافقني صافي حتى التاكسي، وهو يبكي. ضمني إلى صدره ووضع في كفي بعض الأوراق النقدية وخاتما ذهبيا، لا أدري من أين أتى بهم. ثم دفن كتابين في عمق حقيبته الرياضية التي وضعت فيها كل أغراضي. اندفنت بعدها في عمق الليل، وهربت نحو الفراغ قبل أن أجد سيارة قادتني لمحطة الحافلات ومن هناك لسيدي بلعباس ومنها إلى سعيدة. وصلتها ليلا. ومكثت عند خالتي ثلاثة أيام متخفية عن الجميع، حتى عن ابنيها، قبل أن يأتيني زوجها بجريدة *الجمهورية* بالفرنسية، ويرميها عند رجلي وأنا نصف نائمة، لم أر إلا ظله المنحني وهو يدخل، ثم وهو يخرج. أخذت الجريدة. قرأت في صفحتها الأولى عنوانا أرعبني. *بني صاف تستيقظ على جريمة نكراء. شاب (ت) اختطف من غابة حيث كان يمارس الرياضة من طرف ثلاثة إخوة (ج، ب، ث). وبحسب شهود عيان فقد أدخل (ب) السكينة حتى المقبض في بطن (ت)، ولم يشف غليله إلا عندما ذبحه وسلم نفسه بدمه وسكينه للمخفر. دخل السجن مبرئا كل إخوته. ينتظر محاكمته التي لن تكون أقل من المؤبد.* عرفت بسرعة أن المقتول هو توفيق وأن القاتل هو خويا بدر. فهمت جيدا ما قصده زوج خالتي الذي رحب بي في البداية وهو يردد كلمات أصبحت بسرعة جوفاء. لم يعد لها أي معنى: *أنت عند أهلك. إذا عيا الكتف الأيمن، يحملك الكتف الأيسر.* ونمت ليلتها على عشق إيتيان في جر*منال* الذي دسه صافي في الحقيبة. غادرت بيت خالتي بحرقة إلى تلمسان حيث لا أحد يعرفني أو يعرف

أهلي. كنت منهكة. ذهبت نحو القيصريات مباشرة ولا أدري لماذا. ربما لأنه المكان الأوحد الذي زرته أنا وزين الدين عندما اشترينا ذهب العرس واخترت أساوري فيه. ضحك مني يومها زينو وهو يستفزني: *تعرفين الدار الكبيرة؟* قلت *لا طبعا. ربما هي دار خيرية وناسها أصلاء.* ضحك مني طويلا ثم قال: *من حيث هي دار خير فهي دار خير هههه الدار الكبيرة هي البورديل وتسيره امرأة تدعى عيشة الطويلة.* ضربته على صدره وأنا أضحك بأعلى صوتي: *ما أغباني، درتها بي.* كانت لحظة دافئة واعتقد أني لحظتها ابتسمت بطفولة وصفاء. وقبل أن أقترح على صاحب المحل، بيع الأساور التي كانت بيدي، جاءت امرأة باتجاهي وهي تتمتم في أذني: تريدين بيع أساورك. قلت نعم. قالت: *خليك منه، هذا شفار وطمّاع. تعالي معي.* نزلت معها إلى البيت. هي أمامي وأنا وراءها. بالحائك الذي كنت أرتديه، لم يكن أحد قادرا على معرفة هويتي. حضرت لي قهوة مرة. فهمتْ مباشرة بأني كنت تائهة. وشعرت تجاهها بأمومة غريبة. قالت *احتفظي بأساورك، ما زال رحمة ربي كاينة.* تعاطفت معي. وضمنتني. وهي تردد *لا تخافي يا ابنتي. الله وحده لا يخطئ. حتى الأنبياء أخطأوا في حق غيرهم.* حكت بعض قصتها. استغربت فجأة أني كنت في حضرة عيشة الطويلة التي يعرفها الكبير والصغير. قالت: *ابقي عندي حتى يفرجها ربي.* بقيت مخبأة عندها حتى ولدت حبيبتي ساره على يد قابلة في مدينة لم أعرفها، خمنت مع صديقاتي لاحقا في *الدار الكبيرة* أنها سيدي بلعباس، في مكان هو بين المصحة والبيت الخاص. يومها بكيت كثيرا. كثيرا. كانت سارة قطعة من لحمي، كان عليّ أن أنفصل عنها وأرميها في فراغ لم أكن أعلم لا مكانه ولا زمانه. سمح لي بالبقاء معها الصبيحة فقط لإرضاعها. ثم نومتها في سريرها. دخلت علينا بعدها امرأة سمينة، أخذتها وهي في عز نومها. من ساعتها لم أر سارة. وعدت في سيارة خاصة مع عيشة الطويلة. استغرقت الرحلة ثلاث ساعات. قيل لي لابد أن تكون سيدي بلعباس لأنها المكان الذي كان يستقبل مثل هذه الحالات. ولم أجرؤ يوما أن أسأل عيشة الطويلة لأني وعدتها بذلك. لكني لم أنس أبدا وجه سارة. وقعت على الوثائق التي جاءتني بها. كانت أما حنونا. يما عيشة. وخرجت نهائيا من عندها لأقيم في الدار الكبيرة. شرحت لي طبيعة عملي بالكلمات المناسبة وأنه عليّ أن أنسى أني جسد

يحب ويكره. *جسدك ملك للآخرين.* شيئا فشيئا تعودت على البشر وأصبح جسدي يستقبل أناسا لا شيء يجمعني بهم أبدا، ولا حتى الرغبة. حتى الغريزة تموت وتحل محلها العادة التي لا طعم لها سوى فعل التكرار. كنت أتقيأ كثيرا بعد كل جماع، لكني مع الزمن تعودت لدرجة أن جسدي مات نهائيا.

ثم جئتَ أنت لتحركه وتشعرني بأنه ما يزال حيا. حراااام عليك لماذا لم تتركني في موتي؟

- لم أفعل شيئا سوى أني شعرت بأن قلبي كان قريبا منك؟
- القلب يا غالي لا ينفع في مثل هذه الظروف. لا ينفع أبدا. يتحول بسرعة إلى أداة

لتبرير الهزيمة المحتومة. عندما تكون في حديقة حيوانات مفترسة، لا خيار لديك. إما أن تصبح مثلها وتشحذ في كل يوم مخالبك وأسنانك، لتبقى وتستمر، أو تموت وتؤكل. أعجبني الكتاب الذي جئتني به *حظيرة الحيوانات لجورج أورويل*، أعجبني كثيرا على الرغم من صعوبته. ذكرتني بأخي صافي، هو من كان يستعير لي الكتب من الدار البلدية، منذ غادرت المدرسة. عشت جزءا من حياتي داخل هذا الوهم الجميل. قرأت المكتبة الخضراء كلها. والكثير من سلسلة *هارلوكان. وبؤساء فكتور هوجو وجرمينال زولا*. بيت العم توم، *روبنوود*، حاولت مع الشعر ما فهمت فيه والو، تركته نهائيا. خليها على الله.

سمعت من خالتي لاحقا أن أخي بدر قال للذين ظلوا يزورونه في السجن ويفتخرون به: *أية امرأة غير متزوجة في البيت هي قنبلة موقوتة يجب تفكيكها بالزواج قبل انفجارها. عندما أخرج سألحقها بتوفيق ولد الحجام*. بينما ظل جلال وثابت يبحثان عني في كل مكان ولم يستسلما أبدا. وصلا حتى بيت خالتي التي أكدت لهما بأني مررت عندها في سعيدة، ولكني غادرت بعد يومين. وظلا مرابطين مدة طويلة في المدينة بلا جدوى. ثم أوصيا العائلة كلها، بأن كل من رآني وقتلني، دمي حلال عليه. هربي أكد لهم بأني كنت مذنبة. عائلتي، باستثناء أمي، ذهبت عند عمي واعتذرت منه عن الخراب الذي تسببتُ فيه لهم. عندما عاد زينو من فرنسا لأول مرة برفقة زوجته كاتيا القرعوشة، ذهبت العائلة نحوه واعتذرت منه ، لكنه رفض الاعتذار وظل

يصر أنه لو يجدني، سيشرب من دمي لأني تسببت في خراب العائلة كلها. أبي جن بعد مدة قصيرة من سماعه بتفاصيل الحكاية. وجد ميتا على الساحل بسبب نوبة الربو. أمي لم تعمر طويلا بعدي، نامت ذات مساء مبكرا بعد أن ودعت الشمس والهواء والحمام وعصافير جنان البيت، ولم تستيقظ أبدا. وُجدت يابسة في فراشها. ظل الجميع يحمّلها مسؤولية سوء التربية وتهريبي. كانت أمي جميلة مثل قمر ولكنها جفت بسرعة قبل أن تنطفئ نهائيا. لم يزدها العمر إلا بهاء. عندما أتذكرها، ألعن اللحظة التي تركتُني فيها أسقط بين ذراعيه. كيف يمكن لإنسان أن يخبئ حقيقته كل هذا الزمن؟ كانت خالتي هي من يأتيني بالأخبار. أبعث لها بالنقود. مرة في السابع من كل شهرين أذهب مع ماما عيشة. نمر على البريد المركزي في سيدي بلعباس. أراها من بعيد تقف بسلتها القديمة. أسلم عليها. تسألني عن صحتي. لا ترى حتى وجهي ولا وجه عيشة الطويلة. أسالها عن الأهل. تعطيني آخر الأخبار. أضع في كفها نقودا لها، وغلافا للأهل ثم أهرب. أهرب بعيدا. ثم أؤكد لها. *يا خالتي ماشي السابع من هذا الشهر. الشهر اللي بعده.* حتى تعودت تلقائيا. عندما أخبرتني بمرض والدي الحاد، قبل موته على الساحل، بعثت بكل ما جمعته. يوم دخل أخي الكبير جلال إلى المستشفى بسبب تجلط دماغي، بعثت بكل ما كان لدي لدرجة أني أغضبت يما عيشة. قالت *تعطيهم دمك، ما يستاهلوش حتى بصقة*. أكدت لي خالتي أنه لولا الدراهم التي بعثت لكان جلال الآن تحت التراب. فرحت أني أنقذت العائلة من الحاجة. أما أخي بدر فأنا من كانت تمنح الدراهم لكي تتمكن العائلة من زيارته في سجن وهران للمحكوم عليهم بالمؤبد. بما في ذلك خالتي التي أصبحت مداومة على زيارته وزيارة العائلة بعد قطيعة لم أعرف سرها أبدا. أول ما تدخل أمي وخالتي عليه، يذهب نحو السلة، يخرج منها الفواكه والغاطو، وعلبة دخان *غولواز* الغالي التي لا يدخن غيرها، *وشمة ماكله الهلال*. يقول وهو منتش بالشمة التي يضعها تحت لسانه بدون ورقة *ماصة* لأنها تسرق منها لذتها: *هكذا نقدر نقول بفخر واعتزاز أنه عندي خالتي وأمي*. لم يكن يدري أن الشمة والدخان، وأكلهم جميعا، وكبش العيد الذي كانت خالتي تأخذه في كل موسم للعائلة، لم يكن شيئا آخر إلا لحمي. لحمي وشرفي وخوفي، وعزلتي التي لا يعرفون عنها أي شيء.

- أتعلم حبيبي ما معنى أن يعيش الآخرون بلحمك؟

وضعت رأسي بين يدي وشددت على أسناني لكي لا أنفجر بكاء، بلا توقف.

أصبحت مينا مثل أختي. كنت أرى فيها شيئا من زوليخا، لا أدري لماذا؟ ولا أعرف السبب العميق ولا حتى العلاقة الرابطة بينهما باستثناء حالة القسوة والظلم؟ بعد سنوات طويلة، بعد اختطافها، وقتلها الغامض في جبل لالة ستي، كما سمعت لاحقا من رامي الذي لم يكن يعرف عنها أي شيء، إذ غابت عن الحركة قبل أن تطفو على مياه سد المفروش بعد أن أكلتها الطيور، بعد سنوات من ذلك تأكد لي بأن مينا لم تكن امرأتي الأولى فقط، ولكنها كانت معلمي في الحياة وأنها صنعت كل وشائجي العاطفية التي أتحرك بها اليوم تجاه المرأة التي ليست شيئا آخر سوى الحياة نفسها.

كانت مينا امرأتي التي أحببتها في مراهقتي. لم تبد أمامها مريم أو شافية قارة إلا حلما هاربا. لم أتجرأ على لمسها إلا نادرا، إلا عندما شاءت هي. لم أكن نبيا، ربما كنت أقل من الإنسان العادي الذي له ضعفه الكبير أمام كل ما هو جميل ومدهش، فقد كنت أحبها فقط وأعتقد أني لم أنسها في أي يوم من الأيام. وكانت تحبني بنفس الدرجة. أو هكذا أعتقد على الأقل. كنت الوحيد الذي كانت تسمح له بالنوم معها بكامل جسدها، بعد أن تدفع هي ثمن الأقراص الثلاثة.

انتهى كل شيء ذات شتاء وكأن المشهد كله لم يكن إلا لحظة غفوة تبادلت فيها الكوابيس والأحلام، الأدوار بحرفية كبيرة. في هدأة السكينة المطلقة، على صوت *سعيدة بعيدة والماشينا غادية*، وأنا غارق في عينيها اللتين بدأتا تغيبان في ارتخاء كلي وضع جسدها كله بين أصابعي وشفتي، تغير كل شيء. كانت شهية وشعرت بها قريبة مني أكثر من أي زمن مضى. لكن، فجأة رأيت وجه زوليخا، وجسد زوليخا، وصرخة زوليخا اليائسة: *سينو حبيبي... ماذا تفعل؟ أنا أختك يا مهبوووول. توقف أرجوك.* قمت مذعورا. وضعت رأسي بين يدي وبكيت بدموع ساخنة. ضمتني مينا إلى صدرها وبكت معي وهي تردد: *حبيبي اعذرني. أنا غبية. صرت متوحشة ولا أعرف حتى كيف أمزح. كنت أتسلى معك وأريد أن أسخر معك قليلا. أنا حبيبتك ولست زوليخا. أنا معك يا قلبي. أنا حبيبتك مينا. مينا اللي هبلت عليك وهبلت عليها وقتلتك بالحكايات الفارغة.*

وكأن مينا فجرت فيّ بركانا غريبا. من يومها لم يغادرني وجه زوليخا أبدا. أراها في الكثير من الأحلام وهي تبكي وتصرخ: *وعلاش يا خويا العزيز، لماذا فعلتَ هذا بي؟ أنسيتَ أنّـي أنا أختك*. خرجت في ذلك اليوم من عند مينا وأنا مشوه ومحروق داخليا. في الخارج، كانت عاصفة ثلجية هوجاء تمسح كل ملامح المدينة. كدت أموت يومها في الطريق، عندما فقدت سيارة اتجاهها وانزلقت بسرعة مجنونة نحوي. حاولت أن أتفاداها لكنها كانت أسرع مني. صدمتني بعنف فقدت وعيي على إثرها. عندما فتحت عيني في المستشفى، لم أتذكر شيئا سوى وجه زوليخا وتلك السيارة المجنونة التي كانت تنزلق نحوي. قضيت أكثر من أسبوعين بسبب العديد من الارتجاجات الدماغية، والكسورات. كلما فتحت نافذة غرفتي لا أرى إلا آثار المنصورة المتآكلة والحقول البيضاء ومرتفعات لالة ستي ووجه مينا ونحن نتخفى تحت نوار اللوز.

رفضت أن تراني مينا في حالة بائسة، أجر رجلي اليمنى كثعلب صغير كسرته أسنان كماشة الصيادين. صممت أن لا أعود لها إلا بعد الشفاء النهائي. لم أخبرها لكي لا أجبرها على المجيء لرؤيتي ولا أي فرد آخر من العائلة. وعندما استرجعت قواي نهائيا، ورأيت في الليلة الأخيرة في المستشفى حلما جميلا. رأيت زوليخا وهي تهمس في أذني: *لم أكن أقصدك أنت كنت أعني إبراهيما الذي لم يلتفت وراءه. قال إنه سيعود بعد الحرب، ولكن الحرب انتهت منذ سنوات، ولم يعد. عد إلى مينا فهي تحتاجك كثيرا.*

صباح يوم الأحد، لبست طاقما أبيض كانت مينا تحبه، وبللتُ شعري بالماء وتركته يتلوى ليصبح في شكل خواتم شقراء قليلا، كانت تشتهي العبث بها، ثم نزلت نحوها. كنت سعيدا أن تراني مينا بخير وأقص عليها قصة الحادثة التي كادت تحرمني من وجهها. كنت أجري قليلا قبل أن تمتلئ *الدار الكبيرة أو قصر عيشة الطويلة*، بزوارها المعتادين والجدد، حتى وصلت منهكا قليلا ولكن سعيدا. سألت عيشة الطويلة عن مينا، بعد أن وضعت في حجرها علبه الجيتان المعتادة. رمتني بنظرة حاقدة ولم تقل *أهلا بالموتشو*، كما تعودت أن تفعل، ثم رمت باكيت السجائر عند قدمي. لم أفهم. فتحت لي باب المدخل. حكت لي كنزة، إحدى صديقات مينا، ومعشوقة ابن عمي التي كانت برفقته وتحضن ذراعه الثقيلة في الماخور، وسط الأدخنة ورائحة البيرة

الوهرانية القوية، ليس بعيدا عن النافورة، أن *مينا* خرجت *مع رجل ولم تعد*. هزتني الكلمة على الرغم من أن هذا يحدث عادة عندما يدفع الزبون مقابلا باهظا للمعشوقة، ويترك تأمينا ماليا معتبرا ووثائقه الثبوتية، ومكان إقامته وضمانة مالية. قال رامي وهو يربت على كتفي: كانت طيبة. *يقولون والله أعلم، إنها وجدت مقتولة بتواطؤ مع الرجل الذي خرجت معه، بعد أن عرف إخوتها مخبأها*. تذكرت يومها عندما وضعت الأقراص الثلاثة وعادت وهي ترتجف. لم يكن شكها في وجه الرجل الأصفر البشرة في غير محله. *لقد شبهته بشخص تعرفه. كانت ترتعش: سينو أنا خائفة منه. الأمر ليس عاديا*. يشبه *شابا أعرفه رأيته العديد من المرات مع توتو الله يرحمه*. عندما وقع *نظري على نظره، تفاداني ثم غادر المكان بسرعة. لم يطلب أية امرأة*. حتى *يما عيشة شكت فيه وفي ارتباكه واحتفظت بهويته. قالت له عد غدا، ضاعت من بين الوثائق الكثيرة لزوار الدار الكبيرة. ذهب ولم يأبه بكلامها. ربما تكون أوراقا مزورة*. حاولت أن أهدئها ولكني لم أفلح. ربما كان هو من أخبر عن مكانها. ربما قدر أعمى رماها بين أيديهم؟ لولا رامي، لما استطعت الوصول إلى الثانوية. طوال الطريق وهو ينشف دموعي ويبكي معي.

نمت ليلتها طويلا، وعندما استيقظت، كنتُ ميتا.

على الرغم من أن زوار ماخور عيشة الطويلة كانوا لا يعدون، خصوصا طابور أولاد بن سكران وعين فزة، والحناية، والصفصيف، وبرية تلمسان وأحوازها وتجار بني صاف، كانوا يحسدونني إذ كلما رأوني دخلت، تمتموا بشكل مكتوم: *ها هو الموتشو... ها هو الموتشاتشو انتاع مينا قد وصل*. ثم يفترقون كل واحد في اتجاه، بحثا عن أية امرأة أخرى يدفنون فيها ماء غضبهم وقبحهم وأحقادهم الكثيرة. لم أسمع يوما أحدا فيهم يستعمل كلمة *عشيقها* التي كانت تستثير دواخلي العميقة، وتعطيني الإحساس بأني أنتمي لشخص ما، في عالم تأسره يقينياته وأنانياته الدفينة. ربما لأنهم لم يعرفوا من مينا إلا جسدها العام. الجسد الذي ينهشه المارة كلما عبروا المدينة قبل أن يغادروا المكان بعفة وعذرية وحدهم كانوا يعرفون سرها.

من بين كل الذين عبروا طفولتي، بقيت مينا فوق الكل. هالة من النور، لا يعرف أحد سرها غيري. جملتها القوية كانت مقياسي في حب الناس أو النفور منهم: *لم أكن أول حبك، ولا مريم كانت أول حبك. كنت حبك فقط. لا يوجد تصنيف ولا توجد أرقام في الحب يا قلبي. يوجد حب يتقاسمه أفراد كثيرون ويسيرون باتجاه واحد في أزمنة قد تكون متداخلة. حب واحد يا قلبي تتقاطع فيه مصائر متعددة. كانت مريم التي لم تمنحك إلا رقصتها في السقاية، وشافية قارة التي ظل حبكما مجرد فكرة هاربة. وكنت أنا من منحتك قلبها كليا وجسدها. ستأتي امرأة أخرى غيري، لن تأخذ مكاني ولكنها ستبدأ معك في النقطة التي توقفت فيها معي. وهكذا مصائرنا يا قلبي. فلا ترهق نفسك كثيرا.*

عذرا مينا. مازلت أرهق نفسي كثيرا، قليلا ما أسمع للنداءات الخفية. أمام حرائق اللغة والحياة. لم أعد سيد نفسي ولا حتى سيد قلبي، مبعثر أنا، بين مطر الأرض وجفاف السماء.

7- مَا قَتَلُوكِ... وَمَا صَلَبُوكِ

من أين كانت تأتي كل هذه الأناشيد التي تُدخل القلب في دوار يتحلل فيه كل شيء إلى ذراته الأولى؟

من أين كانت تأتي هذه الشهقة السجينة في الحلق التي لم أستطع التخلص منها منذ طفولتي؟

من أين يأتي هذا البرد الحارق في الظهر؟

لم أصدق، لكنها كانت هنا، جميلة مثلما لم أرها من قبل.

في هدأة الصمت والنور، حاولت أن أنسى كل شيء، حتى خوفي، ولا أبقي بين عينيّ إلا مينا.

كانت مينا مشرقة كحلم، تتراقص في عينيها الظلال ورذاذ مساقط المياه وألوان نوار شجرة النور. مستكينة، تنظر نحو المبهم وكأنها كانت ترفض أن تثبّت نظرها في نقطة بعينها. مع ذلك، في التفاتة هاربة، استطعت أن أرى في عينيها بقايا تعب قديم، لم تخفه ملامحها الملكوتية الهادئة. مع أنها ظلت طوال هذه الفترة معي، ملتصقة بي، لم أكف عن النظر إلى وجهها عميقا، مخافة أن تنطفئ كنيزك هارب، ولا أشبع منها. من حين لآخر أمرّر أصابعي على ملامحها، وشعرها، ونعومة أصابعها، فقط لأتأكد من أنها مازالت هنا، وأنها ليست غيمة من دخان. لم تكن مينا حلما، كانت أكثر من حقيقة. كانت يقينا.

تمتمت وهي تشد على يدي، بين النوم واليقظة.

- سينو. أنت هنا حبيبي. ميما، لقد تعبتَ كثيرا.

- لا. الحياة لم تكن هدية بليدة. نحتاج إلى أن نشعر أننا نستحقّها. كل المتاعب هي

سلسلة من الاختبارات، نتمنى أن لا تكون وأن لا تحدث لأنها شديدة القسوة. لكنها حينما تأتي، لا سلطان لنا أمامها سوى مواجهتها.

-     أنت هنا ولستَ هناك. لغتك صعبة عليّ. أنا فقط أشعر بقلبك المرهف حبيبي وهو

يغوص في جرحه. أصعب جرح، هو جرح القلب، كلما حاولنا رتقه، زاد اتساعا. الزمن وحده يا قلبي من يشفيه. لهذا تمنيتك لو نمتَ قليلا. لو ارتحت. أنت متعب وعليك أن تدرك ذلك. سمعتُ خوفك وبحرك وقصصا أصبحت اليوم كلها بين يد الله. وحده يعرف فكّ أسرار حروفها ومبهم أرقامها. هل تريد أن تسمعني قليلا، أم تريد أن تنام.

سبقتني ابتسامة لم أستطع كتمها.

-     كنت دائما أقول لمن يسألني عن الرّاحة والنوم: *لنا كل الموت لننام*. لكن الموت انسحب الآن، ولم تبق إلا حقيقة الأشياء. لم يعد لهذه الكلمة أي معنى. أسمعك بكلي. كلما تكلمتِ، تكلّم الجزء المُغيب فيّ. سرّي.

-     أرجوك أن لا تستغرب ما تسمعه منّي. ألم تقل لي يوما إن للحقيقة أوجها، هي ليست

دائما ملكا لنا؟ ما رُوِي عني لم يكن دقيقا. ما قِيل عن مَوتِي يا قلبي لم يكن صحيحا دائما. ربما استعجلتُ القدر بلعبة خطيرة سمعها القدر في اللحظة نفسها. كل واحد من معارفي روى القصة التي اشتهاها، وبالشكل الذي ارتضاه. حتى رامي الذي تحول كثيرا، لم يكن إلا صوتا لغيره. لم يسمع إلا رواية كنزة، صديقته وحبيبته في *الدار الكبيرة*، لأنه لا يملك مصدرا آخر غيرها.

-     هو أول من حكى لي عن المأساة. أتذكر أنه يومها ربَت على كتفي، وهو يقول: *كانت*

مينا طيبة. يقولون والله أعلم، إنها وجدت مقتولة بتواطؤ مع الرجل الذي خرجت معه، بعد أن عرف إخوتها مخبأها. كان رامي حزينا حتى إني رأيت دمعات ترتسم في محجر عينيه وهو يحكي عنك. أما عيشة الطويلة يومها لم تعرني أي اهتمام. لم تقل لي *الموتشاتشو* كما تعودت أن تفعل، بل شعرت أن في عمق عينيها كرها شديدا، وهي تفتح لي باب *الدار الكبيرة* على مضض.

كان نظر مينا ما يزال مرتشقا في المبهم وكأنها لم تكن هنا. تمتمت. بالكاد سمعتُ صوتها.

- يما عيشة الطويلة كانت تعرف الكثير مما لم يعرفه أحد غيرها. كانت بئرا من الأسرار. لم أر امرأة أشد كرما منها. كان قلبها محروقا عليَّ. رفضتْ أن تحكي لأنها حمّلت نفسها ذنبا لم ترتكبه. لم تكن لها أي يد في ما حدث لي. هي من ركّب قصة موتي وأنا أعجبتني اللعبة. عندما رمت باكيت جيتان الذي أهديتَه لها عند رجليك، كانت تعلن عن غَضَبها، ليس ضدك لأنها كانت تعتبرك موتشو الدار، ولم تأخذ في أي يوم من الأيام حضورك بجدية، لأنها كانت تراك بريئا جدا عن تلك الأمكنة، وأن الصدفة التي رمتك هناك سرعان ما تنطفئ وتعود إلى دروسك. كانت تسخر من حبنا. تراه حبا *ما يوكّل ما يشرب*. كانت تسميك *الموتشاتشو تاع الكتب*. كلما سألتني عنك قالت: *الموتشاتشو تاع الكتب لم يظهر منذ مدة؟* كانت غاضبة ضد نفسها لأنها جاءت بي نحو مكان كان يفترض أن تحميني منه، وإلا لما فتحت لك الباب، لما دخلتَ في ذلك اليوم الشتوي بعد خروجك من المستشفى. ماما عيشة عندما تركب رأسها، كل الناس يعرفون عنادها وهو ما حمى *الدار الكبيرة* من المغامرين. عندما يطلع لها الزبل للراس كما تقول، ما تعرف لا باباها ولا ربي: *اسمع يا السي محمد، هذه مش دارك، والنساء اللي في الداخل لسن حريمك. والله لو كان يجي ربي، ما نفتحلوش؟ أستغفر الله. مليح هكذا؟* ولهذا يا قلبي القصة أعقد من مجرد ردة فعل عابرة. يمّا عيشة تحمّل نفسها وزر كل ما حدث لي لاحقا وليس قصة موتي التي كانت هي من ورائها حتى ينساني الجميع وأبدأ حياة جديدة، كنت شابة وأمامي الحياة. لا أعرف سبب حبها لي، لكني كنت وحيدتها في بورديل عيشة الطويلة التي تعلن أمامها، في خلواتنا الهادئة، عن ضعفها، ربما لأن قصتها شبيهة في الجوهر بما حدث لي. أحيانا نحاكم الناس بدل فهمهم، فنغرقهم أكثر.

تنفست مينا طويلا، ثم استوت قليلا من دون أن تترك يدي. جلست متكئة على شجرة النور، محدثة هزة خفيفة على جذعها. تناثرت على إثرها الكثير من أوراقها الملونة من جديد.ثم مدت بصرها نحوي، صوتها بالكاد يسمع. *هل تدري بأني منذ أن جئت إلى هذا المكان لم أشعر بأي برد إلا اليوم. مد يدك حبيبي، أريد شيئا من حرارتك. أنا*

جئتك وتبعتك لان الله عرف بأني لا استطيع مقاومتك حتى وأنت في أرض لا شيء فيها مستقيم وواضح. تشبه التيه أحيانا ولكنها ليست تيها. وأحيانا قفرا بلا حدود لدرجة أن يتساءل المرء عن جدوى حياته وموته.

مددت يدي. شعرت ببرودة أصابعها.

- أشعر بالبرد. نقلتَ لي عدواك. كلما خفتُ، شعرتُ بالبرد في ظهري. أشعر فجأة كأن

اللقاء بك أعادني إلى هشاشتي الأولى حيث أتحول فجأة إلى أنعم من شعاع، وأخف من لمسة. يصعب حبيبي أن تغادر الدنيا وأنت تصرّ عليها، لأنك تشعر بأنك تستحقها بعد معاناتك التي لا حدود لها، وأنك لن تسلم فيها. ثم تنظر من النافذة، في أعالي البناية، وتؤكد لنفسك في النهاية، أن الحياة جميلة وتستحق أن تعاش.

لا تغضب مني سينو. في حياتي القصيرة التي فاجأتني فيها بحب لم أنتظره من أحد، الكثير من الأسرار. لم أقل لك كل شيء. لقد خبأت عنك بعض التفاصيل ربما خوفا منّي عليك، وربما حتى لا أرهقك بها لأنها لم تكن مفيدة كثيرا. أكثر من ذلك، كنت أحيانا أريدك أن تكرهني ولو قليلا. أن لا تأتي إلى الماخور إلا ككل الزبائن، من أجل لحظة تشبع فيها غريزتك Juste pour tirer ton coup ثم تمضي، وتعود إلى دراستك منتشيا بجسد في كل مرة تكتشفه في وضع جميل ولذيذ. مستقبلك كان جميلا وكان يهمّني، لأني على الرغم من سننا المتقارب، كنت أمّك في أعماقي. ولم يكن من حقي أن أغرقك في وساوسي وتيهي. قتلتني بحب فجائي لم أكن مستعدة له بالشكل الكافي. مشكلتي الوحيدة معك التي لم أستطع تفاديها، هي أني كنت أحبك بشكل حقيقي ولأول مرة أشعر بأن جسدي ملكي. وهذا الأمر كان أقوى مني، ولم أستطع فعل الكثير أمامه، لذلك استسلمت لجنوننا الطفولي.

- لكنّي كنتُ أحبك بصدق.

- أنا أيضا وإلا ما كنت دليلك هنا. وما صليت طويلا لهذه اللحظة. اسمع لي قلبي. أنا لا

أختبر حبك لأنك في النهاية كنتَ يقيني الأوحد في عالم لم يكن سخيا أبدا لا معي ولا معك. لكن اسمعني، أنا أيضا أحتاج إلى أن أرتاح في هذه الأبدية الساكنة.

في الليلة التي سبقت الجريمة، كان كل شيء جميلا، بل شعرت برغبة كبيرة في استعادة وجهك للمرة الأخيرة. هناك شيء لا تعرفه لأنه كان وقتها أكبر منك وربما أكبر مني أيضا، خططنا له أنا وماما عيشة سنة قبل وصولك إلى قلبي، لكنها ائتمنتني على السر. وجودك في حياتي كاد أن يخلط كل أوراقي. كنت أخطط معها لمغادرة الدار الكبيرة نهائيا. هي أيضا بدأت تتعب، وفضلت أن تخرج من ضيق المكان وهي في عز صحتها. أعطت الإدارة المركزية فسحة ليبحثوا عن بديل لها في الدار الكبيرة. الماخور انقلب جذريا ولم تعد تعرفه. لقد تغير بعمق مع الزمن، إذ أصبح يرتاده ناس غامضون، ضباط عسكريون، ببدلات مدنية بالخصوص بعد انقلاب 65. أصبحت الضغوطات كثيرة عليها وهي التي كانت تفرض شروطا قاسية على الزبون الذي يريد أن يأخذ امرأة لبيته، منها أن لا يهينها، وأن لا يجبرها على فعل ما لا تريده. تكاثر المرضى الذين يريدون فقط أن يتسلوا بالمشاهد الجنسية الغريبة لإشباع أمراضهم الدفينة. وعندما تحتج بعنف أمام القمقوم المعني بالأمر، يمر عليها واحد من الرجال الغامضين ويوبّخها: *يا الحاجة، ألم تعرفي أنه ديالنا، ما كان عليك أن تهينيه بتلك الطريقة، ثم من تكون هذه التي أهانها؟ مجرد قحبة تأخذ حقها وتبلّع فمها؟* بدأت تتنرفز بسرعة قبل أن تكتشف أنها مريضة بالسكري. فأصبحت تتفادى الغضب، ولكن طبيعتها تسبقها دائما لأنها كانت ترفض الظلم. التدخلات الكثيرة لم تسهل من مهامها. تشكّي الفتيات تضاعف. أخبروها بكل التجاوزات والممارسات الجنسية الغريبة التي فرضها الزبائن عليهن، كالجنس الجماعي، النوم مع الكلاب، الضرب للحصول على النشوى الجنسية. كانت هناك أحداث مؤذية كثيرا ما أدت إلى الموت مثل زوينة، تلك الشابة الصغيرة التي دخلت الماخور، جديدة، لا تعرف أي شيء عن ضوابط الدار الكبيرة. لا شيء في رأسها إلا الربح السريع وترييش الرجال كما كانت تقول. عندما نصحتها ماما عيشة بالتريث في النوم خارج الدار الكبيرة، اتهمتها بأنها تريد أن تحرمها من حقها لأنها هي كبرت ولم يعد لها أي زبون يشتهيها. أخرجها شخص لتقضي الليلة معه، خارج الماخور، لم تمانع ماما عيشة ولكنها أجبرتهما، زوينة والزبون، على توقيع ورقة تؤكد بالخروج الطوعي. يقال إنه نومها مع كلبه المدرب على ذلك قبل أن ينتهي به الأمر إلى غرس أنيابه الحادة

في عنقها، عندما حاولت تفاديه وهي تصرخ بكل ما أوتيت من قوة. الحادث الذي روع المدينة. صحيفة *الجمهورية* كتبت عنه. لم يهتز الرجال الغامضون لما حدث، لأنه اتضح لاحقا أنهم كانوا يملكون أسهما سرية فيه. بعدها بأقل من سنة أغلق الماخور نهائيا بقرار من الدولة حفاظا على كرامة المرأة. وحُوّط مدة طويلة بالأسلاك الشائكة حتى نسيه الجميع قبل أن يفاجأ الجميع بآليات حفر كثيرة. قيل إن الوكالة الوطنية للتعمير اشترته، التي كانت تحت هيمنة تجار المخدرات الذين أصبحوا قوة. وطليت البيوتات المجاورة له بطلاء أبيض وأحيانا أسود كتب عليها وعلى الأبواب القديمة: *بيت شريف*.

صممت ماما عيشة أن تتوقف نهائيا عن إدارة *قصر الدار الكبيرة*، وتذهب إلى الحج بعد أن ساعدها أحد أصدقائها الضباط، في إخراج جوازين واحد لها والثاني لي. لأول مرة أرى جوازا في حياتي. المفتاح السري الذي يعبر الناس من خلاله أبواب الخوف باتجاه النور لكني لم أستعمله أبدا حتى متّ، قبل أن يتحول حجة ضد القتلة، عندما عثر عليه أحد البحارة وعليه بقع الدم، فقدمه لرجال الدرك الوطني الذين استمروا في التحقيق حتى وصلوا إلى إخوتي. حكم عليهم وكيل الدولة بالمؤبد، قبل أن يخرجوا براءة بعد أن اتضح أني كنت أمارس الدعارة في بورديل عيشة الطويلة وأن إخوتي لم يفعلوا شيئا سوى الانتقام لشرف العائلة.

- وصلوا إليك؟

- لا أنا ذهبت عندهم بنفسي. ربما من شككت فيه أوصل المعلومة لهم، لكني كنت قد

غادرت المكان. هذا إذا لم تكن شكوكي فارغة.

- لم أفهم.

- أصبر تفهم. نصحتني ماما عيشة بضرورة شراء بيت صغير حتى لا أجد نفسي في

الشارع لأن عملية تشبيب البوديل قبل غلقه كانت جارية على قدم وساق. وظهرت وجوه جديدة فيه لم تستمر طويلا. أغلق. وحوط كما قلت لك بالأسلاك الشائكة، أغلق لمدة سنة ثم أعيد ترميمه وحوّل إلى بناية جميلة، استعارت كل الهندسة الحديثة. حُوّل

إلى راق، مع خدمات استثنائية. جميل جدا. اختاروا له اسما ساحرا *قصر العشيقات النّائمات Palace des belles endormies*. بدأ بأربع نجوم، ثم رُقِّي في أقل من سنة إلى خمس نجوم من طرف وزارة السياحة، لأن موقعه كان في مكان سياحي شديد الحركة. منطقة القيصريات التي بها أسواق الذهب، والجلود، والكتان، وحايك العشعاشي، وكلّ ما يمتّ للسياحة بصلة. فرح الناس كثيرا بالفندق الجديد الذي أعاد إلى المكان شرفه وإلى القيصريات تاريخها الحقيقي. لكن الناس ظلوا ينادونه *القصر* أو *الدار الكبيرة* أو *بورديل عيشة الطويلة*، على الرغم من أن اسمه كان موحيا وجميلا وينم عن ثقافة عالية. وأصبح رامي هو من يديره برفقة مجموعة الرجال الغامضين. ولكنه كان أطيبهم. وهو صاحب فكرة تحويل النساء القادرات والراغبات أيضا في العمل من عاملات في البورديل إلى خادمات غرف ومنظفات وطباخات. كان ذلك حلا مقبولا بدل رميهن في الشارع وكان هذا أيضا طلب ماما عيشة الطويلة. استفادت صديقته كنزة من هذا التحويل، لكنها سرعان ما كرهته وغادرت المكان بعد شهور عندما عرفت عمله الحقيقي. لا أحد يعرف مصدر المال، حتى رامي لم يكن أكثر من شخص يتعامل مع تجار القيصرية في الذهب المغربي والأقمشة لا أكثر. لكن الذين كانوا يعرفون القصة جيدا، يقولون إن مافيا المال والمخدرات والتهريب، استلمت رامي وشغلته معها لأنه كان عارفا بموضوع التجارة الجنسية. هو من كان يجلب نساء جميلات في مقتبل العمر من تايوان، واندونيسيا وحتى من روسيا وإيران والهند والمغرب. استقطب لاحقا كل نساء الحروب الأهلية اللواتي اغتصبهن الإرهاب ورفضهن الأهل. علاقاته بالإدارة المحلية ساعدته على إيجاد رخص عمل لكل النساء اللواتي كن مقيمات في الفندق ولا أحد يعرف عملهن الحقيقي.

- واااوووو كل هذه التحولات في *الدار الكبيرة*؟
- لأنك منذ سماع خبر موتي الوهمي، لم تسأل لا عني ولا عن أحوال الدار الكبيرة،

ولم تعد حتى لتفقد الروائح والعطور التي تذكرك بي. ولا حتى عطري الذي لم أستعمله إلا لك يا قلبي *Hyacinthus Orientalis*. أنت تعرف جنوني على البنفسج البرّي. قلبك وقتها لم يكن قادرا على تحمل خبر أشد قسوة.

- سألت كثيرا عن ابن عمي رامي. أصبح يتنقل في سيارات سوداء تشبه سيارات المسؤولين. اشترك في حملة التمثيل البرلماني لصالح أحد أصدقائه، من *أولاد البلاد،* الذي لم يفز. لكن رامي في السنوات التي تلت، رشح نفسه، لنفس الانتخابات فنجح فيها ممثلا لولايته. أصبح برلمانيا مهما. رأيته في مرة من المرات على الشاشة التليفزيون الوطنية اليتيمة وهو يتحدث عن ضرورة تطهير البلاد من الفساد.

- تلك قصة أخرى. المهم يا قلبي. أعجبني المكان الذي قادتني نحوه ماما عيشة لشراء

البيت، أولا لأنه مستور ولا يعرفني فيه أحد. ثم وجدتْ لي زوجا خبأتُه عنك حتى لا أؤذيك ولا أقلقك. رجل طيب يكبرني بنصف عمري. تزوج من قبل لكن زوجته تركته وذهبت مع أحد أعز أصدقائه.

- ومن قال لك إني كنت سأتأذى لو حكيتِ لي ذلك كله؟

- بسيطة إذا لم تتأذَّ، فذالك يعني أنك لا تحبني، وأنا كنت أعرف جيدا أنك كنت تحبني.

- أحبك، لكن ماذا كان يمكنني أن أمنحك ما عدا حبي لك وما منحتني أمي من حنان

وحب الناس؟

- كنت في حاجة ماسة إلى هذا الحنان لأنه أعطاني اليقين بأني امرأة يمكن أن تُحب

وتُعشق كما كل النساء. ربما كنتَ أنت أيضا سببا في تسريع ارتباطي بالحبيب لمنور. كنت أحلم ببيت وعش وحياة عادية. زرت البيت الذي اقترحته علي ماما عيشة. كانت صاحبته ميمونة، تريد بيعه قبل انتقالها إلى فرنسا. أعجبني لأنه على الرغم من تخفيه من بين البيوتات الصغيرة في الحي القديم، كان عمقه جميلا بطرازه الأندلسي، وبليمونة في قلب الدار مع نافورة في وسط الدار. وهو بيت توريث بأوراق رسمية.

اشتراه جدها ليفي الذي استفاد من قانون كريميو الذي منح اليهود حق الجنسية الفرنسية وحق التملك والتمليك. بسرعة اشتريت البيت بعد أن منحتني ماما عيشة سلفة، قالت لي لمّا ربي يهون عليك أرجعيها لي. ثم عرّفتني ماما عيشة بالرجل الذي أصبح زوجي من دون أن يمسني. كنت أبدو مثل ابنته، لكنه كان طيبا ويعرف وضعي جيدا. أول شيء قام به هو أنه دفع القسط الثاني من البيت فأرجعت أو حاولت إرجاع سلفتها ولكنها رفضت. قالت اتركيها عندك حتى أعود من الحج، وإذا لم أعد تصدقي بها للفقراء. الحبيب لمنور كان مستعدا أن يبحث معي عن ابنتي سارة ويسترجعها، لنعيش جميعا مع بعض. ثم أذهب انا وهو نزور قبور أهلي، وأتصالح مع أخوتي لأني كنت دائما أقول له إني توحشت صافي حبيبي. قال لي يومها إن الزمن يخفف الماسي ويلين حتى الحجر. ربما في هذه أخطأ الحبيب لمنور. كان في الأصل قصابا كبيرا، ورث رقة القصبة عن أهله التي توارثوها أبا عن جد قبل أن يتوجه نحو التجارة في مواد البناء. في لحظات الغفوة كان يحمل قصبته ويسمعني أجمل الأنغام. في مرة من المرات عزف نغما أبكاني لأن ماما عيشة كانت تحبه. فغنيته معه:

يا لالّة يا تُركية، وأنَا سمَعْت البَنْدِير/ لاَ صِحَّة لا ذرّية، وتعَاونِينِي بالخَيْر.

يا ربّي يْجِيب القهوة، ويْجِي معَهَا رشْراشْ/ نَشرُب فنجَان معَطّر، يْقْلَع لي وجَع الرَّاسْ.

لا جَاء من يرافقني، نشرَّق أنا ويَّاه/ والحَال رَاهُ منَوّينِي، والرّيح والنوّ معَاه.

عشَّتْ العَشوَة، واحْنَا اللّي ما زُرْنَاشْ/ مَكْتوب ربّي ثَقّلنا، والشّيخ مَا سَاعَدْنَاش.

يا لاَلّة يا تُركية، مَنْصَابْنِي نَخْدمْ فِيك/ نفَرّشْ لك ونْغَطّيكْ، ونْزِيدْ نَغْسَلْ كَرْعِيكْ.

لم أستطع أن أكتم دموعي. كانت كلما غنتْها أو سمعتْها بكت. عندما تنتهي، أقبل رأسها وأضمها إلى صدري ولا أسمع إلا نشيجها. لا أسألها. أسمع كلمتها المرتبكة كطفلة: *هذه الأغنية تشيب الراس يا بنتي.*

قال لي في مرة من المرات وأنا غارقة في لالة يا تركية، لازم حبيبتي تغني وتبندر وأنا نضرب لها القصبة. كان حلمه كبيرا ويعني حقيقة ما يقوله.

نظرت إلى وجهها بدا مشرقا كنجمة. ضحكت.

- صوتكِ حنون به بحتكِ ساحرة، تقربك من الناس.

- قلبك هو اللي يقول.

- ألم تغنّ لي *سعيدة بعيدة والمشينة* غالية حتى بكّيتني في غرفتك؟

- يا ودّي أنتَ كنت رايح فيها، لو كان غنت لك حتى *تفاحة* المسكينة أو *كنزة* بصوتها

الرجولي، كنت بكيتَ هههه. أنت كنت عاشقا، ولا ملامة على العاشق.

ضحكتْ لأنها قالت في الجملة نفسها، الحقيقة ونقيضها. كنت *رايح فيها* صحيح، لكن صوتها هو من كان يسحرني. أما صوت كنزة، فأنا لا أعرف عنها شيئا سوى قهقهاتها التي تملأ المكان وأوامرها الصارمة لرامي. أما تفاحة المسكينة، فتنتظر طويلا وعندما تملّ إذ يذهب الكل نحو الجميلات، تصعد إلى غرفتها. تبكي قليلا، ثم تنام على غصة الجمال الذي هرب بسرعة.

- صوتك جميل وهذا حقيقي.

- عادي. كلما تذكرت ماما عيشة أشعر بجرح في القلب. طلب مني الحبيب لمنور أن

نتزوج رسميا على يد إمام وفي البلدية. شجعتني ماما عيشة على ترسيم العلاقة. مع ذلك لم يمسسني على الرغم من أننا كنا نعيش في نفس البيت، ولم يجبرني على أي شيء. كان يقول لي دائما: *ارتاحي وبعدها رحمة ربي واسعة*. جاءني في يوم من الأيام يركض ليخبرني أن الروابط العائلية بدأت ترتق. فقد عرف مكان إقامة أهلي بل وزارهم. أعطاهم عقد الزواج وحكى لهم عن بعض ضياعي وانتقدهم بقوة. لا أعرف كيف كان يفعل ليحل المشكلات الأكثر تعقيدا. حتى أنه جاءني بالعنوان الذي يمكن أن تكون فيه ابنتي سارة. في اليوم الموالي أخذني في سيارته القديمة دوشوفو، حتى سيدي بلعباس. سمعنا من مديرة الحضانة، ما أفرحنا وأن ابنتي يمكن أن تكون موجودة عند عائلة خارج سيدي بلعباس. طلبت منا أن نحفظ السر. كانت العائلة التي زرناها طيبة. كانت ابنتهم الوحيدة. رأيتها عرفتها. كانت تلعب ولم تكن تعرف أني أمها. لكني عندما حملتها بين ذراعي. نظرت إلى وجهي، ثم بدأت تنتقل ببصرها بيني

وبين أمها الثانية. مدت بأصبعها الصغير نحو وجهي وعيني وشعري وشفتي، ثم أحنت رأسها على كتفي ونامت. نظرت إليّ صاحبة البيت وهي تمتم:

- علياء لا ترفض أحدا. اجتماعية جدا.
- قصدك سارة.

اصفر وجه المرأة ثم صمتت وكأن لسانها قُطِع فجأة.

- مين اللي قال لك اسمها سارة. مديرة الحضانة؟
- شوفي أنا جيت نشوفها برك. لن آخذ منك ابنتك، فأنت أمها. فقط لا تحرميني من

رؤيتها.

أحنت رأسها قليلا وخفت رعشاتها، وانقلبت فجأة عداوتها إلى ترحيب كبير.

- هي ابنتي ولا أحد لي غيرها. يمكنك أن تزوريها متى ما شئت. هي ترتاح لك.

سبحان الله، أول ما رأيتك، عرفت أنها ابنتك. شممت شيئا فيك. حتى مديرة الحضانة لما طلبت مني أن أستقبلكم باحترام كبير، شعرت بأن الأمر لم يكن عاديا. شممت رائحة شيء ما في كلامها، أخافني. هل قالت لكما شيئا ما؟

- لم تقل شيئا. الحبيب لمنور يعرف بزاف ناس أوصلوه إلى هذا المكان. مساعدتها

محدودة.

- لماذا تركت ابنتك إذن؟
- قصة طويلة، ربي يعطيني شوية عمر، وأجي عندك وأخبرك.

كنت حزينة وسعيدة في الوقت نفسه. سارة كانت تكبر في عائلة مستورة لكن طيبة. لم يكن ذلك أمرا هينا. في الليل بكيت بلا توقف وتقيأت كثيرا.

ذات صباح ربيعي جميل. كانت الشمس في عز دفئها. جاءني لحبيب لمنور وقال لي ما رأيك فيَّ. كان مثل أمير أندلسي. كان جميلا، لحيته التي نزعها أكسبته أكثر من عشر سنوات. بدا شابا بلباسه الأبيض وعلى شعره الجميل البريانتين كأنه ميشال

كنستنتان[33] الذي كنت أحب أفلامه. ضمني إلى صدره. وهمس في أذني وهو يرسم ابتسامة جميلة بين شفتيه.

- اليوم عندي لك مفاجأة جميلة لك.
- خير إن شاء الله يا الحبيب.

كان طيبا ومخه بسعة البحر، ولا أدري ماذا أعجبه فيّ. لكنه كان صادقا وصافيا. لم يكن يعرف أن الأحقاد العمياء لا تموت. بل تكبر على نار هادئة وغير مرئية. تكبر في الغياب ثم تخبو وعندما تنتعش تقوم من جديد أكثر اشتعالا. كان في عز فرحه مثل طفل ونحن في سيارة الدوشفو الرصاصية بسطحها المصنوع من القماش. كنا عائدين من وداع عيشة الطويلة بعد أن سافرت للحج وتسامحت مع الجميع، واحتفلنا بسفرها، بما في ذلك نزهة، الشابة الجديدة التي تشرف على الماخور والتي جاء بها أحد أصدقاء رامي، قبل أن تتحول لاحقا إلى مساعدة له في فندق العشيقات النائمات.

قال لي وهو يصفف شعره الذي كان يلمع من البريانتين.

- يامنة أختي، أقول لك بصح ما تزعفيس. أوعديني أنك لن تغضبي مني.
- لن أغضب يا الحبيب.
- قلت لك لن يكون عرسنا الرسمي إلا إذا بحضور أهلك. وفّيت بوعدي وأوصلتك حتى سارة وها أنا ذا أوفي بوعدي ثانية مع أهلك. البارحة غبت عنك وقلت لك عندي عمل، أليس كذلك؟
- فهمت منك أنك رحت للميناء لاستلام مواد البناء التي وصلت.
- هذا صحيح، لكن هذا كله لم يأخذ مني أكثر من ساعتين. رحت بعدها عند أهلك.

قضيت معهم نصف يوم في باريخا والدك. إرثه الوحيد المتبقي. وأكلت معهم. فرحوا بخبر زواجنا.

- توحشت الباريخا انتاع بابا الله يرحمه. كنت وأنا صغيرة يأخذني معه وأفتل معه الشبكة الصغيرة.

[33] ممثل فرنسي شهير. Michel Constantin ولد في 1924، من أم بولونية وأب من أصول روسية. توفي بسكتة قلبية في 29 أوت 2003.

ولكنه كان يكرر عليّ: *هذه مش صنعة، صاحبها ميت حتى وهو حي. لازم تقراي وتتعلمين.*

- أشياء كثيرة تغيرت في إخوتك. وجدت عندهم تسامحا كبيرا. أقول لك الصراحة، هم

أقل حقدا منك. قد تماديت في نقدهم، وبهدلتهم ولم يقولوا كلمة واحدة سيئة. *كيف سمحتم لأختكم التي كادت أن تضيع وأنتم رجال؟* وحكيت لهم عن رحلتك القاسية جزئيا، ولم أذكر عملك عند عيشة الطويلة حتى لا أستثير حقدهم. وبكوا. جلال وثابت ضربا رأسيهما على الحائط الإسمنتي حتى سال الدم على جبهتيهما. *اختنا(أختنا) هنا ونحن لم نعرف*. وبشرتهما أننا تزوجنا على سنة الله ورسوله، وأننا إذا استوجب الأمر، سنتزوج ثانية إكراما للعائلة وأمام عيون الناس التي لا ترحم. ارتاحوا عندما أظهرت لهم وثائق الزواج.

- هل كان من الضروري أن تعرفهم بهذا الخراب؟

- فقط ليعرفوا الألم الذي تسببوا فيه لك، ويطلبوا منك العفو. أرادوا، بالخصوص

جلال، أن يأتوا معي، بينما ظل ثابت ساكنا كحجرة باردة. طمأنتهم أن الوقت لم يحن بعد وأننا قريبا سنلتقي عندهم في الدار. أخوك الكبير اقترح فكرة ليست سيئة. أن نأتي مساء حتى لا نثير شبهة الناس ونتعشى، ونحضر الفقيه من جديد ويكون العرس عائليا، فقط لتطمئن قلوبهم. واتفقنا أن نلتقي مباشرة في الساحل، على حافة البحر. فقد بنوا هناك بيتا كبيرا. نصفه محل لتجفيف السمك قبل تصبيره في المصنع الصغير الذي بنوه، ونصفه بيت يقيم فيه كل إخوتك.

- وحبيبي صافي.

- لم أره. قيل لي أنه سافر إلى وهران للعمل في الميناء.

في الحقيقة لم أكن مرتاحة. كان علي أن أتعود على حياة أخرى لم أكن مؤهلة لها أبدا. وتعلمت كيف أنضبط؟ كلما توحشتك ضممتك إلى صدري مثل طفلي. لم أحك للحبيب عنك لكي لا أوقظ غيرته عل(على) الرغم من اتساع صدره.هو أيضا رجل، الله غالب، طبقت وصية يما عيشة: *إذا حبيت رجل يكرهك، احك له عن صاحبك الأول*. طلبت منه فقط أن يتأكد من صدقهم. وكان في كل مرة يعود لي وهو يقنعني

بأن الزمن تغير وأن السنوات التي مضت، غيرت كل شيء في قلوب الناس. حتى أنه اتهمني بأنني لا أريد الصلح العائلي. أكد لي أن حتى أخي بدر، الذي ذهب لرؤيته في سجنه، نادم على كل ما صدر منه، وأنه سيخرج قريبا نظرا لحسن سلوكه، في إطار العفو الرئاسي. بل أكثر من ذلك، قال لي الحبيب إن بدر بكى بدموع حرى عندما عرف من المرحومة خالتي التي قبل موتها قالت له عن كل شيء، وبأني أنا من كنت وراء كل ما كان يصله من شمة ونقود، له وللعائلة.

اتفقت مع الحبيب لمنور أن نلتقي يوم خروج بدر من سجنه، وتكون المناسبة طيبة للم شمل العائلة.

كم كان الخبر رهيبا.

يوم أوصل لي الحبيب خبر مغادرة بدر السجن، علتني رجفة فجائية، وتماسكت لكي لا أسقط. وقفت عند الباب. لملمت قلبي. شعرت بانقباض في داخلي. رأى الحبيب لمنور صفرة وجهي وهو ما يحدث معي عندما تنتابني حالة خوف. سألني وهو يضمني إلى صدره: *قولي لي واش صار*؟ تمتمت: الخير. *لا شيء سوى الخير يا الحبيب الغالي. خذني نتغذى في لوريط*. وخرجنا بالدوشفو. تذكرتك بقوة. هناك رأيتك لأول مرة خارج المكان، بنحافتك وطيبة ترسم ابتسامتك الهاربة ملامحها. تغذينا. بكيتُ بصمت. لأنك كنتَ في قلبي وشعرت أني أسأت إليك من حيث لم أقصد. كنت وفية لنبله، لهذا رفضت رؤيتك ثانية فقط لأقنع قلبي بأنك كنتَ بعيدا. ثم قلتُ له خذني لبراج المفروش حيث تخفيت معك تحت نوار اللوز، وبكيت للمرة الثانية في خفاء. عندما وقفت أمام لالة ستي انهمرت دموعي لأول مرة أمام الحبيب لمنوّر، وقلت كلمات لا أدري كيف خرجت من فمي: *يا لالة ستي. يا نوارة القلب، يا مسلكة الواحلين، احميني منهم. لم أعمل أي شر في حق أي واحد. خذيني يا أمي وضعيني في قلبك. ضميني إلى صدرك الحبيب واحميني من الشرور*.كان الحبيب لحظتها أبا حقيقيا. لكنه لم ينجح أبدا في أن يكون حبيبا. ظل زوجا طيبا على الورق حتى اللحظة الأخيرة. ربما أبا طيبا. لم يتح لنا القتلة فرصة التعود على النسيان.

عندما عدنا من الرحلة، ضحك الحبيب لمنوّر من سؤالي: *هل أنت متأكد من طيبتهم وتحولهم؟* قال: *أنت مهبولة. هل أنا بهذا القصور العقلي لأقودك للموت. لا يا قلبي.*

قرأتهم جيدا وعرفت أنهم تغيروا ويريدون لم الشمل العائلي. ومع ذلك، كلما عدت من عندهم أتفادى الدخول إلى البيت مباشرة.

في أعماقي، كنت أشعر بأن الموت أصبح قريبا مني أكثر من أي زمن مضى. بدأت أتنفسه في كل الأشياء، حتى في الأصوات التي كنت أسمعها. ما لم أقله للحبيب هو أني ذهبت لتوديع الأمكنة أيضا التي جمعتني بك. لا أريد أن آخذ معي أي ألم، ولا أية شهوة مؤجلة. حتى الصلح مع إخوتي لم يكن يعنيني كثيرا. حتى ماما عيشة الطويلة التي تمنيت استشارتها في الموضوع، لم تعد من الحج. البعض يقول إنها ماتت هناك، والبعض الآخر يقول إنها غيرت المكان لتعيش حياة هادئة حيث لا أحد يعرفها.

لقد ظلّ رأسي يغلي يوما كاملا.

الغريب أني أول ما وصلت إلى ساحل بني صاف الذي كنت أعرفه جيدا، لم أشم رائحة البحر كما هي العادة، ولكني شممت رائحة الموت. الموت فقط ولكني خبأت كل شيء عن الحبيب لمنوّر الذي كان في قمة سعادته أنه جمع شمل العائلة. كانت الشمس قد مالت نحو المغيب عندما اقتربنا البيت العائلي البحري. بدا لي المكان مقفرا وخاليا ومخيفا. علتني الصفرة من جديد، لكن لمسة الحبيب أعادت لي بعض الدفء. لم ننزل من السيارة. رأيت الغربان تجوب الساحل على ارتفاع منخفض، وتنقر الرمل. استغربت، لأن المكان عادة مسكون بالنوارس. باريخا والدي كانت تبدو كالحطام في الجهة الصخرية من الشطّ. فجأة شعرت بالرعشة والبرودة التي دخلت العظم. رأيت نفس الفورغون Fourgon التي اختطفوا فيها توتو المسكين، ولد الحجّام وذبحوه. عرفتها بكلمة *لا إله إلا الله* المكتوبة على زجاجها الخلفي. ثم *انصر أخاك ظالما أو مظلوما.*

حتى الحبيب انتابه نوع من التوجس. قلت له: *اسمع يا الحبيب، ما زلنا برّا، إذا لم تكن مرتاحا، نعد بسرعة على أعقابنا. المكان لم يعجبني.* أوقف الحبيب السيارة بالقرب من الباب الكبيرة التي انفتحت آليا على مصراعيها. دخلنا بالسيارة. ثم انغلقت آليا أيضا من ورائنا. بدا لي المكان ضيقا وخانقا على الرغم من اتساعه. دققنا على

جرس الباب الداخلية. انفتحت الباب آليا أيضا. رأيت ابتسامة الحبيب التي طمأنتني كثيرا. تخطى هو العتبة الأولى. ثم مد لي يده، فتخطيتها بدوري. في اللحظة التي انغلق فيها الباب ورائي آليا، امتدت نحوي يد قوية، قبضت على عنقي وجمّدت جسدي كله، وسدت يد خشنة فمي فمنعتني حتى من التنفس. استسلمت بسهولة، بينما ظل الحبيب يقاوم ويحاول أن يتملص منهم ويخرج كلماته المكتومة بصعوبة: *واش بكم جننتم؟ الله يهديكم؟* في دقيقة واحدة، كنا مكتفين كأضحيتي العيد، وعلى فمينا لصقات سميكة، في عمق شكارة خيش لا يظهر منها إلا رأسانا. لحظتها اكتشفت فجأة عبث الدنيا. هل جربتَ يا سينو للحظة واحدة، أن تشعر بنفسك أنك لا تساوي حتى جناحي بعوضة؟ أعتقد أن الله لحظتها كان غائبا عنا نهائيا، فلم أكلّف نفسي حتى مشقة دعوته. كان كل شيء قد انتهى، حتى الخوف. عرفت أني ميتة، وأني جئت نحو القتلة برجلي.

عندما رفعت رأسي للمرة الأولى، رأيت وجوه إخوتي الثلاثة. *جلال، بدر وثابت*، صفراء كوجوه الموتى، وعلى جباههم سواد يشبه البارود. كلهم كبرت لحاهم. ظلوا واقفين كأنهم ينتظرون شخصا رابعا. لم ينطقوا بأية كلمة. فجأة رأيت بعيني المتعبتين، الإمام وهو يدخل. أمر بنزع اللصقة من على فمي، بينما ظل الحبيب مذعورا لا يصدق نفسه وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما. وضع أخي ثابت السكينة في عنقي، وهو يضغط على كلماته حتى جرحني:

- لو كان تخرج من فمك كلمة واحدة أذبحك مثل الكلبة، وأرميك في البحر. أدخلتِ

الذل على العائلة. قتلتِ أمك وأباك وجنّيت زينو ابن عمك، وكنتِ وراء مقتل توتو، وأسكنتِ بدر السجن. أخيرا سنمشي في شوارع بني صاف ومدن البلاد، برؤوس مرفوعة منذ سنوات.

التفت بدر نحو الإمام:

- ما حكمهما يا شيخ؟

- لا تظلموهما. اسألوا زوجها ماذا فعلت طوال هذه المدة أولا وبعدها نرى حكم الشرع. انتفض بدر وجلال كأنهما اتفقا على نفس الكلمة.

- زنت وهي مع مجهول، وصلنا الخبر بالتفاصيل، وأنجبت فرخة موجودة في فيلاج

اللفت في سيدي بلعباس. ماذا بقي بعد هذا يا شيخ؟

- مع ذلك، اسألوا زوجها، فهو أعرف بشأنها.

نزعوا اللصقة من فم الحبيب لمنوّر. كان مرعوبا. قال وهو يوجه كلامه إلى أخي جلال:

- هذا هو كلام الرجال يا السي جلال؟ هذا هو الوعد الذي قطعته على نفسك؟ وضعت

كل شيء بين يديك لأني قرأت في دموعك رغبة وإخلاصا في لمّ الشمل والعيش براحة وبلا ضغائن. ماذا تريد الآن منّا. هي زوجتي على شرع الله. اتركونا نخرج من هذا القبر.

- ديوث مثلك أصلا يجب أن يصمت.

- لا نقاش في شرع الله. الحدّ. لا شيء غير الحدّ إذا أردتم تفادي النّار.

قال بدر وهو يمسد على لحيته الكثة.

كنت أتأمل المشهد وكأني لم أكن معنية بما كان يدور أمامي.

سأل الإمام مرة أخرى الحبيب الذي كانت كل فرائسه ترتعد، ولا يستطيع أن يرفع وجهه فيّ. كنتُ أشعر بندمه والحرقة التي كانت تتسع فجواتها في داخله.

- هل تزوجتها على شرع الله وسنته؟

- يا سيدي كل الوثائق في الحقيبة ومصدق عليها من الإمام ومن البلدية أيضا.

- كيف قبلت أن تتزوج بزانية إذن؟

- كل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون. يا سيدي أنت إمام وتعرف كلام الله.

أعرض عليك كل قصتها، وشف واش تقول، واش يقول حكم الله.

كان الحبيب يضيع وقته ويمدد في عذابه وعذابي معه. كانت ما تزال نيته صادقة مثل طفل. وظل يحكي ويحكي، بعد أن عرض حياتي كلها وهو يحاول أن يتفادى قصة *الدار الكبيرة* ويؤكد أنه أخذني من عند امرأة طيبة هي التي آوتني وسترتني.

ويجهد نفسه، ويسترق قلوبهم، ويبين لهم أني ظلمت وأنه عليهم أن يرجعوا للسبب الأساسي الذي دفع بي إلى الهرب من العائلة. لم يذكر شيئا عن *ماخور عيشة الطويلة* ولكنه ذكر قصة ساره، وقال إنه يقبل بها ابنة له إذا رفضها والدها.

رعد جلال من جديد:

- ألم أقل لك إنك ديوث؟

- لا يا سيدي، هي امرأة خيرة، أفضل مما تظنون. أنقذتها من ضياع كان سيؤذيها

ويؤذي العائلة وعليكم أن تحاسبوا ابن عمكم الذي لعب بها. صدقتموه لأن ذلك يناسبكم. ليتكم أحضرتم زينو، بدل قتل توفيق المسكين بلا ذنب أو بهدلتنا بهذا الشكل. ذنبه الوحيد خوفه منكم.

عندما تعب في إقناعهم. أرخى الحبيب رأسه بيأس باتجاه صدره قبل أن يتمتم بصوت لا يكاد يسمع. *اللهم اغفر لي يا رب. سامحيني يا يامنة. ربي يسامحني، ما فعلت إلا ما رأيت فيه خيرا.* وقبل أن ينطق الإمام القاتل بالحكم، طلبتُ من أخي أن يرحم فقط الحبيب لمنور، فهو رجل طيب، وسترني في ضياعي، ولا علاقة له بكل ما وقع. لكني لم أر إنسانا، رأيت كلابا مسعورة في عينيه تنتظر فقط الأوامر للانقضاض. عندما التقى نظري بنظر الحبيب، توادعنا بأعيننا وبكينا في دقيقة دامت دهرا. طلبوا منه أن يفسخ عقد زواجنا في اللحظة نفسها، ولا أدري لماذا؟ لكنه رفض. أصر عليه الإمام، *طلقها ترتاح وتريحنا معك*. لكن الحبيب لمنور كان أصيلا، أصر أنه تزوجني على شرع الله، وأنه لم ير مني إلا الخير. نظر الإمام إلي بعينين حمراوين. فهمتُه من خزرته. قلت للحبيب. *أرجوك طلقني، أو على الأقل قل الآن ثلاث مرات: أنت طالق، واخرج من هذا الموت*. نظر إلي ثم إلى الإمام. هز رأسه أن لا. وتمتم بصوت أبح. *افعل ما تريد. إنها زوجتي شرعا وقلبا.* نظرت إلى السماء، رأيت سقفا أبيض، يشبه كفنا كبيرا كان ينزل شيئا فشيئا. ثم رأيت فراغا أسود. لا سماء. لا بحر. لا إله يسمعني. شعرت بصفرة باردة تجتاح وجهي، ليس خوفا هذه المرة، ولكن من قدر غريب نزل من سماء جافة، لا أعرفها. طلبت ثانية واحدة أقنع فيها الحبيب لمنور، لكن الإمام أصدر حكمه:

- الزاني والزانية في جهنّم. "الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"[34]. طائفة المؤمنين موجودة، نحن أربعة. لم يُذكر العدد. مائة جلدة بلا رأفة ولا رحمة، قبل تنفيذ القصاص النهائي.

- يا خويا العزيز الحبيب ليس زانيا. أنا زوجته. افتح حقيبته وشوف بعينيك الأوراق.

لم يسمع أحد صرختي. عروا ظهرينا. شعرت بخجل كبير، لكن الفقيه ظل مثبتا عينيه في صدري. في ضربة السوط العاشرة توقف إحساسي بالألم، وقضيت طوال الوقت أسمع لنشيج الحبيب المرهف الذي لا يعرف إلا قصبته وحنينها. في أعماقي طلبت من الله أن يعفو عني لأني تسببت في كل ما حصل له. كل شيء تضبب في أعماقي حتى وجهك كان آخر صورة أغلقت عليها عيني في حقول اللوز وتلك القبل الممطرة، فانزاح خوفي. لم أكن قادرة على نزعك من مخيلتي. كنت أحبك لدرجة قصوى، لهذا خفت أن أكسر لك حياتك. أكبر شيء أعدتَه لي هو جسدي. أصبحت على يقين من أن هذا الجسد على الأقل في جزئه الحميمي يستحق أن يعيش. وأصبحت أعيش به، وقلت لن أمنحه لمن سرقوه مني. حتى الحبيب لمنور الذي تزوجته على الورق، لم يمسسه أبدا.

في اللحظة التي رفعت فيها رأسي بثانية واحدة، وقبل أن أرى خطوط الدم التي ارتسمت على الحائط والأغطية البيضاء، كانت سكينة أخي بدر قد سبقتني إلى الحبيب لمنور. رأيت دمعة بلورية ركنت في المحجر الأيمن من عينه اليسرى، لم يصرخ ولم يجد وقتا ليغلق فمه. شخر قليلا، ثم بانت الحفرة التي في عنقه عندما ارتمى رأسه إلى الخلف. كان الدم مثل النافورة يخرج من حنجرته. ثم التفت نحوي إخوتي الثلاثة. تقدّموا نحوي في خط مستقيم: جلال، بدر وثابت، كانت العصافير المقتولة ترتعش في عمق أعينهم التي علاها دم أصفر به رائحة قيح قديم. لا أتذكر الكثير من تلك اللحظة، سوى لون سكاكينهم، وانسحاب الإمام بسرعة قبل مشهد تمزيقي. لم أسمع إلاّ سيارته وهي تحدث صوتا مخنوقا، ممزوجا برائحة المازوت والدم

---

[34] سورة النور. آية 2.

الخاثر والسردين الفاسد، التي التهمتها بدورها رائحة البحر والأصوات الأخيرة لموجه وهو يتكسر على الصخور حيث كانت ترسو باريخا والدي القديمة. لم أشعر بأي خوف ولا أي ألم. أعتقد أن جسدي مات منذ اللحظة التي عرفت فيها أني سأموت. حتى وأخي جلال يضع رأسي الهش الذي فقد أية مقاومة بين فخذيه، ليفقأ عينيّ بأصبعيه الغليظين، لم أرتعش. لكني سمعت كلماتهم والسكاكين تقصّ لحمي بلا هوادة: *يا الكلبة. يا الخداعة، يا القحبة. يا الفاسدة. سيأكل البحر أشلاءك العفنة، أنت وديوثك...*

عندما رُميَ الكيسان في عمق البحر، كان كل شيء قد انتهى.

- يا الله. يا الله. يا الله. امنحني فقط صبرا لكي أنسى.

- سيمنحك يا قلبي. ستأتي السكينة وتستقر فيه أبديا. روحك في لحظة تيه وستجد لها

مستقرا.

- كيف يمكن أن يحصل هذا وبهذه القسوة؟

- أشفق عليهم جميعا لأنهم كانوا بلا بصر، لا يرون إلا السواد الذي نبت في قلوبهم

سنوات طويلة. سامحتهم حتى وأنا أتمرغ كالأضحية في دمي، ورأسي مشدود بالكاد بعظمة الرقبة، قبل أن يكسرها أخي جلال بكل جبروته ويفصل الرأس عن الجسد ويلمه في كيس أسود توضع فيه الزبالة عادة، ويغلق عليه بإحكام ويلحق لأعضاء التي بقوا ساعة وهم يستمتعون في قصها وفصلها عني لأنه في ظن بدر، كل صرخة تخرج مني، هي حسنة تضاف إلى سجل حسناته الكثيرة. حتى في هذه كنت عاجزة أن أمنح بدر وجلال وبدرجة أقل ثابت، متعة تفرجهم، قبل أن يقدم بدر على ذبحي وهو في حالة هيستيريا سكنت جسده وعينيه ويديه.

سامحتهم، وطلبتُ من الله أن يسامحهم. كانوا في ظلمة الضغينة. خرجت حرقة من الأعماق كانت تشبه النار: يا الله... *اغفر لهم، لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون.*

لا يعرفون يا الله ماذا يفعلون...

ثم مدّت رأسها على صدري ولم تضف أي كلمة بعد جملتها التي بالكاد سمعتها:

- ارحمني يا الله... الآن... أريد فقط أن أرتاح. أن أرتاح قليلا.

أغمضتْ عينيها. فتحتُ قلبي بين كفيها اللذين امتدا إلى وجهي، ثم غفوتُ.

لا أدري ماذا حدث لي، أخذتني شهقة استمرت معي طويلا. شعرت فجأة بالبرد في ظهري. رأيتني طفلا مقهورا، بألبسة ممزقة ومرقعة، يبحث عن دفء مستحيل في حجر حنّا فاطنة وميما أميزار وقلب زوليخا، قبل أن ينتابني خوف شلّ كل شيء فيّ. وبدأت الدموع تنهمر بغزارة. كنت عاجزا عن توقيفها، على الرغم من أني أغمضت عيني حتى لا أسمع إلا حفيف ورق شجرة النور، وشلالات الماء وهي تتكسر على الحواف. فجأة، سحبني نحوه نفس الكورس الجنائزي المثقل بالناس الذين لم أكن أعرفهم، وبالأناشيد الغريغورية العتيقة التي كانت ترتفع عاليا نحو الفراغات الصمّاء التي لا حدود لتماديها. رأيتُني مسجى كما لو أنني متّ اللحظة، ثم وأنا أضع الوردة البيضاء في التابوت، وأمنح الوردة الحمراء، بإيعاز من جدي الروخو، لامرأة كانت تلبس السواد مثل راهبة، لم أعرف إلا عينيها والكحل الذي زاد من اتساعهما.

لم أدْرِ أبدا أنّ مينا كانت متوغلة فيَّ بكلّ هذا العمق.

5- حَبِيبِي سِرْفَانْتِسْ

يَوْمَ اسْتَيْقَظَ دُونْ كِيشُوتْ تَحْتَ جِلْدِي

1- مَسْلَكُ الطَّيْرِ الحُرِّ

فتحت عيني بصعوبة على صوت سرب صغير من الطيور التي لم أرها، وعلى نور تسرب قويا من الشجرة، اخترق الأغصان وعيني بقوة، لدرجة أن دمعتا، ثم بدأت الأوراق تنزل خفيفة على جسمي حتى غطته أو كادت. وأنا أشعر بكل واحدة وهي تنزف ثم تنام على صدري ووجهي ورجلي. آخر ورقة تدحرجت طويلا قبل أن تنام في عمق الكف الذي أغلقته عليها مخافة أن تطير. استنشقت عميقا رذاذ الشلال وحقول البنفسج وعطرها السخي الذي ظل فيّ، في لباسي وجسدي ورأسي.

مددت يدي نحو مينا. كانت هنا قبل قليل ترقد جهة القلب. لم أرَ إلاّ بقايا ظل تسرّب بهدوء ونعومة. تمتمت: *أنت أيضا يا مينا؟ لقد تعبتِ وأصابك الضر عميقا.* اشتهيت أن أصرخ بأعلى صوتي: *لماذا يا الله؟ لستُ نبيا لأُمتَحَن بهذا الشكل القاسي؟* ولكني سرعان ما تكومت على نفسي في وضع جنيني وحاولت أن أنسى كل ما حولي، وأنا أعبر هذا المبهم الذي يأتي وينطفئ، كما يشاء ويشتهي، كأنه مكتوب على الفرحة والمتعة والأشواق وحتى السعادات الصغيرة، أن تتبدد بالسرعة التي تجلت بها. لا شيء يعقب هذه الخسارات وهذا القلق إلا ارتباكات الروح التي لم تجد لها مستقرا لتهدأ فيه، وتنام قليلا بعد أن تجردت نهائيا من كل أوزان الحياة التي لم تكن فقط أعباء وأثقال سيزيفية، لكن أيضا هزات تشبه دهشة بنيلوب وهي تستلقي على صدر عوليس غير مصدقة ما يحدث أمام عينيها. لقد انتظرت عمرا وهي تغزل المستحيل، قبل أن يفاجئها الغياب بما اشتهته. عشرون سنة وهي تنظر من الشرفة الحزينة، المفتوحة على الانتظار، على ظهرها ثمانمائة عاشق كل واحد يريدها لفراشه، لا وسيلة لإقناعهم بالانتظار إلا انهماكها في غزلها غطاء تستر به أبو زوجها يوم وفاته. وفي الليل، تفك كل ما غزلته في اليوم، لتعاود العمل من الصفر صباحا فقط لتؤكد لنفسها أن عوليس في الطريق إليها مكللا بانتصاراته في حرب طروادة.

عشرون سنة وبعض الوقت من الخوف واليقين.

كنت أتمنى دائما عندما تنغلق عليّ سبل الحياة أن يمنحني الله يقين بنيلوب، والقليل من صبر أيوب الذي لم يستسلم لقسوة الأقدار التي حلت به من كل جهة. كل

العواصف تبدأ بقطرة أو هزة شجرة. كان سعيدا وزوجته تطحن حبوبا في الرحى عندما وصله كل شيء مغلفا برداء الخوف. فجاءه أحد العمال يجرى ويصيح: . يا سيدي، لقد قتلوهم.. قتلوا جميع الرعاة والفلاحين. جميعهم قتلوا وجرت دماؤهم فوق الأرض.هاجمنا اللصوص. وقتلوا من قتلوا وأخذوا ما معنا من ماشية. أيوب نظر إلى السماء ثم أغمض عينيه، لكن السماء ظلت جافة، وحده رآها تمطر. في اليوم التالي نزلت الصواعق من السماء على أحد الحقول التابعة لما يملكه أيوب. وجاء أحد الفلاحين، كانت ثيابه محترقة وحاله يُرثى له. قال لأيوب لقد نزل البلاء يا سيدي. الصواعق أحرقت الحقول والمزارع، فأصبحت الأرض كلها يبابا. كل رفاقي احترقوا. رفع رأسه وقبل أن يصرخ: لماذا يا الله؟ نزلت قطرة على وجهه، ثم قطرتان، ثم مطر. قال بألم: إلهي امنحني الصبر كله لكي لا أموت قهرا. أمر يومها أيوب كل الخدم والعبيد بمغادرة منزله والبحث عن عمل آخر. في اليوم___كانت الفجيعة أكبر. لقد مات جميع أبنائه وبناته. اجتمعوا في دار لهم لتناول الطعام فسقطت عليهم. انكفأ على قلبه لكنه لم يسمع إلا نشيجا يخرج من الأعماق. وعندما فتح عينيه في اليوم الموالي وجد أن جسده قد ضعف وانتشرت الدمامل فيه، فتحول إلى رجل يفر منه الجميع. ولم تبق معه سوى زوجته الطيّبة. أصبح منزله خالياً لا مال له، لا ولد، ولا صحة. حتى عندما سلم أمره للأقدار، زاره الشيطان في أماسي البرد والخوف والجوع: *ماذا فعلتَ يا أيوب حتى يموت أولادك وتصاب في أموالك، ثم تصاب في صحتك.* نظر إلى عينيه الحمراوين وكأن الشيطان نفسه لم ينم أبدا من شدة انشغاله بالمصائر. ثم وضع قطنا في أذنيه وفي قلبه بعدها ارتاح لأنه لم يعد يسمع شيئا. فاتجه الشيطان إلى أهل حوران ينفث فيهم الوساوس حتى جعلهم يعتقدون أن أيوب أذنب ذنباً كبيراً فحلّت به اللعنة. ونسج الناسُ الحكايات والقصص حول أيوب. وعقدوا العزم أن يخرجوا أيوبَ من أرضهم. وجاءوا إلى منزله. وقالوا له: اخرج من قريتنا واذهب بعيداً عنا نحن لا نريدك أن تبقى بيننا. لقد حلّت بك أنت وزوجتك اللعنة وستعمّ القرية كلها بسببكما. تعالت ألسنة نار الضغينة إلى قلبه لكنه عندما وضعت زوجته رأسه بين يديها وقبلت جبهته، تمتم: ارحمني يا ربي. إذا كانت هذه مشيئتك فسأخرج من القرية وأسكن في الصحراء. سامحهم يا ربي على جهلهم. أعدت له زوجته عريشًا في

الصحراء يجلس فيه، بعيدا عن الوحوش القاتلة والحيوانات الضالة وظل الحال على ذلك أعواما عديدة وهما صابران وتحت ضغط الحاجة والفقر، اضطرت أن تقص ضفيرتيها لتبيعهما مقابل رغيفين من الخبز. ثم عادت إلى زوجها وقدّمت له رغيف الخبز وعندما رأى أيوب ما فعلت زوجته بنفسها شعر بالغضب. وحلف أن يضربها على ذلك مائة ضربة، ولم يأكل رغيفه وبكى ضرا لم يجد له مسلكا غير مسالك الصبر. ثم قام وصرخ للشهب التي اخترقت قلبه دفعة واحدة: يا رب.. مسّني الضر. مسني الضرّ يا رب وأنت أرحم الراحمين. فجأة رأى أيوب ملاكاً يهبط من السماء يسلم عليه ويقول: اضرب برجلك الأرض يا أيوب، واغتسل في النبع البارد واشرب منه. غاب الملاك، وشعر أيوب بالنور يضيء في قلبه، فضرب بقدمه الأرض، فانبثق نبع ارتوى منه، فغادره الوهن والضعف والمرض. ثم شعت الشمس، فازدهرت الأرض من حوله وأينعت. حتى زوجته لم تعرفه ببهائه. سألته: يا سيدي، ألم ترَ أيوب؟ قال أنا. وأمرها أن تغتسل في النبع، لكي تعود إليها نضارتها وشبابها. فاغتسلت في مياه النبع فألبسها الله ثوب الشباب والعافية. ورزقهما بنينا وبنات من جديد. ووفاء بنذر أيوب أن يضرب زوجته مائة ضربة، أمره الله أن يأخذ ملء اليد من حشيش البهائم، ثم يضربها به فيوفى يمينه ولا يؤلمها، لأنها امرأة حملته حين نفره الجميع.

هؤلاء يسكنوننا، بهم نتفادى عبثية الأقدار وجنون الحياة التي لا ترحم. أحفظ هذا كله عن ظهر قلب، لأن حياتي وربما حياتنا جميعا هي سلسلة من الصدف، بعضها قاس وبعضها يرمينا في أجمل نقطة في الحياة، من لحظة الولادة حتى اللحظة التي نرى فيها الدنيا للمرة الأخيرة. في تلك الثانية أو كسورها، أيضا صدف عديدة قد لا نحسبها أبدا وهي من يصنع مصائرنا التراجيدية والجميلة في مسارات لا أحد يعرف منهياتها.

لا أدري كم استغرق الزمن الذي قضيته في النوم قبل الاستيقاظ على شعاع شجرة النور. شعرت بوجع كبير في قلبي. وجع من يفقد حبيبا تسرقه منه الأقدار على حين غفلة. بحثت عنها فلم أجدها وراء جذع الشجرة قلت ربما هي تتخفى، ثم تحت الشلالات وفي حقول البنفسج. كان كل شيء ساكنا إذ كنت أسمع حتى رجع خطواتي. وكان يفترض أن لا أجدها، هذا هو منطق الأشياء، ولكني في أعماقي لم

أقبل بذلك. قبلها جدي الروخو انطفأ، وإن سَكَن كل حواسي التي يستيقظ فيها كلما انغلقت عليّ السبل. حنا غابت في صحبتها التي قادتها إلى ابن عربي. وميما أميزار انطفأت أيضا بألم رأيته يرتسم في عينيها مثلها مثل زوليخا وعزيز. أبي انسحب بنزفه الذي كلما زادت القسوة عليه، انفتح قليلا قبل أن ينغلق من تلقاء نفسه.

- هل رأيتها كما رأتني؟ ولمستها كما لمستني؟ وأحببتها كما أحبتني؟ أم كانت مينا مجرد غفوة

أصابتني وأنا تحت شجرة النور؟ لا أدري. كل ما أدريه أنها كانت هنا ولبست عرقها وماءها وعطرها. أدخلت في قلبي يقين رؤيتها لأني لمستها وكلمتها، وشربت الماء من يديها، وعانقتها وأحببتها واستمعت إلى ما لم أكن أعرفه. بل شعرت بالألم الذي ملأ قلبها عندما طلبت من الله أن يريحها بعد كل ما عانته. *ارحمني يا الله... الآن... أريد فقط أن أرتاح. أن أرتاح قليلا.*

أي جهل كنت فيه. كل ما تخيلته عن القسوة كان دون ما سمعته.

بحثت عنها في كل المحيط الذي جلته بنظري. لم تكن هناك لكن شيئا منها كان فيّ، ربما كان هو دليلي الأوحد. لا يمكن أن أمشي وحيدا داخل معابر الروح القلقة. في الحقيقة سؤالي عنها وبحثي عن أي أثر لها، لا قيمة له. فقد رأيت جدي الروخو وميما أميزار ووالدي ومحمد وزوليخا وعزيز، كلهم انسحبوا، كل بطريقته. المشكلة الكبيرة هي أني هذه المرة خسرت دليلي الذي ظل زمنا يحميني من نفسي ومن تيهي. صاحبة الشعر الأحمر. كم أشتهي أن أجلس بالقرب منها ولا أفعل شيئا سوى تأمل وجهها وقلقها. عندما يخرج من نحب من حياتنا، ندرك فجيعة الغياب بحيث يتحول فجأة إلى صورة هاربة، تغيب فيها الملامح، لا سلطان لنا عليها. نتمنى لحظة الخلوة ولو ثانية واحدة، يأتي فيها من نحب ونشتهي، ثم نتركه يمضي أنّى يشاء، ونعده بأن لا نركض وراءه كالمجانين.

تنفست عميقا لدرجة أني شممت رائحة عطرها الذي يغلب عليه عطر البنفسج. قلت لابد أن تكون قد سلكت هذا النهج. حركت حاسة الشم بقوة وحواس أخرى، أحسست كأن مينا كانت قريبة مني. عندما هممت بمغادرة شجرة النور وشلالات البنفسج، رأيت الفولار البنفسجي الذي كانت تضعه على عنقها، وعلى رأسها من حين لآخر، وبجانبه

سلة برتقال ممتلىء وجميل كأنه برتقال باريكُو. سمعت صوتها يأتيني بخفوته ونعومته: *يا المهبووول. يا المفتووووون. يا المضرووووب.* **جعلتني** *أحب هذه الفاكهة، وعوضت بها تفاحة الخطيئة التي لم أحبها أبدا لأنها* **حملت** *المرأة غباوة الرجل.*

البرتقال فيه ما يؤكل وما يشرب. فاكهة الطريق. فاكهة المعابر والقسوة.

فتشت تحت البرتقال. لم أجد فاكهة ثانية إلا نعلين قديمين، ولكن صلبين. لم أفهم المغزى منهما، بل خفت أن أثقل بهما حركتي ففكرت بتركهما. ثم إني رأيت أيضا أنهما صغيران على رجلي. بعدها أقنعت نفسي بنفسي، فقلت مادامت مينا قد تركتهما لي، هذا يعني أنها تريدني أن أنتعلهما. كان يكفيني هذا الإحساس لأشعر بخفتهما. انتعلتهما ولم أكن أعرف أنهما بكل تلك الفائدة. شعرت بذلك عندما بدأت أمشي. وجدت راحة كبيرة وكأن الجلد تمدد من تلقاء نفسه ليتخذ شكل رجلي بمجرد أن مشيت بهما قليلا.

فتحت برتقالة. أكلتها. شعرت بلذة كبيرة. ثم أغمضت عيني ووجهت قلبي صوب عطرها وبدأت أمشي. كان النور المتجلي من السماء كبيرا، ويصعب تحمله. لكني رأيت أيضا نجوما أو شيئا يشبهها، في عز هذا البهاء الذي كان يحيط بي، كانت جد مضاءة. عندما بدأت أنزل المنحدر الذي كان يبعدني عن الشلالات وشجرة النور، شيئا فشيئا، سمعت جدي الروخو يهمس لي بعد أن أخذ يدي في كفه وبدأ يقرأ خطوطها ويتأملها ويغوص في دهاليزها، قبل أن يهمس في أذني: *لا حبيبي، ليس هذا هو طريقك.*

- لكنه طريقها يا جدي، لقد شممت عطرها.

- أنت لا تحتاج لها الآن، وهي أيضا، بعد أن أراحت قلبك واستكانت لقلبها. لا تظلمها

كما ظلمها الجميع. كنتَ الوحيد الذي لم ترد أن تخسره يوما. الآن وصلتْ إلى سقف ما اشتهتْ. السّكينة. الأرواح تتعذب قبل أن تصل إلى هدأتها الأبدية. تعرف هنا لا نرى إلا من نريد رؤيته، لا إجبار على الأرواح التي تريد العزلة. انتظرتْك طويلا فقط لتحدثك عن الزمن القاسي وتريح قلبها. كانت تستتّاك، ولم تنم الزمن كله. في كل

وقت كانت تضمد جرحها إلى صدرها لكي تتحمله أكثر وتنتظرك. وحضرتْ مجيئك إلى هنا فقط لتتأكد أنك بالفعل وصلتَ. نسيتْ جرحها وظلت تفكر كيف تعتذر لك عن الألم الذي خبأته عنك عميقا. كان يجب أن تكلمك. أن تسمعك الحمم التي كانت تنام بداخلها ولم تستطع قولها لك.

- لكن يا جدي من الصعب أن تذهب هكذا بعد أن وجدتها؟ كنتُ أحبها.

- لا شيء يصعب هنا. ألم تكن تظن هذا يوم تركتني ثم تركتَ أمك وأباك وإخوتك؟ ثم

كيف تجاوزتَ حالة انطفاء جدتك التي تركتها تندفن داخل عاصفة النور. لا تخف من هذه الناحية. مينا ظلت متعلقة بك. كانت حزينة لأن الحياة كانت ما تزال أمامك، لكنها كانت فرحة أيضا لأنك كنت قادما نحوها لتراك وأنت في عز اندفاعك داخل عالم كنتَ تجهل عنه كل شيء. لهذا تعبثْ وتريد أن ترتاح. هي لا تنتظر أحدا إلا أنت وآخر إخوتها، صافي، الذي أحبته بقوة. سامحت الكلّ، حتى إخوتها الذين قتلوها، وزينو الذي باعها للشيطان. سيأتي زمن وتعود مينا ربما أكثر صفاء مما كانت عليه هذه المرة. هي ذهبت وعلم عودتها عند الله، فهو المانح للخير الأكبر.

لم أفهم جدي جيدا إذ بدا لي كلامه متناقضا، لكني كنت سعيدا أني لم أكن داخل هذه التيه المبهم وحدي. قبل أن ينطفئ، قال لي: *سينو ابني. مدّ عينيك* حيث *يلتقي كل شيء، وسر. لا تلتفت وراءك كثيرا، إنها مساحة ضياع الأرواح التي لا تدلها إلا العلامات التي في قلبها. وأنت في قلبك علامات كثيرة تمنحك كل الخير قبل التماهي النهائي مع النور. أنت أيضا سترتاح يوما قبل أن يوقظك من يحبونك. ستوقظك آلامك وظنونك لكي ترى من تركتهم وراءك، وسيبحثون عنك فور وصولهم لأنهم يحبونك وتحبهم. مثلما أنت في حاجة ماسة لي، سيختارون بحبهم وقلوبهم دليلهم.*

وعندما ضمني إلى صدره للمرة الأخيرة، تمتم في أذني، أو بدا لي كذلك. مرة أخرى لم أر على وجهه علامات أي حزن أو شطط. العكس هو الصحيح، إذ بدا لي كأني رأيت لمعان فرح في عينيه الواسعتين: ستجد من *يفتح لك مسالك الطريق، انتبه فقط لكلّ ما يحيط بك، واسمع حتى للندى عندما يعانق الماء والأشجار والحجارة. اسمع*

لحفيف الريح وكل دقائق التربة التي تصعد عاليا. خذ نفسا من قلبك ولا ترغم نفسك على الوصول السريع. سترى ما لم تر، ويراك من لم يرك.

وسلكت مسلك الطير، اقتفيت سماءه وأنجمه.

مدّ عينيك حيث يلتقي كل شيء، وسر... كان كلام جدي صارما ومقنعا.

رأيت طائرا ناريا يحلق في المكان، وفوق رأسي. منذ أن قمت وأنا أتأمل لمعانه تحت الضوء وكنتُ أظنه نجمة كبيرة. كان يعلو وينزل قليلا، كأنه كان يريد أن يظهر لي نفسه لأراه. لمعانه يعمي العينين عندما يصادف زاوية فيها ضوء حاد. يتحرك عندما أتحرك ويغفو حتى يبدو لي كأنه نام، كلما توقفت قليلا. في النهاية أهملته لكي لا أكسر رأسي بظنون كثيرة لم أكن قادرا على تحملها.

تنفست عميقا. كان عطر البنفسج ما يزال يملأ المكان على الرغم من بداية ابتعادي عنه. لم يكن يأتي فقط من الشلالات فقط، ولكن أيضا من المسلك الذي عبرته مينا وتدحرجت داخله، وتركتني في غفوتي التي لا أعرف كم طالت لأن العلاقة مع الزمن هنا تغيرت كليا. ليس أمامي إلا العبور نحو ما تبقى لي في فسحة الرحيل.

منذ لحظات وأنا أحس بالعطش وأكابر.

في لحظة ما شعرت بأني كنت أسير على عكس مسالك مينا. وكان عليّ أن أتعود على غيابها. ألم في القلب وحنين آسر لكل تفاصيلها، ولكن خياراتي جزء منها لم يكن لي.

أنهيت البرتقالة التي كنت قد فتحتها، لكي أنسى جفاف فمي. تلذذت بمائها وتساءلت في أعماقي كيف قبل جدي بغواية التفاح التي سرقت منه الجنة ومنحته أرضا جافة تأكلها الشمس والبراكين؟ لكني سرعان ما تراجعت عن لوم جدنا آدم وتحميله سطوة عالم كان أكبر منه. تساءلت في داخلي: وماذا فعلت أنا بعد أبدية وبعض السنوات؟ كدت آخذ ثعبانا ظنا مني أنه تفاحة؟ ألم أكن أكثر بؤسا منه؟ لم تكن في النهاية إلا شيطانا يجمل الغواية في عينيه الثعبانيتين.

انحدرت قليلا نحو المنخفض لأبدأ مسالكي. ثم رفعت رأسي حيث تلتقي السماء بالأرض وبدأت أمشي. أمشي بلا هوادة واتركني في دوار الوجوه التي عرفتها وملأتني لكي أنسى طريقا لا يفضي إلى شيء أعرفه. يحدث معي هذا للمرة الأولى. فجأة علا طائر النار وسبقني. لمعت أجنحته تحت انكسارات الضوء. أغمضت عيني. قلت سبحان الله لو في مكان آخر لقلت إنه طائر الفينيكس، ولا أحد غيره؟ كان هو بكل ملامحه. حتى الأمكنة التي يقوم منها بعد استراحة، يترك في مكانه بقعة سوداء كأنها رماد. تذكرت كلمات جدي الأخيرة قبل أن ينطفئ فيَّ: *ستجد من يفتح لك مسالك الطريق، انتبه فقط لكلّ ما يحيط بك...* من حين لآخر، كان عندما يغيب عاليا ويتمادى في تسلق معراج العلو، أدقق في الفضاءات، أرى لمعانا خفيفا سرعان ما يشتعل مضيئا أجزاء كبيرة من السماء، فأدرك أنه طائر النار الذي عندما يقترب يشتعل حول كل شيء ويلمع بقوة كأنه ذهبٌ مرصّعٌ أو فضّةٌ ثمينة. جدي كان يعنيه هو بالضبط، عندما قال *ستجد من يفتح لك مسالك الطريق.* طائر الفينيكس. رأيته عندما قام من جديد من رماده، قبل أن يحفر لي طريقا معبدا في السماء. كانت المرة الوحيدة التي لم تكن لي فيها أية وجهة إلا وجهة الطير. فالطير لا يذهب نحو الفراغ. كان الحمام في بلدتي البحرية، عندما يحل المساء، يأتي أسرابا من عمق البحر، ثم يتوجه نحو برج المنارة القديمة لينام. دليل البحارة في عمق اليمّ والموج العاتي، النجوم والطير المهاجر الباحث عن الدفء في برية ما.

كنت أشق طريقي بين الحجارة المنغرسة في العمق كأسنان القرش. من حين لآخر أخطئ في خطوي، فتعوجّ قدمي. أدركت بعمق لماذا تركت لي مينا نعلا مطاطيا من جلد غريب ومقاوم، كأنه من جلود الجمال الرخوة حينما تنقع في الزيت، قبل أن تتم خياطتها. لم تكن بالنعل أية رائحة، إلاّ رائحة البنفسج والبرتقال التي لم تنطفئ حتى عندما ابتعدت عن المصبّات وحقول البنفسج. لم تكن مينا مخطئة بوضعها النعل في السلة، ولم تكن حركتها مجانية.

أمشي بصعوبة، وخطواتي مهما أسرعت، كانت محسوبة وتبدو ثقيلة. النعل ينزلق فوق الصخور البركانية السوداء ويتخذ شكل الحفرة أو قعر الحجر المسنن الذي كنت أتعثر فيه، أو تنزلق رجلي في جوانبه، ومع ذلك لم يثقب، ولم تمسس قدماي بأي

أذى. كان الجانب الخلفي من النعل مدعما بقوة، وكأن حياتي كلها كانت مركزة هناك. تذكرت آشيل. لا أدري لماذا لم أحبه وهو يواجه هكتور في حرب الجنون والموت. الهشاشة يمكن أن تقتل القوة وجنون العظمة. لا أغفر إلى اللحظة هذه قسوة آشيل. لم يكن مجبرا على أن يكون غليظ القلب حتى أمام عدوه، بعد أن باركه زوس، سيد الآلهة غير العادلة. كان هكتور يعرف أنه سيموت، ولكنه لم يستسلم للخوف يوم طُلِبَ للمبارزة: *للأسف، الآلهة تناديني نحو الموت. هو قدري، لكني لن أموت خارج المعركة...* كلما رأيت تلك الصورة الأخيرة، آلمني قلبي وشعرت بأن العالم بني على الدم والعنف وينتهي فيهما. صورة هكتور وهو يستجدي آشيل بصوت يكاد لا يُسمع: *أرجوك يا آشيل، لا تترك الكلاب تمزقني بالقرب من سفني. خذ ما تشاء من المال والذهب، واقبل هدايا والدي الغاليين، وارجع لهم جسدي فقط ليأخذوه معهم حتى يتمكن الطرواديون من حرقي في النار.* لكن نظرة آشيل كانت شديدة القسوة: *لا داعي أيها الكلب أن تستجديني. لو كنت أسمع فقط لنفسي، لكنت مزقت جسدك إربا، إربا، لأكلته نيئا انتقاما من الأذى الذي سببته لي، وأمنح رأسك للكلاب...* في اللحظة التي سكن الموت فيها عيني هكتور، فتح آشيل قدمي خصمه، ومرر الحبل عبرهما، وربط الكل بالعربة ثم سوط الأحصنة التي انطلقت تركض بلا توقف. تعالى الغبار جراء سحب الجثة. تبعثر شعر هكتور الأسود عاليا، وتمزق وجهه الجميل على التربة والحجارة.

لا أدري، لِمَ تغرقني هذه القصص في تفاصيلها؟ ربما لاختصار مسافات التيه.

هذه المسالك الوعرة حسّستني بأني كنت في الطريق الصحيح وأني لم أكن مخطئا في مساراتي. لأول مرة لم يكن لي هدف معين وكأن الذين كنت أرغب في رؤيتهم انتهوا. قلت في خاطري وهل كانت حياتي كلها بهذا الضيق؟ إذا كان الأمر هكذا، لماذا لم أبق في حضرة حقول البنفسج أرمي الروح هناك، وأسكنها حمامات الشوق وأنام نوما خاليا من أي منغص. لكن شيئا ما في داخلي أشعرني بأن ما يحفر الروح عميقا ما يزال هنا، يبحث عن نفسه قبل أن يتبعثر داخل تيه آخر.

لا أدري المسافة التي قطعت ولا الزمن الذي استغرقه سيري. شعرت بالتعب الكبير والعطش. حتى البرتقالة الأخيرة أكلتها أو شربتها قبل وقت. لا شمس ولا غياب سوى زمن متواتر يخترق كل شيء.

فجأة، رأيت سربا من الحمام عرفته من أرجله الحمراء وأجنحته، يحط ليس بعيدا عني. عرفت أن بعض الحياة بدأ يظهر هنا. نسيت الفينيكس الذي بدا كأنه دليلي في هذا الفراغ، فقد لمع في علوه للحظات، ثم غاب ولم أعد أراه. عندما اقتربت من السرب بخطوات وئيدة، طار بهدوء وبلا جزع، إلا حمامة واحدة ظلت تنظر إلي بعينين فارغتين وكأنها تستفزني. قلت في خاطري وأنا أتحسس بطني الذي كان يتضور جوعا، ماذا لو رميت بنفسي عليها وأكلتها، لحم الحمام حلال وطيب؟ لكني لم أكن أعرف إذا كان ذلك سيفيد؟ زاد جوعي أكثر وأنا أنظر إلى جسدها وعينيها. ولكني قبل أن أقفز عليها، وأخنقها، ثم آكلها، بدا لي فعلي شنيعا ولا يليق بي في مكان رقابة الله فيه واسعة مثل رحمته. وكأن الله سمعني. ابتعد طير الحمام قليلا من مكانه مخلفا بيضة كبيرة بحجم بيض النعامة. استغربت أنها كانت تقريبا بحجم الطير نفسه.تساءلت، كيف يمكن لطير أن يحمل بيضة في أعماقه بكل هذا الكبر. ربما كان عقلي هذه المرة هو من أنقذني وجعلني أتريث عل الرغم من قوة الجوع. قلت في أعماقي إنها بيضة الجوع، وأنا أحتاجها. الطائر ذو العينين المدورتين لم يطر، لكنه ابتعد قليلا وظل يتأملني. في لحظة من اللحظات خفت منه، وربما هو أيضا كان خائفا مني. لكن مع ذلك أقنعت نفسي: *لن أضطر إذن لقتل الطير. أكل بيضة أحسن من حرمان طير من الحياة، في مكان الحيوانات تتساوى كلها*. مع أني لم آكل الطير منذ طفولتي الأولى. كنت أشعر نحوه بعطف كبير حتى في عز الحاجة والجوع. كنا في عمق سنوات الحرب. المجاعة والجراد غزوا كل الأمكنة، وأصبح للجوع رائحة حقيقية. الجفاف منع النباتات التي كنا نأكلها من اختراق الأرض. التافغة أو الأرضي شوكي البري، السكوم، تمالة، الزرنيج الذي كنا نضع منه العلكة، الحميضة التي تجعل الجسد يرتجف من شدة حموضتها، القرنينة والعسلوج، وقلب الدوم. وغيرها، التي لم تكن تكلف شيئا سوى المطر والانتظار. كنا نعرف بالتجربة النباتات القاتلة جيدا، ولا نقربها أبدا. في مرة من المرات رأيت خروفا من خرفاننا كيف مات مباشرة

بعد أكله النبتة المسمومة، على الرغم من جهود أمي وأختي زهور وحنّا فاطنة، إلا أنهم لم يفلحوا في إنقاذه. كانت أمي تعرف جيدا أنه أكل من تلك النبتة القاتلة التي سرت بسرعة في دمه. السنة كانت عجفاء، غابت فيها حتى نباتات الموت. وسكن الجوع البطون بقوة. في صباح من الصباحات الصيفية القاهرة، رأينا أنا وابن عمي كاصا، قط السي محند بوجنان، الذي كنا نكرهه بقوة، والذي كان مزعجا ومتعديا، ويدخل إلى البيوت، يأكل فراخ الدجاج وبيضها، ويرعب كل القطط الأخرى. صممنا أنا وكاصا، أن ننصب له كمينا. وانتظرنا حتى جاء. لا أدري هل أنا أم ابن عمي من أصابه. تسلّحنا بحجرتين كبيرتين. أول ما استعد للدخول وهو يتحسس للأنفاس التي كانت تحيط به، لكنه لم يقاوم عدوانيته وجوعه، رميناه في نفس الوقت بالحجرتين. أعرف جيدا أن كاصا لا يخطئ طريدته، لكني افترضت أني ربما أكون قد أصبته بالصدفة. تخفينا وراء الهضبة التي تغطي قرية سيدي بوجنان ولا تبقي إلا الجزء العلوي من صومعة مسجدها، وسلخناه بجهود صعبة، فبدا جسده مستقيما كأرنب خلوي. كاصا يسلخ ويذبح من زمان. كلما جاءهم ضيف استنجدت أمه به، بينما فشلت أنا في تجربتي الأولي بذبح دجاجة. نادت لي أمي وأرتني طقوس الذبح وهي تقول: *يا ويلي عندي رجل في البيت وأطلب من الغير أن يذبح لي دجاجة؟* وذبحتها. لكني فوجئت بالدجاجة تقوم وتتدرج وتحاول أن تتحكم في رأسها، خفت منها. ركضت وراءها، ولأتأكد من أني ذبحتها، قطعت رأسها. كانت المرة الأولى والأخيرة. وشوينا القط أنا وكاصا، في البداية انتقاما من جبروته. ولكن رائحته أغوت ابن عمي الذي أكل قليلا منه، وقال وهو يضحك وفمه أسود من الرماد. *شوف... شوف... وحق ربي غير تقول عليه أرنبْ*. قلت له قل حق *سيدي بوجنان* وهو القسم الأكبر في القرية. فقالها بلا تردد. ذقت قليلا. بدا لي مالحا، فتقيأت كل ما كان في بطني، بينما واصل ابن عمي الاستمتاع بما تبقى من القط. في الليل ارتعبت منه. رأيته ينظر إلي بعينين غريبتين فقمت مذعورا. سألتني أمي. قلت لها: *قتلنا اليوم قط السي محند بوجنان*. قالت: *الله لا يرده، قتل الفلاليس و الدجاج*. ولكنها لم تعرف أننا شويناه. سألتني ماذا فعلنا به؟ قلت لها *إننا حفرنا له حفرة وردمناه*. قالت: *ارقد يا وليدي. ما كاين والو. ارتحنا منه*. لكن هذا القط ظل ماثلا في أحلامي مدة طويلة. المجاعة ظلت في

عزها. وكلما ظننا أنها انتهت، وأن الله رحم القرية والناس بالمطر، كان الجفاف أصعب وأقسى. ابتعدت عن حكاية القطط ورحت أصطاد الطيور مع أصدقائي. كانت أسهل وأنعم. الشاطرون ومن لهم شجاعة أكبر، ولا يخافون من الحلّوف والعقارب، والثعابين والذئاب، كانوا يرتادون الجبل، ويصطادون الأرانب البرية بكلابهم وبيض الحجل. بينما كنت وأصدقائي ننزل إلى سقاية سيدي بوجنان، والوديان التي ارتسمت بفعل مياه السقاية التي كانت تخرج من هناك مقتفية طريق رحى القايد الشعرة، حتى تنزل باتجاه جنان عمي بن عاشور والحاج محند وأراضي أخوالي *الشعيبيين*، لتضيع في عمق فراغات جبال أولاد بن عامر، والعسة، والقرارة، والقلب، متسرسبة عبر مسارات السكك الحديدية التي كانت تنتهي في ميناء الغزوات، قبل أن تلتصق بوديان فرعية أخرى لتنتهي في البحر. لم تبق أمامنا إلا الزاوش، الطيور العطشى التي تبحث عن الماء. كنا نبحث عن الأحذية غير المستعملة، التي قاعدتها من الكريب، مادة بلاستكية لونها يميل نحو الصفرة عندما تحرق تتحول إلى غراء. ثم نختار من ربطة الحلفاء التي كنا نصنع بها الحبال المختلفة والمقاليع، فروعا صلبة ونغمسها في مادة الكريب[35] الذائبة بفعل الحرق. ثم ننشر الحلفاء على حواف الوادي لتختلط بالنباتات العادية الأخرى التي تظلل الطيور فيها، بالضبط على حافة الماء. وعندما تأتي هي في عز عطشها لتشرب، تلتصق بالكريب. ترفرف قليلا فيزيد التصاقها أكثر حتى تشل أجنحتها نهائيا. فتستسلم وتظل تحدق بعينيها الصغيرين، لا حول ولا قوة لها. بعد لحظات نلتقطها مثل الذي يقطف فاكهة. ونتخفى وراء الهضبة. نكبر بكلمة لم نكن نعرف معناها *كبيرة كبيرة الحلال*. سوى أننا نحلل بتلك الكلمات أكلها. نذبحها جميعا بقطعة زجاج قنينة حاد نكون قد قمنا بتهييئه لهذا الغرض، ثم نشعل النار ونشويها. رائحتها طيبة وهي تحترق. لم يكن بها الشيء الكثير مما يؤكل إلا عظامها الناعمة التي تحولها نار الحطب بسرعة إلى رماد هش، فنأكلها. كانت طيبة جدا ربما، بل الأكيد، بسبب الجوع، لكني كنت أشعر دائما في أعماقي بذنب ونحن نأكلها مع أصدقائي، مرفقة بمخاطنا الذي يسيل من أنوفنا ولا نجد وقتا لمسحه، بسبب البرد

---

[35] مادة لاصقة تستخرج من الجزء السفلي من نوع من الأحذية La crêpe

القارص، فنكتفي باستعمال أكمام معاطفنا الممزقة، ولا نتوقف عن الأكل، ونحن وسط الأدخنة وعيوننا دامعة.

تأملت بيضة الطير من جديد. بدا لي كأنها كانت تكبر. ولكني تأكدت بسرعة من أن التعب هو الذي جعلني أدخل في عالم كان أكثر تعقيدا، ولم أكن لأفهمه بسهولة. ظل الطير الرابض قبالتي، يدوّر عينيه، ويتأملني وكأنه كان يقول لي خذها هي لك. مددت يدي نحوها وأنا سعيد أن الطير لم يحرك ساكنا. وما كدت المسها حتى رماني الهدير الذي هزني بقوة ورماني بعيدا لدرجة أن رأسي اصطدم بالشجرة القريبة مني، وشعرت بحرقة على يدي ورقبتي ووجهي، بل كأن ألسنة النار أحرقتني من الداخل أيضا. بين الدوخة والرجفة الوعي القليل، رأيت مخالب الفينيكس وهو يمزق الحمامة بعنف، ويفقس البيضة التي خرج منها رماد أسود. سمعت بعدها زعيقا لم أكن قادرا على تحمله، فوضعت رأسي بين يدي، لكي لا ينفجر. ثم طار الفينيكس عاليا، تاركا وراءه هديرا أقوى من الأول، كأنه موجة بحر اصطدمت بصخرة كبيرة أخذت في أثرها كل ما صادفته أمامها. لم أسال كثيرا، سوى أنه تأكد لي أن جدي لم ينطق عن الهوى.

واصلت سيري الشاق والصعب، بين الأحجار المسننة، محاولا أن أنسى كل ما رأيت، وكل ما سمعت.

فجأة دخلت حقلا من النوار كان طول تيجانها يصل حتى الركاب، مثل سجاد أصفر وأبيض كأنه نبات الجرجير الذي كنت أراه في طفولتي، والأحمر المطرز بشقائق النعمان. نزعت واحدة وشممتها، كانت برائحتها المعتادة. انتابتني ضحكة لم أستطع كتمها وأنا أتذكر لعبتنا المفضلة. كنا عندما نخرج للحقول أو الرعي مع الجارات والصديقات والحبيبات السريات والأصدقاء، نتحلق نحن الشباب في شكل دائري ونمنع البنات من الالتحاق بنا. ننزع ورقة من شقائق النّعمان، ونجمع الكف في شكل دائري، ثم نبلل دائرة الكف الفوقية بألسنتنا، ثم نلصق عليها ورقة شقائق النعمان الحمراء. ننظر نحو البنات ونتفق على واحدة منهن، ثم نختبر عذريتها بالضرب بالكف الثانية على ورقة شقائق النعمان، فنسمع إما صوتا مكتوما لا يحدث من ورائه أيّ تمزق، وتبقى الورقة كما هي، مما يعني لنا بأن الضحية التي اخترناها عذراء. وإذا أحدثت

الورقة انفجارا في الكف وتمزقت نظرا لرهافته ونعومتها الشديدتين، فهذا يعني أن من اخترناها، ليست عذراء. وعندما نتضاحك عاليا، تعرف الفتيات أن إحداهن هي المقصودات، فتجيب خديجة التي كانت هي الأكثر جرأة: *مبروك عليكم. عرفتو شكون المفرقعة فينا؟ كي نوجد رجل يستاهل، ما عليه أنا نمد لو ورقة بنعمان. حتى الآن لا يوجد إلا المفرخ والبز وقلة الأدب والفهامة.* هي تعرف أنها كانت دائما هي المقصودة. كانت وسيلتنا للانتقام منها. الوحيدة التي كنّا نسميها موح الطويل، لقامتها ولجرأتها في الكلام. كانت تبدو غولا شرسا أمام الأخريات: كادري يامنة، البوحفصية، الحيرشة، البركية، خضراء، الزهراء، نبية... كانت الحياة قاسية، لكن عمقها كان طيبا، إذ على الرغم من تلك الشقاوة لم نكن نقبل أن تهان إحداهن أو يتعدى عليهن أي شخص.

لأول مرة أشعر بأن الأرض تغيرت كليا، وأصبحت من حرير. المشي عليه مريح جدا. استغربت كيف كنت على أرض مسننة لأجد نفسي على أراض من نوع آخر، كأني انتقلت من الأرض إلى الغيم. لم أر طائر النار على الرغم من أني بحثت عنه في عمق السماوات بعيني حتى تعبتا، ولكني رأيت ريش الحمامة وبقايا ذرات رماد البيضة الغريبة، وهو يتصاعد وينزل. المهم في كل هذا هو أني نسيت بسرعة جوعي. رأيت من بعيد شيئا بدا لي كأني كنت أعرفه. أجسام كثيرة متحركة بفعل الهواء. بدت لي في البداية كأنها صخور، ثم شياطين لأن شيئا في الصخور كان يتمايل. عندما اقتربت أكثر تأكد لي أنها كانت عبارة عن طواحين هوائية. عليها أغبرة وأوراق الأشجار اليابسة، وكأنها لم تشتغل منذ زمن بعيد. كانت على أبوابها الموصدة بإحكام أعشاش العنكبوت والعناكب الكبيرة التي أصبحت مثل الحارس لأبوابها المغلقة. تحيط بطواحين الهواء طيور تشبه الغربان الضخمة التي لم تأبه أبدا لمروري بالقرب منها، ولم تحرك ساكنا إلا عندما بدأت الرياح تعلو قليلا. بدأت شفرات الطاحونة الكبيرة تتحرك وتدور محدثة صوتا حادا وخشنا. لا أدري ما الذي ذكرني *بألكالا دي هناريس* وهضاب طليطلة. زرتها وقضيت فيها أياما قريبا من بيت سرفانتس. يومها لم أستغرب كل الجنون الذي دفع به لكتابة *دون كيخوتي دي لا منشا* . كانت *آلكالا دي*

هناريس أو القلعة، مقسمة إلى ثلاثة أحياء كبيرة: الحي الإسلامي، الحي اليهودي والحي المسيحي. لم تبق منها اليوم إلا ظلالها أو رسومات خرائطها التي لم تعد تعني الشيء الكثير في الواقع اليومي بعد أن هجرها المسلمون واليهود رعبا من الملوك الكاثوليك ومحاكم التفتيش المقدس. كنت دائما أظن أن من كتب دون كيشوت لابد أن يكون رجلا مجنونا، قبل أن أتأكد مع الزمن أن استمراره في وجداننا الأبدي متأت أصلا من كونه كان خارج كل نظام، حتى ما يسمى بالعقل. كان يشبه أعماقنا وأسرارنا. في كل عصر يقترب منا أكثر كأنه لا يتحلل كبقية المخلوقات ولا يتقادم أبدا. ربما لأن دون كيخوتي أعطى ظهره لحياة الكذب، وأخذ حاضره بالسخرية التي تليق به.

وانا أدور حول الطاحونة الغريبة المليئة بالغربان، وأسلك الطريق الصغير الذي يشبه معبرا، لأني رأيت وأنا تحت شفرة الطاحونة العملاقة طائر النار وهو يسلك ذلك الطريق. مشيت قليلا. فجأة رأيت ظلا آتيا نحوي من بعيد، اتضح بسرعة أنه لامرأة كانت قادمة بشكل معاكس لي، في نفس المعبر الذي كنت أمشي فيه. مع أني في البداية ظننت أنها كانت تسير إلى الأمام، وفكرت باللحاق بها جريا لأسالها فقط أين أنا في هذا المكان الذي انقلب فجأة من الحجارة المسننة إلى نعومة النوار؟ لكنها أعفتني من هذه المهمة الثقيلة. لم تكن تحمل شيئا في يدها. عندما اقتربت مني سألتني:

- من عائلة الروخو؟
- جدي الأكبر والأعظم.
- من ساعة ما رأيتك، عرفت أنك أنتَ. سيدي ينتظرك.

لم أتجرأ أن أسألها من هو سيدها ولا من هي أصلا. أي خطأ يمكنه أن يرميني نحو تيه جديد. كان بصري مرشوقا في طائر النار الذي كان عاليا ثم نزل حتى أصبح بالضبط فوق رأسي لأول مرة أتمعن في ضخامته وقوة رجليه ومخالبه. كنت خائفا من أن يخطئ في حق سيدة جاءت فقط لتساعدني، فيمزقها شر تمزيق، كما فعل مع الحمامة التي لم تكن حمامة. حام فوق رأسي قليلا قبل أن يتعالى من جديد مخترقا سماء بلا لون ولا حدود. تذكرت الأغنية التي ما تزال في الرأس عن نسر جبال

تيغراو، الذي نسميه *بوعميرة*. عندما يحوم فوق دجاجنا وخرافنا وأرانبنا، نغنّي له أغنيته التي يرقص عليها قبل أن يذهب بعيدا عنا.

اشطح اشطح بوعميرة
نعطيك الزيت والخميرة
في دار أباك الكبيرة.
اشطح اشطح بوعميرة....

صعد عاليا أكثر حتى غاب نهائيا ولم تبق إلا هالته الضوئية. فكرت أن أسال المرأة عن اسمها، ولكني لم أتجرأ، إلا أنها هي من تلقاء نفسها قدمت نفسها.

- أنا ألدونثا لورينزو.
- أنا سينو، والروخو دي ألميريا جدي كما قلت لك من قبل.

لم يهزني اسمها في البداية. لكني عندما بدأت هسهسة شفرات طواحين الهواء في الدوران من جديد، تذكرت دون كيخوتي، حبيبي في الجنون في زمن يتكرر ولا يتغير، وتذكرت اسم حبيبته تلك التي فشل في التعبير لها عما في قلبه. كان اسمها ألدونثا لورينزو. قبل أن يسميها في هبله *دولثينيا*. الفلاحة المسكينة التي جعل منها أميرة جنونه وهبله.

- سيدي أعطاني اسما آخر أكثر أناقة، لكني لا أحبه كثيرا لأنه مسح كل جذوري. لقد منحني كل الحياة بكرمه وعطفه وحنان قلبه، حتى أصبحت جزءا من روحه الطيبة
والمعذبة أيضا.

لم أتجرأ عن سؤالها لا عن سيدها ولا عن الاسم الذي أطلقه عليها، لأني لم أكن أعرف وضعي بدقة، سوى أني تركت نفسي للريح التي تأتي وتروح كما تشتهي، تأخذني لتفادي التيه حتى ولو تغرقني في كل لحظة في عمق عالم جديد لست أدري إذا كنت مهيأ له كما يجب. تبعت مدام ألوندوثا لورينزو، بلا كلام وعيناي مرشوقتان

في الأعالي الفارغة إلا من ضباب أو شيء يشبه ذلك كان يتكاثف بقوة في الزوايا البعيدة.

مشينا طويلا داخل خضرة الحقل الذي سرعان ما تغيرت ألوانه ليغلب عليها بساط اللون الأحمر القاني. كانت مدام ألوندوثا لا تكاد تظهر لقصر قامتها، وعلو تيجان النوار. كانت تمشي باستقامة غريبة لم ألحظها في أي شخص من قبل. لم تتوقف ولم تلتفت حتى وصلنا إلى مدخل مغارة مغلقة الباب الخشنة.

التفتت نحوي. قالت:

- وصنا الآن. أعرف أنك متعب جدا. سيدي سيمنحك كل الراحة التي تحتاج لها.
- يبدو لي المكان كأنه خال من أية حياة.
- سيدي بالداخل وينتظرك داخل مغارة مونتيسينوس
- مونتسينوس؟ لكن...
- ما الغريب ألم تكن تعرف؟
- بدا لي الاسم غريبا بعض الشيء فقط.
- لماذا؟

لم أجبها، وهي أيضا لم تصر.

عضضت على لساني لكي أسجنه ولا يهرب مني مرة أخرى.

دقّتْ على الباب الخشنة، سمعت صوتا نسويا في الداخل. *من؟* أجابتها بلا تردد السيدة *ألدونثا لورينزو.*

- لم أسمع جيدا.
- يا زريده؟ أ... لـ... دو... نثا...

قالتها متقطعة. فانفتحت الباب على مصراعيها. ثم التفتت السيدة ألدونثا نحوي، ربما للمرة الأخيرة.

- اعذرني. مهمتي انتهت. أنا أتوقف عند هذا الحد. ستجد من يقودك عند سيدي.

زريده

بنت شابة وجميلة، وتحب سيدي كثيرا. وعندما كان في عز حياته، أصيب بها، فهرب وقطع بها البحار والفيافي.

- شكرا سيدة ألدونثا لورينزو.

الكلمات الوحيدة التي خرجت من فمي، على الرغم من أني هذه المرة كنت متأكدا من أني لو سألتها لن أكون مخطئا. قلت في خاطري، ليكن. كل شيء في وقت، لا يسبق بزمن ولا يتأخر بلحظة.

قبل أن أتوغل عميقا في المغارة، لمحت للحظات الكثير من العابرين، قلتُ ربما كانوا تائهين مثلي، يبحثون عن مسالك تدفع بهم نحو الراحة. بقيت مشدودا إليهم للحظات ببصري. اقتربت مني السيدة إلدونثا لورينزو، وهمست:

- ادخل لكي أغلق الباب من ورائك. سيدي لا يحب الضجيج. لا يريد أن يزعجه أحد.

هؤلاء مثلك، القادمون الجدد إلى هذه الأراضي، يطلبون رؤية سيدي وسماعه. بينهم ناس عاديون ولكن بينهم أيضا ناس من علية القوم، كتاب مرموقون رؤساء وملوك، جنرالات وعساكر، أطباء كبار تحصلوا على نوبل وحالمون، وعلماء الطبيعة والذرة، ورجال من كل الديانات السماوية والأرضية، والكثير من المجانين الذين تعرفوا على سيدي في حياته وأحبوه جدا. لقد خرجوا قبلك بقليل. ليسدد الرب الذي في القلب خطاك. أنا مضطرة لغلق الباب والانسحاب.

للمرة الأخيرة رفعت راسي نحو فراغات السماء، لم أر طائر النار ولا الهالة الكبيرة التي يخلفها تحليقه ودورانه في مكان واحد. رأيت فقط الطرقات التي خطها في السماء في شكل بقايا مسارات من النور المشع هنا وهناك. لم أر بعدها شيئا أبدا.

سحبتني يد ناعمة نحوها.

- تفضل، سيدي ينتظرك.

ثم... لم أسمع إلا مفتاح الباب القديمة وهي تغلق ورائي بإحكام.

2- كُلَّمَا رَأَيْتَنِي، هَرَبْتَ بَعِيدًا

كان الدهليز الموصل إلى عمق المغارة طويلا نسبيا.
كانت زريدة تسبقني وأنا أخطو وراءها بخطى مقاسة بدقة. لا أسبق ولا أتخلف مثلما كنت أفعل مع مينا. هي من حدد إيقاع الحركة. أقتفي ظلها الذي كان من حين لآخر يتمدد بكل طوله وعرضه على الحيطان وفي أحيان أخرى يصغر ويتضاءل بحسب كمية الضوء المتسرب من هنا وهناك. كان المكان مضاء إضاءة خفيفة، تأتي من فجوات غير مرئية. لكنه كان مريحا ومعطرا، لا يعطي الانطباع بأننا كنا في مغارة. ذكرني هذا الفضاء الذي يتسع ويضيق بحسب المعابر، بأشيا كثيرة كانت تملأ ذاكرتي وكان من الصعب عليّ التخلص منها. إذ كلما خطوت خطوة نهضت في عمق ذاكرتي الأمكنة والألوان والوجوه. الأسماء التي صادفتني أو سمعتها في هذا المكان، حسمت كل شكوكي وقللت حتى من سحر الفجاءة التي تدفع بنا أحيانا إلى اللهاث وراء الحقيقة الغائبة، لكنها أكدت لي أيضا بأن أشياء كثيرة كانت ترتسم أمامي لم أكن قادرا على فهمها ولا على معرفتها إذ كانت تتجاوز المنطق الإنساني الذي ظل يحكم مخي. اسمان مثل ألدونثا لورينزو أو دولثينيا وزيدة لم يكونا غريبين عني، جعلاني أتوغل في تاريخ هو جزء حي من ذاكرتي التي لم تفقدها الحياة القصيرة والمبتورة أي شيء من وهجها. ولا حتى مغارة مونتسينو التي أحفظ صورها حيث توغل دونكيشوت في أعماقها من أجل الخير. هي ليست بعيدة عن بحيرة روريديرا[36] ، واحدة من أجمل الأمكنة في لامنشا. هناك منبع وادي غوادیانا الذي يخترق كل الجبال المحيطة قبل أن يتماهى بين أشجار الغابة. على حوافها، نزل دون كشوت إلى عمق مغارة مونتسينو ليحرر الآنسات المسكينات اللواتي حولتهن لعنة السحر إلى وطاويط. لكن المفاجأة الجميلة، إذا كانت هناك مفاجأة، هي حدوث ما تمناه قلبي دائما وما اشتهيته. في لحظات خلوتي أشعر أن الدنيا التي سرقت مني الكثير، أنصفتني بما اشتهيت، ولاقتني أخيرا مع عالم سرق مني في وقت مبكر. فأنا في لحظة من اللحظات

[36] Les lagunes de Ruidera.

المسروقة الهاربة، تمنيت أن تمنحني ما لم تمنحه لغيري، وأن أرى ما لا يرى. لم يكن جدي الروخو الذي منحني كل حنانه وعطفه في حاجة لإقناعي بحبه، فقد أحببته في غيابه والتبست به في حضوره، ورأيت كم أن الكثير من الأشياء منه كانت متأصلة فيّ. ربما لحنّا دور حاسم في ذلك، لكن بعض التفاصيل أصبحت لا أعرف هل هي منه أم أنا من تخيلها؟ ألست أنتمي إلى صورته المستمرة في دمي؟ ألست إلا حنينه في النهاية لأرض ظلت معلقة في قلبه، ولم يرها حتى الموت. أتساءل كيف تستمر الحرائق فينا بقوة. تمضي عليها القرون المتعاقبة ثم يأتي فجأة من ينفخ في رمادها فتقوم بسرعة، وبلا جهد، وكأنها لم تكن تنتظر إلا ذلك. يوم وقفت في ميناء سيدنا يوشع الذي نزل فيه الروخو كما تقول حنّا والمرويات التي أتت فيما بعد، بكيت خراب الأمكنة والمحو الذي سلط على البحر والصخور التي بدل الترميم بدأ المكان يفقد تاريخه بتحويله إلى ميناء لصيد الأسماك. لم يبق اليوم الشيء الكثير من ذلك الميناء الروماني الصغير إلا الحجارة البحرية التي نحتها الزمن والرياح والموج الذي يتكسر ليلا نهارا مليئا بالأصداء، والبنايات البحرية التي بدأت تزحف نحو البحر لتأكل ساحله وتاريخه. مع أن الأساطير التي تحوم حول سيدنا يوشع لا تحصى بدءا من اسمه. الكثير من القبائل البربرية التي هودت في المنطقة كانت من أعمال سيدنا يوشع أحد أهم أتباع النبي موسى. بعد القمع الفرعوني ضد اليهود، سار سيدنا يوشع صوب أرض المغارب التي أخرجها من الشرك وفرض عليها التوحيد الديني والقوانين العبرانية. وتقول الأسطورة بأن سيدنا يوشع دفن هناك على حافة الساحل وله قبة تزار حتى اليوم. وظل يرتادها عبر القرون يهود تلمسان وغيرهم من الآتين من الأصقاع المختلفة. استمرت الأساطير حية حتى الزمن القريب. يقال إنه عندما هجم عليها الإرهابيون في التسعينيات الأخيرة، لتدمير قبة سيدنا يوشع، والقرية النائمة في حضن البحر والجبل وحمايته، نزلت ظلمة كثيفة لا يرى فيها الجار جاره والأخ أخاه والأب ابنه، هبّت بعدها عاصفة هوجاء حركت الأشجار والبحر والأمطار والأتربة والأوراق الميتة، وجعلت الحيوانات تفر بلا وجهة، من شدة الرعب الذي انتابها فجأة، وكثرت الأصوات الغامضة التي ظلت تأتي من الجبال المجاورة والمغارات، مما دفع بالإرهابيين إلى الهرب وعدم العودة إلى الميناء إذ اعتبروه إنذارا ولعنة.

كم مرة وقفت على حافة الميناء مجردا من كل شيء، حتى من نفسي وأفكاري، وأصخت السمع، لأسمع فقط النداءات القادمة من بعيد. قبل أن تنتابني رجفة بدائية، فأشعر بخوف يبدأني من العمود الفقري ليغزو كامل جسدي ويتوغل عميقا فيّ، لدرجة أن سكنتني رعشة غريبة، لولا اتكائي على شجرة قديمة، لسقطت. قيل لاحقا إن اسم تلك الشجرة هو *البطمة*، وأنها شجرة مقدسة لأنها الشجرة التي كساها الموريسكيون العائدون من المنافي بمناديلهم ومحارمهم وألبستهم وحتى أحذيتهم، مثلما يكسون شجرة ولي صالح يحميهم ويعدهم بالعودة القريبة. لكني يوم رأيت ميناء ألميريا، موطئ جدي الأخير في أرضه المسروقة، شعرت برغبة لا تقاوم في البكاء. وبكيت لا حزنا على مدن عادت للمنتصر، ولكني تذكرت حالة إنسان يشعر فجأة بنفسه مجردا من كل شيء، وبلا وطن. الغريب أن هذا الإحساس انتابني أنا أيضا ذات شتاء ماطر، وأنا أركض نحو المطار، برفقة ابني باسم وريما، والصديقة فاطمة بلحاج، إيقونة السينما الجزائرية في وقتها، التي أصرت أن تقودني نحو المطار في سيارتها بنفسها، وتطمئن علي بأني غادرت البلاد بالفعل. من الروخو أدركت أن المنفى ليس التنصل عن تربة قاسية، لكنه الإحساس بالحيف والتلف الفجائيين، إذ تشعر في لحظة من اللحظات، ليس فقط أنك لا تساوي الشيء الكثير، ولكن العالم الذي بنيته وبناك لم تعد تعني له أي شيء. ويبدو لي أن الآلام مثل الأمراض والأحقاد والحب، تورث هي أيضا. يوم كان جدي يبكي أرضا وخديعة، كان الذين أكلوا معه وشربوا برفقته، يصفقون للملك الجديد فيليب الثالث الذي جمع الجميع في 4 مارس، مسلمين ويهودا ورماهم في سفن الموت والخوف والبرد. كانوا يهللون ويصفقون لذاكرة الملك شارل كينتي وللقيطه دون خوان النمساوي، رجل الدين الأعمى، ويطالبونهم بالمزيد من تسليط القهر على الموريسكيين لاسترجاع أوروبا التي سرقها العرب والمرتدون. في فوضى الخوف وُجِد رجل كبير اسمه ميغيل دي سرفانتس، أو الرجل الأعسر الذي تتماهى صفاته في صفات جدي، حتى أني تبنيته جدا في ما كتبته. لم يتحمل الظلم فصرخ بصوت مكتوم، لكنه صرخ، ودافع عن الذين شلت أياديهم، وسقطت أسلحتهم، وسُرِقت مدنهم أو بيعت على رؤوسهم. هذا وحده كان كافيا بأن يجعلني أنتمي له بلا خوف ولا تردد.

أشارت زريدة التي لم أر إلا أصابعها الناعمة، أن أميل قليلا نحو اليمين، ففعلت وأحنيت رأسي بعض الشيء لكي لا يصطدم بالسقف الحاني قبل أن أعود تدريجيا إلى وضعي الطبيعي. كانت زريدة تسبقني، من حين لآخر لا أستطيع أن أمنع نفسي روية مينا فيها. لكني كنت مدركا، بيني وبين نفسي تماما، أنها لم تكن مينا. عندما استقامت كليا مشينا قليلا قبل أن أجدنا في مساحة ضوئية منارة جدا، بها مثل الصالة الواسعة المؤثثة بالزرابي الفارسية والبغدادية والتلمسانية والبربرية. وعلى الحيطان، أشكال كلها عبارة عن كتابات عرفت مصدرها أو لوحات لدون كيخوتي وحصانه وصديقه وحماره ولوحات عنه وهو في مغارة مونتسينو وهو ينقذ الآنسات اللواتي حولهن السحر المشؤوم إلى وطاويط هاربة من كل شيء.

عندما استقامت زريدة تحت مساحة النور، لأول مرة اكتشف أن لها قامة مدهشة وكأنها تمثال نحت بإتقان كبير. المرأة الموريسكية التي سحر بها سرفانتس قبل أن يهرب بها بعيدا عن الأرض التي سرقت حريته. لكن لولاها لكانت تلك المدينة عشا للقراصنة كما كان يتصورها دائما سيرا على أوصاف سيده دون خوان النمساوي. ربما كانت زريدة هي ما ربطه بتلك الأرض وجعلته يجد صعوبة في مغادرتها.

التفتت زريدة نحوي، لأكتشف بشكل كامل، وجهها تحت النور الذي كان ينزل من فوق. الغريب أني هذه المرة رأيت فيها فجأة وجه زوليخا. نفس أنفها الصغير، نفس شفتيها الرقيقتين، بل نفس عينيها الواسعتين التي كانت زهور عندما تختلف معها تشتمها: يا *عينين البقرة... يا عينين بالالا*. وعندما تقترب منها زورليخا لتعتذر منها، تردد زهور وهي تصرخ: *نعم أنت عينين بالالا؟* ثم تتركها تغلي حتى تنام وفي الصباح تصبح أختها الصغيرة وعليها تحملها. زهور هي أصغر أخواتي. كدت في لحظة من اللحظات أن أصرخ: *زوليخا توحشتك*. وكأنها قرأت ما كان يتراقص في عيني.

- سينو... يبدو أنك حزين قليلا ؟
- لا. لست حزينا. تذكرت فقط أختي زوليخا. تشبهك كثيرا.

ضحكت، فظهرت كل طيبتها مجتمعة في ابتسامتها الخفيفة. الابتسامة اختزال لعمق الإنسان.

- الكثير ممن جاؤوا قبلك، إلى سيدي، وجدوا أن لي شبها بنسائهم، بحبيباتهم اللواتي
تركنهم وراءهم، وعشيقاتهم.

أنت الوحيد الذي وجد فيّ شيئا من أخته. سعيدة بذلك. عرفت بعض ما كتبته عني في كتبك، لكن الكثير منه لم يكن صحيحا. المرويات تضخم الأشياء. أنا أبسط وأعقد مما صورتني به. على أي، ربما وجدنا فسحة وتحدثنا معا قليلا. أنت هنا من أجل سيدي وليس من أجلي. معك كل الحق. لم أكن أيضا كما صورني سيدي. لم أكن مسيحية مرتدة. أهلي كانوا من مسلمي أراغونا ومُسِّحوا ليبقوا في أرضهم، لكنهم مع ذلك، طردوا في فترة الملك فيليب الثالث مع جدك والقوافل التي جاءت من مدن أخرى. فعادوا إلى دين كانوا يمارسونه سرا. وأنا كبرت في عائلة مسلمة ومسيحية في الآن نفسه. وكان على سيدي أن يثبت مسيحيتي أمام الآخرين ليتمكن من الارتباط بي، خوفا من محارق محاكم التفتيش المقدس التي كانت تتبعه ليلا نهارا. قصة طويلة. قل لي... ماذا كانت تفعل زوليخا في حياتها؟

- لم تكن تفعل شيئا. تصنع الأواني للعيش. تساعد أمي في كل شيء لكي نكبر نحن.

احترقت في وقت مبكر. سرقوا منها قلبها وضحكها وطفولتها، ورموها، وقالوا لها سيري الآن، فمشت خطوتين وسقطت مثل حجرة يابسة. ماتت من دون أن يعرف أي واحد في العائلة كيف ماتت، بلا مرض ولا مسبقات.

- مسكينة. زوليخا تشبهني قليلا.

- يعني؟ لم أفهم جيدا.

- خل البئر بغطاه. لولا أن سبقتني في التشبيه، كنت قلت لك إنك تشبه سيدي قليلا، في
حركات يديه، في أصابعه، في وجهه وبياض ملامحه. وردود فعله وصمته وحتى خجله.

- هذا أكبر مني.

-	هذا على الأقل ما شعرت به، وليس لي الحق في الاحتفاظ به لأنه يخصك. حقيقي
تشبهه. على كل، سترى بنفسك أوجه الشبه. انتظره هنا سيخرج لك بعد قليل. لا تخف، لن تخرج لك الوطاويط الممسوخات من المغارة. لا توجد امرأة غيري وألدونثا، في هذا المكان الذي نزوره كلما اهتز حنين سيدي، وسمح نظام هذه الدنيا الأخرى وناموسها بذلك.
ثم انسحبت. ظللت أتأملها حتى غابت. تتبعت ظلالها وحركتها وحتى عطرها.
-	هل أعجبتك. زريدة امرأة مدهشة.
التفت نحو مصدر الصوت. كان ناعما مثل صوت امرأة.
-	تشبه أختي فقط. في كل شيء. حتى في مشيتها، انتبهت لذلك الآن.
-	كل واحد يقول ما في قلبه وما في عينيه وحتى ما في مخه. زريده جميلة ومثيرة
للنظر. طبيعي. المشكلة لو كانت قبيحة، لن ينتبه أحد لأي شبه بينها وبين أحد أفراد العائلة أو حبيبة ما. القبح يمحو كل شيء والجمال يثير كل شيء. الشبه صناعة وشهوة كامنة. هل رأيت أحدا يشبه امرأة قبيحة أو رجلا قبيحا بأي كائن يحبه أو في محيطه، حتى ولو كان ذلك صحيحا وله كل المبررات الفيزيقية؟ اجلس. اجلس.
استغرب من كلامه الذي كان دقيقا وصحيحا. ربما. لو لم يثرني شيء في زريدة لما انتبهت لشبهها مع زوليخا.
-	كيفك في هذا العالم الجديد؟ هل بدأت تتعود على التيه؟
-	قليلا. لكن سعادتي كبيرة أن أرى ما تمنيت رؤيته. واحدة من أمنياتي الكبيرة أن يلاقيني الله بك. لقد وضعتك في مصاف الأهل. اعتبرتك جدي أو في صورته وتجلياته. انتميت لك كما ينتمي عاشق اللغة لكاتب يشعر انه خرج من ضلعه وخوفه وانشغالاته. أشياء كثيرا جمعتني بك في الحياة يا سيدي على الرغم من أن الفاصل بيني وبينك، قرون متعاقبة. اشتهيت أن أسمعك بصوتك لا بلغتك فقط. دخلت في دمي يا سيدي. سكنتني.
عقف حاجبيه وكأن حيرة ما دخلته بشكل فجائي.

-     جميل أن يستمر الإنسان في وجدان الآخرين بنفس الألق كما لو أنه كان حيا.

-     بدأ معي هذا يا سيدي في وقت مبكر. كنت في المدرسة الابتدائية عندما جاءنا أستاذ

اللغة الفرنسية، بنص من صفحة ونصف، في الكتاب المدرسي وبدأ يعرض علينا مغامرات الرجل المجنون، كما سماه، الذي عندما لم يجد ما يفعله، ذهب ليحارب طواحين الهواء.

-     المجنون الذي يحارب طواحين الهواء. هذا ما يعتقده الكثير ممن رأيت ومن لم أر. حتى في حياتي كان الكثير من الناس يأتونني إلى قلعة هناريس أو مدريد، أو طليطلة، ويتحسرون أمامي على المسكين الذي جن بالبطولات الفارغة، الذي صدق فجأة ما قرأه في كتب الفروسية.

-     لا أدري يا سيدي، أن نقرأ شيئا يعني أن نصدقه ولو في زمن القراءة. صورة المجنون الذي يحارب طواحين الهواء ظلت عالقة بي مدة طويلة. على العكس من المعلم وأصدقائي، لم أجد وقتها في صفة هبل دون كيخوتي ما يزعجني. كانت عندي عادة سيئة بقيت ملتصقة بي مدة طويلة. وهي أن أجد شبها بين الناس وما يملكون. مثلا، كنت أجد بقرة جارتي تشبه صاحبتها. تيس عمي السي محند بوجنان، خادم الولي الصالح، يتماهى أيضا مع صاحبه، وأما دجاجته، فتشبه ابنته الصغيرة، التي كلما سخرت منها بكت وطردتني بالحجارة. كنت أسميها دجاجة السي محند بوجنان.

-     ليس أمرا سيئا.

-     الغريب كنت أرى شيئا من هذا المهبول الذي اسمه دون كيخوتي، والمتوغل فيّ. فقد

انتقلت عدواه نحوي، إذ كثيرا ما كنت أقوم بما يقوم به، فأرى في شكل صور أنا بطلها، كل ما كنت أقرأه. وأرى في كل امرأة عادية أحبها، دولثينيا الساحرة، وأقول لذاتي لم لا؟ ما الذي ينقصها؟ العين والقلب هما من يرى عند العاشق، وليست العين وحدها يا سيدي. وكلما امتطيت بغلنا الأزرق، أجبرته على أن يرابعن أي أن يركض بأربعة كما الحصان. في مخي كان بغلنا حصانا ليس أقل قوة من أحصنة الفرسان الذين قرأت عنهم. كنت أحيانا أغمض عيني فأشعر به يطير بي كما الحصان

المجنح. لم يكن مجرد بغل ثقيل يقفز ويحرن كما يراه الآخرون. كان بغلي يرتاح لي لأني كنت الأوحد في العائلة الذي لا يضربه لكي يمشي. لا نضرب حيوانا كريما كالحصان. كنت أرى في عكو المسكين، ابن القرية الذي ولد مشوه الخلقة، وحشا أسطوريا أمشي بعيدا عنه إلى أن كمش عليّ من ظهري يوما وأنا أتدافع للحصول على دوري لملء الماء في السقاية. سحبني إلى الوراء وكان نحيفا وضعيفا. رأيت في عينيه الصغيرتين شيئا حادا وحاقدا: *واش بك يا وليد أميزار؟ كلما رأيتني هربت بعيدا؟* الغريب اني وأنا أسمعه وهو يتكلم، زال خوفي فجأة. دفعته فسقط في حوض الماء، فبدأ يصرخ بأعلى صوته: يا ناس، *ارواحوا تشوفوا، وليد اميزار حب يغرقني ويقتلني*. فهربت تاركا ورائي بغلنا محملا بأواني الماء. أنا أقتل الوحش؟ فرحت في أعماقي. عندما أخبرت حسن أخي بما حصل وختمت حديثي بأني أغرقت اخيرا الوحش عكوا. عكو الوحش؟ قال أخي بدهشة؟ هذاك المسكين الذي يخاف من ظله. لازم تروح تطلب منه السماح. لكنه عندما رآني قادما نحوه أنا وحسن، هرب بعيدا وهو يصرخ: *ارواحوا تشوفوا، وليد اميزار حب يغرقني ويقتلني*... وظللت أومن في أعماقي بأني انتصرت على وحش القرية. عكّو. لهذا أعتقد يا سيدي أني كنت قادرا على فهمك في وقت مبكر. بالشكل الذي ارتضيتُه. ربما ورثتني بعض الجنون، أو ربما جيناتنا تلاقت في مكان ما؟ ليست الجينات التي يعرفها الناس، ولكنها شيء آخر غير مدرك. قد نصاب بأفراد لا شيء يجمعنا بهم عائليا، ولكننا نحس بأن شيئا قويا منهم يملانا ويربطنا بهم حتى آخر العمر. ليست علاقة دم، ربما فقط كانت علاقة جنون الأعماق التي لا قوة تخفيها، لا تقاليد ولا عادات ولا دين.

- كلامك فيه بعض الغرابة. تحسسني كأني أعرفك جيدا؟
- الأكيد أنك سمعت من كلامي الفارغ الكثير. الذين زاروك ويزورونك كثيرون.
- لا. ما قلته أنت عن دولثينيا، وعن البغل وعن الحيوانات التي تشبه أصحابها، هو

بالضبط ما انتابني وأنا أغرق في كتابة دون كيخوتي. هذا القدر الفائض من الجنون الذي لا قوة تقاومه.

-     كان النص الذي عرفني بك غير كاف. كنت أريد أن أعرف الكثير عن هذا الكتاب

الذي كلما ذكره المعلم أضاف له نعت النصراني. حتى إنه لم يعد يذكر اسمك. كلما تحدث عنك قال: هذاك النصراني. في مرة من المرات انتفضت ضده وكأني شعرت في الأصل بأنه كان يشتمك ويشتم دونكشوت عندما اعتبره مجنونا وغبيا. قلت له: *هو ليس هكذا يا سيدي*. لا أعرف لماذا قلت تلك الجملة. نظر إليّ المعلم بحقد، ثم اقترب مني وأخذني من يافطتي من رقبتي، من الوراء، وقوّمني حتى بدوت بين يديه كدجاجة تنتظر الذبح: *واش بك تدافع عن مهبول وعن نصراني؟ خوك وإلا باباك؟ تكلم يا حمار؟ خوك وإلا باباك؟* قلت بلا تفكير: *جدي*. ظنني أسخر منه لأن كل التلاميذ ضحكوا طويلا. فسمعت دوي صفعة مسمومة وقوية وحاقدة، جعلتني أدور في مكاني أبحث عن كرسي لأجلس محمر الوجه، من الخجل ومن عنف الصفعة. لثوان، ذهب بصري كليا. في الامتحان كان السؤال الذي شعرت به إمعانا في البؤس: ماذا تفكرون في جنون دون كيشوت وفي فكر النصراني سرفانتس؟ لا أدري بالضبط ما كتبته؟ لكنه لم يرق للمعلم. أتذكر فقط أني قلت أنه لم يكن مجنونا، وإلا لما تركته الشرطة يجوب كما يحلو له؟ كان رجلا يقرأ كثيرا وأن الكتب هي من فتحت مخه على الخيال. الجملة التي لم ترق للمعلم هي هذه: *كان دون كيشوت أفضل في عقله من الكثير من العارفين و المعلمين.* فحمل المسطرة وضربني على يدي، ثم وضعها بين أصابعي ودورها حتى سلخت الجلد. وضع بعدها كراستي على ظهري، وكتب على الصفحتين الوسطيين: *أنا حمار دونكيشوت* *Je suis l'âne de Don Quichotte*، وطلب مني أن أمشي في القسم والتلاميذ يضحكون مني. ولولا حبي للمدرسة وخوفي على أمي، لتركتها يومها نهائيا، لأن الإهانة كانت كبيرة. من يومها ركبت رأسي وطلبت من أخي حسن الذي كان قارئا محترفا أن يدبر لي النسخة الكاملة من رواية دون كيشوت. فقد قرأت في خزانته الصغيرة كل الكلاسيكيات العالمية. وفوجئ بي أطلب منه سرفانتس. نصحني بأن أقرأ أولا *قصص مثالية*، لكني أصررت على قراءة الرواية أولا لأنها مبرمجة علينا. قال: *صعبة عليك يا خويا، وأنا نفسي لم أقرأ إلا جزءها الأول*. وعندما وضعها بين يدي، قال ضاحكا: طيب. *ها*

هو الجزء الأول، هذا واش عندي. إن شاء الله ما يهبلكش كما هبلتك ألف ليلة وليلة وتحسبه هو أيضا أنه قرآن. قلت له هذه المرة لن أخطئ ذلك الخطأ الفادح، لأن رواية دون كيشوت مكتوبة يالسبنيولية ولا يمكنها أن تكون قرآنا. ووقتها طبعا لم أكن أستوعب قرآنا بلغات أخرى غير اللغة العربية. القرآن بلغة أخرى، لم يكن قرآنا. عندما انتهيت من قراءة الجزء الأول، اكتشفت فجأة أن الكثير من مرويات جدتي وحكاياتها لم تكن بعيدة عما حكيته أنت يا سيدي. جدتي لم تقرأ أي كتاب في حياتها باستثناء كتاب الحياة وما ورثته عن أجدادها وتحصنت به حتى موتها. جدتي لم تكن مهبولة.

- هذا ليس كتابا، لكنه صليب اضطررت إلى حمله في صغرك؟

- في الدنيا صدف غريبة يا سيدي تصنعها الحياة ولا شأن لنا في مساراتها. قرأت دون كيخوتي، ووجدت فيها كما قلت لك، الكثير مما روته لي جدتي. لهذا ربما لم أنفر منها، بل كثيرا ما بدا لي الأمر عاديا. الوضع تغير جذريا مع أستاذ الفرنسية في ثانوية ابن زرجب، الفرنسي مسيو دروو Monsieur Druot. كانت رؤيته أجمل وأفضل وأكثر اتساعا. الغريب أن هذا الكتاب التصق بي كما التصقت بي ألف ليلة، وصنعا جزءا مهما من مخيلتي. طلب منا مسيو دروو أن نقرأ الكتاب فصلا فصلا. سألنا من يعرف عن الرواية شيئا؟ تدخل أصدقائي الذين لم يكونوا يختلفون أكثر من العموميات عن رجل خسر علاقته بالحياة وأصيب ببعض الهبل وراح يحارب طواحين الهواء والأرواح الشريرة وعالم الجن. ظللت رافعا أصبعي وأنا كلي استعداد لقصّ تفاصيل الجزء الأول من الكتاب. لكن المعلم لم ينتبه لي، فصرخت: مسيو جو *فو بالي Monsieur je veux parler، سيدي أريد أن أتكلم*. نظر إلي بعينين صغيرتين مثل عيني دجاجة تريد أن تبيض، ثم حسم الأمر: *Pas maintenant ليس الآن*. كانت خيبتي كبيرة، لأني شعرت بأنه سرق مني فرحا، كم اشتهيت أن أتقاسمه معه ومع أصدقاء القسم. كنت غاضبا كأني ضيعت أهم موعد لي مع الحياة. في الليل، وكان البرد قارصا، نظرت إلى الكتاب وهو بين يدي، وكانت حنّا فاطنة قد أشعلت، المجمر، وبدأت أتدفأ ومن دون أن أدري، كأن يد شيطان مارد أصبحت تتحكم في يدي، بدأت أقطّع أوراق الكتاب وأضعها في النار ورقة ورقة، كلما تحولت واحدة إلى رماد، نزعت ورقة ثانية ووضعتها على الجمر، فتأملتها وهي تتلوى، حتى

احترقت العشر صفحات الأوائل ولولا أن أخذ حسن مني الكتاب لتحول دون كيشوت كله إلى رماد. شد على يدي وأنا أهمّ بقطع الورقة الموالية: *يا المهبول؟ واش راك دير؟ الناس* يتدفؤون *بالفحم والخشب وليس بورق الكتب؟ كيف تحرق كتابا أولا ليس لك، وثانيا يبدو أن* جنونه *أصابك بقوة وإلا ما فعلت ما تفعله الآن؟* في المساء جاءني أخي حسن بطيبته المعهودة: *لماذا أحرقتَ كتابا تحبه يا خويا؟ واش صار فيك؟* أجبت وأنا غير مقتنع من إجابتي لكنها كانت حقيقية وصحيحة: *المعلم لم يعطني الكلمة وحرمني من الحديث عن دون كيشوت*. ضحك طويلا قبل أن يقول: *في هذه الحالة ستحرق كل كتبي؟ هل تعرف ماذا أحرقت؟ قلت: كل صفحات المقدمة؟ هل قرأت ما فيها* ؟ قلت *لا. ذهبت مباشرة إلى الرواية. لا أحب المقدمات*. انتبه حسن أكثر إلى حزني. حك على رأسي: *إذن واش قريت من دون كيشوت؟* أجبت: قرأت الرواية بكاملها مرتين. أضاف: *وهل أعجبتك؟* قلتُ: *تشبه أحاديث حنا ولهذا أحببتها وفي الوقت نفسه بدت لي عادية؟* تمرغ من شدة الضحك. *حنا هي دون كيخوتي ديال لزعر الحمصي ههه. يا المهبول أحرقت أهم الصفحات. أنت كنت أعمى لتقرأ. في الصفحات التي أحرقت كلام يشبه فعلك. يقول من قدم للكتاب إن محاكم التفتيش المقدس طالبت بحرقه لأنه قال ما لا يجب قوله ودافع عن أعداء المسيحية من المسلمين واليهود. ههه والله كنتَ ستكون عضوا مهما في المحاكم الدينية، وكانت سترحب بك عضوا فعالا، وتضمك إليها*. مع ذلك، فقد أمضى الليلة بكاملها وهو يوجهني من صلب الرواية إلى ممارسات محاكم التفتيش القاسية والمشينة. مع ذلك، لم أفهم وقع كلام حسن وسخريته إلا لاحقا، بعد سنوات طويلة من هذه الحادثة.

هز سرفانتس رأسه طويلا، ثم تمتم قليلا كأنه تذكر شيئا خاصا به، لكني لم أسمع صوته وكأنه ابتلع كل كلماته. خفت أن أكون قد أثقلت عليه بكلامي الذي رويته عليه بكل ما أملكه من صدق طفولي. انتظرت منه أية حركة خاصة، لكنه لم يقل شيئا. ثم هزّ فقط رأسه من جديد كأنه يقول لي واصل.

- كل هذا العمر ولا شيء يحكم قصصي إلا طفولتي الهاربة والملتصقة بي أبدا. بعد

حادثة الحرق الغبية في مجمر حنّا فاطنة عدت إلى ثانوية تلمسان غير راض على نفسي، وفي محفظتي الصغيرة شيء واحد: نسخة رواية دون كيشوت وقد جردت نهائيا من صفحات المقدمة. كنت حزينا على فعل لم يكن جميلا ولا حتى مبررا. الغريب، كأن مسيو دروو الذي انقلب حبي له إلى كراهية، سمع ما دار بيني وبين حسن. سألنا في القسم بعدما طالبنا بقراءة الفصول اللاحقة: *لماذا طالب المتطرفون بحرق الكتاب؟* أجاب التلاميذ كل بما ملك ولم يملك، فدخل في هذيانات افتراضية. لم أرفع أصبعي هذه المرة على الرغم من أن حسن منحني كل المعلومات التي لم أكن في حاجة إليها. ولكن المعلم الذي وقف عند رأسي، سألني: *ألم تكن تريد أن تتكلم في المرة الماضية؟ أم نشفت الساقية قالها بفرنسية مستفزة: La fontaine s'est asséchée et tu n'as rien à dire* فجأة انطلقت بكل ما سمعته من حسن وتجاوزت الحد المطلوب مني أيضا بأن حكيت له القصة بكاملها التي ثبّتَ فيها خوفه من محاكم التفتيش المقدس، التي نبهني إليها حسن. وذكرت المغامرات بالتفاصيل. مسيو دروو اندهش من معلوماتي وكأنه لم يكن يصدق ما كان يسمعه. سألني مرة أخرى: كيف قرأت الكتاب كله وأنت لستَ مطالبا بذلك؟ فرويتُ عليه القصة بكاملها. قلت له أن بعض الكتب تشكل لنا مغامرة خاصة وكأنها لا تخص أحد غيرنا في الحياة، وكأنها كتبت لتروينا. لا أدري كيف أعجبه الأمر، بالخصوص لما حكيت له أني أحرقت جزءا من الكتاب لأنه لم يعطني الكلمة التي طلبتها. في اليوم الموالي دعاني إلى بيته، الذي لم يكن بعيدا عن ملعب فريق كرة السلة لمدينة تلمسان ASPTT وقال لي وهو يقدمني لزوجته النحيفة جدا وكأنها كانت مريضة بالسل، لكنها كانت طيبة: *لنا صديق جديد في هذه البلاد. لا يريد شيئا. يريد فقط أن يقرأ وينجح، وعندما يغضب، يحرق كتبه.* أدخلني إلى مكتبته التي بدت لي كبيرة جدا. سألني إن كنتُ أريد أن أقرأ شيئا؟ بلا تردد: قلت: *الجزء الثاني من دون كيشوت. أخي بحث عنه عند أصدقائه، وحتى في المكتبة البلدية، لكنه لم يجده.* ثم صمتُّ قليلا قبل أن أضيف: أريد أيضا أن أقرأ *قصص مثالية Nouvelles Exemplaires*. رأيت فرحا يتراقص في عينيه. قال لي: *فهمت الآن التباسك بهذا الرجل. يبدو أنك أصبحتَ مضروبا عليه. هذه المرة أعطيك جزئي دون كيشوت، وفي المرة القادمة، بعد شهرين أو ثلاثة، عندما تنتهي من*

قراءتهما وتعيدهما إلي، أعطيك ***قصص مثالية.*** ثم أضاف: *لكن لي طلبا صغيرا، أن تأتيني بملخص عن الجزء الأول في الأسبوع القادم ما دمت قد قرأته، وفي الأسبوع الذي يليه تأتيني بملخص عن القسم الأول من الجزء الثاني.* وهو ما فعلته ولكن في ظرف عشرة أيام فقط. ثم أمدني بكتاب *قصص مثالية* مباشرة. وبدأت أعطيه ملخصا عن كل قصة من حكايات *قصص مثالية*. بدأت بقصة: *الغجرية الصغيرة، العاشق السخي، قصة رينكونيتي وكورتادييو، الإسبانية الإنجليزية، الرجل الزجاجي، قوة الدم، الإسترامادوري الغيور،غاسلة الصحون الشهيرة، الشابتين، سيدة كورنيليا، الزواج الخادع، قبل أن* أختم الملخصات بقصة*: حوار الكلاب.* كان مسيو دروو مندهشا بمواظبتي في العمل المطلوب مني، وغرقي في هذه القصص، لأنه كان يرى أنها مهمة في حياتي التعليمية.

حرك سرفانتس ذراعه اليسرى، بيده اليمنى إذ كانت تبدو شبه ميتة ولا تتحرك إلا بمساعدة اليد الثانية. وبدا في عينيه شيء يشبه الزهو والفرح مع أنه في البداية سماني مسيحا صغيرا بسبب ثقل كتابه والمصائب المترتبة عليه.

- لم يكن أستاذك مخطئا في كل ما فعله معك. حتى عندما سلمك *قصص مثالية* وطالبك

بالعمل عليها. أشياء كثيرة هربت مني في دون كشوت استدركتها حتى لا يأكلها النسيان وتمنيتُ أن أقول فيها بوضوح أكثر ما كان في قلبي. حتى وجهي رسمته في تلك المجموعة لمن لا يعرفني. رسموني لاحقا بناء على التوصيف الذي قدمته عن نفسي في ذلك الكتاب. ما لم يكن بإمكاني قوله بصراحة أمام ظلام المحاكم التي لم تكن لترحم أحدا، قلته ولم أسأل عن بطشها وجبروتها. نفس التوصيف الذي بنى عليه صديقي دون خوان دي جاوريغي Don Juan de Jauregui لوحته التي جسد وشكل فيها وجهي وكأنه كان يرسم منمنمات دقيقة. ولم يعرفني أحد من المعاصرين إلا من خلال لوحته. أرأيت كيف نهبل أحيانا ونقول بشكل أو بآخر لمن يريد قتلنا، ها نحن هنا، فلتفعلوا ما تشاؤون.

- أعرف يا سيدي أن دون خوان هو من أنجز صورتك التي وجدت بالصدفة مطيَّنة

داخل حائط قديم، ومخفية، قبل أن يخرجها بعض الباحثين إلى النور، ويبحثوا اليوم عن قبرك. عن رفاتك لوضعها في المكان الذي يليق بها. هناك وجوه لا تموت. حتى الأقدار التي ظلمتها تعيدها إلى الواجهة لتتوارثها الأجيال. فيها قوة طاغية قوية تؤهلها للحياة أكثر من أي شيء آخر ولا أحد يعرف السر سوى أنها استطاعت في لحظة من اللحظات أن تقبض على الشعاع في عز تألقه وعلى الجمرة في عز اتقادها ولم تقل أبدا آآآآي أو تتأوه.

- لهذا كان عليك أن تضع أستاذك في عينيك، لقد كان الوجه الآخر للقدر الذي وضعك

في مسالكي. حتى أستاذك الذي وضع المسطرة بين أصابعك وقشر لحمك، لم يكن إلا الصورة الأكثر عنفا للمبهم الذي كنتَ تبحث عنه في أعماقك. هل كنتَ ستعرفني لولا النص الذي جاءكم به من كتاب دون كيخوتي؟ حتما لا.

- صحيح أنا أدين لمسيو دروو بالكثير. فقد منحني طريقة أخرى في قراءة كتبك وهو

ما لم يكن متاحا للآخرين بعد أن بهرته ملاحظاتي التي لم تكن شيئا إلا صوت القلب وحبي الكبير لك. عندما نحب يا سيدي، يصبح كل ما نلمسه جميلا ومدهشا. قال لي ذات مرة وهو يمنحني هدية جميلة، قطعة خشبية منحوت عليها وجهك، احتفظت بها طويلا قبل أن أجدها مكسورة في صندوقي الذي أضع فيه كتبي، في الثانوية: *الكتاب ليس فقط رفقة جميلة، لكنه حياة أخرى نعيشها بشكل مواز. والكاتب ليس رجلا مبهما، أو كلمات أو ثلاث على رأس غلاف كتاب ما، لكنه كائن سخي يمنحنا قلبه من دون أن يطالبنا بمقابل مشابه.* حزنت يومها كثيرا يا سيدي. لم يسرقوا كتبي فقط، سرقوا أيضا نسخة أخي حسن من دون كيشوت المحروقة. من حظي أني كنت قد أرجعت نسخة دون كشوت للأستاذ. لكني بكيت النسخة المحروقة كثيرا لأن بها الكثير من دموعي وخيباتي وصراعي مع حسن ورائحة عطر الرماد في المجمر وحنّا ايضا التي بقيت مشدوهة من تصرفي هي المقدسة لكل كلمة تراها. الغريب، بقدر المآسي التي تسبب فيها ذلك الكتاب، أصبحت أشك إذا لم يكن ما قاله لي معلمي الذي فتح عيني على دون كيشوت بعنف، حقيقيا: *كتاب المجانين هذا سيصيبك يا حبيبي إذا لم تحذر*

كما يجب. هذا الرجل منبوذ، لفظته حتى الكنيسة النصرانية التي كان ينتمي إليها. فيه عرق يهودي. مسيو دروو عندما رأى الحسرة في حلقي، والدمعة عالقة بعيني، سألني عما أصابني. لم أستطع الإجابة، لكن أصدقائي في القسم الذين تأسفوا للصندوق المسروق، هم الذين ردوا عليه ردوا عليه في مكاني. فهم كل شيء. رأيت ذلك في عينيه الصغيرتين. سأل من صاحب الفعل. لم يرفع أحد أصبعه. قالوا يمكن أن يكون السارق قد جاء من خارج القسم. لم يعلق ولكنه سألني: *هل سرق فقط الكتاب؟* قلت: *وكسروا أيضا القطعة الخشبية التي نقش بها وجه سرفانتس*. أخذ القطعة الخشبية بين يديه. تأملها طويلا ولم يقل شيئا. انتهينا من الدرس، ثم نبهنا قبل أن نخرج: *يوم الاثنين عندكم عمل حول الفصل الرابع من رواية دون كيشوت* . عندما صحح أوراق الإجابات، أرجعها لنا. احتفظ بواحدة فقط. وقال لصاحبها الذي كان يسميه كل الأساتذة الرأس المحروقة Tête brulée لقلة أدبه مع الجميع، أن يتبعه إلى مكتبه لأنه يريد أن يناقشه في موضوع هام. عاد الشاب. فتح صندوقه المدرسي ثم طلب مني أن أتبعه. لما كنا تحت الشجرة الكبيرة، من وراء الساحة العامة، أعاد لي كتابي دون كيشوت وألصق قطعة الخشب المكسورة بالغراء الأبيض الذي أخرجه من صندوقه. وطلب مني أن أسامحه وهو يلوح بيده كي تنشف القطعة الخشبية بسرعة. ثم تركني ولم يضف كلمة أخرى، ولم ينظر إلى وجهي أبدا. مع أني في لحظة من اللحظات رأيت عينيه اللتين كانتا تشبهان عيني ذئب. نسيت الحادثة بسرعة لأني في نهاية المطاف حصلت على تهنئته التي كانت يومها أعلى التهنئات التعليمية، مع جائزة Le prix d'excellence أحسن معدل السنة كلها في الثانوية. في احتفال نهاية السنة، رافقني أخي حسن لأن كل الناس يكونون برفقة الوالد أو الوالدة. عندما نودي لاسمي، كنت سعيدا. لأول مرة أحظى بهذا الحظ وأن يراني الجميع أعبر الكراسي العديدة للضيوف، قبل أن أصل إلى المنصة. تكلم عني أساتذتي بفرح بالخصوص أساتذة الرياضيات والفيزياء والكيمياء والعلوم الطبيعية والأدب العربي، ثم أستاذ الفرنسية الذي احتضنني طويلا وهو يقول: *أبوك سيكون سعيدا جدا، وأمك ستفرح كثيرا*. كان يعرف بعض قصة عائلتي، ولكنه نسي أن والدي استشهد. ثم منحني غلافا وكرتونة ثقيلة ساعدني أخي حسن على حملها. لم أصبر حتى البيت.

فتحت الغلاف أنا وحسن. كانت به أوراق كثيرة. ثم فتحت الكرتونة وإذا بها كتب لسان الدين بن الخطيب الأندلسي، وكتاب عن أوزان الشعر، وروايات كثيرة لزولا وفلوبير وشارل ديكنز وتولستوي الحرب والسلام ولاسونيت آكروتزر، ثم مجلد جميل ومذهب من رواية دون كيشوت بجزأيها، وآخر أصغر من *قصص مثالية*. أحسست أخيرا أني انتصرت على النحس ولأول مرة أملك كتابا اسمه دون كيخوتي أو دون كيشوت. ضحكت على حسن: *خذ كل الكتب التي أهديت لي، وأنا لا آخذ إلا كتب سرفانتس. نرجع لك كتابك الفايح والمحروق.* في الطريق سألني: *ما نستاهل والو معك*. تذكرت أني كنت أملك نقودا. وضعت الغلاف في يده. قلت له: *أحسبهم. اعطهم لميما*. وضعهم في جيبه ومنحني قطعة واحدة منهم. ظل يصر: *ما تخلص والو يا المشحاح؟* فهمت قصده. ركضنا عند عمي عمر. أكلنا كرانتيتا لأول مرة حتى الشبع مصحوبة بالليمونادا، وعدنا في تاكسي لأول مرة في حياتنا، بعد أن جلسنا في الكراسي الخلفية، كملكين صغيرين. نسافر عادة بالحافلة لأنها أرخص وسائل النقل ومتوفرة نسبيا.

- واضح أن أستاذك كان يحبك جدا.

- لا يحبني فقط،، لكنه علمني ما لم أعلم. كيف اقرأ عمق الأشياء. وأن أتوقف أيضا

عند كل التفاصيل. لأول مرة أكتشف يا سيدي علاقتك بحنا. علاقة كبيرة.

- في الحكايات؟ لم أفهم.

- أنت تتحدث عن الموريسكيين وعن المرارة التي قاسوها. وكيف هاموا على وجه الأرض، قبل أن يهلك الكثير منهم من ذويهم، ويسرقون لأنهم حلوا بأرض لم تكن لهم بها أية علاقة. حنا كانت تتحدث عن جدي الروخو وأصحابه الذين نزلوا معه في ميناء سيدنا يوشع، باستفاضة. وأنت أيضا يا سيدي تحدثتَ عنهم بنفس الألم. وأنا أقرؤك كنت أفهم بعض شيفراتك. ربما كان الرابط العميق معك منبعه هذا. لهذا أصبحتَ بالنسبة لي في رتبة أحد أجدادي. تعلمت منك شيئا مهما. أن نحبّ الحياة حتى عندما توصد في أوجهها كل الأبواب، لان الأبواب لا توصد جميعها يوجد دائما منفذ غير محسوب علينا أن نبحث عنه قبل الاستسلام لنهاية بائسة. السخرية هي

الوسيلة العظمى لتجاوز الحدّ الوهمي للحياة ويقين الناس وحماقاتهم وجهلهم المدقع. وتعلمت من كتبك أيضا ومن دون كيخوتي تحديدا، أن نخوض حربنا الخاصة بيقين الانتصار، حتى ولو حققنا واحدا بالمائة من هذا الانتصار وهزمنا، أحسن من الصفر. لكل واحد منا حربه عليه أن يخوضها بحب وإيمان. حربه للتعلم، حربه للعيش والحياة، حربه للاستمرار في أصعب الحالات، وعدم الاستسلام في وضع كل ما فيه يدعو إلى ذلك. جربت هذه القوة الباطنية يا سيدي، ووجدتها رديفا للحياة.

- كل هذا لم يكن خيارات ولكنه كان ضرورة. لقد عشنا ظروفا صعبة وقاسية وظالمة.

كانت محاكم التفتيش المقدس هي كل شيء وهي الآمر الناهي. ومع ذلك كل المظالم علمتني شيئا مهما أن أفهم أولا بدل أن أحاكم الناس. أن أصغي بدل أن أصرخ.

- أعرف يا سيدي، لقد عشتَ فصلا كبيرا وصعبا. سجنك وبيعك في سوق العبيد في

الجزائر العاصمة، لم يكن أمرا هينا. أي واحد في مكانك كان قد جن، بينما خرجت أنت من هناك بحكمة كبيرة صححت من خلالها كل مسبقاتك عن الإسلام والمسلمين وسكان الحواضر الإسلامية.

اعتدل سرفانتس قليلا في جلسته، ثم مسد على لحيته الحمراء بيده اليمنى لأن اليد اليسرى لا يحركها بسبب شظية مدفع أصابته في معركة ليبانت Lépante التي كان فيها محاربا فذا ضد الأتراك برفقة سيده الكبير: *دون خوان النمساوي*.

- تلك قصة أخرى. قصة تعلمت منها ما لم أتصور تعلمه أبدا في حياتي. ظلت الكثير

من جوانبها طي الكتمان وربما احتاجت إلى زمن آخر لتروى كما اشتهيتها. يكفي أنها منحتني زريدة. ارتح قليلا لابد أنك تعبتَ بسبب المعابر الحجرية القاسية وتيه السير. سأراك بعد الاستراحة.

قام. غاب بسرعة داخل تجويف منار قليلا فقط.

عندما التقتُّ، لأني شعرت بعطر ما وبأنفاس ورائي، كانت زريدة تقف عند رأسي بابتسامتها الأنيقة:

- هل يريد سيدي أن يتبعني أرافقه لغرفة استراحته.
- في الحقيقة نسيت كل التعب عندما رأيت هذا الرجل العظيم. معلمي.
- لابد أن ترتاح يا سيدي.

لم أجادل. تبعتها. بدا لي فقط أن قامتها زادت استقامة هذه المرة.

3- حُبِّي لَهَا أَسْبَقُ مِنْ حُرِّيَتِي.

كانت غفوتي جميلة. لم أدر كم استمرت، لكنها كانت كافية أن أرى فيها كل شيء بالألوان الزاهية.

في اللحظة التي فتحتُ فيها عيني بتكاسل، رأيت أصابع زريدة الناعمة ترفع الستارة الزرقاء بهدوء، ثم تطلّ برأسها فقط وتنظر إليّ بعينيها المائلتين كعيني غجرية. لا أدري لماذا رأيت وقتها بالضبط ليونيزا ابنة رودولفو فلورونسيو، التي ذكرها سرفانتس في قصة *العاشق السخي*. يقيني شبه مطلق بأنّ ليونيزا ليست في النهاية إلا زريدة، التي قال عنها وهو يحدث صديقه محمود: *من أجلها وليس من أجل الحرية الضائعة، تذرف عيناي الدموع الغزيرة*. وأن ريكاردو أو ماريو، حبيبها، ليس إلا سرفانتس الذي كان متيما بها. ثم انسحب وجه ليونيزا ليترك مكانه لزوليخا، على الرغم من أنه لا شبه كبير بينهما سوى في العينين المشتعلتين، واستقامة الظهر وطول القامة، وربما ظلها الذي ظل يتحرك بهدوء في داخلي. على الرغم من اليقين الذي تظهره زريدة للآخرين، فهي شديدة الهشاشة والرّهافة.

تمتمتْ قبل أن تدخل وهي ترفع الستارة نهائيا، إذ لا يوجد باب تدق عليه:

- هل سيدي قام؟ موعدك مع سيدي سرفانتس اقترب. مليح وجدتك قد استيقظت، هذا

يربحك بعض الوقت.

- لا أدري كيف أحسب الوقت ولكني أتكل على حدسي الداخلي الذي لم يكذبني حتى الآن، وأيضا على ساعتي البيولوجية التي ترسم وقتي في هذه الأمكنة التي تملأها

الأصداء، وتنشأ فيها الأشياء وفق منطقها.

عندما دخلت كليا، كنت قد قمت من مكاني نهائيا، ومسحت على وجهي بقليل من الماء كان موضوعا في إناء نحاسي قديم ومنشفة ناعمة كأنها من حرير، كانت زريدة قد وضعتهما تحت تصرفي منذ أدخلتني إلى هذه الغرفة المحفورة عميقا داخل صخرة. ظلت واقفة في مكانها، كأنها تنتظر منّي أن أسمح لها بالجلوس، وتنظر في جنبات

المغارة، كمن تكتشف المكان الذي كنت فيه، لأول مرة. كانت تسرح بنظرها على كل التفاصيل الصغيرة، وتتلمس من حين لآخر خدوش الحائط.

- يمكنك أن تتفضلي يا زريدة. لا كلفة بيننا، كنت أنتظرك. ناديني سينو أو واسيني كما
يروق لك.

- ثقيل عليّ أن أناديك باسمك فقط، لكن سينو أخفّ.

- لا أكاد أصدق أنك كنت زوجة سلطان فاس، عبد الملك. هكذا تتصرفين ببساطة؟

امرأة في مكانك، ربما كانت قد مست كل شيء بنظرها فقط، قبل أن تأمر خدمها بالانحناء عند رجليها، وربما تطلب من الله، وهي بين يديه، أن يمنحها قصرا جميلا، لا أن يسكنها مغارة.

- هههههه... ذكرتني بسيدي. أنا سعيدة في هذا العالم الذي أنا فيه. هو ما طلبته من الله.

العالم الذي نحن فيه لا يتحمل كل التعقيدات التي تتحدث عنها. وضعي لم يكن سهلا. من قال لك إني كنت أحب القصور التي يتحول فيها الإنسان، شاء أم أبى، إلى مجرد أداة ليثبت الملك أو الحاكم أو الرجل الغني، أن له امرأة تليق بالمقام؟ فتّش أسرة هؤلاء وستجدها باردة كقطع الثلج. أتساءل أحيانا كيف نستطيع أن ننجب أبناء داخل هذا الفراش الذي لا يجمعنا فيه شيء سوى الحيوان الميت الذي يستيقظ فيهم فجأة؟ لا شيء غير الوجاهة الفارغة يا غالي. أفضل هذا المجنون على ألف عاقل من صنف الملوك والسلاطين وذوي الجاه والمال. انظر كيف يصفني سيدي في قصص مثالية؟

- غريب؟ قبل أن تدخلي عليّ كنت أفكر في ذلك.

- أسمعه وهو يصف ليونيزا الصقلية، التي نبتت في ذهنه فجأة ونحن في فحص الآغا

حسن فينيزيانو، قبل أن يكتبها بعد سنوات طويلة، محورا في الأسماء والأمكنة: *مصيبتي كبيرة وعميقة، تستعصي على أي حساب. ولكني سأعمل ما بوسعي وبما*

يسمح به الوقت توصيفها. كانت أجمل بنات صقلية... أجمل وأبهى نساء كل الأزمنة الحاضرة والغابرة والأزمنة القادمة التي تحلم بامرأة مثلها. غناها كبار الشعراء وشبهوا شعرها بالذهب، وعينيها بشمسين من النور المشع وخديها بوردتي الجوري وأسنانها باللؤلؤ الخالص، وشفتيها بلون القرمز الناعم. سيدي كان يبالغ. كان يحبني ولهذا رفع كثيرا من قيمتي وحتى من شكل لباسي الموريسكي. عندما دخلت في مرة من المرات، ومعي مرافقي اليهودي، على مولاي حسن آغا في قصره لترجمة وثيقة مهمة وردت له من ملك إسبانيا، كان سرفانتس هناك، ومن يومها حدث شيء غريب فيّ وفيه. لكن الحاج مراد، والدي كان هناك أيضا، مما منعني حتى من الحديث إلى الغريب. عندما قلت له لماذا اخترتَ ليونيزا وألصقتَ بها المسيحية ورميتَ بها في مدينة ترباني[37]، لماذا لم تترك موريسكية بلباسها الذي قدمت به يوم التقت بك لأول مرة. قال ضاحكا، *أنت رهينة والدك، ورهينة الظروف، ورهينة ماضيك وأوضاعك، فأنت مثلي إذن رهينة.*

- أنت تعنين له الشيء الكثير. تأتين قبل حريته.

- عيبه أنه كان شديد الغيرة والغضب. أعمى أحيانا. كان غيورا جدا من مرافقي اليهودي. لم يتوقف يوما عن تكرار نفس الكلمة: *أعرف اليهود، يأتون بوجه وينتهون بوجه آخر. هو يريد امتلاكك بالحيلة.* حاولت أن أقنعه بأنه صديق الطفولة ويساعدني في الترجمة، فهو يتقن خمس لغات .لكن نار الغيرة كانت تقتله وفي يوم صمم أن لا يحادثني، بل أن يقاطعني بعد أن وجدني أعمل في فحص حسن آغا مع اليهودي على ترجمة رسالة ملك البرتغال. أسمعني ما كتبه ودونه في نفس قصته، أحسست بقوة بحرائقه: *ماذا أحسّا لرؤيتي وأنا بالقرب منهما؟ لا أدري، كل ما أعرفه هي أحاسيسي تجاههما. ضاعت عيناي في الفراغ. تجمدت مثل التمثال، بلا صوت وبلا أية حركة. لكن الغضب سرعان ما حرك عواصفي في داخلي التي أشعلت بدورها دمي...* مشكلته أن غيرته قاتلة له ولغيره أيضا، بل لأقرب الناس إلى قلبه. مع الزمن عرفت قلبا طفوليا من شمس. طبعا لم يكن كورنليو في قصته *العاشق السخي*، إلا اليهودي المسكين الذي اعتذر منه لاحقا، ولم يكن ريكاردو/ ماريو إلا هو، سرفانتس.

[37] Trapani.

- كل عاشق هو بالضرورة مهبول. أنا لم أعرفك خارج سرفانتس. امرأة من نور، وشعلة من الذكاء. لهذا أول ما رآك، أصابته رعشة لم يستطع مقاومتها أبدا. كنتِ مثلي الأعلى من خلاله. كل امرأة أحبها وأحب جرأتها، كان لها وجه زريدة بشكل ما من الأشكال. في مرة من المرات قلت لمينا كأنك زريدة. نظرتْ إليّ بعنف وقالت: شكون هذه الرناكة ثاني؟ من وينْ جبتها؟ من تكون هذه المخلوقة؟ اكتفيت بأن ضحكتُ، وقلتُ لها هذه امرأة من ورق.

رأيت ابتسامة تشرق بين شفتي زريدة. لأول مرة أراها، جميلة بكل هذا الشكل، ويصعب توصيفها. هي مزيج من السخرية والجد في الآن نفسه. لكنها أعطت لوجهها إشراقا خاصا مما حسسني بأنها كانت معي على نفس الخط. أو على الأقل لم تكن بعيدة عن ما كنتُ أحسه.

- ههههه وهل تزعل مينا من امرأة ورقية، لا وجود لها إلاّ في كيمياء الأدمغة الذكورية؟

- مشكلتك يا زريدة أنك كنتِ بين الورق والحياة، على نفس المسافة. ولهذا، كل من

يقرأ عنك يقرأ حقيقة مؤولة أو محرفة قليلا، لكنها موجودة. أنتِ من لحم ولغة ودم وفرح وكبرياء وحكاية. حكيتُ لها قصتك كما رواها سرفانتس في كتبه. امرأة موريكسة في الظاهر. مسيحية مرتدة عن دينها بسبب الخوف، لأنها في الأصل نشأت على يد سيدة مسيحية حبّبتها في لالة مريم. الغريب أني في الكثير من الأحيان تخيلتك ورسمتك، لكن في كل الرسومات التي خطها ذهني لم تكن تشبه ما أراه الآن. لكنّي عندما أجمعها كلها، منذ قرأت رواية دون كيخوتي وتوغلت فيه، أجد الرسومات تشبه كل النساء اللواتي عرفتهن، بل هي تركيب غريب منهن. عينا مريم السوداوان الحادتان كعيني غجرية. سماحة وجه مينا وهي في عز محبتها وإشراقها كما رأيتها تحت أشجار اللوز، في ذلك اليوم الممطر. وسذاجة وعفوية شافية قارة... حتى في الخيال، لا نخرج عما نعرفه، وهو في النهاية ليس إلاّ إعادة توزيع وتركيب لمعارف سابقة تخترقها أحلام تصعب السيطرة عليها. مثلما اكتشفت طيبة الرجل المسكين دون كيخوتي الطيب، اكتشفت عنفوانك أنت أيضا

-     قصة طويلة يا عزيزي، كما سبق أن قلت لك. أصبحت على يقين، من سرفانتس، أن الأدب شيء

آخر. يجب أن يؤخذ كما هو، وإذا استمعت لما قاله، ستغرق في تفاصيل غير دقيقة. هو كاتب، وظل يعبر عن حالة حلم أكثر من حقيقة في قصة *الأسير* التي أدرِجت ضمن *دون كيخوتي*، وحتى في قصصه الأخرى التي كتبها عن الجزائر. أعتقد أنه إذا كان هناك مكان سكن في دمه وخلاياه، هو الجزائر بكل تناقضاتها. دخلها أسيرا ومصفدا مثل العبد، وخرج منها وهو يعرف أدق تفاصيلها. إذا كان هناك فضل أيضا، في الخمس سنوات ونصف التي قضاها في الجزائر، هو أنها منحته صورة أخرى غير تلك التي كان يعرفها عن المدينة. كنتُ وسيلته لا أكثر، لكي يغير رأيه عن هذه الأرض التي كان ساخطا عليها. كنت المرأة التي قادته من قلبه وجعلته يرى ما غطته الأحقاد عن عينيه. لأنه هو أيضا كان يملك في أعماقه نورا كان لابد من إزاحة الستائر التي جعلته لا يرى إلا القرصنة والحروب الدينية.

-     هذا القدر من الحب فيك لمسته بسهولة في نصوصه. اكتشفتك فيه لدرجة أني يوم

كتبت روايتي التي تتحدث جزئيا عنك: *حارسة الظلال/ دون كيشوت في الجزائر*، لم تخرجي من مخي مطلقا. على العكس من سرفانتس، صوّرتُك ترفضين الخروج مع حفيده، وتغادرين أرضك. أمنيتي السرية. لأن زريدة التي تبعت معشوقها في *الأسير* لم تكن دائما صائبة. لأني في أعماقي، تمنيت لو بقيتِ في أرضك، وإلا ما الذي دفع بسرفانتس أن يركض نحو تربته، وأنت تنسين كل شيء وتتبعينه، هل الحب أعمى إلى هذه الدرجة؟ لذا، منحتك في *حارسة الظلال/ دون كيشوت في الجزائر*، فسحة كبيرة في دهاليز العاصمة للدفاع عن وجودك وكيانك عندما دعاك أحد الأحفاذ الافتراضيين لسرفانتس أن تغادري البلد بسبب الإرهاب. أتذكر ماذا قلتِ له يومها، أو زريدة التي أعرفها أنا، ماذا قالت له؟

-     مايا قصدك.

-     مايا/ زريدة. يبدو أن لا شيء يغيب عنك.

-     الأزمنة هنا سيولة لا يوجد لا ماضي ولا مستقبل ولا حتى حاضر، فكل شيء

متحرك وكأن الزمن نفسه يبحث له عن مستقر ما. الزمن هو ما نصنعه بأنفسنا. يوجد إنسان يبحث عن راحة أبدية لا توقظها إلا رغبات مبطنة لتتجلى مثل النور للمرة الأخيرة. في هذه المساحة القلقة، لا يوجد بشر أحسن من بشر، ولا دين أفضل من دين. كل شيء يتساوى ولا يبقى إلا الإنسان في حركاته وأشواقه وحنينه وخيره المحسوب له، وشره الذي عليه أن يتخطاه ليجد مخرجا لروحه التائهة. ما الشيء العميق الذي قادك نحو سيدي، وربما نحوي سوى تلك الرغبة المبطنة والمتأصلة للخير؟ الصدفة الغريبة وضعت ذات يوم، كتابا مجنونا في يدك، فأصبح مفتاحك الأبدي في الحياة، ورهانك في عالم التجلي الأخير.

- أنتِ أيضا منحتني ومنحتِ الكثيرين الرغبة في الاستمرار. نحتُّ مايا من شخصيتك.

كنا في عز الإرهاب والتقتيل اليومي في التسعينيات، كما في حروبكم القاسية، وكان لابد لي أن أتكئ على امرأة. لأن المرأة بالنسبة لي شكلت أجمل مهرب وأضمنه. كنتُ محاطا بالكتب والقصاصات الصحفية المليئة بوجوه أصدقائي المغتالين. ولا أدري يومها ما الذي قادني نحو دون كيخوتي مرة أخرى، ربما بحثا عن قليل من السخرية لمواجهة عالم مظلم ومخيف كان يرتسم في الأفق؟ وجدتك أنت، هذه المرة، في صلب كتاب الجنون. امرأة من نور وأمل. من هنا نشأت شخصية مايا/ زريدة. كان يحرق قلبي قبول زريدة الخروج من أرضها كما قلتُ لك، بعد أن تنكرت لمدينتها وحتى لوالدها بعد أن تركته يصرخ ويستنجد في يابسة رأس القحبة الروميةِ Cap de la Cava de Rhoumia. لا أدري طبعا لماذا؟ السبب ظل غامضا في أعماقي. لهذا جعلت حفيد سرفانتس الافتراضي، *فاسكس دي سرفانتس دالميريا*، يقول هذا الكلام لمايا التي كان يراها في شكل زريدة، وهي تواجه صدف الموت والخوف اليوميين: *لماذا لا تغادرين هذا البلد ولو بشكل مؤقت؟* فتجيبه هي ربما لأني في أعماقي اشتهيتها أن تجيبه هكذا ربما لأني، في لحظة ما بيني وبين نفسي، لم أقبل الخروج ولم أهضم الخروج من أرضي باتجاه المنافي التي غيرت كل شيء في حياتي. قالت له: *لأذهب إلى أين؟ المنفى ليومين مجرد كذبة جميلة نختلقها لنعطي مبررا لخروجنا. هل رأيت منفيا عاد إلى الوطن بعد يومين؟ عندما نقبل بالمنفى ننكسر قطعا قطعا*

مثل البلور، ولنتجمع من جديد نحتاج إلى الكثير من الصبر، وأي صبر؟ قدري هنا على هذه الأرض التي أكلت لحم أجدادي العقلاء والمجانين، المؤمنين والمرتدين، الإنكشاريين والموريسكيين، اليهود والمسيحيين والمسلمين، الفينيقيين والبرابرة، الوندال والرومان، العرب والأتراك. الإسبان والفرانسيس... أبذل مجهودا مضنيا يوميا لإضافة يوم آخر إلى حياتي. أركز كل طاقتي ونباهتي لتفادي الموت الحاضر في كل مكان، تخيل إنسانا يخوض حربا ضد الظلال. دون كيشوت على الأقل واجه طواحين هواء موجودة. أنا فخورة لان دولثينيا بسيطة مثلي استطاعت أن تصبح امرأة تملك الكثير من الأسرار. تتكلم أربع لغات حية والخامسة في الطريق... هذا هو الاختلاف بيني وبين زريدة التي سطحها سرفانتس بسبب الخوف من العمى الديني والملوكي (رواية حارسة الظلال 192-193). لا أدري من تكلم يومها على لسان زريدة، لكن المنفى الذي كنت قد بدأته فقط، تجاوز بعدها العشرين سنة. وأن المنفى المؤقت غير موجود. مع أنه بدأ في شكل حالة غياب، أو حتى لعبة قبل أن يتحول إلى حقيقة مُرة نحتت الجسد والروح.

- وااااوووووو بالضبط. بالضبط هذا ما حدث لي، لكن ليس بالطريقة التي وصفها

سرفانتس. لهذا قلت لك إن التاريخ الذي رواه، رواه بجنون مبدع. كان محكوما بوضع من التقتيل المجاني والتطرف القاتل، لهذا كان عليه أن ينحت تاريخا يتقاطع معي ويختلف عني. الكتابة تصنع تاريخها كما تشتهيه. حياتي أكثر تعقيدا مما تتصور. بدءا من اسمي وانتهاء بحياتي. اسمي الحقيقي *زهرة* وتصغيري في الإسباني *زُهْرِيتَا*. انظر ماذا فعلوا باسمي بسبب خطأ في نطق سرفانتس. من *لالة زهرة*، إلى *ثريدة* التي أصبحت لاحقا *ثريا* عند بعض المترجمين، لأن كلمة *زريدة* غير متداولة عند الموريسكيين ولا حتى الأتراك ولا الكوروغليين المولدين. هو كتب الاسم كما سمعه أول مرة. ثم جاء سالفه، روديرغز مارين Salvo Rodriguez Marin، أحد شرّاح سرفانتس الذي وجد الاسم الحقيقي والصريح وهو *زُهَيْرَة* أي تصغير *زهرة*، الذي أصبح بالإسبانية *زُهْرِيتَا*، فقرئت زريدة، والتي تعني *فلورنسيا* أو *فلورانسيتا* تصغيرا. هناك من رجالات حاشية والدي من كان يناديني فلورانسيا وهو المقابل الإسباني لزهرة. أما

حياتي فأكثر من هذا كله. فقد منحني سيدي سرفانتس يدا لأخرج معه مثل مايا، وبرر وضعي الديني أمام المتربصين له، وجعلني مسيحية في الأصل، ليقاوم بي محاكم التفتيش المقدس، لكنها ظلت وراءه منذ أن قرر أن يلتحق بالعسكرية هو وأخوه، حتى عودته من الجزائر إلى إسبانيا. في الحالتين كان عليه أن يُحضِر وثيقة نقاء الدم البائسة. تخيل؟ نقاء الدم؟ هل هناك غباوة أكثر من هذه؟ مَنْ دمه اليوم نقي ومن يتحكم في ذلك؟ نحب. نتزوج من نحب ونحن لا نعرف عن دمه إلا ما جاءه من أهله؟ ومن يعرف دم أبويه وأجداده في عالم اختلطت فيه اللغات والأجناس والأعراق؟ الجهل والتخلف والكذب أيضا. لا دم إلا دم الخير والنور والحب، دم الشر والجبروت والظلم والقهر.

- طبعا. إذا فهمت جيدا، اسمك ليس زريدة ولكن زهرة أو زهيرة أو زُهْريتا؟

- نعم. لا زريدة ولا ثريا. حماقات سرفانتس الذي أنقذه والدي الحاج مراد، من إعدام

مؤكد. لهذا ظل يكن له وللعائلة كلها الاحترام والمودة ولولاه لرماه حسن آغا، في قفر بحري وتركه هناك في ***الأسر*** حتى الموت. يسجل سرفانتس اعترافا جميلا يحرج كتاب التاريخ الذين لا يرون في الأتراك إلا الموت والنهب والقتل: *« لم يمسسه*، يقول والدي متحدثا عن سرفانتس، *حسن آغا أبدا بأي أذى ولم يضربه ولا مرة واحدة ولم يأمر بضربه على الإطلاق ولا أسمعه كلاما نابيا وشتائم، على الرغم من أننا كنا نخشى من النتائج الوخيمة كلما هرب. لقد خفنا العديد من المرات. »* ربما كان لتدخلات دالي مامي الذي أصبح أحد أهم رياس البحر المقربين من الآغا، دور مهم، لكن تدخلات الحاج مراد أمام حسن فنيزيانو كانت حاسمة.

- إذن فكرة العائلة المسيحية التي أجبرت على الردة غير حقيقية.

- يبدو أنك لم تفهمني. هل تصدّق؟ قلتُ لك إن سرفانتس كان يحبني ويريدني أن أرحل

برفقته، فيالوقت نفسه كان عليه أن يثبت لمحاكم التفتيش المقدس أني مسيحية ضحية الأتراك والموريسكيين حتى ولو تربيت في بيت موريسكي معروف. أنا موريسكية يا حبيبي. أصولنا من راغوزا Raguse. كان والدي أحد الأغنياء الكبار

في المدينة ومحاورا مهما بين الإسبان والأتراك من 1573 إلى 1577. الأرشيف الإسباني يتحدث عنه وعن هذه اللقاءات السرية مع فيليب الثاني عن طريق التجار الفلانسيين ورجال الدين. زوّجني بالسلطان المغربي عبد الملك لأن مصالح الجميع اقتضت ذلك. السلطان عبد الملك علاقاته كبيرة ومهمة مع ملك إسبانيا، فيليب الثاني وملك البرتغال، سيباستيان. بل بلغت فيها المناورات والخيانات حدا أقصى، عرفت بعضها بالصدفة. تزوجته عندما كان منفيا في الجزائر قبل أن يستعيد عرشه في سنة 1576. استطاع أن يربح معركته ضد ملك البرتغال سيباستيان في موقعة القصر الكبير Alcazarquivir، ولكنه قتل بعدها بسنتين في ظروف غامضة، هو والملك البرتغالي. بدأ والدي الحاج مراد يشتغل مع الآغا حسن مقربا منه، ومسيرا لأمواله، فقد كان يعرف الأسواق جيدا وله شبكة عالية من العلاقات. وأدخلني حسن آغا ضمن مساعديه، وفي 1580 أصبحت مستشارته في أعماله التجارية. أشهد أنه لم يمسسني بأي أذى. هذه القرابة الكبيرة بين الحاج مراد وحسن آغا، وفرت ظروفا ملائمة لسرفانتس لكي يتفادى الموت بعد فشله في الهرب لمرات عديدة لأن والدي كان دائما يشهر فكرة أن حسن فنيزيانو خسر لشراء سرفانتس أكثر من 500 دوقة ذهبية، فكيف تتمّ التضحية بها؟ وهو ما خفف الوطء على سرفانتس. يوم التقيت به أول مرة في قصر حسن آغا، شعرت بأن هذا الرجل مس قلبي. ليس لأنه كان جميلا، لكن لأنه كان قادرا على تحويل كل ما تلمسه عيناه إلى سخرية، بما في ذلك رجال الدين الذين ناصبوه العداء المميت. بسرعة أحببته. لم يكن أمامي أي قيد إلا كونه مسيحيا وأسيرا. اقترح علي مرافقته في الهرب العديد من المرّات، لكني رفضت لأني كنت سأضع والدي في وضع خطر. كنت أحبه ولم أستطع مقاومته. في يوم جمعة، جاءني قبل الظهر بقليل لأن المكان وقتها يكون خاليا في ذلك اليوم. وكان والدي في مأمورية في ميناء فينيسيا لشراء الزجاج لقصر حسن فينيزيانو. تفاديت بكل الوسائل عيون العسس وأنا أستقبله. في تلك الليلة قرأ عليّ أشعارا كثيرة كتبها عني، أدخلني بسرعة في هبله وجنونه، واشتعل كل شيء فيّ، ولم أستطع مقاومة نار كبرت فيّ زمنا طويلا. وبتُّ في أحضانه الليل كله، وأعطيت لنفسي خيانة دينية كان يمكن أن تتسبب في قتلي، وربما قتل والدي. على أي، لم أكن أكثر من آلة حساب في خدمة الحاج مراد. في

الصباح، في ساعات الديكة الأولى، عندما فتح سرفانتس عينيه، طلب مني أن أهرب معه. قلت له بأقصر كلمة: لا. ثم أضفت عندما رأيت عينيه ترتعشان بحزن: لي أرض هنا ولي أهل يا ميغيل العزيز. رأيت أربعة أشخاص يتخطون الحائط الخارجي للدار، ظننتهم عسكرا انكشاريا ، لكن بمجرد أن صرخت فيهم هربوا وتركوا حتى البرتقالات التي نزعوها. لم يكونوا أكثر من سرّاق صغار. طبعا عندما كتب سرفانتس أعماله لاحقا، ظل هذا جرحه المتكرر. لم يكتب في النهاية إلا حلمه وحقيقته الباطنية التي ظل مؤمنا بها حتى النهاية. تزوج بمجرد عودته إلى إسبانيا لكنه لم يتخلص مني أبدا.

- كان يبالغ بسبب الوازع الديني. لكن زمنه أيضا كان هكذا.

- لا ليس بسبب الوازع الديني، ولكن الخوف. عندك فكرة عما كانت تفعله محاكم التفتيش المقدس في المرتدين؟ وعما كان يفعله الإنكشاريون في الناس البسطاء، أو في من يشكون في ولائهم وإخلاصهم. يضعون الحاكم اليوم وفي اليوم الموالي يقتلونه شر قتل. هؤلاء هم الحكام، يمكنك ببساطة أن تتخيل جرائمهم مع الناس البسطاء. كان زمنا شديد القسوة.

رغبت في أن يتواصل الحديث الذي بدا لي شيقا بيننا، لكنّي فضلت أن لا أكثر عليها لأنها كانت قد التفتت مع الكلمة الأخيرة وجهة غرفة سرفانتس. *نمشي سينو، سيدي ينتظرك...*

مشينا قليلا ثم *قالت: لا تنس رأسك. انحن قليلا لأنك طويل... ههه... هذه مغارة وليست قصرا.* انحنيت ومشيت وراءها، لكني ظللت منكفئا برأسي قليلا، حتى نبهتني هي: *يمكنك أن ترفع رأسك.* كنتُ في صلب قصتها، فاستقمت من جديد وتبعتها، لكني كنت في أعماقي سعيدا إذ شعرت بأني كسبت صديقة كبيرة، وهذه المرة ليست امرأة ورقية، لكن سيدة من حقيقة غير حقيقة الكتب التي افترضها سرفانتس في ظل سلطان الخوف.

كنت قد بدأت أعرف المسالك وأنا أتبعها. عرفت كل الاستدارات والانحناءات حتى بدون أن تقول لي، أو تلتفت نحوي. عندما دخلنا إلى فضاء المكان الواسع الذي كانت

تكسوه الزرابي، تراجعتْ قليلا إلى الوراء. قلّت البرودة، وتجلى دفء جميل كان يأتي ربما من الخشب الثقيل الذي كان يغطّي الحيطان والأرضية.

- سيدي سرفانتس في انتظارك.
- شكرا.

ثم انسحبت نهائيا كالظل حتى قبل أن تسمع شكري.

عندما دخلت على سرفانتس، رأيته وهو ما يزال يحاول أن يستقيم في جلسته، كأنه وصل هو أيضا لتوه. لم يسبقنا، ولم يتخلّف ثانية واحدة عنّا.

عندما رآني، أشّر بيده اليمنى أن أجلس. جلست في نفس وضعي الأول بينما، زريدة، كانت قد انسحبت حتى قبل أن ألتفت نحوها. كنت مندهشا من تواضعها ومن محبتها ووفائها لسرفانتس، لدرجة أن تخلّت عن كل شيء على الرغم من جنونه وهبله وكيف حوّلها من ابنة شخصية كبيرة ومتقنة للغتين العربية والاسبانية إلى واحدة معوقة لغويا بالإسبانية وكيف حوّل والدها حاج مراد إلى مجرد مجنون ظل يصرخ ويستجدي من ابنته أن تعود، في مرفأ بحري اسمه لم يأت صدفة: *رأس القحبة الرومية* Cap de la Cava de Rhoumia. كانت زُهريتا تعرف جيدا أنها أحبت مهبولا يجب أن يُقاس عقله بجنون الكتابة وليس بعقل الجميع. محنة الكتابة أنها تقع على الحافة التي ترتسم عندها حدود الأشياء فلا نعرف حدودها بالضبط. أنا نفسي لا أعرف كيف أخرجت من صلبها مايا التي دفعت بي إلى قول ما لم أقله. كانت قناعي ووسيلتي في عز الإرهاب لنقد الذات وإحاطتها بمختلف المرايا. فقد وجدت في دون كيشوت وفي قصته مع زُهْريتا، أو زريدة، معينا لا ينضب من الحب والجنون، والسخرية من عالم صعب وقاس كان من الصعب أخذه بجدية دون التعرض لسكتة قلبيه مؤكدة أو الاختناق بغصّة قاتلة. ولا أعرف أيضا كيف استطاع أن يخرج منها زريدة وزهرة وثريا وزُهريتا التي ظلت دائما بنت حاج مراد حتى عندما محا وجوده في الكتابة بتقزيم سلطانه. يبدو أنها كما قالت، كانت مصدر فرح لرجل عرفها عن قرب وأحبها بقوة لدرجة أن سبّقها عن الحرية. الحرية التي ظلت رهانه حتى آخر ثانية.

- هل ارتحت قليلا.

سألني سرفانتس وهو يمرّر أصابعه داخل لحيته.

-     لا بأس يا سيدي. الجو بارد قليلا في المغارة، لكنه جميل. فقد سمح لي بإغفاءة كم

كنتُ في حاجة ماسة إليها. لا أدري ما الرابط، لكني في لحظة من اللحظات تذكرت *سجون الجزائر* التحت- أرضية، المليئة بالخوف والرطوبة، كما وصفتَها أنت في *سجون الجزائر*. تحت تأثير كتابك هذا، قضيت سنة بكاملها وأنا أبحث في دهاليز العاصمة التحتية عن سر يمكن أن يكون قد فلت منك، لكتابة *حارسة الظلال*، لأتأكد من أن ما حكيتَه كان حقيقة الحقيقة ولم يكن افتراضا. ويوم وجدت بقايا مدينتك الموريسكية تحت الأنفاق عندما كان العمال يحفرون الميترو الذي دام ثلاثين سنة، لأن المدينة التحتية رُدِمتْ يا سيدي بعد أن دخلها الفرنسيون وغيروا الميناء، لكنهم احتفظوا ببعض أجزاء الميناء القديم، ورأس البينيو Le Cap Penon الذي دخلت منه والذي شكل شوكة حقيقية للملوك الكاثوليك، شعرت بذلك العفن الذي تحدثتَ عنه حتى ولو لم أر الكثير من الأمكنة، بالخصوص سوق العبيد إلا من خلال لغتك، لأنه تحول إلى مسمكة يرتادها الناس لأكل أنواع الأسماك والاحتفاء بالعشاءات الفاخرة، القليل منهم من كان يسمع أنفاس المكان وأصداءه وصرخاتكم وأصوات الأصفاد الثقيلة وكلام سادة السوق الفاحش. كل هذا سمعته يا سيدي.

أحنى سرفانتس رأسه قليلا. سرح بعينيه كل زوايا المكان الذي كنّا فيه، كأنه كان يتتبع الظلال التي كانت تعبر الحيطان قبل أن تنتفي داخل زوايا مغارة مونتسينو. بعد لحظات التفت نحوي وهو ينظر في عيني بحدة. لأول مرة أرى عينيه الصغيرتين الحادتين كعيني نسر يستعد للانقضاض على شيء، قبل أن يسدلهما ثم يغمضهما كأن صورة اخترقته بقوة ويريد تفاديها. مسد قليلا بيده اليمنى على لحيته الشقراء الخفيفة.

-     سوق العبيد حُوِّلَ إلى مسمكة؟ غريب.

-     نعم. عندما يدخله النّاس لا يفكرون في شيء آخر سوى في أنواع السمك التي سيأكلونها طازجة، ما تزال تردح في شبابيكها المعدنية. ولم يبق من مسالك المارينا التي تعرفها إلا الجامع الكبير. الناس يعبرون بالآلاف من هناك يوميا ولكن بلا تاريخ، بلا ذاكرة.

-     على أيّ، عقل المحو هو نفسه في كل مكان. كل يوم يكبر أكثر ويتسع بحقد كبير.

رجال غرناطة وإشبيليا وقرطبة وروندا ومدينتي قلعة هناريس التي كانت هي وطليطلة نموذجا للتسامح قبل أن تتولاها محاكم التفتيش المقدس، الوضع هناك ليس أفضل أبدا.

كاد لساني ينزلق ويصرخ أمامه بأن المكان الذي تخفى فيه زمنا: *مغارة سرفانتس*، حُول في وقت من الأوقات إلى مفرغة زبالة، قبل أن تُنقذ في آخر لحظة ويتم تأهيلها ولو قليلا، سياحيا.

رفرفت عيناه بحيرة قبل أن تستقرا على ملامحي بهدوء وسكينة,

-     ما عشناه يسكن حتى قيامتنا كما ترى، وليس فقط حياتنا. مع أن للصدفة الغريبة

مسالكها. كل ما حصل لي في الجزائر، كان وليد صدفة مجنونة سيدها البحر الذي جعل سفينتنا إلصول El Sol تنحرف قليلا لنضيّع كل مسالكنا ونبدأ حياة أخرى لا أحد تخيلها أبدا. كنت أسمع بالأغا حسن فينيزيانو وأعرف عنه الكثير لكني لم أتخيل يوما أن أجدني بين يديه. سمعت طبعا بوده وجبروته أيضا، وأنه لم يكن شخصا يلين للعواطف سلبا أو إيجابا. لكني عندما رأيته تأكد لي كل شيء. رجل الحافة، في ثانية واحدة يمكن أن ينتقل من الطيبة الكبيرة، إلى العنف الأكبر، وربما إلى القتل أيضا. عندما ينتابه من حين لآخر، جنون الحكم، يظلم كل شيء أمامه، فلا يفرق بين صديق وعدو. كان قريبا من الانكشارية ويسمع لشكاويهم، لتفادي شرهم، ولكنه لم يكن يحب جشعهم وغطرستهم وحتى جهلهم المدقع. كان يراهم مجرد سفينة حربية مآلها في النهاية البحر وأسماك القرش. حذر جدا من تقلبات أمزجتهم التي كانت تصل إلى درجة ارتكاب الجرائم لأسباب تافهة، وقتل من لا يروق لهم من الحكام، خنقا أو شنقا وحتى حرقا. عصابة حقيقية من القتلة. ربوا على الجريمة ومسح العاطفة. الكثير من القصص الغريبة كانت تحكى عنهم في العاصمة التي كنت أرتاد شوارعها يوميا. في مرة من المرات، كانت مجموعة منهم تعبر في دورية عادية، بالقرب من مسجد الإمام عثمان، سقطت على رأس قائدهم قطعة صغيرة من قرميد مكسور، فأدمت رأسه بجرح

خفيف. نظر نحو الأعالي، فلم ير أحدا إلا حمامات مذعورة، طارت جماعيا رعبا عندما التقت نظراتها بنظراتهم. أمر القائد بتطويق المكان والبحث عن أي شخص في المحيط. كان المكان خاليا. ثم أمر المجموعة باقتحام المسجد وتفتيشه. كان الناس يستعدون للصلاة. طلب من جنده أن يختاروا من كل صف من الصفوف السبعة للمصلين رجلا. ثم سأل المصلين عن الشخص الذي رماه بحجر من أعلى المسجد، وتخفى بين المصلين؟ لم يجبه أحد. سأل ثلاث مرات نفس السؤال. في المرة الرابعة أمر بذبح أول السبعة المختارين من الصفوف، على مرأى من الجميع. ثم سأل مرة أخرى ثلاث مرات، فلم يرد أحد. ذبح الشخص الثاني ببرودة دم. فعل الشيء نفسه بعدها، فلم يجبه أحد. ذبح الثالث. والرابع. في اللحظة التي همَّ فيها بذبح الشخص الخامس الذي تمرغ في الأرض وهو يصرخ بأنه مظلوم، وأن له خمسة أبناء وأما عمياء، وزوجة زحافة، خرج من آخر الصفوف، الصف السابع، شاب في مقتبل العمر. تأمل الجميع بعينين هاربتين، ثم قال منحنيا عند رجلي قائد الانكشارية وكانت كل فرائسه ترتعد من شدة الخوف: *سيدي أنا من رماكم بحجر.*

«– قطعة قرميد مكسورة، يا حمار، وليست حجرا. قال كبير الإنكشارية.

– عفوا، قطعة قرميد مكسورة، الخوف عقد لساني يا سيدي.

استل قائد الانكشارية سيفه الثقيل، ثم بدون سؤال نزل على رأس الشاب، ففصله عن الجسد في لمح البصر. ثم أعاد سيفه إلى غمده بعد أن مسحه أحد عساكره من الدم الذي فاض على جانبيه. قهقه وهو ينظر إلى الرأس المفصولة عن الجثة.

– شجاعتك كبيرة ولكنك تأخرت كثيرا يا عزيزي.

التفت نحو المصلين المذعورين:

– هل تدرون لماذا قتلته؟

هز المصلون المذعورون رؤوسهم أن لا.

- قتلته لأنه كذب عليّ، وأنا لا أريد القوم الكاذبين. ليس هو من رمى القرميد المكسورة على رأسي، لكن سرب الحمام الذي فلت مني.. »

ثم خرج متبوعا بمجموعته وهم يجرون الأشخاص الثلاثة الذين اختارهم القائد لدفع الثمن. ذُبِحوا جميعا عند عتبة المسجد. ثم واصلت الفرقة الانكشارية سيرها في

المدينة. هذا المزاج كان يخيفني. أسوأ ما في هذا البلد هذه المجموعة الجاهزة للجريمة. كانوا إذا مروا على مكان ولم يعجبهم، دمروه، أو رأوا امرأة أكلوها حية بعد أن يغتصبوها بالدور، واحدا واحدا. لهذا كانت عاطفتي تجاه حسن فينيزيانو طيبة لأنه يكرههم في أعماقه كما أسرّ لي بذلك هو بنفسه.

- كانوا قتلة، لم يكن يهمهم من البحر إلا تجارتهم ورهائنهم والمال الذي يربحونه من

اعتراض السفن أو الدخول إلى قصور حكامهم الذين كانوا يقتلونهم كلما اشتدت الحاجة إلى المال.

- دخلوا هذه الأرض حماة من الغريب المسيحي، قبل أن يطيب لهم المقام ويستلذوا

بالمكان ويسرقوا البلاد من ذويها. الأرض التي تخونها تخونك. لهذا ظل السكان الأصليون ينتظرون الفرصة لرميهم إلى الجحيم. لم يذرفوا عليهم دمعة واحدة وهم يرونهم يقادون إلى منافيهم وأراضيهم الأصلية.

- إن الأرض تعرف ذويها ليس بمعنى الدم، لكن الذين أعطوها ما يملكون. خسر العرب معاركهم مع الشماليين لأنهم تحركوا فرادى بأنانيات غير مسبوقة. سنوات بعد الاستعادة la Reconquista، وجدنا هذه الخيانات مستمرة يجمعها شيء واحد، هو الاستيلاء على الآخر ونهبه. انظر السلطان عبد الملك، زوج زريدة. لابد أنك تعرف قصته. دخل في صراع مع ذويه، لدرجة التحالف مع ملك إسبانيا فيليب الثاني وملك البرتغال سيبستيان لتهديمهم. ومع ذلك، أعتبرني محظوظا. فقد دخلت تلك البلاد حاقدا، وخرجت منها شخصا آخر. منحتني فرصة غير محسوبة، في عالم تطحنه الحروب الدينية، لأحدد المسارات من جديد، وأرى الحياة بشكل مختلف. لولا ذلك الاختبار القاسي الذي مكثت فيه أكثر من خمس سنوات، ونصف، ما فتحت عيني على الشيء الذي لم أكن قادرا على رؤيته وأنا في عز الحروب. كتبت *دون كيخوتي* لأنظر للأشياء بشكل مقلوب حتى أعيدها إلى وضعها الطبيعي، لأنها هي أصلا كانت مقلوبة.

- معك حق يا سيدي. من دون كيخوتي تعلمت بشكل نهائي أن كل ما في هذه الحياة

الصعبة يحتاج إلى أن يُنظر له ليس بالعقل فقط، فقد يسبق القلب العقل أحيانا. لم يكن العالم طبيعيا. تظل الحياة هي المعلم الأكبر والأبدي والدائم. لا أدري كيف نجوتَ يا سيدي في العديد من المرات من موت مؤكد. كنتُ دائما أتساءل كيف يتجرأ رجل أن يهرب بجلده، وهو الذي أعطى لقلبه أولوية على الحرية؟

- أنت أعرف الناس أن لا شيء يعادل الحرية أبدا إلا الحب، وربما تجاوزها. الباقي

كله تفاصيل. وهذا ما لم يدركه حسن فينيزيانو لأنه ولا مرة حُرم من حريته. وهنا كل الاختلاف. في البداية لم أكن أرى إلا حريتي قبل أن أتعرف على زريدة التي كبلت كل شيء فيّ. سجنني حبها ولم أجد إلا الأدب وسيلتي لتحريري من القيد الديني، بطريقتي. حلمي الأكبر كان العودة إلى أرضي والاحتفال بي كبطل من أبطال ليبانت. كل شيء تم بشكل سريع، بعد خيبة لم أكن أنتظرها. كنت في قمة حزني بعد زيارة رجال الدين الثلاثة المحروسة لإنقاذ الرهائن. الذي كسرني وأدخلني في غيمة سوداء، هو أنه عندما وصل رجال الدين الثلاثة، لم يسألوا لا عني ولا عن وضعي. الأخ جورج دي أوليفار[38]، الأخ جورج دي أونغاي[39]، والأخ جيرونيمو أنتيش[40] نسوني تماما وهم يقدمون قوائم من يجب إنقاذهم. فقد وصل الثلاثة إلى المحروسة، محملين بكميات كبيرة من النقود والذهب والسلع. اتخذ سيدي دالي مامي قرارا مهما عندما عرف تواضع ما كانوا يحملونه معهم، احتفظ بقسطه الخاص، ونصحهم بدفع فدية رودريغو، أخي، التي كانت 300 دوقة والعودة به على الأقل إلى إسبانيا أحسن من لا شيء. وهو ما حصل بالفعل. لم أقبل بهذا القرار، فقد شعرت بمرارة الإهمال، ولكني سرعان ما احتضنت أخي وأنا أذكره: *أرجو أن لا تنسيك* حروب *دون خوان النمساوي أخاك. قلل من مغامراتك ويقينك، أرجوك.* قال بيقين حقيقي قرأته في عيني رودريغو: *لا تهتم. سنخرجك من هنا. سأجمع الفدية وأعود.*

[38] Fray Jorge de Olivar
[39] Fray Jorge de Ongay
[40] Fray Géronimo Antich

-	وزريدة في كل هذا؟

-	كانت كل شيء. الذي لم تعرفه أنها هي من جعلني أتعلق بالحياة. أول ما رأيتها في

قصر حسن فنيزيانو برفقة اليهودي الذي ثقل عليّ ظله بسبب التصاقه الدائم بها، شعرت أنه بيني وبين زريدة الشيء الكثير يمكن أن نقتسمه. كانت تأتي من حين لآخر لترجمة رسائل الملوك والسلاطين، فتبلغني بآخر الأخبار عندما نهرب نحو الفحص. هي من كانت تعطيني صورة دقيقة عن طباع كل من كان في القصر وزواره أيضا. وعندما كثرت أسئلتي الغريبة، سألتني: *يا سيدي ميغيل سرفانتس دي سافيدرا... أسئلتك غريبة قليلا لا أملك لها الإجابات التي تريد؟* فأجبتها وأنا لا أستطيع كتم إعجابي بها: *كنت فقط أريد أن أعرف قليلا عن مدينة أجهل كل شيء عنها*. *حتى عادات أهلها. الصدفة هي التي أوجدتني بينكم*. قالت وهي تجمع شعرها وراء رأسها كما تفعل الغجريات عادة، بمطاط أحمر: *ربما كانت الصدف نفسها هي التي قادتني نحو هذا المكان*. وحكت لي شيئا عن قصتها مع الملك المغربي عبد الملك الذي قُتل في يوم واحد في معركة مجنونة هو وملك البرتغال سيباستيان. في الحقيقة ما كان في رأسي باسئلتي، شيء أخطر. كنت أريد أن أعرف أشياء كثيرة عن الناس وعن طوبوغرافية المدينة. كنت مؤمنا وقتها حد الموت *بدون خوان النمساوي*، وقوته وجبروته لكسر الأتراك الذين سرقوا البحر واحتلوا سواحله. نبهتني زريدة، في مرة من المرات، وأنا أحاور أحد المرتدين عن كيفية الخروج والدخول من الفحص، والحراس ومواقعهم في الداخل والخارج. وهل هناك أسبان يحتلون مناصب عليا في نظام الأغا حسن فينيزيانو؟ نبهتني إلى أن كل ما كنتُ أقوله ، كان يصل الخدم، ومنهم العساكر، الذين يوصلونه لضباطهم المباشرين، الذين يوصلونه بدورهم للقادة، الذين يوصلونه لرئيس الفحص ومستشار الأغا، لينتهي في حجر فينيزيانو. النهاية التجليس على الخازوق. وشرحت لي ما معنى الخوزقة.

«– تبدو أمامها محارق محاكم توركيمادا، مجرد لعبة لطيفة؟

– لم أفهم جيدا. قلت لها مندهشا.

– بسيطة. يوضع تحتك خازوق مثل الوتد، ثم تُجلس عليه، ويأتي من يضغط على كتفيك بكل ثقله ويكون عادة وزنه قنطارين حتى يدخل الخازوق في اللحظة الأولى، لتنزف في مكانك، لا تستطيع أن تقوم ولا أن تبقى جالسا، حتى الموت.»

ما كان يطمئنني هو أن الأغا لن يضحي هكذا بخمسمائة دوقة ذهبية.

ساعدتني زريدة كثيرا على وضع الأدوية والمراهم، على ذراعي الأيسر الذي كانت رائحته كل يوم تزداد تعفنا على الرغم من علاج مدينة مسينا السيئ. كانت المواد الكحولية، وقشور الليمون، ومراهم الصنوبر البري، تؤذيني ولكني كنت أتحملها بشجاعة لأنّ شفائي لن يتأتى إلا بها.

في ليلة من الليالي، طال فيها كل شيء، كنت متعبا، إذ سرحت كثيرا في المدينة بلا وجهة، فتجولت بين الناس والأسواق والفقراء والأغنياء من يهود وموريسكيين. عندما عدت، وجدت زريدة في حيرة كبيرة. لقد انتظرتني طويلا وانتابها خوف غريب، قرأته في عينيها. عندما رأتني شعرت بالدم يعود إلى وجهها. قلت لها مازحا: *خفتِ أن أهرب يا لالة زريدة؟* أجابت بجديتها المعهودة، على العكس من جنوني الذي أصبحت تعرف بعضه: *خفت عليك من قطاع الطرق والطماعين. لا أريد أن يقع لك أي مكروه، فأنت في حماية سيدي. أنت مدعو لتسهر معه.*

– *في حمايتك.*

أحنت رأسها قليلا، ولم تقل شيئا، ولكن ابتسامة هاربة أشرقت على ملامحها أشعرتني لأول مرة بأني كنت قريبا إلى قلبها، أو على الأقل لم أكن ضيفا عابرا. ربما تكون شمّت فيّ عطرا مشتركا.

– متعب، قلت لها، ولكني لا أستطيع أن أرفض لسيدي طلبا.

قالت وهي تغير الموضوع كليا:

– يبدو أن رودريغو لم يعد، ولهذا أنت قلق جدا. ربما وضعية العاصفة البحرية هي التي أخرته؟ الجو ليس جيدا. سمعت أنه بعث قبل أيام بإشارات من وهران، مما يدل على أنه في طريقه إلى هنا؟ سيأتي بالفدية وستخرجون جميعا من هنا، أنت وبقية أصدقائك. وستعودون إلى أرضكم.

– أعرفه جيدا ولهذا كنت يومها قلقا جدا. رودريغو متهور، ويفكر بعقلية عسكري لا أكثر. رهانه الوحيد هو القوة. أخشى أن يكون قد قام بحملة بحرية مجنونة لتحريرنا؟ فقد رأيت هذا الصباح، والليالي السابقة حسن فينيزيانو مكشرا ولم يكلمني إلا اليوم، بل لم يدعني إلى مجلسه الذي عودني عليه أسبوعيا. أتمنى أن تكون شكوكي مخطئة.

– لا أظن. لو كان هناك شيء سيء ما دعاك سيدي الأغا حسن لمقاسمته سهرة هذا المساء. بالنسبة لأخيك رودريغو، الحياة وحدها ستعلمه أكثر. أنت لا تستطيع أن تغير عقلية محارب بين يوم وليلة. الحرب مثل المرض، عندما يصاب المرء بها، يحتاج إلى زمن من الهدنة مع الذات لكي يستطيع أن يفكر بعقله.

– الإنسان لا يختار حربه يا زريدة، ولكنها تفرض عليه. كنت أحارب وراء قائد كبير اسمه دون خوان النمساوي[41]، كنت أظنه قادرا على تغيير كل الموازين، لكني أدركت، بعد انهياراتنا، أن الكثير من حروبنا لم تكن ضرورية؟ تغيرت أشياء كثيرة فيَّ عندما رأيت المدينة التي كنا نسميها عش القراصنة الذي يجب أن يُدمر، فاكتشفت أن حياة غير التي رسمها لنا القادة، والمحاربون القدامى. كلانا فقد شيئا ثمينا، أنا خسرت جزءا من جسدي في حرب ليبانت[42]، ذراعي، وأنت فقدتِ زوجا وحياة. فلا الذراع ينبت ذاتيا، ولا الوطن الأول يزرع من جديد فيكبر، ومع ذلك علينا أن نتعود على الفقدان والعيش.

– تعجبني حكمتك. صدف الحياة هي التي تربط أحيانا المصائر نهائيا. كلامك يأسرني حتى إني أتساءل أحيانا: ما الذي جاء بهذا الإنسان نحو الحروب والقتل والعمى؟ على أي أردت أن أعلمك حتى تحضر نفسك لمواجهة الآغا. فقد سمع بأن الأسبان الذين أطلق سراحهم للإتيان بالفدية، يعدون حملة ضده من مدينة وهران. لكن الله عاقبهم بقوة. فقد أبلغ من رياس البحر وحراس الميناء، أن الرياح العاصفة التي هبت على البحر في اليومين الأخيرين دمرتهم، وأرجعتهم إلى الوراء نحو وهران، والجزر الجعفرية بأميال وعقد عديدة. ولهذا رأيت على وجهه بعض علامات الفرح.

– قصدك سفن أخي رودريغو؟

– ليس رودريغو وجماعته فقط، ولكن مجموعة من السفن الإسبانية. لا تنس أن سيدي يريدك الليلة.

---

[41] Juan d'Autriche.

[42] Lepante.

– طبعا. أجهز حالي. أهذب لحيتي، وبعدها سأكون رهن إشارتك.

– تريد أن أنتظرك هنا لمرافقتك نحو سيدي، أم أخرج.

– ههههه. تعرفين الإجابة. خروجك يترك وحشة كبيرة في المكان.

أتذكر أنها يومها أغمضت عينيها ثم انزوت على أريكة القطيفة المطلة على الحديقة بخضرتها وامتداداتها. اتكأتْ على ظهرها قليلا وظلت تتأمل الحديقة والأشجار العالية. لم تلتفت زريدة نحوي، ولكنني رأيت إشراقا يملأ المكان كله، لم أره من قبل. كان عطرها يملأ قلبي. لم يكن هناك شخص ربطني بتلك الأرض مثل زُهْرِيتا أو زريدة. يومها أدركت، أن سرفانتس الذي تغنى بجنون الحرية اكتشف فجأة أن هناك جنونا آخر آسرا هو الحب. دفع بالحرية إلى المرتبة الثانية. لو كنتُ أسيرا عاديا، وأنا لا أعرف من هو العادي، لكنت أخذتها من يدها وركضتُ بها نحو مسجد الإمام الكبير، ولطلبت منه أن يجمع بيننا ويقرأ على رأسينا بعضا من القرآن، ثم لذهبنا نحو كنيسة القصبة وطلبنا من قسها الكبير أن يبارك زواجنا، ثم لصعدنا نحو جامع اليهود وطلبنا من حاخامها أن يضع يده على رأسينا ويقرأ علينا شيئا من العهد القديم، ولتعتبرنا الديانات الثلاث في حمايتها المطلقة ويتركوننا نعيش كما نشتهي. لو فقط لم أكن أنا. لو فقط زريدة كانت هي. مشكلتي أني كنتُ أنا. بينما ظلّت زريدة هي. ولم تكن كتاباتي كلها، إلا محاولة محمومة للشفاء من هذا المرض.

شيء واحد لم أخطئ فيه، وظلّ مترسّخا في دماغي، لقد أزاحت زريدة أسبقية الحرية على كل شيء، ووضعت مكانها الحب، ولم تنتظر رأيي.

كانتْ أكبر بكثير مما تصوّرت في البداية.

4- رَجْعٌ مُزْدَوَجٌ، لِصَوْتٍ وَاحِدٍ

- ماذا لو قبلت أن تهرب معك يا سيدي ماذا كان سيحدث؟ وكيف كنت ستواجه محاكم

التفتيش المقدس؟

- محاكم التفتيش المقدس لا تُواجه، ولكن يتعامل معها الإنسان بذكاء وحكمة وإلا ستنتحر ببساطة. كانت لي مهام كثيرة أفضل بكثير من انتحاري. في كل صدفة قدر عظيم. صدفة زريدة أنها حمتني من مخاطر الحرية. أصبحت أحافظ على نفسي من أجلها، ومن أجلي حتما. ورفضها السير معي حفظني من محارق التفتيش المقدس. لم أر ذلك كما يجب في وقته، ولكني وجدت حلولي في الكتابة. كان عليّ أن أخلق عالما فوق عقل المحاكم الغبية والقاتلة.

- لم أفهم يا سيدي. يبدو لي الأمر ملتبسا بعض الشيء. أنت جعلت منها مسيحية وأنتَ

تعرف أنها هي من عائلة موريسكية عريقة، ووالدها لم يكن غبيا كان جزءا من السياسة التركية في علاقتها بشبه جزيرة إيبيريا، تمر عبره ومن خلاله الكثير من الاتفاقيات. لهذا استغربت كثيرا تصويرك له بهذه الطريقة وبالاسم.

- أنت كاتب وتعرف القصدية العميقة. نحن لا نصنع التماثيل يا عزيزي ولكننا نصنع

حيوات نستعيرها من كائنات وجدت أو يحتمل وجودها. لهذا الأسماء ليست أكثر من استعارات تتغير معانيها الداخلية. أدرك أن الحاج مراد أو حاجي موراتو رجل كبير، ونجاتي من غضب وسعير حسن فينيزيانو كان بفضله، بل هو من أخر رحيل السفينة في آخر مرة، حتى التحق بها الإخوة التثليثيين الذين دفعوا الفدية واستردوني.

- لهذا أقول إن زريدة كانت تحبك. ولكنك تركتها وعدت إلى أرضك وتزوجت امرأة

مسيحية.

- نعم تزوجت بعد عودتي. ليس الزواج هو المشكلة ولكن لأن زريدة اختارت أرضها

وأهلها. في الليلة الأخيرة زرتها، كانت برفقة والدها. كانت حزينة. والدها تركنا في الحديقة الواسعة ودخل ليرتاح. أما هي فظلت ممزقة إلى آخر لحظة. نامت على صدري طويلا ونحن جالسان على كرسي الحديقة. حفظت منديلها إلى آخر العمر. لأول مرة أدرك أن للدموع رائحة هي أقرب إلى الفحم المحروق منها إلى سبخات الملح. لكنها قالت: إذا بقيت في القسطنطينية سأتبعك وسأركض وراءك. هناك ستكون حرّا. والدي سيعمل كل جهده لتحريرك. ولكنك إذا عدت على أرضك، لن استطيع أن أفعل الشيء الكثير. بيننا دم وحروب قاسية. قلت لها بغباء: ألم يتمسّح أجدادك بالقوة، بعد انتصار الملوك الكاثوليك، بغرض البقاء في أرضهم؟ تعالي معي. قالت: من يحميني هناك؟ فكرت طويلا لأني لم أجد ما أجيب به. الزمن في النهاية أعطاها الحق. الملك فيليب2 اتخذ قرارا مشئوما أضر بإسبانيا أكثر مما أفادها لأنه استسلم لإرادة القتلة من رجال الدين. لا أدري كيف فهمتهما بسرعة عندما قالت لي: ابق أنت هنا، واعدل عن فكرة العودة مثلما فعل العديد من الرهائن. ربما كنت جبانا، لكني كنت مشبعا بأرض وبحر وعطر وتربة وكان من الصعب علي نسيان ذلك كله. أحيانا لا أفهم هذا التناقض الغريب، على الرغم من جبروته، فحسن فينيزيانو لا يعتدي أبدا على زريدة، ولم يأمرها بالانصياع له وهي جميلة ومدهشة. كدت أسأله في الليلة التي سهرت فيها معه، عن سر ذلك ولكني خفت عليها. خفت أن أوجه انتباهه نحوها؟ كنت أحلم أن أقول هذا كله في كتاب يسع الأهواء البشرية، وأطماعها الخفية وطبائعها التي لا تقاوم، وخوفها من مبهم ملتصق بها، تسحبه وراءها أنّى ذهبت. أن أقولها بما يكفل الوصول إلى العمق الخفي فيها عن طريق التهكم والسخرية. أقوى سلاحين وأذكاهما، أمام غباوة العصر والبشر. ليس الأمر سهلا، ربما احتجت إلى زمن آخر أكثر تسامحا مع هبلي وجنوني، وعمرا غير هذا، وربما احتجت أيضا إلى هواء آخر لكي أنجز هذه الحماقة، أتنفسه بحرية كما تفعل طيور هذا الفحص الجميل، كل صباح؟ ما عشته في تلك المدينة كان شيئا غريبا أنا نفسي لم أفهمه.

حياة قاسية وجميلة في الآن نفسه. ربما تكون جاذبية الأقدار وقوتها هي التي دفعت بالسفينة *المركيزة* إلى هذه المسارات العنيدة التي عليَّ أن أتخطاها كمحنة، لأصل إلى ما أريده جوهريا. أرغب أحيانا في أن أغادر هذا المكان بأسرع ما يمكن فقط لأنسى للحظة أني كنت سجينا وأن حريتي قد نهبت، وبعدها أعود بملء إرادتي لأعيش مع زُهْرِيتَا. لكني كنت أعرف سلفا أني لو ذهبت لن أعود. لأني لم أكن سيد نفسي.

مسح على وجهه مرة أخرى. رأيت حبات العرق ترتسم على وجهه وجبهته متلألئة بقوة. مسحة تشبه ظل الحزن عبرته بسرعة قبل أن يتغير كل شيء. انفتح الستار فجأة. خرجت زريدة وهي تحمل إناء صغيرا به ماء سخن أو دافئ لأني رأيت بخارا خفيفا يتصاعد منه. مسحتْ وجهه مثلما تفعل مع طفل. كان يستلذ بذلك ولم يبد اية مقاومة. ثم نشفت خديه وجبهته. اعتذرت، ثم خرجت من الجهة الثانية بعد أن أسدلت الستار الذي دخلت من ورائه. وجدت اللحظة مناسبة لأقول له ما كان ينتابني عن سيدي أحمد بن أنجلي الذي سحرني في الكتابة وأربكني في الآن نفسه وأنا أكتب البيت الأندلسي الذي كان يسكنني فيه سيدي أحمد، بل أخرجته من ظلال الإيهام وأدخلته في إيقاع آخر هو إيقاع الكتابة الذاتية. لكنه سبقني إلى الحديث عن شيء آخر كان يملأ أعماقه.

– قلت لك حتى ونحن بين أيدي الله، لا ننفصل عن قيامتنا وحياتنا. شيء ما فينا يتبعنا أبدا. البحر لا يجيش فقط بالحروب الهالكة يا سينو، ولكن بالحماقات أيضا، التي يركضون وراءها حتى الموت، قبل أن يتفطنوا إلى خوائها متأخرين. إن الثقة الزائدة واليقين الصارم، مقتلان مدمران. بسبب القوة، فقد يصيبنا العمى أحيانا، فلا نرى في غنى الدنيا بكاملها، إلا ظلالنا الصغيرة. وجدتني ذات يوم من سنة 1570، ألتحق، أنا ورودريغو، بالعسكرية. سنة فقط بعد حصولنا على وثيقة الاعتراف بنقاء دمنا التي كان علينا استخراجها لنقبل في العسكرية. كانت تحوم على أصولنا شكوك غريبة. وكان علينا أن نثبت بأنه لا يوجد في دمنا شيء من الموريسكيين والمارانيين؟ تخيل؟ لنتمكن من لبس اللباس العسكري الرسمي المرقط وننضم إلى حملة دييكو. كيف يمكنك أن تتحكم في دمك؟ بعد ثمانية قرون من الزمن أو أكثر، من يستطيع أن يدعي أن دمه هو دمه؟ ماذا بقي من دم المسلمين صافيا بعد أن اختلطوا بنا؟ هذه

هي حالة الحروب، لا نعرف دمارها إلا عندما تنتهي، وتكون قد جرت وراءها جيشا من الناس نحو النهاية والإبادة لا لشيء سوى لأن بشرا أخطأوا في التقييم أو انغلقوا على أنفسهم، وأدركوا بعد زمن أن بؤسهم الدائم كان أكبر. أية مشقة في هذه الرحلة من أجل انطفاء كلي في النهاية؟ ؟ انطلقنا في 20 يوليو 1571 من إسبانيا لنصل إلى نابولي في 8 أوت من نفس السنة. كان دون خوان النمساوي على رأس أرمادة كبيرة مكونة من 208 سفينة حربية، و57 فرقاطة وأكثر من 300 زورقا حربيا و26000 محارب. تخيل؟ وكان على دون خوان النمساوي أن يجمع بين كل هذه الفرق البحرية المختلفة، الإيطالية والإسبانية، ويشكل قوة موحدة لخوض الحرب المقدسة الكبرى ضد الأتراك الذين كانوا قد احتلوا البحر نهائيا وأصبحوا سادته. كنت على متن *المركيزة*[43] وهي سفينة حربية سريعة جدا، وظيفتها اعتراض سفن الأعداء. طولها أكثر من أربعين مترا، بينما عرضها لا يتجاوز الخمسة أمتار. يمكنها أن تحمل أكثر من 200 بحار محارب، و30 جدافا. كنت عسكريا متخصصا في المنجنيق المحمول[44]. في 6 أكتوبر استطاع دون خوان النمساوي أن يدخل إلى خليج كورنثيا[45]، وبدأ يتوغل في مضيق ميناء ليپانت. بدأت المشاهد الطبيعية والحربية التي كنت قد صادفتها في قراءاتي للملاحم القديمة تتبدى أمامي. كنت أكتب واقرأ المشاهد بيدي وعيني وبكل حواسي. لاحظت بنوع من الجزع، القوات الضخمة المرابطة والمتخفية في الميناء نفسه، التي كان يقودها على باشا. في صباح يوم الأحد 7 أكتوبر التقت القوتان في صدام عنيف وخرافي. كانتا تتقدمان نحو بعضهما البعض بهدوء تحت ضجيج الطبول ولمعان الأسلحة وفوضى البحر. القذائف الأولى للمدفعية لم تكن إلا إيذانا لبدء الحرب الكبرى. حاولت القوات العثمانية أن تأخذ سفننا من الوراء، على حين غرة من الجهة اليسرى، لدفع بقية السفن نحو الانحسار والدخول في المضيق حيث يسهل حصارها وكسرها. تم الاختراق الأول على الرغم من المقاومة التي أظهرناها وكانت كبيرة، لكنها لم تكن كافية أمام حنكة ومهارة علي باشا، وبحارة العلج، هذا الأخير الذي لم تكن صورته طيبة بيننا. هجماتهم المتتالية أحدثت

[43] La Marquesa.
[44] Arquebusier.
[45] Le Golfe de Corinth.

اختراقات كبيرة في قوات دون خوان وشتت جزءا كبيرا منها. تلقى الطرف الأيسر من القوات الإسبانية الإيطالية ضربات موجعة أيضا. كانت *المركيزة* من بينها. كنت محموما وخائفا، ومع ذلك كان علي أن لا استسلم. أنا لم أقل أبدا إني أفضل أن أموت كمحارب في سبيل الله وملكه، ولكني قلت: أنا في حرب قاسية ومصيرية، ولا مكان للمرض فيها. البحارة الناجون من المعارك يحكون بطولات خرافية، غير حقيقية لكنهم، كانوا في حاجة إليها. كانت سفينتنا في الواجهة، إذ استفادت كثيرا من دفع الرياح. بعد التراجع المؤقت بسبب التشتت، أعدنا بناء أنفسنا وهاجمنا من جديد. هذه المرة التصقت السفن، وتحولت المعركة إلى معركة جسدية كبيرة تمزق فيها الطرفان. مجزرة حقيقية، وضعتْ وجها لوجه، أكثر من ستين ألف محارب. معركة دموية ومرعبة. البحر والنار أصبحا شيئا واحدا. ولم تنج السفينة التي كان بها دون خوان النمساوي إلا بأعجوبة. وخسرت سفينة المركيزة أكثر من أربعين بحارا محاربا بمن فيهم قائدها الأساسي الذي أدار المعارك، وقرابة المائتي جريح. وأنا على حافة السفينة، تلقيت ضربة الصدفة كما نسميها، التي إذا لم تقتل، فهي تشوه. الأولى كانت للصدر والثالثة خربت ذراعي الأيسر. إن موت علي باشا في صلب المعركة، وانسحاب سفن العلج من الميدان، جعل المعركة تخف حدتها لتتوقف عند انتصار ملتبس لدون خوان النمساوي، بعد أن خلف وراءه أكثر من 12000 قتيل. تخيل، على الرغم من هذه المجازر، استقبل دون خوان النمساوي بحرارة، في 31 أكتوبر، عندما عاد من حروبه، في ميناء مسينا. كان الجميع في حاجة إلى بطل، وجدوه في شخص دون خوان النمساوي. أما أنا، فقد سُحبتُ إلى المستشفى مع بقية الجرحى، وأنا لا أعرف شيئا عما كان ينتظرني. لم يكن الجرح قاتلا ولكنه كان كافيا لأن يقعدني في الفراش ويتسبب لي في شلل يدي اليسرى نهائيا. عندما غادرت المستشفى، كنت برتبة الجندي المحظوظ[46] وبمرتب شهري بثلاث دوقات. وأصبحت تحت أوامر قائد آخر هو دون مانويل بونسي دو ليون[47] الذي دخلت معه في التحضير لحملة بحرية جديدة. موت پي الخامس[48]، وهو في السبعين من عمره وقوة تأثيره، ترك فينا

[46] Soldado aventajado.
[47] Don Manuel Puncé de Léon.
[48] Pie V.

فراغا كبيرا. حل محله غريغوار الثالث عشر[49] الذي لم يكن يملك نفس المؤهلات الدينية المؤثرة. تردد الملك فيليب الثاني الذي بدأ يدخله الخوف والشك في قوته، من الهجمات البحرية التي كان ينظمها الأتراك، غيَّر كل الموازين. مما اضطرني إلى مغادرة مسينا والتحقت من جديد بجيوش دون خوان النمساوي. كنت تحت قيادة ماركو أنطونيو كولونا[50]. كان هدف دون خوان النمساوي الدخول إلى خليج نفاران[51] وغلق كل المعابر البحرية والأرضية على الأتراك. لكن العواصف القاسية هذه المرة أيضا، أفسدت الحملة وأخرجتها عن سياقها، فعاد دون خوان إلى مسينا من جديد. من نتائج هذه الخيبة التي كسرت أشياء كثيرة منها الثقة في قوته، أن البندقية وقعت اتفاقا منفردا للسلام مع السلطان، تخلت بموجبه عن قبرص لصالحه، وهو ما اعتبره بعض المؤرخين الأسبان خيانة. أمر مثل هذا أرضى إلى حد بعيد فيليب الثاني الذي مل من مغامرات سفنه في أعماق البحار. ولكن الهجوم الجديد غير المنتظر على سواحل إسبانيا، دفع به إلى تغيير رأيه والتفكير في ضرب القراصنة الأتراك في عشهم: الجزائر، تماما مثلما فعل سابقا شارل كينت[52] الذي كادت سفنه هو أيضا أن تغرق على واجهة بحر الجزائر. كان الوضع شديد الصعوبة والقسوة. ونظرا لصعوبة هذا البحر، فقد اختار دون خوان، الذي كان في حاجة إلى انتصار يعيد له الروح، أن يدخل إلى تونس متخفّيا وراء فكرة إعادة الحاكم مولاي احميدا، الذي كان العلج علي قد عزله بالقوة من منصبه، قبل ثلاث سنوات، والاحتفاظ بلاغوليت[53] التي تم الاستيلاء عليها منذ 1535. تم تجنيد أكثر من 20000 مقاتل، و170 سفينة حربية. في 8 أكتوبر 1573 كانت قوات دون خوان النمساوي تحتل تونس بعد هرب سكانها، وتم تعيين مولاي احميدا حاكما، سقطت بعدها بنزرت ومدن أخرى. الصدفة شاءت هذه المرة أن أنجو أيضا، بوقت قليل، من النهاية الدموية الانتقامية على تونس. غادرت نحو سردينيا مع مجموعة من البحارة العساكر بقيادة: دون لوبي دو فيغويروا[54] قبل أن ينتهي بي المطاف في نابولي. في 11 جويلية بدأ أسطول مكون

[49] Grégoire XIII.
[50] Marco Antonio Colonna.
[51] Le Golfe de Navarin.
[52] Charles Quint.
[53] La Goulette.
[54] Don Lope de Figueroa.

من 240 سفينة حربية و40000 عسكري أولى مناوراته عند بوابات تونس بقيادة علي العلج وسنان باشا. وكانت هذه آخر حرب قوية يخوضها الباب العالي في المتوسط. في 13 سبتمبر كانت تونس قد استسلمت بكل قلاعها للأتراك. كان دون خوان النمساوي وراء هذه الكارثة التي عصفت بكل يقينياته. انكسر نهائيا. في عمقه، كان أقرب إلى نظرة الملك فيليب الثاني الذي مل من الحروب البحرية غير المجدية. وبدأت أشعر بانهيار ما كنت أظنه حائط المسيحيين الأخير. كثرة الحروب تولد الملل حتى بالنسبة للمنتصر، لأن الانتصار والهزيمة كما ترى، كلها حالات مؤقتة. قضيت فترة طويلة بين مرافئ نابولي وباليرمو، أتقنت فيها اللغة الإيطالية التي قربتني من عبقرية كتابها العظام. أنا رجل مولع بالقراءة. ولو منح لي وقت كاف في الجزائر كنت تعلمت العربية التي بدأت الكثير من كلماتها تخترق لساني. كان عليّ في لحظات اليأس، أن أتعلم كيف أحب أرضا لا أنا كبرت فيها ولا أهلي ولا حتى أجدادي. قبورنا هناك، وحيث تنبت القبور، ينام شيء منا. علي أن أتحمل هذه الغربة، وأنشئ مقبرتي الجديدة.

صمت قليلا. شعرت بعلامات غريبة من السعادة ترتسم على وجهه وكأنه أخرج ثقلا كان ينهكه من الداخل. لأول مرة منذ زمن طويل، طويل جدا، أشعر وأنا أطفئ القناديل الزيتية، بسعادة غامرة. لم أكن أمام دون كيشوت منكسر أو في عمق جنون، ولكن أمام رجل عظيم. انتصر على حيرته، التي ملأت داخله وسجنته زمنا طويلا. منه تعلمت أن أسمع لا أن أحاكم؟ أن أتريث في شيء أسمعه من الألسن ولا أراه.

– كلما سمعتك تحكي يا سيدي أو قرأتك بحب كبير، تأكد لي أنك تتكلم عني وعمن أحببت أيضا. العمى يقهر كل ذرة تبقى حية في البشر. نقضي العمر كله في تفاديه، لكنه في كل هزيمة أو انتصار يشرئب برقبته الطويلة ليؤكد لنا أنه ما يزال هنا، وأنه علينا أن نبذل جهدا آخر لتفادي حرائقه. لكن كيف رمتك الأقدار على أرض صنعت جزءا مهما فيك، وصنعتَ أنت بدورك جزءا مهما من دواخلنا. أنا لا أراك خارجي يا سيدي. فيّ بعمق يصعب عليك تخيله.

– لم أفهم جيدا ربما لأن ذهني انغلق عليّ نهائيا.

– تأثيرك يتجاوز الإرادة الفردية. يوم قرأت دون كيخوتي تحولت عميقا كما سبق أن ذكرت لم أعد أنا. أصبح ملمسك جزءا من كل ما يصدر عني. عندما كتبت البيت الأندلسي شيء منك كان يملأني. رأيت سيدي أحمد بن أنجلي ورافقته في كل رحلته على الرغم من شبه يقيني بعدم وجوده أبدا. بل رأيته يشبهك كثيرا وكأنه أنت. لم أجده في مؤلف تاريخي مما استطعت الاطلاع عليه. رجعت إلى كتب السير وأنت تعرف لا محالة أن العرب دونوا الشاردة والواردة في سيرهم، في ذلك الوقت.

– التماهي بيننا وبين ما نعرف أو نخلق، هو الدرجة الأولى في سلم الكتابة.

– مع أنك تقول إنك التقيته في طليطلة وأخذت منه المخطوطة. لم أشعر بشخص أقرب إلى قلبك مثله. مظلتك كانت فوقي في كتابات كثيرة لي. سيدي أحمد بن أنجلي، رأيته بطريقتي في *البيت الأندلسي*. بدا مجرد وجه آخر لبسته كما يفعل رجال المسرح. يعني، كان قناعك المستعار. لقد انتقدتَ به رجال الدين بلا خوف ظاهر على الأقل. ومحاكم التفتيش المقدس كانت تتربص بك، وكان عليك أن تجد طريقا ينجيك منهم. كأن ترد مثلا عندما تتهمك بالهرطقة، بأنه لا علاقة لك بنقد المؤسسة، ولكن الموريسكي سيد أحمد بن أنجلي هو السبب. وطبيعي أن ينتقد هذا الموريسكي هذه المؤسسة لأنها هي من قاتله وشرده.

صمت قليلا وهو يحاول أن يخفي ابتسامة كانت تهرب من بين شفتيه. حك على رأسه كعادته، بيده اليمنى. ثم التفت نحوي، فرأيت إشراقا يسكن ملامحه.

– ما قلتَه أنت في البيت الأندلسي حقيقة ولكنها ليست حقيقة إلا النسبة لك وبمن يؤمنون بنصك. مشكلة الكتابة هي أن حقائقها جزئية والتاريخ وحده هو من يعطيها الإطلاقية. سيدي أحمد ين أنجلي حقيقة غير حقيقية. بمعنى أنه موجود في وجوه الناس الذين كتب لي أن أتعرف عليهم. واقترب منهم من الموريسكيين. الذين سُرقَ منهم كل شي حتى الأرض التي أبدعوها. لم يكونوا ملائكة كلهم، لكنهم لم يكونوا أبدا شياطين. لهذا عندما أحاطت بي محاكم التفتيش المقدس ذهبت نحو ابتداع هذه الشخصية التي قالت كل ما اشتهيت قوله وأرجعت لها نصا كتبته برمته. نعم. في البيت الأندلسي حولتها إلى مجرد لحقيقتي الخفية، فهي لم تكن تكن قناعا للحقيقة ولكنها كانت الحقيقة عينها.

– عندما كتبت *البيت الأندلسي* كانت حاضرة فيّ كقناع لا دور له إلا حماية ما كنت تريد توصيله وحمايتك. تخيلته مترجما جمعت بينك وبينه صدف الحياة القلقة، وبنيت الرواية على ظلاله. وهو من سيروي حياتك في الجزائر لأنه كان الأقرب إليك وظل حاملا لميراثك الكبير. أنتبه اليوم، وبعد كل الزمن الذي مر على العمر، أن تأثيراتك لم تطلني فقط، ولكنها أعادت تشكيلي ورمتني في عمق السخرية، سخريتك، عندما تصل الأحزان والخيبات إلى سقفها الأكبر. سيدي أحمد بن أنجلي سيتحول في كتابي، إلى جد أندلسي نقل الفرح والخيبة لنا. بل صنعتُ له حياة خاصة لم تقلها أنت. أنت كان لك كقناع للحماية من محاكم التفتيش المقدس، بالنسبة لي، كان حامل القصة التي عاشها من طفولته في الأندلس، عبورا بحرب البشرات التي خسرها بمرارة، وانتهاء بالتقائه بك في قصر حسن فينزيانو. في البداية تساءلت كما الجميع هل هذا الرجل حقيقة أم مجرد تخييل، بعدها لم أعد مهتما بالحقيقة التاريخية لأنها لم تعد مجدية مطلقا. في الكتابة كل شيء حقيقة عندما تعبره الكتابة والقراءة لاحقا. لأنك لو تساءلت عن حقيقته من عدمها ستخسر كل شيء. تخسر النص وصاحب النص. ثم إن حياتك كانت من الغنى ما يجعلها مثار تساؤلات كثيرة لا تصنع إجاباتها إلا الكتابة يا سيدي.

– لولا سيدي أحمد بن انجلي الذي رواني لانتهت حياتي في الجزائر ولمت هناك ولما كنت ما أصبحته لاحقا. أنا مؤمن بالأقدار حتى حينما تكون قاسية وضاغطة. عندما فقدت يدي اليسرى التي تحولت هي أيضا مادة للكتابة عند الغير، فقدت يقيني في كل شيء، حتى في وجودي؟ تحصلت من دون خوان على رسالة تؤكد على خدماتي لصالح ديني وملكي، وتشيد بجهدي الحربي. كنت بحاجة ماسة إليها لكي لا يذهب دمي وعرقي في الريح، وحتى لا أتهم بالتقصير. في هذه الدنيا عليك أن تحتاط لكل شيء. استقللت في 6 سبتمبر من ميناء نابولي، سفينة إلصول[55] التي كان يقودها أحد أصدقائي كاسبار بيدرو دي فيّينا[56] وكان يفترض أن ترسو في برشلونة، هي وثلاث سفن أخرى التي كانت تشكل أسطولا صغيرا بقيادة دون سانشو دو لييفا[57]

[55] El Sol.
[56] Gaspar Pedro de Villena.
[57] Don Sancho de Lieva.

شاءت لها أقدار البحر أن تنفصل عن المجموعة. سحبتها الأمواج نحو مكان تمنيت وقتها أن أدخله فاتحا وليس رهينة. في البداية، تحركت السفن وعلى متنها أنا وأخي رودريغو وبعض الأعيان والشخصيات المرموقة التي رأيت بعضها عندما زاروا الأغا حسن فينيزيانو وتنكروا لي. لم أكن سعيدا، ولكني كنت مقتنعا بضرورة الخروج من نابولي. كان علينا تحمل تحولات البحر ولسعات الحشرات والجرذان ومزاج البحارة المتحول باستمرار. في يوم 18 سبتمبر، بينما كانت السفن تسير محاذية للسواحل الإيطالية وبروفونس[58] كما جرت العادة في كل خريف، هبت عاصفة هوجاء فرقت كل السفن عن بعضها البعض. استطاعت السفن الثلاثة المصاحبة لنا أن تلتئم وتصل إلى الميناء، هذا ما وصلني لاحقا، بينما تاهت إلصول في عرض البحر. انحرفت باتجاه كورسيكا، في خليج الأسد[59] ولم ينتبه قائدها إلى مساراته إلا عندما نبهته أنا ورودريغو إلى السفن التركية التي كانت تقترب منا بقوة. وفي 26 سبتمبر كان رياس البحر يحيطون بنا من كل الجهات قبل أن ينقضوا على السفينة نهائيا في عرض السواحل الكتالينية. قاومنا في حرب كنا نعرف منذ البداية أننا سنموت فيها مجانا وهي خاسرة. كنا نسمع فقط باسمه ولكني يومها رأيته، ورأيت قسوته، اليوناني المرتد، دالي مامي المسمى إلكوخو. عندما تلتصق السفن المتحاربة، تموت الرحمة في قلوب الناس. مات الكثيرون من البحارة والضيوف ومن ضمنهم قبطان السفينة نفسه واضطررنا إلى الاستسلام. تم اقتياد الجرحى مع الأحياء باتجاه ميناء الجزائر كرهائن، مقيدين ومكبلين. عندما رأيت المدينة من عمق البحر لأول مرة، بكيت في أعماقي، ليس خوفا لأني كنت أعتبر نفسي ميتا أو مباعا لمن يدفع أكثر، ولكني اشتهيت لحظتها أن أفتح عيني على بلنسيا، أو ألميريا، أو على أية مدينة بحرية أخرى، مثل بقية رفقاء السفن الثلاثة الأخرى. بعد ثلاثة أيام من مقاومة الأمواج الخريفية العاتية، وصلت السفن إلى ميناء الجزائر المكتظ. أُدخِلنا إلى سوق العبيد قبل أن يشترينا حسن فينيزيانو من إلكوخُّو، لإعادة بيعنا إلى أهالينا. مصائرنا كانت معلقة على حافة الخوف والصدفة. هذه الحياة الحربية كانت حياتي ولم تكن حياة سيدي أحمد بن أنجلي على الرغم من أنه هو من رواها في النهاية ودون كيخوتي وهو من

[58] Provence.
[59] Le Golfe du Lion.

وضعها بين أيدي القراء. كان مبرري وصديقي في الجزائر ولكن في مدن عالمية أخرى. هو بوصلتي. المظلوم يظهر الكمّ من الظلم الذي يخزنه الإنسان ضد غيره من الناس الآخرين.

– أتساءل إذا لم يكن سيدي أحمد بن أنجلي أكثر من حقيقة؟ جوهر الإنسان الذي خسر كل شيء، لغته وأرضه وثقافته ويقينه في تاريخه وفي كل ما يحيط به؟ لقد اتكأت عليه يا سيدي لأقول تاريخا مسروقا وأقول يأسا لا يريد أن ينعت نفسه كذلك. أن يقول عينا رأت ماضيا ترى حاضرا من خلال السلالات التي خرجت منه. لقد تفشيت فينا فيّ يا سيدي حتى أصبح من الصعب عليّ مقاومتك كما ذكرت لك. لقد وسم حضورك الحفي والمعلن البيت الأندلسي كله من خلال سيدي أحمد، وهو من جعلني أستمر في العيش ببعض الأمل والكثير من السخرية، وهو من جعل محاكم التفتيش المقدس تعمى عليك وأنت تعبر عتبات مدينة لا تعرفها، ولم تكن تعرفها إلا كأسير.

– في الحياة طبعا؟ لكن عندما تدخل إلى مدينة تخاف منها، لا تعرفها جيدا، أو تسمع عنها ما يرعبك في نومك وفي يقظتك، فأنت تفكر في أكثر من ذلك؟ أن تمنع من حق الحياة؟ وأنا أدخل إلى وهران، على ظهر سفينة مثقلة بالصراخ والخشب، والفئران، ووجوه الناس الحائرين، كان قلبي مليئا بالخوف من إخوة الدم. كنت أعرف الكثير من القصص التي كانت تروى لنا من وراء البحر إبان الهجرة الأولى، بعد انكسار غرناطة، أن الكثير من الموريسكيين قتلوا فقط لأنه كان يبدو عليهم بعض الغني، أو كانوا يحملون قليلا من الذهب الذي سحبوه وراءهم ليعيشوا به في أرض لم يكونوا يعرفون منها إلا اسمها. عندما دخلت السفينة إلى ميناء الجزائر عن طريق الأميرالية، فوجئت بالمدينة التي تتسلق جبلا في مواجهة الشمس ببياضها الناصع. كنت أنتظر أن أرى *عشا للقراصنة*. اكتشفت مدينة كبيرة يسكنها أكثر من مائة وخمسين ألف ساكنا يشتغلون في مختلف الصناعات والمهن. أكثر كثافة من باليرمو، وليست أقل جمالا من نابولي. بدأت أكتشف بنفسي ما لم أكن أعرفه من قبل. ميناء نشيط ومليء بالحركة والحياة. ومنارة كبيرة للسفن ومخازن واسعة على حواف الميناء تحتوي على كل حاجيات المدينة وتجارتها. حركة لا تنتهي بين مختلف الأسواق،

وشوارع تختبئ بين الأشجار. تتخفى فيها المساجد والحمامات والقصور والسواقي بمائها الصافي. خارج أسوار المدينة تنتشر أيضا القصور والغابات الكثيرة التي تشرف على البحر. كل ما يوحي بحياة جميلة وحيوية اختزلتها نظرات الحروب الدينية وسرنا في ركابها. كثيرا ما كنت أقف في ميناء الجزائر على الأيدي القوية التي كانت تصنع سفنا سرعتها فائقة وقوتها كبيرة في مقاومة البحر. رأيت أيضا ما جرحني. قرابة المائة سفينة مليئة بالرهائن المسيحيين من إسبانيا وإيطاليا، كانت تقاد إلى الميناء يوميا. الرياس والبحارة يأتون من أعالي البحار محملين بالرهائن وكان ذلك فرصة للاحتفالات والشرب والزهو. لم أكن في حاجة لأن أدخل في أدمغة الرهائن، فقد كنت أحس بما كانوا يشعرون به من غبن. عايشت بأم عيني كيف يخسر الإنسان شرطه ويتحول في لحظة من سلطان إلى لا شيء. اقتادونا إلى سوق العبيد ورأينا كيف كان يتهافت المشترون علينا وعلى غيرنا ليقايضونا بمال أوفر. مرت برأسي وقتها الكثير من الأفكار الجهنمية. الهرب. قلت: لا شيء ينقذني إلا الهرب. كان المشترون يتفرسوننا كالحيوانات، ويلمسون أجسادنا المصفدة بالقيود إذا كانت قوية. من هذه الناحية لم أكن أصلح للشيء الكثير. بعدها تم اقتيادنا مباشرة إلى السجون التركية حيث يتم حجز كل الرهائن المسيحيين البسطاء أو الشخصيات الرسمية والذين لا حامي لهم إلا التفاوض لدفع الفدية التي كانت رهانهم للحرية. الكثير من المتاجرين في الرهائن، كانوا يقودون « سلعتهم » إلى المخابئ والأنفاق، قبل بيعهم. وتم تصنيفنا منذ البداية ضمن الشخصيات المهمة التي تجب المحافظة عليها ويطلب لإطلاق سراحها فدية كبيرة. لقد وضعوا في معصمي قيدا كدليل على الشراء أكثر من كونه قيدا للعبودية. كنت أقضي يومي كله في السجن مع نخبة من الناس المرشحين للفدية. وعلى الرغم من الجوع الذي كان يعذبنا أحيانا، لم يكن شيء يؤذيني مثل أن أكون شاهدا على ممارسات معلمي دالي مامي العنيفة التي كان يمارسها ضد المسيحيين. كل يوم كان يُشنق واحد لتخويفنا، وتُقطع أذنا آخر بسبب، أو حتى بلا سبب. حتى النظام عرفته بدقة، إما في الحبس أو في نقاشاتي مع الأغا. حول الباشا وهو مفوض السلطان الذي يشرف على الديوان، تعرفت على نظام الأوجاق، ما نسميه نحن بالمليشيات الإنكشارية، وعلى طائفة الرياس الذين نطلق عليهم اسم القراصنة، أي القوتين

العظيمتين اللتين تتقاتلان على السلطان في الجزائر. تبدو التقسيمات الإدارية واضحة بأنماطها المختلفة: في أعلى الهرم، يوجد الأتراك الذين يشكلون الإطار الإداري والعسكري للجزائر العاصمة، يساعدهم على تأدية هذه المهام، القراصنة القادمون من مختلف الأماكن من المتوسط. وفي قاعدة الهرم كتلة الرهائن والأسرى الذين يقايضون بهم بواسطة الفديات ويشكلون، بحسب ما عرفت من الأغا نفسه، قرابة الثلاثين ألف بدون حساب العبيد السود.

– كأننا رجع مزدوج لصوت واحد. كل ما سمعته منك اليوم، يضعني أمام تاريخي وأهلي وهم يجرون من جبال البشرات، ثم في كنيسة الموت في غرناطة، ثم على حواف المارية يتمزقون بيأس. تخيل للحظة شعبا يجر عن بكرة أبيه ويوضع على حواف الموانئ المتوسطية، لا ذنب له إلا أنه ولد في تلك الأرض؟ حتى أني في لحظة من اللحظات شتمت كل الأديان. كل الأديان بلا استثناء. بها تُخاض الحروب، وتُراق دماء الأبرياء. وباسمها أيضا توقف وكأن في ذلك سر لعبة قاتلة، يديرها كائن يشبه الشيطان في كل شيء، أكثر مما يشبه الله. نبدو يا سيدي في هذا الفراغ كذرتين ضائعتين في دنيا واسعة مليئة بالغبار الثقيل الذي لا يترك أية فرصة للقاء وللراحة بين الناس إلاّ عندما يموتون. في الحروب والمقتلات التي تجري الآن على الأرض نحن من مهد لها السبيل بدل صناعة إنسانية أخرى. الفاصل بيني وبينك، خمسة قرون يا سيدي ولا شيء تغير، ما تزال حروبكم حروبنا، لكنها بتقنية أفضل وضحايا أكثر، بل إن القتل تماهى مع اللعب. تحتاج تلك الأرض يا سيدي إلى دون كيشوت آخر، يحمل على عاتقه كل الخيبات ويحولها إلى طاقة خلاقة من السخرية ليعرف الناس في أية غباوة يموتون؟ الخير يُوَرَّث، ولكن يا سيدي، الأحقاد تورث أيضا. وسيدة العصر الذي عشته بعدك، الضغينة بكل حجبها وأسرارها.

5- أَسِيرُ الصُّدْفَةِ، مَحْظُوظُ القَدَرِ.

كان النور الذي يأتي من جوانب الكهف خافتا، يغلف المكان بستار شبه نحاسي، من الألوان الصفراء الداكنة، كأنه متأت من شمس آيلة للغروب. تتسرب أشعته الناعمة من بين الشقوق وكأنه كان يخرج من الفجوات المحفورة عميقا في الصخور. مرة أخرى دخلت زريدة. لم يكن متعرقا كما يحدث له كلما بذل جهدا فوق طاقته، ولكنها مع ذلك مسحت على وجهه قليلا بقطعة كتان ناعمة. أشرقت ملامحه من جديد، ولمعت عيناه ببريق طفولي شهي. ثم رفعت قليلا ذراعه المشلولة ومررت عليها هي أيضا قطعة القماش الحريرية المثقلة ببخار الماء. سألتْه إذا ما كان يشعر ببعض التعب. أجاب لا. ثم ضحك وهو يتأمل ذراعه اليسرى: انتهى كل شيء يا زريدة. كل الآلام تركتها في ليبانت، أخذتها معها سفن دون خوان النمساوي. قالت زريدة: لولا هذا الشلل، كأنك لم تصب بأي أذى في تلك الحرب القاسية. فضلتَ أن تستمر في هذا الغيب بهذه الذراع لأنها كما تقول شهادتك على عصر كانت سيدته حروب القسوة، لم يكن الدين إلا واجهتها، لكن المصالح هي ما كان يحركها. لقد تقاسموا ذهب وخيرات وأراضي الغير وأرواحهم بلا رحمة. مثلهم مثل الأتراك الذين دخلوا حماة ثم أصبحوا فجأة مستعمرين وقتلة. *كي سيدي، كي لالّة*، لا أحد أفضل من الآخر. هاجسك يا سيدي كان الحرية وليس شيئا آخر.

قلت وأنا أشعر بقرب كلام زريدة مني:

- حتى محاولة هروبك يا سيد سرفانتس لم تكن إلا حاجة مجنونة لحرية لم تستوعب

حياتك خارجها. على الأقل هذا ما فهمته. حتى انشدادك إليها هو ما صبغ كل كتاباتي أيضا. كنتَ معلمي الأكبر في هذا. معلمي الاستثنائي بلا منازع. لقد انتمى بطلي في *أحلام مريم الوديعة*[60] إليك من خلال هاجس الخير والحرية. قيمتان شعرت بأن حياتك كلها تتأسس عليهما. استرشدت بكلمتك الكبيرة: حيث *يسود الخداع، تنتفي الحقيقة*. من شدة التصاقه بك، اعتبرك بطل روايتي من سلالته، وربما أنا أيضا:

[60] هذه الرواية نشرت في طبعتها الأولى في دار الحداثة، في سنة 1984

تذكرت كذلك مغامرات جدي الكبير دون كيشوت الله يرحمه و يوسع عليه، و هو يخوض حرب المصير ضد الجزويتيين. صال وجال و عرف الرجال، لكنه عاد إلى الناس الطيبين ليموت في حجرهم و يتبخر كالحلم الذي لم يمهل عيوننا للتدقيق في تفاصيله. رآك بطل مريم الوديعة في عمق حلمه الهارب، محبا نبيلا، قريبا إلى قلبه وسيده في الحلم. لقد كنتَ مثله الأعلى بينما ظل الناس يضحكون عليك، على غباواتهم وهم لا يعلمون: *جدي دون كيشوت دي لا مانشا غمرته عذرية دولثينيا، الفلاحة التي تشبه القمحة. حين فاجأ فرحتها داخل الحقل، قال لها: أنا فارس طيب جدا. تأملت عينيه الصافيتين ثم ذابت بين أصابعه كقطعة حلوى ثمينة. كان يتعشق قيم البهجة و خوذة مبرينو التي استرجعها بعد سطوة كاسحة. الذين قاتلوه، كانوا يحملون الشتاء في أعينهم و أفكارهم. منعوه حتى من متعة الانتصار على الطواحين التي بدت لهم جوفاء مثل القلعة التي تخبِّئ تفاهتهم الجزويتية. بينما ظل يتأوه بين ذراعي حبيبته: آه يا دولثينيا لو تدرين! إننا قادرون بالرغم من كل شيء على بعث الحياة، و عيشها بامتلاء. لنحلم فقط.*

قلتُ وأنا أنظر إلى عينيه المعلقتين في زريدة ومشدودتين إلى قامتها الممشوقة وهي تعبر خط النور الذي يخترق المكان، وهي تغيب في عمق الدهليز، لدرجة أني ظننت أنه لم يكن يسمعني، ولكنه كان في قارة أخرى اسمها زريدة. امرأة الدهشة. ربما هي أيضا لم تكن إلا دولثني كما ابتدعها دون كيشوت ومن ورائه سرفانتس .

- هل توجد قيمة نبيلة تضاهي الحرية؟ بطلك لم يكن مخطئا بل هو في عمق هاجسي.

هاجس كل عشاق الحياة. الحرية. لهذا لم تكن محاولات هروبي فقط رغبة في العودة إلى المكان الأول، ولكن اليقين بأن الحرية ما تزال فينا وأنها لم تمت. أن تبقى خمس سنوات أسيرا، هذا يسرق منك بالضرورة، الرغبة في أن تكون حرا عندما تسلم أمرك لقسوة الأقدار. لهذا لم يكن هروبا عاديا. رتبته بقوة حتى لا أخطئ طريق الحرية. يمكن أن نخطئ في كل شيء ونعوض خطأ المسالك الوهمية، لكن الخطأ في طريق النور ينزل علينا ظلمة اليأس.

-     لقد منحتنا كتاباتك عن المحروسة كل فرص التخيل. بل إن الكثير مما اخترقني من

شعر وعزلة الكلمات وجنونها ومحمولاتها متأت من خوفك وصمتك وجرأتك. رأيتك في *البيت الأندلسي* وأنت تهرب. شممت رائحة خوفك. الكثير من عمران رواياتي يدين لهبلك الجميل. ربما لأنك كنت مبدعا خارج عواصف الوقت، أو ربما لأن في كتاباتك شيئا من طعم خلفه العرب وراءهم قبل أن تأكلهم بحار العزلة والخوف. تخيلت في *البيت الأندلسي* أيام حبسك وقلقك وجنون هربك وتفاصيله الغائبة ورعشاته مع أني أعرف بعمق أن المسألة لم تكن بسيطة. وكلما غابت عني الحقيقة رميت بنفسي بلا تردد في عمق التخيل الذي ينشئ حقيقته الموازية.

-     التخيل حقيقة أخرى. حقيقة موازية. أرفض أن تكون دون كيخوتي تاريخا لأنها ليست كذلك بالمعنى المتداول، لكنها تاريخ الهواجس البشرية وخرائطها العميقة. في فصل ***الأسير*** قلت الحقيقة ولكنها حقيقتي فقط. البعض فيها مشترك مع آخرين، وبعضها الآخر يخصني أنا فقط.

-     لهذا كان هروبك متوها يا سيدي، تفسيره الأوحد هو هذا الجنون الذي تتحدث عنه.

-     جنون. الكلمة التي تليق بالضبط لمثل هذه الحالات. كان يجب أن أتخفى داخل الحيلة

أيضا. غبت فجأة عن الأنظار لاختبار انتباه العسس، وكانت زريدة قد زودتني بمعلومات كثيرة عن كل الحركة الموجودة داخل القصر وخارجه. سأل رئيس الأوجاق السمين والمثقل بأطنان الشحم، زريدة بالكثير من القبح: هل تعرفين امرأة محددة يكون قد هرب معها؟ فأجابته بعنف وقبح يوازي اعتداءه: لا أعتقد أني دخلت إلى فراشه، ولكن الرجل يبدو محبا للرجال أكثر من النساء. هز رئيس الأوجاق رأسه موافقا لأنه في رأسه كما في رأس غيره بيني وبين حسن فينيزيانو علاقة مثلية لوّنها كل واحد بحسب اشتهاءاته وعجزه وأحلامه. في السوق أكد الذهابون والخرازون وصناع النحاس والجلد، وعمال الميناء القديم، بالإجماع، أن لا أحد منهم رآني. وأن آخر مرة كانت ليلة البارحة. من عيونهم عرف رئيس الأوجاق أنهم كانوا متعاطفين معي، يعرفونني

جيدا وأغلبهم من الموريسكيين أو المارانيين. لم يكن يملك أي ممسك ضدهم، ولهذا لم يتخذ أي قرار ضدهم لكنه ظل يحرسهم بعينين شبيهتين بعيني ثعلب. كانوا خائفين عليّ من رئيس الأوجاق الغبي الذي كان يجر وراءه جثة منفوخة بالهواء الساخن. رغبتي المحمومة ليست الهرب ولكن الحرية، الحرية فقط. كان يجب أن أخرج بإرادتي وأعود بعدها وقت ما أشتهي. أعود بخياري لأعيش مع زريدة ما تبقى من عمري. كنت قد رتبت خطة للخروج نحو وهران التي أيقظت في مسافتها القريبة الرغبة في عدم الالتفات إلى الوراء. كانت وهران أقرب نقطة إسبانية. تفاصيل القصة التي خبأتها طويلا عن رئيس الأوجاق الثقيل انكشفت فيما بعد بكل تفاصيلها أمام الأغا فينيزيانو، لاحقا. خرجت في جانفي 1576، مع مجموعة من أصدقائي بعد أن دبرت طريقة للهرب. ألغيت فكرة الذهاب عن طريق البحر لأن ذلك كان يبدو مستحيلا في ظل الإمكانات المتاحة، ووضعية البحر في فترة الشتاء حيث يكون المتوسط طعما للهول والموج المتقلب. يحتاج الإنسان إلى قدر كبير من اليأس والجنون، لكي يستطيع فعل ما فعلته. فقد صممت على قطع المسافة هربا عبر البراري حتى مدينة وهران التي تبعد عن العاصمة مشي خمسة أيام ببردها وخوفها وشططها. لا أدري من وشي بي، لكن الكثير منهم لم يكن يحبني لأني كنت مدلل حسن فينيزيانو، يرون فيّ مثليا معشوقا لسيدهم. أعادوني بدون عناء كبير ولا مقاومة. كانوا كثرا ومن العبث تضييع الوقت، وأنا على مشارف المدينة، وأودعت السجن مع أصدقائي. وطالت عقوبة الحبس والخازوق الجميع إلا أنا وصديقاي كاستانييدا[61] وأنطون ماركو، فقد أعفينا من هذه العقوبة. في شهر مارس من السنة نفسها استطاع كاستانييدا وماركو أن يعودا إلى إسبانيا بعد أن تم تسديد الفدية، وهما من أقنع الأهل بضرورة الاتصال بالجزائر لإنقاذي من وضعية كانت كل يوم تتعقد أكثر. انتابتني بعدها كآبة كبيرة لم أكن قادرا على مقاومتها بالخصوص عندما عرفت أن والدي تعب كثيرا بحثا عمن يدينه بلا جدوى. وعلى الرغم من محاولته الاستدانة إلا أن الأبواب كلها أغلقت في وجهه. ليونور، أمي بدورها حاولت أن تفعل شيئا. سمعتُ أنها تدخلت لدى مجلس الحروب الصليبية لكونها فقدت ابنها في حرب دينية، وخاب ظنها. وأصبحت على شبه يقين

[61] Castaneda et Anton Marco.

أنها لن تتوصل إلى إقناعهم بجدوى إنقاذي من هذا المأزق. مع ذلك، وبسبب إصرارها، نجحت محاولات ليونور اليائسة، ومنحت في 16 ديسمبر سلفة بقيمة ستين دوقة من أجل تحريري. لم تكن كافية ولكنها كانت مفيدة. فوضعت حدا لحالة الانغلاق. سُرّبت لي لاحقا معلومات مفادها أن الجهات التي وعدت بتتمة المبلغ تراجعت لأنها تشك في أصولي وقناعاتي الدينية، وتتهمني بتهم منافية للدين والأخلاق. انهارت فجأة كل الفرحة التي ملأت وجهي وبرقت بقوة في عيني المليئتين بالجنون. هناك من يرفض خروجي. وهو من يوصل الأخبار المغلوطة إلى رجال الدين في إسبانيا. خوان بلانكو دي باز، عضو محاكم التفتيش الموقوف، لا أحد غيره قادر على فعل ذلك. مرة أخرى انتابني جنون الهرب من جديد. بعد أربعة أسابيع من التحضيرات على حواف الميناء التي درستها بدقة، صار كل شيء جاهزا واستقر بي الأمر إلى ضرورة تنفيذ خطة الهرب الجديدة. تم تجهيز سفينة حربية في مايورك كان يقودها قبطان اسمه[62] فيانا، وهو أحد الرهائن ممن تمت فديتهم. يتفق الجميع على يوم 28 سبتمبر للهرب. ولكن في ذلك اليوم تغيب المايوركي ومساعدوه لأسباب ظلت مجهولة ولم يحضروا في الموعد، إما خافوا من مخاطر المغامرة غير المضمونة، أو ألقي عليهم القبض في عرض البحار. اتصلت بخادم في فحص حسن فينيزيانو، من نافاريا يسمى خوان، الذي نصحنا بمكان كان يعرفه جيدا سبق أن حفره ووسعه أكثر ليتحمل أربع عشرة رهينة. استغللت اليوم الغائم وفرصة غياب الحرس وخروج أغلبية الرياس إلى عرض البحر، لأسحب ورائي أكثر من أربع عشرة رهينة اقتدتهم خارج المدينة، في مرتفعات الضواحي. واختبأنا في أعالي المحروسة، في مغارة قريبة من حدائق الأغا، شرق المدينة. وظل خوان النافاري قائما على صحة الهاربين وأكلهم وشربهم طوال مدة اختبائهم في انتظار وصول سفينة الإنقاذ، لمدة خمسة أشهر. مرة أخرى لم تكن المغارة بردا وسلاما علينا. انتظرنا بشغف ممزوج بخوف طويلا ولم يأت أحد ناحية البحر. وفي صباح 30 فوجئنا بحرس الأغا يقفون على مداخل المغارة ويطوقونها، ويقتادوننا إلى السجن من جديد.

- هذه وشاية، ولكن ماذا تستطيع الوشاية أمام حرية الإنسان؟

[62] Viana

- معك حق في الجوهر فقط. لا تستطيع شيئا، ولكنها تؤخر النهايات وقد تفرض نهايات غير محسوبة. يبدو أن إلدورادور الذهاب، أحد المرتدين ممن كان يعرف القصة جيدا، هو من وشى بنا، وكان وراء إلقاء القبض علينا. عندما وقفت أمام الآغا اعترفت بجريمتي وأن كل من كان معي بريء. تحملت كل شيء وحدي، وأنكرت أي دور للمجموعة التي كانت بصحبتي لأن ذلك كان يعني إبادتها بلا رحمة، أما أنا فقد كنت أملك حظا واحدا للنجاة بلمسة طيبة من الحاج مراد وحبيبتي زريدة التي لم أخبرها لا خوفا منها ولكن للحفاظ عليها. حتى المنقذ فراي جورج دي أوليفار لم ينج من الزج به في السجن لأنه سبق أن رهن نفسه مقابل إطلاق الدفعة الأولى من الرهائن. بقيت مدة خمسة شهور، في سجن الأغا الخاص بحيث شدد عليّ الخناق لأول مرة. الوحيد الذي دفع الثمن غاليا هو خوان، مساعدي والمشرف على الحديقة الذي تم شنقه في 3 أكتوبر في ساحة القصر، وعلى مرأى من الجميع، لمساعدته الرهائن على الهرب، وتوفير المخبأ والأكل والشرب. فقد مات خوان النافاري ولم يفش بتواطئي مع بقية السجناء وتواطئهم معي. أعطاني درسا خفيا في الكبرياء والتفاني. وبدا تسامُحُ الأغا معي غريبا، إذ ليس من عاداته أن يغفر جرما كبيرا كهذا. ربما كان سببه حالة ضعف فينيزيانو أمامي لسبب وحدي كنت أعرف سره، قرأت ذلك منذ الجلسة الأولى التي تعرفت فيها عليه وعلى ضعفه، في رمشة عينيه عندما رأيته وهو يقايض سعر شرائي. وخرجت هذه المرة بصعوبة من موت شبه مؤكد.

- طبعا عاودتَ التجربة. مثلما تخيلتك في *أحلام مريم الوديعة*. داخل عاصفة الخوف

كنت تجد دائما مسالكك. *كان يجب أن تتعلم أن تتدبر أمرك قبل أن تعيد المدينة عشق كهنتها. قبل أن تخلو من سكانها الطيبين. قبل أن ينتزع فرحتك الجزويتي المزور في وجه فارس القمر. قبل أن يمزق لحمك يا جدي دون كيشوت على أسوار قلعة الموت. قبل أن تطمس العيون التي لم تبق فيها إلا المحاجر الفارغة و الحفر السوداء و بقايا الجماجم. أفواه عجزت عن الصراخ. قرود تتشعر و تكبر. و أنت. أنت أيها الهارب من الغور السحيق. هربتك الطيور إلى هنا... الذين حاربوك يا جدي، شقوا الأرض و دفنوا فرحتك إلى الأبد.*

-     المهم هو أنهم فشلوا في دفنها إلى الأبد، ربما كانت هنا هزيمتهم. كلما انغلقت الدنيا

أمامي وبدأ اليأس يجد مكانه فيّ، فتحت أبواب اليأس على نور السخرية والتهكم. في مارس 1578 اتصلت بالمركيز دون مارتن القرطبي[63] وبشخصيات أخرى من بين أصدقائي القدامى، ليبعثوا لي بصحبة الموريسكي مجموعة من الجواسيس مع رجال ثقاة لإخراجي من السجن، أنا وثلاث شخصيات مهمة كان الأغا قد حبسهم، باءت المحاولة بالفشل الذريع طبعا، وأغلقت عليّ أبواب الهرب أكثر، وضاقت عليّ مساحات الحرية. فقد فضحتني الرسائل التي كانت معي، والتي أكدت على تورطي. حكم عليّ بألفي جلدة. لكن تنفيذها لم يتم بتدخل من الأغا نفسه، ومن مستشاره الحاج مراد أيضا. تنفيذ ذلك كان يعني ببساطة الموت المؤكد. وخرجت سالما من محنتي، مرة أخرى. ربما كان لتدخلات دالي مامي أيضا، الذي أصبح من أهم رياس البحر المقربين من الأغا، الدور الأكبر. خرجت بأعجوبة لم تزدني إلا إصرارا على المضي قدما نحو نار الحرية. لا حياة بلا حرية. في سبتمبر 1579 حاولت الفرار مرة أخرى. نظمت خطة تتلخص في تجهيز سفينة والهرب بها إلى إسبانيا. شخصيتان اشتركتا في العملية: التاجر الفلنسي المسمى أونوفري[64] ، ممول شراء السفينة، وعبد الرحمن الأندلسي الغرناطي الذي قام بشرائها فعليا. ولكن شيبان نبه حسن فينيزيانو، وقص عليه تفاصيل الخطة. تهم أكدها على مسمع الأغا، خوان بلانكو دي باث[65] الذي يبدو أنه تحرك بسبب الغيرة التي طحنته، لأني لم أختره من بين الفارين على متن السفينة. يلقى عليّ القبض مرة أخرى، وأسحب مكبلا إلى قصر الأغا الذي هددني هذه المرة بالشنق. صرخ في وجهي بصوت عال ومبحوح، وقد بدا جد عنيف في كلامه: *هذه المرة جردتني من كل وسائل الدفاع عنك. زبّلتها يا صاحبي. لا يمكن؟ وخّضتني فيك.* لم أدرِ يومها إذا ما كان قد قال هذا الكلام فقط أمام عساكره، ولكنه كان حقيقة في أوج غضبه. وبقيتُ محجوزا داخل القصر حتى نسيني الناس، وظنّ بعضهم أني أعدمت. قال لي حسن فينيزيانو وهو يحاول أن يعتذر بالكاد: *صحيح أني*

[63] Le Marquis Don Martin de Cordoba.
[64] Onofre
[65] Juan Blanco de Paz

أريد أن أسترجع على الأقل 500 دوقة ذهبية التي اشتريتك بها من مامي دالي، ولكن حياتك تهمني لشيء يتجاوز إرادتي لأن ما فعلته يقودك بلا أسئلة نحو الخازوق والشنق. الله غالب، هذا هو القانون المطبق على الجميع.

قلت ساخرا وكنت أدرك أنه يتقبل ذلك من عينيه ومن سخريته الدائمة:

- الله غالب. كان مضروبا عليك.

- مضروب عليّ؟ هههههه... أنت لا تعرف حسن فينيزيانو، فهو لا يحب إلا نفسه. فيه

شيء من الطيبة الخفية التي لا نلمسها بسهولة، لكن سعادته تمر قبل كل شيء. كنت أداته الطيعة. استسلمت في النهاية لشيء غريب فيّ. ربما كان الاستسلام أو الثقة في الأقدار. ما حدث لاحقا بين لي صواب ما ظننته. كانت المدينة في عز رمادها عندما وصل في 29 ماي 1580 فراي[66] خوان جيل إلى الجزائر بصحبة فراي أنطون دي لابلا[67] . وجدا المحروسة تستيقظ بصعوبة من مأساة المجاعة التي أصابتها بقوة في الصميم، ومسحت أكثر من خمسة آلاف شخص في شتاء واحد بدون حساب موتى الأحياء المحيطة والمرتفعات. وبدأ رجلا الدين الحوار والاتصالات مع الأغا. لكن بدون جدوى، لأن الحروب البحرية ضد السفن الغربية التي كانت تريد الدخول إلى الجزائر، كانت طاحنة، وعادت من جديد لتحتل الواجهة. وبفضل صبرهما وحكمتهما، استطاع الرجلان أن يشتريا أكثر من مئة رهينة، ولكني لم أكن من بينها ولم يبق معهم إلا مال قليل لا يكفي للشيء الكثير. وكان الوقت ضيقا لأن حسن فينيزيانو المتعاطف معي، والعارف لخبايا كل المفاوضات، كان يستعد للعودة إلى القسطنطينية بعد انتهاء مهمته. وأخبرني بأنه إذا فشلت المفاوضات، لن يتركني وراءه، سيسحبني معه إلى تركيا. قال للأخوين التثليثيين: وقتي ضيق، بعدها لن أفاوض. سآخذ رهينتي معي ولن ألتفت لأحد. طلب استرجاع نقوده فقط التي اشتراني بها، أي خمسمائة دوقة ذهبية. وطلب ألف دوقة على جيرونيمو دي بالافوكس[68]. الوحيدة التي تمنت أن تنجح المفاوضات هي زريدة التي نظرت إلى المسألة بشكل آخر. النجاح معناه

---

[66] الأخ عند التثليثيين الإسبان.

[67] Fray Anton de la bella

[68] Jeronimo de Palafox.

عودتي إلى إسبانيا برفقتها أو البقاء هنا حرا. كانت مقتنعة بقدرتها على إقناع والدها بالاستقرار معي. ونظرا لعدم توفر السيولة الكافية، اقنع الحاج مراد بذكائه الكبير وحكمته، فراي خوان جيل المتردد في جهده الإنساني، أن يشتري الأرخص على الأقل أحسن من أن يعود إلى إسبانيا بالنزر القليل، كما فعل أسلافه. كان كلامه مريحا لخوان جيل، بينما بقيت صامتا وحائرا في اجتهادات الحاج مراد الأخيرة التي وصلتني عن طريق زريدة. كان والدها لسانها العاشق. عندما سمع حسن فينيزيانوا المقترح تريث قليلا. طلب أن يستريح ويرى، بينما كانت سفنه تستعد للرحيل وأنا معها.

طلب فراي خوان جيل من الآغا بعض الوقت للتشاور وتحصيل المال.

– سيدي الأغا نحتاج إلى بعض الوقت.

– ليكن. معكم مفاوضي الحاج مراد، وتعرفون أين تجدونني. لا تؤخروني. أشرعتي جاهزة.

– سنكون في الوقت يا سيدي.

تأكدت من زريدة التي كانت قد استقرت مع والدها، في فحص الآغا حسن فينيزيانو، من أن المسألة جادة وأن الآغا مصمم على تحريري إذا توفر جزء من الفدية وأن والدها أقنع فراي خوان جيل بضرورة استعمال المال المتبقي لإخراجي من هذا البؤس. أكدت لي ما كنت أعرفه: حسن فينيزيانو سيسحبني وراءه إلى القسطنطينية إذا لم يدفعوا الفدية. لم تخفها عودتي إلى أيبيريا مثل دفني في تركيا. قالت وهي تمسح على وجهي بقايا التعب والعرق: *في القسطنطينية ستموت في النسيان يا قلبي وسينساك الجميع بما في ذلك حسن فينيزيانو. عالم لا يشبهك ولم يُصنع لك.*

– كانت محقة لأن القسطنطينية كانت ستكون مقبرة لك وتنتهي نهائيا. الصدفة القاتلة. أقول أحيانا الأقدار لها نظام غريب لا أحد يعرف أسراره غيرها. طلبتْ من والدها أن يوفر بعض المال لسحبك من مخالب حسن آغا.

– أعرف أنها فعلت ما استطاعت فعله. حاولت مع والدها، ولكنها لم تفلح إلا بصعوبة كبيرة لسبب يتعلق بوضعه الإداري. قال لها إنه لا يعرف الآغا الجديد، بعد حسن فينيزيانو. قالت له مجرد *سلفة يا والدي، وستعود لك في أقرب وقت*. وفر لها بسرية، مائة دوقة من المال المودع لديه، ومن عند بعض أصدقائه من الذهابين

وتجار الميناء. بسرعة أصبحت الفدية شبه كاملة، إذ كانت في حوزة فراي خوان جيل مائتا دوقة ذهبية، أضاف عليها مائتين أخريين انتزعهما من مخزون التثليثيين بعد استشارات معقدة معهم، قبل أن تأتي المائة التي تحصلت عليها زريدة من محيطها الأقرب، لتكتمل الفدية نهائيا. أتذكر التاريخ مثل اليوم، على الرغم من مرور السنين. في 19 سبتمبر 1580 عندما كان حسن فينيزيانو يستعد لمغادرة المحروسة بصحبة أهم رهائنه الذين اشتراهم وأنا منهم، الذين من شدة يأسهم، أخذوا أماكنهم داخل السفينة واستسلموا لقدر منفى آخر كان يلوح في الأفق. في اللحظة التي بدأت فيها السفن تستعد للخروج من الميناء ، وصل الحاج مراد برفقة فراي خوان جيل. لم يجد صعوبة في الدخول إلى عمق السفينة، فقد كان رئيس الأوجاق الشاب الذي عوض الرجل الثقيل والمنتفخ الذي أرهقته مرتفعات القصبة وأصبح يكره السير فيها، ينتظرهما. اقتحم فراي خوان جيل مقصورة حسن فينيزيانو الجميلة، الذي لم ييأس من مرور الرجل. وضع في حجره الخمسمائة دوقة ذهبية، لململمها، استغربت أنه لم يحسبها. التفت حسن فينيزيانو نحوي:

– أنت حر يا سرفانتس. عليك أن تشكر صبحا ومساء هذا الرجل الذي قام بالمستحيل لإنقاذك وليس بني جلدتك الذين تهاونوا في حقك. هم لا يعرفون قيمتك. أقصد حاج مراد الذي فعل المستحيل لينجيك من منفى لستَ قادرا على تحمله. هو من عرف كيف يفاوض، رجال الدين كادوا أن يعودوا بلا شيء. لقد عرف كيف يختلي بهم ويسحبهم وراءه. لو لم أكن مغادرا كنت رسَّمته في القصر بإنابتي. لكني عرفت منذ اللحظة الأولى تعلقه بابنته، فلم أكرهه على السفر معي. لست وفيا لامرأة واحدة، ولكني أحب العشاق الأوفياء والآباء الطيبين.

قمتُ من مكاني بكل طولي ونحافتي، ولحيتي الحمراء التي ارتسمت على وجهي الذي نحل كثيرا. لم أكن لأصدق ما كان يحدث لي. تمتمت بكلمات انكسرت بسرعة على شفتي:

– أشكر سماحتك يا سيدي الأغا وعطفك ومحبتك. غيرك، كان قد أغلق الأبواب ولم يأبه لنداءات رهائنه.

– أتخلى عنك مرغما، وفي أعماقي كنت أتمنى أن يخفقوا في جمع الفدية. طبعا لن أرغمك على الذهاب معي إلى القسطنطينية، اللهم إلا إذا ارتأيت أن ترافقني، مستعد أن أرجع الفدية لأصحابها.

صمتٌ قليلا وهو ينظر يمينا وشمالا، وإلى وجه زريدة الذي لاح لي من وراء البحر، قبل أن يشرد في عمق الموج العالي، بنظراته الهاربة. خفت أن نكون قد رجعنا إلى نقطة البدء. ثم أغمضت عيني وكأن شيئا في داخلي كان يتكلم.

– أنا أيضا يا سيدي اشتهيت البقاء معكم. شكرا لكرمكم.

– فهمتُ. أقدر خيارك. أنا عند وعدي.

ثم التفت نحوي وهو يحسب المائة دوقة التي أضافها والدي فوق الأربع مائة دوقة التي سلمها له فراي خوان جيل. ثم قال لي *افتح كفيك عن آخرهما.* فتحتهما. وضع المائة دوقة في عمقهما.

– أرجعها يا ابني لمن استلفتها منهم. زريدة تعرفهم جيدا. امرأة تحبك، شعرت بذلك من أول يوم. ليستْ في حاجة إلى ديون لن تتمكن أبدا من دفعها. لم أر من زريدة ووالدها إلا الخير والتفاني في الخدمة. الحب لا أعرفه، ولكني أحسه، فهو يجعل كل شيء ينحني ويلين أمامه بما في ذلك الأديان.

ارتعشت خوفا من أن يلغي حسن فينيزيانو كل شيء. كان سيد اللحظة ببحرها وسمائها ونسائها وغيمها. ثم إنه عائد إلى تركيا، فما الذي يدفع به إلى احترام بنود الاتفاق؟ لم تخرج مني ولا كلمة. لملمت الدوقات الذهبية بسرعة، ولم أضف أية كلمة على ما قاله، خوفا من تغير مزاجه. وضعتها في صدري، تحت قميصي الفضفاض، وخرجت قبل الجميع وأنا أشكره:

– يكثر خيرك يا سيدي الكريم. مدين لك طوال حياتي. لقد حميتني ومنحتني حياة أخرى.

لأول مرة غلبتني دموعي وأنا أستعد للنزول من السفينة وتحتضنني زريدة ووالدها وبعض معارفي من تجار القصبة والبحارة الطيبين الذين جاؤوا يباركون لي ويودعون الآغا.

قال حسن فينيزيانو وهو ينظر طويلا إلى وجهي بعد أن وضعه بين كفيه.

– هل تصدقني إذا قلت لك بأني أجد الآن صعوبة كبيرة في الخروج من المحروسة بدونك. توالفتك؟

– أصدقك يا سيدي. وأنا أيضا يصعب عليّ العيش في مدينة يغيب عنها وجهك الطيب والكريم جدا.

ربت على كتفي بحب. كنت على يقين، لحظتها على الأقل، من أنه لم يكن يكذب. ثم أضاف كلمته الأخيرة التي لن أنساها أبدا لأنها رمتني بقوة في ألكالا دي هناريس.

– اذهب. مدينتك وأهلك هناك، ينتظرونك، وإذا رغبت في العودة إلى المحروسة لتبقى مع زريدة، اخبرني. سأظل على اتصال مع حاج مراد.

كنت أعرف جيدا ما كان ينتظرني هناك، في مدينتي الأولى، من ديون ومصاعب عائلية وحسابات مع محاكم التفتيش المقدس، لكني سأظل طوال العمر كله مدينا لزريدة ووالدها وبعض أصدقائي، بحياتي كلها. لولاهم لتغيرت مصائر كثيرة، بما في ذلك مصير *دون كيخوتي* وكل العالم الذي نشأ فيه بقوة، بل ومصيرك أيضا، إذْ ماذا كنتُ سأعني لك بدون هذا النبيل الطيب *دون كيخوتي*؟ مجرد أسير نكرة من بين الذين ماتوا في النسيان؟ مصائر الكتب أكثر أهمية أحيانا من مصائر الرجال لأنها تربطنا بمن نحب ويحبوننا خارج التاريخ والجغرافيا وخارج الأديان أيضا.

- لولا دون كيخوتي وقصصك وكتاباتك وأسرك، لغابت أشياء كثيرة صنعت مخيلتي

وصنعت مخيلة

المئات من الكتاب والفنانين عبر العالم. ربما لكنت شيئا آخر غير أنا الذي عليه اللحظة، في هذه المغارة التي أطلقتَ عليها تسمية مونتيسينوس، كما اشتهيتَ، ربما لأنها تذكرك بمغارة حقيقية صنعت قلبك وذاكرتك، وجزءا حيويا من تاريخك الشخصي. على أي أنت أيضا واجهت مصائر الخوف قبل أن يستقر بك الأمر على *دون كيخوتي* الذي لم يكن إلا عقلا حيويا في عالم فقد كل قيمه وعقله أيضا.

أضاف سرفانتس وهو يبحث عن كلماته التي ارتبكت بين شفتيه:

– كنت أعرف سلفا أن خروجي من الأسر لم يكن كل شيء. كيف أداوي جرح زريدة التي أحببتها بقوة. انس الآن ما قرأتَه في *دون كيخوتي*. كانت امرأة من نور ولغة.

وكان عليّ أيضا دحض تهم خوان بلانكو دي باث، مفوض محاكم التفتيش المقدس الذي بنى حولي تهما أخلاقية، الواحدة منها كفيلة بأن تقودني نحو المحرقة. كالتعاون مع الأتراك والمسلمين، وتهمة الفراش مع حسن فينيزيانو وزريدة ابنة حاج مراد. أن تترك دينك وتنام مع مسلمة فتلك كبيرة الكبائر. كنت أعرف ذلك كله، لهذا عدت إلى إسبانيا وأنا أحمل معي توقيع اثني عشر شاهدا بحضور فراي خوان جيل، يؤكدون على حسن سلوكي وانضباطي وحبي لديني وملكي. بدون ذلك كنت هالكا لا محالة، طعما لمحارق المحاكم المقدسة. مازلت أتذكر يوم الوداع. كان قاسيا. كان ذلك في ميناء المحروسة، في صباح 24 أكتوبر عندما استقللت سفينة مايز أنطون فرانسيس[69] ، من ميناء المحروسة كما كانت تسمى، باتجاه دينيا[70] وبلانسيا[71]. قلت لزريدة وأنا أقبض على حبل السفينة وساريتها الخشنة: *كل شيء أنت يا زريدة. لن أتمكن من أن أمنحك الحياة التي تليق بك، لكن وسيلتي لعدم نسيانك هو أن أضعك في قلب الحروف المقبلة. سأحتفظ باسمك كما اشتهيته أنا، لا كما تريدينه أنت زريدة، فهو مني وفيه من روحك. حتى ولو كانت كلمة لالة زهرة أو زهريتا تورثني رعشة الخوف من شيء غامض، ربما فقدانك*. أجابت وهي مثبتة عينيها على واجهة البحر وعلى حركة السفن الكثيرة: *كما تشاء حبيبي. في النهاية لا أتمنى لك إلا الخير. سأحزن وأحاول قدر ما استطيع أن أنسى وآمل أن يمنحني الله فرصة اللقاء بك على أرض أخرى خارج الدم والجشع والقتل والموت. ليحفظك الرب من الخطايا والمآسي وليمنحك الطاقة القصوى لتقول كل ما في قلبك.*

كانت كلماتها الأخيرة طيبة ومتسامحة، ولكن قاسية على قلبي. كانت على يقين من أني سأقص حكايتنا هناك، في أرضنا المشتركة، لا أرض المحاكم، ولا أرض القراصنة، وسأقول كل ما ملأ القلب بالشكل الذي أشتهي. وسأوقظ حروف الكورديللو الذي ملأته بملاحظاتي وأسئلتي القلقة. فقد ظل يرافقني طوال الوقت الذي سجنت فيه، ثم نسيته، قبل أن أعود له بعد نجاتي من عقاب حسن فينيزيانو. لم أكن أعرف أن هذه المدينة ستحتل جزءا مهما من كتاباتي، وربما ليست المحروسة هي السبب

[69] Maes Anton Francès
[70] Denia
[71] Valence.

العميق، لكن امرأة شاءت صدفة الأقدار أن تضعها في مسالكي أو تضعني في مرمى عينيها. وحدها المرأة يمكنها أن تصنع من رماد الكلمات وطنا حيا ونبضا مدهشا للقلب المتعب. لهذا رويت في *دون كيخوتي* كل ما انتابني من هبل خارج نظامي الحقيقة ونقيضها.

– أنت يا سيدي لم تقل إلا ما يأتي من القلب. إلا حقيقته التي تراها أنت وقد لا يراها غيرك.

– سألتني زريدة في إحدى المرات، ونحن نستمع للڤوال، في سوق الجمعة: هل تظن أن هؤلاء الناس المحيطين به يصدقونه أم يشكُّون في مروياته وقصصه؟ أجبتها بيقين القلب الذي ظل يملأني واستيقظ معي وأنا أكتب *دون كيخوتي*: *يا زريدة، لو يَشكُّون لحظة واحدة في ما يقوله لانفرطوا من حوله، وما بقي واحد منهم في هذا المكان يتتبع الباخية حتى نهايتها. يستمعون بيقين مطلق، وينسحبون من هذه الحلقة باليقين نفسه، في عقولهم وقلوبهم. هكذا المرويات يا زريدة. عندما نرويها لغيرنا بطرقنا الخاصة، علينا أن لا نفسدها بالعقل ونتركها هي في جوهرها الإنساني. أحلم أن أكتب يوما شيئا شبيها بهذا، أقول فيه ما يربطني بهذا الوجود الذي يفسده البشر كل يوم قليلا، وأصوغ ذلك كله داخل قهقهة ساخرة حادة تشبه ضحكة الشيطان وهو يكتشف أن كل الذين كانوا يحيطون به، لم يكونوا إلا مجرد حمقى صغار.*

– لم تمنحنا كتابا يا سيدي سرفانتس، أكثر. منحتنا زمنا لا يموت. القليل ممن استطاع فعل ذلك. يفترض أن يوضع لك تمثال في مدخل كل مدينة وفي كل قلب أيضا.

– ههههه. كثير. هل تدري أني إلى اليوم بلا قبر؟

– هل من قبر يستوعبك؟

– ومع ذلك. فأنا بلا قبر وكأني مت نكرة، وعشت أسوأ من ذلك؟ لا علامة لي في مدريد، إلا أرمة صغيرة في 18 شارع لوبي فيغا، تؤشر إلى أنه يمكن أن أكون قد دفنت في معبد التثليثيين. وحتى المسرحي الكبير فيليكس لوبي دي فيغا لم يكن وضعه أحسن مني باستثناء الأرمة الصغيرة التي وضعت على حائط كنيسة سان سيباستيان التي تؤشر إلى أن هذا الأديب دُفن في هذا المكان. بعدما رفض الورثاء

دفع ثمن المكان الذي يحتله التابوت، تم رمي عظام المسرحي الكبير، مع بقية العظام الأخرى لناس غير معروفين. ربما كان وضعي من هذه الناحية أحسن منه قليلا.

– ليس الأمر بكل هذا السواد. هناك من يحبك ويركض ليل نهار ليكون لك قبر حقيقي في مدريد، يزوره محبوك. فأنت سيد البلاد بلا استثناء. يبدو أنه تم تحديد، مع بلدية مدريد، مكان رفاتك بواسطة راديو الكشف عن العظام تحت الأرض، بدون اللجوء إلى حفر كنيسة التثليثيين. شاهدك الأوحد ذراعك اليسرى التي أكلتها معركة ليبانت. غريب، لكل صدفة دلالة غريبة تحمل سرها معها والذي لا يتكشف إلا بعد قرون. سر عطبك هو الدليل إليك.

– على أي قلت لك ما كان في قلبي وما أردت سماعه مني. بعد كل هذا العمر المرتبك، لحظتان تبقيان معي حتى القبر، وجه خوان النافاري الهادئ والمستسلم لقدر كان أكبر منه، الذي فضل صمته والموت شنقا على أن يخون يقيني وثقتي العمياء فيه. واللحظة التي التفت فيها صوب الشمس الغاربة لكي لا أرى إلا زريدة وحدها بدون ديكور السفن العابرة أو الراسية، تقف على الحافة مع والدها الحاج مراد، بهشاشة كانت وحدها تعلم كسوراتها القلقة.

لا أدري ماذا أقول. أشعر بعد كل ما رويته عن سرفانتس بالتفاصيل المملّة أحيانا، كأني لم أقل شيئا تجاه هذا الرجل الذي صنعني وشكّلني بشخوصه وحياته ومشتركه. لم أشعر في أي يوم من الأيام بأنه غريب عني لغة وحياة وكتابة. بل كان يتماهى أحيانا مع وجه جدي الروخو لدرجة كان يصعب عليّ فيها التفريق بينهما. أعادتني تلك اللحظة التي ختم بها حديثه، إلى حافة المارية، وأنا أرى جدي الروخو، في قمة حرائقه، يحلم بيأس أن تتوقف السفينة المثقلة بالظلم والضغينة، وأن لا تقلع أبدا. بل أن تهب عاصفة الخراب الكلي، وترتفع أمواج البحر السخي، وتبتلعها بلا رحمة، وتنظف ميناء المارية من كل نفاياته، وروائح أسماكه العفنة، وأملاحه الحادة التي تحرق داخل الأنف.

عندما مدّدت زريدة سرفانتس على سريره مثل طفل مستسلم لأمه الصغيرة، وغطته، خوفا عليه من برد مغارة مونتسينوس القاسي، بالبطانية العسكرية التي تشبه ما كان

يحمله البحارة على ظهورهم عندما يرتادون اليابسة، وأطفأت القناديل التي كان نورها يلون الحيطان والصخور، لم أر شيئا إلا رعشات عينيها الخجولتين اللتين تنطفئان كلما ضحكت أو ابتسمت ليصبحا عبارة عن خطين مثل عيني دمية صينية، وابتسامتها الضامرة التي تفتح خبايا القلب والذاكرة، وهي تقودني من يدي، نحو مبهم آخر لم أكن أعرف سره، لكني كنت أسير في نوره ونبضه.

كنت أريد فقط أن أعتذر لها عن اختصار حياتها الغنية وغصتها الدفينة، لكنها لم تمنحني أية فرصة لذلك. فقد واصلتْ سيرها باستقامة، تنحني من حين لآخر بسبب منحنيات الأسقف الصخرية، ثم تستقيم من جديد قبل أن تنحني مرة أخرى، وأنا أتبعها. وعندما أتخلف عنها قليلا بسبب قلة النور، تمد لي يدها اليسرى، فأتشبث بأصابعها الندية، قريبة من أصابع مينا، وأواصل سيري بحثا عن نور أوضح ومساحة أوسع.

في النهاية، لم تكن زريدة امرأة عادية. امرأة خرجت من كتاب، مات الناس، كل الناس من حولها، وظلت فيه نجمة حية وأبدية. كانت قريبة حتى التماهي من قلبي. أنفاسها القريبة من وجهي كلما انحنت وانسدل شعرها، كانت تزيدني التصاقا بها. ربما كان ذلك كله وهما كنتُ في أمس الحاجة إليه، لأستمر في هذا التماهي الذي يسميه العقلاء جنونا، ويسميه المجانين، تيه الكتابة.

هززت رأسي وأنا أعود إلى بعض رشدي؟

هل كنت أحبها، أم أني كنت أحب شخصية لم ينشئها بهذا الشكل إلا خيالي المورِّط والمورَّط، والذي لا حدود له؟ لا أعرف بالضبط أين أضع نفسي داخل هذا كله، وليس من الضروري أن أعرف.

في هذا، كنت بالفعل أشبه جدي الثاني، جدي اللغوي، دون كيخوتي. حبيبي ميغيل سرفانتس.

6- مَسْلَكُ التَّمَاهِي

عَوْدةُ المِعْراجِ إلَى سِحْرِ الكِتابِ

1- رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى[72] ؟

أخيرا أغمضت عيني لكي لا أرى إلا ما أشتهي.
تنفست طويلا حتى انتابني العطر الأخير الذي شممته في ألبسة زريدة الناعمة الذي له طعم زهر القرنفل. حاولت جاهدا أن أطرد الكثير مما رأيته، الصورة الأخيرة لسرفانتس وهو نائم على سرير طويل، بلا حراك، مثل ميت. لولا عيناه اللتان ظلتا تشعان بنور هادئ، عندما التفت نحوي لتوديعي، لقلت إنه كان في سرير النهاية المرة. رفرفتا قليلا، مرة أخرى، كعيني عصفور وحيد أمام قدر أكبر منهما، قبل أن تشخصا طويلا في المبهم، ثم تسبلان على ظلال مغارة مونتيسينوس.

شممت رائحة الحقول التي كنت في عمقها، عند مخرج المغارة حيث وجدت نفس المرأة هناك، ألدونثا لورينزو دي طوبوسو. غرقت في الحقل المعطر ونسيت وجودها. قريتي في يوم ربيعي قبل نصف قرن، قبل أن تتحول إلى مدفنة أسمنتية كبرى. مهرجان من أناشيد الطيور وزقزقتها المتنوعة. كنت دائما أنتظر دورة الربيع، فأعود من المدرسة، جائعا للألوان والروائح. فأركض كنجمة هاربة تحت ظلال أشجار الصفصاف العملاقة، وأتمرغ في حقول الزهور ذات الألوان الكثيرة، الأقحوان، الحميضة، شقائق النعمان، زهر الجرجير الأصفر والأبيض وغيرها. أمد يدي نحو بعضها بعد أن أكون قد انتقيتها بعيني. أختار منها ما لا يسمم وآكلها. كانت التافغة هي شهوتي الكبرى. مثل الجرذ، أتشمم رائحتها تحت التراب. الطبيعة طورت لدينا حواس الشم أكثر من سكان المدن. فأخرجها وأقشرها مثلما أفعل مع الأرضي شوكي. عيبها الكبير أنها بعد أكلها تترك سوادا يشبه السواك في محيط الفم والشفتين. التافغة والعسلوج نبتتان فاضحتان. عندما تراني أمي عند العودة إلى البيت، يكون بطني قد امتلأ، فأنسحب للنوم، فاسحا المجال لإخوتي لكي يأكلوا بشبع أكبر. تتمتم أمي: *كنت عارفة أنك تملأ بطنك بالنباتات البرية، وتنسى أن تأكل معنا؟* هي نفسها كانت تدرك في أعماقها أني كنت أفعل ذلك لأحرر مكاني لإخوتي. لأن ما يوضع أمامنا للأكل لا

[72] سورة البقرة. الآية 260.

يكفي فردا واحدا في العائلات الميسورة. وأحيانا أنزع قلب الدوم الأبيض والطري، وأنفصل بعيدا عن ممرات الناس الذين بنتزعون أظلاف الدوم ليبيعونه لرحى كامي، أختلي قليلا وراء الزيتونة اليتيمة، وآكل كل ما انتقيته. وعندما أنتهي تكون أمي قد وصلت بحمارها، فأنتزع معها الدوم. نملأ الخرجين بالظلف، ثم نتجه بدورنا نحو رحى السبنيولي كامي التي تبتلع كل ما يقدم لها لتقوم بطحنه وتجهيزه لبعضه في قطار السلع الذي يمر بسرعة مجنونة عبر الجبال الخالية، قبل أن يتوقف على حافة الرحى. يملأ العمال الظلف المطحون أو الكران كما كانوا يسمونه، ثم يواصل سيره باتجاه ميناء الغزوات. في المساء تملأ أخواتي زوليخا وخيرة وزهور الخوابي بالماء لتستحم أمي من أغبرة الدوم، وأنزل أنا، حفاظا على الماء، نحو السقاية، أنافس رجال القرية من الفلاحين الذين يحولون السقاية ليلا إلى مهرجان من النكات المالحة والصريحة، التي تتعلق بعلاقاتهم النسائية. كل واحد يفاخر بحبيبته وكيف أنه يشبعها وينزع عنها حاجة التفكير في غيره. الجزء الأكبر منها كان مغامرات كاذبة. أدركت بسرعة أن الحب في القرية إذا لم يكن زواجا، لا يتعدي متعة العين، وربما قبلة هاربة وراءها عسس كثير. بينما في حكاياتهم يذهبون بالفعل الجنسي إلى أقاصيه. أدخل في عمق جابية الماء الدافئ مثل ضفدعة صغيرة، وأهدأ وأنا أسمع وأتخيل المشاهد التي يروونها، وأتركني أغرق في ماء السقاية حتى يوقظني أحد الرجال الكبار وهو يردد: *اسمع يا لزعر الحمصي، واش راك دير هنا؟ أستحم من غبار الدوم.* أجيبه بثقة الرجال. ينظر إلى عيني اللتين تعكسان ضوء القمر، فتتجلى كل الكذبات الخبيئة. قبل أن ينبهني: *هذا مش مكانك. هذا مكان الكبار. انتظر قليلا* حتى *تكبر ويروح لك ريش الحرام.* قصده أن ينبت لي شعر حقيقي في جسمي. أنشف جسدي بفوطة أمي التي مازلت إلى اليوم مسحورا بها، ثم أذهب إلى البيت نقيا وجميلا، فأنام.

بيننا وبين الحيوان لم تكن المسافات كبيرة، سوى عقل صغير تعب كثيرا من التفكير الهش.

شعرت مرة أخرى بالعزلة والتيه. انتابني سؤال غريب أطرحه على نفسي سرا كلما أحسست بالعزلة. هو السؤال الذي عاد بقوة ضاغطة منذ أن خرجت من المغارة وواجهت الفراغ من جديد. سؤال ظل يخيفني دائما بقوة ولا أجرؤ حتى على طرحه

على نفسي مخافة ارتكاب الخطيئة، فأوضع في صف الشياطين مع أن سيدنا إبراهيم طرحه قبلي عندما امتلأ قلبه بيقين كان يبحث عنه، ليطمئن قلبه. ثم أقنع نفسي: *سيدنا إبراهيم أبو الأنبياء وكليم الله، وله الحق في السؤال*. ثم أجيب على نفسي بنفسي: *لكننا هنا نتساوى. كل كائن له نصيب في السؤال والراحة الأبدية*. لكني لم أتمكن من طرحه بسبب الخوف المضمر. كم اشتهيت أن أصرح وأنا في عمق التيه القلق: "***ربّ أرِني كيف تحيي الموتى؟*** *" كيف تحيي يا الله هذا الجيش من الأموات من البشر والحيوانات والنباتات؟ هل الجنة مقبرة وأرض يباب تستقبل أرواحا هائمة وطائرة تبحث عن سكينة شبه مستحيلة، أم شيء آخر صعب عليّ أن أدركه حتى اللحظة؟ أرض أخرى بلا عذاب، وملتقى الكائنات كلها بعد أن تترك سمومها وأحقادها وراءها، في الأرض ولا تنتقل بها معها إلى هنا؟* أتوغل في السؤال السري: *هل الجنة مجرد مساحة ينام فيها الإنسان ليرتاح أبديا بعد عذاب الأرض؟ أم حياة أخرى بنظام آخر أكثر إحكاما من النظام البشري الذي لا يبني إلاّ ليهدم، وكأنه يلعب. حتى القتل ليس أكثر من لعبة يلعب فيها القوي بالضعيف كما يريد ويشتهي، قط خشن مثل قطط المزابل، يمد رجليه ويضع الفأر بين مخالبه ويتركه يتمدد يتقلص بحسب سرعة أو بطء حركة الضحية*. كان في نيتي أطرح سؤالي الذي يؤرقني ولكن، في الجنة، أو في برزخ الامتدادات المبهمة، يوجد أيضا خوف ينشأ من محيط لا نفهمه بسهولة. لكن الله يقرأ النوايا ويحاسب عليها. نيتي كانت في السؤال. ابتلعت لساني مخافة أن أعاقب ولا أرى من أحب.

لقد رأيتهم كلهم تقريبا؛ من شيدوا داخلي العاشق والهش والقوي في الآن نفسه: جدي. حنا. ميما. إخوتي. مينا. سرفانتس. وأنا أتجه نحو مبهم آخر، لم يبق لي ما أراه إلا الدخول مثل غيري في السكينة الأبدية. ومع ذلك، لم أسأل لأن شيئا ما عميقا منعني من ذلك. على الرغم من أن السؤال كان على طرف اللسان لكنه تلاشى لسبب غامض. في الجنة خوف أيضا؟

مشيت قليلا قبل أن ألتفت للمرة الأخيرة نحو مغارة مونتيسنوس. لم أر شيئا؟ أغمضت عيني مرة أخرى ثم فتحتهما بهدوء تلألأت من بعيد أنوار كثيرة افترضت أنها لمغارة مونتسينوس لأنه لا يمكن أن تنطفئ بهذه السهولة، ذلك يعني ببساطة أن كل ما رأيته

في المغارة لم يكن إلا وهما ناتجا عن ضربة شمس قاسية أو خرافة نبتت في الدماغ بسبب القراءات الكثيرة كما حدث لدون كيشوت؟ وقفت في مكاني وبدأت أحدد المسافات، وموقعي والمكان الذي خرجت منه قبل قليل. الغريب أني لم أجد الحاجة للالتفات إلى الوراء، حتى لا أثقل على المكان وعلى الناس أيضا. ثم إن الالتفات الكثير لا يساعد على نسيان الأمكنة أبدا وينمي حالة الخوف والعزلة. للنسيان قليلا، نحتاج إلى أن لا نلتفت أبدا نحو الأمكنة التي يؤرقنا اندفانها فينا.

أغمضت عيني من جديد والتفت هذه المرة بقصدية مسبقة وليس مثل المرة الأولى عندما تم ذلك بعفوية غير محسوبة. رأيت شيئا غامضا وهلاميا لا شكل له، افترضت أنه هو المغارة. هذه المرة حاولت أن أنسى نهائيا وأن أنزل من مخي فكرة انطفاء المكان، المغارة موجودة، سرفانتس موجود، وزريدة ما يزال عطر ألبستها في أنفي.

لم تكن مغارة مونتسينوس اختلاقا ذهنيا. موجودة حقيقة وكنت فيها قبل لحظات. خرجت منها، ثم مشيت على هدي المرأة التي كانت تنتظرني عند الباب، ونبهتني إلى أن أسير في طريق الحقل الأخضر المزركش بالأحمر وأشجار البرتقال الصغيرة، وأمشي بينها حتى أصل إلى مفترق طرق واضح، هناك تتضح الرؤية من الداخل إذ عليّ أن أختار. *إما طريق اليباب الذي يقود إلى مسالك لا نعرفها، وإما إلى مسالك النار، وتلك أيضا نسمع عنها ولا نعرفها، ولم نصادفها أبدا لكننا أحسسنا بحرارتها وشممنا غبارها، لأننا عابرون في هذه الأمكنة. نحن أيضا سنرحل بمجرد أن يستفيق سيدي من غفوته. نتركه يرتاح قليلا. سيدي جاء إلى هنا ليراك ويرى من حمله في قلبه زمنا طويلا. يشعر أن هذا من واجبه. فقد ملك الأرض واللغات كلها. سنغيب نحن أيضا في خلود الراحة، لا نأبه بشيء، إذ كل شيء يسير فيها وفق نظامه. تلك سكينة الله حيث ينتهي كل شي فينا، نسمع ونرى ونحس، ولكننا خارج دوامة الشجن وصراخ المعذبين والخائفين. بمجرد خروجك سيعود سيدي إلى مأوى الاستكانة الأبدية. هو أيضا تعذب كثيرا. يبدو أننا كلنا ورثنا آلام سيدنا المسيح. خذ هذا البوط، سينفعك. انتعله، قد تكون المسالك التي تنتظرك صعبة وشديدة القسوة. هو صراطك يا سيدي.*

ثم وضعت على عنقي كوفية ترقية خفيفة، وهي تتمتم: *قد تفيدك في تحمل الروائح الكريهة والغبار والأدخنة. المنطقة كأنها بركانية. أتعبتنا قبل أن نصل إلى المغارة.*

لم أتساءل ولا ثانية واحدة. انتعلت البوط وكأنه وضع على مقاسي. ووضعت الصندل الذي كنت أنتعله في الجراب، على ظهري. به قليل من الأكل والماء والبرتقال. أتقنت زريدة في اختيارها مما كان لديها.

- أعرف يا سيدتي. سرفانتس كان عظيما وعاشقا بلا خوف. كان علامة زمانه. مهم

أن نحب بلا خوف. لقد جعل منك رهانه الأسمى في صراع الفروسية. كان في حاجة إلى امرأة تفرح بمنجزه، وتعليه في قلبها وعينيها، وإلا ما قيمة الانتصارات إذا كانت تنام فقط في كتب التاريخ المتهرئة ومجلدات العارفين المغلفة بالقطيفة والأقمشة الغالية وجلود الغزلان؟

- معك كل الحق. لم يفهمه أحد في ذلك. ظلوا يسخرون من هبله العشقي. حتى أنا

بدوت لهم امرأة بشعة وفلاحة منهكة من شدة فقرها. قلبه الذي كنت فيه، وحده كان حبيبي.

- كنت دولثينيا ولم تكوني أنتِ التي يعرفها الجميع. صنعك وفق ما اشتهى وأحب،

لتتشكلي نورا في دمه، وفي عينيه المتعبتين من شدة السهر والتفكير، كما يحلو له خارج سلطان القتلة والجهلة الذين لم يفهموه أبدا. كنتِ جوهره فقط. الحب والحرية.

برقت عينا المرأة بنور ظل متخفيا طوال حديثي.

- لو كان كل الناس مثلك، يرون في الآخرين ما لا يراه العاديون، لكانت الدنيا بخير.

- كنت تشبهين الصورة التي صنعها بقلبه. كل ما في دون كيخوتي هو صناعة قلبية

وليس شيئا آخر. الذين لا يعرفون جوهره هم من يضحكون بغباوتهم على جهلهم وهم لا يدرون. صنعك بكل حواسه ولم يكن معنيا بما كان يدور من حوله وما يقوله الناس

الذين عرفوه. رأى فيك كل شيء، أكثر من دولثينيا التي سحرته. رأى سحر فروسيته، إذ بدونك لا طعم للأشياء سيدة ألدونثا لورينزو دي طوبوسو[73] كنت حاجته الضرورية التي يهدي لها فتوحاته. ويحتاج الإنسان أن يؤمن بالشخص عميقا ليكون مثل سرفانتس في هبله. كان يحبك في شبابه، ولكنه لم يقل أبدا ما في قلبه. كنتِ حلمه الذي يشبه حفنة ماء أمام عاشق جف حلقه من كثرة الأناشيد والشعر.

- كان في جنونه قد وصل إلى السقف والأقاصي. أنا لا أوهم نفسي أبدا. لم أكن في

الجوهر أكثر من فلاحة تعيش شططها اليومي بكل قسوته وخوفه. حتى أن سانشو بانثا تحايل وجعلني مصابة بقدر مجنون سلط عليّ ساحرا ما، فحولني إلى امرأة غير جميلة. مع أني كنت أنا، وكان سيدي يحبني كما أنا. لم يكن الدوق والدوقة مضطرين لإغوائه بالشاب الجميل وقالا له هذه هي دولثينيا. كان مكتفيا بقلبي. من قال لهما أن يفعلا ذلك؟

- لهذا أقول لك وأكرر، دون كيخوتي تحديدا لم يفهمه أحد، حتى أصدقاؤه أخطأوا قلبه

نهائيا لأن نظراتهم كانت متأثرة بالعفن العام والكذب المستفحل. لهذا مات في عزلة وخوف. لقد ظل متعلقا بك، حتى عندما استفاق من غفوته الكبيرة ***في الفصل 74 والأخير*** لم يجد شيئا يغريه إلا عقله الذي استعاده فجأة. مرض دون كيخوتي وبدأ يسارع الزمن بقوة لكي يستعيد ما غيبه، بسبب الكذب المعمم وحياة لا شيء فيها يستحق أن يذكر. في حمى الستة أيام التي انتابته وأعادته إلى حضنك، استقبل أصدقاءه الذين تصوروا أن أحزانه متأتية من هزيمته على ساحل برشلونة ولم يستطع تحقيق حلمه المتلخص في إغوائك بشجاعته واستماتته وانتصاره في النهاية.

- لكن الذي لا يعرفه الكهنة والجهلة، كنت في أعماقه حتى اللحظات الأخيرة، جوهر

شعلته، حتى ولو بدا ذلك غير واضح بالنسبة للآخرين. عندما حاولوا أن يهونوا عليه قسوة هزيمة برشلونة ويعيدوه إلى الصواب، ضحك بصوت عال، وفاجأهم بصفاء

[73] Aldonza Lorenzo et Aldonza de Toboso

ذهنه. وأقنعهم بأنه يرى كل شيء بوضوح. وطلب من حفيدته أن تدعو أيضا كل أصدقائه الذين صرح أمامهم بحبه لي، وأنه استعاد اسمه الغائب والمسروق، ***ألونصو كيخانو***، الطيب والجميل، وأنه أصبح يكره كتب الفروسية لأنه صار منذ تلك الهزيمة الشريفة تحت سقف آخر. سقفي. ثم أملى وصيته ومات وهو راشق عينيه في عيني. هل هناك نهاية أجمل من هذه؟

في الحقيقة لم تكن النهاية بهذا الشكل، لكن دولثينيا تحكي أيضا ما اخترق قلبها فقط، ولا تهم دائما الحقيقة المدونة، نحن لا ندون إلا قشور الأشياء بعد أن نسرق منها روحها العميقة، وأحيانا أحاسيسها. نحتاج إلى لغة غير تلك التي بين أيدينا. لا أعرف إذا كان فعلا قد فعل ذلك، ولكنه كره نفاق الجميع. تخيل حتى الذين سيسرقون كتابه ويعطونه امتدادا كذبا وبهتانا. لكني أعرف أن اللعبة التي دخلها، دخلها بعمق وصدق، واندغم فيها حتى الهبل مع الحقيقة.

- ربما تقول في أعماقك إنها ليست النهايات الحقيقة ولكنها نهايات أنا من تخيلتها. معك

كل الحق. لا أفعل ذلك إلا لأني أعرف داخله بعمق. لست فلاحة لا بشعة ولا سيئة، ولكنني امرأة عاشقة لسيدي دون كيخوتي. دولثينيا التي عرفت كيف توقظ فرحه في عز الخوف وحروب الشطط. لقد كنت رهانه الذي حاول أن يصله لكنه لم يفلح كما أحب. هزيمته لم تزده إلا قناعة أن الزمن الذي عاشه كما ظهر للناس هامشيا، كان في صلبه وعمقه. نحتاج إلى من يعطينا التبرير الكافي لتضحياتنا ويمجدها خارج الأديان التي تجعل الموت المقدس حالة ضرورية. لم يكن يريد الموت المقدس. كان دون كيخوتي، مثل سيدي سرفانتس، يحلم بموت إنساني، ينام فيه الحب وحقيقته الجوهرية أيضا التي تعامل معها الناس بغباوة. أو لا أدري ؟ هذا على الأقل ما بقي في حلمي وقلبي، وحكم لاحقا كل ما قمت به من أجل سيدي. أنا مثلك، محبة له بجنون، ولو أنه لكل منا مسالكه في الحياة.

- وجودك في هذا المكان لا يعطيك كل حقك.

- فهمتك. لست أكثر من حلم هارب. زريدة من لحم ودم يا قلبي. اشتهي أن أظل فلاحة

كما بدأت دائما، في خدمة سيدي ومحبيه الكثيرين. معك حق يا سيدي. كنت سعيدة بخدمتك. نسيت أن أقول لك إنه يمكنك أن تأكل أي فاكهة تصادفك. حتى فاكهة إبليس، فهو منفي من هذه الأماكن. له أماكن أخرى ما يزال له فيها بعض حرية الحركة، لكن هنا لا. حتى في أماكنه التي احتلها، فهو يفشل دوما في غواياته.

- فاكهة إبليس. قصدك التفاحة.
- لا. أقصد البرتقال. البرتقاااااال هههههه.

مططت كلمة البرتقاااال، ثم أصلحت وضعية الكوفية السوداء على عنقي وهي تردد: ستحتاجها حتما، كما قلت لك. *العواصف هنا لا وقت لها، ومزاج الطبيعة لا يحكمه أي شيء أبدا. هي سيدة. ترمي بشررها ورياحها متى ما شاءت، وكيفما تريد. اتركها على عنقك، لن تزعجك فهي خفيفة جدا.*

ارتسمت على محياها أنوار ابتسامة عريضة وواسعة. لحظتها عرفت بالضبط لماذا أحبها دون كيخوتي ولم يفهمه أحد من الذين سخروا منه. وانسحبتْ حتى قبل أن أسألها من أين لها بأسطورة البرتقالة التي ظننت دائما أنها ملكي وملك لامرأة سرقت القلب، ولم تنتبه أن كلمة برتقالة أصبحت اليوم تحيل بقوة إليها وإلى غوايات الشيطان الفاشلة. يبدو أني لم أكن الوحيد الذي سرق من الشيطان البرتقالة كما فعل أجدادي الأندلسيون، ومنح له التفاحة بسخاء لأنها فاكهة ترسم بلادة آدم وحواء وتجسدها. لم أفهم جيدا كيف وصلتها قصة البرتقال التي كنت أظن أنها من مروياتي، لكننا، على كل، في عالم من يستطيع أن يقول هذا لي وذاك لغيري؟ كل شيء، لكل شيء.

ضحكت أيضا وواصلت طريقي كما أشّرت لي السيدة الدونثا لورينزو. على الرغم من بساطتها الظاهرة، كانت حكمتها كبيرة وقوية. كانت تعرف أن الحياة شيء آخر غير ما يظنه من يملك سلطان الكلام والقرار.

وهي تغيب في خلجان الحقل، التفتت نحوي قبل أن تخبئها عني نهائيا النباتات العالية والأشجار.

- شوف يا سيدي. امش باستقامة. عندما تصل المسلكين، وقتها اسأل عمقك. لا أستطيع

أن أفيدك. اسمع لقلبك فقط، هو من يدلك على الطريق الصحيح، وهو من سيختار لك المسلك الأدق.

ثم سرت، عندما التفت لأودعها، كانت قد غابت نهائيا. ربما انزلقت داخل الحقول. حتى المغارة من شدة النور الذي كان يخترق كثافة الضباب الذي نزل فجأة، غابت تفاصيلها.

لا يمكن أن يكون هذا كله مجرد وهم هارب؟

مشيت وسط كتل الضباب الكثيف الذي كنت أراه وهو يتحرك أمامي معاكسا لمساري. مشيت ولم أسال أبدا. حتى تجاوزت الحقل المرقط بنوار النعمان الأحمر. كما قالت لي السيدة الدونثا لورينزو. وجدت مسلكين وطريقين متشابهين، الأول عندما رميت بصري بعيدا، رأيت أنه ينتهي إلى فراغ أسود، يدور في شيء شبيه بالظلمة. بينما الطريق الثاني ينتهي إلى بياض وبشيء مثل الهالة النورانية. وكما أعرفني، لا أتوجه أبدا نحو الظلمة. بحدسي سرت قليلا ليس أكثر من سبع خطوات ثم تراجعت. أحسست بيد قوية تسحبني نحو الفراغ الأسود الذي تفاديته في المرة الأولى. ترددت قليلا. قلت ربما جدي هو صاحب هذه الحركة. ولكني لم أسمع أية كلمة منه. تمتمت: *قل لي يا جدي، ماذا أفعل الآن؟ يبدو أنها خاتمة البدايات*. لكن جدي ظل متخفيا في أعماقي. ربما لم يكن موجودا معي لحظتها. عاودت من جديد تصحيح السير، وعدت نحو مسلك الهالة النورانية، لكني انزلقت فجأة على شيء لزج لم أتبينه كاد يكسر ساقي: *هذا واش خاص العمياء؟* تمتمت ساخرا. سبع مرات وأنا أحاول وفي كل مرة يحدث شيء يمنعني من السير في هذا المسلك، متفاديا المسلك الذي ينتهي إلى الظلمة. في كل مرة يحدث شيء. آخرها أربعة طيور ظننتها حمامات، اتضح بعدها أنها غرانيق، اقتربت مني بالشكل الذي أراها فيه. ثم دارت فرق رأسي دورات عديدة، قبل أن تنصرف باتجاه المسلك المعتم.

كلها كانت علامات حية، كان من المستحيل عليّ أن أهملها.

سلكت معبر العتمة وأنا أحدث نفسي: ***إذا كانت تلك إرادتك يا الله، فمرحبا بها.***

لم يطل بي الحال لأشعر بالندم. قلت في أعماقي لمَ لا يكون الشيطان هو من قادني نحو المسلك المظلم. أوقفت شكوكي وأسئلتي، وسرت باتجاه الطريق الذي رسمته الغرانيق.

مشيت زمنا بدا لي طويلا، حتى غابت الأشجار والحقول التي كانت تؤنسني. كانت التربة لدنة ومريحة حتى إنّي تساءلت، لماذا هذا البوط الثقيل؟ سمعت صوتا راعدا هزني بقوة، يشبه صوت الزلازل، وأغبرة تتصاعد في الأفق القريب، حتى إنّ رائحة الحرائق كانت تصلني. رأيت الغرانيق تهرب نحوي وتستأنس بي. فجأة بدأت رجلاي تغرقان شيئا فشيئا في عمق لزج يشبه الحمى. وكنت أخرجهما بصعوبة كبيرة. لم أخطُ إلا مسافات صغيرة، حتى وجدتني في عمق حقل من النيران المشتعلة والأدخنة التي ظننتها غيما أو ضبابا. كنت أتدحرج وحيدا في الفراغ. عندما كنت ألتفت ورائي من حين لآخر، كان المكان يبدو لي صحراء مقفرة وشعلات النار في كل مكان. كيف سأمر وسط هذه الخوف، وكيف سأتخطاه؟ لماذا لم أتجه ناحية طريق النور؟ الغرانيق الأربعة أصبحوا سربا كبيرا، كانوا يعبرون السماء بالاتجاه الذي كنت أسير فيه، مما أعاد لي الثقة بخياراتي على الرغم من الوضع الصعب الذي كنت فيه. الشيء الوحيد الذي كان يعطيني الإحساس بأني لم أخطئ في مواصلة السير هو ما كنت أراه من حولي.

أمشي بصعوبة كبيرة بين الصخور النارية المنزلقة ، وأحاول من حين لآخر أن أنظف البوط الطويل وأتشبث بالمكان. كانت تعلوه زيوت شبيهة بتلك الزيوت التي تلوث البحار، مع رائحة حادة وأدخنة حارقة كانت إما تخرج مباشرة من الأرض أو من الشعلات الصغيرة التي كانت تنتصب في صلب الأرض كأنها تخرج من عمق البراكين. كنت أجد صعوبة كبيرة في التحرك كأن الأرض كانت تبتلعني. حينما توغلت أكثر، تأكد لي أنها أراض نفطية مثل تلك التي رأيتها من قبل في كركوك العراق، أفقر مدينة في أغنى أرض. لهذا لم أستغرب كثيرا لا في الرائحة، ولا حتى في اللزوجة والنيران المشتعلة. انتابتني ضحكة عميقة احتفظت بها لنفسي: ماذا لو تعرف أمريكا وأوروبا بالمكان؟ هل ستُرحِّل معها أدواتها للجنّة لتسرق روح الأراضي الأخرى؟ من يدري؟ قلتُ ساخرا. لقد بدأوا يحفرون الصخور لاستخراج الغاز الصخري، ولم

يفكروا أبدا في الانهيارات الكبيرة التي يمكن أن تحدثها التفجيرات في عمق الصخور والأرض لاحقا؟ الإنسان يغتال حياته بما خلق من حاجات وأدوات ستحول الأرض إلى هيكل عظمي.

انفصلت للحظات عن وساوس الموت والغرق في الزيوت الثقيلة، وبدأت من جديد أحاول أن أسير بعقل. فقد لاحظت أنه بين البقعة الزيتية والبقعة مسافة مترين لو قاطعت المشي بين الصخرة والصخرة، يمكنني أن أتفادي ثقل الغوص بالبوط في الزيوت. ولكن كان عليّ أيضا أن أحذر قدر ما أستطيع، لأن الغرق معناه البقاء في عين المكان حتى تغطيني الزيوت المشتعلة في ظرف زمن قليل. كانت التجربة صائبة، ولو أني في لحظة لم أنتبه جيدا، إذ كنت منهمكا أتأمل الغرانيق وهي تنزل وتصعد، وتنقر الزيوت قبل أن يتجمد الكثير منها في مكانه. ومع ذلك تشبثت بالصخرة التي سقطت عليها بيدي. ثم واصلت السير، وأنا لست متأكدا أن وراء هذا العذاب نجاة من كابوس الغرق في الزيوت. فجأة بدأت الرياح تهب محملة برماد الحرائق التي أصبحت تأتي مباشرة نحو وجهي. توقفت للحظة. لملمت الكوفية الترقية السوداء، ووضعتها على وجهي. ذاك ما تبقى لي وقتها، إذ كان علي أن أواصل مهما كانت حالة الضيق والاختناق. شعرت فجأة ببعض الراحة، لأن الأدخنة لم تعد تصل لأنفي ولا لحلقي الذي جرحته في البداية. تساءلت مرة أخرى وأنا وسط التيه والأدخنة، إذا لم أكن قد سلكت الطريق الأصعب، والأكثر قسوة، والأكثر من هذا، الأسوأ.

استغربت أن الغرانيق التي كانت ترافقني لم تعد تظهر الآن. انطفأت فجأة. لم أفهم الظاهرة لأنها كانت دليلي الأوحد بأن الحياة موجودة. ظننت أن الأدخنة هي السبب، ولكن حتى حينما انسحبت الأدخنة الكثيفة والثقيلة، لم تعد الغرانيق كما كانت تطير في البداية. كانت تحوم من حين لآخر على رأسي قبل أن تصعد عاليا في السماء. لا شيء من هذا الآن. بدأ السواد الذي كان يغطي الأفق ينجلي وتحل محله رياح خفيفة محملة بعطر آخر. لكنني كنت ما أزال أعبر المسلك الصعب بشق الأنفس، الهواء غير المحمل بالرماد جعل وضعي أحسن مما كان عليه في البداية. عندما نزعت الكوفية الترقية شممت عطر الماء وطحالب الوديان. لا أدري إذا كان للماء عطر. فجأة رأيت في حقل ممتد على مرمى العين سربا، الغرانيق كلها كانت ملتصقة بالزيت

وكلما رفرفت بأجنحتها قليلا، ثقلت أكثر وتمادت في الغرق. من حظي أن الأرض التي كنت أمشي عليها قلت مادتها اللزجة، حتى انتفت تقريبا في بعض الأماكن. كنت بين أن أواصل عبوري، أو أقطف طيورا ظلت تنظر إلي يعيون يتيمة. الكثير منها مات، ومع ذلك أخرجتها كلها على الرغم من التعب وقسوة اللحظة. وأنا أحملها نحو اليابسة حيث وضعت جرابي، انزلقت رجلاي تحت لزوجة الصخرة فتدحرجت في عمق بركة زيتية، فالتصقت بالمكان. وكلما حاولت التخلص، كنت أغرق أكثر. أصبحت أعيش بالضبط حالة الغرانيق. حاولت أن أساعف نفسي وأتشبث بالصخرة، لكنها كانت لزجة لدرجة أني لم أستطع فعل الشيء الكثير. كنت أشعر كأن قوة ما كانت تسحبني تحت الأرض عميقا، وكلما حاولت أن أقف، زاد الفراغ من تحتي. لكن، على الرغم من الصخرة المنزلقة، تشبثت فيها. عندما غسلت يدي في السائل الذي تجمع في حفرة عميقة فيها، بدأت اللزوجة تذهب من يدي وحتى من على الصخرة التي غسلتها ثم تشبثت فيها وجلست عليها وبدأت أغسل يدي وجسدي حتى أصبحوا نظيفين من المادة الثقيلة، وذهبت نحو جرابي والغرانيق الميتة والحية، على الأرض الصخرية. جلست وبدأت أفصل بين الغرانيق الميتة والحية.

عندما انتهيت، كانت الكومة الميتة قد تجاوزت العشرة، بينما أنقذت أربعة منها. لم تكن أمامي أية وسيلة لتنقيتها إلا السائل الذي يشبه البنزين الذي كنت آتي به من الحفر الصخرية. جلست في الفراغ، إذ لا شجرة أبدا، وبدأت أنظف أجنحتها بهدوء ونعومة وأحاول قدر المستطاع أن لا أؤذيها. اكتشفت بالصدفة صلاحية المادة السائلة التي كانت تشبه بنزين السيارات.

كان الجو صافيا قليلا. لكن كتلة السواد التي ارتسمت في الأفق قلت حتى انسحبت. فجأة شعرت بظل يقف ورائي.عندما رفعت رأسي رأيت رجلا يشبه البيضة، قصير القامة ومدور. يلبس الأبيض، وشعره أبيض. ولحيته بيضاء، ووجهه أبيض أيضا. من شدة الضوء الذي لمع بحدة في المكان الذي كنت فيه، انزحت بعيني بعيدا عنه. دار من حولي ووقف يواجهني. ألبينو. لا أدري ما الذي دعاني لتسميته ألبينو. ربما بسبب هذا البياض الكبير ثم إنه لم يقدم نفسه. واستغربت أنه لم يساعدني على الإنقاذ وأنا أتخبط وحدي على الصخرة اللزجة؟ كنت متأكدا أنه كان يراقب المشهد وتركني

وحدي، أجد مسالكي. على كلّ لم ينزل من السماء بشكل فجائي؟ اقترب مني أكثر. وجلس بالقرب من المكان الذي كنت فيه وأنا أنظف الغرانيق الحية مستعملا حتى منشفتي الخاصة التي أخرجتها من الجراب.

- على كل الغرانيق ستموت كلها، بما في ذلك الأربعة.

اندهشت من كلامه حتى بدا لي شبيها بالموت، وبكفن. كيف يقول كلاما كهذا وأنا كدت أخسر حياتي بسببها.

- لا يا سيدي. البعض منها لم يقاوم الزيوت لأنه تخبط كثيرا فيها حتى تعب ومات. لكن الأربعة لا.

فقد نظفتها كليا ولا تنتظر إلا قليلا من الراحة، وتجف لتتمكن من الطيران. كل شيء فيها يوحي بأنها ستخرج سالمة.

فجأة جمع الغرانيق الأربعة في كفيه الواسعتين ونفخ فيها من أنفاسه، في مناقيرها. سعدت لذلك. فتحتْ أعينها الصغيرة كأنها تستيقظ من غفوة قلقة.

- أرأيت، ها هي تستفيق وقلوبها الصغيرة تدق.

- لا. قدرها أن تموت حتى وإن بدا لك أنها في صحة جيدة؟

- غريب يا سيدي. هي حية بين يديك كما ترى؟ وتكاد تطير بمجرد أن تنشف أجنحتها.

وقبل أن آخذها منه وأدفئها في صدري، لأني صممت أن أفعل ذلك، جمعها وضغط على رؤوسها ثم أخرج سكينا صغيرة، ذبحها وقطع رؤوسها. ثم مزقها بعنف كأنه كان يملك مخالب وليس أظافر، وأخلط أمعاءها وريشها. تساءلت عن أية حكمة متخفية من وراء ذلك غير جريمة القتل؟ كيف يعبث ألبينو بالأرواح؟ لم أتمالك. التفت نحو سماء بدت لي فارغة. كنت مجروحا في العمق لأني تعبت من أجل حياتها. صرخت صرخة سيدنا إبراهيم لأول مرة.

رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...

ظللت أكررها حتى وجعني رأسي وصدري. بينما استمر ألبينو في تمزيقها بلا توقف ويخلط أجسادها النحيفة أو ما تبقى منها. كم تمنيت أن يحييها الله لأنها رافقتني،

وكانت أنيسي، وغامرت معي طوال رحلة الزيت العفنة التي كادت تلتهمني. بها استطعت أن أعرف الطريق وإلا كنت ضعت.

نظرت إلى ألبينو بحقد.

عندما انتهى من عرك الأجساد وخلطها، وضعها في زوايا أربعة من المكان الذي كنا فيه، ونادى بما سبق أن ناديت به.

رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...

فبدأت الأجساد الصغيرة تتطاير في الفضاءات الواسعة في مشهد غريب. شكل الريش المتطاير، مساحات واسعة في الفضاءات. غطت المكان كليا. ثم بدأت الأرجل، والرؤوس، والعظام المطحونة، واللحم الممزق، تعبر فوق رأسي أمام وجهينا وتبحث عن أمكنتها في أجساد الغرانيق التي التأمت. حتى هدأ كل شيء. انتهت المشهدية واستعاد كل طير حياته، كما كان في البداية.

تجمعت الغرانيق الأربعة لتقف على رأس ألبينو الذي ظل يضحك كمن حقق انتصارا غير منتظر أبدا.

- تبدو صامتا ومندهشا؟ ألم تكن تريد أن تشاهد هذا؟ ألم يحرقك هذا السؤال الخفي منذ

أن وصلتَ إلى هذا المكان؟

- نعم يا سيدي. رأيت كيف تكون الأشياء عندما تؤمر بأن تكون، فتكون.

- هو يقول لها كوني فتكون.

- لكن عنفك كان قاسيا.

- العنف هو صيغة قوية لمحو كل الشكوك التي سكنت قلبك، ولم تستطع التخلص منها.

التدليل سيد البراهين، أوَ لم تُؤمِنْ بكل

هذا يا ابني؟

- بلى، ولكن ليطمئن قلبي. أنا لم أشك أبدا في ما انتابني عميقا يا سيدي.

- لم أكن هنا لهذا لكن الله شاء به. أنا هنا فقط لأقودك نحو مسالك النور، بعد أن قطعت

أراضي النار. كنت في دهشة غريبة. عركت عيني المحروقتين بزيت الأرض المحروقة ورمادها. تذكرت لحظتها كلمة العوفي عن ابن العباس في توصيف ما حدث استجابة لطلب سيدنا إبراهيم *: أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ، ثم جعل على كل جبل منهن جزءا ، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ، ثم قطعهن ونتف ريشهن ، ومزقهن وخلط بعضهن في بعض ، ثم جزأهن أجزاء ، وجعل على كل جبل منهن جزءا ، قيل : أربعة أجبل . وقيل : سبعة . قال ابن عباس : وأخذ رؤوسهن بيده ، ثم أمره الله عز وجل ، أن يدعوهن ، فدعاهن كما أمره الله عز وجل ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش ، والدم إلى الدم ، واللحم إلى اللحم ، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض ، حتى قام كل طائر على حدته ، وأتينه يمشين سعيا ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها ، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم ، عليه السلام ، فإذا قدم له غير رأسه يأباه ، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جثته بحول الله وقوته.*

- قم لنواصل سيرنا نحو معابر النور.

مشيت طويلا وراء ألبينو ولم أسأله أبدا. كانت علامته كافية بأن أدهشتني. عندما التفت ورائي، كانت الأدخنة ما تزال تتصاعد من المكان الذي عبرته. فوجئت كيف استطعت أن أسلكه وأن أنقذ بعض الغرانيق؟ أن أنقذ نفسي أيضا؟ كانت الغرانيق الأربعة تبتعد في السماوات العالية ثم تعود نحونا، لتضع بين يدي ألبينو أوراقا بيضاء مكتوبة بالسماق والحبر القديم. يفتحها بسرعة. فيكتب غيرها ويلصقها برجليها، ويدفع بها إلى الطيران عاليا، بعيدا عن المكان الذي كنا فيه.

التفتَ نحوي وهو يتمتم:

- يجب أن نسرع قليلا قبل انطفاء الأنوار، وعودة الأدخنة التي ستعم المسالك وتلتهب

الأرض. لأنه بعدها لن نستطيع الحركة أبدا. نصعد الجبل وننتظر فقط. وسنتعب أكثر مما تعبت أنت.

- أنا وراءك يا سيدي.
- نسير نحو الجبل.

عندما نظرت إلى نفسي، كنت في شكل بائس، مليء لباسي ووجهي بالرماد وبقع الزيت، بينما كان ألبينو نظيفا كخيط من حرير. البوط الذي في رجلي، على الرغم من أني غسلته، إلا أنني ظللت أحس بثقله. كدت أقول له: *يا سيدي أنا في حاجة للتخلص من أثقال الزيت التي تلوث المكان.* ولكنه سبقني إلى ذلك:

- نمر على *وادي الشلالات*، هو في الخلفية. ماؤه دافئ. تغسل نفسك وتحرم، وتصلي

ركعتين، لأنك بعدها لن تجد وقتا كافيا لذلك، إذ لن يمهلك العبور أية ثانية إضافية. كل شيء سيكون محسوبا بدقة. ستستقبل معبرا لن تكون لك الفرصة الكافية فيه للاغتسال.

- *وادي الشلالات* بعيد من هنا؟

- لا. من وراء الجبل. يسمّى كذلك، لكنه جزء من البحر. أصخ السمع قليلا وستسمع

صوت تكسر المياه العنيف على الصخور، قبل أن تنساب في وادي الشلالات. انظر إلى هناك، حيث بعض الظلام الخفيف. هنااااااك. ارم بصرها باتجاه المرتفعات.

نظرت بعيدا كما أمرني ألبينو الذي زاده النور الحاد بياضا حتى كاد يغيب نهائيا. رأيت بعدها بخارا كثيفا يتصاعد نحو الأعالي كأنه كان يخرج من جبل، في عمق البحر. ثم شممت عطرا يشبه عطر الياسمين ممزوجا برائحة الكبريت التي تنفثه البراكين أحيانا. ثم دققت الإصغاء أكثر، فسمعت شيئا يشبه الغليان قبل أن يتضح أكثر، فيأتيني صوت تكسر المياه التي كأنها كانت تنزل من أعالي الجبل في شكل شلالات، فأسمع أصداءها وهديرها من كل الجهات.

أدركت لحظتها أني لم أعد بعيدا. أنا على حواف ما حكى عنه ألبينو، معبر النور.

2- لَسْتَ أَنْتَ مَنْ يَسْأَلُنِي

واااووووو... يا الله؟ أين أنا؟

وقفتُ في مكاني، أحاول أن أتثبت بصعوبة متمسكا بالفراغ، بعد أن انسحبت التربة من تحتِ قدمي. فمي مفتوح على آخره لا حد لدهشتي الطفولية. ما كنت أراه دوخني بسحره وجبروته. لا يمكن أن تكون الأشياء أجمل وأعظم مما كنت أراه. لقد نسف المشهد كل يقينياتي السابقة عن الجمال المطلق. ليس هذا ما كنت أنتظره بعد رحلة المشي الطويلة التي جعلتنا نحاذي الجبل ونتحايل على صعود كل هضابه المرتفعة. فبمجرد ما تجاوزنا الهضبة الأخيرة التي صعدتها بصعوبة إذ لأول مرة أشعر بالعطش بعد قطع الهضاب الست السابقة، قفز فجأة أمام وجهي الوادي الأعظم الذي كانت تنزل مياهه من الأعالي وكأنها كانت تنزل من منبع سماوي بسبب علو مساقطها، قبل أن تظهر الشلالات العظمى التي وقفت أمامها بعد أن سكنت لغتي نهائيا وعجز بصري عن لملمة جمال فاض عن مرمى النظر. لم أر مثلها أبدا في حياتي. حتى لكأن ماءها كان يتساقط من زاوية مغيبة في السماء. تذكرت لحظتها شلالات نياغارا les chutes de Niagara العظيمة يوم وقفت وأنا أشد على خصر ديانا التي كانت صاحبة الفكرة. لم أكن قادرا على استيعاب ما رأيت. تجمدت أمامها بدهشة العاشق لعالم كان أجمل مما تصوره أبدا. الصرخة نفسها: *واوووووو يا الله ما هذا البهاء؟* مع أني صباحا، عندما غادرت النزل الصغير برفقة ديانا لم يكن حماسي كبيرا. كدت أقول لها لنلغ الرحلة ونذهب مباشرة إلى نيويورك؟ لم أكن قادرا على أن أخيب ظنها، فقد قامت بكل شيء. وتعبت من أجل ذلك بما في ذلك رحلة استمرت من مونتريال إلى نياغارا أكثر من سبع ساعات ومسافة تجاوزت 650 كلم. كل هذا منحني بعض الشجاعة لأقوم بعد أن وشوشت في أذني ثلاث مرات: *يا كسوووووول. سنفقد فرصة رؤية صعود الشمس وغيابها في نياغارا. قم سينو حبيبي.* ذهبت نحو زاوية المطبخ وأعدت شايا وعادت وهي بنفس البشاشة والنشاط: حبيبي قم. اليوم

ستتزوج حبيبتك على حافة شلال طرحة العروسة (*Bridal Veil Falls*) لأزواج. كانت ديانة عاشقة رائعة. عندما تنوي على شيء، تعيشه حتى ولو تركت لذلك الشيء الكثير. كان جدها من مالكي مصانع الفولاذ في نياغارا قبل أن يفلس عندما بدأت الصناعات الجديدة تدخل إلى المنطقة. والدها اختار عالم التجارة بينما انفصلت عن عائلتها بكل ميراثه الغني واختارت حريتها أولا قبل أن تختار الماركتينغ. تعرفت عليها عليها في 1974 في باريس. كنت وأنا وابن خالتي حميد في مقهى زيرو دوكونديوت[74]. نجلس بجانب شابتين. طلبت إحداهن المساعدة. عزمناهما على طاولتنا. كانتا تبحثان عن المكان الموصل إلى قطارات الشمال المتوجهة نحو سويسرا. كانتا ذاهبتين نحو احتفالية بال، أو مهرجان البيرة الذي يعقد مرة في السنة. فجأة وجدنا نفسينا بنفس القطار. كانت الإنجليزية المدرسية نافعة خففت التواصل بيني وبين ديانا. وصلنا إلى مدينة بال ليلا. حجزنا غرفا وخرجنا نحتفي بالمدينة وبعشاقها. ما بيني وبين ديانا تعمق بسرعة أكثر من حميد. شعرت بقربها بسرعة غريبة وبطفولتها وبهبلها. احتفالية بال يجب أن تذر لأن البيرة رخيصة وأحيانا مجانية لتسويق النوع والذوق. في لحظة من اللحظات اتفقت أنا وديانا أن نذوق كل الأنواع المعروضة في الصف، ما لا يقل عن عشرين نوعا. عندما وصلنا إلى النهاية. نظرت ديانا إلى وضحكت بأعلى صوتها بينما كنت في عمق الضحكة نفسها. اتكأت عليّ واتكأت عليها وبدأنا نسير بينما كان كل ما يحيط بنا مجرد ألوان متداخلة وسعادات بلا حدود. نسينا حميد وصديقته. عندما أثرت انتباه ديانا عنهما، ضحكت حد البكاء: *كبار يا حبيبي. صديقتي لم تترك عندي حفاظتها، ولم يترك عندك صديقك ببرونه.* لا أدري من أين جاءتها تلك السخرية. ضحكنا طويلا. في الصباح عندما استيقظنا، وجدنا نفسينا في نزل آخر غير النزل الذي اكترينا فيه غرفة مشتركة، بمجرد وصولنا إلى بال. افترقنا يومها بصعوبة. كانت تريد الرجوع معي إلى باريس، وكان عليّ أن أعود إلى تلمسان في اليوم الموالي عبر باريس. عشرة أيام كانت كافية لتصنع قصة حب أحسست بها بصدق. كانت طالبة في الماركتيتنغ والدعاية. ظلت الرسائل تربطنا. زارتني مرة بشكل شبه فجائي. استعرت بيت صديق في تلمسان، وكان علي

[74] Zéro de conduite.

أن أحضر لها برنامجا جميلا. كانت سبعة أيام من سحر. من تلمسان وجبالها ومقاماتها وغاباتها وسمائها، إلى وهران ومعالمها الأوبرا، التويرو وساحة الحرب وسانتا كروث، إلى الجزائر العاصمة بكل جمالها، إلى قسنطينة بجسورها المدهشة. لم تكن مدننا وقتها بقايا مدن. مضت الأيام بسرعة. ثم عادت ديانا إلى مونتريال عن طريق باريس. كانت رغبتها كبيرة في التعرف على عالم غامض تكتشفه للمرة الأولى. ثم جاء مقترحها للسفر معا من مونتريال، إلى شلالات نياغارا. لهذا كان من الصعب علي أن أخيب ظنها. أصبحنا عاشقين حالمين ولم نفكر ولا في ثانية واحدة في مستقبل مفترض. كانت ديانا تقول دائما: *مشكلتي في حاضري، ومستقبلي مسالة أكبر مني*. شربنا القهوة وسرنا نحو جسر قوس قزح Rainbow Bridge عند الشلالات. يوم رأيت شلالات نياغارا لأول مرة، أصابتني الدهشة مما كنت أراه. ثلاث شلالات: شلال هورس شو (حدوة الفرس) على الجانب الكندي والشلالات الأميركية وهي مستقيمة تفصل بينهما جزيرة غوت (الماعز). وهناك شلال صغير يسمى شلال برايدال فايل (طرحة العروس). كانت *شلالات نياغارا* تتدفق بسخاء كبير حتى تشعر كأنه الوحيد الذي بقي طبيعيا قبل أن تسرقه أطماع الإنسان التجارية. يقال إنه تم اكتشافها على يد أحد الهنود الحمر الذي نصب له تمثال بجوار الشلالات من ناحية الجانب الأمريكي. كان مؤمنا بقوة الطبيعة. على نهر نياغارا، يبلغ أعلى ارتفاع للشلالات في الجانب الأمريكي 56 متر وفي الجانب الكندى 54 متر. كانت ديانا يومها سعيدة كطفلة أنها أرتني شيئا لم أكن أعرفه، بينما اكتشفت معها باريس والجزائر، ولم أقدم لها شيئا مدهشا كنا في بداية حماقاتنا الأولى. وقفت بجانبي ونحن نتأمل مشاهد الشلالات. أتذكر أني لحظة أغمضت عيني، محوت كل ما كان يحيط بي ونسيت أن ديانا كانت جزءا من هذه الألوان، ولم أحتفظ إلا بموسيقى الشلالات. ثم فجأة قفز أمام عيني شخص لم يسألني عن رأيي. مينا. رأيت مينا تقف بجانبي، وتحك على رأسي فقط لتقول لي إنها هنا وأن رابطنا مقدس وأبدي. ربما في ثانية واحدة، شعرت أنها دامت قرنين، خجلت فيها من نفسي. لم أكن سعيدا لحظتها، بل شعرت بهزيمة داخلية قاسية. *أكبر خيانة أن تكون مع شخص وتفكر في غيره*. من لون وجهي قرأت ديانا شيئا لم يكن مفرحا. تخلفت قليلا إلى الوراء من دون أن تترك

رؤوس أصابعي. سحبتها حتى أصبحت أمامي. ثم وقفت وراءها. استسلمت بنعومة عاشقة. ووضعت راسي بين كتفيها، بالضبط بالقرب من رأسها، ويدي على خصرها، وبدأنا نتأمل المكان من بعيد وننظر إلى الشمس التي كانت تقترب منا من وراء غليان الشلالات، رأيت الابتسامة التي طبعت كليا محيا ديانا. شعرت بأنها خيوط الشمس ربطتنا نحوها في ذلك الصباح بقوة. فانسحب وجه مينا بسخاء ولطف. رأيتها تطير عاليا، مثل عصفور النار، قبل أن تتبعثر في السماوات العليا. وبقينا ملتصقين، وأنا أسحبها نحوي وننظر بنفس الاتجاه، لحظات طويلة إلى أن أصبحنا جزءا من نعومة الشلالات. في المساء حضرنا المغيب أيضا على الشلالات ولم يكن هناك أي أثر لمينا. ونحن في دوار الشلالات سمعت همس ديانا: *قل لي إن اليوم أسعدك وإن حبيبتك دين لم تكن مخيبة؟* أجبتها: *كانت حبيبتي دين خيطا من نور ملأني موسيقى وحنينا. شكرا لك*. ثم اختارت ديانا العودة على طريق وحدها كانت تعرفه. *سألتني هل تعرف اسم هذا الطريق*؟ أجبت: *لا أبدا*. قالت: *تعارفنا في بال، إلا يوحي لك هذا بشيء*؟ ضحكت كمن وجد السر: عرفت. *طريق البيرة*. ضحكت بدورها. *إجاباتك ليست بعيدة ولهذا تستحق قبلة. الطريق اسمه: طريق النبيذ*. وواصلنا طريقنا ليلا نتدحرج في عالم من السحر والألوان.

كل ما كانت تراه عيناي، كان يشبه شلالات نياغارا، لكنه كان أعظم وأجمل وأكثر سحرا. لم يكن ممزقا لثلاث شلالات ولكنه شلال واحد بلا حدود ومساقطه التي تأتي من السماء كانت تحدث فجوات فيّ أعمق بعشرات الأمتار. كلما توغلت بعيدا رأيت أن المياه تزداد كثافة وسوادا. لم أتمالك نفسي على الرغم من ناظمي الداخلي الذي يمتص كل شيء إلا أنه هذه المرة وقف عاجزا أمام المشهد والهدير الذي يذكر بالقيامات الكبرى، لكن الحكمة ضبطت حدوده بحيث ينسحب إلى الوراء ولا يتقدم أبدا. عندما سألت ألبينو عن كل هذا السحر الذي بدا متعودا على المشهد إذ لم تبد على وجهه أية دهشة؟ *ما هذا يا سيدي؟ أية عظمة هذه وأي نظام؟* ابتسم قليلا ثم هز رأسه ولم يقل الشيء الكثير. تمتم قليلا: *قوة صاحب الشأن الأعظم. الجبل هو مصدر كل ما تراه من فورة. هذا ما يفسر فكرة أن الماء يأتي من السماء*. عندما حدثني ألبينو في البداية عن الوادي، لم أتخيل واديا بعرض السماء والأرض، لم يتجاوز مخي

صوري المخزنة. أعرض من الوديان التي في القرية وادي *زلاميط*. *وادي القلب*. *وادي المويلح*. وعندما أبالغ يقفز أمامي *وادي تافنة*. لكني عندما رأيته لم أر له مقابلا مما رأيته في حياتي، مثل المسيسيبي مثلا. كان على سجيته الأولى. لا يد امتدت له لترتيبه أو تزيينه أو تغيير حركته أو مجاريه. هو في حركته القدرية والأبدية. لا شيء في هذا المكان إلا الرهبة ويدرك الإنسان فجأة كم هو صغير ولا يساوي حبة رمل يطأها أو تربة هاربة في مهب الريح. *هو ذاك بالضبط. يعود الإنسان إلى حجمه الحقيقي وإلا فهو لا شيء*. التفت نحوي ألبينو وكأنه سمع مناجاتي. *هنا منتهى العظمة ومنتهى الصغر*. قلت وأنا أمسح عيني من الرذاذ الذي ظل يغطيني ويفصلني عن مرافقي. لم يكن المكان بأناقة شلالات البنفسج، لكنه كان باتساع قلب من نحته في هذا المكان.

شيئا فشيئا بدأ الغلاف الأول من الضباب ينزل من الأعالي ويلتقي مع ما كان يتصاعد من سطح الماء من بخار ورذاذ كأنها حالة امتزاج بين التربة والماء والهواء، وجبل تتصاعد أدخنته منذ الأزل كما قال ألبينو، على الرغم من أنه لا عطر فيه إلا عطر الماء عندما يلامس تربة جافة في عز القيظ. انتابتني رعشة طاغية من سرعة التحول في المكان كأن القيامة تستعد لإطفاء كل نور. ومع كل كثافة الضباب والبخار والرذاذ، لم يذهب سحر النور المتسرب من داخل الكتل البيضاء الداكنة التي كان يخترقها بحدة. اقتربت أكثر من ألبينو ربما لأكون قريبا منه أو ربما للبحث عن أمان ما في أعماق هذا الرجل الطيب الذي ظللت أسير على هديه. انمحت كل ملامح المكان وحل البياض بدل كل شيء. لا شيء أمامي إلا أصوات الأشياء. جارك ينطفئ بسرعة من أمامك. حتى ألبينو امتزج بالكتل نهائيا ولم يبق منه إلا صوته الهادئ الذي كان يصلني واضحا:

- لا تخف يا ابني. كل ما تراه طبيعي. أنت في رعايتي. ادخل الآن. استحم قليلا. طهِّر

جسدك من كل الأتربة والزيوت التي علقت به. هذا أمره سهل. أغسل نفسك الوقت الذي تشاء. عندما تنتهي وتشعر بأن كل شيء راح، اخرج. نشف حالك من الماء.

البس فوطة الإحرام. صلّ ركعتي تطهير الجسد بعد أن صليت معي ركعتي التبرك بالمكان. سيصبح جسدك صافيا مثل بلور. كل شيء فيه يتلألأ نورا. لكن تطهير النفس هو الأصعب إذ عليك أن تغطس خمس مرات حتى تصل البحر الأسود الذي لا يصله الضوء. ابدأ بالغلاف الأول أو البحر الأبيض. ادخله فهو لذيذ ودافئ. عندما يتغير لون البياض الشفاف، اخرج. نشف نفسك واحرم وصل ركعتي الصفاء الروحي الأولى. اسمها البحر الأول أو الدرج الأول. ثم عد إلى البحر وتوغل قليلا في أخطائك الأولى التي تتذكرها ونادم عليها، ستأتيك من تلقاء نفسها. تكون وقتها قد انزلقت من البحر الأبيض إلى البحر الأصفر بكل تدرجاته. عندما تنتهي اخرج، وقم بنفس الفعل السابق فتكون قد أديت صلاة البحر الثاني أو الدرج الثاني وتكون نفسك قد خفت قليلا. عندما تعود ينتظرك البحر الثالث وهو البحر الأخضر تتجمع حولك بقايا الذنوب غير المقصودة والتي كان أذاها على غيرك كبيرا. ثم اخرج وقم بما قمت به. ثم ارم نفسك لتخترق كل البحار السابقة حتى يرميك البحر الأخضر شيئا فشيئا نحو البحر الأحمر. فيه تنتفي ذنوبك نحو ذويك والأقرباء والجيران وناسك والكذب المؤذي. وقم بما قمت به سابقا. ثم عد نحو البحر في غطستك الأخيرة، والمس البحر الأسود سيمحو الله والملائكة كل ما بقي عالقا في صدرك ولم تستطع التخلص منه تجاه غيرك. تصبح كما ولدتك أمك. خرقة بيضاء. فيكون درجك الخامس هو الأعلى في سلم السبع درجات الموكول للملائكة والأنبياء والصحابة. بعدها صل وعندما تنتهي ستجدني بالقرب منك. ونرحل سويا من المكان في حالة تطهر كلي.

- هو كذلك يا سيدي. دخلت بلا تردد، بكل جسدي العاري، بعد أن ترك لي ألبينو على

الحافة، بالقرب من صخرة سوداء نبتت كما ينبت اللاشيء في الفراغ، لباس الإحرام. كان وادي الشلالات دافئا. وصافيا. وحلوا أيضا مثل السكر، شعرت بذلك عندما غطست عميقا ومارست كل هواياتي في الغطس، ودوراني في الفراغ كجنين في بطن أمي، كما كنت أفعل في طفولتي في الوديان المحيطة بالقرية. عندما رفعت رأسي أبحث عن ألبينو، رأيته يقف على صخرته التي جعل منها منظاره يراقب شيئا وحده كان يعرف سره وهويته. كان يبدو مثل البوذي بلباسه الصوفي، مرة يغيب ومرة يظهر

بسبب كثافة الضباب أو عدمها، ورذاذ مساقط المياه. من حين لآخر يصعد حتى أعالي الهضبة الأخيرة من الجبل وينزل بسرعة أكثر، وكأنه كان في حال طواف. لم تكن لدي أية رغبة للخروج من وادي الشلالات. الماء خفيف والجسد لا يشعر بأية رغبة في مقاومة اللذة التي تنتابه من حين لآخر وتسرح أطرافه وكأنها تدلّكه.

وأنا أغطس في عمق تدرجات البحر الأبيض، رأيت أن الماء بدأ لونه، في لحظة من اللحظات، يميل بشكل خفيف وواضح نحو الصفرة. أدركت أني انتهيت من مرحلة البحر الأبيض. أو الدرجة الأولى. روحي كانت صافية. فقد خرجت الأشياء الصغيرة من تلقاء نفسها. كنت أحس بها إذ كانت تأتي أمام ذاكرتي عفويا فأمحوها كمن يمحو ثقلا ولو خفيفا. كان ألبينو قد نبهني، إذ قال لي بإمكانك أن تغطس كيفما تشاء. أنت حر طليق. لحظة ترى اللون تغير من البياض نحو الصفرة، اخرج نحو إحرامك وركعتيك. قال ابق في حدود لونك، اللون الواحد. لهذا العالم نظامه، وأي اختراق له يضعنا في حدود الخطأ وإذا تمادينا جنحنا نحو مسلك الخطيئة. فهمت لماذا أبدى تلك الملاحظة الهاربة. حبي لهذا الماء وراحتي فيه أنستني حتى حدود الألوان على الرغم من أني رأيت ارتسام الحدود بشكل واضح. بعد أن أديت ركعتي الصلاة عدت إلى غوصي من جديد نحو بحري الثاني البحر الأصفر الذي طفت فيه كل الذنوب الصغيرة في شكل فقاعات كانت تكبر أمام عيني قبل أن تنفتح الواحدة تلو الأخرى. خرجت بعدها وأديت الركعتين وعدت مثل صياد لأغوص من جديد تحت البحر الأصفر حتى تبدى لي اللون الأخضر. شعرتُ بمغص صغير ولكنه عميق، في أحشائي، وألم حاد في صدري. تذكرتُ ابنة خالتي الطيبة، الصغيرة التي لم تكن مهيأة للخيبات. كانت أول حب أتذكره، أدخلته العائلة لنا في الدماغ بنية طيبة، وفق تقليد قبلي قديم: *واسيني لها، وهي لواسيني*، حتى صدقنا كل شيء، وأصبح من المستحيل الفكاك من رابط فرضه التقليد أكثر ما فرضه الحب. يوم كبرنا، كنّا محاطين بالعيون. أصبح من الصعب علينا الانفصال عن بعض. ولم يكن ذلك دليل حب، ولكن مجرد احترام لعقد اجتماعي. كانت في كوليج ابن خلدون، وكنت في ثانوية بن زرجب، بتلمسان. في النهاية كانت أفضل مني بكثير في وفائها. كانت صادقة في حبها إلى آخر لحظة بالخصوص عندما كبرت قليلا ووعته بقوة وأحست به. لم أكن كذلك. كان

انزلاقي باتجاه مينا قد بدأ. كان قلبها وفيا وجميلا، وكان قلبي في لحظات اشتعاله، يريد أن يملك الدنيا باتساعها والحب كله. من يرانا من الخارج، كنّا طفلين بريئين ورائعين. كل يوم أحد أمرّ عليها. أظهر بطاقة التوكيل الحمراء. تبدو لي كالسجينة الصغيرة في الكوليج. تأتي إلى البهو لرؤيتي، وأسألها عما ينقصها. تحنى رأسها ولا تتكلم. بشقّ الأنفس تقول *لا شيء، كل شيء موجود في الكوليج*. ثم بعد نصف ساعة أتركها لأذوب في المدينة الواسعة. كانت المسافة الطفولية تكبر بيننا كل يوم قليلا. يوم أخبرتها بقراري، وبوجودي مع امرأة أخرى، ضحكت لأول مرة بسخرية. قالت *أنت تتعمّد إثارة غيرتي*. كنت فقط أريد أن أخبرها عن شافية قارة، ثم لاحقا عن مينا، لكنها لم تتح لي أية فرصة، هي أيضا كانت صغيرة. في سنتي الأولى الجامعية، كان الأذى كبيرا. لم تتحمله. شعرت بقسوة لا تشبهني في شيء، ولكنها كانت قسوة صراحة، ولم تكن شيئا آخر. التقينا آخر مرة في باحة وسكينة الولي الصالح سيدي بوجنان، لأنها كانت المكان الأسلم لحديث القلب والروح، كما رأت أمي وخالتي، وكنتُ قد تسلّمت رسالة طويلة منها شديدة الخيبة والحزن. لكن ذلك لم يكن مجديا. تمتمت بيأس: *يا ريتك رحت من قبل، ربما كان الضرر أقل. كنتُ أو متُّ وينتهي كل شيء مرة واحدة. لما رأتني أمي أبكي، تعرف ماذا قالت لي: دموعك تقتلني يا ابنتي، ويجب أن يلتفت نحوك وسنجد له طريقا لذلك. صرخت في وجها: اسمعي يا مَّا. القلب لا يجبره أي سلطان على فعل ما لا يريد. أحبّه. بل محروقة عليه، لكنه اختار من تمنحه أكثر مني. في اللحظة التي وعيتك وأحسستك، تذهب؟* بدا لي الأمر شديد القسوة. رأيت درجة الألم التي تسببت فيها لها بعد أن ارتسمت في عينيها كل علامات الخيبة والمرارة. كانت تحلم بأن تكون طبيبة، وتعالج فقراء القرى والمدن الصغيرة، وهيأت نفسها طويلا لذلك، لكنها في النهاية، اختزلت ذلك كله بيأس، في التحول إلى أستاذة العلوم الطبيعية والبيولوجية في التعليم المتوسط. لم تكن تشبه في شيء المرأة التي ارتمت بكل قوة في حلم لم يكن عادلا معها. بعد سنوات طويلة، وكان لكل منّا حياته الخاصة، التقينا في بيت ميما أميزار، ليلة وفاة عزيز أخي، وكان قريبا إلى قلبها. مخبأ أسرارها. صديقها القريب إلى قلبها، الذي تمنحه كل ما كانت تخفيه عن العائلة، وكان يفهمها جيدا، ويعرفها أكثر من أي شخص آخر. سألتها عن دراستها

وأحلامها، أجابت ببرودة نزلت على رأسي كالصاعقة: *واسيني ليس أنت من يسألني عن حلمي؟ تعرف أن كل ما أنا فيه لا يشبهني في شيء، لكني أتعامل معه. حلمي سُرق، لك يد طولى في ذلك. ولاني أحببتك بقوة، فقد حاولتُ كثيرا أن أسامحك ولكني لم أستطع.* ثم انسحبت وهي تبكي، لا أدري بسبب الحلم المسروق، أم بسبب وفاة عزيز الذي لم تتحمل صدمة فقدانه، أم الاثنين معا؟ أعرف فقط أني آذيتها جدا. لكنه سلطان القلب كما قالت. لو كانت اليوم أمامي، واقفة كما في آخر مرة، لقبّلتُ قدميها وأصابعها، وجبهتها، وملامحها الطيبة التي ظلت طفولية أبدا، ولقلت لها: *عفوا. سامحيني. لا أبحث عن مبررات لكل ما حدث، ولكني أومن أنّ للدنيا سلطانها ولسنا أكثر من ذرات تدور و تدور. تلتصق مع ذرات أخرى ثم تنفصل عنها، لتدور من جديد وتلتصق مرة مع غيرها من الذرات، وهكذا إلى أن تعود الأرض إلى عناصرها الأولى.* من قال *إن الحب الأول دائما تراجيديا*، لم يكن مخطئا، على الرغم من أننا كنّا نضحك على الفكرة التي كنا نراها مغلوطة من أساسها. يبدأ هذا الجنون بفكرة بسيطة، ثم بحب نظنه الوحيد والأوحد والنهائي. يتحول مع الوقت إلى يقين قاتل. ثم فجأة يأتي يقين آخر يزيح كل شيء ويعيده إلى لحظته الأولى.

صليت الركعتين ثم عدت للغطس وكنت أخفّ.

بسرعة اخترقت حاجز الأبيض والأصفر والأخضر لأجدني في البحر الأحمر. اخترقت الألوان الحمراء بكل تدرجاتها المختلفة. فبدأت أدور فيها محمولا كسمكة مسالمة. تحيط بي عشرات الأسماء الملونة بمختلف التلونات الذهبية الجميلة التي كلما انعكست عليها أنوارها الخارجية، تجمعت محدثة انعكاسا ملونا معميا للأبصار. كانت كذباتي الصغيرة تنزل أمامي. على أمي. على جارتي الصغيرة خديجة التي كنت أحبها وكنا بنفس السن، أو ربما كانت تكبرني بسنة. وكلما غابت أمها التقينا لدكان مولاي الشريف، التقينا في بيتهم بحيث لا نعرف ماذا نفعل بجسدينا المخيفين، لكننا كنا نسرق عشرات القبل واللمس، ونفرح عندما نصل إلى المائة قبل عودة أمها. الكذب على أمي بأني أصبحت مريضا فلم أرافقها إلى سوق الأحد للخضر، للذهاب نحو الأسلاك الشائكة واللعب بالألغام مع أصدقائي عمر، *مالكي*، محمد، *أحمد، لخضر الدانيمار، الشلالي، السبايسي، بوجنان* وغيرهم. فجأة. وما فعلته مع فلفل

الجدة الأحمر، وكنت أنا من ملأه بالماء، وأنا من رفسه وألصقت المسؤولية بالدجاج المسكين الذي لم يكن له أي ذنب في ما حدث. رأيت الكذبات المؤذية تنفجر أمامي كالقنابل الصغيرة غير المؤذية. خفّ جسدي، فخرجت. وعدت بسرعة بعد الإحرام وتأدية الركعتين. نزلت هذه المرة عميقا. كان البحر الأسود كله سواد في سواد. كما سماه ألبينو بحر الظلمات. تضيق فيه النفس بسرعة. وبدأت أنتزع الأحقاد التي كانت في تجاه الآخرين، الذين قالوا شرا فيَّ بشكل مجاني. كل ما صدر عنهم كان منبعه الحسد والضغينة. كانت أحقادهم مثل لصقات الزفت لا تذهب بسهولة. تنزعها فتجدها ملتصقة بجزء آخر من جسدك. بقي بعضها ملصقا بقوة لأني كنت أريد فقط أن أسال أصحابها: ماذا ربحتم بإيذائي؟ ولكن كان علي أن أتخلص من كل هذا بإرادة أقوى، لم تكن متوفرة كما يجب. قلت في أعماقي ربما لو توغلت قليلا ستزول، بشكل أسهل. نزلت في الظلمة أكثر حتى كدت أصطدم بشيء صلب ما. ظننته سمكة. ألبينو لم ينبهني إلى ذلك، لكن فجأة بعد النزول عميقا وبدأ السواد يزول والماء يفقد حرارته ويزداد برودة وصفاء، رأيت جسدا أنثويا مصقولا كأنه رسم خط بيد الله في اللحظة نفسها. كان تحتي ببعض الأمتار. مضببا قليلا، ولكنه واضح. يدور في حرية جميلة تبين كل الدهشة الكامنة فيه، ثم رأيت أجسادا أخرى تلتحق به. عرفت بعدها أو أدركت بسليقة العاشق أنه مكان هدأة العاشقات. كل الأجساد التي كانت تحتي كانت تشبه موجة فاتنة. هدأت في مكاني. من وراء الصخرة التي تشبه عمودا يصعد من الأرض متوجها نحو الأعلى. رأيتهن جالسات. متمددات. يتحاكين. يتضاحكن. يدورنّ في أماكنهن مثل الأسماك المسالمة. في اللحظة التي اكتشفت فيها المرأة التي كادت تصدمني، أن جسدا غريبا دخل المنطقة، اندفعتْ بقوة نحوهن، فاندلع غبار بحري بعد أن توحدن في حركة دوران جماعي مثل رقصة الحرب، حتى بدا لي كأني كنت أسمع طبول الخوف. انمحى المشهد نهائيا، فاضطررت إلى الصعود عاليا بسرعة. إضافة إلى أني لم أكن قادرا على تحمل البرودة التي كانت تزداد كلما اخترقت الغلاف الأسود. أول ما فتحت عيني على نور الفضاء ونعومته كاد وجهي أن يلامس وجه ألبينو.

- ذاك مهجع العذارى وليس بحرك. هه... يبدو أن حركة الماء ونعومته استهوتك.

- جميل ومريح؟

- كيف تشعر بنفسك الآن داخليا؟

- بكامل الراحة. لكن؟

- نعم.

- أريد أن أسالك سؤالا.

- عن نساء البحر الميت؟

- بالضبط.

- هذا مكان مخصص لاستحمام العذارى اللواتي متن قهرا ظلما. يسمى عند بعض

الفقهاء الجديرين بالاحترام والتقدير، *البحر الميت*. مثقل بالدمع المالح. لو ذقت ماءه لعرفتَ درجة الألم. لكنك لا تستطيع النزول، لأن الجسد مهما بذل من جهد، يطفو ولا ينزل تحت. هناك ممر حلو عميق قليلا، يسير في خط، واحد، هو للعذارى فقط. هنّ يعرفن مسالكه.

بشكل لاشعوري كدت أقول مينا قتلت ظلما أيضا، ولكنه فاجأني بجوابه.

- مينا منحت فرصة أن تكون معك. هذه الفئة ماتت حبا فقط، ولم تمنح لها أية فرصة

لعيش حبها، ولا الاستمتاع بالنزر القليل من حياتها التي سرقت منها: ليلى، عزة، رابعة، إريرينديرا، جولييت، إيزول، بوني، فيرجين، وغيرهن ممن يؤثثن قصص وحكايات الأرض.

- لكن الجو تعكر عندما أحسسن بوجودي.

- طبيعي. تلك وسيلة دفاعهن الوحيدة تجاه من يخطئ مسالك اللون. كان يفترض أن

تظل داخل بحرك بكل تدرجاته ولا تتخطاه. أنت توغلت قليلا في بحر لم يكن لك.

ثم أخرج من كيس صغير، فوطتين هذه المرة من حرير ناعم يلتصق بالجسم بسهولة ويمنحه الكثير من الراحة. وقال لي نبدأ الآن سيرنا نحو مسالك النور. سترى كل من رأيت وأحببت، ولكن يظل بينك وبينهم حاجز رهيف مثل ستار النور. هو المتحكم في كل شيء وهو المحدّد. لأن روحك ما تزال في حالة هيام تبحث لها عن مستقر. قد يكون ذلك مؤذيا كثيرا وقاسيا أحيانا، بالخصوص لأنهم في حالة استكانة، ومطالب الروح قليلة. يحدث أن تفي على صاحبها، ولكن الله يمنح السكينة في اللحظة نفسها لطالبها.

عادت الغرانيق بأصواتها فوقنا. شيئا فشيئا انفصلنا عن وادي الشلالات ببحوره وغرائبه ونسائه البحريات. ابتعدنا لكن عظمة الشلالات ظلت تتبعنا. حتى عندما غابت جغرافيا المكان ظلت هي حية وقائمة. نفس الجبل ونفش الشلالات العملاقة التي كانت تنزل من السماء.

- كل هذه المساحة برزخية.

- هو البرزخ كما يريده ويعرفه البشر لكنه هنا شيء آخر. اسمه فضاء نهاية التيه حيث

لا بشر يكلمك، ولا طير يناجيك ولا ريح تحسسك بوجودك، ولا هزة تعطيك جسدا. أنت الآن في الكينونة. في معبر النور حيث يتغير كل شي بعدها.

- وماذا سيحدث هنا؟

- لا أحد يعرف. ملك لسلطان الله.

- وهذا المكان ملك لمن إذن؟

- مكان التيه؟ يمكن أن نجد فيه حتى بعض الأرواح الشريرة التي تحاول ممارسة أفعالها الشريرة حتى اللحظة الأخيرة ولا تستسلم. الشر مثل الخير، زريعة تنبت بسرعة، يمكن أن تربى فتكبر أو تجف. الشر أيضا يجف عندما تنغلق في وجهه السبل.

- غريب.

- لا غرابة. هو نظام. رؤية البشر قاصرة. هذا الفضاء يمنح فرصا كبيرة عندما يكون

مصدر الإلحاح مشتركا، من العابر ومن الطرف الموجود هنا. أنت لم تر جدك وحنّاك وأمك وإخوتك ومينا وغيرهم، إلا لأن الإلحاح كان منهم أيضا لكي يتمكنوا ولو لفترة وجيزة، تخطي حاجز المنع ليتماهوا معك ولو قليلا. سترى الجميع، ولكن كما قلت لك، لن تتمكن من لمس أحد. ستراهم قريبين على بعد نفس منك، ولكنك ستعبر، قبل أن يتمكنوا في النهاية من التواصل معك، والرد على تحيتك.

كنت سعيدا أني أصبحت نقيا كقطرة ندى، لكن في أعماقي نبت خوف لم أكن قادرا على تحمله. كلما حاولت نسيانه، داهمني ذلك الشيء الغامض بكل تفاصيله وحرائقه الخفية.

في النهاية لم يكن لدي أي خيار آخر سوى الرّكض حثيثا نحو قدري.

3- فِي عَتْمَةِ المُشْتَهَى

استسلمت لمشيئة ألبينو وتبعته.

كانت السماء قد اسودت قليلا، وتكاثف الضباب من جديد ولم يعد لي من مخرج إلا الركض وراءه حتى لا يبتعد عنّي كثيرا. لأنها اللحظة الأخيرة التي لا خيار كبيرا فيها. بدأ جدار من الضباب الذي كان يلفنا، يتكاثف ويضيق من حولنا قليلا ويتحول إلى مرايا مليئة بالألوان المختلفة. بينما طريقنا في الوسط يزيد طولا واتساعا واستقامة. كنت أمشي على وقع خطاه. على يميني وشمالي لفافة صغيرة مثل الزجاج، لأني عندما جربت في غفلة من ألبينو، وجدت المكان صلبا وهو ما أعطاني الإحساس بأني كنت في عالم يقع خارج عالمي. كنت أرى يمينا وشمالا. لا شيء إلا البياض. فجأة بدأت الأشكال تملأ مرايا الغيم. رأيت الجليد الذي تفيض به الأمكنة والعواصف التي كانت تتكون في الآفاق وانفجارات الكون وخروج النار من الأرض. الحيوانات الخرافية في حالة هروب في كل الاتجاهات أو تأكل بعضها، لكني لم أكن أسمع أي صوت. ثم الإنسان وهو يصارع الحيوانات ثم يبيد نفسه بنفسه. يقتلع الأشجار ويحرق الغابات ويحول كل شيء إلى رماد. الحروب والقصف الجوي والدبابات والموت، والأسلاك الشائكة التي تنتصب في كل مكان، والناس الهاربون يتمزقون على حوافه. فجأة رأيت وجها صغيرا يشبهني يدخل في عمق الأسلاك الشائكة وينزع الألغام. عرفتُني إذ رايتُني. رأيت صديقي لخضر الدانيمار الذي مزقه لغم في عمق الأسلاك الشائكة. ثم صديقي الآخر، أحمد ابن أحمد كيف مزّقه لغم آخر. ثم رأيتني أركض في كل الاتجاهات بعدما ذهب سمعي نهائيا بسبب الانفجار. رأيتُ أختي الوسطى زهور وهي تسحبني من يافطتي الصغيرة، وتفشّ فيَّ غلها كله، لأني لم أسمع لها وهربت نحو هضبة الأسلاك ونزعت الألغام. أغمضتُ عيني قليلا لأتفادى البكاء. رأيت زوليخا مسجاة في الطرف الأيسر من البيت، الأكثر ظلمة، ليس بعيدا عن المجرى، حيث تم تغسيلها وتطهيرها قبل وضعها في التابوت وتغطيتها بالبورابح[75]

[75] غطاء، ريفي، صوفي، ثقيل، ينسج من صوف الأغنام، يحفظ الحرارة.

الصوفي. كنت أنتظر يومها عودة زوليخا النائمة. رأيت أمي تسحب حنا تحت عاصفة ثلجية أصابتهما وهما في طريقهما نحو خالتي آمنة، التي تسكن خارج القرية، بالقرب من محطة قطار السلع. كانت حنّا على البغل الأزرق، وأمي تحاول أن تدفع به إلى الأمام، إلى أن عجزت وعجز البغل عن الحركة. رأيتُها تنصب خيمة صغيرة تحت شجرة التين المعرشة، وتُنزل جدتي تحتها وتضع بين ذراعيها طفلا صغيرا كان على ظهرها، كنت أنا، بعد أن استحال على البغل التحرك إذ غرقت قوائمه الأمامية عميقا في الثلج. قطعت أمي أقمشة قديمة كانت معها. ثم أخرجت القائم الأيمن للبغل، فلفته بالكتان والأقمشة الكثيرة حتى تدفئه. ثم القائم الثاني. ثم القائمين الأخيرين. رأيت المشهد كاملا قبل أن يقفز البغل بقوة ويخرج الجميع من الثلج. تمنيت أن أساعدها لكنني كنتُ بين يدي حنا فاطنة، لقد روت لي القصة بكل تفاصيلها. كنت على ظهرها قبل أن تسحبني نحو صدرها وترضعني تحت شجرة التين. رأيتُني ارضع ثديي أمي في عز البرد والعواصف. ثم وضعتني على ظهرها وساعدت جدتي على امتطاء الدابة وواصلتا تسلقهما جبل *أولاد حمو* الذي كلما ظننتَ أنك وصلتَ إلى قمته، بدا لك كأنك لم تخطُ أية خطوة، بالخصوص في الشتاءات الباردة التي لا ترحم. كان ألبينو يمشي ولا يمشي. لأنه على الرغم من توقفاتي، فقد ظل قريبا من خطواتي وكأنه يسير على إيقاعها. عندما التفت ورائي، رأيت كما في المرة الأولى، الشلالات وهي تهدر من السماء، بضخامة كأنها كانت تزداد كثافة كلما تقدمت قليلا إلى الأمام. يختلط بياض المياه التي كانت تتمزق في عرض الفضاء مختلطة بأدخنة الجبل التي لم تتوقف أبدا. عاودت ركضي وراء ألبينو الذي انتبه فجأة إلى بوصلة الوقت التي كانت تسير بشكل وحده كان يعرف نظامها.

لفّ جانبي المسلك، ضباب كثيف واضمحلّت الشفافية التي رأيت فيها أمي ووجه طفولتي الأولى. فجأة بدأت كتل البياض تنسحب من جديد وكأن يدا عليا كانت تزيل عنها بياض العمى لتفتح أمام عيني معابر جديدة. ما رأيته لا أستطيع وصفه كله لأنه كان أكبر من قدراتي على الاستيعاب. رأيت أشجارا وطيورا، وسمعت نداءات غربة كأنها كانت تأتي من عمق الأدغال، بها سحر غريب لولا حواجز المكان لكنت ركضت نحو موسيقاها. حتى إنّي في لحظة من اللحظات شعرت كأن *سان سونس*

كان قريبا مني ومن قلبي، وأن موسيقى *كرنفال الحيوانات* اخترقتني بقوة لتسحبني نحو سماوات عليا فوق الأعلى. فجأة رأيت حبيبي عزيز في بيتي البحري، بكل حيرته، عندما زارني للمرة الأولى فقط ليخبرني عن أن حركة رجله اليمني فيها كهرباء كثيرة وهو يضحك من قلبه: *الفولتاج فيها عالي هههههه.* اشتهيت أن أقبل عينيه الواسعتين وأن أحتفظ طول العمر بابتسامته المشرقة، لكنه سرعان ما انسحب قبل أن أراه وهو في مستشفى فرانز فانون بالبليدة عندما سحبني الطبيب البروفيسور بعيدا عنه، ليلة قبل العملية، قال لي بصوت خافت: *أريد أن أنبهك إلى أن عملية عزيز خطيرة جدا لأنها ستمس النخاع الشوكي. الورم يحيط به من تحت الفقرات.* كنت أعرف هذه التفاصيل كلها وعزيز أيضا كان يعرفها. عندما التفت نحو عزيز البعيد قليلا في سريره، رأيت لأول مرة خوفا يرتسم على ملامحه ويغطي نهائيا على ابتسامته. عندما عدت نحوه، أخذت يده الناعمة التي أصبحت تشبه يد طفل صغير. جلست على طرف سريره وليس على الكرسي، عند رجليه لأتمكن من رؤية وجهه. سهل علي الكلام:

- *عزيز هل تريد فعلا هذه العملية؟ تعرف أنه يمكنك أن تعيش عمرا أطول بهذا الوضع.*
- *يمكن تحدث لك البروفيسور عن صعوبة العملية؟ وربما خطورتها أيضا.*

نظرت للحظات باتجاه الفراغ قبل أن أجيبه:

- *عزيز. خويا الصغير وحبيبي. يمكنك أن تستمر كما أنت في الحياة. ترى يوسف*

يكبر أمام عينيك وسمر وسحر وزوجتك. وأمك التي لم تنم منذ أصابتك هذه المحنة. قل لي وأنا أوقف العملية من الآن.

ضغط على يدي. صمت للحظات ثم قال مبتسما:

- *شوف يا خويا العزيز، أنا لم أتعود على العيش في عربة وأنتظر من يدفعها بي. في مرة كدت أموت إذ زحلقت العربة من أعالي الطابق عبر درج البيت المستقيم أملا أن تكسر رقبتي، ولكن العمر البائس طال. لا يا خويا. لو بقيت على هذا الوضع سأنتحر لا محالة. العملية ولا حل غيرها، ولو كان أمل العيش واحد من ألف. لا أريد*

الموت لكنني أيضا لا أريد أن أعيش ميتا. ما كتبه الله سيكون. إذا ربي طول العمر مرحبا، وإذا استلمه، فله ذلك. لا أستطيع أن أعيش مقعدا.

انتابتني نوبة من البكاء لم أستطع السيطرة عليها قبل أن ينسحب المشهد. مشيت قليلا وبهدوء، فقد بدأت فجأة أشعر بإنهاك شديد. عندما التفتُّ رأيت مكانا يرتسم فيه الخوف، لم يرحني. شممت رائحة الأدوية وحتى الجثث. هذه المرة عرفت المكان. مشرحة البليدة. مكان حفظ الجثث. رأيت أمي التي لم أعرف وجهها الذي اصفرّ كقشرة ليمون تقف بجانب الموظف، وهو يربت على كتفيها ويسحب درجا حديديا به جثة عزيز. ترتعش ميما أميزار في مكانها كطير مذبوح. هي جاءت لتراه حيا، وها هي ترى جثة. انتظرتْ أن يدفنها لأنه آخر العنقود من رحلة اليتم، وها هي تجد نفسها مجبرة على لملمة جرحه، في قلبها نشيج حارق بكاء لم يتوقف أبدا حتى موتها. أدركت لماذا قالت لي *إنها لأول مرة تشعر أنها كانت وحيدة*. أمي التي رافقها الله دوما، يومها كانت بدونه لهذا اتسع جرحها. كانت تصرخ بأعلى صوتها. تمنيت أن أضمها إلى صدري، ليلتها كنت وحيدا أبكي في ميترو العودة إلى البيت بعد أن أخبرتني إدارة *جامعة السوربون*، في قسم الدراسات الأوروبية، حيث كنت أدرس، بخبر وفاة عزيز. كان العالم من حولي بلا صوتي ولا أسمع إلا هدير القلب وفيض الدمع الذي كان يحرقني.

مشيت وراء ألبينو الذي كان يؤشر عليَّ بضرورة السرعة لأن الوقت كان يمضي بسرعة. كانت الصور تمر بكثافة، لكني لم أكن قادرا علي استيعابها بالشكل الذي يليق بها.

عندما دخلت في عمق البهو المغطى، كانت المشاهد قد تغيرت، وأصبحت أكثر حيوية. لا نلمس من نحب ولكننا نستطيع أن نحييهم ويردوا على التحية. فجأة من بين كل الوجوه التي رأيتها خرج وجه مينا نقيا وأنيقا. كانت تلبس قبعة وردية، تغمرها ابتسامة مدهشة وهي تهرب بين أكوام الثلوج في غابة مرتفعات لالة ستي. صرخت من الأعماق: *يا ربي كيف يموت من نحب بهذه البساطة التي تجرح القلب وتحرق الذاكرة إلى الأبد. سأموت قبل أن أموت. خذني نحوها واسكني فيها.* كانت مبتسمة ومن حين لآخر تمسح ندف الثلج من على وجهها. ابتسمت لها. ابتسمت. مدت يدها

نحو وجهي. أغمضت عيني. شعرت بأناملها الناعمة وهي تمسح دمعي. ثم بعثت لها قبلة ردت بمثلها قبل أن تغيب في مرتفعات لالة سيتي. انحنيتُ، انحنتْ بدورها، ثم غابت نهائيا. رأيت حنا فاطنة واقفة كأنها تنتظر نزولي من قطارات سيدي بلعباس القديمة. تقف على الرصيف. أغمضت عيني. انحنيت. ثم أخذت يدها وقبلتها بقوة. بقيت على وضعي لحظات طويلة وأنا أتمتم: *سامحيني يا حنا، لقد آذيتك، بطفولتي المجنونة*. كان بيننا فاصل غريب لكني أحسست بها، وأحست بي في النهاية. فقد رأيت فرحا صغيرا يرتسم على ملامحها. كانت حرارة القبلة مثل حرارة نظرتها. سمعت صوتها: *مسامحة وليدي حنوني دنيا وآخرة.* ثم انطفأت على ابتسامتها ليحل محلها نور قوي خرج منه وجه ميما أميزار، باستقامتها المعهودة، وبلباسها الأبيض الدائم. نظرت نحوي. لم تكن حزينة، لكنها كانت شاردة بعض الشيء. اقتربت لأقبل رأسها. جاءت نحوي. أحسست بها على الرغم من الفاصل الذي تمنيت لحظتها اختراقه. الغريب أني أحسست بكل حركاتها وحتى عطرها الذي هو تشكيل من زهر النوار والرمان وماء البرتقال وعود النوار الذي لم يغادر فمها أبدا. تمتمتُ: *ميما... سامحيني، أعطيتني كل شيء، عمرك وشبابك ودمك وآلامك وجلدك الذي تمزق أمام عيني، ولم أعطك شيئا. سامحيني يا ميما، لقد سرقت مني الدنيا وقتك. لم أعرف كيف أمنحك كل قلبي ونسيت أن من نحب ليسوا معصومين من الموت أبدا.* سمعت صوتها من جديد كما تعودت أن أسمعه في حياتها: *راضية على وليدي دنيا وآخرة. إن شاء الله خضراء قدامك ووراءك*. وجدت صعوبة في تخطي هذه المرحلة، لأن جدي الروخو مر بسرعة. كان على حصانه الأندلسي الذي رفع قوائمه الأمامية كأنه كان يقول لي كن شجاعا فقط. ثم حيّاني فانحنيت له. انحنى برأسه ثم غاب في المرتفع.

وكأن يدا قوية سحبتني نحو الجهة الثانية من المسلك. رأيت شابة، بعينين حائرتين، تلبس قبعة حمراء كنتُ أناديها بسببها Chaperon rouge[76] وطايور أسود، على ظهرها حقيبة ثقيلة قليلا، وفي يدها محفظة صغيرة، تقف على حافة السكك الحديدية، في محطة قطار مهجورة، تنظر تارة إلى الطريق، وتارة أخرى إلى السماء، عندما

[76] القبعة الحمراء.

اقتربتْ منّي، كانت عيناها منتفختين من كثرة البكاء. نظرت إلي طويلا، كأنها تعاتبني بعينيها ونظرتها القاسية، ثم تمتمت طويلا وهي ترمي قبعتها الحمراء على الأرض وتطأها بعنف. قرأت كل كلامها بلا عناء: *يا ريتك رحت من قبل، ربما كان الضرر أقل. كنتُ أو متُّ وينتهي كل شيء مرة واحدة. لما رأتني أمي أبكي، تعرف ماذا قالت لي: دموعك تقتلني يا ابنتي، ويجب أن يلتفت نحوك وسنجد له طريقا لذلك. صرخت في وجها: اسمعي يا مَّا. القلب لا يجبره أي سلطان على فعل ما لا يريد. أحبّه. بل محروقة عليه، لكنه اختار من تمنحه أكثر مني. في اللحظة التي وعيتك وأحسستك، تذهب؟* ثم ركبت القطار من دون أن تلتفت نحوي ثانية. غابت بحزنها.

انغلق بعدها المكان نهائيا. وأصبحنا كأننا في فراغ كل شيء يسير فيه من تلقاء نفسه.

التفت نحوي ألبينو:

- عذرا يا سيدي، لقد أتعبتك بتوقفاتي.
- لا أبدا. كنتَ أشجعَ وأنبل مما تصورتُ. في قلبك شعلة حية وكبيرة نحو ذويك.
- وماذا نملك غير الحب يا سيدي؟
- أجمل ما في عمق الإنسان الطبيعي. وإلاّ ما قيمة هذا المخلوق العجيب الذي يظن

نفسه مالكا لكل شيء، فماذا يملك باستثناء الغطرسة والموت؟ المهم. أوصلتك حيث كان يجب أن أوصلك، بكل الخير، وأنت في كامل صفائك. يستلمك اللحظة غيري. ربي يعطيك القوة والخير لتجاوز ما تبقّى لك.

وقبل أن ينهي كلامه، خرج من بين الظلال، شيخ طاعن في السفن، بلحية بيضاء طويلة، عرفته من رائحة الياسمين والكافور التي تملا جسده وشعره وألبسته. مولاي السّالك.

- ذاكرتك كما الحياة.
- مولاي السّالك. أنت من رافقني في المرة الأولى.
- نعم. في كل ثانية أرافق عددا لا يُحصى من الأرواح نحو مستقرها الأخير.
- أتحدث عن لحظة الخروج الأولى من الدنيا، رأيتك ترافقني في كتلة الضوء.

-      وأرافقك داخل النور نفسه لتسكنه إلى الأبد. هذه يا عزيزي فسحة العبور الأعظم،

وهي الأصعب والأقسى، بسبب التيه وصعوبة التنصل نهائيا من كل الجاذبيات المؤذية. مرحبا يا ابني. انتهت الرحلة وآن الأوان أن تجد هذه الروح الطيبة والعاشقة، مستقرا لها.

لم تنتبني أية دهشة خاصة، وكأني كنت أعرف تفاصيل الرحلة القادمة التي لم يكن لي عليها أي سلطان. رحلة المنتهى حيث تفقد الأشياء أشكالها وكل جاذبياتها، وتعود إلى عناصرها الأولى لتسبح في ملكوت النور والنار واللامتناهي. كان مولاي السّالك ليّنا معي، وكنتُ مثل أداته الطيّعة.

لا أدري لماذا أراحني حضوره وكلامه كثيرا، أكثر من المرة الأولى التي كان فيها لقائي به مشوبا بالخوف. هذه المرة، كان بشوشا، ووجهه منوّرا على عكس بعض ملائكة مرافقة الأرواح، التي تختزل الإنسان إلى كمشة من الحماقات الحياتية التي لا قيمة لها تُذكر في مسارات الحياة الغنية.

-      أشعر براحة أكثر يا سيدي.

-      فقط لأنك الآن أكثر صفاء من لحظة الخروج الأولى. نتوكّل.

-      نتوكّل يا مولاي السّالك.

رافقني مولاي الشيخ السالك، الوقور، ذو اللحية البيضاء المسدولة، وسحبني من يدي بحنان كبير، تجتمع فيه طاقة الحب التي تملأني وميراث الحنان. الحنان الحي. حنان الفقدان. حنان الأمومة. حنان الخيبة والقهر. حنان الوجدان المكسور. عندما التفتّ نحو قلبي الذي لم يفقد أي أمل في النور، أكد لي مرة أخرى أنه مولاي السّالك. رجل ليلة الرحيل. نفسه الذي رأيته في اللحظة التي تركت فيها جاذبية الأرض ومخاوفها وعواصفها وقلقها. هو من أخرجني من دائرة الأهل والأصدقاء وهم يتلاطمون ويندبون ويبكون غائبا مسجى على فراش الموت. نبهته لحظتها بأن أهلي سيكتشفون بسرعة بأني غادرت المكان. قال لي مولاي السالك وقتها: *هذه صورتك فقط. روحك. جثتك لن تغادر مكانها. ستبقى كما هي وكتاب الإسراء للشيخ الأعظم سيظل على صدرك.*

امش فقط. ثم مددني وغسل جسمي ورشه بالشب والكافور كمن يغسّلُ ميتا. ثم مشى بي في بهو النور وقتا لا أدري كم طال، في يده عصاه البيضاء التي تشبه العصا التي ظل ينكيء عليها مولانا جلال الدين الرومي، ويقول بعض الرواة إنه جاء بها من إصفهان، حتى بوابة العبور المؤدية إلى حائط جبل النار. بوابة العبور المعمي للأبصار، لأجد نفسي معلقا على جبل النار، أتشبث بصخوره البركانية بعد أن أحرقت أي خط للرجعة.

لا أدري ماذا حدث لي. ربما ارتبكت قليلا في وقت كان يجب أن أظل فيه قويا قبل لحظة التلاشي والتشظي. نظر سيدي السالك إلى عيني. حكّ على رأسي، ثم ابتسم بفرح جميل وهو يردد: *ظننتك خفتَ. المعابر البشرية يا ابني قاسية، لأنها ظالمة ولأن وراءها كائنا متسلطا . وراء هذه المعابر مطلق لا تضاهيه أية قوة، حيث يصبح الإنسان جزءا من الملكوت الأعظم. نور على نور. سكينة بلا حدود واستكانة لروح لا يوقظها إلا عشقها الكبير للحياة من أجل رحلة الخير والحب. الكثير من الناس ينظرون خلفهم نحو المحيط، في هذه اللحظة بالضبط. يترددون نحو العبور. لحظة تردد أخيرة تكلفهم تيها بلا زمن. هل يمرون نحو المطلق أم تظل أرواحهم تائهة؟ يعبرون أم يرجعون على أعقابهم؟ التنصل عن الجاذبية صعب وأحيانا مستحيل. لهذا يتخلى عنهم مرافقوهم ويظلون يسبحون في مكان اللامكان. أنت الآن في اللحظة الفاصلة بين حاضر مبهم ومجرد وهم، وبين مطلق يرمي بالأشياء نحو أصلها الأول الذي يمنحها راحتها وخلودها.*

نظرتُ إلى مولاي السالك بحيرة، رائحة الكافور فيه كانت تشبه رائحة الموت، لكنني لم أكن خائفا كثيرا مما كان يحدث لي، لأنه في النهاية، حتى ولو حدث أن انطفأ كل شيء فيّ، لن أندم على شيء أبدا. رأيت جدي الأعظم مثلما اشتهيته. رأيت ميما الكبيرة، إلهة المطر واستمعت إلى أفراحها وأنينها الخفي، رأيت مينا التي أحرقني غيابها، ومنحتني بعض ما سُرق منا في الحياة في مساحات البرزخ الشهي. رأيت حنّا فاطنة، ورأيت أيضا جدي اللغوي سرفانتس، ومعلّمي في حرفة الكلمة والسخرية. رأيت كل الذين سكنوا قلبي وصنعوني، واشتهيت لقاءهم. منحنى القدر الأخير الذي خُطّ له

أن يكون كذلك، ما ملأ قلبي نورا وبهاء، ماذا أريد أكثر من هذا؟ هل بقي شيء آخر لم أعشه؟

فجأة، انفتحت بوابة واسعة على مصراعيها، لتفسح المجال لنور محا كل ما كان يحيط بنا. محا كل التضاريس التي كانت من حولنا. كل شيء انمحى بما في ذلك مولاي السالك الذي أصبح الآن ورائي مثل ذات الشعر الأحمر، يدفعني بلطف وهو يهمس في أذني: *هذا ممرك الأخير يا ابني، وعليك أن تعبر من هنا*. تمتمتُ بصوت خافت: *لكن الضوء يعمي، يا مولاي، ولا أرى أي مسلك إلا مسالك النور القوية*؟ أجبت بصوت مكتوم مخافة أن يسمعنا شخص ثالث. قال: سيدي الأعظم الشيخ الأكبر، في مثل هذه الحالات كان سيقول لك: *بحرك هذا، فعمه. أغمض عينيك ولن ترى شيئا يؤذيك*. جادلتُ أكثر: *ولكني يا سيدي من النوع الذي يريد أن يرى كل شيء مفتوح العينين، قبل أن يستسلم لموت يصنعه له الآخرون*. رد مولاي السالك وهو يدفعني بلطف أكثر نحو البوابة: *لا يوجد موت هنا يا ابني. أنت تخطيت عتبات التيه، وأمامك مساحة الاستكانة والنور الأبديين*. ترددت قليلا وأنا أمشي وأتوغل عميقا في المعبر، ليس خوفا، ولكني لأني لم أكن أعرف ما كان يتخفى وراء البوابة. كنتُ أريد أن أفهم الأشياء كما تعودتُ عليها.

أدركت بسرعة أن كل الخيارات ضاقت. بين الراحة الأبدية أو التيه الأبدي أيضا. لم تطل حيرتي. سيدي السالك نفسه لم تكن له وسيلة أخرى غير الدفع بي بنعومة إلى الأمام لكي لا أتراجع. أغمضت عيني قليلا، ومشيت بلا أسئلة ولا تردد، من تلقاء نفسي، وفي كامل وعيي وإرادتي. أدركت لحظتها أن كلّ شيء كان قد انتهى، بما في ذلك أنا.

ترنّحتُ لثانية لم أستطع ضبطها، ثم مشيت باستقامة. كان النور قويا والدوار كبيرا. كأنني دخلت في غمار دوامة دائرية من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين. من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال. ثم في كل الاتجاهات بلا انتظام قبل أن أجد تماسكي وتوازني. عندما التفت لأرى مولاي السالك، لم أر إلا نورا ساطعا كان يمحو كل شيء من حولي، ويحولني إلى ذرات بلا مكان ولا زمان.

قبل أن أتماهي نهائيا مع الضوء وأصاب بالعمى الكلي والدخول في تيه الأنوار، أدركت أني كنت في بداية المسلك أتجه نحو عالم لم أكن أعرف عنه سوى ما حكاه لي عنه مولاي السّالك لحظة قادني من يدي وهو يردّد على مسمعي: *ستعبر المسالك الصعبة وستنفتح أمامك استكانة المشتهى الأبدي.* المنتهى.

وقبل أن أقذف بنفسي نهائيا، في عمق شعاع قادني بسرعة النور نحو ميراثي الأرضي، رأيت كل شيء يركض أمام عيني بسرعة متناهية، الأجرام، الظلمات، الكائنات الهلام، الهيولى التي لا شكل لها وتشبه العجينة، غبار الأنجم ورماد السماوات المحروقة.

وأنا أتدحرج نحو الأعلى، كانت خفتي تزيد أكثر بعد أن تجردت من كل شيء. أصبحت خفيفا مثل نسمة فجر على حافة بحر قريتي الهاربة، وعاشقا مثل قبلة مسروقة، ومجنونا مثل عاصفة القلب من شدة الغيرة. بل إن الجاذبية بما في ذلك جاذبية الخوف، انتهت وأصبحتُ ملكية كون لا خوف فيه.

مجرد ذرة نور محملة بذاكرة ستين سنة وبعض الوقت.

ستون سنة يا ميترا، وشيء من غبار الزمن.

ستون سنة والكثير من الحب... وإصرار بلا قيامة من أجل استحقاقها. لم يكن جدي السلالي الروخو مخطئا عندما قال بذلك، ولم يكن أمامي من حل إلا الانتساب لجدي اللغوي دون كيخوتي/ سرفانتس الذي أكد مثل الروخو أننا في النهاية لا نفعل شيئا سوى أن ننحت معنى لحياة تمر بسرعة، ونريد أن نستحقها مثل الفارس العاشق، لأنها أهل لذلك، ولأننا أيضا نريد أن نكون أهلا لذلك.

هل نحتُّ هذا المعنى؟ لا أدري، لكني حاولتُ.

حاولتُ بيقين الحياة الوصول إلى ما اشتهيتُ.

4- تلكَ التي اشْتَهَتْنِي... عِشْتُهَا

كأن الدنيا لم تكن. كأني لم أكن.
كأن الأرض لم تخلق، وكأن السماء لم تُثبت في مدار معلوم.
كأنّ البحر لم يعْلُ، وكأنّ الريح لم تعصف.
وكأنّ الشّيء الذي كانَ، لم يكنْ.

وأنا أتدحرج نحو الأعالي، كانت سرعة الأشياء تتنامى من حولي وتكبر، حتى جعلت كل شيء يهتز، ثم يتهادى ليدخلني في دواره. تجرّدتُ من كل شيء. من فوطتيْ الحرير، اللتين سترني بهما ألبينو قبل عبور المسلك، ثم جسدي، حتى أصبحت خفيفا مثل نسمة فجرعلى حافة بحر قريتي التي تحوّلت إلى صورة هاربة، مثل قبلة مسروقة لمجنون طوّحت به عاصفة القلب من شدة الغيرة.
كل شيء انتهى الآن، بما في ذلك جاذبية الخوف.
أصبحتُ فجأة ملكية كون أوسع.
مجرد ذرة نور في مدار منفلت قليلا، محمّلة بذاكرة ستين سنة وبعض العمر.
إذا نظرنا من خلال قطعة كريستال منحوتة، أو في عين ماء صافية وطرية، استطعنا رؤية عمقها الدفين، بسهولة، فتتسابق الصور نحو أعيننا المتعبة وتشعُّ مثل جوهرة تزين جبهة مشرقة بالبياض اللآّمع. هكذا تبدت لي الشلالات الضوئية بمختلف أشكالها، وكأنها كانت تنطق من شدة لمعانها [77].

ماذا بقي الآن؟ سؤال الرعشة الأخيرة.
لا شيء. أبدا لا شيء يا ميترا.
ستون سنة فقط، وشيء من غبار الوقت.

---

[77] Dante. La Divine Comédie. Chant II, vers 7 et suivants.

ستون سنة، والكثير من الألم والحب، وجوع بدون حدود للحياة، وإصرار بلا قيامة من أجل استحقاقها. لم يكن جدي الروخو مخطئا عندما أسرّ لي تحت صخرة المغارة البركانية، بأن الحياة التي تعترضنا بصدفة قدر مجنون ومشتعل، هي استثناء لا يُمنح هكذا، نحتاج إلى أن نثبت لأنفسنا أننا أهل له ونستحقه. لم يكن أمامي من حلّ في رحلة العمر التي طوّحت بي بعيدا حيث اشتهت، إلا الانتساب لجدي اللغوي دون كيخوتي الذي أكد مثل الروخو، أنّنا في النهاية، لا نفعل شيئا خارقا سوى أن ننحت معنى ساخرا لحياة تمر بسرعة البرق، نريدها أن تستمر فينا، وبعدنا، في خضم الإفناء والزلازل والبراكين والخوف التي تمحو كل أثر للحياة وتحوله إلى غبار، ينتظر ريحا تعصف به في البراري والبحار والسماوات العالية. نريد أن نستحقها مثل الفارس العاشق، لأنها أهل لذلك، ولأننا أيضا نريد أن نكون أهلا لها.

هل نحتُّ هذا المعنى الغائب الذي يركض وراءه كل عاشق للحياة لدرجة التماهي معه ومع مخاطر الموت؟ لا أدري. كل ما أعلمه هو أنّي حاولتُ كما أجدادي في سقف يأسهم وحلمهم، الوصول إلى ما اشتهيتُ، أحيانا بيقين كبير، وفي أحيان كثيرة بشكّ أكبر.

بدأت حياتي بالكثير من اليقينيات، كما كل النّاس، لكني كنت سعيدا أني ضيّعتها كلها في نهاية المطاف، ولم أعد أركض وراء أي يقين. كل يقين هو موت صامت، ومقنع، لأنه باب خشن وثقيل من الفولاذ الغليظ الذي يسد في أوجهنا كل إمكانية لحياة أخرى، موجودة فينا بألوانها وبهائها، لكننا بسبب عمى اليقين، لا نريد أن نعرفها ولا أن نكتشفها كما هي لا كما نشتهيها.

لقد هدأ كل شيء، وصفا الجو واستقام المدار الذي بدا لي منفلتا في البداية. انسحبت الجبال والمرتفعات والأشجار والعواصف وأصبح كل شيء في مستوى واحد. تناهت إلى مسمعي، وأنا غارق في هذا الامتداد، أناشيد كثيرة، لونها شديد البياض. تسير على وتيرة واحدة مثل حضرة الصوفية، قبل أن تتعالى نحو الأقاصي وتأخذها رعشة التلاشي. تخترقها نغمة من الغياب كانت تأتي من بعد سحيق، محمّلة بحنين الشجر

والطيور والرياح، وحنين الذين انسحبوا في وقت مبكر، لم تشبع الدنيا منهم، ولا هم شبعوها.
أصواتهم كلها، التي كانت فيّ، سكنت الآن. لقد انطفأوا تباعا. مِيمَا. والدي. عزيز وزوليخا. حنّا فاطنة والشيخ الأكبر. حبيبتي مينا. سرفانتس. ثم تلاهم ألبينو وأخيرا سيدي السالك. رجل واحد ظلّ معي إلى آخر لحظة. جدي الروخو. لا أعرف السرّ في ذلك، ولكنه ظلّ معي إلى أن انتقل فيّ. هل لحنّا مسؤولية في هذا؟ لا أعلم. كل ما أعرفه هو أنّه لم ينس في أية لحظة، أنه ظلّ وفيا للخروبة التي غرسها وصنع منها مأكله ومشربه ومتكأه وقبره الذي ظلّلته طويلا، على الرغم من أنه، في هدأة الروح، ظل يحضن بين ذراعية جرح الفقدان وخيبة التربة التي لم تكن دائما رحيمة معه. ما رأيته ونحن على صخرة الله، وما أسرّ لي به ونحن تحت صخرة المغارة، سيظل معي في رحلة النّور التي انطلقت قبل ثوان ولا أدري كم ستستمر. ما قاله لي في ذلك الجو المعتم، على نور شمعة تآكلت بسرعة، لم يكن هينا.
لا حلم لي الآن إلا أن أتحول مثله جدي، إلى ذرة نور محملة بذاكرة العطش والخوف والفرح.

هل تدرين ماذا حدث يا *ميترا*، لحظة فتحتُ عيني للمرة الأخيرة؟
كانت يداي ما تزالان نائمتين على كتاب *الإسرا إلى مقام الأسرى أو كتاب المعراج*، لمولاي الشيخ الأكبر، ابن عربي، في معراجه نحو فتنة سماء الاعتلاء. الذي اقتحم سدرة المنتهى قبل أن يقف عاجزا أمام ما يغشاها من النور والبهاء. وعندما طلب الملأ الأعلى، قيل له بينك وبينه حضرة الكرسي، فطار على أجنحة الكرسي ليغرق في نور حضرة قاب قوسين أو أدنى. اللوح الأعلى. الرياح وصلصلة الجرس. ثم في ظلمة أوحى حيث تتكشف معميات الأمور ومخبآت الأسرار. كنتُ على نفس وضعي قبل انتقالي، ولم تحرك يقيني بالحياة والنور، أية ريح عاصفة.

محا النور المتخفي وراء الستائر الثقيلة كل ما كان في ذاكرتي بما في ذلك وجودي، وأوجه الكثير ممن عرفتهم. وجه واحد ظلّ عالقا في العينين والقلب والذاكرة. وجهها

هي. تلك التي نبتت في ضلعي الأوحد الذي بقي مستقيما بعد رحلة الحياة الشاقة واللذيذة، كحليب اللوز المر. نبتت وكبرت في ظل هذا الضلع، وتعودت على ملوحته، ومائه المتحرك دوما، وسكينة بحاره السرية وعنفها الأبدي. وجه واحد ووحيد...

وجهها الصّافي الذي لن يغيب عني أبدا...

تلك التي اشتهتْني... تلك التي عشتُها.

سيدي بوجنان/ الجزائر/باريس/ كوبنهاجن/ بيروت/ دبي/ جنيف/جدّة/ الدوحة/ مسقط/ ابو ظبي/أصيلا/ طنجة/ جربة/ تونس/ عمّان/

شتاء 2013- خريف 2014

postface

بعض ما خَفِيَ من سيرة المنتهى

عشتها كما اشتهتني

وأنا أتدحرج نحو الأعلى، كانت خفتي تزيد أكثر بعد أن تجردت من كل شيء. أصبحت خفيفا مثل نسمة فجر على حافة بحر قريتي الهاربة، وعاشقا مثل قبلة مسروقة، ومجنونا مثل عاصفة القلب من شدة الغيرة. بل إن الجاذبية بما في ذلك جاذبية الخوف، انتهت وأصبحتُ ملكية كون لا خوف فيه.

مجرد ذرة نور محملة بذاكرة ستين سنة وبعض الوقت.

ستون سنة يا ميترا، وشيء من غبار الزمن.

ستون سنة والكثير من الحب... وإصرار بلا قيامة من أجل استحقاقها. لم يكن جدي السلالي الروخو مخطئا عندما قال بذلك، ولم يكن أمامي من حل إلا الانتساب لحبيبي وجدي اللغوي دون كيخوتي/ سرفاتس الذي أكد مثل الروخو أننا في النهاية لا نفعل شيئا سوى أن ننحت معنى لحياة تمر بسرعة، ونريد أن نستحقها مثل الفارس العاشق، لأنها أهل لذلك، ولأننا أيضا نريد أن نكون أهلا لذلك.

هل نحتُّ هذا المعنى؟ لا أدري، لكني حاولتُ.

حاولتُ بيقين الوصول إلى ما اشتهيتُ.

هكذا انتهت الصفحات الأخيرة من سيرتي: ***عشتها كما اشتهتني***، ولم ينته صخب الكتابة. لم أعمل في هذه السيرة فقط على ما أسعفتني به الذاكرة وحدها، والذاكرة في هذه الحالات تسعف لأن الأمر لا يتعلق بتفاصيل هاربة ولكن بجوهر صنع حياتي، وإنما حاولت أن لا أتخلى عن حاضر هو فيّ بقوة. أعتقد أن القارئ يحتاج إلى هذا أولا ليعرف المسارات المحددة لحياة كاتب نتجت عنها نصوص كثيرة نسبيا هي ما يؤرخ اليوم لكتاباتي، أي بمعدل نص كل سنتين. مع العلم أن هذه الحياة التي أتحدث عنها ليست نموذجية في شيء، ولا توجد أصلا حياة نموذجية يمكن اتباعها والسير

على هديها بالنسبة لكل الناس، لأن هذا يلغي القوة الكامنة لدى كل فرد على بناء حياته النموذجية الخاصة به. هي حياة كغيرها من ملايين الحيوات التي عاشها أناس غيري بأشكال مختلفة، تتخللها الأفراح الصغيرة وحالات العنف القاسية. ربما الفرق الأوحد هو أني كتبت هذه الحياة جزئيا، بينما هم اكتفوا بعيشها لأنهم لم يمتلكوا الأداة التي تسمح بذلك، أو ربما لأسباب معقدة وحدهم يعرفون سرها. لهذا فالسيرة ليست أكثر من تجربة شخصية وجماعية في الوقت نفسه، القصد من ورائها اقتسام شيء ما فيها مع القارئ الذي لا ينتظر سوبرمانا خارقا، ولكنه ينتظر جهد إنسان باتجاه الحياة بكل ما تحمل هذه العلاقة من مشقات ومتاعب. الرهان الأوحد فيها هو أنه لا شيء يقف أمام الحب بتجلياته ومعانيه الأكثر اتساعا: حب الحياة، الحرية، النجاح، الشمس والهواء والبحر، الناس، الكتابة، المرأة، الأسفار، الألوان، التاريخ... إنسان يسقط ويقوم، ويسقط ثم يسقط ويقوم ويستمر متشبثا بأنبل ما في الحياة لأنه مؤمن بأن الحياة ليست بيولوجيا نشترك فيها مع الحيوان والنبات، لكنها استحقاق. يجب أن نستحق هذه الحياة بعدم المرور بجانبها وكأنا غير معنيين بها. والسيرة في جوهرها هي محاولة للتقرب من هذا الجهد الذي يجعلنا ليس فقط نحب الحياة ولكننا أيضا نفهمها قليلا لنستحقها.

كانت رحلة هذه السيرة ونشرها في صورتها الأولية في صفحة الفيسبوك الخاصة التي فتحتها الدكتورة ***سهام شراد،*** جميلة. تجربة غير مسبوقة جمعتني وأصدقاء كثيرين في حضن الكتابة والتخييل والسجال بمحبة وتقدير واحترام، ليبدأ العمل الصامت مع السيرة، إذ على الكاتب أن يواجه قدره الكتابي وينشئ من خلاله عالمه الذي يشغله بقوة، في عصر شديد القسوة.

الحياة التي رويتها في سيرة *عشتها كما اشتهتني*، لم تنشأ في الفراغ ولا في الراحة أبدا. فقد واجهت في حياتي الطفولية وما بعدها، كسرا كبيرا متعدد الأوجه الذي ترك ملمسه وعلاماته على حياتي: الأول، حرب التحرير الوطنية، التي جرحت طفولتي بقسوة، وسرقت مني بيت ولادتي، ووالدي، وجزءا مهما من أثاث الطفولة السري. **أعتقد أني يوم فتحت عيني لأول مرة، كنت بلا طفولة.** وافترضت، بإصرار لا أفهم حتى اليوم سرّه، أبا يقف بجانبي ويوصلني إلى المدرسة ويفرح بي أمام أساتذتي، لكي أستطيع

أن أعيش. كان أصدقائي في الكوليج والثانوية، عندما يأتون برفقة آبائهم، يسألونني: أين أبوك؟ أنتَ ما عندكش باباك؟ أجيب بانكسار داخلي عميق: لا عندي. وكنتُ أؤشر لأمي. يتضاحكون. كانت أمّي هي أبي وأمي. لم يفهم أصدقاني قصدي إلا عندما عرفوا أني كنت ابن شهيد من خلال طرد الألبسة السنوي الذي كان يُسلم في الكوليج والثانوية لأبناء الشهداء، في بداية السنة الدراسية، وفيه قميص عادة بلون أبيض ما تزال به رائحة الخياطة، وسروال أسود وألبسة داخلية، وحذاء أسود أو بني. كنت أزهو فقط بلحظة فتح الطرد. الباقي لم يكن مهما لأنني ولا مرة فرحت بألبسة الطرد لأنها كانت دائما صغيرة على جسمي، وكنت أعطيها لأصدقائي الذين تناسبهم. هذا يأخذ الحذاء، والثاني السروال، والثالث يستلم القميص. الكسر الثاني الحرب الأهلية في التسعينيات، التي أحرقت الجزائر وكادت ترميها نحو قدر مجهول، مما اضطرني إلى خيار المنفى. لا أدري أصلا إذا كان المنفى خيارا، أو حالة اضطرار. أنت بين أن تقتُلَ أو تُقْتَلَ، لا خيار ثالث. ولم أكن مهيأ لا لأن أقتُلَ ولا لأن أقتلَ في حرب غامضة يعرف سرها الذين استفادوا منها لاحقا. حاولت في هذا الخضم القاتل، أن أبقى وفيا لأشيائي البسيطة، استشهاد والدي، حرائق أمي، ولكتابتي وإنسانيتي التي حاولت قدر المستطاع أن تظل واقفة باستقامة ضد الظلم والابتذال، وتنتصر للإنسان والخير والحب. لكن الكسر في النهاية كان قاسيا. أخطر شيء أن يتخلى عنك من يحبك في لحظة، في ثانية وكأنك لم تكن فيه أبدا، ويفضل عليك وافدا جديدا؟ فجأة اكتشفت أني أصبحت أنتمي للخوف والفراغ، أواجه قدرا ساحقا وحدي، ولا أساوي حتى جناح بعوضة في هذا الوطن، إذ كان عليّ أن أدخل في حياة سرية، وأغادر بيتي ليس حفاظا على حياتي وحياة عائلتي فقط، ولكن أيضا للاستمرار في الكتابة والقول وعدم الصمت أمام آلة كانت قد بدأت في عملية المحو الثقافي النهائي. قتل الكثير من أصدقائي الذين قاسمتهم الملح والماء والنار، عبد القادر علولة، يوسف سبتي، الطاهر جاووت، بختي بن عودة، الهادي فليسي، جمال زعيتر والقائمة طويلة. غادرت بعدها الجزائر، بالضبط في نهاية ديسمبر 1993، بدعوة من المعهد العالي للأساتذة في باريس، من الباحث الفرنسي الكبير وصاحب قاموس السبيل، لاروس: دانييل ريق، رحمه الله. عدت إلى الجزائر بعد شهور قليلة، إلى الجزائر، بشكل متقطع

وسري لمناقشة رسائل الطلبة، أو تدريس طلبة الدراسات العليا بين نزل الأوراسي ومستشفى مصطفى باشا لأن التدريس بالجامعة أصبح مستحيلا وخطيرا. فجأة مر الوقت بسرعة. أغمضت عيني وفتحتهما، وإذا بالسنوات تمر تمضي في رحيلها المعتاد بعنف كبير. **عشرون سنة وبعض الوقت.** ربما احتاجت العشرون سنة وحدها إلى سيرة خاصة: *سيرة المنفى،* التي أعادت تشكيلي، وصنعتني جزئيا وأنا في حالة وعيي القصوى، ومسؤول بقوة عن أفعالي وآرائي وكتاباتي. لهذا، ما كتبته في هذه السيرة، هو جزئية صغيرة من حياة مشتعلة وما تزال. اخترت في هذه السيرة الذين لم يعودوا بيننا اليوم ولا يعرفهم أحد، أو القلة القليلة، وشيدوا جوهريا حياتي، بل أعطوها معنى: الجد الموريسكي، الروخو، الجدة حنّا فاطنة، أمي ميما أميزار، مينا، امرأة الحرائق، سرفانتس، سيد الصنعة الروائية والمخيال. هؤلاء شكلوا المادة الخام التي صنعتني حياتيا، وصنعت كتاباتي باختراقها في عمقها. هؤلاء هم أبطالي الأبديين. يتشكلون، يتلونون في رواياتي، لكنهم سادة لحظة الثبات والصيرورة.

طبعا، لا أدري من أين جاءتني فكرة السيرة في الأصل، ولا سر اللحظة الأولى التي دفعتني نحو هذا الجنون وبالشكل الفني الذي ارتضيته لها؟ ولا أدري أيضا لِمَ اخترتُ ميترا لتكون رفيقتي في هذا المنتهى، من بين المئات ممن عرفتُ وعشقتُ وخلقْتُ وأبدَعتُ لأرويَ على مسمعها هذا الحب وهذا الخوف الذي كثيرا ما يبدأني من الظهر.

لا أعرف إذا كنت قد فعلتُ حسنا باختيار كتابة السيرة في هذا الوقت، ولم أجهض بعملي هذا، رواية محتملة كانت تتهيأ للخروج، في ظل زحمة المشاريع الكثيرة التي ملأتني فجأة بعد روايتي الأخيرتين ***أصابع لوليتا ومملكة الفراشة؟*** كنت دائما أفضل الرواية على أي جنس آخر لأنها الأقرب إليّ من حيث مساحات التعبير والحرية الكبيرة المصاحبة لذلك. فقد ضحيت بالقصة القصيرة، وحتى بالبحث الجامعي، من أجل التفرغ للكتابة الروائية. هذه المرة كان الخيار على السيرة، والسيرة الذاتية تحديدا، على الرغم من علمي المسبق بقسوة البتر، والخوف من الآخرين وعليهم، والصعوبات المصاحبة لإعادة تشكيل حياة مضت، بشيء من الصدق، والقنابل الموقوتة التي تنفجر في الذات، أثناء الكتابة، قبل أن تنفجر في الآخرين، من القريبين أو البعيدين قليلا. السيرة الذاتية هي اختبار جدي لقدرات الإنسان على قول نفسه في تواضعها.

لأن الكاتب في النهاية ليس وحده صانع سيرته. هناك من اشترك معه فيها إنسانيا وعاطفيا أيضا، وسلمه قلبه وجسده وحميمياته، بل وحياته أحيانا. هل من حق الكاتب السيري أن يقول ما يشاء باسم الحرية، وقت ما يشاء؟ لا نصيحة لي في هذا ولا حل لي، سوى أن يقول ما يشاء من دون أن يؤذي غيره. أتذكر في هذا السياق، كلمة للشاعر الكبير، الشيخ المرحوم محمد الأخضر السائحي في إطار حصصي التليفزيونية، عندما سألته أنا والدكتورة زينب لعوج، عن الكاتبة زوليخا السعودي التي ماتت في النسيان الكلي، وكان معلمها الأول. قال وهو يمنحنا أكثر من خمسين رسالة لها: أمانة لكما. عندي طلب واحد: حافظوا عليها. لا تؤذوا الحي، ولا تسيئوا للميت. كلمة كانت كافية لتكبيلنا إلى اليوم. عندما قرأت الرسائل، أدركت لماذا قال الشيخ السائحي هذا الكلام. توفي الشاعر وما تزال رسائل الأديبة زوليخا معلقة على كلمة هذا الرجل الكبير. لهذا لا نصيحة لي ولا حل. العين والأحاسيس هي ميزان الأشياء فقط. كما تقول أمي عندما تريدني أن تحملني بمسؤولية ما: يا وليدي، عينك ميزانك. المسالة الأخلاقية في السيرة مسالة مربكة. تفرض نفسها بقوة أمام صدق الكتابة في كتابة سيرته، لكن سيرته أيضا ليست سيرته وحده؟ مجرد انشغالات تصطدم بأي مشروع سيري يريد أن يكون قريبا من الكاتب، ومن زمنه وعصره.

كيف بدأت فكرة هذه السيرة؟ حاولت كثيرا أن أنجزها قبل سنوات ولم أفلح أبدا لأنها ظلت هامشا ولم تتحول أبدا إلى جوهر، أو إلى انشغال مهم في حياتي الكتابية . يصعب علي اليوم تحديد اللحظة الزمنية الأولى التي نشأت فيها فكرة السيرة. لكني أتذكر بعض التفاصيل الصغيرة التي ظلت في زمنا طويلا فيّ، ربما كانت هي السبب المحرك على الأقل في الخفاء. ذات يوم من شتاء كاليفورنيا الدافئ، أثناء إقامتي في أمريكا، في مدينة لوس أنجلس، بين سنتي 1999- 2000، وقفت بالصدفة في مواجهة ناطحات السحاب وأبراج مشروع سكايلاين Skyline ، في داون تاون لوس أنجلس، وهو المركز التجاري والثقافي، الأكثر حداثة في أمريكا، والأكثر تعقدا في المجال العمراني والمالي والمصرفي والرياضي والفني أيضا. مركز تجمع وسائل النقل والطرق السريعة بالخصوص *وان أو وان* 101، شمالا.

تأملت طويلا البنايات العالية التي كانت تخترق السماء، بدهشة طفل . شعت شمس لوس أنجلس البيضاء وسماؤها الزرقاء أبدا في عيني بقوة، فنهض الطفل النائم فيّ، وانتابني هذا السؤال بشكل تلقائي لم أحسب له أي حساب، إذ لم تكن لدي أية قصدية: كيف استطاع طفل عاش بالصدفة، وكبر بالصدفة، وتعلم نجح بالصدفة، وما يزال يعيش إلى اليوم وفق سلسلة من الصدف التي مدت من عمره قليلا، نبت في قرية لا توجد على الخارطة، كان حلمه الأكبر أن يصبح معلما في القرية للحصول على سكن، والخروج من دائرة الفقر، وإعالة أمه وإخوته. ربما كانت حالة وعي أكبر من سني وقتها، لأن أمي كانت لها وجهة نظر أخرى. أن أتعلم أولا وأخيرا وأن لا أفكر في أي شيء آخر. انشغالها الأكبر هو الوفاء لوصية الوالد الذي طلب منها تعليم الأولاد وأن تتصرف بعدها في حياتها كما تشاء.

ماذا حدث من تحولات بلا حدود ليجد هذا الطفل نفسه فجأة يقف في مواجهة ناطحات سحاب وأبراج عالية هي أرقى وأدق ما وصلت إليه البشرية، كان يكتفي برؤيتها في البطاقات البريدية التي يحفظ الكثير منها في أرشيفه الخاص، ويتباهى بها أمام أصدقائه من الأطفال بأنه يملك ما لا يملكون؟ ما الذي جاء به إلى لوس أنجلس سوى كتاباته التي منحته فرصة لا تقدر بثمن، ليخرج من دائرة الضّيق التي مات تحت ثقلها الكثير من الكتاب والفنانين؟ حظ كبير أن تصبح كاتبا لأن الكثير من المسافات تُختصر أمامك، وتُفتح معا أبواب الجنة وجهنم، في وقت واحد، لأن النجاح وسط دائرة الفشل والجفاف، ليس أمرا بسيطا. النجاح ليس وحيا يوحى. قد يكون للصدف فيه دور مهم، لكن في النهاية يصنعه الإنسان بيومياته، وتضحياته وحتى خوفه من الإخفاق. سدنة الموت والضغينة ينتظرون في كل الزوايا. هذا الموضوع أيضا يحتاج لا إلى سيرة، ولكن إلى كتاب مليء بالسخرية. السخرية وحدها قادرة على توفير لحظة تجاوز سلمية تسمح بمصالحة عالية مع الذات. الحسد أعمى، وهو الصورة الخفية للفشل والإخفاق. تعلمت من حياتي أن أجمل الحلول هي الخروج نهائيا من هذا المنطق، والاتكاء على مثل حنّا فاطنة وميما أميزار الذي به الكثير من الحكمة: *لو رمينا كل كلب نبح بحجر، لنفد الحجر*. لهذا كان الرهان الأكبر هو رهان كتابي. غرقت فيها، ونسيت كل شيء، ومحت أنوار الكتابة كل الحواجز في طريقها

ولم تترك أمامي إلا المسارات الضوئية كدليل في دهاليز الإبداع. عالم الكتابة الداخلي قاس، وبه قتلة ومتربصون برتب مختلفة، من الجندي البسيط المسخر للآخرين، إلى العقيد المكلف بالتنفيذ، إلى الجنرال وحتى الفريق الذي ينظر من وراء الحجب والستائر.

ماذا يعني أن يصبح المرء كاتبا؟ هل هي الأقدار ومساراتها التي وضعته في مسلك لم يختره في النهاية؟ هل هي صدف الحياة المليئة بالغموض والأسرار؟ هل هي الإرادة والإصرار للانخراط في العصر وتحمل قسوته ومقاومة سلطانه الظالم؟ أم هو الإيمان العميق بأن شيئا آخر يجب أن يرى النور بالشكل الذي يرتضيه؟ لا أدري بالضبط. ربما نبتت السيرة في عمق هذه الأسئلة التي تشغلني، لا كحياة فردية وشخصية وحسب، لكن أيضا كرهان كتابي، سيدته الصبر على حرفة نحت اللغة التي لا تقدم أسرارها بسهولة. كيف أكتبني؟ كيف أقولني بلا خوف ولا بتر؟ لقد تكاثفت سلسلة من الصدف المقرونة بإرادة بلا حدود، لتنتج واسيني الذي يعرفه اليوم القراء على صورته الحالية. لكن تحت هذا *الواسيني* الذي يرونه على الشاشات العربية والعالمية، ويلتقون به في الندوات واللقاءات أو في الجامعات، أو حتى في الشوارع والحارات الشعبية بالصدفة، *واسيني* آخر هش جدا، وأحيانا غير بشوش، مجروح في الأعماق لأن جزءا من طفولته سرق منه، فراح يصنع طفولته بأدوات الكبار، الألغام والدبابات المحروقة، وقذائف الطائرات التي لم تنفجر والتي حولها إلى ألعاب شخصية، بالصدفة لم تنفجر فيه. هذا *الواسيني* المتخفي في الأعماق، أحمق أحيانا، حزين في أعماقه، لأن الحياة التي تحداها بالحياة، تركت علاماتها على جسده وحروقها. يتيم في وقت مبكر واغتيال أب اختار مسالك النور. صعب أن تكبر بلا حضن أبوي وأنت تحفظ مقولة أمك التي تخفف عليك الوطء من حين لآخر: *اليتيم، يتيم من أمه وليس من أبيه. الأب يتزوج وينجب من زوجته الجديدة، ويصبح أبناء المرأة الأولى يتامى للمرة الثانية. بينما الأم تظل وفية لفراش زوجها الأول.* أمي كانت تتحدث في الأعماق عن نفسها فقط، وعن وفائها الخاص لزوجها. لأن أم صديق الطفولة الأول، عمر، تزوجت وهي أرملة شهيد، وأنجبت من زوجها الثاني وماتت وهي في النفاس. وكنت دائما أحزن على عمر كيف تزوجت أمه برجل آخر حتى ولو كان من العائلة وأنجبت منه؟ كنت

أتصور أن موتها في نفس يوم الولادة هو عقاب سببه غضب الشهيد؟ مع الزمن أدركت أن أمي أحرقت حياتها كلها من أجل أبنائها، وهي شابة مثل فاكهة حية، مليئة بالنور والحياة. لهذا أشعر دائما نحوها بدين لا أملك حياله أية قوة لتعويضه. كلما تأملتها، رأيت فيها قديسة. حتى يوم توفيت عن عمر يناهز التسعين سنة، وهي في كامل صحتها ونقاء ذاكرتها، سارت القرية كلها في موكبها الجنائزي، صغارا وكبارا حتى أن بعض النساء اخترقن نظام الجنازات المانع لهن بغير حق، وحضرن على مرتفع الهضبة، مراسم الدفن. أتذكر كلمة إمام القرية وهو يشد على يدي: *لا أعزيك، أعزي نفسي في فقدانها. لالة الحاجة أميزار، لم تكن أمك فقط، فهي أم القرية كلها.*

عندما سئل أحد النحاتين كيف وصل إلى إبداع أشكاله، من عميق المادة الرخامية أو الصخرية؟ أجاب، أنا لا أفعل أكثر من إزالة الزوائد عن المنحوتة الموجود أصلا في عمق الصخرة أو الرخام. أعتقد أني لم أقم بالشيء الكثير في هذه السيرة الذاتية سوى أني أزلتُ الغطاءات الوهمية التي كانت تثقلها، ليرى قرائي ما لن يروه أبدا خارج التخمين والتأويل والافتراض، التي ليست بالضرورة رديفا للحقيقة. منحت قارئي بعض أسرار الكتابة لا لأني تخطيت بعض العمر، وأصبحت علامات الموت ترتسم في الطريق والجسد، ولكن لأن لدي شيئا أريد أن أقول في حق من لم يعودوا بيننا اليوم. لهذا أتساءل أحيانا بعد كل هذا الجهد الكتابي، هل هي سيرتي أم سيرة كل الذين منحوني الحب والرغبة في الارتماء في غمرة الحياة؟ ما زلت أشعر إلى اليوم، أني لم أغادر طفولتي أبدا، فهي معي وفيّ بقوة. طبعا للعمر سلطانه وقوته التأثيرية. لقد احتفلت بصدفة الأقدار، بعيد ميلادي الستّين، في تونس، وأنا في قمة انتشائي بالحياة كما في اللحظة الأولى. سبق أن احتفلت بعيد ميلادي العاشر في مسقط رأسي، قرية سيدي بوجنان، وكان الكثير ممن أحب ما يزالون أحياء. عيد ميلادي العشرون احتفيت به بين وهران وتنيرة بسيدي بلعباس، مع أصدقائي من المتطوعين من الطلبة، لصالح فلاحي الثورة الزراعية. عيد ميلادي الثلاثون كان في الشام، في مدينة الروح والقلب دمشق، كنت طالبا في الدراسات العليا، أستعد لمناقشة دكتوراه دولة في الآداب. عيد ميلادي الأربعون احتفيت به في المنافي، في باريس وأمستردام. بينما العيد الخمسون اخترت أن يكون في الجزائر العاصمة لشيء غامض في الأعماق.

وعيد ميلادي الستون، فكرت في أن يكون في أحضان قريتي[78]، ليس بعيدا عن أمي وقبر أبي المجهول، وحنّا، وزوليخا وعزيز، وكل أهلي هناك، وسكان قريتي من الذين لا تحتفظ المقبرة الوحيدة، إلا ببعض الشواهد القديمة، بها أسماؤهم وتاريخ وفاتهم من دون ذكر الأسباب. الكثير من شباب القرية مات قبل الثلاثين وحتى العشرين من عمره، برصاص حرس الحدود الجزائرية–المغربية، وهو يركض وراء رغيف مغموس بالدم، في الوقت الذي يتحرك فيه بحرية كبيرة، أباطرة المخدرات، وبارونات الأسلحة والموت. كان يمكن أن أكون بين هؤلاء الشباب، فقد هرّبت مثلهم الزعفران والبرتقال والكتّان النسائي، من المغرب إلى الجزائر. يستحق هذا أيضا أن يكون موضوع سيرة جزئية. لكن الانتساب للحياة كان أقوى وهو ما أنقذني من ضياع أكيد. سعيد جدا لأن هذه السنة/ أوت 2014، سيكون الاحتفاء مزدوجا، أولا بعيد ميلادي، وهذا حق طبيعي. ثانيا بالانتهاء من سيرة *عشتها كما اشتهتني*، والفرح بأن الله منحني عمرا جميلا قلت فيه بعض ما اشتهيت. ولو أن الثمن كان باهظا، لكن رهان الحياة يستحق مني هذا الحب وهذه المنافي والأوجاع. صحيح أن الحياة لم تكن سخية معي، لكنها طوّحت بي عميقا في خضم الصدف والحياة، وقالت لي بلا عاطفة ولا تردد: أنتَ هنا. عُمْ بحرك... فعُمتُه بقدر ما ملكتُ من حب للحياة وصدق وقوة مقاومة. وكان عومي هو بعض سيرتي التي وضعتها بين أيدي القراء بلا تردد ولا خوف، متخطيا أوهام الكتابة التي تفترض الحفاظ على السر لغواية القارئ نحو اكتشاف الشيء الجديد. لقد سرقت منه عنصر الدهشة؟ أنا أومن بأن القارئ متعدد، مثل الموجة، يمشي ويجيء، ولا يمكن تأطيره في دائرة واحدة. له الحق في أن يأتي نحو السيرة، أو يتخلى عنها بحجة أنه قرأها سابقا. التجربة علمتني أن القارئ المهتم موجود، ويتبع كاتبه أنّى كان.

على الرغم من كل الصعاب الحياتية التي ذكرتها، فأنا اليوم رجل سعيد جدا. بل أُحْسَدُ قليلا، وربما كثيرا، على هذا الحظ الذي اسمه صدف الحياة التي حينما لا تقتل، تمنحك فرصا باتساع الكون للحياة.

[78] مرة أخرى كانت مشيئة الأقدار هي الحاسم. صادف نفس التاريخ يوم تصويري مع قناة الجزيرة حصة المشاء في تونس، التي خصصت لتجربتي الأدبية والحياتية. فاجأني طاقم الجزيرة الذي كان يصور معي في المساء نفسه من يوم 8 أوت 2014 في حي سيدي بوسعيد الجميل في مطعم المظلات L’Embrelle، على حافة البحر، باحتفالية جميلة بعيد ميلادي الستين.

لم تكن كتابة هذه السيرة أمرا هينا كأية كتابة تحفر في أعماق الذات. كانت أحيانا قاسية عليّ، قبل أن تكون على غيري، لأن أول من يُمسّ بنارها هو من يستعيدها ويعيشها من جديد داخل القلق واللغة. لهذا ابتعدت قدر ما استطعت عن أي تشويش عائلي أثناء كتابتها، لكي لا ترهقني الموانع الطبيعية، ولا أرهق غيري أيضا. استحضرت حياتي في قلب عواصف الفرح والغضب أيضا، واسترجعت كل ما خزّنته من حكايات أمي، ومرويات حنّا فاطنة، وتناقشت مع القريبين مني كثيرا، حول بعض الموضوعات الحساسة، هناك من شجع وهناك من نبه، وهناك من منع، ولكنني انتهيت إلي الكتابة بحرية كاملة. أو على الأقل هذا ما أحسسته أثناء الكتابة. أدرك اليوم أن الكثير من القصص ليس من السهل حكيها في مجتمع أحكامه سماعية وأخلاقية بالمعنى الأكثر ضيقا، لكن مغامرة الصدق مع النفس ومع القارئ مسالة نسبية لكنها ضرورية جدا، لأنها تمرين لا نعرف مؤدياته في النهاية. قصة مثل قصة مينا لا يمكنها أن تمر بسهولة في النظام العائلي الباترياركي والقبلي المنغلق على نفسه. لا حق للمرأة ليس فقط في الحب، ولكن في التعبير عنه أيضا. لا تمر هذه الأمور حتى ولو حدثت في وقت مبكر، بسهولة في العائلة وفي المحيط القريب أو البعيد. حتى بعض قرائي الذين أحبهم واحترم آراءهم، وبعض أصدقائي القريبين إلى قلبي، لم يتحملوا ما حكيته عن مينا. ما بالك بالنسبة للعائلة التي تعتبر نفسها لها الحق الأكبر في تفكيرك ومخيالك وحتى في جسدك أحيانا؟ وكأن الإنسان السوي هو من منح حياته للريح، ولم *يغرقها* في أية علاقة، حتى ولو كانت هذه العلاقة طفولية أو مراهقة، وفي أعالي الفعل الإنساني؟ ما الذي يضر الآخر في سيرة مينا؟ الإجابة واضحة في مجتمع تحكمه المسبقات الثقيلة: كيف يمكن لإنسان عاقل وسوي أن يقبل بالدخول في علاقة مع امرأة *مومس*، وكأن كلمة *مومس* خيار ذاتي وليست جريمة مورست على مينا وأخضعتها لنظامها؟ هل هي امرأة بلا قلب بعد أن سرق منها جسدها؟ هذا هو المعتقد العام، بينما الحقيقة أعمق من ذلك وأكثر تعقيدا. مينا دفعت الثمن غاليا مقابل بحثها على الانخراط في النظام المجتمعي العام الذي كان قد وضعها في أفق المحو، لأنها عنصر منغص على راحة العائلة والقبيلة والبلاد أيضا. ماذا لو نظر كل واحد منا في محيطه وحياته الخاصة، وحبه وخيباته، لوجد تفسيرا

لحالة مينا، وربما لفهم وضعها وقد يتعاطف معها، فهي في النهاية ضحية وضع صنعه نفاق الآخرين وجبنهم المستشري والكبير، والناظم للشكل الظاهري للحياة؟ أستحضر هنا كلمة الشاعر العراقي الكبير معروف الرصافي، الذي كتب سيرة النبي الأكرم بطريقة نقدية جديدة في 1932، ولم تنشر السيرة إلا في 2002، بعد سبعين سنة من المصادرة: *وإني لأعلم أنهم سيغضبون ويصخبون ويسبون ويشتمون. فإن كنت على قيد الحياة، فسيؤذيني ذلك منهم، ولكني سأحتمل الأذى، في سبيل الحقيقة، وإلا فليس لي أن أهتف باسمها ولا أدعي حبها كما يدعيه الأحرار، وإن كنتُ ميتا، فلا ينالني من سبابهم خير كما لا ينالهم منه خير فإنّ سبَّ الميت لا يؤذي الحي ولا يضرّ الميت.*[79]

عندما أقرأ سِيَرَ الكتاب العالميين مثل مارغريت دوراس، كافكا، سيمون دو بوفوار، ألبير كامو، كزانتزاكي، أنابيس نين، هنري ميلر، وغيرهم أدرك كم نحن بعيدون عن أنفسنا، وعن غيرنا أيضا. بقدر ما يتعامل الآخرون مع الحياة كمسار جميل بكل تعقداته، نغلق نحن على أنفسنا بحجة الأخلاق العامة وكأننا نفترض سلفا أن هناك كذبات متفق عليها اجتماعيا، يجب عدم لمسها، أو هز يقينها الوهمي الذي أصبح يشبه المسلمة: العربي لا يحبّ، وإذا أحب فلا علاقة له خارج النظم المعترف بها اجتماعيا. وأن المرأة العربية، الكاتبة والفنانة، لا حياة خاصة لها وإذا كتبت، ستكتب عن كل شيء إلا عن بعض حياتها الخاصة. أغلب السِّير التي قرأتها تتجلى فيها القيمة الفانتازمية الخارقة، أكثر من القيمة الإنسانية التي تحببنا في الكاتب أو الفنان وفي تجربته. هو دائما كائن كامل وتام ويعطي دروسا أكبر من تجربته.

لهذا أدرك اليوم كم هي قاسية كتابة سيرة ما؟ لأنها تقليب للمواجع الغامضة التي ظل الكثير منها معلقا في الفراغ في انتظار العودة باتجاهه. أفضّل تعب الروايات بكثير، وتعقيدات كتابتها، على سيرة واحدة ولو جزئيا. كتابة سيرة ذاتية معناها الانخراط في تاريخ ذاتي ليس من السهل الغوص فيه بعمق وصدق. ولهذا كل محاولاتي الأولى في كتابة السيرة، كانت فاشلة لأن هناك إدراكا عميقا بصعوبة الجهد. ربما أهم هذه المحاولات، هي محاولة جريدة الخبر اليومية في سنة 2009، التي نشرت على

---

[79] معروف الرصافي، كتاب الشخصية المحمدية، منشورات الجمل، بيروت 2002. ص: 16.

صفحاتها الثقافية في زاويتي الأسبوعية *دياسبورا*، المحاولات الأولى من سيرة: *عشتها كما اشتهتني*، ولكن الحلقات لم تستمر طويلا إذ توقفت عند حدود الجد الأول ومصاعبه الموريسكية. بعدها ضربت صفحا عنها وبدأت أنساها حتى جاء من أشعلها فيّ من جديد. في صيف السنة الماضية، خريف 2013، بعد معرض الجزائر بدأت الفكرة تترسخ شيئا فشيئا في ظل حالة ضياع داخلي أربكتني بشكل ضيعت بوصلتي في الحياة، إذ اكتشفت أن الحياة لم تكن كما اشتهيتها، فيها الكثير من الأشياء غير المحسوبة والصعبة التحمل. الفضل يعود، بشكل مباشر أو غير مباشر، لامرأة من نبل كبير، الدكتورة سهام شراد. من شدة خجلها ونبلها تجلس دائما في الظل أو في الصفوف الخلفية بحيث لا ينتبه لها أحد. بعد الانتهاء من كتابة ونشر مملكة الفراشة وتوقيعها في المعرض، في حالة ضياع كتابي وارتباك داخلي. فقد انتابتني دفعة واحدة سلسلة من الأسئلة الحياتية الثقيلة، مصحوبة بمشاريع روائية كثيرة كانت تنام في أعماقي. منها رواية زرت أمكنة كثيرة من أجلها لكتابتها، لكن داخلي لم يكن مرتاحا لفعل ذلك. فقد سكنني فجأة، تيه لم أعهده في نفسي منذ زمن بعيد، ضبب كل الرؤى. سألتني الدكتورة سهام ذات مرة ونحن نتحدث في مكتبة الجامعة العريقة، وأعرض أمامها برنامج السيرة الذاتية الموجه لطلبة الدكتورة لسنة 2013-2014، إذ كانت تريد أن تحضر السمينير كطالبة حرة، وأرى معها إذا كان يناسبها المشروع. قالت بعفوية وطفولة: *لماذا لا تكتب سيرتك يا أستاذ؟* أجبت باقتضاب: *جربت وفشلت*. فهي عمل يستنزف من الداخل وغير مفيد. قالت، جرّب. ضحكتُ مرة أخرى وقلت: *حتى لو كتبتها، لن أكتبها من موقع البطولات الوهمية والزعامات المفرطة. سأكتب نصا يُشبهني فقط*. ثم تطورت الفكرة شيئا فشيئا لتتحول إلى تجربة رهانية في اختبار قدرات الذات على تخطي الآلام والخوف وتأمل الجراحات في المرايا التي توفرها السيرة الذاتية. لم أعِد الدكتورة سهام بالشيء الكثير، ولكني وعدت بالمحاولة وأنا مقتنع أنها لن تكون أفضل من محاول *دياسبورا* في الخير اليومية.

كانت رهاناتي الكبيرة في هذه السيرة كمشروع كتابي، واضحة، لأن المعلومات الحياتية والذاكرة بكل ثقلها، لا تكفي، فهي تحتاج إلى سند فني حقيقي يحملها ويحتويها ويخلق

جسرا بينها وبين القاريء. فقد حاولت العمل بكل جدية واحترام لذكاء القارئ، على كتابة نص لا يقطع علاقته بالأدب. فهي في النهاية سيرة أديب وليست سيرة مناضل خاض حروبا ومعارك انتصر فيها وغيّر مجرى التاريخ، أو شخصية اجتماعية معروفة عملت بكل جهدها على تغيير المنظومات السائدة والظالمة، أو رجل مال اشتغل في بنك معروف وهز بتجربته النظام المالي القديم والمتهالك. لهذا فالصفة الأدبية لها ما يبررها منذ البداية، وشكلت بالنسبة لي انشغالا مهما في الفكرة والصياغة واللغة. الهاجس الأدبي لتشييد نص سيري ليس أمرا ثانويا بل هو في صلب الرهان. كان أيضا شرطي من هذه السيرة أن تقولني بصدق وان أمارس حربي الداخلية مع الحقيقة وأشكالها الخارجية. أعرف مسبقا أن أية سيرة لها حدودها القصوى التي لا تتخطاها بسهولة، وهو ما يعقد سردها وصراحتها ونظامها الذي تسير وفقه. لكن ماذا تساوي سيرة بلا صراحة؟ مع علمي المسبق أن لكل سيرة أيضا حيلها الخبيئة التي تقدم بها صراحتها الخاصة. اخترت في هذا، المسلك الأبسط والمباشر. الطفل الذي فيّ كان عليه أن يتكلم ويقول ما عاشه وما رآه، لأن هذا الطفل والمراهق أيضا، هو الوحيد الذي لم يكبر فيّ أبدا وظل يصر على موقعه على الرغم من أن جزءا مهما من طفولته سُرق منه. فتركته يتوغل في مكوناته الداخلية، وليس فقط الثقافية، لأن الأنا الخاصة صناعة معقدة، مصنع مظلم تشتغل فيه الآلات القديمة بكل وسائطها التقليدية المعوقة، والآلات الحديثة التي كثيرا ما تتحول إلى طاحونة تأكل الأخضر واليابس. هناك حالة مجاورة بين القدامة والحداثة دائمة، وتنافر أيضا. لهذا أهملت الكثير من التفاصيل في السيرة كما ذكرت، ليس لأنها غير مهمة في حياتي، ولكنها قليلة الأهمية أمام ما هو جوهري وتستحق أن تكون سيرا منفصلة مثل الطفولة والحرب والمنفى والثقافة وغيرها. وأنا اخترت إعادة صياغة الجوهر فقط. فاتكأت على الأعمدة التكوينية بالمعنى العمراني والثقافي، التي كان لها الدور الحاسم في حياتي. ولم يكن الأمر سهلا إذ وضعني كل عمود أمام سلسلة من المعضلات كان يجب حلها. **العمود التاريخي** الذي أنتمي له ليس سلاليا، وهو قليل الأهمية لأنه وليد الصدفة ولا سلطان لي عليه، ولكن ثقافيا، وهذا هو الأهم. الجد الروخو. سمح لي بالعودة إلى عصر مهم في عذاباته ومآلاته بعد سقوط آخر معاقل المسلمين،

غرناطة، وإعادة تركيب العائلة كما في مرويات الجدة التي أومن أن بعض حكاياها أسطوري بلا أدنى شك، لم تصنعه هي، ولكن المسافة بين التاريخ الحقيقي، القرن السابع عشر، والقرن العشرين، لكن البعض الثاني من مروياتها لا يقل تاريخية. ربطت حكيها مع المادة التاريخية الأندلسية التي تمكنت من اختبارها بسهولة وأنا أبحث على مدار الثلاثين سنة الأخيرة عن تاريخ أجدادي الموريسكيين. وقد وجدت إجابات مهمة لأسئلة معقدة. شكل هذا كله، الأرضية الأولى للسيرة. فأنا لا أفهم شدة ارتباطي بهذا التاريخ من دون الرجوع إلى هذه المرويات التي أصبحت جزءا حيويا من السيرة، خارج الحقيقة وضدها أيضا. أما **العمود الحكائي** فقد ارتبط عضويا بشخصية حنّا فاطنة، أو الجدة. فهي معلمي الأول في العمل السردي. لقد كانت الوسيط الأسمى والأنبل بيني وبين جدي الأندلسي. رُبّيت في حضنها، وكانت من وراء أهم اللقاءات الحاسمة في حياتي الكتابية. لقائي باللغة العربية الذي كثيرا ما يمر عاديا وهو ليس كذلك، إذ لولاها لكنت اليوم كاتبا بالفرنسية، أو إداريا فرانكفونيا متمرسا، أو خبيرا اقتصاديا، أو مسؤولا في بنك محلي أو عالمي مع بعض الحظ، أو بكل بساطة أستاذا للغة الفرنسية في مدرسة أو كوليج أو ثانوية. بفضل حنّا فاطنة الإنسان البسيطة التي لا ثقافة عالمة لها إلا ثقافتها الشعبية، التقيت بأهم كتاب غيّر حياتي رأسا على عقب: *ألف ليلة وليلة*. ربما للصدفة سلطانها، لكن جدتي كانت وراء هذه الصدفة بسبب إصرارها معتمدة في ذلك على ثقافتها الشعبية وحسها بقيمة اللغة والعلم. إذن جدتي كانت أكثر من جدتي. كانت الجزء الأهم من عالمي الداخلي. كانت غناي وعفويتي ومتخيلي العميق جدا فيّ. أنا ثمرة لها ولما منحتني إياه. **عمود الوفاء وقوة الصمود**، الذي ارتكزت عليه في السيرة، هو أمي. ميما ميزار التي منحتني كل شيء. استشهد الوالد وهي في عز شبابها ولم تفكر في شيء آخر سوى تنفيذ وصيته: *علمي الأولاد. هذا طلبي الأوحد. الباقي أنت حرة في حياتك*. من آلامها وتمزقاتها. عرفتُ من خلال أوجاعها كيف يبني الإنسان فرحا من لاشيء أحيانا. تعلمت منها المقاومة بتواضع وبلا ضجيج، في الأوضاع الأكثر يأسا. أكثر من هذا كله، أفضالها لا تحصى في بنائي الداخلي. فقد نبتُّ في رحمها بفرح كبير بعد أن بارك مجيئي الولي الصالح سيدي امحمد الواسيني، فاختارت اسمي من اسمه بسبب

رؤية أسعدتها وأخافتها. هي من رماني في عمق التعلم محملا بشيء واحد الوفاء لوصية والدي. أدين لهذه القديسة بالحياة وهذا وحده يكفي لأن أقبل رأسها ويديها، ورجليها بلا كلل ولا ملل. وفاتها قبل سنتين، تركت فيّ فجوة كبيرة في أعماقي، لأنّ البتر هذه المرة كان قاسيا وبلا تحضير. لأول مرة يقطع الموت الحبلَ السري بعنف، وأجدني في دوامة الفراغ مثل عنصر لا يشده إلى الحياة أي رابط أو أية جاذبية. عمود رابع آخر انبنت عليه هذه السيرة، ارتبط بأول حب أتذكره جيدا، بل بأول تجربة حسية وعاطفية مع مينا، أو آمنة. هذا الجزء مس حياتي العاطفية الأولى لأن الإنسان لا يخلق من عدم، فهو يتكون ليس فقط ثقافيا ولكن عاطفيا أيضا. هذه الحياة الجميلة والقاسية نشأت على مأساوية كبيرة لا يمكن فهم تجلياتها في بعض أعمالي، إلا بالعودة إلى هذا العنصر الأصلي. كثيرا ما سئلت لماذا تموت أو تُقتل بطلاتي في النهاية. لم أنتبه لهذه الحالة إلا لاحقا، عندما توغلت عميقا في السيرة. من أوجاع رجل، حتى أصابع لوليتا، تشذ عن القاعدة روايات محدودة منها مملكة الفراشة، كل الشخصيات النسوية تنطفئ فيها تحت ماكينة الظلم القاسية. هناك لحظة تثبت حقيقية Une vraie fixation يمكن لعلم نفس الأعماق الفردي أن يفسرها بشكل أكثر إقناعا. لا يتعلق الأمر بالعاطفة فقط ولكن أيضا بالأدب. هذا الموت يجد بعض تفسيراته في النهاية المأسوية التي وصلتني عن مينا، التي في اللحظة التي ظننت فيها أن الحياة عادت إلى مسالكها الطبيعية، تفاجأت بالموت الفجائعي وتراجيديا النهايات القدرية التي تليق بشخصيات الملاحم الكبيرة. لهذا كانت مساحة مينا واسعة لأنها شكلت داخلي عاطفيا ولغويا بقوة من حيث لا تدري، وربما أيضا من حيث لا أدري. أتفهم الكثير من قرائي الذين احتجوا كثيرا على العلاقة مع مينا، لكن هل نختار حياتنا كما نريد؟ كانت لعبة الصراحة في هذه النقطة بالذات كلية وقاسية، إما أن أرويها كما لمستها، وكما أردتها، وكما تخيلت نهاياتها التراجيدية أيضا، أو أهملها جملة وتفصيلا. وكان ردي بلا مواربة على قرائي وبعض أصدقائي، بصراحة أفقدتني بعضهم، في مقالة بعنوان ***من لا حظ له لا قيامة له***[80] نشرت في 2014/04/18 على صفحة

---

[80] يبدو لي حتى القيامة مصاغة بطريقة، بحيث لا مكان للمسكين فيها الذي اضطرته الحياة لخوض غمار الخطيئة بكل ما يملك من قوة لتفادي الأحكام واعتباره كائننا بسيطا، مثل الجميع يخطئ ويصيب، لكن على الذين صنعوا مأساة حاضره وحرائق قيامته أن يدفعوا، ولو جزءا يسيرا، من الثمن على الجرائم التي ارتكبوها في حقه. سأتكلم عن مينا لأنّ لا أحد غيري يتحدث عنها. لا

أحد يعرف قلبها، مثلما كُتِب لي أن أعرفه. ولا حتى عائلتها ولا اليد التي سرقتها وقتلتها. كنت أنوي أن أؤجل هذا الحديث بعد انتهاء نشر فصله، ولكن سأستبق الأحداث قليلا لكي لا أترك قرائي وزملائي من الأساتذة ومعارفي، وبعض أفراد عائلتي، معلقين على الأسئلة المحرجة والقاسية. وصلني أكثر من مائة رد فعل في الإنبوكس، أي في البريد الداخلي الخاص، واندهشت من أن الكثير من هذه الرسائل منشغلة بالأخلاقي أكثر من الكتابة نفسها ومشكلات السيرة التي تفرض على كاتبها صدقا استثنائيا، وممارسة لعبة الحقيقة المُرّة مع النفس. التعاليق تبدأ من كلمتين: *شكرا أستاذ. لماذا، كثير*؟ ثم تكبر لتصبح تعليقا قائما بذاته: *لم أكن أتصور أن الملاك صاحب اللمسة السحرية سيكون هو مينا التي جاءت من مكان لا يناسب امرأة في مقامها؟ ألم يكن من الممكن نزع هذا الفصل بعد فصل الأم والجدة وزوليخا والجد العظيم الذين أثروا فيك ؟ يا أستاذ هل لي أن أسالك سؤالا واحدا: لماذا اختيار هذا المكان؟ لماذا الماخور؟ أو سؤال: الم يكن من الممكن التقليل من التفاصيل الجنسية؟* إلى غير ذلك من الأسئلة التي تدور كلها حول موضوعة الأخلاق. الغريب أني تذكرت وأنا أقرأ نصوصا عالمية كثيرة وكلها من القرن التاسع عشر، وكأن الزمن الأخلاقي حالة مثبتة لا تتحرك؟ تذكرت محاكمة فلوبير عندما كان ينشر مدام بوفاري في حلقات مسلسلة في الجريدة وأوقف النشر بقرار من المدعي العام. السبب سب المجتمع والترويج للأخلاق السيئة من خلال تمجيد ما قامت به إيما بوفاري من آثام أخلاقية، ولا أحد سال طبعا عن التمزقات التي حصلت فيها بسبب الصدمة المكانية، ولا عن غباوة الزوج التي أخرجها من وسطها الفلاحي الطبيعي. تذكرت المسكينة آنا كارنين التي خلدها ليون تولستوي. السبب نفسه. كيف تخون زوجها. ولم يسأل أي أحد من سادة الأحكام الجاهزة، عن الكذبة التي صنعها الزوج ليحافظ على وجاهته ومنصبه في الحكومة. عندما أخبرته آنا كارنين بأنها تحب رجلا غيره وأنها تريد أن تتركه. رفض تطليقها. تذكرت هذه النصوص لأنها تضعنا في مواجهة إشكالية الأدبي والأخلاقي. كل أسئلة القراء التي احترمها وأقدرها واقدر صدقها وعفويتها، تدل عن قلق عميق في الحياة، وفي كل واحد منا حتى قبل النص أو الفصل المقروء. أتفهم طبعا كل الردود واضعها في عيني كيفما كانت، حتى تلك القاسية في نقدها واختلافها معي. لكني حتى لا أتركها مجرد ردود أفعال سرية أو هامشية، أناقشها لأنها في غاية الأهمية. فهي تطرح مشكلة موضوعية مهمة. هل على السيرة الذاتية أن تقول كل شيء أم عليها أن تتستر عن بعض ما تريد قوله؟ أي أن تأخذ بالملقط الدقيق القضايا الحساسة، بانتقاء الأقل ضررا لحساسية القارئ المحترف أو العادي. طبعا لكل نص خياراته وإستراتيجيته، لكني أومن أننا عندما نختار كتابة السيرة الذاتية علينا أن نقول الحقيقة التي نراها كذلك على الأقل. لهذا أنا مع فكرة أن يكون الكاتب صادقا مع نفسه حتى ولو اضطر إلى خسران بعض قرائه لأن رهان السيرة رهان ليس بالسهل أبدا. فهو يتعلق بذات تقبل أن تتقاسم مع القارئ بعض مساراتها الأكثر حميمية. وعندما أرى أن الجزء الثاني من سيرة الدكتور سهيل إدريس ما يزال مخطوطا وحبيس الأدراج، بعد أن تعرض لحملة قاسية إثر نشر الجزء الأول من سيرته، أتفهم جيدا مرارة الدكتور سهيل إدريس. فنحن أمام بنية أخلاقية يمر الذاتي دائما عبرها. ردود فعل قرائي أو بعضهم من الفصل الأخير من السيرة لم تكن رحيمة في مجملها. مع أني لا أتحدث في هذه السيرة إلا عن الشخصيات النسائية حبّا، أمي، زوليخة، ومينا، التي حددت علاقتي العاطفية بالمرأة وجعلتني أكثر ارتباطا بمأساتها الأرضية التي صنعها البشر قبل أن تصنعها الأديان. بل الأديان كانت أكثر تسامحا. رأيت كيف عانت أمي لتعيل أبناءها وتجعلهم يدرسون وفاء لزوجها. رأيت تمزقات قلبها وتشققات أصابعها ويديها من شدة الاشتغال في حقول الحصاد عند الآخرين. وسمعت كيف قتلت بنت خالي على يد أقرب شخص لها من أهلها بسبب تهمة أخلاقية مفترضة وغير موجودة. ورأيت وأنا طفل أختي زوليخا عندما حرمتها شرطيات الحياة القاسية من حق الحب الطبيعي. عبرت عن ذلك كما أحسسته تماما من خلال أصواتهم الحية. وقد أعجب ذلك القراء كثيرا وتعاطفوا بقوة مع بنت خالي ومع زوليخا ومع أمي. ولكنهم ترددوا كثيرا في قبول قصة مينا. المشكلة هو أن المآسي تتساوى في النهاية لأنها لا تنزل من السماء، ولكن يصنعها البشر. مينا لم تختر هذا الطريق، ولكن اختاره لها رجل خانها في صدقها وفي نبل عواطفه، وقتل طفولتها وعفويتها وحبها. وسيلاحظ القارئ الكريم ذلك بوضوح في الفصول اللاحقة. لم تختر مينا طريق الماخور لانه يسعدها؟ فهو رديف للموت اليومي. الموت المتخفي في كل الوجوه القادمة التي بها رائحة الدم في أنفاسها. خائفة من رعب الذبح الأكيد الذي يلاحقها. كان عمرها أقل من ١٧ سنة عندما أحبت ابن عمها. منحت لحبها كل شيء، بما في ذلك الجسد. وعندما حملت منه، تخلى عنها وخسر عليها جملة شديدة القسوة وهي التجلي الناصع للذكورة البائسة والمتخلفة: *من أدراني أن أكون أنا الأب الحقيقي لهذا الابن؟* هو يعرف جيدا أنه الأب، لكن الجبن عندما يصل إلى الأقاصي، لا قوة عقلانية تعيده إلى جادة الصواب. لهذا أستغرب حقيقة، كيف، بدل أن يلام الجلاد تلام الضحية؟ ماذا لو وجدت مينا بعض الرحمة في والدها أو في إخوتها؟ كل المصائر ستتغير. لن تضطر لتسقط بين أيدي تجار الموت البطيء. لم تكن مينا سعيدة في الماخور. تعرف جيدا أنها كانت تعيش يوما متكررا سيده الموت والذبح. تراقبه من أعالي الشرفة. لأنها تدرك أنه ليس بعيدا عن أنفاسها. مثل استشهاد والدي الذي اغتيل في ظروف غامضة، بلا قبر، لكني تحسست التراجيديا من شهادات، ممن كان معه. لا أعرف كيف انتهت مينا. كل ما عرفته من رامي ابن عمي، أنها خرجت يوما مع شخص ولم تعد أبدا. يقال إنها وجدت ممزقة ودفنها أهلها ليلا، ويقال إنها رميت للذئاب والكلاب الجائعة. أية إنسانية صنعت لها النهاية التي قالها النص من ميراث الأقوال التي سمعتها عنها. النهاية ستحكيها مينا بصوتها مثلما حكى والدي نهايته القاسية. لا أدري ما الذي ذكرني بمريم المجدلية؟ لكن الفرق الوحيد هو أنه لم يكن لمينا حظ مريم المجدلية التي أنقذها سيدنا المسيح عليه السلام، وغفر لها خطيئتها لتصبح من أتباعه، وكانت هي من شاهد صلبه، وسمعته ونقلت أخباره لبقية أتباعه بأنه لم يمت، وأنه سيقوم. وكانت بجانبه يوم قام بعد الصلب، في الدين المسيحي. فقد أخذت كمثال للتوبة. ما الفرق بنها وبين مينا من حيث الفعل الظالم والقاسي؟ لم تكن مينا تطلب شيئا سوى قلب يحبها ويعطيها قدرها ويحترمها ولا يضعها في زاوية المتهمة الأبدية. وجدت في الطفل الرحمة والحب والحنين والعطف الذي افتقدته في الكبار الذين ليست بالنسبة لهم أكثر من أداة للمتعة. وهو وجد فيها امرأة رحيمة ذكرته بسلسلة المظالم التي عاشتها عائلته. هل هذا ينقص من قيمتها؟ تحتاج مينا لقلب يرى الأشياء كما هي في الواقع، لا كما ترسمها العقليات الأخلاقية التي تجيز وترفض، وتقبل بحسب الحسابات الشخصية، مادية كانت أو معنوية. لو رجع كل واحد منّا إلى أعماقه بصدق وصفاء، وتأملها بحنان وبعطف ومحاولة فهم، لما التسرع في الحكم، وافترض نفسه في وضعيات شبيهة أو قريبة، لكان أقل قسوة في

عشتها كما اشتهتني، في الفيسبوك، بإشراف الدكتورة سهام شراد، أضعها كاملة في الهامش، لمن أراد أن يطلع عليها، أو يستفيد منها.

الأمر إذن لا يتعلق بتجربة عاطفية خارج المنظومة المجتمعية المتسيدة، فحسب، ولكن أيضا بمحتوى الكتابة ذاتها، وربما اللغة التي اختارت مسلكا شعريا داخليا، وأحيانا غنائيا.

ثم أخيرا وليس آخرا العمود الخامس الذي يشكله كاتب عظيم ميغيل دي سرفانتس، الذي لاقتني به صدفة الأقدار، التي كلما صفا ذهني، واسترجعت عقلي بعد دهشتي، احتضنتها اعترافا بجميلها. هو من جعلني أكتب بطريقة دون غيرها، وأشعر بقربي منه أدبيا أكثر من أية شخصية أخرى، من حيث المؤثرات الأدبية. سرفانتس منحني دون كيشوت لأقرأ مأساة الإنسان التائه بلا وجهة في زمن كان يموت وأخر ينشأ في عمق التكسرات والانهيارات، وأكون قريبا أيضا من تيه الموريسكيين الذين كنت أرى وراء فيالقهم اليائسة، أحزان جدي الروخو. لي مع سرفانتس قصة غريبة بدأت برفض لم أكن سببه، وانتهت بحب كبير لرجل وسم عصره وعاش على نفس التربة التي عشت عليها على مدار خمس سنوات. عاش في الجزائر في عز سنوات الحروب الدينية القاسية، في نهاية القرن السادس عشر، وعلى الرغم من مزالقه الصغيرة، التي يبررها هو نفسه بضغوطات محاكم التفتيش المقدس، ظل وفيا ومنتصرا للخير والإنسان. هذا الرجل الذي يتكرر في أغلبية أعمالي، هو أيضا من بين الثوابت الكتابية في عالمي الروائي مثل بقية الأساسيات والأعمدة التي ذكرتها في هذه السيرة.

الحكم عليها. الطفل أحبها لأنه أحس بشيء آخر لا يخرج عن فكرة الظلم الذي عاشه هو عن قرب ولهذا كان الأقدر على فهمها. مع أنه لم يختر الطريق نحوه ولكن قدرا غريبا قاد الطفل نحوها، كانت أداته ابن عمه رامي. الإنسان ظل حيّا ابدا في مينا، وظلت هي تقاوم لكي لا يموت فيها، على العكس من المومسات الأخريات. لم يمت، لهذا قتلت حتى يموت معها. أدهى شيء هو أن يقتل الإنسان فينا ونتحول إلى آلات تحكم بقسوة، بل وتقتل، وننسى أننا معرضون في حياتنا لهزات تجعلنا نتأمل بتسامح وتفهم لمآسي غيرنا من الناس، ونضع الأخلاق جانبا للحظات ونتعمق الإنسان بقوته وضعفه. ما قمت به في هذا الفصل والفصول التي تلت ليس أكثر من رفض مستميت لكي لا يموت الإنسان الذي رأيته في عيني مينا، ذات يوم بين حقول اللوز في أحواز تلمسان، في يوم ممطر جدا. رأيته في قبلها خارج المكان الذي كان يقتلها كل يوم مئات المرات. لكن أعرف اليوم وأنا أستعيد بحب جرحا داميا وظلما مستبدا، بلا بوابات للرحمة، أن من لا حظ له لا قيامة له. ومينا لم يكن لها أي حظ سوى فسحة لقاء صغير مارست فيه عبثا طفوليا لم يدم طويلا، قبل أن يبتلعها ظلام قاس في مدينة، عفوا في بلاد، العفو في أرض واسعة وحارقة، كالكراهية، والضغينة، سيدها الكذب، والنفاق المعمّم الذي أصبح قانونا.

طبعا، كان عليّ أن أجد حاضنة لهذه الأعمدة داخل السيرة، لكتابتها بشكل غير منفر يقود الذات إلى الاستراحة لأوهامها، والتعملق الفارغ، كما تعودنا في السير الذاتية. أبطالي الذين شكلوا أعمدة السيرة كلهم ماتوا اليوم، آخرهم ميما أميزار، وكان عليّ أن أجد الوسيلة الأدبية والثقافية وحتى الميثولوجية التي توصلني بهم لكي يصبح فعل الكتابة مستساغا ومقبولا أدبيا. وجدت في عملية الانتقال من الأرض إلى السماء بالوسيط المعراجي وسيلتي الأدبية الحيوية التي تجعل من اللقاء بالأموات ومحادثتهم أمرا ممكنا، بل عاديا، لأنه مبرر في ثقافتنا. اخترت المعراج لأرحل نحوهم محملا بشطط عصري وانشغالاتي، كما اختاره أبو العلاء المعري لتبرير ذوقه وخياراته الشعرية، والشيخ الأكبر ابن عربي لتوصيف داخله المتحول وكشفه عن المستور، ودانتي في بحثه عن الجوهر الوجودي من خلال قصيدة تقاسمتها العناوين المحطات الثلاثة: جهنم Inferno ، البرزخ Purgatorio والجنة Paradisio، حيث يقص الشاعر رحلته داخل هذه العوالم السحرية ورؤيته للقرون الوسطى المحكومة بعنف الكنيسة الكاثوليكية الرومانية.

ثقافة الغيب بالمعنى الأنثروبولوجي، هي جزء من الثقافة الميثولوجية النائمة في أعماق كل واحد منا، والتي كسرتها خطية الأديان لأنها أضفت عليها طابع القداسة. استفدت منها كثيرا في هذه السيرة لخلق مساحات من التخييل الثقافي الذي تحولت إلى حاضنة أدبية حقيقية لهذا السرد السيري. السيرة ليست تنضيد معلومات فردية ولكنه فعل جمالي أيضا وإلا ما الفرق بينها وبين التاريخ؟

لا أريد أن أقول كل شيء، للقارئ حقه في اكتشاف خفايا وسحر وأسرار الأشياء في لحظة قراءتها والتوغل في النص. لكني كتبت هذه السيرة بقلبي، وأيضا بكل حواسي الحية التي ترفض أن تستسلم لسلطان الوقت، وبكل ما ملكت من قوة وإيمان بأن الحياة تظل السيدة، وقد وُجِدت لتعاش وبالشكل الذي يليق بها وبنا لنسم عصرنا، لا بالعظمة الوهمية، ولكن بلمسة العاشق الذي مر من هذه الدنيا، ولم يطلب منها الشيء الكثير سوى أن يكون هو. هو كما اشتهى أن يكون.

ها قد أصبحت سيرة: *عشتها كما اشتهتني* حقيقة. سلام لكل من كانت أنامله من خير ونور.

تفكيري الآن يذهب نحو زوجتي، الشاعرة الدكتورة **زينب الأعوج**، التي اختارت، لأول مرة، أن لا تكون قارئتي الأولى، وفضّلت الابتعاد عن هذا النص السيري تحديدا، حتى لا يكون تحت ثقل أية ملاحظة ذاتية، وأي تأثير خارجي قد يحرفه عن مسلكه، واختارت قراءته مع كل القراء يوم صدوره.

أشكر أيضا السيدتين الرائعتين، اللتين بذلتا من الجهد الكثير، لجعل هذه السيرة مرئية حتى قبل نشرها الرسمي: ***الدكتورة سهام شراد*** على المتابعة والإشراف وتحضير المادة الأدبية. أدين لقلبها الكبير ولصبرها بالكثير. فقد أنشأت صفحة سيرية فيسبوكية خاصة وجميلة: ***عشتها كما اشتهتني***، تابعتها وتتابعها إلى اليوم بكل الصبر والتأني والتجديد الممكن. ساعدتها في ذلك، صديقتها من الأردن، ***رندة عبيسي***، بالخصوص في الجانب الإيقوني الذي صاحب نشر بعض فصول السيرة على صفحات الفيسبوك، فهوّى كثيرا النصوص الطويلة بصُوَر ذكية وخلاقة، شخصية أو للأمكنة أو فيديوهات ملتصقة بالسيرة، هي في النهاية ثقافة مضافة للقارئ. لم أتدخل أبدا في مسار الصفحة، ولم أوجهها أبدا لأنها حق كامل لمنشئتها. كنت أدخلها كأي صديق يعلق أو يرد على التعاليق. أنحني لهما بحب، على كل الجهود الكبيرة التي بُذِلت لتكون السيرة مساحة للثقافة والفن والفرح والسجال.

لا أنسى الجهد الذي خصّصته للسيرة الزميلتان الجامعيتان، بالمتابعة والتأمل والنقاش والسجال الثقافي المثمر، الصديقة الغالية ***الدكتورة رزان إبراهيم***، أستاذة النقد بجامعة البترا بعمان، الأردن، التي كانت حاضرة بسجاليتها النقدية القيمة، في معظم حلقات السيرة. وقد دارت بيني وبينها نقاشات طويلة أتمنى أن تُجمع يوما ما بين دفتي كتاب ليستفيد منها، ولو قليلا، المهتمون بموضوعة السيرة الذاتية. لقد كات حاضرة باستمرار بشكل إيجابي جدا حتى من موقع الاختلاف النقدي والفكر والتأملي. والدكتورة ***جون ضاحي***، الأستاذة بجامعة كوبنهاجن، ومترجمتي إلى اللغة الدانماركية، التي لم تدخر جهدا في المتابعة والاقتراب من النص بوسائلها النقدية المميزة، وبإنسانيتها الكبيرة، على الرغم من انشغالاتها المهنية والحياتية. تابعت السيرة بجدية عالية وتدخلت في العديد من المرات، مبدية رأيها بدقة وبلا مجاملة، من موقع القارئة المتذوقة

والمتخصصة أيضا، وأضافت للجدل حول السيرة الذاتية الكثير مما ادخرته من ثقافتها الغربية التي منحتنا صورة أخرى عن مفهوم السيرة وحرية الكتابة. شكرا لهما مرة أخرى من القلب.

شيء آخر يجب أن لا يمر بدون التوقف عنده ولو قليلا. لا أنسى أبدا أكثر من عشرة آلاف قارئ الذين انتسبوا بحب وحرية لصفحة *عشتها كما اشتهتني*، المتخصصة، أو أحبّوها، وهذا قليلا ما يحدث بهذه الكثافة. في مواقع التواصل الاجتماعي هناك هيمنة للسهل والمختصر، وكلما كان النص مختصا وطويلا، ولو قليلا، ابتعد عنه القراء. فقد ظلّ الكثير منهم أوفياء للصفحة بالمتابعة والتعليق حتى آخر حلقة منها، وما يزالون مستمرين في حضورهم البهي والرائع حتّى اليوم. لهم الشكر الكبير أملا أن تكون السيرة قد منحتهم بعض الحب وقيم الخير والمصالحة مع الذات وتأمل الحياة في غناها وبعض جنونها الذي لا يتوقف دائما عند حافة حياة صعبة وعصر عسير لا ندري ما يخبئه لنا، وربما ندري ولا نريد أن نرى المشهدية القاسية: التمزقات والتقتيل الجماعي وأفول دول بكاملها وقليلا من الأمل الهارب، كلما ركضنا نحوه هرب قليلا وتأملنا بسخرية ونحن نكاد نختنق من شدة ضيق الأنفاس لأننا ندرك سلفا أنه لا رهان في الأخير إلا رهان الحياة.

السيرة، والسيرة الذاتية تحديدا، إذا كانت في النهاية، صراحة شديدة القسوة على كاتبها قبل قارئها، فهي ليست أسرارا يتم الكشف عنها بشجاعة تثير شهية القراء والنقاد على حدّ سواء، وفضح خفايا النفس وعرض الحميمي أمام الآخرين بشكل استعراضي، لإرضاء ذات خاصة وعامة، قلقة وربما مريضة، لكنها فرصة قد تتاح مرة واحدة في العمر، للانتصار لهذه الذات التي مرت عبر تجارب حياتية فيها من الجمال والمخاطر ما يستدعي تدوينها، لكنها لا تشكل أبدا درسا نموذجيا للآخرين لأنه لكل فرد مساره الذي قد يكون أبهى مما رويت، وأجرأ مما أسررت، وأنبل مما حكيت. هي مجرد محاولة انتساب للحرية والحب والنور، ولكل ما يمنحنا فرصة البحث عن معنى لعبورنا كالنيازك في سماوات هذه الدنيا قبل التحول إلى رماد، واختبار مدى استحقاقنا لحياة ليست دائما سهلة أو متاحة. امتحان قاس، لكنه شديد البهاء ويستحقّ أن نعيشه ونصابُ بدواره.

باريس 08-08-2014

الفهرس

IV- القدّيسة مينا

الشياطين تغيّر جلدها أيضاً

1- السّير نحو شجرة الخلد
2- غفوة حمام الوردة
3- شدّني إليك كما يشدّ الله قوسه
4- مَن منكم بلا خطيئة؟
5- شجر اللوز يذبل أيضا
6- لماذا تركتَني وحيدا؟
7- ما قتلوكِ... وما صلبوكِ

V- حبِيبي سرفانتس

يوم استيقظ دون كيشوت تحت جلدي

1- مسلك الطير
2- كلما رأيتَني، هربتَ بعيدا
3- حبّي لها أسبق من حرّيتي
4- رجع مزدوجٍ لصوتٍ واحد
5- أسير الصدفة، محظوظ القدر

VI- مسلك التماهي

عودة المعراج إلى سحر الكتاب

1- ربِّ أرِني كيف تحيي الموتى
2- لستَ أنت من يسالني؟
3- في عتمة المُشتهَى
4- تلك التي اشتهتني... عشتها

بعض ما خفي من سيرة المُنْتهى

عشتها كما اشتهتني

Postface

تنويه:

نشرت الصيغة الأولى من هذه الرواية السّيريّة الكترونيا بالتزامن مع كتابتها على مدار ستة أشهر بمعدل فصل كل أسبوع و ذلك من خلال صفحة الفيسبوك التي تحمل نفس الاسم:

"واسيني الأعرج. سيرة المنتهى/عشتها كما اشتهتني"

فشكرا للأستاذ واسيني الأعرج الذي وافق على خوض هذه التجربة الجميلة و تحمل تبعاتها من التزام بموعد النشر الأسبوعي و الرد على المتدخلين و إثراء الصفحة من خلال المشاركة في سجالات نقدية و ثقافية حول الكتابة السيرية رغم وقته الضيق و أسفاره الكثيرة و كذا تكرمه بفتح ألبوماته وأرشيفه أمام القراء مسهلا علينا محاولة التوثيق المتواضعة التي حاولنا القيام بها تماشيا مع طبيعة النص المنشور و التي شملت خاصة مراحل شبابه و طفولته الأولى, الكثير من الصور رآها القراء لأول مرة على هذه الصفحة.

قبل أن يكتمل الكتاب و ينشر ورقيا في عدد من الطبعات:

- طبعة جزائرية عن دار بغدادي (نوفمبر2014)
- طبعة ثانية مرفقة بمجلة دبي الثقافية عدد (نوفمبر 2014)
- طبعة عربية صادرة عن دار الآداب البيروتية يتبرع الكاتب بمداخيلها للاطفال المرضى بالسرطان (ديسمبر2014)
- طبعة فلسطينية صادرة عن دار الاهلية وقعها الروائي واسيني الاعرج في ثلاث مدن فلسطينية : رام الله، القدس و طولكرم و تبرع بمداخليها لدعم أدب صندوق أدب الأسرى الذي يتولى نشر مخطوطات الأسرى الفلسطينيين في سجون المحتل الصهيوني (أفريل 2015)

شاركونا بآرائكم، قراءاتكم و اقتراحاتكم و تواصلوا مع الكاتب من خلال صفحة:

"واسيني الأعرج. سيرة المنتهى/عشتها كما اشتهتني"